إتوري روسي



ليبيا

منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١

ترجمة وتقديم
خليفة محمد التليسي

توزيع
الدار العربية للكتاب

ليبيا

مُنْذ الفَتْح العَرَبيّ حتى سَنة ١٩١١

ETTORE ROSSI

STORIA DI TRIPOLI
E DELLA TRIPOLITANIA
DALLA CONQUISTA ARABA AL 1911

رقم الايداع

٩١ ـ ١٠١٨

الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م

الطبعة الثانية ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م

تقـديم

خليفة محمد التليسي

ليست هذه المرة الأولى التي ألتقي فيهـا بأعـمال المؤرخ الايطالي المعـروف (إتّوري روسّي). فقد سبق أن قرأت له، ونقلت عنه إلى العربية دراسته المـركزة القيمـة ـ (طرابلس تحت حكم الاسبـان وفرسـان مالـطا التي كان لـه فيهـا، بـلا مراء، فضل الريادة في الضرب في مجاهل هذه الفترة الغامضة من تـاريخ ليبيـا، ووضـع هذه الفـترة الهـامـة في إطـارهـا التـاريخي من أحـداث العصر التي كـانت تعصف بشرقي البحر الأبيض المتوسط وغربيه، عقب انحسار المد الصليبي عن الأراضي المقدسة ثم انحسار المد الاسلامي عن الأندلس، وبروز العثمانيين كقوة إسلامية بحرية كبرى في هذا البحر، وظهور الإسبان كقوة منـاوئة لهـذه الحركـة الإسلامية الجديدة. وبالجملة فقد كان كتابه هذا الصغـير فتحاً في هـذا المجال. وما يزال حتى الآن المرجع الوحيد الذي يشير بإيجازه وتركيزه إلى الآفاق الواسعة التي تنتظر الباحثـين والدارسـين والمهتمين بهـذه الفترة الهـامة من تـاريخ البحـر الأبيض المتوسط والصراع حوله.

ليست هـذه إذن المـرة الأولى التي ألتقي بهـا مـع القـاريء حـول إنتـاج هـذا الرجـل العالم المـدقق ودراسـاتـه. ولكنهـا المـرة الأولى التي نلتقي فيهـا عـلى أضخم عمل قدمه إلى المكتبة التاريخية، وأوفى دراسـة عن هذه الحقبـة التي تمتد من الفتح الاسلامي حتى سنة ١٩١١. وليس من المدح أو الاطـراء أن يقال عن هذه الدراسة إنها أضخم دراسة عـرفتها المكتبـة التاريخيـة عن ليبيا ـ حتى الآن ـ من حيث استيعابها واشتمالها على هذه الفترة الزمنية الطُويلة. لقد عرفت المكتبـة التـاريخية الليبيـة كتباً مختلفـة متنوعـة، في مختلف اللغات، تنـاولت حقباً وفـترات

مختلفة محددة من هذا التاريخ، ولكنها لم تعرف عملاً في هذا الشمول والاتساع إلا في كتب قليلة معدودة.

ويبقى هذا الكتاب متميزاً بصلته المباشرة بالمصادر التاريخية العربية التي اعتمد عليها فيما يتصل بكافة الفترات الإسلامية. كما يتميز كتاب روسي بدقته وأسلوبه العلمي المنهجي، وباستيفائه لكافة الفترات.

ولا بد من السؤال... من هو إتوري روسّي؟ وما هي صلته بليبيا حتى يكتب عنها هذا التاريخ الشامل، وحتى يتفرغ لهذه الفترة الطويلة يوسعها بحثاً ودراسة وتنقيباً، ويعود إلينا بهذه الحصيلة الوافرة من المعلومات المنهجية المنظمة؟.

إتوري روسي.. هو أحد كبار رجال الاستشراق الإيطالي في العصر الحديث وأحد أعلامه البارزين الذين عرفوا بدراستهم العميقة الجادة واطلاعهم الواسع على تراث اللغتين العربية والتركية، بالإضافة إلى متابعة دقيقة واعية لجهود رجال الاستشراق في اللغات الأخرى، خاصة الفرنسية والانجليزية والإسبانية.

ولد إتوري روسي سنة ١٨٩٤، وتوفي سنة ١٩٥٥. وقد عمل أستاذاً للأدب العربي في جامعة روما، ثم مديراً للمعهد الشرقي ومشرفاً على مجلته المعروفة باسم «الشرق الحديث». وقد كتب كثيراً من الدراسات الأدبية والتاريخية عن العالم العربي والإسلامي، خص ليبيا بالجزء الأكبر والأهم منها، فساهم بذلك مساهمة مشكورة طيبة في إلقاء الأضواء على الفترات المجهولة من تاريخها، خاصة ما اتصل منه بالتاريخ الأوروبي الحديث والفترات التي ارتبط فيها تاريخنا أو اتصل بالصراع الأوروبي الاسلامي على البحر الأبيض المتوسط، منذ أن أخرج المسلمون من إسبانيا وخرج الصليبيون من آخر معاقلهم بالشرق (جزيرة رودس) ليتخذوا من مالطا بعد ذلك مركزاً لمواجهة المد الاسلامي الجديد نحو الغرب.

وفي هذا المجال تكتسب دراسات إتّوري روسّي جدة وتسجل ريادة لا مجال للجدال فيها.

وما من شك في أن هذه الدراسة تكشف عن الأهمية التي احتلتها بلادنا، ومدينة طرابلس خاصة، في أحداث ذلك العصر. وهو الأمر الذي يتضح من ارتداد الموجات الأجنبية عليها سواء تمثلت في الغزوات النورمانية أو الإسبانية أو غزوات فرسان مالطا أو الحملات التي ظهرت في العصور التالية، وتتابعت أحداثها وتلاحقت حتى أدت إلى وقوع هذه البلاد في قبضة الاستعمار الحديث الذي لم يكن في واقعه التاريخي إلا امتداداً تاريخياً لذلك الصراع الذي استحكم بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط منذ أقدم العصور.

صلة هذا المؤلف بليبيا ترقى إلى سنة ١٩١٥. وهي من السنوات الحاسمة في تاريخ الاستعمار الايطالي بليبيا. وقد كان من آثار النكبات التي حلّت بهذا الاستعمار في تلك السنة ظهور الرغبة في تلافي النقص السياسي ومراجعة الخطط والأساليب وسد النقص في الدراسات التاريخية والاجتماعية والبشرية والجغرافية.

وكان اتقان روسي للغتين العربية والتركية من الأسباب التي مهدت له سبيل المشاركة العلمية في هذا المجال. فانصرف بجدية علمية إلى ترجمة كتاب ابن غلبون (التذكار في من ملك طرابلس من الأخيار) ولعلها الترجمة الوحيدة التي تتميز بأمانتها وسلامة تحقيقها، ضمن الترجمات المختلفة والتلخيصات التي تعرض لها هذا العمل التاريخي. وقدم روسي للترجمة بمقدمة ممتازة ترجم فيها للمؤلف وعرض لمؤلفه وأسلوبه وأهميته. وما تزال هذه المقدمة من أهم المصادر التي ينبغي العودة إليها عند الحديث عن ابن غلبون ومؤلفه.

ويبدو لي أن صلة روسي بتاريخ ليبيا وطرابلس بصفة خاصة إنما انطلقت - أو تعمّقت - من اتصاله بهذا الأثر الذي أفاد منه المؤلف فائدة كبيرة بالنسبة للفترات الأخيرة من العهد العثماني الأول والعهد القرمانللي. فقد كان ابن غلبون مصدره العربي الوحيد عن هذه الفترة التي أضاف إليها العرض التاريخي المتعلق بصلاتها بالدول الأوروبية، فكمل بذلك الصورة التاريخية لذلك العهد، وقدمه إلينا في إطار العلاقات العامة التي كانت تسوده، مبيّناً أثره فيها، وتفاعله بها.

وفي سنة ١٩٢٢ أعلن الكونت (جوسبي فولبي) والي طرابلس الغرب حينذاك، عن مسابقة لتأليف كتاب عن تاريخ طرابلس وطرابلس الغرب. فاشترك روسي في هذه المسابقة وفاز بالجائزة. ولكنه لم يطبع مؤلفه الذي ظل يعاوده بالمراجعة والتنقيح والإضافة والتوسع حتى مات عنه دون أن ينعم ببهجة نشره. فهو من هذه الناحية كتاب العمر، أو كتاب حياته الذي استمر في صحبته مدة طويلة. وذلك أمر يتضح للقارىء من خلال ضخامة المجهود الذي يعبر عنه هذا الكتاب، والذي جعله مرجعاً فريداً هاماً بين المراجع التي اهتمت بتاريخ ليبيا.

وقد ارتبط روسي بالبلاد وشغف بتاريخها. وأقام بها فترات أثناء الاحتلال في الخدمة العسكرية ثم المدنية، وظل على صلته بها حتى بعد الاستقلال، حيث زارها أكثر من مرة، واستعانت به مصلحة الآثار في ضبط بعض المنقوشات والشواهد الأثرية الإسلامية وتحقيقها.

وينعكس شغف المؤلف بتاريخ ليبيا في هذا التكريس الجاد للاحاطة به في مختلف العهود. وفي تلك النظرة الموضوعية الهادئة التي نفتقدها لدى كثير من المستشرقين الذين يلونون دراساتهم في الغالب بعواطفهم واتجاهاتهم. ولا نكاد نلمح ظهور مثل هذه النزعات لدى روسي إلا في حالات قليلة، وبالدرجة التي لا نسلم منها جميعاً حين نتناول أي تاريخ. ومع ذلك فقد كان روسي موضوعياً إلى أقصى ما يمكن أن توفره له المصادر التي اعتمد عليها.

وقد اعتمد المؤلف على المصادر العربية الإسلامية بالنسبة للفترات الأولى من العهود. الإسلامية، سواء كانت في أصلها العربي أو مترجمة إلى اللغات الأجنبية. وتبرز في مراجعه عن هذه الفترة كتب ابن عبد الحكم وابن الأثير وابن خلدون وابن عذاري والتجاني والقيرواني والزركشي وابن أبي دينار وابن الأبّار وابن غلبون والنائب والشماخي وغيرهم. وقد بذل المؤلف جهداً واضحاً في الاستعانة بكافة المصادر، ورحل لأكثر من مكان للحصول على المصادر، كما

فعل في دراساته عن الفترة الخاصة بالإسبان وفرسان مالطا. ورجع إلى المحفوظات التركية في تركيا وطرابلس وتصفح وثائق القنصليات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والدويلات الإيطالية، فأتيح له بذلك أن يسلط أضواء جديدة على هذه الفترات وأن يفتح آفاقاً للبحث تفيد الراغب في الاستزادة والتوسع.

اقتنيت هذا الكتاب فور صدوره، وتلقيت بعد فترة من ذلك نسخة منه، هدية من معهد الشرق بروما وهو الذي قام بإصدار هذا الكتاب في سنة ١٩٦٨. وما كدت أفرغ من قراءته حتى عقدت العزم على ترجمته، وباشرت الترجمة فعلاً، ثم فكرت في أن استأذن معهد الشرق في نشر الترجمة وخاطبته في ذلك فعلاً، ولكنني لم أتلق أي رد منه. وترددت في الاستمرار في الترجمة، وانقطعت عنها حيناً، ثم غلبتني الرغبة في إبراز هذا العمل والسعي للتنويه بجهد صاحبه. وما من شك في أن نقل هذا العمل إلى اللغة العربية يحقق خدمة علمية حرص عليها المؤلف نفسه، تساهم في التعريف بجهده وإحلاله المكان الذي يستحقه بين الدراسين الغربيين المعنيين بتاريخ العرب القديم والحديث.

وما أراني في حاجة إلى التأكيد على الجهد المبذول في ترجمة هذا الكتاب، فهو كما يرى القارىء من الكتب الأكاديمية، وليس من كتب الانطباعات والمذكرات والذكريات والرحلات. إنه دراسة تاريخية جادة، كلفتني جهداً في الترجمة، واقتضتني في كثير من الحالات الرجوع إلى المصادر العربية التي اعتمد عليها المؤلف للتأكد من صحة نقوله، وفهمه للنص. وقد حرصت في كثير من الحالات على أن أنقل عن النص الأصلي بدلاً من ترجمته كما فعلت مع النصوص المنقولة عن ابن خلدون وابن الأثير والتجاني وابن غلبون والشماخي والتمكروتي وغيرهم ممن تهيأ لي الرجوع إلى مصادرهم.

وإذا كانت الفصول الخاصة بالفتح الاسلامي والفترات التي أعقبته لا

تضيف أشياء جديدة كل الجدة للقارىء العربي، إلا أن الفصول التالية التي تبدأ من الغزو النورماني لطرابلس واحتلال الإسبان، وتسليمهم لها إلى فرسان مالطا وعلاقة البحرية العثمانية الإسلامية، بالصراع البحري على البحر الأبيض المتوسط وعرضه للعهدين القرمانللي، والعثماني، تشكل إضافة غنية سخية حقاً، وتفتح سبلاً ودروباً للبحث في هذا المجال، وتضعنا أمام صورة موسوعية شاملة عن هذه العهود في علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية والدبلوماسية.

ولا أريد أن أثقل على القارىء باستعراض فصول هذا الكتاب، ومناقشة أحكام المؤلف على الوقائع والأشخاص وتفسيره للأحداث والمواقف. فهو يقدم إلينا تاريخنا كما يراه باحث وعالم أجنبي. وهو بالطبع يشف في بعض الحالات عن وجهة نظر خاصة وليس من حقنا أن نطالب الباحث بأن يتخلى عن وجهة نظره، أو يروي الأخبار والوقائع بالطريقة التي تروق لنا. وقد سبق أن قلت في تقديم كتاب (طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا) (. . . إن نظرة الآخر على ما بها من عداء وتحيز كثيراً ما تكون وسيلة من وسائل اكتشاف الذات، بل إن ما يظهر في بعض الدراسات من عداء وتحيز إنما يعبر عن إيجابية المواقف التي يمثلها هذا التاريخ لدى الذين يعادونه أو يتحيزون ضده).

على أن الإنصاف يقتضينا أن نؤكد هنا أن روسي كان من أقل المؤرخين الأجانب انسياقاً وراء الأحكام الانفعالية المرتجلة المغرضة. ويتضح ذلك لنا في حكمه هذا الذي يسجله عن القرصنة يقول فيه (لم تدخل القرصنة إلى سواحل الشمال الإفريقي في القرن السادس عشر على أيدي القراصنة المشهورين من أمثال خير الدين بربروس ودرغوث، بل كانت قديمة قدم الحروب البشرية. وكانت شائعة موجودة في العصور القديمة. وقد تصاعدت عند سواحل ليبيا والبحر الأبيض المتوسط في العهد الروماني والعهود التالية له. وحين تحكم العرب في السواحل الإفريقية أنشأوا قواعد للغزو والإغارة على الجزر والبلدان المسيحية، ورغم الصلح واتفاقيات الصداقة والاتفاقيات

التجارية مع الدول البحرية المسيحية فقد استمرت الحروب بين الطرفين أحقاباً طويلة، متخذة شكل نشاط قرصاني. ولم تكن القرصنة ميزة قاصرة على العرب. ولكنها مورست بنفس الحمية والاندفاع من قبل البحرية المسيحية. ولم تكن تختلف عنها بشيء سوى أنها ـ أي الحملات المسيحية ـ كانت أكثر تنظيماً، في جميع الحالات باعتبارها إرهاصاً وتمهيداً للحملات الصليبية. وهي معروفة بأكثر مما هي معروفة الغزوات العربية غير المنظمة. وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الأوضاع شيوع السبي والاسترقاق. ولم تكن ثمة قواعد حقيقية من الحقوق والأعراف الدولية، في عالم منقسم بخلافاته الدينية مثل ذلك العالم المعروف في القرون الوسطى. فإن أسرى الحرب أو المخطوفين كانوا يعتبرون لدى الطرفين من الخدم المقيدين المغلولين الملزمين باداء أشق الأعمال وأقساها والتجديف فوق ظهور السفن الكبيرة. ونتج عن ذلك وجود أرقاء مسيحيين يتعذبون في بلدان الشمال الإفريقي، ووجود أرقاء مسلمين يقاسون في البلدان الأوروبية. ويحدث من حين إلى آخر تبادل الأرقاء واستخلاصهم بين الطرفين، ولكن ذلك كان محكوماً برغبة أصحاب الرق وتقديرهم).

غير أن هذه الموضوعية التي تتسم بها هذه المعالجة تجافي المؤلف وتجانبه حين يتحدث عن المشاعر التي سادت المنطقة، عقب سقوط الجزائر ثم تونس في أيدي الاستعمار وتحفز الدول الأوروبية للإتيان على البقية الباقية من الشعوب العربية الإسلامية، وما أثاره هذا التحفز من ردود فعل لدى العرب، ومن مشاعر عدائية دفاعية، لا يمكن تفسيرها بمجرد التعصب، دون ردها إلى واقع تلك الفترة، باعتبارها نوعاً من الدفاع ضد الأخطار المحدقة بالمنطقة. وعذره في ذلك أنه يعتمد على وثائق وتقارير لونها القناصل بمشاعرهم الذاتية ومواقف الدول التي يمثلونها واتجاهاتها، وغاب عنه الوجه الثاني الذي لا يبدو إلا من خلال التوثيق الوطني المعدوم.

ولقد قص علينا المؤلف في مقدمته ظروف تأليف هذا الكتاب، وعرض لبيان مصادره. كما أضافت الاستاذة (ماريا نالليno) بعض المعلومات المفيدة عن الظروف التي أحاطت بنشر هذا الكتاب، عقب وفاة مؤلفه.

وبعد، فهذه نظرة الآخر إلى تاريخنا، إذا لم تكن لهـا من فائـدة إلا أن تثير في أنفسنا الرغبة في أن نكتب تاريخنا كما نراه، فقد حققت الهدف الذي تـوخيناه من هذه الترجمة التي كرسنا لها وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً، على أمـل أن ينتفع بهـا الناس، وتلقى ما تستحقه من تنويه وتقدير لدى العـارفين والمنصفـين من رجال العلم وطلابه.

والله من وراء القصد

٩ ابريل ١٩٧٣
طرابلس ليبيا

خليفة محمد التليسي

تقديم

يسر معهد الشرق أن يتمكن أخيراً من نشر هذه الدراسة التاريخية (طرابلس وطرابلس الغرب منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١) التي تركها المرحوم، المدير العلمي للمعهد، دون نشر. والتي يرقى تأليفها إلى ما يقرب من أربعين سنة خلت.

ولقد حرص فعلاً، أثناء إقامته بطرابلس كمترجم لدى حكومتها خلال الفترة ١٩٢٠ - ١٩٢٢، على الانصراف إلى البحث الدؤوب في المحفوظات والمصادر العربية المخطوطة والمنشورة حتى وفق إلى جمع مادة صالحة لتأليف كتابه (طرابلس وطرابلس الغرب منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١). وقد استفاد من هذه المادة التي جمعها في تأليف هذا العمل التاريخي الهام الذي تقدم به إلى مسابقة كان قد أجراها والي طرابلس الغرب، آنذاك، الكونت جوسبي فولبي. وقد فاز روسي بالجائزة، ولكنه لم ينشر تلك الدراسة المتسرعة. وقد قام بمراجعتها في الأعوام التالية حتى انتهت إلى هذا التصنيف الذي فرغ منه منذ سنة ١٩٢٨، إذ أعلن في تلك السنة، في معرض تعقيبه في مجلة (الشرق الحديث) الإيطالية على كتاب (حوليات طرابلس) لفيرود، قائلاً (يسر كاتب التعقيب أن يعلن بأنه قد قطع شوطاً طيباً وأوشك على الفراغ من تأليف تاريخ عام لطرابلس الغرب، كان قد انصرف إليه منذ أعوام) ولا ريب في أن إنجاز هذا العمل لم يتأخر عن ذلك كثيراً. ثم صرفته عن هذا الكتاب أعمال أخرى، وشغلته اهتمامات مختلفة. فترك هذا التأليف جانباً، ولكنه ظل على رغبته في إجراء المزيد من البحث والدراسة، وكان يعود من حين إلى آخر إلى

هذا العمل الذي كان من إنجازات شبابه. وقد وجدت بعد وفاته تصحيحات وإضافات خطية متفرقة أجريت على النص في فترات مختلفة. وقد فكر في آخر أيامه في طبع هذا الكتاب ـ وكما يبدو ـ فإنه استأنف العمل فيه، على أمل الفراغ من إتمامه وإكماله، بعد أن تعلق به طوال حياته.

لقد قلت (إكمال)، ذلك لأن الصيغة التي تركها للكتاب لم تكن نهائية، ففي كثير من الحالات كانت نقوله في النصوص ناقصة أو بيضاء، وفي حالات أخرى كان النص متسرعاً، ومع ذلك فلم يمهله الموت حتى يراجع عمله ويتمه. ولكن الكتاب، حتى بشكله الذي تركه المؤلف، كتاب مهم حقاً. إذ لا يوجد في أية لغة تاريخ كامل لطرابلس الغرب، خلال العهود العربية التركية. توجد فقط تواريخ جزئية. مثل الفترة القرمانللية. وليس ثمة حالة أفاد فيها المؤلفون من المصادر العربية مباشرة أو رجعوا إلى الوثائق المحفوظة. وكما سبق القول فقد انقضت أربعون سنة بين تأليف هذا الكتاب ونشره. وقد نشرت خلال هذه الأعوام مطبوعات جديدة لها علاقة، بوجه من الوجوه، بتاريخ طرابلس الغرب، وفي مثل هذه الحالات ـ وهي قليلة في الواقع ـ يمكن إعطاء تفسير مختلف للأحداث. ولكن هل كان من الملائم مس (النص) الذي تركه (روسي) أم تركه على النحو الذي حرره به؟ لقد فضلت الالتزام بالجانب الثاني. عدا حالات نادرة كان التصحيح فيها أمراً لا مفر منه. لقد تركت النص دون تغيير، ولكنني حققت تقريباً جميع نصوص الهوامش مكملة الناقص منها، ومحررة أيضاً الهوامش الناقصة، وأشرت بين قوسين إلى مصادر لم يفد منها روسي لأنها خرجت بعد تأليف هذا الكتاب.

اعتمد روسي على طبعة قاهرية لتاريخ ابن الأثير، واعتمدت أنا على طبعة (تورنبرج). أما بخصوص تاريخ (ابن غلبون) ورحلة (التجاني) اللتين اعتمد عليهما (روسي) فقد أشرت في النصوص المنقولة عن تاريخ ابن غلبون إلى الترجمة التي قام بها روسي نفسه لذلك المصدر إلى اللغة الإيطالية، واعتمدت في نصوص رحلة التجاني على الطبعة التونسية ١٩٥٨. وتركت دون تغيير، ما

أورده المؤلف من نصوص المكتبة الصقلية العربية التي جمعها (أماري) حتى في الحالات التي يعتمد فيها روسي على الترجمة دون النص الأصلي.

نشر المؤلف فصلين من هذا الكتاب، الأول بعنوان (سيادة الإسبان وفرسان مالطا على طرابلس ١٥٣٠ - ١٥٥١) وقد خرج في كتاب مستقل أصدرته (أنترا) في سنة ١٩٤٢ وهو يختلف نوعاً عن النص الذي خلفه المؤلف وقد التزمت بالنص الأخير(*).

أما الفصل الثاني فهو (العهد العثماني الثاني بطرابلس ١٨٣٥ - ١٩١١) إذ نشر جزءاً منه في المجلة الاستعمارية الإيطالية سنة ١٩٢٧ (ص ٢٩٢ - ٣٠٠) (٣٤٣ - ٣٥٣). كما اهتم روسي في دراسات أخرى بتاريخ طرابلس وهي: فرسان مالطا بطرابلس ١٥٣٠ - ١٥٥١ وعلاقات فرسان مالطا بطرابلس - في العهود التالية ١٥٥١ - ١٧٩٨ وقد نشرها في:

Archivum Melitense, VI, Malta 1924 p. 43 - 88.

ثم دراسة حول بعثة افتداء الأسرى بطرابلس في ١٧٣٠ في عهد أحمد القرمانللي وقد نشرها في مجلة (الدراسات الشرقية) سنة ١٩٢٣ - ١٩٢٥ (ص ١٤٠ - ١٤٤) ومراسلات بين مرشدي فرسان مالطا وبك طرابلس من ١٧١٤ - ١٧٧٨) نفس المصدر. ثم تاريخ التغلغل التركي من دواخل طرابلس الغرب، وقضية الحدود، وقد نشرها في مجلة الشرق الحديث سنة ١٩٢٩ (ص ١٥٣ - ١٦٧) ونظرات عامة في تاريخ ليبيا أثناء العهد البربري العربي والتركي، ونشرت في محاضر مؤتمر الدراسات الاستعمارية بفلورنسا سنة ١٩٣١. ودراسات حول التاريخ الطرابلسي، ونشرت في محاضر الجمعية الإيطالية لتقدم العلوم (ج ٣-٢/ ١٩٣٧ ص ٢٠٠ - ٢٠٦) والعلاقات بين فزان وطرابلس وساحل البحر الأبيض المتوسط، في مجلة الجمعية الجغرافية الإيطالية، مجموعة

(*) ترجم هذا الكتاب بعنوان (طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا) خليفة محمد التليسي. نشر مؤسسة الثقافة الليبية - طرابلس ١٩٦٩.

٨ / ج ٩/١٩٤٨ (ص ٢٩٥ ـ ٣٠٢). وتـاريخ ليبيـا منـذ الفتـح العـربي حتى سنة ١٩١١، (مجلة ليبيا) طرابلس ١٩٥٤. (وطرابلس) مقـال في الطبعـة الأولى من دائـرة المعارف الإسـلامية، كـما اهتم في كتابـات أخرى بـالشعر الشعبي في طرابلس، ومشاكل اللهجات، وموضوعات خاصة بالفلكلور والكتابات الأثـرية الإسـلامية، والتـطورات السياسيـة الحديثـة. وبهذه الـطريقة ظـل روسي طوال حياته على اتصال مستمر بطرابلس الغرب التي أثارت في نفسه منذ كـان جنديـاً بها في (١٥ ـ ١٩١٧) أولى اهتماماته باللغة العربية.

روما يوليو ١٩٦٨.

ماريا نالينو.

(*) أبقينا هذه المقدمة لأهميتها في بيان الظروف التي أحاطت بنشر الـطبعة الإيـطالية التي صـدرت عن معهد الشرق.. (المعرّب)

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب عن (تاريخ طرابلس وطرابلس الغرب) صيغة جديدة معدلة لعمل سبق تقديمه إلى حكومة طرابلس الغرب في ٢٨ سبتمبر ١٩٢٢، ضمن مسابقة أجراها الكونت فولبي والي طرابلس الغرب، في ذلك الوقت. ولم يكن في الإمكان نشر هذا العمل الفائز، في إبانه، لنواقص كانت تعتريه بسبب السرعة في إنجازه، وعدم توفر الوسائل الدراسية اللازمة، بطرابلس. ولذا فقد أعدت دراسة تلك المادة الوفيرة التي تجمعت لي من دراستي الأولى، وأكملتها بمصادر ومطبوعات صدرت في الأعوام الأخيرة. ولم أر من الضروري تقديم عرض (ببلوغرافي) كامل للمنشورات التي تهم تاريخ طرابلس الغرب بالنظر لوجود عدد وافر ممتاز من هذه القوائم والفهارس، ولكنني أشرت في الهوامش إلى جميع المصادر التي استعنت بها، ورجعت إليها.

ولكي أعطي فكرة عامة عن هذه (الببلوغرافيا) فإني أعرض فيما يلي الوضع الحالي للدراسات التاريخية حول طرابلس الغرب. فإذا استثنينا الخلاصة التي قدمها (ر. ميكاكي) بعنوان (طرابلس الغرب قبل الاحتلال الإيطالي) المنشورة في كتاب (انبعاث طرابلس الغرب) ص ٦٩ ـ ١١٣ الصادر في ميلانو ١٩٢٦ تحت رعاية الكونت جوسبي فولبي فلا توجد دراسة عامة عن طرابلس الغرب. وكذلك الشأن بالنسبة للعهود المنفصلة التي تقل عنها الدراسات بشكل ملحوظ.

ومن الضروري بالنسبة للعهود الإسلامية الرجوع إلى المصادر العربية التي ترجم قسم كبير منها إلى اللغات الأوروبية بواسطة المستشرقين دون أن

تكــون مــوضــع نقــد أو تمحيص أو دراســة، عــدا بعض أعـــمال (أ. بـــل) و(ج. ماركايس) و(جوتييــه) و(فوندر هايدن).

ورغم أني أفدت من المصادر العربية مباشرة، إلا أنني لم أغفل الاستفـادة من أعمال (ا. أماري) و(هـ. فورنيل) و(أ. مرسيير) و(ر. باست).

كما أفدت بـالنسبة للسلالات البشرية من دراسـات (إسـماعيـل كـمالي) و(هـ. أغسـطيني) و(ف. بجـوينـوت). كـما أفـدت من دراسـات (أوريجـمّا) و(مانفروني) التي حملت كلها مساهمة بارزة لـلإحاطـة بتاريـخ طرابلس الغـرب الـوسيط الذي سيـظل من مصادره الـرئيسية مـا تناقله المؤرخـون من أخبـار في مؤلفـاتهم وحوليـاتهم خاصـة (ابن عبـد الحكم) و(ابن خلدون) و(ابن الأثـير) و(التجاني) و(الزركشي).

أما بخصوص التاريخ الوسيط الحديـث فإنه حتى مع استبعاد المنشورات العديدة التي صدرت فور وقوع الحرب الإيطالية التركية، واستجابت للمناسبة، فكـانت بذلـك قليلة الأهمية، إلا أن ثمـة مصادر كثـيرة أخرى تحتفظ بقيمتهـا. ومن الـدراسـات الخـاصــة التي كتبت عن الأسرة القــرامــانلليــة مؤلفــات (ن. سلوش) و(ر. فادالا). ومن الكراسات المتعلقة بحـوادث معينة، وفـترات محـددة، نشير إلى (إسـماعيل كـمالي) و(ف. ناني ـ مـوشينيقـو) و(ج. فـيراري) و(ج. سيريس). ومن أخبار ويـوميات وتقـارير الرحّالين نذكـر (ليدي ورثـلي) و(ليـون) و(عـلي العيـاشي) و(بـاولـو دلا شيــلا) و(بــارث) و(رولف) و(ج. نختجال) و(د. تومياتي) و(سفورزا). وننتقل منها إلى الأعـمال العامـة، مثـل كتاب (فـيرود) المنشور في ١٩٢٧ والمؤلف في ١٨٨٠ ثم مؤلفـات (برنيـا). وثمة معلومات مفيدة يمكن استخلاصها من الأخبار الأوروبية مثل (حـوليات ـ مـوراتوري). ومن المـطبوعـات الإيطاليـة والإسبانية في القرن السـادس عشر، والمتعلقـة بتاريـخ إفريقيا الشماليـة وجغرافيتهـا، مثل كتـابات (ليـون الإفريقي ومارمول) وكتابات أخـرى، تتعلق بحوادث معينـة مثل (حملة جـربة، وحصـار مالطا، وتقارير الرحلات السنوية لسفن فـرسان مـالطا وسـان استيفانـو). ومن

مجاميع المعاهدات والمراسلات بين الدول المسيحية ودون الشمال الإفريقي ومن بقايا محفوظات القناصل. وقد نشر الأستاذ باولو توسكي في إيطاليا وثائق هامة لم يسبق نشرها.

إن المعرفة الواضحة بتاريخ الحياة الطرابلسية خلال القرون الثلاثة الأخيرة لا يمكن أن تتم إلا عن طريق البحث في محفوظات القناصل الأوروبيين بطرابلس. وقد أفدت من مجاملة قنصل انجلترا بطرابلس سنة ١٩٢٢ لكي أدرس وأنقل بعض محفوظات القنصلية الهامة،ولكنها كانت مبتورة ناقصة إذ تم نقل قسم منها إلى لندن.

وتمكنت أيضاً من الرجوع إلى محفوظات القنصلية الفرنسية، في سنة ١٩٢٢، ولمدة قصيرة. واستطعت أن أتصفح وأقلب بعض أجزائها. أما في رحلتي الثانية إلى طرابلس في ١٩٢٨ فلم يقبل طلبي لمراجعة بعض المجلدات الأخرى. ومن جهة أخرى فإن نشر (حوليات فيرود) يسد هذا النقص. ذلك أن فيرود شغل منصب قنصل فرنسا بطرابلس منذ سنة ١٨٧٩ حتى سنة ١٨٨٤، وقد أفاد بشكل واسع من محفوظات قنصليته. كما تصفحت مراراً سجلات قنصليات سارديني وتوسكانا ومملكة الصقليين ومملكة إيطاليا، والأخيرة منها حتى سنة ١٨٩٠ وهي من محفوظات القلعة بطرابلس مع وثائق المحفوظات التركية التي يعاد الآن تنظيمها. وعندما تنظم هذه الوثائق ويزاح عنها غبار الإهمال يمكنها أن تزودنا بمعلومات ذات أهمية قصوى عن الإدارة التركية في النصف الثاني من القرن الماضي حتى الاحتلال الإيطالي. وترقى أقدم السجلات إلى سنة ١٨٤٥. ولم أستطع أن أفيد منها فائدة كبيرة. وقد تمكنت بصفة عابرة، خلال سنتي ١٩٢٢ ـ ١٩٢٨ من استخراج بعض المعلومات عن النشاط السياسي التركي في الدواخل ومحاولتهم التغلغل في الأراضي الداخلية (الهنترلاند) الطرابلسية (التبستي، بوركو، غات، جانيت، منطقة الطوارق).

ولا نرى داعياً للإلحاح على أهمية مجاميع محفوظات الدول الإيطالية، بالنسبة لتاريخ طرابلس الغرب، خاصة محفوظات ليفورنو وفينيسيا. وقد نقلت

في هـذا العمل بعض المعلومـات المستخلصة من تلك المصـادر، ومن الأبحـاث التي قمت بها في محفوظات القديس يوحنا بمالطا. وقد نقلت عنها أيضاً مذكرتين لنـائب المستشـار بقنصليـة فـرنسـا في طـرابلس عنـد نهايـة القـرن الثـامن عشر (أ. س. فـرومانت دي شـامب لاغـارد) وتتعلقـان بتـاريـخ فـزان في القـرنـين السـابع عشر والثـامن عشر وعهد عـلي باشـا القرمـانللي. كما راجعت قسـماً من مخطوطة (التـاريخ الكـرونولـوجي لمملكة طـرابلس بربـرياً) التي تـوجد بـالمكتبة الوطنية بباريس. وهي من تأليف الجراح البروفنسالي (جيرارد) الذي كان أسيـراً بـطرابلس خـلال (١٦٦٨ ـ ١٦٧٦) وهي مـرجـع هـام لتـاريـخ القـرن السادس عشر.

أما الرجوع إلى المصادر العربية الطرابلسية فقـد كان من أكـثر المساهمـات التي نهضت بهـا من أجل التأريخ لـطرابلس وطرابلس الغـرب. فـابن غلبـون (الذي سنتحدث عنه في الفصل الخاص بنشأة الأسرة القرمانللية) كان عـالماً من علماء مصراتة، عاش في القرن الثامن عشر، وألف تاريخاً لـطرابلس منذ الفتـح العربي حتى عصره (١٧٣٠) بعنوان (التذكار في من ملك طرابلس ومن كان بهـا من الأخيار) وقد أفدت من النص المنشور في القاهرة. كـما أفدت من المخـطوط الموجود بمكتبة الأوقـاف بطرابلس. وكذلك من النسخة الناقصة الموجودة لـدى أسرة الفقيه حسن بطرابلس. ونجد في هذه النسـخ في الغالب هـذا التعبير (إلى أن قـال مؤلفه) الـذي يبين بـوضوح النقـاط التي اختصرها النـاسـخ من النص الأصلي. وبعض هذه الفقرات توجد بنصها الكـامل في النسخـة المملوكة لأسرة الفقيـه حسن. ولكن هـذه النسخـة النـاقصـة تـوجـد بهـا إشـارات إلى بعض الاختصارات التي أجريت على النص.

وتبقى مصادر ابن غلبون في حاجة إلى الدراسة. فهـو في كثير من النقـاط يعتمـد على ابن الأثـير والتجاني، ويعتمـد في خصـوص الأحـداث القـريبـة من عصره على أخبار محلية استقاها من مصادر مفقـودة. وتاريـخ ابن غلبون مـرجع هـام، خاصـة للقرن السـابع عشر وبـداية العهـد القرمـانللي. ويمكن للمصادر

الأوروبية المعاصرة له أن تكمل ما ينقصه من معلومات أو ما يسكت عنه من أخبار.

وقد قام كاتب تركي، هو محمد بهيج الدين، بتلخيص عمل ابن غلبون بشيء كثير من التصرف، وجمعه في كتيب صغير بعنوان (تاريخ ابن غلبون) نشر بالآستانة سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ - ١٨٦٨ م) وهو يتضمن استمراراً ومواصلة حسنة لسرد الأحداث التي جرت منذ سنة ١٨٣٠ حتى سنة ١٨٦٠. . وتوجد لهذه الخلاصة ترجمة عربية مطبوعة بطرابلس بمطبعة الولاية من غير تاريخ.

وثمة مصادر عربية أخرى مثل رحلة العياشي الذي مر بطرابلس في نهاية القرن السادس عشر، وسيرد ذكرها أثناء البحث. وأذكر من المصادر الطرابلسية أيضاً كتاب (الإشارات لما في طرابلس من المزارات) تأليف الشيخ عبد السلام ابن عثمان. ثم مجموعة كريم الدين البرموني. وهي هامة لمن يريد أن يتعمق في دراسة الحركة الدينية بطرابلس في القرن السادس عشر.

وفي سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ - ١٩٠٠ م) نشرت في الآستانة دراسة تاريخية عن طرابلس منذ القدم حتى سنة ١٨٨٠. وهي من تأليف أحمد النائب الأنصاري بعنوان (المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب) وتتكون من ٣٩٥ صفحة باللغة العربية. وبهذا الرقم ينهي القسم الأول من الكتاب. أما القسم الثاني الذي ينبغي أن يتضمن الأحداث التالية حتى سنة ١٨٨٠، فلم يصدر. وقد توفي المؤلف قبل الاحتلال الإيطالي بقليل. وهذا التأليف قليل الأهمية فيما يتعلق بالعصور القديمة. ومن الأشياء الهامة فيه تلك الفقرات التي استخلصها من رحلة العبدري (ص ١٣ - ١٤) الذي مر بطرابلس في القرن الثالث عشر. والمعلومات المحدودة المتعلقة بالعهد العثماني الثاني (١٨٣٥ وما بعدها) ضئيلة الأهمية. وأهم ما في هذا المرجع تراجم الأعلام من العلماء والمتصوفين والزهاد. وهو على الجملة يستحق الرجوع إليه. ولا ريب في أن أثمن المصادر بالنسبة للفترة التي تمتد من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر هي المصادر التركية. ولكن المؤرخين الأتراك لم يهتموا بطرابلس الغرب والشمال الإفريقي، أو اهتموا بها اهتماماً قليلاً محدوداً لانشغالهم بمتابعة الأحداث في ديارهم وحرق

البخور للسلطان. أما وثائق المحفوظات التاريخية بالآستانة فإنها سوف تكتسب أهمية كبرى عند نشرها. وقد ظهرت بعض الدراسات مثل الدراسات التي نشرت في مجلة الدراسات التاريخية التركية بخصوص الحملة على جربة فألقت ضوءاً على تاريخ طرابلس في عهد درغوث باشا.

ويمكن أن تستخلص بعض المعلومات من السلنامة التركية الخاصة بولاية طرابلس الغرب. وقد خرجت أثناء الحرب الإيطالية التركية بعض المطبوعات التركية تتضمن معلومات ذات قيمة معينة بالنسبة لتاريخ طرابلس والنشاط الذي قام به الأتراك في آخر ممتلكاتهم الإفريقية.

إتّوري روسي

القسم الأول

الفصل الأول
مدخل

* التسميات القديمة والحديثة الخاصة بطرابلس الغرب، وليبيا بصفة عامة.
* سكان طرابلس الغرب القدامى.

١ ـ التسميات الجغرافية القديمة والحديثة الخاصة بطرابلس الغرب، وليبيا بصفة عامة.

أطلق اليونانيون اسم (ليبيا) على البقاع الأولى التي تعرفوا عليها من المناطق الواقعة غربي مصر. ويعتقد بأن الاسم مشتق من كلمة (ليبي) التي كانت تعني الشعوب التي تسكن الحدود المشتركة بين ليبيا ومصر. ومن المحتمل أن تكون هذه التسمية ـ مشتقة من اسم (لواتة، لبتاتة، ليبو). أما في العهد الروماني، والروايات المتواترة بعد ذلك، فإن كلمة (ليبا)[1] كانت تعني جزءاً كبيراً من إفريقيا الشمالية، ولكن دون تحديد جغرافي. ولم يستخدم هذا الاسم بتحديد جغرافي دقيق إلا سنة ١٩١١ عندما أطلق على طرابلس الغرب وبرقة.

أما الاسم (إفريقيا) الذي يصادفنا لدى المؤرخين والجغرافيين الرومان، فلا يستبعد أن يكون متحدراً من الشعوب البربرية التي تعامل معها الرومان واتصلوا بها. وربما كان أصله كلمة (أوريغا Auriga) وقد حدد الرومان بكلمة (أفري Afri) أو (أفريكاني Africani) جميع شعوب إفريقيا الشمالية. وعلى وجه الدقة المنطقة التي تطابق حالياً تونس. وفي القرون الوسطى، وحتى القرن السادس عشر، كانت كلمة إفريقيا تعني بلدة (المهدية) بتونس التي عرفت حينذاك بكثرة ما تعرضت له من هجمات وغزوات الجيوش المسيحية.

وأطلق الرومان كلمة (ماوري Mauri) ومنها (موريتانيا التي تشمل الجزائر

---

(١) في القرن السادس عشر، استعمل (مارمول) الذي عاش اثنين وعشرين عاماً بإفريقيا، أي من سنة ١٥٣٥ وما تلاها، استعمل كلمة (ليبية) في الدلالة على البلدان الداخلية من إفريقيا الشمالية التي تمتد حتى بلاد السود (السودان).

الحالية وقسماً من المغرب) على سكان إفريقيا الشمالية بصفة عامة[٢].

وظل هذا الاستعمال سائداً في اللغة اللاتينية الحديثة إلى عصور قريبة. أما في العصور الحديثة فقد استعملت كلمة (ماوري) لتعني السكان الأصليين من إفريقيا الشمالية، وبصفة خاصة سكان المدن، تمييزاً لهم عن العرب البدو والأتراك المشرقيين.

أما الكتاب العرب الذين كانوا قليلاً ما يستعملون اصطلاح (ليبيا) فقد احتفظوا بكلمة (إفريقية) التي تطابق إفريقيا الرومانية. واستعملوها في تحديد المنطقة التي تمتد من قسنطينة حتى طرابلس. وفي رأيهم أن إفريقية هي جزء من الأراضي الشاسعة للمنطقة التي تعرف باسم المغرب الذي ينقسم إلى: المغرب الأقصى (المغرب الحالي) والمغرب الأوسط (الجزائر الحالية) ثم (إفريقية) وتمتد شرقي طرابلس. وتشمل عند البعض (لبدة). أما في الجنوب فتقع فزان والواحات.

وقد عرفت طرابلس الغرب بهذا الاسم (تريبوليتانيا Tripolitania) لأول مرة، في القرن الثالث بعد الميلاد، وكانت المنطقة تعرف قبل ذلك باسم (سرتيكا Syrtica) وتشمل المنطقة الواقعة بين الخليجين (خليج سرت وخليج قابس) (Due Sirti) وقد جاءت هذه التسمية التي لم تستعمل إلا نادراً، من المدن الثلاث (صبراتة ولبدة وأوئيا). وعندما انهارت صبراتة ولبدة علق بمدينة (أوئيا) اسم طرابلس الحالية. وسار العرب على هذا الاستعمال الشائع، فسموها طرابلس أو (إطرابلس). واقتصرت هذه التسمية على المدينة فلم تشمل المناطق المجاورة لها. وعندما استولى الأتراك على طرابلس سنة ١٥٥١ كانت كلمة طرابلس بالنسبة إليهم تعني كل الإقليم ـ الذي بسطوا عليه سيطرتهم ـ بما في ذلك برقة.

(٢) وقد سماهم البيزنطيون (Maurosivi) وقد طرح الافتراض بأن هذا الاسم مشتق من أصل بونيقي ويطابق كلمة (المغربي) التي يستعملها العرب.

وفي الصحافة العربية المعاصرة[3]، تستخدم كلمة طرابلس الغرب لتعني ليبيا بأكملها، بحدودها الواقعة بين تونس ومصر[4]. أما السكان الأصليون القاطنون بليبيا والمغرب فقد أطلق عليهم العرب اسم (البربر). وهي تسمية تطابق تسمية (الليبي) و (الإفريقي) في الاستعمال القديم.

أما بربريا (Berberia) أو بربازيا (Barberia) التي تعني بلد البربر فتصادفنا في أواخر القرون الوسطى، وفي العصور الحديثة، لتدل على إفريقيا الشمالية، وبصفة خاصة المنطقة الساحلية[5]. ولا يستبعد أن يكون قد أثر على تسمية (بربريا) وكذلك (البربر) الاشتقاق الشعبي من كلمة (برابرة Barbari).

وفي العصور الحديثة، أطلقت كلمة (بربارسك Barbareschi) على جميع سكان المنطقة، وعلى وجه الدقة، على قراصنة هذه البلدان.

٢ ـ سكان طرابلس الغرب الأوائل

حوالي القرن العاشر قبل الميلاد، وهو التاريخ الذي تبدأ فيه معرفتنا التاريخية بطرابلس الغرب، كانت البلاد مسكونة من قبل أقوام تدعى الأقوام الليبية، ونعني بالليبيين الأهالي الذين اعتدنا تسميتهم بالبربر ـ فيما بعد ـ والذين يكونون حتى الآن الأساس في العنصر البشري بشمال إفريقيا، رغم الأحداث المتعاقبة والامتزاج بالأجناس الوافدة. ونحن لا نعرف إلا القليل عن هؤلاء الأقوام الليبيين القدامى، وما يزال الجدل محتدماً حول أصلهم، وموطن قدومهم، هل هو في أعلى النيل أم في أثيوبيا (حاميون)؟ أم جاءوا من جنوبي

(٣) يعني بذلك الفترة التي ألف فيها هذا الكتاب. (المعرب).

(٤) لقد تعرضت حدود طرابلس الغرب إلى تعديلات وتغييرات متعددة. وجدير بالملاحظة أن (مارمول) في القرن السادس عشر، يذكر لنا مقاطعة من مقاطعات طرابلس الغرب ويضع ضمنها قابس وجزيرتي جربة وقرقنة. (مارمول ص ٢٢٨).

(٥) يذكر (مارمول) (ص ١/٤١) أن بربريا تشمل المنطقة الواقعة بين جبال الأطلس والبحر الأبيض المتوسط. أما برقة فهي التي تقع بين بربريا ومصر.

الجـزيرة العـربيـة (سـاميـون)؟ أم هم جنس خـاص أصيـل (Autoctona) من أجناس البحر الأبيض المتوسط؟

وفي وسع الدراسات الأنتروبولوجية، وأبحاث ما قبل التـاريخ، أن تجيب إجـابة محـددة على هـذه المسـائـل. ورغبـة في الاقتصـار عـلى آراء الـدارسـين، والاستنـاد إلى الأخبار الـوثيقة، يمكننـا القـول بـأنه في العهـد الـذي أقـام فيـه الفينيقيـون أولى مستعمراتهم عـلى طول سـواحل إفـريقيا الشـمالية، كـانت هناك شعوب تسكن طرابلس الغرب، وهي التي اتفقنا على تسميتها (بالليبيين) الذين يذكر هردوت (القرن الخامس قبل الميلاد) بعض أسمائهم:

الناسمون Nasamoni الذين يسكنون منطقة خليج سرت. بسيللي Psylli ومـاكاي Macae وجنـدانس Gindanes في المنطقـة الـواقعـة بـين خليـج سرت الكبـير وخليج سرت الصغـير (خليج قـابس). ويعيش الجـرامنت Garamanti والغـانفسنتي Gamphasanti في دواخل القـطر. وكانت الأسـاطير تتحـدث عن وجود (اللوتوفاجيين Lotofagi) الـذين يأكلون (اللوتـو Loto) في منطقـة خليج سرت الصغير (قابس وجربة).

أمـا سترابـون (قرب العهـد المسيحي) فإنـه يذكـر الأقوام الـذين ذكرهم هـردوت، ويضيف إليهم بين سكـان الدواخـل (الجيتولي Getuli). أمـا أخبـار بروكوبيوس فهي من عهد متأخر (القرن السادس بعـد الميلاد) وهي أكـثر دقة، وتشير إلى أنه كانت تعيش بطرابلس الغرب شعوب (لواتة)، وكانت منتشرة بين خليـج سرت الكبـير ومـدينـة (أوئيـا) طـرابلس. ويعيش إلى الشرق من ذلـك (السيليون Seli). وربما كانوا بسيللي الذين ذكرهم هردوت؟ ويعيش في الجنوب (الأوستوريون Austriani).

واستناداً إلى ما هو متوفر لدينا من معلومـات فإن قدماء الليبيين كانوا من البـدو الرعـاة. وقد اجتـذبت الحضارة الفينيقيـة بعضاً منهم، وأغـرتهم بالحيـاة المستقرة والزراعة والتجارة. وكانوا يتكلمون لهجات نسميها نحن ليبية، تولدت عنهـا اللهجات الـبربريـة التي مـا تـزال تعيش حتى الآن في غـدامس وسـوكنـة

والجبل، وزوارة وجربة ووسط الجزائر. وانتشرت بينهم أيضاً انتشاراً واسعاً اللغة البونيقية ـ القرطاجنية التي ظلوا يستعملونها في المخاطبة التي بعد الاحتلال الروماني.

أما العبادة الصنمية الوثنية فقد تعرضت بالتأكيد إلى تغييرات لحقت بها، بتأثير العقائد السامية الفينيقية، ثم العقائد المسيحية التي محتها فيها بعد الدعوة الإسلامية، إلا أن بعض آثارها ظلت باقية حتى الآن في العادات، وخاصة في الخرافات والاحتفالات التي تستلهم الطقوس الطبيعية والمواسم.

وينوه بروكوبيوس بالتناقض الواضح بين الحياة المترفة المنعمة التي يعيشها الوندال العاكفون على لذات الحياة ومباهج الخمر والموسيقى وحياة الليبيين (ماوري) الذين يقول عنهم[٦]:

(إنهم يعيشون في أكواخ ضيقة، خانقة، ويقضون بها جميع فصول السنة، صيفاً وشتاء، ولا يغادرونها عند تساقط الثلج أو اشتداد الحر، أو لأي سبب من الأسباب الأخرى. وهم ينامون على الأرض، ويفترش الأغنياء منهم بعض الأغطية، ولم يعتادوا على تغيير ملابسهم بتغيير الفصول، ولكنهم يرتدون قميصاً خشناً (كيتون Chiton) ويستعملون نوعاً ثابتاً من اللحاف. لا يستعملون الخبز، ولا يشربون الخمر ولا يعرفون أية لذة من لذائذ المائدة. ولكنهم يأكلون القمح والشعير، دون طبخ، ودون طحن، حتى يتحول إلى دقيق، صنع البهائم لا أكثر ولا أقل).

---

(٦) De Bello Vandalico, II, 6

الفصل الثاني

لمحات من تاريخ طرابلس الغرب قبل الفتح العربي

* السيطرة الفينيقية ـ البونيقية.
* السيطرة الرومانية.
* نشاط الرومان بطرابلس الغرب.
* الوندال والبزنطيون.

١ ـ السيطرة الفينيقية القرطاجنية:

اقترن ظهور طرابلس الغرب في التاريخ بتأكيد السيطرة الفينيقية، (القرن السابع قبل الميلاد) وما تلاه، من توسع قرطاجنة التي قامت في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد، بمد سيطرتها على المراكز التي تمتاز بأهميتها التجارية الكبيرة والتي أطلق عليها فيما بعد الكلمة اليونانية (أمبوريا)[١]. وبدأ اليونانيون في نفس الوقت (٦٣١ ق.م) في استعمار سواحل برقة. وأسسوا قورينا. وعليه فإن إقليم (ليبيا) الحالي كان في الفترة الواقعة حول (القرن السادس قبل الميلاد) مقسماً بين سلطتين وحضارتين مختلفتين، وكان الحد الفاصل مطابقاً تقريباً للحد الفاصل (حالياً) بين طرابلس الغرب وبرقة. وهو يقوم على تقاليد تاريخية وأوضاع طبيعية وجغرافية[٢].

إن الفينيقيين أو (البونيقيين) الذين يمكن أن نسميهم القرطاجنيين من جهة، والدوريين الإغريق من جهة أخرى، لم يتفقوا في زمن قصير على اقتسام مناطق السلطة والنفوذ. ونحن نعلم أنه في سنة ٥١٧ قبل الميلاد قام الدوريون الإغريق بتأسيس مستعمرة في مصب وادي (شنيف Cinifo)، وادي كعام القريب من مدينة (لبدة) التي كانت في ذلك الوقت مستعمرة قرطاجنية. وقد تدخلت قرطاجنة على الفور وقامت بتدمير المستعمرة الدورية بمساعدة السكان

---

(١) S.Moscati (Il Mondo dei Finici) Milano 1966

(٢) هذه من الآراء التي دأب المستشرقون والمؤرخون الأجانب على ترديدها لإيجاد مبررات للفكرة الانفصالية. وفاتهم أن يدركوا، أو أدركوا ثم تجاهلوا، أن الخلاف بين الحضارتين والسلطتين قد ظل خلافاً بين شعبين استعماريين وافدين ولا شأن للسكان الأصليين به. (المعرب)

الليبيين الـذين كـانـوا يعـرفـون بـاسم (مكـاي Macae)). ثم اتفق الشعبـان الاستعماريان المتنافسان على اقتسام منـاطق النفوذ. وتـروي لنا أسـطورة شعريـة بطوليـة تضحيـة الأخوين القـرطاجنيـين اللذين عرف بهما النصب التذكـاري بخليج سرت (Arae Philenorum).

ويحتمل ألا تكون قـرطاجنـة قد استـولت بقوة السـلاح على المستعمـرات البونيقية الأخرى القائمة في منطقة خليج سرت. وإنما كانت سيادتها عليهـا مجرد ظـاهرة امتصـاص تجاري وسياسـي نشأ عن القـوة المـتزايـدة لـدى المستعمـرة الرئيسية المحظوظة، وضرورة الحصول على حمايتها وعونها ضد السكـان الليبيين بالسواحل والدواخل، ووقايتها من احتمالات التهديد اليوناني[3].

وقد ازدهرت قرطاجنة في الفترة الواقعة بين القرن السابع والقـرن الرابـع قبل الميلاد. وكانت تسيطر على الساحـل الإفريقي الممتـد من برقـة حتى مضيق جبل طارق. وكـانت تنشر المعارف الجغـرافية، وتقيم العـلاقات التجـارية بـين سـواحل الأطلس بإفريقيـا وبين إسبانيا وبـلاد الغال. وقـد قام أحـد ملوكهـا (هانون) في القرن السادس قبل الميلاد، بالإبحار على طول الساحل الإفريقـي الممتد من أعمدة هرقل حتى خليـج غينيا. وفي البحـر الأبيض المتوسط، كـانت قرطاجنة تسيطر سيطرة تامـة، دون مضايقـة من أحد. وكـانت لها السيـادة على جزر البليار ومالطا وسردينيا وكورسيكـا أيضاً اعتبـاراً من ٥٤٥ قبل الميـلاد. ولم يكن ينقصها سوى السيـطرة على صقليـة حتى يتم لها الانفـراد المطلق بـالبحر الأبيض المتوسط. وكانت توجد، منذ القدم - يـرجح أن يكـون ذلك منـذ ٥٠٩ قبل الميلاد - اتفاقات بين روما وقرطاجنة لتحديـد مناطق النفـوذ، وقد تم تـأكيد هـذه الاتفاقـات في ٢٧٩ قبل الميـلاد. بـل وتم نـوع من التحـالف ضـد (بـيرّو Pirro) التي كانت في ذلك الوقت تثير المضايقات وتقلق الرومان والقـرطاجنيـين على السواء. إلا أن المسلك المثير للشكوك الذي سلكته قرطاجنـة بإقـدامها في سنة ٢٦٥ - ٢٦٤ قبل الميلاد، على إقامة حامية في مسّينـا، والاستعداد للتـدخل

(٣) Perroud, De Syrticis emporiis. Paris 1881 p. 5785.

في شئون إيطاليا، جعلا الصراع الروماني القرطاجني أمراً حتمياً.

وكان استنجاد سكان مسينا بروما بداية للحرب البونيقية (٢٦١ - ٢٤٢) قبل الميلاد. وهي الحرب التي انتهت بتأكيد السيادة الرومانية على صقلية. وفي الحرب البونيقية الثانية، أصبحت للرومان الأولوية في العلاقات مع سكان إفريقيا، وانتقل (صيفاقس Siface) ثم (مسينسا) إلى جانب الرومان. وأخيراً كانت الحرب البونيقية الثالثة نهاية للسيطرة القرطاجنية. وفي عام ١٤٦ قبل الميلاد الذي تم فيه تدمير قرطاجنة، تم أيضاً إنشاء المقاطعة الرومانية في إفريقيا، وعاصمتها (عوتيكا Uttica).

إلا أن (مسينسا) الملك الليبي على نوميديا كان قد انتزع أثناء الحرب البونيقية الثانية من قرطاجنة (الأمبوريا) الواقعة في منطقة خليج سرت، وتشمل أيضاً مدينة (لبدة)[٤]. ويمكن القول إنه منذ القرن الثالث قبل الميلاد انتهى الحكم القرطاجني على الإقليم الذي عرف فيما بعد باسم طرابلس الغرب. وبعد فترة من قيام شبه استقلال، وحكم ذاتي للملوك المحليين، بسطت روما سيادتها وأزاحتهم عن مراكز السلطة والسيادة.

لقد تم تأسيس صبراتة وأوئيا (طرابلس) ولبدة أثناء الهجرات الفينيقية الأولى القادمة من فلسطين. ثم أصبحت هذه البلدان فيما بعد مستعمرات قرطاجنية. ويبدو أن لبدة قد انهارت بعد فترة من التطور المستقل. وأن قرطاجنة قد أعطت لها ازدهاراً جديداً بعد أن تدخلت بقوتها وطردت المستعمرة الإغريقية عند مصب وادي (شينيف Cinifo) وادي كعام.

وكانت أهم المراكز والمستعمرات (الأمبوريات) الواقعة على الساحل الممتد بين خليجي سرت الأكبر وسرت الأصغر هي:

تاكابس	Tacapes	وهي قابس الحالية.
سرسينا	Cercina	وهي جزيرة قرقنة.

(٤) P. Romanelli (Leptis Magna 3) Leptis.

زوكيس	Zuchis	وهي تقع في بحيرة واسعة ربما كانت بحيرة البيبان التي كانت تمثل الحد الفاصل بين طرابلس وتونس في سنة ١٩١٠.

صبراتة التي بقيت أطلالها الحالية قائمة قرب زواغة، وقد كانت مدينة هامة بمينائها واتصالها بالجبل وغدامس.

أوئيات	(Oea) Uiat	وهي مدينة طرابلس الحالية.
جفارة	Gephara	وهي الجفارة الحالية الواقعة شرقي طرابلس.
لبسي(٥)	Lepci	وهي لبدة الحالية الواقعة قرب الخمس وكان يسميها الرومان)لبتس مانيا).
ماكوماكا	Macomaca	قرب تاورغاء الحالية.
ماكومداس	Macomadas	وتعني بالفينيقية المدينة الجديدة. ويعرف موقعها حالياً بقصر الزعفران.
كاراكس	Charax	وهي مدينة سلطان الحالية الواقعة قرب سرت. وكانت موقعاً يتردد عليه التجار القرطاجنيون الذين كانوا يبادلون النبيذ بالسلفيوم المصدر من برقة.

ويعتقد بأن المدن الثلاث (لبدة وأوئيات وصبراتة) قد شكلت أثناء السيطرة القرطاجنية اتحاداً فيما بينها. بينما يمكن القول بأن هذه المستعمرات الثلاث والمستعمرات الأخرى المنتشرة بين خليجي سرت لم تتحد، ولم تتجمع حول رباط سوى رباط التبعية المشتركة لقرطاجنة التي كانت تحتفظ بحاميات فيها، وتقوم بالتدخل للدفاع عنها عند الحاجة. وكانت تجارة هذه المستعمرات

(٥) كانت الصيغة القديمة للاسم (Leptis) بينما كان اسم (Lpdy) اسماً لمدينة واقعة بخليج سرت الأصغر (قابس)، ثم تغيرت تسمية (Lepci) فأصبحت (Leptis) ومنذ ذلك الحين (القرن الأول وبداية القرن الثاني للميلاد) أضيف إليها صفة (مانيا Magna) تمييزاً لها عن المدينة المذكورة. أما العرب فيسمونها (لبدة).

مع البلدان الخارجية خاضعة لتنظيم قـرطاجنـة ورقابتهـا. كما كـان هناك ضبـاط معينـون من قبل الحكـومة المـركزيـة ويعرفـون باسم (سـوفيتي Sufeti) يتولـون الشئون الإدارية للمستعمرة وجباية الضرائب والخراج. وكـان لقرطـاجنة أيضـاً حق التجنيد الإجباري، أما القبائـل التي تعيش في الدواخـل بعيداً عن المـراكز المحميـة فقد كانت مستقلة عن الحكومة القرطـاجنية وتـرتبط بها غـالباً بـروابط التحالف والاتفاق[٦].

وظلت هنـاك آثـار واضحـة للحضـارة القـرطـاجنيـة حتى بعـد سقــوط قرطاجنة، كالكتابات البونيقية المتعددة، بالإضافة إلى استعمال اللغة البونيقية إلى جانب الرومانية والإغريقية. كما ظل تأثير الحضارة القرطاجنية مـاثلاً في الأسـماء وألقاب الوظائف والمعتقدات الدينية[٧]. ويشهد القديس أغسـطينو، في القـرنين الرابع والخامس، على انتشـار اللغة البـونيقية في منـاطق تونس والجـزائر الحـالية. ونحن نعرف أيضاً أنه في القرن الثـاني بعد الميـلاد، كان النـاس في لبدة، وطن سبتيمـوس سفروس، يتحـدثون اللغـة البونيقيـة. وذلك يـدل عـلى أن الحضـارة البونيقية واللغة البونيقية قد تغلغلتا في المستعمرات القرطاجنية بإفريقيا الشـمالية وانتشرتا أيضاً في الأرياف المجاورة، حتى ليؤكد بروكوبيوس من القـرن السادس بعـد الميلاد، أن الأهـالي (الماوري) كـانوا يتحـدثون البـونيقيـة حتى في دواخـل القطر. إن استمرار بقاء اللغة البونيقية، وهي لغة ساميّة، ساعد على انتشار اللغة العربية التي استطاعت في قرون قليلـة أن تحتل مكان الـبربريـة التي لم تبق منها سوى جزر متفرقة منعزلة كواحات في الصحراء. ومن جهة أخـرى فإن اعتنـاق الاعتقادات البونيقية الفينيقية التي تميل إلى فكرة التوحيد، قد هيأ الأفارقة لقبول الدين المسيحي، ثم التلاؤم مع الدين الإسلامي بعد الفتح العربي[٨].

GSELL (Histoire ancienne de l’Afrique du Nord, III, p. 294 - 308.

(٧) انظر دراسات: G. Levi Della Vida

(٨) GSELL, op. cit. vol 17 p. 491 - 498

٢ ـ السيطرة الرومانية:

ولم يكن الباعث على التدخل الروماني في إفريقية بعد الحرب البونيقية الثانية، وتدمير قرطاجنة سنة ١٤٦ قبل الميلاد، الرغبة في سحق المنافس القديم والقضاء عليه قضاء نهائياً، بقدر ما كان الخوف من أن تقوم على أنقاض قرطاجنة التي تم إذلالها سياسياً وعسكرياً، سيادات وطنية. وهي نفس المخاوف التي حملت روما فيما بعد على بسط سيادتها المباشرة على إفريقية، وكل الأقاليم التي تمتد من طنجة إلى سرت.

وحين مات (مسّينسّا) في ١٤٨ قبل الميلاد ـ أي قبل عامين من تدمير قرطاجنة ـ خلفه ابنه (مشيبسا Micipsa) في حكم هذه الأقاليم الواسعة التي عجزت قرطاجنة نفسها عن السيطرة عليها. ولم تكن قد دخلت حتى ذلك الوقت تحت السيادة المباشرة لروما. وحين مات (مشيبسا) عهد بالحكم إلى ولديه اللذين تحرك ضدهما طموح (يوغرتا Giugurta) الذي كان سبباً في الحرب ضد روما.

وخلال الحرب اليوغرطية استقبل (ميتللو Metello)[٩] الذي احتل (تالة Thala) سنة ١٠٧ قبل الميلاد وفداً من سكان لبدة يطلب إليه إرسال الدعم إلى هذه المدينة[١٠]. وقد ذكر الموفدون أن (أملكار) يسيطر على المدينة ويذلها بطموحه واستغلاله. ويخبرنا سالستيوس أن سكان لبدة قاموا منذ بداية الحرب ضد يوغرتا بعقد معاهدة تحالف مع الرومان. وظلوا منذ ذلك الحين على ولائهم للرومان مستجيبين لكل ما يطلب منهم. وقد استجاب (ميتللو) إلى طلب الوفد، وأرسل إلى لبدة أربعة أفواج برئاسة (أنيو G. Annio). وكانت هذه القوة طليعة للّفيف الروماني بطرابلس الغرب. ويبدو أن صبراتة وأوئيات كانتا بمنزلة ضعيفة من حيث الأهمية في عهد ذلك المؤرخ، إذ نراه يهمل ذكرهما حين يقول (بين لبدة ونوميديا تمتد أرض شاسعة مهجورة).

---

(٩) **Sallustio, De Bello** Jug. cap. 77 seg

(١٠) **Mercier**, 1, P. 64

تسجل سنة ١٠٧ قبل الميلاد بداية عهد دخول إقليم سرت في دائرة التاريخ الروماني، وأما في الفترات التالية، حتى عهد قيصر، فلا نجد أية إشارة إلى هذه المنطقة فيما كتبه المؤرخون. غير أنه من المؤكد أن المبادلات التجارية بين الأمبوريات كانت ما تزال نشطة. وكان يتردّد على موانئها التجار الرومانيون. وبظهور الإمبراطورية في بداية العهد المسيحي أصبحت هذه العلاقات أكثر قوة. وقد تطورت حتى انتهت إلى تأسيس مستعمرات حقيقية خاصة.

وفي نفس الوقت انتهى حكم نوميديا المستقل، وأصبحت مقاطعة منفصلة. وقد أخذ إقليم إفريقية الذي يطابق إقليم قرطاجنة القديمة يهتم بما يجري في إقليم سرت المجاور. وفي سنة ٦٩ قبل الميلاد، وفي عهد الإمبراطور أغسطس، تمت حملة كورنيليو بالبو (Cornelio Balbo) على إقليم فزان. ويشير بلينيو الذي كان يعيش في عهد الأمبراطور فاسباسيانو Vespasiano إلى حملة كورنيليو بالبو، ويذكر فزان وموقعها وبعض سكانها وبلدانها[١١].

وفي احتفالات النصر التي خُص بها كورنيليو بالبو عند عودته إلى روما، تبدو رموز وأسماء ممثلي المدن والقلاع التالية:

Cidamo, Garama, Miglis, Tabudium, Buberum, Thuben, Rapsa, Debri, Thampsagum, Boin, Pege, Baracum, Buluba, Alasit, Balsa, Galla, Maxala, Niteris, Enipi, Discera, Mannagi: Niger.

كيف يمكن تحقيق هذه الأسماء التي دخلها - بلا ريب - التحريف في الكتابة اللاتينية أو من قبل الناسخين؟ ويقر بلينيو نفسه بأن أسماء تلك الشعوب والمدن من الصعوبة بحيث يتعذر النطق بها[١٢]. ويحتمل أن يكون (Mons Niger) هو جبل السودة. وربما كانت (براكوم) بلدة براك، وجرامة هي جرمة بفزان، أما سيداموس فهي غدامس بالتأكيد.

---

(١١) Hist. Nat V,5.

(١٢) Hist, Nat. V,5.

ولم تفلح حملة بالبو في إخضاع الجرامنت، وعندما قام البربري (تاكفاريناس) بثورته ضد الرومان خلال الأعوام ١٧ ـ ٢٤ قبل الميلاد في عهد الإمبراطور تيبريوس (Tiberio) شارك الجرامنت بجيشهم في حرب العصابات ضد الرومان، ولكن لم يكد يتم إخضاع الثائر والانتصار عليه حتى سارع الجرامنت يطلبون السلم. وهكذا وصل إلى العاصمة الرومانية بعض الموفدين من سكان فزان الذين كانوا مثار عجب واستغراب. ويقول عنهم (تاسيتو Tacito) قلما شوهد مثل هؤلاء الأقوام (raro Urbe visi)(١٣).

وفي عهد (فاسباسيان) قرب سنة ٦٩ قبل الميلاد قام (فاليريو فستو Valerio Festo) قائد اللفيف الروماني بإفريقية بالتدخل لإخماد الصراع الذي نشب بين أوئيات ولبدة. إذ تنازعت المدينتان ولجأتا إلى القوة بسبب الخلاف على سرقة المواشي (١٤). وكان سكان أوئيات أقل عدداً فاستنجدوا بالجرامنت واستعانوا بهم، وهم أقوام محاربون ألفوا الغزو والغارات ولذا آلت لبلدة إلى أوضاع سيئة. وتعرض السكان الذين أقفلوا المدينة إلى التلف والهلاك. بينما أخذ الجرامنت يعيثون في الأرض فساداً ويقومون بتدمير الإقليم. وهنا تدخل اللفيف الروماني والفرسان وهزموا الجرامنت، واسترجعت منهم الغنائم كلها عدا ما بيع منها لسكان الدواخل.

وبعد ذلك بقليل، وفي عهد الإمبراطور (دوميزيان Domiziano) (٦٨ قبل الميلاد) قام سكان سرت (الناسمون) بالثورة. وقتلوا المندوبين الرومانيين. وقد تعرضوا بسبب ذلك إلى عقاب رادع قاس سلطه عليهم (فلاكو Flaco) الذي أخضعهم للسيطرة الرومانية من جديد.

وفي القرن الثاني بعد الميلاد، وأثناء الثورات الليبية الكثيرة التي انتشرت في موريتانيا، نعمت منطقة سرت ـ كما يبدو ـ بسلم نسبي. وقد ارتبط بهذه الفترة ازدهار أوئيات ولبدة. وقام القنصل الروماني في أوئيات سنة ١٦٣ ب. م

---

(١٣) Annales IV, 26.

(١٤) Tacito, Hestoriae, IV, 50.

بتشييد قوس ماركوس أوريليوس تخليداً لذكراه وتمجيداً له. وهي القوس المربعة التي ما تزال حتى الآن أعظم شاهد على عظمة روما في هذه البقاع.

وقد أنفق (ش. كالبرنيو شلسو C. Calpurnio Celso) بسخاء على تشييد هذه القوس[١٥] وقد ختمت العبارات التذكارية التي تمجد الأمبراطور بهذه الكلمات[١٦].

وفي إبريل من سنة ١٤٦ ولد بلبدة[١٧] سبتيموس سفروس، ابن سبتيمو جيتا Settimio Geta وفولفيا بيا Fulvia Pia وقد غادر وطنه خلال الفترة الواقعة بين ١٦٤ و ١٧٠. وتوجه إلى روما حيث درس الحقوق، وقد عين عضواً بمجلس الشيوخ في عهد الإمبراطور (ماركوس أوريليوس) وشغل عدة مناصب. وأمضى فترة طويلة من حياته في أطراف الأمبراطورية بإسبانيا والشرق وبلاد الغال. وكان قنصلاً بصقلية في ١٨٩. وكان في بنّونيا Pannonia عندما قتل الإمبراطور Comodo سنة ١٩٢. وعاد إلى إيطاليا في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية منقسمة بين المتطلعين إلى العرش. وتمكن في سنة ١٩٣ من الاستيلاء على السلطة. وقد ظل وفياً لنشأته الإفريقية، واحتفظ بهلجتها ونطقها، ولم ينسَ مسقط رأسه الذي وجه إليه عنايته، فأقام الحصون بطرابلس الغرب[١٨]. ورفع مدينة لبدة وبعض المدن الإفريقية والشرقية إلى مرتبة (Col- onia juris italici). وفي القرن الثالث كانت لطرابلس مؤسساتها المالية ونظامها المالي الخاص بمدرائه الخاصين (Procurator Privatea) وربما كانت لها أيضاً إدارتها العسكرية. ويبدو أنه في نهاية ذلك القرن أنشأ الأمبراطور (ديوكليزيان Diocleziano) مقاطعة طرابلس الغرب (Provincia Tripolitana) ٢٩٢ بعد الميلاد. وقد أبقى الأمبراطور (قسطنطين) في سنة ٣٢٤ على التقسيمات التي أنشأها

(١٥) هي القوس الموجودة بباب البحر، والمعروفة لدى العامة باسم (مخزن الرخام).

(١٦) Arcum pecunia sua solo publico et pundaisit et marmore solido fecit.

(١٧) **Dione Cassio, XXVI.**

(١٨) **Sparziano, XVIII, 3.**

سلفه، وقد أنشئت أربع مقاطعات (Prefetture) تشمل إحداها إيطاليا وإفريقية. أما مقاطعة إفريقية القديمة التي سبق تقسيمها إلى إفريقية (Africa Proconsolare) ونوميديا فقد تم تقسيمها على النحو التالي.

١ - نوميديا.

٢ - إفريقية القنصلية Africa Pronconsolaree Zengitana

٣ - إفريقية Africa Bizacena

٤ - طرابلس الغرب وعاصمتها تاكابس (قابس الحالية).

وفي عهدي الإمبراطورين جيوفيانو Gioviano ٣٦٣ - ٣٦٤ وفالنتنيانو (Valentiniano) ٣٦٤ - ٣٧٥ تعرضت طرابلس الغرب إلى غارات قام بها الليبيون الذين نهبوا ضواحي لبدة وقتلوا المعمرين. يضاف إلى هذه الأحداث التي عصفت بالبلاد، ذلك التنافس والانشقاق بين حكومة إفريقية والجماعات الوطنية بطرابلس الغرب، وقد أدى هذا الخلاف إلى سلسلة من التدخلات والفساد السياسي بروما، كما يروي المؤرخ (أميانو مرشلّينو Ammiano Marcellino).

وظلت إدارة المقاطعات حتى سنة ٤٠٠ على وضعها السابق، ولم يلحقها أي تغيير في الشكل، رغم أنها تعرضت في جوهرها إلى هزات، بسبب ثورات السكان، وانهيار قيمة الحكام وضعف وزنهم. ومنذ ذلك الوقت تقريباً كان الإطار الكامل للتنظيم السياسي والعسكري بطرابلس الغرب ممثلاً فيما عرف بإسم (Notitia Dignitatum)[١٩] وتتضمن قائمة المناصب المدنية والعسكرية للإمبراطورية الشرقية، منصب القائد العام، ومقره إيطاليا (Praefectus praetorio taliae) ويتبعه حاكم إفريقية (Vicario d. Africa) وتشمل سلطة الفيكاريو إقليمي (بيزاشينا Bizacene) ونوميديا اللتين يحكمهما قنصلان (Gonsulares) وطرابلس الغرب وموريتانيا ستيفنسي (Mauritania Sitifense) وموريتانيا شيزاننسي (Mauritania Gesanenuse) اللتين يتولى حكمهما عمداء

---

(١٩) Edis. O Seeck, Berlino 1876.

(Praesides). وللعميد اختصاصات مدنية فقط. وفي عهد الإمبراطور فالنتنيانو كان العميد بإقليم طرابلس الغرب (فلافيو بندتو Flavio Benedetto)[٢٠].

٣ ـ الاستعمار الروماني بطرابلس الغرب:

كان أول ما وجه إليه الرومانيون عنايتهم واهتمامهم في القرن الثاني بعد الميلاد ضمان الأمن على الطريق الساحلي الممتد من (تاكابس) قابس إلى لبدة. وأنشئت لهذا الغرض عدة حصون وأماكن مراقبة على مسافات متقاربة، خاصة عند المواقع المرتفعة وملتقى الطرق. وتذكر لنا خطط (أنطونينو Itenerario di Antonino) وجدول بوتنجر (Peutinger) أسماء هذه المواقع التي تدل عليها الأطلال والقصور التي ما تزال تشاهد آثارها حتى اليوم على طول الساحل، وقد ذكرها الرحّالون العرب في العصور الأخيرة مثل التبحاني والعياشي. ولئن لم يتم حتى الآن تحديد كل هذه المواقع، إلا أنه لدينا وقائع مؤكدة وموثوقة عن بعضها، (بسيدا القديمة Pisida) هي رأس المخابز (فروة). وما تزال صبراتة تحتفظ بإسمها القديم. و (Turris ad Algam) هي على أقوى الاحتمالات رأس تاجوراء، وربما كانت الموقع الحالي للولي سيدي الأندلسي. وتوبكتيس (Tubactis) هي مصراتة التي اكتشفت بها مؤخراً بعض الآثار الرومانية. وتوريس أوفرنتا هي قصر الزعفران (Turris Euphranta).

وجدير بالذكر أن نفس الأسباب الدفاعية قد دفعت الفاتحين العرب إلى أن ينشئوا في نفس المواقع ـ غالباً ـ مواقع مراقبة تطابق الأبراج والحصون والقلاع الرومانية[٢١].

وفي القرنين الثاني والثالث أنشىء حزام خارجي من التحصينات أطلق عليه اسم الحدود الطرابلسية (Limes Tripolitanus) وقد أنشىء هذا الحد على

---

(٢٠) C.I.L. VII, 12.

(٢١) أنظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.

هيئة قوس ينتهي طرفاه عند تونس ولبدة مروراً بالجبل(٢٢).

ولم تعد هذه الحدود كافية في العصور التالية، وبات من الضروري، لحماية النفوذ الروماني خارج هذه الحدود، إنشاء نقاط أمامية متقدمة على الطرق الرئيسية للمواصلات. فأنشئت مراكز بغدامس والقريات الشرقية والقريات الغربية وأبي نجيم. وقد نشطت أعمال الحماية هذه التي تمتد وراء الحدود، في عهد الإمبراطور (كومودو) ١٨٠ ـ ١٩٢ بعد الميلاد، وفي عهد الإمبراطور سبتيموس سفروس (١٩٣ ـ ٢١١) بعد الميلاد، وفي عهد ابنه (كركلا) والاسكندر سفروس (٢٢٢ ـ ٢٣٥) بعد الميلاد. وعلى امتداد الحدود كانت توجد معسكرات وحاميات صغيرة ومواقع مراقبة، كما كانت المزارع والمساكن الخاصة مهيأة للأعمال الدفاعية. واهتم الرومان اهتماماً كبيراً بالطرق وإنشائها لتحقيق التطور الحضاري والاقتصادي للبلاد، وتلبية الدواعي العسكرية الدفاعية. والعلامات الحجرية للطرق التي عثر عليها على طول الساحل وفي الدواخل تشهد بأن الأباطرة (خاصة أولئك الذين سادوا في القرن الثالث) قد وجهوا اهتماماً خاصاً لصيانة الطرق التي تربط الموانىء الساحلية، وحاميات الحدود وتمتد نحو الداخل حتى فزان (عن طريق غريان والقريات)(٢٣).

وكانت أهم المدن الساحلية في العهد الروماني هي:

صبراتة: ما تزال تحمل أطلالها ومسرحها العظيم شواهد عظمتها وأمجادها الغابرة. وكانت مركزاً تجارياً كبيراً، وكان موقعها كمنفذ إلى الجبل ودواخل إفريقيا قد ساعدها على التبادل التجاري (منتوجات غدامس والسودان). ويدل على أهمية صبراتة ذلك الاسم الذي ظل عالقاً بها حتى الآن وهو اسم (طرابلس القديمة) الذي يحتمل أن

---

(٢٢) **R.A. Cagnat:** La frontière Militaire de la Tripolitaine, á l'époque Romaine, Paris 1912 (Mèm. Académie Inscriptions et Belles lettres).

(٢٣) **S Aurigemma,** Pietre miliari Tripoline, in Riv.della Tripolitania II, 1925 - 1926 p. 3 - 21, 134 ' 150.

يكون التجار الإيطاليون قد أطلقوه عليها. وتنتمي إلى صبراتة (فلافيا دوميتــلا Flavia Domitilla) زوجــة الإمــبراطـور فــاسبـاسيــانــو Vespasiano.

أوئيا: شهـدت في القرن الثـاني للميلاد ازدهـاراً عظيمـاً، وفي هـذا العهـد (١٦٣) ب. م شيد بها قوس ماركوس أوريليوس. ويحتمل أن يكون قد تم في العهود التالية تسوير المدينة، بعد أن أخذت تهددها هجمات البدو. ومن المؤكد أن الأسوار لم تكن تحيط بها بشكـل كامـل، لا في ذلك العهد ولا في العهد البيزنطي. وفي القرن الســابع - كـما سنرى - وجد العرب الجانب البحري منهـا مكشوفـاً، وغير مســوّر. وهو أمـر طبيعي، إذ لم تكن المدينة تخشى أي تهديد أو هجـوم من تلك الجهة. وقد دلت بعض الحفريات العابـرة وإزالة الســور الغربي من المـدينة على وجود الشارع الرئيسي لمدينة أوئيا الرومانية. وربـما كانت إحـدى الطرق المحاذية للسور المُزال، تمثل الطرق الفرعيـة. ويحتمل أن يكـون مـوقع قـوس ماركـوس أوريليـوس ملتقى الـطرق الفـرعيـة بـالجـادة الرئيسية، كما تدل على ذلك شبكـة الطرق الحـديثة[٢٤]. وإلى الشـمال الشرقي من القوس عثر على آثار لمبنـى قديم يرجع إلى العهد الأيوني. وربما قامت في عصـور متأخـرة كنيسة مسيحيـة[٢٥] في الموقـع الشمالي الغربي من سيدي سالم. ومن الثابت أنه كان يقوم هناك هيكل للإلـه (أبوللو) يشاهد من البحر[٢٦].

لبدة: (Leptis Magna) كانت في العهد الروماني تحتل مساحة تقدر بحوالي ٧٠ هكتاراً. وكانت مسوّرة من جوانبها الجنوبية والغربيـة والشرقية. وليس بها سور من الجهة البحرية التي كانت تـطل عليها بمينـاء مجهز بعـدد من الأرصفـة مـا تزال آثـارها بـاقيـة حتى الآن. وقـد أنشئت

---

(٢٤) أنظر الفصل الثامن، طرابلس كما وصفها الرحالة التجاني.

(٢٥) أنظر الحديث عن الكنيسة في مستهل الفصل الثالث.

(٢٦) Notizario Archeologico del Ministero delle Colonie, anno II, 1916 P. 383 - 391.

السـدود للاستفـادة من مياه وادي كعـام وتوجيههـا إلى المدينـة حيث تحفظ في خزانات مخصصة لتزويد العدد الكبير من الناس الذين كانوا يقطنون بها. والمعالم الباقية من هذه المدينـة ومؤسساتهـا تشهد بمـاضٍ عريق في المجد والازدهار. ومن آثارهـا الباقيـة الكنيسة (Basilica) والحمامات (Terme) والقـوس المربعـة التي شيدت تمجيـداً لسبتيموس سفـروس[٢٧]. وفي القرن السـابق للميـلاد تمتعت لبـدة بـاستقـلال إداري. وثمة كتابة لاتينية بونيقية ترجع إلى هذا العهد، تشهد بوجود (سوفيتي[٢٨] Sufeti) حتى ذلك الوقت. وقد رفعها الإمبراطور (تراجان) إلى مـرتبـة (مستعمـرة Colonia) وسميت (أولبيـا تـرجـانـا Ulpia Traiana) وقد بدأ انهيارها مـع نهاية السيـادة الرومـانية، واستمـر هذا الانهيـار في العهد البيـزنـطي، حيث تعـرضت لهجـمات متتـاليـة من البدو. وقد أنشـأ البزنـطيون حصنـين أماميـين (رأس المراقب ورأس الحمّام) للدفاع عنها. وقد هجرت المدينة بعد الفتح العربي، وغـطّتها الرمال. وجدير بـالذكـر أنه منـذ القرن السـادس عشر أخذ الأهـالي والأوروبيـون يستخرجـون منها كميـات كبـيرة من الأعمـدة والقـطع الرخامية.

ولئن كـان حقاً مـا قيل من أن رومـا لم تؤثر في التكـوين السلالي البشري لهـذه البلاد، كـما لم تخلف في اللغة والعـادات ذلك الـطابـع الـذي خلفتـه في البلدان الأخـرى، خاصـة تلك التي تدعى بـالبلاد الـلاتينيـة الجـديـدة (neo - latini)، فمن المؤكـد أنها قـد خلفت معـالم كثـيرة بـاديـة من خـلال الإنشـاءات العسكرية والأعمال العامة والأعمال الفنية وأسماء البلدان. وبين عشرات المواقـع بـطرابلس الغرب، وتعـرف بالاصـطلاحات (قصر وبـرج وهنشير)، فـإن الكثـير منها يوحي بأنها إنشاءات قـديمة، ورومـانية عـلى نحو أخص. وهي منتشرة بكـل

---

(٢٧) P. Romanelli, Leptis Magna Roma 1925
R. Bartoccini Le Terme di Lepcis - Bergamo 1929.

(٢٨) C.I.L. VII, 7.

مكـان، وعلى طـول الساحـل المحاذي للطريق السـاحلية القـديمة التي تمتـد من تـونس حتى سرت. وفي منطقـة الجفارة عـلى طول الحـدود الـداخليـة (Limes) وخاصة في مناطق الجبل وطرق القوافل وأبي نجيم، قرب سنة ٢٠٠ بعد الميـلاد ألصق اللفيف الثـالث بمدخـل القصر الذي تحف بـه الأبـراج لـوحة تـذكاريـة تحمل عبارات الإهداء إلى سبتيموس سفروس وأوريليوس أنطونينو[٢٩]. وقد عثر في غـدامس على حجـر تذكـاري يحمل إهـداء من إحدى فـرق اللفيف الثـالث المرابط بإحدى القـرى إلى الإمبراطور الكسندر سفروس[٣٠].

لقد كشفت الأبحاث الأثرية عن وثـائق هامـة عـن السيـطرة الرومـانية، وقد أدت هذه الأبحاث إلى نتائج ثمينة. وعـثر خارج المـدن الثـلاث عـلى آثار منازل ريفية وزراعية وفسيفساء[٣١].

تتضارب الآراء حول منتوجات الأرض الإفريقية. وقـد تردد صـدى هذا الخلاف حتى في الشعر. وتجنباً للشواهد الكثيرة، فـإننا نكتفي بـالإشارة إلى مـا أنشده (هوارس) في الإشادة بوفرة المحصول[٣٢]،[٣٣].

وقد جاء هذا التناقض من أنهم كانوا يعنون بإفريقية المقـاطعة الـرومانيـة التي تعرف اليوم باسم تونس التي كانت مزدهرة، ومستغلة على أحسن الـوجوه. ويشهد المؤلفون العرب على روعة الماضي الذي كان سائداً بهذه البقاع. فيقـول التجاني (يقص المؤرخـون أن غابة طرابلس كانت تمتـد حتى الجبل، ثم دمـرتها الغزوات، وأجلت السكان عنها)[٣٤].

ويتحدث ابن خلدون عن الكاهنـة التي دمرت كـل شيء، وأحالت كـل

---

(٢٩) C.I.L. VIII, 4.

(٣٠) C.I.L. VIII, 1.

(٣١) **Gsell**, La Tripolitaine et le Sahara au IIIe Siècle de notre ère, in Memoires de l'Académie des Inscriptions voL XLIII 1926 p. 139, 166.

(٣٢) Sat, II, 3, 87.

(٣٣) Odi, 1, 22, 15 - 16.

(٣٤) التجاني ص ٢٤٧.

شيء إلى خراب، حتى لا يجد الفاتحون العرب ما يغريهم بالاحتلال والبقاء. وهو يؤكد أن الأرض التي تمتد من طرابلس حتى طنجة كانت مظللة بالأشجار وعامرة بالقرى المتجاورة(٣٥).

وانتشرت في طرابلس أيضاً أسطورة قناة الزيت التي تحمل الزيت، هذا المحصول الثمين، من الجبل حتى مرسى صبراتة. وقد لاحظ (تيسوت Tissot) أن نفس الأسطورة تتردد عن مدينة (زرزيس) بتونس(٣٦).

وعلى كل حال فمن الثابت أن محصول الزيتون والقمح والرعي قد منحت كلها لطرابلس الغرب ازدهاراً معيناً تشهد به الأساطير والروايات المتواترة والحفريات الأثرية.

٤ ـ الوندال: (٤٣٩ ـ ٥٣٥) البيزنطيون (٥٣٥ ـ ٦٤٢):

في سنة ٤٢٣ مات (أنوريو Onorio) وخلفه ابنه (فالنتينيانو Valentiniano) وكان حدثاً، صغير السن، فتولى الحكم تحت وصاية أمه (بلاشيديا Placidia) ابنة (تيودوس الكبير Teodosio). وكان في طليعة قواد الإمبراطورية آنذاك القائدان (إزيو Ezio) و (بونيفاشو Bonifacio). وقد ظفر هذا الأخير بقيادة إفريقية فأثار غيرة (إزيو) الذي أسرّ إلى بلاشيديا بأن بونيفاشيو يتصرف في شؤون إفريقية تصرف الملك المستقل. وللتدليل على صحة هذه التهمة اقترح على بلاشيديا دعوته إلى روما، موحياً إليها بأن رفض الحضور إلى العاصمة إنما يعني التأكيد القاطع على عصيانه وتمرده. وفي نفس الوقت بعث (أزيو) إلى (بونيفاشيو) رسائل سرية، محذراً إياه من مغبة الحضور إلى روما، والاستجابة إلى دعوة الإمبراطورة التي تنوي هلاكه والقضاء عليه. وانخدع بونيفاشيو بمكيدة منافسه، ورسخ في نفسه الاقتناع بأن حاشية الإمبراطورة تتآمر ضده وتكيد له، فلجأ إلى البحث عن سند له، وتحالف مع

(٣٥) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩.

(٣٦) Geographie comparée de la province romaine d'afrique, 1884 - 1888, 11, 206.

وندال إسبانيا. تلك هي القصة كما أوردها (بـوكيبوس)[٣٧]. ولعلهـا في حقيقتها وجـوهرهـا ليست سوى تـرديد لأمثـالها من الأسـاطير التي تعـبر عن الـرغبـة في توضيح الأحداث التي تغيب عن الناس أسبابها الحقيقية.

كـان الـونـدال آنـذاك محكـومـين بصفـة شكليـة من قبـل (جنـتريق Gunterico). أمـا الحكم الحقيقي فقد كـان بيد أخيـه (جنسريق Genserico) وهو أكبر سناً، وأوفر عقلاً، وأكثر شجاعة. وقد أرسل إليهـما بونيفـاشيو رسلـه مقـترحاً اقتسـام أفريقيـا وتوزيعهـا على ثـلاثة أجـزاء. وقبل الـوندال ذلـك. وغادروا إسبانيا التي دخلها الغوط سنة ٤٣٩.

وفي هـذه الأثنـاء انكشفت لعبـة (أزيو)، وعـرفت المكيدة التي دبـرهـا، فبادرت الملكة بلاشيديا بدعوة بونيفاشيو إلى الصمود في مقاومة الغزاة، وأرسلت إليـه الدعم والعـون. وقد حـاول بونيفـاشيـو أن يقـاوم الحصـار الـذي ضربـه جنسريق على (أبوّنـا Ippona) (بونـة أو عنّابـة بالجـزائر) وأجـبر المهاجـين على الانسحـاب، ثم هاجمهم في ميـدان مكشوف، ولكنـه هزم سنـة ٤٣١ وعاد إلى إيطاليـا ملتحقـاً بخدمـة الإمبراطـورة بلاشيـديا، بينـما ظل الـوندال سـادة على البلاد. وقد اتفق (جنسريق) مع الإمبراطور فالنتينـو في سنة ٤٣٥ والـتزم بدفـع الخراج، تاركاً ابنه هنريك رهينة. ولكنه قام في سنة ٤٣٩ باحتلال قـرطاجنـة، وجعل منها عاصمة للدولة الوندالية.

وانهارت الامبراطورية الرومانية، وقتل (أزيو). وأخذ (أتيلا Atilla) ينشر الرعب في إيطاليا. وفي سنة ٤٥٥ قام نفس جنسريق بنهب روما. وعندما رسّـخ سيطرته على أفريقيـة، أخذ يهـاجم جزر البحـر الأبيض المتوسط. ولم تعـد روما قادرة على الوقوف في وجهه. وظلت بيزنطـة، الإمبراطورية الشرقية، تـطالب بالحقوق الرومانية على إفريقية.

وقد هدم جنسريق جميع أسوار المـدن المنتشرة على سـاحل خليـج سرت، عـدا قرطـاجنة، حتى لا يحتـل الليبيون الأسـوار الرومـانية، أو يقـومـوا بـإثـارة

(٣٧) De Bello Vandalico, 1,34.

الاضطراب. وحتى يحول دون قيام القوات المرسلة من الإمبراطور باحتـلال هذه المدن وخلق المصاعب في وجه الوندال.

ويضيف بروكبيوس الذي يروي لنا هذه القصة قائلاً: (إن الإجراء الذي بدا لهم في ذلك الوقت عملاً وقائياً، قـد تحول فيـها بعـد إلى عمـل من الأعمال التي تنم عن الغبـاء، حين تمكن (بليـزاريوس) من الاستيـلاء عـلى هـذه المـدن الخالية من الأسوار)[٣٨].

ويقول بروكبيوس: (إن جنسريق قد خص أعيـان الليبيين، عنـد تقسيمه للغنائم، بإقطاعيات من الحقـول والعبيـد تمـاثل من حيث القيمـة ما خص بـه ولديه (هنريكو وجنزو). أما بقيـة الليبيين فقـد جردوا من أراضيهم التي قسمت على الشعب الوندالي، ولذا عرفت بإقطاعات الوندال). إذن لقـد طبق الونـدال في إفريقية النظام الإقطاعي. ولكن هذه الطريقة في نزع الثـروة لم تمارس إلا في إفريقية (Africa Proconsolore) ضد الأثرياء من السكان، ومـلاك الأرض من الـرومانيـين. وقـد دخلت طـرابلس تحت سيـطرة الـونـدال، ولكنهـا لم تخضـع لسلطتهم المباشرة. وفي الثورات ضد الوندال كانت طرابلس تبدو في الـطليعة، ففيهـا نزل (أرقليـوس Eraclio) للانـطلاق بحملته الأولى الفـاشلة. ومنها دعـا (بودنزيو Pudenzio) البيزنطيين.

لقـد أرسل الأمـبراطور (ليـون) إمبراطـور الأمبراطـورية الشرقيـة في سنة ٤٧٠، بازيليسكو Basilisco وأرقليوس، إلى إفريقية. وقد أبحر أرقليوس نحـو طـرابلس واحتلها، وهـزم الونـدال، واستولى عـلى المدن الـواقعـة عـلى خليـج سـرت حيث تـرك بهـا السفن، وزحف بـراً بحملتـه على قـرطـاجنـة. ولكن بازيليسكو الذي كان أمام العاصمة بأسـطوله، تـوانى في الهجوم، فـأضاع عـلى نفسه فرصة سهلة لتحقيق الاحتلال. ويبدو أنه خضـع لتأثـير الحاشيـة المرافقـة له، وقبل الهدنة التي عرضها جنسريق الذي كان يتحين الفرصة المناسبـة، حتى أصابهـا فهاجم الأسطول وذبح من فيه.

---

(٣٨) De Bello Vandalico, 1,5.

ودامت سيطرة الوندال على طرابلس الغرب حوالي قرن، ولكنها لم تخلف أي أثر. وجدير بالذكر أن (كباوون Cabaon)، أحد الزعماء الليبيين الذين يقيمون بضواحي طرابلس ويسميهم بروكبيوس: (ماورى) ما كاد يعلم بنية الوندال في التحرك ضده حتى جمع المحاربين من رجاله، ووجه بعض العيون إلى قرطاجنة لمتابعة تحركات الوندال الزاحفين على طرابلس وإبلاغه بها. وقد وضع أمام رجاله اثني عشر صفاً من الإبل. وبذلك تمكن من إلحاق الهزيمة بهم، وولوا هاربين. ويحتمل أن تكون هذه المعركة قد جرت في سفوح الجبل، عند السهل الواقع بين طرابلس وقابس[٣٩].

احتل البيزنطيون طرابلس في عهد الإمبراطور (جوستنيانو)، ودخلت طرابلس تحت سيطرتهم منذ ذلك الحين. ويقول بروكبيوس[٤٠] (إن بودنزيو، وهو أحد سكان طرابلس، ثار ضد الوندال، وبعث إلى الإمبراطور يطلب العون والنجدة، مؤكداً قدرته على احتلال هذه المنطقة دون مشقة. وأرسل جوستنيانو القائد (تِّموت Tattimuth) على رأس قوة صغيرة، فانضم إليه بودنزيو، واحتلا البلاد التي كانت خالية من الوندال، وأدخلاها تحت سيطرة الإمبراطور.

كان ذلك في سنة ٥٣١ ـ ٥٣٢، ولم يكن أمام (جليمروس Gelimero) وقت للتفكير في معاقبة بودنزيو، إذ كان مشغولاً بقضايا هامة، ومنها الثورة في ساردينيا.

وفي هذه الأثناء غادر بليزاريوس بيزنطة، ونزل (بكابوت فادا Caput Vada) سنة ٥٣٣ واحتل قرطاجنة، وأجبر جليمروس على الانسحاب إلى الجبال.

وكان يحكم طرابلس القائدان (بودنزيو وتتموت) إلا أن وضعهما كان محفوفاً بالخطر، مما اضطر (بليزاريوس) إلى أن يبعث لهما بجيش لدعمهما ضد

---

(٣٩) De Bello Vandalico, I,6.

(٤٠) De Bello Vandalico, I,10.

الليبيين. وقد هُزم الليبيون، وتركزت السيطرة البيزنطية بطرابلس. وفي سنة ٥٣٥ استسلم جليمروس بعد مقاومة بطولية. ورافق بليزاريوس إلى احتفالات النصر بالقسطنطينية.

وقد خلف بليزاريوس في حكم إفريقية (سلمون Salomone) وكان عليه أن يقاوم البربر مقاومة مستمرة. وفي سنة ٥٤٣ قسمت الحكومة الشرقية بين (سرجيو Sergio وشيرو Ciro) حفيدي سلمون. فكان من نصيب شيرو، وهو الأكبر، بنتابوليس (المدن الخمس). أما سرجيو فقد كانت من نصيبه طرابلس[٤١]. وحدث في ذلك الوقت أن توجه الليبيون (الماوري) المعروفون باسم (لواتة) في جيش منظم إلى لبدة لاستلام التعيينات والامتيازات التي تؤكد السلم. وقد أخذ سرجيو بنصيحة بودنزيو، فاستقبل داخل المدينة وفداً يتألف من ٢٨ شخصاً من الأعيان، ووعدهم بتلبية جميع المطالب. وأوقف بقية الأتباع خارج المدينة. وقد أخذ هؤلاء الأعيان يناقشونه أثناء اجتماعهم على مائدة الأكل، محتجّين على سلب حيواناتهم فلم يبد سرجيو اهتماماً كبيراً بما كانوا يقولون، ونهض متجهاً نحو الباب، حين أمسك به أحد البربر، محاولاً القبض عليه، بينما احتشد الآخرون حوله في هرج ومرج. وقد سلّ أحد حراس سرجيو سيفه وقتل البربري. وحدث هياج في القصر قتل على أثره جميع الأعيان الذين لم يسلم منهم سوى شخص واحد استطاع الفرار واللحاق بقومه الذين أخبرهم بما حل برفاقه، فتجمعوا وثاروا على البيزنطيين المقيمين بلبدة. وهاجمهم سرجيو وبودنزيو، واستوليا على أموالهم، وسبيا النساء والأطفال. وأخيراً وقع بودنزيو البطل قتيلاً في المعركة، وعاد سرجيو أثناء الليل بجيشه إلى لبدة. غير أن (لواتة) عاودت الهجوم وأخذت تلاحقه. وعبثاً حاول سرجيو الحصول على نجدة من سلمون الذي كان مشغولاً ضد الثوار. وقد مات هو الآخر في المعركة.

وقد كانت ثورة (لواتة) بداية لثورة مستمرة متلاحقة توالت فيها أحداث

---

(٤١) De Bello Vandalico, II,5.

النصر والهـزيمة[٤٢]. ويعـود الفضل في القضـاء عـلى الثـورة في سنـة ٥٤٧ ـ ٥٤٨ إلى (جيوفاني تروغليتا Giovanni Troglita). وكـان من بين الثـوار القائـد الليبي المشهـور (أنتالا Antala) وهـو من الليبيـين المعـروفـين في مقـاطعـة (بيـزاشينـا Bizacene) وقد انضمت إليهم قبيلة لواتة المشهورة. وقد تغنّى بمواقفه الشاعر (كوريبّو Corippo) في ملحمته المعروفة باسم (Johanneide).

وقد وصف بركبيوس[٤٣] لبدة فقـال: (إن القسم الأكبر منهـا مهجور. وإنها مغطاة بالرمال، بسبب مـا لحقها من إهمـال). وأمر جـوستنيانـو بإقـامة الأسـوار حولها عـلى نطاق أضيق من الـرقعةالسـابقة للمـدينة حتى لا تعـود ضحية سهلة للأعداء والـرمال. وقـد أهمل الجـانب الغربي الـذي غزتـه الرمـال وأعاد بنـاء الأجزاء الباقية على نحو أمتن وأقوى، وأقـام هيكلاً رائعـاً للعذراء، وبنى أربـع كنائس أخرى. وأعاد تشييد (البازيليكا) والحمامات وقصر سفروس[٤٤].

ولم يرد ذكر لمدينـة (أوئيا) ولكنها كانت ما تزال موقعاً هامـاً، وربما عنـاها بروكبيوس بحديثه عن (طرابلس Tripolis). وقد كانت أوئيا مركزاً هـاماً. واهتم البيزنطيون بتحصين الأسوار للدفاع عن المدينة ضـد هجمات الليبيـين[٤٥]. ورفع جوستنيانو أسوار صبراتة وأنشأ بها كنيسة.

ومن النـاحية الإداريـة كانت طـرابلس الغرب، في عهـد جوستنيـانـو، تشكـل جزءاً من المقـاطعات الإفـريقيـة السبـع (Diocesi d. Africa)[٤٦]. وكـان يحكمهـا قنصـل (Consularis) ولم تكن الإدارة في وضــع حسن، بسبب طمـع الحكـام وفساد المـوظفين. وكـان لطرابلس الغـرب تنظيمهـا العسكري الخـاص

---

(٤٢) ينتهي تاريخ بروكوبيوس بسنة ٥٤٦.

(٤٣) De Aedificiis, VI, 3,9 - **Bartoccini, Il** recinto giustinianeo di Leptis Magna in Tripolitania, vol II, 1925 P. 63 72.

(٤٤) ينسب كثير من المؤرخين الأجـانب الـدمـار الـذي لحق بلبـدة إلى الفتـح العـربي. وفي قـول بروكبيوس تأكيد على أن الإهمال قد لحق بها قبل قدوم العرب (المعرب).

(٤٥) **Aurigemma:** Notiziario Archeologico del Ministero delle Colonie 11,225.

(٤٦) **Diehl,** l'Afrique Byzantine p. 107.

بقيادة زعيم (Dux) ومقر قيادته (لبدة). ويرى (ديهل[٤٧] Diehl) أن البيزنطيين لم يحتلوا كل الأراضي الواقعة داخل الحدود الطرابلسية (limes) ولكنهم اكتفوا بحماية الطريق الساحلي الذي يمتد من قابس حتى لبدة. وكانت القبائل الليبية، في عهد البيزنطيين، تهدد مقاطعة إفريقية بأسرها. وقد دفع ذلك القادة العسكريين إلى تقوية الدفاع على الطريق الواقعة بين غدامس ومطماطة بتونس.

وعادت الثورات إلى الاشتعال من جديد، بعد وفاة جوستنيانو ٥٦٥، وانتشرت في إفريقية. وعند نهاية القرن السادس، أدخل إصلاح إداري هام، وذلك بإنشاء نظام الولايات (Esarcato d. Africa) ولم تلحق به طرابلس الغرب التي ضمت هي وبنتابوليس (برقة) إلى المقاطعة (Diocesi d'Egitto) المصرية. وفي سنة ٦٤١ مات الإمبراطور أرقليوس بعد أن خسر المقاطعات الشرقية في حروبه مع المسلمين. وخلفه الأمبراطور (كوستانت الثاني Costante II) وفي عهده استولى العرب على مصر، ثم على طرابلس الغرب.

---

(٤٧) Diehl, op. cit. p. 113.

الفصل الثالث

الفتوحات الإسلامية في طرابلس الغرب

* ظهور الإسلام.
* فتح برقة وتسيير أولى الغزوات نحو طرابلس ٦٤٦ م.
* سكان طرابلس الغرب في عهد الفتح العربي.
* ولاية زهير ونعمان الغساني وثورة الكاهنة.
* ولاية موسى بن نصير وخلفائه.

١ ـ ظهور الإسلام

لقد انطلق الإسلام ـ الذي سيؤثر تأثيراً عميقاً على تاريخ طرابلس الغرب وإفريقيا الشمالية ـ من الجزيرة العربية، وبالذات من الحجاز حيث ولد محمد في مكة في الفترة الواقعة بين ٥٧٠ ـ ٥٨١ م وأخذ يدعو إلى الدين التوحيدي الجديد. ولما وجد معارضة قوية في مسقط رأسه، مكة، هاجر وأصحابه إلى المدينة في ٦٢٢ م[1] وجمع حوله طائفة من المؤمنين شكلت وحدة دينية وسياسية كانت النواة الأولى في إنشاء الدولة الإسلامية. وتوفي محمد في (٨ يونيو ٦٣٢ م)، أي في العام الحادي عشر للهجرة، بالمدينة التي تضم ضريحه المقدس عند المسلمين، تاركاً دولة صغيرة لا تتجاوز حدود الحجاز ولم تثبت أركانها في غير المدينة. وتولى الخلافة من بعده أبو بكر الذي بايعه المسلمون. وقد انتشر الإسلام في عهده، وخرج من حدود الجزيرة العربية إلى سوريا والعراق. وفي خلافة عمر بن الخطاب تم فتح مصر (٦٤٠ م)، وفي العام التالي بدأت أولى الغزوات نحو طرابلس.

٢ ـ فتح برقة وأولى الغزوات نحو طرابلس

تختلف المصادر التاريخية في تحديد تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد برقة. ولكن يمكننا أن نحدد وقوعه في سنة ٢١ هجرية (١٠ ديسمبر ٦٤١ ـ ٢٩ نوفمبر ٦٤٢ م) بعد الاستسلام الكامل لمدينة الإسكندرية. وربما قام عقبة بن نافع في

(١) اتخذت الهجرة بداية للسنة القمرية العربية وهي توافق يوم ١٦ يوليو ٦٢٢.

نفس السنة، بحملة ضد الجنوب بلغت زويلة[٢] - وقد صالحت برقة وزويلة الفاتحين ودفعت الجزية[٣].

وتتفق أغلب المصادر العربية تقريباً على تعيين سنة ٢٢ هجرية (٣٠ نوفمبر ٦٤٢ - ١٨ نوفمبر ٦٤٣ م) بداية للفتح العربي لطرابلس الغرب. وليس بين هؤلاء المؤرخين العرب الذين يتحدثون عن ذلك من عاصر هذه الأحداث أو كان قريباً منها، ولكنهم ينقلون الروايات المتواترة التي تناقلتها الأجيال المتعاقبة. وقد أوردها الكتاب اللاحقون بدون تدقيق تاريخي. وعلى كل حال فإنه من الجائز اعتبار سنة ٢٢ هجرية - ربما خلال الفترة الواقعة بين ربيع وصيف سنة ٦٤٣ م) - السنة التي تم فيها تسيير الحملة بقيادة عمرو بن العاص لمحاصرة مدينة طرابلس. وتقص الروايات أنه لم تجر على الفور مهاجمة المدينة، وأن القائد المسلم قد أقام عند مرتفع يعرف باسم (القبّة) شرقي المدينة، وحاصر مدينة طرابلس مدة شهر كامل[٤].

وتقص إحدى الروايات أنه في يوم من الأيام خرج جندي من بني

---

(٢) Rossi, Il Sahara Italiano, Parte 1 - Fezzan e Oasi di Gat, in Storia del Medio Evo e dell'Età Moderna, Roma 1938 p. 334.

R. Brunschvig, Un texte arabe du IX siècle intéressant le Fezzan, in Revue Africaine n. 402, 403, 1945 p. 21 - 25.

(٣) أنظر العرض النقدي المتعلق بهذه الأحداث في كتاب:

L. Gaetani, Annali dell' Islam, vol IV anno 21 p. 123.

(٤) لا نعرف المبنى الذي تقوم عليه القبة المذكورة. وربما كان من المنشآت الرومانية أو البيزنطية أو العهود السابقة عليها التي ينتمي إليها الراوي الذي تنقل عنه الروايات المتواترة؟ وقد دأبت الروايات على تحديد هذا المرتفع بمرتفع (الظهرة) في الوقت الذي ينبغي أن يطابق ذلك المرتفع الذي يقع إلى الشرق من الظهرة، قرب البحر، حيث يقوم ضريح سيدي الشعاب وقامت في عهود متأخرة مقابر القرامانلية. ويذكر الجغرافي البكري (طبعة سلان ص ٨) بئراً تعرف باسم بئر القبة، ويقول إنها كانت أعذب آبار طرابلس. ويحتمل أيضاً أن يكون أحمد القرامانلي قد استخرج منها الماء الذي أوصله إلى المدينة، حيث أقامت الحكومة الإيطالية خزاناً للمياه عرف باسم الحميدية، على اسم الحصن الذي أنشأه الأتراك ودمره القصف البحري الإيطالي سنة ١٩١١.

مدلـج يتصيد مع سبعة من رفاقه، وسلكوا غرب المدينة، واشتد عليهم الحر في الرجـوع فأخذوا يسيرون بمحاذاة البحـر حتى بلغوا مدينة طـرابلس، واكتشفوا أن المدينة لم تكن مسوّرة من الجانب البحري منها. وكانت السفن ترسـو مقابـل بيوتهم. وقد وجـد المدلجي ورفـاقه مسلكـاً بين البحـر والمدينـة فدخلوا منـه، وكبّروا في الكنيسة المسيحيـة[٥]. وزحف الجيش الإسلامي مهـاجماً المـدينة. فلم يجـد الـروم ـ أي الإغريق ـ مفـراً من الإفـلات بمـا خف حمله والهـروب فـوق مـراكبهم. وقد غنم عمـرو كل مـا بقي بـالمـدينـة[٦]. فلما ظفـر عمـرو بمـدينـة طـرابلس جرد حملة عـلى مدينـة صبراتـة. وكان سكـان تلك المـدينـة التي كانت سوقاً هامة لمنـطقة طـرابلس[٧] الغرب، قـد تحصنوا بعـد أن أفزعهم نبـأ وصول عمرو بن العاص إلى طرابلس. ولما طال حصاره لمدينة طرابلس، وامتنعت عليه شهراً كاملاً، اطمأنـوا وخففوا الحـراسة، فصبّحهـا جيش المسلمين وقـد فتحت أبوابها وانصرف سكانها إلى ممارسة أعمالهم، في غفلة واطمئنان، فوقع المسلمون عليها وغنموا كل ما فيها.

وأثناء حصار طرابلس سيّر عمرو بن العاص جيشاً إلى الداخـل يلبغ بلدة ودّان (التي ما تزال قائمة حتى الآن)[٨].

---

(٥) اثناء إزالة السـور في سنة ١٩١٣ عـثر على آثـار كتابـات مسيحية يحتمـل أنها كانت لإحـدى الكنائس البيزنطية.

(٦) في خصوص الدراسة النقدية للمصادر انظر:
حوليات الإسلام / قايتاني ج ٤ ص ٥٥ وما تلاها.

(٧) هذه الإشارة الخاصة إلى الأهمية التجارية لمدينة صبراتـة توجـد لدى (ابن عبـد الحكم) ترجمـة دي سلان .(De Slane Histoire des Berbères 1, p. 302 - 303)
انـظر أيضـاً الـطبعـة المحققـة (لتـوري Torrey) ١٩٢٢ حيث يضيف ابن عبـد الحكـم أن عبـد الرحمن حـاكم إفريقية قام في سنـة ١٣١ هـ (٦٤٨ ـ ٦٤٩ م) بنقل سـوق صـبراتـة إلى طـرابلس. هكذا أفهم النص عـلى الرغم من التحـريف الذي لحق بنص تـوري. وربما كـان الخبر مجرد تذكير بالازدهار الذي كانت عليه صبراتة. وقد توقف بالفتـح العربي بينـما احتفظت طرابلس بنشاطها التجاري وزادت منه.

(٨) حوليات الإسلام ج ٤ عام ٢٢ ص ٥٥ وما تلاها ـ ابن عبد الحكم طبعة توري ص ١٩٤.

وبعـد أن ظفر عمـرو بهـذه الفتـوحـات وجمـع مـا أمكنـه من غنـائم سلك طريق العودة إلى مصر. ولا يبدو أن المسلمين قـد تركـوا حاميـة بطرابلس، بـل ويستبعد قيام هذا الاحتمال. ومن الغريب ألا يرد أي ذكر لمدينـة لبدة التي كـان من المفروض أن تستثير شهية الفاتحين. أترى، ينبغي أن نعتقد بأن تلك المـدينة الرائعة قد دمرت، قبل ذلك، وأنها قد خلت تقريباً من السكان في الوقت الذي كانت فيه مدينة صبراتة تعيش الأعوام الأخيرة من ازدهارها التجـاري ورخائهـا الاقتصادي؟

إن حملة سنة ٦٤٣ كانت مجرد غزوة بسيطة لجمع الغنائم، وإلزام النـاس بـدفع الجـزية، وهي حركة استطلاعيـة استكشافيـة، وتوجيـه نحو إفـريقية التي أخذت تتركز حولها شهوات الفتح[٩].

وعندما عاد عمرو بن العاص، ظلت طرابلس تحكم نفسها بنفسها، غـير أنـه يجب أن نتسـاءل من الـذي كان يتـولى الدفـاع عن مدينـة طـرابلس أثنـاء الحصـار الأول في سنة ٦٤٣ م؟ فمن المحـقق أن الـروم الـذين ركبـوا البحـر، حين بوغتت طرابلس بالهجوم، كانوا هم الجنود الإغريق والأفارقة. كما رأينـا ـ لم تكن محصنـة من جهة البحـر. إذ لم تكن تخشى حتى ذلك اليـوم من أي هجـوم بحري، ولكنها كانت محصنة من جوانبها الـبريـة لحمايتها من غـارات البربـر. ولا بد أنه كانت هناك حامية إغـريقية صغـيرة تدافـع عن أسوار المـدينة. وكـان يقوم في المكان الحالي للقلعـة حصن روماني بيزنـطي يحمي المدينـة من الشرق. وذلك يفسر لنا كيف جاءت المباغتـة من غربي المـدينة. هـل رجع هؤلاء الجنـد بعـد سفر عمـرو بن العاص؟ ليست لـدينا معلومـات. ولعلهم لجأوا إلى بعض موانيء إفريقية البيزنطية.

لقد قلنا إنه في بدايـة القرن السـابع الميـلادي، وبعد قيـام ولاية إفريقية (Esarcato d'Africa) جرى ضم طرابلس الغـرب إلى مقاطعـة مصر البيزنـطية

---

(٩) ورد ذكر لبدة في إحـدى الغزوات التي جـرت بعد عشرين سنـة من هذا التـاريخ. انـظر ذكر الغزوات التالية في هذا الفصل.

(Diocesi). ولكن المصادر العربيـة تشير إلى أنـه أثناء الفتـح الإسلامـي كـان (جرجير Gregorio) يحكم المنطقة التي تمتـد من طرابلس إلى طنجـة. ويمكننا في هذه الحالة أن نأخـذ برأي (ديهـل Diehl)[10] الذي يـرى أنه بعـد ضياع مصر، أصبحت طرابلس هي خط المواجهة الأماميـة مع الفـاتحين. ولعلهـا دخلت في هذه المرحلة ضمن نظام (Esarcato d'Africa).

ومن جهة أخـرى فـإن جرجـير الذي تصرف تصرف الـرجل المستقـل، وسمى نفسه في سنة ٦٤٦ ملكـاً، وضرب النقود بـاسمه، اهتم بـإنقاذ أراضيـه أكثر من اهتمامه بمساعدة طرابلس التي لم يبعث إليها بأي دعم سواء أثناء الغـزو أو بعده.

٣ ـ سكان طرابلس الغرب أثناء الفتح الإسلامي

يؤلف الليبيون الذين سيعرفون من الآن فصاعـداً باسم البربـر، السكان الأصليـين في المناطق الـداخلية والسـاحلية. أمـا البـونيقيـون (القـرطـاجنيـون) والإيتاليون Itolici والإغريق، فلم يبق منهم أثناء الفتح الإسلامـي سـوى عدد قليـل. وكان اليهـود أقلية ضئيلة. كـانت هناك بعض المجمـوعات اليهـودية، ولكنها كانت مؤلفـة من البربـر الذين تحـولوا إلى اليهـودية. وكـانوا منتشرين في المدن الساحلية وبعض مدن الدواخل.

من هم البربر الذين نراهم يسيطرون على تاريخ هـذه البلاد، ويقـاومون الـزحف العربي، ثم يعتنقـون الإسلام، ويحتضنـون منـه المـذاهب الخـارجيـة، ويثيرون الثورات والانتفاضات، ويتسببون في بعض المذابـح وأعمال الغـزو التي ساهمت مساهمة كبيرة في تدمير الإقليم وانهياره؟

لا تتوفر لدينا وثائق معاصرة لذلك العهد أو قريبة منه تساعدنا على تقديم عرض وثيق عن السكان البربر بطرابلس الغـرب في القرن السابع للميلاد. إن

(١٠) L'Afrique Byzantine.

المؤرخين الذين تصدوا لمعالجة مثل هذه الموضوعات ينتمون إلى عصور متأخرة من القرن العاشر، ولا نعلم مدى صحة المصادر التي يعتمدون عليها وقدمها.

إن العرض الذي يقدمه إلينا ابن خلدون عن بربر إفريقية، والمغرب، في عصره، أي القرن الرابع عشر، أي بعد سبعة قرون من الفتح العربي، يمكن أن يساعد كقاعدة في محاولة بناء هذه الأصول على أسس تعتمد مصادر ودراسات متزنة محددة(١١).

ويقسم ابن خلدون ـ في القرن الرابع عشر ـ البربر إلى جذمين كبيرين رئيسيين:

(١) البرانس.

(٢) مادغيس

وتنتمي إلى البرانس:

(١) أوريغة: وتعرف أيضاً باسم هوارة، وتضم عدة قبائل نجد بقاياها أو أثر إقامتها في طرابلس الغرب، متمثلة في بعض قبائل غريان ومسلاتة، مثل المجاريس(١٢) وبني تازة(١٣) وبني خيار(١٤)، وبني الخطاب(١٥) وعكارة(١٦) ومسراتة، وورفل(١٧) وبني ثاتب، وبني عمار(١٨).

---

(١١) **Ismali Kemali** Gli abitanti della Tripolitania. 1916.

E. De Agostini, La popolazioni della Tripolitania. Tripoli 1917.

Beguinot, le popolazioni della Tripolitania in la Rinascita della Tripolitania, Roma 1925, P. 25 - 50.

(١٢) وجدهم التجاني، من القرن الرابع، يقطنون جنزور/ ص ٢١٦.

(١٣) ما يزالون يسكنون جنزور.

(١٤) كانوا يقطنون منطقة الجفارة شرقي طرابلس.

(١٥) أقاموا حكماً لأسرتهم في فزان.

(١٦) هم طوارق هجار أو أهجار المعاصرون.

(١٧) ورفلّة.

(١٨) حكموا طرابلس ما يقرب من قرن ١٣٢٤ ـ ١٤٠٠.

(٢) كتامة: وقد بقي من بطونها بطرابلس الغرب قبيلة سيلين وقبيلة النورة (شرقي الخُمس).

وتنتمي إلى جذم مادغيس:

أداسة: وتنحدر منها قبائل ترهونة.

ضريسة: ومن بطونها زناتة التي تشمل بني بيزليتن وبني يفرن ومغراوة ورشفانة وبني خزرون[١٩] وبني مرين[٢٠]. وتنحدر من ضريسة أيضاً زواغة وماجر.

(٣) نفوسة: ويتألف منها سكان الجبل وقد كانت منتشرة قديماً حتى صبراتة.

(٤) لواتة: ومن فروعها الرئيسية نفزاوة ولواتة التي ينحدر منها بنو مالك، حكام قابس في القرن الثامن، وقبيلة ورفجومة المشهورة بثورتها سنة ١٤٤ هـ.

تلك هي القبائل البربرية التي كانت مقيمة بطرابلس الغرب في القرن الرابع عشر والتي نجدها - قرب هذه الفترة - قد تعربت، وخضعت لتحول في تكوينها السلالي وأهميتها العرقية. فإذا حاولنا أن نحدد بالتدقيق القبائل الموجودة بطرابلس الغرب في القرن السابع، والقبائل الوافدة على المنطقة بعد هذا التاريخ، فإننا سنجد صعوبة في هذا التحديد.

ويقول ابن عبد الحكم[٢١]، وهو أقرب المؤرخين إلى أحداث هذا العصر، إن البربر قد نزحوا من الحدود الشرقية لمصر وانتشروا في المغرب. وأن زناتة ومغيلة قد توجهتا إلى المغرب وسكنتا الجبال. وإن لواتة قد استقرت في برقة وأنها تكاثرت وانتشرت فيها بعد حتى المغرب، وإن هوارة قد استقرت بلبدة،

(١٩) تولوا حكم طرابلس ما يقرب من قرن ١٠٠٠ - ١١٠٠.

(٢٠) بغدامس.

(٢١) الطبعة الثانية من ترجمة Gateau ص ٣٥ من النص العربي وص ٣٦ من النص المترجم.

ونفوسة بمدينة صبراتة. متى تمت هذه الهجرات؟ ولقد ورد ذكر هوارة وحدها في القرن السادس الميلادي كقبيلة مستقرة حول لبدة. أما البكري[٢٢]، من القرن الحادي عشر، فيضع هوارة في المناطق الواقعة جنوبي طرابلس.

ومن ناحية أخرى فإن العرب لم يجدوا عند الفتح الأول، بطرابلس الغرب، سوى قبيلتي لواتة ونفوسة. فهاتان القبيلتان الكبيرتان كانتا تسكنان طرابلس الغرب منذ زمن سحيق يمتد بالتأكيد إلى أبعد من تاريخ الفتح العربي.

أما في العهود السابقة للفتح الإسلامي، أي عند نهاية العهد الروماني والبيزنطي، فلا بد أن تكون قد وقعت حركة هجرة إلى الشمال الإفريقي انطلقت من الشرق، وحملت زناتة وهوارة إلى المغرب حيث امتزجتا بالقبائل البربرية المقيمة في تلك المنطقة وتغلبتا عليها. وفي هذا الوقت أخذ ينتشر الجمل في إفريقيا الشمالية، ولم يكن قد عرف في هذه المنطقة من قبل[٢٣].

وقد عادت عدة قبائل من زناتة وهوارة إلى إقليم طرابلس الغرب، في القرنين السابع والثامن، أي في فترة اندلاع أعنف الثورات البربرية وأشدها. وقرب القرن العاشر للميلاد انتهت هذه التنقلات، وانتظمت هذه القبائل في مواقعها أو قاربت على الاستقرار[٢٤].

٤ ـ الفتوحات التالية ـ حملة عقبة بن نافع ـ أوضاع السكان الأصليين

ولّى الخليفة عثمان بن عفان الذي خلف عمر بن الخطاب في نهاية ٦٤٤ م عبد الله بن سعد على مصر. وقد قام عبد الله بحملة جديدة على إفريقية وتوغل (عام ٢٥ـ ٢٦ هـ ٦٤٦ ـ ٦٤٥ م) في برقة ونهض برفقة عقبة بن نافع ضد

(٢٢) أنظر ما تقدم في خصوص لبدة.

(٢٣) **Gautier,** Les siècles obscurs de Maghreb, Paris 1927 P. 163 - 225 .

(٢٤) **Ismall Kèmali,** op. cit. p. 11.

طرابلس الغرب، فغـزا الروم (الإغـريق) الذين صـادفهم في طريقـه، ثم تابـع سيره نحو إفريقية، موجهاً حشوداً من جيوشه في كل الاتجاهات[٢٥].

إن الأحـداث التـاليـة لهـذه الحملة لا تتصـل بـطرابلس إلا بصفـة غـير مباشرة. لقد أبدى (جرجير) البيزنطي مقاومة عنيفة في مواجهة الفاتحين في عـدة اشتباكات ومعـارك تحدث عنهـا المؤرخون بـطرق وأساليب خيـالية. ثم هـزم في (سبيـطلة) بتونس عـلى يد عبـد الله بن الزبـير الذي حضر لـدعم المسلمين. وفي عام ٢٧ هـ (٦٤٧ م) عادت الجيوش الإسلامية إلى مصر[٢٦].

وكما تبين لنا، مما تقدم، فإن هـذه الغزوات الأولـى لم تكن تحمـل طابـع الاستيـلاء والسيطرة الحقيقيـة التامـة، بـالإضـافـة إلى أنـه يجب أن نـلاحظ أن الـروايات المتـواترة عن هـذه الأحـداث مضـطربـة متنـاقضـة[٢٧]، فضـلاً عن أن بعض المصادر فقط تذكر أن عبد الله بن سعد قام بحملة جديدة على إفريقيـة في سنـة ٣٣ هـ (٦٥٣ - ٦٥٤) بعد أن خـرج الأهالي عـلى الاتفاقـات المبرمـة[٢٨]. وهكـذا نعلم بـأخبـار غـزوة لـلبـدة في ٥٤٣ هـ (٦٦٣ - ٦٤٤ م) قـام بهـا شارق بن سمي.

وتمضي عدة أعـوام لا نعلم فيها شيئاً عن أخبار الفتوحات الإسلاميـة في إفريقية، ويمكن أن نجد تفسيراً لذلك في الأحـداث الهامـة التي صاحبت ذلـك العهـد، داخل الـدولة الإسـلاميـة النـاشئـة، أي في الصراع عـلى الخـلافـة بـين المؤيدين لعلي والمؤيدين لمعاوية. وبعد أن ثبتت دعائم الدولة الأموية التي أسسها

(٢٥) ابن الأثير ج ٣ ص ٦٧ - ٦٨.

(٢٦) ابن الأثير ج ٣ ص ٦٩/٧٠. - فورنيل المصدر المـذكور ج ١ ص ١١٠ - ابن عـذاري ترجمـة فانيان، الجزائر ١٩٠١ - ١٩٠٧ ج ١ ص ٣ طبعة دوزي ليدن ١٨٤٨ - ١٨٥١ ج ١ ص ٤ ومـا تلاها. والطبعة الجديدة بعناية كولين وليفي بروفنسال - ليـدن ١٩٤٧ - ١٩٥١ ج ١ - ص ٩ وما تلاها.

(٢٧) حـوليات الإسـلام، ج ٧ عام ٢٥ هجـري حيث تحـدث عن الصعـوبـة في تحـديـد التـاريـخ المتسلسل الدقيق للغزوات ضد إفريقية.

(٢٨) ابن الأثير ج ٣ ص ١٠٧.

معاوية في دمشق ٦٦١، اتجهت عناية العرب واهتمامهم من جديد إلى المغرب.

واستناداً إلى بعض المصادر فقد تم في سنة ٤٦ هـ (٦٦٦ - ٦٦٧ م) تعيين رويفع بن ثابت الأنصاري حاكماً على طرابلس، وأنه قد قام في العام التالي بمهاجمة جربة وقفصة وقسطيلية[٢٩]. فهو إذن أول حاكم مسلم على إقليم طرابلس يذكره التاريخ[٣٠].

ولم يحدد بصفةٍ مؤكدة وثيقة تاريخ إسناد حكم إفريقية إلى القائد العربي الشهير الذي يحتل جزءاً كبيراً من تاريخ الفتح الإسلامي في إفريقية ونعني به عقبة بن نافع الذي جاء ليخلف معاوية بن حديج الذي تولى إفريقية من ٤٥ إلى ٤٧ هـ، بل ربما امتد حكمه إلى سنة ٤٨ هـ (٦٦٥ - ٦٦٨ م)[٣١].

وقد قاد عقبة بن نافع، خلال الفترة الواقعة بين ٤٩ - ٥٥ هـ (٦٦٩ - ٦٧٥ م)، حملات طويلة وجد الإسلام فيها فعلاً تأكيد وجوده وترسيخ كيانه في هذه البلاد. وقد اعتنق كثير من البربر الإسلام، وأنشئت حاميات ومراكز للجند في الأماكن الهامة[٣٢].

وتأسست حينذاك (٥٠ هـ) مدينة القيروان المشهورة. وهي أول قاعدة إسلامية ثابتة في المغرب. وهي المهد الأكبر للدعوة الإسلامية في هذه المنطقة. ولم يكن مرور عقبة بن نافع بطرابلس خالياً من الأثر، إذ سجل الخضوع

---

(٢٩) مصادر ذكرها قايتاني (Chronographia Islamica) 1,P. 511 - 521.

(٣٠) طبقاً لما يراه ابن عبد الحكم فإنه كان والياً على برقة وليس على طرابلس في سنة ٤٣ هـ. ويرى التجاني (ص ١٢٤) أنه عين من قبل معاوية والياً على طرابلس في سنة ٤٦. وقام في العام التالي بحملة على إفريقية واستولى على جربة. ثم مات ببرقة ودفن بها.

(٣١) Gaetani, Chronographia Islamica I,p.511 - 521.

طبقاً لما يراه ابن عبد الحكم (ترجمة توري ص ١٩٢ - ١٩٤) فإن معاوية بن حديج قاد ثلاث حملات على إفريقية في الأعوام ٣٤ - ٤٠ - ٥٠ - هجرية.

(٣٢) ابن عبد الحكم (طبعة توري ص ١٩٤) وابن الأثير (ج ٣ ص ٣٨٦) ترجمة فانيان (ص ١٩). والبكري ترجمة دي سلام ص ٣٣ وابن عذاري، ترجمة فانيان ص ١٣ ج ١ (طبعة ثانية ص ١٨) يبدو من هذه الطبعة الثانية التي تمت بالاستفادة من مخطوطات جديدة (للبيان) لابن عذاري أن عقبة أصبح والياً على إفريقية في سنة ٥٠ هـ (ص ١٩).

للسلطة الجديدة واعتناق الدين الإسلامي تقدماً كبيراً. ويروى أن عقبة بن نافع قد توغل حتى ودّان وغدامس وسأل سكانها عن المواقع الجنوبية فذكروا له (جرمة)[33] المدينة الكبرى في فزان. ففتح فزان، واتجه جنوباً إلى كاوار[34] حتى انتهى إلى مكان يعرف بعين الفرس[35]، حيث تفجر هناك نبع تحت حوافر فرسه. ثم غادر عقبة البلاد بعد أن دعاه الخليفة. وعندما سافر عقبة خلفه على حكم إفريقية (وكانت منضمة في ذلك الوقت إلى مصر) أبو المهاجر دينار حوالي (٥١ هـ) (٦٧١ - ٦٧٢ م)[36].

وليس من الدقة في شيء أن نتحدث حتى ذلك الوقت عن تتابع منتظم في ولاة إفريقية. ذلك أن الأمر لم يكن يعدو قيام حملات وغزوات حسب تعبير المؤرخين. وفي هذا الخصوص فإن ما يرويه ابن عبد الحكم[37] عن تأسيس القيروان ذو دلالة خاصة. (وهي قاعدة عسكرية بدائية حتى ذلك الوقت). فلقد حدد لها معاوية بن حديج موقعاً في البداية، نقله عقبة بن نافع مسافة ميلين، ثم جاء أبو المهاجر فنقلها هو الآخر مسافة ميلين. ويذكر ابن عبد الحكم[38] أن المسلمين قبل ولاية أبو المهاجر كانوا يقومون بغزوات في إفريقية ثم يعودون إلى الفسطاط[39].

---

(٣٣) جرامة.

(٣٤) مجموعة من الواحات إلى الجنوب من فزان. وقد ذكر البكري (كاوار) (ترجمة دي سلان ص ٣٤) أما أقصى هذه الواحات فهي (بيلما) الغنية بملاحاتها.

(٣٥) البكري (نقلاً عن ابن عبد الحكم) ترجمة دي سلان ص ٣٣. وابن عبد الحكم (طبعة توري) ص ١٩٥.

(٣٦) ابن الأثير (ج ٣ ص ٣٨٧) حيث ذكر أنه عين على ولاية مصر وإفريقية (للمرة الأولى يجري دمج المنصبين) مسلمة بن مخلّد الذي عين نائباً له في إفريقية مولاه أبو المهاجر دينار. أنظر أيضاً: حيث ذكر الاسم الكامل لأبي المهاجر دينار. وكذلك ابن عذاري في الطبعة الثانية ص ٢١ - ٢٣ حيث سدت الثغرة التي أشار إليها (دوزي) في الطبعة الأولى ص ١٤.

(٣٧) ابن عبد الحكم. طبعة (توري) ص ١٩٤ وكذلك ابن الأثير (ج ٣ ص ٣٨٦ - ٣٨٧).

(٣٨) طبعة توري ص ١٩٧.

(٣٩) قرب القاهرة الحالية.

وأن أول من استقر بها أثناء الحملة هو أبو المهاجر الذي أمضى الصيف والشتاء، وأبدى مقاومة. وعندما تولى يزيد الخلافة بعد وفاة معاوية سنة (٦٠ هـ) بعث من جديد عقبة بن نافع إلى إفريقية. وقد سار العرب في هذه المرة في البقاع المعروفة باسم الجزائر والمغرب. أي المغرب الأوسط والمغرب الأقصى. وقد أعلن جوليان البيزنطي استسلامه. وحمل عقبة لواء الإسلام إلى سواحل الأطلسي. ويقال إنه اندفع بجواده إلى الخضم هاتفاً (يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك)[٤٠] ولكنه استشهد في (تهودة) قرب بسكرة في الجزائر الحديثة، في هجوم قام به البربر بقيادة كسيلة زعيم البرانس في أغسطس ٦٨٣ م[٤١].

وقد انسحب زهير بن قيس مع بقايا جيشه حتى بلاد برقة وبقي البربر سادة الميدان، ووقعت القيروان أيضاً في قبضتهم[٤٢].

وهكذا نرى، بعد أربعين سنة تقريباً من الفتوحات الإسلامية، أن انتصاراً واحداً للبربر كان كافياً للإطاحة بالسيطرة العربية على البقاع الممتدة من طرابلس الغرب حتى المغرب. ولم يكن الفتح الإسلامي قد أنشأ له قواعد ثابتة راسخة، كما أن انتشار الدعوة كان في مراحله الأولى. بل لم يكن للفتح الإسلامي في البداية حتى طابع الدعوة الدينية، ولكنه كان يتطلع إلى الغنائم وبسط السيطرة السياسية والعسكرية. ولم يعامل المسلمون الأهالي الخاضعين معاملة سيئة، ما داموا على طاعتهم وخضوعهم. وكانت غنائم الحملات تقتسم بين الجند، بعد استخراج الجزء المخصص للدولة. وكان المغلوبون يدفعون الجزية أو الخراج، فإذا أسلموا رفعت عنهم الجزية وفرضت عليهم الزكاة المقررة في الشريعة الإسلامية. وقد احترمت في البداية الإدارات القائمة

(٤٠) ابن الأثير ص ٩٠ ج ٤ والصفحة ٩٢ من ترجمة فانيان.

(٤٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٩٠. ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ (أنظر أيضاً عن الولاية الثانية لعقبة لدى ابن عذاري، الطبعة الثانية ج ١ ص ٢٣ ـ ٣٠ حيث جاء النص أكمل مما كان في الطبعة الأولى.

في المناطق المفتوحة، وأسندت أيضاً بعض الوظائف المدنية لغير المسلمين[٤٣]. ولكن الالتزام بالخراج وسيطرة أقلية أجنبية لم تكونا من الأحوال التي يطمئن إليها البربر. وسنرى كيف ستتفجّر الثورات دون توقف من الآن فصاعداً.

٥ ـ ولاية زهير ونعمان الغساني، وثورة الكاهنة

ظل البربري كسيلة يحكم إفريقية، طوال خمسة أعوام، دون أن يتعرض لأية مضايقة. وفي سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ ـ ٦٨٩ م) بعث الخليفة عبد الملك بن مروان إلى إفريقية، زهير بن قيس الذي هزم المتمرد كسيلة وقتله، واستعاد القيروان، ثم غادرها تاركاً بها حامية. وبينما كان في طريقه إلى مصر هاجمته قوة إغريقية كانت قد نزلت ببرقة، وقتلته[٤٤]. ويدل هذا الحادث على أن إغريق بيزنطة لم يتخلوا حتى ذلك الوقت عن الأمل في استعادة إفريقية.

ونحن نعلم أنه قد ظلت حتى ذلك الوقت حامية إغريقية بقرطاجنة. وهي المنطقة التي لم يشملها الفتح العربي الذي سلك طرق الدواخل حتى انتهى إلى المغرب. وقد أراد البزنطيون الاستفادة من الأحداث الأخيرة، ومن حقد البربر على الفاتحين، في إعلاء حظهم بإفريقية، ولكنه أمل لم يطل مداه. فقد سارت إلى إفريقية حملة عربية جديدة بقيادة حسان بن النعمان الغساني في ٧٧ هـ (٦٩٦ ـ ٦٩٧)[٤٥] لقتال البربر الذين تجمعوا بعد مقتل كسيلة، حول الكاهنة[٤٦]، وهي من قبيلة جراوة التي تنتمي إلى زناتة[٤٧]. وفي ٧٩ هـ

(٤٣) عن معاملة المسلمين للبلدان المفتوحة أنظر:
حوليات الإسلام ج ٥ ص ٤٥٠ وكذلك:
A. Fattal, Le Statut légal des non musulmans en pays d'Islam Beytouth 1958.

(٤٤) ابن الأثير ج ٤ ص ٩١ ـ ٩٣. ابن عذاري ترجمة فانيان ج ١ ص ٢٠ ـ ٢١ فورنيل ج ١ ص ١٩٤.

(٤٥) طبقاً لما يراه ابن عبد الحكم فإن هذه الأحداث قد وقعت في سنة ٣٧ هـ (طبعة توري ص ٢٠٠).

(٤٦) الكاهنة تعني المتنبئة والعرافة. وأصل الكلمة من الكلمات السامية. ويحتمل أن يكون العرب هم الذين أطلقوه عليها.

(٤٧) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩.

(٦٩٨ ـ ٦٩٩ م) هزم حسان في إقليم الجزائر الحالي، ولوحق حتى قابس، وقد انسحب واستقر في منطقة سرت، في موقع ما يزال يعرف حتى الآن باسم (قصور حسان). وقد خافت الكاهنة من عودة العرب فأمرت بتدمير البلاد وتخريبها (إن العرب يريدون الذهب والفضة، ونحن نريد الحقول المزروعة والمراعي ولا أرى إلا أن أخرب إفريقية حتى ييأسوا منها)[٤٨]. وتم فعلاً تدمير الإقليم البربري، وخرب كل ما يمكن أن يثير رغبة العرب في الاستيلاء. وتؤكد هذا الخبر عدة مصادر. ومن المرجح، بل لعله من المؤكد، أنه خلال الغزوات العربية والثورات البربرية التالية، تعرضت البلاد لمتاعب كبيرة. وقد ذهب كل ما بقي بها من تنظيم مدني في معارك الجيوش، وتحرر البداوة الغالبة[٤٩]. ولكن العلاج الذي اقترحته الكاهنة لم يؤد الغرض، فقد عاد حسان بن النعمان، بدعم جديد وفي سنة ٨٤ هـ (٧٠٣ ـ ٧٠٤ م)، وقاوم البربر في إفريقية، وتوغل حتى جبال أوراس (بالجزائر) وهناك هزم الكاهنة، وقتلت. وكان البربر قد تخلوا عنها قبل المعركة.

وضمن العرب في هذه المرة السيطرة على إفريقية، ولكن ذلك لم يحل دون انفجار ثورات جديدة، وتكوين دويلات وأسر بربرية تنعم بنوع من الاستقلال الذاتي.

٦ ـ ولاية موسى بن نصير وبداية ثورات الخوارج

قام الوالي الجديد على إفريقية، موسى بن نصير، بتشتيت أوكار المقاومة البربرية، واحتل طنجة وسبتة، وبدأ بمساعدة جيش من البربر عمليات الاستيلاء على إسبانيا. ويذكر بين خلفائه يزيد بن أبي مسلم الذي قتله الثوار سنة ١٠٢ هـ (٧٢٠ ـ ٧٢١ م) وكان مقتله نتيجة للصرامة والقسوة التي عامل بها الأهالي البربر. إذ ألزم الذين اعتنقوا الإسلام بدفع الجزية[٥٠]. ولكن ربما

---

(٤٨) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢. ابن عذاري ترجمة فانيان ج ١ ص ٢٧ ـ ٤٩).

(٤٩) Gautier, p. 254 - 255.

(٥٠) ابن الأثير ج ٥ ص ٧٦. ترجمة فانيان ص ٥٦ ـ ٥٧.

وجب أن نبحث عن السبب الحقيقي في انتشار المبادىء الإسلامية (للخوارج) بين صفوف البربر. وهو ما سوف نهتم به في الفصول التالية.

وكان على عبيد الله بن الحبحاب أيضاً أن يواجه ثورات بربرية[٥١]. وقد هزم في أقصى المغرب في معركة حامية سقط فيها كثير من فرسان العرب. وهي معروفة في التاريخ باسم (غزوة الأشراف)[٥٢]. وقد خلفه كلثوم بن إياد[٥٣] الذي هزم هو الآخر في طنجة، وأرسل الخليفة هشام حاكماً جديداً هو حنظلة بن صفوان الكلبي في سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ - ٧٤٢ م) وقد انتصر في سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢ - ٧٤٣ م) على عكاشة بن أيوب الفزاري من الخوارج (الصفريين) وعبد الواحد بن يزيد الهواري في معركة مريرة قرب القيروان، وبينما كان حنظلة مشغولاً بالمعركة ضد عبد الواحد وعكاشة، أمر معاوية بن صفوان بأن يلحق به وينجده، وكان معاوية عامله على طرابلس، فلما وصل إلى قابس علم بمصير المتمردين ١٢٥ هـ (٧٤٢ - ٧٤٣ م)، وحينئذ زحف، بمقتضى أمر آخر من حنظلة، بجيوشه على بربر نفزاوة (تونس) وكانوا قد انتفضوا ونهبوا أهل الذمة. وقد قتل معاوية بن صفوان في معركة مع المتمردين، ولكن جيشه انتصر واستعاد الخيرات المنهوبة. وقد عين حنظلة على قيادة ذلك الجيش زائد بن عمرو الكلبي الذي رجع إلى طرابلس[٥٤].

---

(٥١) قبله مباشرة أي في سنة ١٠٩ هـ كان الوالي على إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن الذي أرسل عدة حملات لغزو صقلية. وقد عصفت الرياح بإحدى حملاته على صقلية سنة ٧٢٨ م وألقت بها إلى شواطىء طرابلس فأمر عامله يزيد بن مسلم الكندي بالقبض على قائد الأسطول المستنير بن الحارث وإرساله إلى القيروان حيث قام بضربه لتقاعسه عن الحملة. (ابن عبد الحكم. طبعة توري ص ٢١٦). أماري: المكتبة العربية الصقلية ج ٢ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٥٧٣ - ٥٧٤ - ٧١٧ وكذلك ابن الأثير والقيرواني والمقريزي.

(٥٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٣٧.

(٥٣) حكم طرابلس في عهده صفوان بن أبي مالك (ابن عبد الحكم طبعة توري ص ٢١٩).

(٥٤) ابن عبد الحكم. طبعة توري ص ٢٢٣.

الفصل الرابع

ثورات الخوارج في افريقية

* الإباضية في طرابلس الغرب
* حكم حنظلة وعبد الرحمن بن حبيب في إفريقية .
* طرابلس وطرابلس الغرب تحت الخلافة العباسية .
* الولاة الموفدون من الخلفاء العباسيين في إفريقية في النصف الثاني من القرن السابع .

١ - الإباضية في طرابلس الغرب

تستمد جماعة الخوارج أصول نشأتها من المنافسات التي قامت في السنوات العشر الأولى لظهور الإسلام والتي أثارت الصراع بين المؤيدين لعلي بن أبي طالب، ابن عم النبي وصهره، وبين المؤيدين لخلافة معاوية بن أبي سفيان، بعد وفاة عثمان بن عفان.

وبعد معركة (صفين) بالعراق سنة ٦٥٧ م، وبعد أن قبل علي فكرة التحكيم في تسوية الخلاف، انشق عليه بعض أتباعه، مؤلفين بذلك النواة الأولى للمنشقين والخارجين. وهو المعنى الذي تحمله كلمة (الخوارج)[١]. وحول هذا الخلاف السياسي تطورت فيها بعد خلافات ذات طابع ديني، بحيث أصبح الخوارج جماعة متزمتة تعادي السنيين والشيعيين. وقد انقسمت هذه الجماعة بدورها إلى عدة نحل، منها الصفرية والإباضية. وقد عرف الأخيرون بهذا الاسم نسبة إلى إمامهم عبد الله بن إباضة المريّ، وهو عربي الأصل. توفي سنة ٧٥٠ م. وقد كان للإباضية (تنطق الهمزة بالفتح في الشمال الإفريقي) أتباع كثيرون في أفريقيا الشمالية يزخر بذكرهم تاريخ القرون الأولى للسيادة الإسلامية بطرابلس الغرب.

وقد جاء المذهب الإباضي إلى إفريقية بمجيء الفاتحين العرب، نحو سنة

---

(١) **F. Gabrieli,** Sulle origini del movimento hârigita in Rend. Acc. Naz. Lincée, Serie 7e vol 111 1941 - 1942 p. 110 - 114 (L'islam nella storia. Bari 1966 - p. 27 - 37).

M. Guidi, Sui Hârigiti in Riv. studi Orientali XXI, 1946 p. 1 - 14

L. Veccia Vaglieri, Sulla denominazione Haîwarigid XXVI, 1951 p. 41 - 46.

٧٠٠ م[٢]. ووجد عدداً كبيراً من الأتباع بين البربر. ويختلف الإباضية عن أهل السنة في بعض المسائل، منها (التخليد في النار حتى للمسلمين غير التائبين. إنكار رؤية الله يوم القيامة. خلق القرآن). كما يختلف في قضية الإمامة (الخلافة)، إذ يرى الخوارج أن ليس بالضرورة أن يكون الخليفة قرشياً. ولكن يكفي أن يكون عادلاً وتقياً ومراعياً للشريعة.

وتتلاءم نظرية الخوارج في الإمامة مع نفسية الشعب البربري الذي اعتاد على نظام القبيلة، وعلى مجتمع حر ينظم شؤونه بنفسه، ويرفض السيادة الخارجية، غير راغب في الخضوع للعرب مثلما هو غير راغب في الخضوع لغيرهم من الفاتحين[٣].

إن ابن خلدون ـ مؤرخ البربر ـ الذي عاش بينهم، ووهب الحس النقدي الدقيق، ذكر بأن البربر قد استخدموا مذهبهم الخارجي سلاحاً لمهاجمة الحكومة[٤].

---

(٢) يذكر الشماخي صاحب (كتاب السير) وهو معجم لأعلام الإباضية بجبل نفوسة، أن سلمان ابن سعد قد جاء من المشرق إلى المغرب داعياً للمذهب الإباضي ثم رحل بعد ذلك عبد الرحمن بن رستم إلى البصرة بالعراق لتلقي أصول المذهب الاباضي على العالم أبي عبيدة، ووجد نفسه مع مجموعة أخرى من البربر في نفس المدرسة. وهم عاصم السدراتي (سدراتة فرع من قبيلة لواتة) وإسماعيل بن درار من غدامس وأبي داوود من نفزاوة وأبي الخطاب عبد الأعلى بن الشمس المعافري. وقد بايعوا هذا الأخير إماماً لهم في اجتماع عقدوه بصيّاد عند عودتهم إلى الوطن وهو أول إمام للاباضية (١٣٠ هـ تقريباً ٧٤٧ ـ ٧٤٨ م). ويطلق الاباضية على هؤلاء الخمسة (حملة العلم) ولكن يقال إن بربرياً من جنّاون تلقى العلم بمدرسة أبي عبيدة وشغل منصب المفتي بها قبل سفر هذه الجماعة. هذه هي الرواية المتواترة التي رواها كتاب السير (طبعة القاهرة (١٣٠١ هـ) ص ٩٨ ـ ١٢٣ ـ ١٤٣) ورحلة هؤلاء الخمسة غير مؤكدة. ومن المؤكد أن مبادىء المذهب الاباضي قد جاءت مع الفاتحين العرب، وتلقاها البربر على الفور وخاصة بربر زناتة حتى قبل سنة ٧٥٠ م.

(٣) **Motylinski**, L'aqida des Abadites

محاضر المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين، الجزائر ١٩٠٥.

(٤) ابن خلدون (ترجمة سلان) ج ٦ ص ٢١٦.

انظر المقارنة التي عقدها (جوتييه ص ٢٦٠ ـ ٢٦٤) بين المذاهب الخارجية والمذاهب المسيحية المنشقة التي أثارت الاضطراب في إفريقية المسيحية خلال القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد.

٢ ـ ولاية حنظلة وعبد الرحمن بن حبيب في إفريقية. الثورة البربرية الأولى

لاحظنا[٥] أن حنظلة قد أعاد سلطة خلفاء دمشق على إفريقية، ولكن ذلك لم يكن انتصاراً نهائياً. فإن العرب أنفسهم الذين يقلون عدداً عن البربر قد حملوا إلى إفريقية وإسبانيا وصقلية صدى الخلافات التي كانت تقسمهم في سوريا والجزيرة العربية. ونعني بها الصراعات بين القيسية والكلبية. وقد كان حنظلة كلبياً. ورغم أن البربر كانوا يفضلون حكم الكلبيين، لأنه أكثر ليناً إلا أنهم لم ينضموا إلى أي من الفريقين، واستفادوا من الخلاف بين السادة الفاتحين.

وقد استولى خليفة حنظلة، عبد الرحمن بن حبيب، على القيروان في سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤ ـ ٧٤٥ م) وفي أثناء ولايته وقعت الثورة البربرية الأولى بطرابلس الغرب.

لقد أرسل عبد الرحمن، شقيقة نصر بن حبيب، لحكم طرابلس، فقبض على الزعيم عبد الله بن مسعود التجيبي الإباضي، وقتله. فأثار بذلك حفيظة الأباضيين في طرابلس فما لبثوا أن ثاروا عليه. وظن عبد الرحمن أنه سيهدىء النفوس الثائرة بسحب شقيقه، وتعيين حميد بن عبد الله العكّي بدلاً منه، على ولاية طرابلس، ولكن زعماء البربر الثائرين مثل عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي حاصروا الحاكم الجديد في إحدى قرى طرابلس ثم أذنوا له بالسفر، بعد منحه الأمان، على أثر إصابة جيشه. ولكن بعد أن انتقموا لقتل عبد الله بن مسعود التجيبي بقتل المدعو نصيراً.

وهكذا ظل عبد الجبار سيد الموقف في طرابلس الغرب. واستولى على إقليم بربر زناتة، وقد أرسل عبد الرحمن والياً جديداً، هو يزيد بن صفوان المعافري، وكلف مجاهد بن مسلم الهواري بمحاولة استمالة هوارة. وقد تحرك الاثنان من طرابلس للانضمام إلى الفرسان الذين كان يقودهم محمد بن مفرق.

---

(٥) انظر الفقرة السادسة من الفصل السابق.

كما رد المتمردون حملة أخرى، وقد اضطر قائدها عمر بن عثمان إلى الانسحاب مع مجاهد بن مسلم إلى المشرق حتى سَرت. وأصبحت طرابلس الغرب كلها تحت سيطرة عبد الجبار والحارث اللذين لم يلبثا أن اصطدما وقتلا. وحينئذ أعلن بربر طرابلس زعامة إسماعيل بن يزيد النفوسي (من بربر نفوسة)، وتحرك حاكم إفريقية، عبد الرحمن، نحو الغرب، بعد أن سبقه ابن عمه، شعيب بن عثمان بفرسانه. وقد التقى هذا بإسماعيل وقتله وأسر عدداً من البربر الذين نقلوا إلى طرابلس وأعدموا. وعهد عبد الرحمن بولاية طرابلس إلى عمرو بن سويد المرادي حوالي ١٧٢ هـ (٧٤٩ ـ ٧٥٠ م)[٦].

٣ ـ طرابلس وطرابلس الغرب تحت الخلافة العباسية

في سنة ٧٥٠ م انتهت الأسرة الأموية، وقامت الأسرة العباسية التي نقلت عاصمة الخلافة إلى بغداد. وقد أعلن عبد الرحمن بن حبيب بيعته للعباسيين، ونشر دعوتهم في إفريقية. ولكنه تمرد عليهم في سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ ـ ٧٥٥ م) وحدث أن قتل عبد الرحمن على يد إخوته، فانتقم له ابنه حبيب بقتل أحد أعمامه. فاتجه أقارب هذا الأخير إلى مساعدة ورفجومة ومساندتها. ولم تتردد هذه القبيلة عن القيام في سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ ـ ٧٥٨ م) بمحاصرة القيروان، وقتل حبيب بن عبد الرحمن، ودخلت المدينة العربية، وانتزعتها عنوة، وقتلت السكان وربطت خيولها بالمسجد الكبير. وكان يقودها الخارجي عاصم بن جميل. ولما قتل خلفه على القيادة عبد الملك بن أبي الجاد.

وكان العنف الذي ارتكبته (ورفجومة) قد أثار اشمئزاز واستنكار البربر الإباضية الذين كانوا أكثر اعتدالاً، فدفعهم ذلك إلى مقاومتها فنهضوا لها بقيادة

---

(٦) ابن عبد الحكم (طبعة توري ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥) وابن الأثير ص ٢٣٧ ج ٥ وابن خلدون ج ٦ ص ١١١ من ترجمة دي سلان. ويذكر ابن خلدون أن الثائرين الاباضيين هما من قبيلة هوارة، وقد قتلا في تلك الثورة حاكم طرابلس بكر بن عيسى القيسي. وابن عذاري ص ٧٦ من ترجمة فانيان. ويؤكد كتاب السير ص ١٢٥ أن عبد الرحمن قد سور مدينة طرابلس التي تدفق عليها الناس من كل مكان.

أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري[٧]، واستولوا على طرابلس[٨]، وطردوا حاكمها عمر بن عمر بن عثمان القرشي، ثم قاموا بمحاصرة القيروان والاستيلاء عليها[٩] بعد أن استولوا أثناء الزحف على مدينة قابس، ونصبوا على القيروان الحاكم الإباضي عبد الرحمن بن رستم[١٠].

وعاد أبو الخطاب بعد ذلك إلى طرابلس التي ظلت، لعدة أعوام، المركز الرئيسي للحكومة البربرية في إفريقية. ولم يكد يعلم، في العام التالي، بقيام حملة من العرب نحو أفريقية، لنجدة الجند العرب بها، حتى نهض لمواجهتهم في مغمداس[١١]، وتمكن من تشتيتهم، (١٤٢ هـ) ٧٥٩ ـ ٧٦٠ م[١٢]. وحينئذ أرسل الخليفة المنصور، محمد بن الأشعث لقمع الثوار يرافقه الأغلب بن مسلم التميمي، وجيشاً كبيراً هاجم به إباضيي نفوسة وهوارة والضريسة بتاورغاء. وقد سقط أبو الخطاب في الميدان. وحاول أبو هريرة الزناتي أن يرفع من وضع الإباضية ولكنه هزم وقتل. وأصبح بن الأشعث سيد أفريقية، فأرسل حملة إلى جنوب طرابلس الغرب للاستيلاء على ودّان، وقتل إباضية تلك المقاطعة. وقد

---

(٧) انظر ما ذكرناه في هامش رقم ٢ من هذا الفصل.

(٨) طبقاً لما يرويه (كتاب السير ص ١٢٦) فإن الاباضية قاموا بإدخال المسلحين إلى المدينة في أكياس. وما كادوا يدخلون إليها حتى هبّوا هاتفين (لا حكم إلا لله) وهو نفس الشعار الذي انشق به الخوارج على علي بن أبي طالب.

(٩) مات أثناء هذا الحصار عاصم السدراتي أحد حملة العلم الخمسة عند الاباضية. ويرى آخرون أنه قد توفي بعد ذلك.

(١٠) يوجد وصف لهذا الحصار في كتاب السير ص ١٢٨، وابن الأثير ج ٥ ص ٢٤٠ وابن خلدون ج ٦ ص ١١٢ وابن عذاري (ترجمة فانيان ص ٧٨ ـ ٧٩). عن المصادر المتعلقة بهذه الأحداث أنظر: Gaetani, Cronografia generale... ecc

(١١) تطابق (مغمداس) التي ذكرها البكري (ترجمة دي سلان ص ٢١) وورد هذا الاسم أيضاً في كتاب السير في الصفحات ١٣٦ ـ ١٣٧ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣. وهي (ماكومداس Macomadas التي أسسها القرطاجنيون وتعني في لغتهم ماكوم هداش Maqom hadash (المدينة الجديدة). وقد سبق أن ذكرناها في المدن القديمة بطرابلس الغرب.

(١٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٤١ وابن عذاري ترجمة فانيان ج ١ ص ٨٠. وقد ذكر اسم الموقع (مِقداش).

استولى أيضاً على زويلة، وقتل الزعيم الإباضي عبد الله بن سنان سنة ١٤٣ هـ (٧٦٠ - ٧٦١ م)[١٣].

ولم يكد عبد الرحمن بن رستم يعلم بنبأ هزيمة الإمام ومقتله حتى غادر القيروان وانتقل إلى الغرب حيث أقام الدولة الخارجية في تيهرت (بالجزائر الحالية) التي ظلت مدة تقرب من مئة وثلاثين سنة، واستمرت في الوجود حتى ظهور الفاطميين[١٤]. وهكذا انتهت المحاولة الرامية إلى إقامة سيادة بربرية إباضية في طرابلس وإفريقية.

٤ - الولاة المعينون من الخلفاء العباسيين على إفريقية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي

تولى ابن الأشعث حكم إفريقية حتى سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ - ٧٦٦ م). وفي تلك السنة ترك البلاد بسبب التذمر الذي شاع بين الجند الذين عينوا قائداً لهم، عيسى بن موسى الخراساني. ولكن الخلافة عهدت بحكم إفريقية إلى البطل أغلب التميمي الذي عرف في الأعوام التالية بحروبه ضد البربر. وكان عهده أيضاً حافلاً بالاضطرابات. وقتل في سنة ١٥٠ هـ في معركة حربية. وخلفه أبو جعفر عمرو بن حفص الذي واجه ثورة جديدة للبربر.

أما إباضية طرابلس فقد بايعوا بالإمامة أبا حاتم يعقوب الذي هاجم طرابلس وهزم حاكم المدينة، الجنيد بن بشار، واضطره إلى الفرار إلى قابس حيث حاصره ثم حاصر (طبنة) حيث كان أبو غفار. وثمة عدة آلاف من البربر الإباضيين والصفريين الذين كانوا يهددون السيطرة العربية في إفريقية. وكان لثوراتهم أحداث مختلفة. وقد انتقل بعد ذلك من حصار طبنة إلى حصار

---

(١٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٤١. ابن عذاري ص ٨١. كتاب السير ص ١٣٢. وترى بعض المصادر الأخرى أن المعركة وقعت في سرت سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ - ٧٦٢ م) أنظر:

Gaetani, (Cronografia), Periodo 11 fasc. 1 anno 144.

(١٤) كتاب السير ص ١٣٩ وسليمان الباروني (كتاب الأزهار الرياضية القسم الثاني القاهرة ١٣٢٥ ص ٦).

القيروان ثم إلى تونس، حيث قتل أبو جعفر سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ - ٧٧١ م).

وفي هذه الأثناء قدم بالنجدة من الشرق يزيد بن حاتم. وانتقل أبو حاتم الإباضي إلى طرابلس الغرب، والتقى به في سرت. وقد ذكر الشماخي[١٥] أنه هزمه في مغمداس[١٦]، ويقول آخرون إنه فر إلى الجبل[١٧]. وفي ٢٧ ربيع الأول من سنة ١٥٥ هـ (٧ مارس ٧٧٢ م) هاجم يزيد بن حاتم، أبا حاتم، كما هاجمه أيضاً البربر المنشقون عليه، فقتل مع عدد كبير من أتباعه[١٨].

وعهد يزيد بولاية طرابلس إلى سعيد بن شداد[١٩]. ثم توجه إلى القيروان فدخلها يوم ٢٦ مايو ٧٧٢ م، وقام بتدبير الشؤون الإدارية للمنطقة. وفي سنة ١٥٦ هـ (٧٧٢ - ٧٧٣ م) قام الأباضيون والصفريون بإشعال نار الثورة. وثار في طرابلس أبو يحيى بن فانوس الهواري[٢٠]. وقد فتك به الحاكم عبد الله بن السمت وقتله وعدداً كبيراً من أتباعه[٢١]. وكانت ولاية روْح بن حاتم، أخي يزيد، ولاية هادئة مطمئنة. ويعلل أحد المؤرخين المسلمين ذلك بقوله: (لأن أخاه أقام مذبحة كبرى للخوارج في إفريقية)[٢٢].

---

(١٥) كتاب السير ص ١٤٦.

(١٦) ابن الأثير ج ٥ ص ٤٦٠.

(١٧) كتاب السير ص ١٣٦. ابن عذاري ترجمة فانيان ج ١ ص ٩١. جرت المعركة قرب جبل يقع إلى الغرب من جندوبة. أنظر أيضاً كتاب السير ص ١٣٧ بخصوص الأسطورة التي نسجت عن أبي حاتم وقبره.

(١٨) ابن عذاري ترجمة فانيان ج ١ ص ٩١.

(١٩) ابن الأثير ج ٦ ص ٦. ابن عذاري ترجمة فانيان ج ١ ص ٩١ وابن خلدون ج ٦ ص ١٤١.

(٢٠) ابن عذاري ترجمة فانيان ج ١ ص ٩١ ابن خلدون ج ٦ ص ١٤١.

(٢١) ابن الأثير ج ٦ ص ٧٨.

(٢٢) البكرى ترجمة دي سلان ص ٢٥. وابن الأثير ج ٦ ص ٩٥ - ٩٦. ابن عذاري ص ١٠٧. وقد أكد الخبر ابن الخاطب.. انظر:

H.H. Abdul- Wahab in Centenario M. Amari 11 p. 433.

وكذلك النويري ترجمة دي سلان في ذيل كتاب (تاريخ البربر ص ٣٩٤).

Histoire des Berbères 1 p. 493.

وفي سنة ٧٧٨ م، أي بعد مضي أكثر من قرن على الفتح العربي، يمكن القول بأن الثورات البربرية قد أخمدت. وستطالعنا بعض الانتفاضات التي تقع بطرابلس في ٨١٢ و ٨٣٦ وفي نهاية القرن التاسع الميلادي. ولكن حكومة الأغالبة القوية، وسياسة الاحترام للإباضيين الذين تركوا وشأنهم، ثم الحملة على صقلية التي تدفقت فيها طاقات كبيرة من عناصر القلق التي كان من الممكن أن تتطور من خلال حركات وقلاقل داخلية، كل هذه العوامل هيأت لإفريقية فترة من الهدوء والاطمئنان.

أما الاضطرابات التي كانت تشيع بإفريقية بين ٧٧٨ ـ ٨٠٠ م فلم يثرها البربر، وإنما أثارها الجند العرب أنفسهم، وخاصة تلك الوحدات القادمة من خراسان التي أثارت الضيق في وجه حكومة نصر بن حبيب والفضل بن روح (٧٩٣ ـ ٧٩٧ م) وهرثمة بن أعين ٧٩٥ ـ ٧٩٧ ومحمد بن مقاتل (٧٩٧ ـ ٨٠٠ م).

ومن بين هؤلاء الولاة الذي تولوا إفريقية يجدر التنويه بهرثمة الذي عرف بقوته وحزمه وسلطته. وكان موضع إعجاب هارون الرشيد. وهرثمة هو الذي أمر ببناء سور طرابلس من الجانب المواجه للبحر.

وكذلك الطبعة العربية الإسبانية للنويري:

Historia de los musulmanes de Espana Y Africa- **M. Gaspar Remiro** ،Granada 1010 vol 11 p. 60 trad. p. 63.

الفصل الخامس

* طرابلس تحت سيادة الأغالبة والعبيديين وبني زيري.
* استقلال طرابلس تحت بني خزرون.
* الإمارة الأغلبية في إفريقية. طرابلس تحت السيادة الأغلبية.
* حملة عباس الطولوني المصري على طرابلس الغرب. نهاية الإمارة الأغلبية سنة ٩٠٩ م.
* السيادة العبيدية في إفريقية. طرابلس تحت العبيدين.
* ثورات ٩١٢ م في طرابلس و ٩٢٢ في الجبل.
* ثورة أبي يزيد في إفريقية (٩٣٨ ـ ٩٤٧) ونهاية حكم العبيدين ٩٧٢ م.
* إمارة بني زيري في إفريقية، استقلال طرابلس تحت بني خزرون (٠٠٠ - ١١٤٦ م).

١ ـ إمارة الأغالبة في إفريقية. طرابلس تحت سيادة الأغالبة

لقد سبق القول بأن نهاية القرن الثامن الميلادي تميزت بحالة من الهيجان التي سرت بين الجنود العرب في إفريقية. وكانت الخلافة العباسية قد بلغت أقصى درجات القوة والتوسع السياسي العسكري، وفي نفس الوقت، بدأت تظهر في الأقاليم النائية نزعة إلى الاستقلال بالحكم والإمارة. وفي سنة ١٧٤ هـ (٧٩٠ ـ ٧٩١ م) أسس الأدارسة حكومة مستقلة في المغرب. وعلى مقربة منهم أنشئت إدارة جديدة في إفريقية، أنشأها إبراهيم بن الأغلب الذي عين حاكماً على إفريقية، بحقوق وراثية. وقد ولاه هارون الرشيد سنة ٨٠٠ م. وكان هو مؤسس هذه الإمارة. وعاصمتها القيروان. ثم تونس فيما بعد، وقد عرفت باسم الإمارة الأغلبية.

وكانت طرابلس ومنطقة من الساحل ملحقتين بها. وقد شكلت بذلك جزءاً من دولة تابعة للعباسيين. وكانت خطب الجمعة تتضمن الدعاء للخلفاء العباسيين. وكان من حق أمراء القيروان سك النقود، والتمتع بكافة مراسم الملك.

إن القليل الذي نعرفه عن طرابلس في ذلك الوقت يشير إلى ثورات الجند العرب. وتذمر الناس من الحكام الذين يوليهم الأمراء الأغالبة. وهم في

---

(١) في خصوص هذه الفترة من تاريخ طرابلس الغرب ينصح بالرجوع إلى الدراسة التاريخية الجيدة:

M.Vonderheyden, La Berbérie Orientale sous la dynastie des Benoù L'Aglab, Paris 1927 p. 344.

الأغلب من الأسرة الأغلبية نفسها. وفي سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) طرد الوالي سفيان بن المضاء (وهو من سلالة الأسرة الأغلبية). وما كاد ينجو بجلده إلا بشق النفس. وانتخب الجند بدلاً منه إبراهيم بن سفيان التميمي. ثم نكبت المدينة بالخلافات والانقسامات. وقد استدعى الأمير الأغلبي عناصر الشغب إلى القيروان، وعمل على إعادة السلم والاستقرار.

وفي سنة ١٩٦ هـ (٨١١ - ٨١٢ م) كان يحكم طرابلس عبد الله بن إبراهيم، أمير الأغالبة[٢]. وقد حاصره الجند بمقر إقامته، ثم اتفقوا على خروجه من المدينة. فلم يبعد عنهم كثيراً، وأخذ يجمع المناصرين والمؤيدين بالبذل والعطاء. كان يعطي الفارس كل يوم أربعة دراهم، ويعطي الراجل في اليوم درهمين، حتى اجتمع له عدد كبير زحف بهم على طرابلس، ودخل المدينة[٣]. ثم استدعاه والده، واستعمل بعده سفيان بن المضاء. وقد ثارت عليه هوارة[٤]، وهم بربر الضواحي، فهزموه عند الجفارة[٥] ولحقوا به إلى طرابلس التي استولوا عليها ونهبوها[٦]. وقد سار إليهم عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب في ثلاثة عشر ألف فارس، فاستعاد طرابلس، وبنى سورها.

ويعود من جديد إلى الميدان إباضية (تيهرت). كان عبد الوهاب قد خلف والده عبد الرحمن بن رستم. وكانت له علاقات وطيدة مع إباضية جبل نفوسة. وكان يمثله بالجبل حكام يقوم هو بتعيينهم. وعندما وقعت الأحداث التي أشرنا إليها، كان عبد الوهاب[٧] بالجبل فأقبل على محاصرة طرابلس (حوالي

---

(٢) في خصوص الأحداث التي نعرض لها أعلاه انظر ابن الأثيرج ٦ ص١٨٧ ـ١٨٨.

(٣) حلل فورنيل (Fournel) هذه الأحداث (ج ١ ص ٤٦٩) ويبدو التشابه الواضح بين أحداث سنة ٨٠٥ وأحداث ٨١١ - ٨١٢.

(٤) يرى فورنيل (ج ١ ص ٤٦٩) أن هوارة ثارت على سفيان لعدم دفعه مستحقاتها عن الحملة السابقة التي سارت فيها لصالح الأغالبة.

(٥) وادي الرمل، حسب رأي الشماخي (كتاب السير ص ١٦٠).

(٦) كان يقودهم (إياد بن وهب) - ابن خلدون ج ٦ ص ١٤١.

(٧) عن وجود عبد الوهاب بالجبل، انظر: (فوندرهايدن Vonderhyden ص ٤١).

٨١٢ م). وقد قاومت المدينة ذلك الحصار مقاومة قوية، وألحقت بالإباضية أضراراً فادحة[٨].

وفي هذه الأثناء توفي الأمير إبراهيم بن الأغلب، وقد رأى عبد الله الذي تولى الإمارة بعده، أنه من المناسب الاتفاق مع الإمام الإباضي وتقديم بعض التنازلات، بحيث تكون المدينة والبحر خاضعين للأغالبة، وتخضع المناطق الداخلية للإمام الإباضي[٩]، ويظهر هذا الموقف مدى ضعف الحكم العربي بطرابلس الغرب، حينذاك، وكيف أن أغلب العنصر البربري كان بعيداً عن الخضوع له.

كان الأغالبة يسيطرون فقط على الشريط الساحلي، بما في ذلك مدينة طرابلس، ومسافة قصيرة إلى الشرق من هذه المدينة (وهي مفتاح العبور نحو الشرق)[١٠]. وفي جنوب طرابلس كان الإباضيون، في جبل نفوسة، يخضعون للإمام الإباضي، أما في شرقي طرابلس، وفي برقة، فإن بربر هوارة كانوا يعيشون مستقلين. وكانت برقة تشكل ـ بصفة اسمية ـ جزءاً من المقاطعة العباسية بمصر. وفي حوالي سنة ٨٧٠ م تشكلت الحكومة الطولونية المستقلة التي ألحقت ببرقة. ويبدو أن سيطرة الأغالبة لم تصل إلى مدينة لبدة. وقد تميز عهد إمارة إبراهيم بن الأغلب (٨١٢ ـ ٨١٧ م) بهدوء نسبي. أما عهد أخيه زيادة الله (٨١٧ - ٨٣٨ م) فقد تميز في بدايته باضطرابات الجند حتى لم يبق له من المناطق الخاضعة سوى المناطق الساحلية من تونس وقابس ونفزاوة وطرابلس[١١]. ولم يكتف زيادة الله الأول باستعادة المناطق الضائعة في الغرب،

---

(٨) ابن الأثير ج ٦ ص ١٨٨ وكتاب السير ص ١٥٠.

(٩) ابن الأثير ج ٦ ص ١٨٨. ابن خلدون ج ٦ ص ١٢١. ويضيف المؤرخون الاباضيون أن الإمام قد بسط سلطته على جميع مناطق طرابلس وجربة ومن جربة إلى سرت. وحين سافر ترك على حكم الجبل السمح بن أبي الخطاب أول الأئمة الاباضيين. (كتاب السير ص ١٥٩ ودائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى مادة عبد الوهاب).

(١٠) فوندرهايدن ص ٤٢.

(١١) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٣٤. ابن عذاري ترجمة فانيان ص ١٢٦.

ولكنه باشر غزو صقلية (٨٢٨ م) وساهم في هذه الحملة سكان مدينة طرابلس والبربر من طرابلس الغرب. وقد ذكر أن أحد زعماء هوارة وهو (زواوة بن نِعم الخلف) قد انضم إلى الجماعة المسلحة المتجهة إلى فتح صقلية[١٢].

وبعد خمس وعشرين سنة من الهدوء النسبي، تسجل الوقائع ثورة جديدة في طَرابلس الغرب ضد الأغالبة، حيث قتل الطرابلسيون في سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٨ ـ ٨٣٩ م) الحاكم سفيان بن أبي المهاجر وبعث الأمير الأغلبي، لولاية المدينة، الأمير الأغلبي عبد الله بن محمد.

وفي عهد الأمير أحمد (٨٥٦ ـ ٨٥٧ م) وفي شهر سبتمبر من عام ٨٥٩ م رفض بربر طرابلس دفع الخراج إلى حاكم طرابلس. وبعد أن حصل الحاكم على عون حربي، بقيادة زيادة الله، أخي الأمير أحمد، قام بمهاجمة البربر فهزمهم وألزمهم بدفع الضريبة[١٣].

٢ ـ حملة عباس بن أحمد بن طولون على طرابلس ونهاية الإمارة الأغلبية

كانت برقة ـ تشكل منذ الفتح الإسلامي جزءاً من إقليم مصر. وكانت قد تأسست بمصر قبل هذه الفترة بقليل إمارة مستقلة أسسها أحمد بن طولون. وقد عصاه ابنه العباس، وخرج عليه، وحاول في ٢٦٥ هـ (٨٧٨ ـ ٨٧٩ م) تسيير حملة على طرابلس، وعلى الأغالبة، وهي حملة خليقة بالتنويه والتذكير بها، حيث ظلت طرابلس، وكل بلاد إفريقية، معزولة عن الشرق، مدة تقرب من قرن. وقد سار العباس في عشرة آلاف رجل وثمانمئة فارس وأحمال ثمينة من الذهب من برقة وزحف على طرابلس التي كان والياً عليها محمد بن قرهب[١٤] (عين بها سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ ـ ٨٦٩ م) وبعد أن تلقى العون الحربي من الأمير

---

(١٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤١. فوندرهايدن ص ٤٢. أماري: المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٢٠٤ (وبخصوص الاسم انظر تاريخ المسلمين بصقلية لأماري الطبعة الثانية ج ١ ص ٣٩٤).

(١٣) ابن خلدون ترجمة دي سلان ج ١ ص ١٧٠ ـ ٤٢٠.

(١٤) النائب ص ٦٩.

الأغلبي إبراهيم الثاني، نهض للقاء العباس في المكان المعروف باسم وادي ورداسة أو قصر حاتم على بعد خمسة عشرة ميلاً من لبدة. وهزم ابن قرهب الذي انسحب إلى طرابلس، فحاصره العباس ثلاثة وأربعين يوماً، وحين أساء العباس معاملة سكان الضواحي استنجدوا بإلياس بن منصور الإباضي الذي كان يحكم جبل نفوسة باسم أبي اليقظان، إمام تيْهرت.

وقد وافاهم الياس في اثني عشر ألفاً من الرجال، فهاجمه خارج طرابلس، بعد أن اجتمع عليه هو والنجدة الأغلبية التي أرسلت إلى حاكم طرابلس، فهزم ابن طولون وفر إلى برقة، بعد أن ترك ما حمله من أموال وذخائر[15]. وفي أواخر عهد الإمارة الأغلبية، نجد أخباراً تتحدث عن وقوع انتفاضات بربرية في طرابلس الغرب ٢٦٩ هـ (٨٨٨ ـ ٨٩١ م). فقد قامت هوارة وزناتة بقتل محمد بن قرهب. وقد استردّ الأغالبة المدينة، وعينوا حاكماً عليها، هو شكر (المعروف بالصقلي)[16]. وفي سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ ـ ٨٩٧ م) كان قد وليها زيادة الله الثاني، وكان رجلاً نبيل المشاعر، محباً للآداب. وقد نهض السفاح إبراهيم الثاني للزحف على طرابلس، بعد أن أثارت حفيظته الرسالة التي تلقاها من الخليفة المعتضد الذي يدعوه فيها إلى أن يغير سلوكه، ويهدده بتنحيته وتعيين ابن عمه محمد بدلاً منه. وقد التقى في طريقه بعشرين ألفاً من البربر الذين تصدوا له ومنعوه من المرور عبر الجبل والبحر، فأقام المذابح، ثم واصل زحفه إلى طرابلس وقتل ابن عمه محمداً، ثم توغل في مناطق سرت بنية

---

(١٥) ابن الأثير ج ٧ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ويذكر ابن الأثير أن حاكم جبل نفوسة هو الياس بن منصور بدلاً من أبي منصور الياس كما هو وارد في كتاب السير للشماخي. ابن عذاري (ترجمة فانيان) ج ١ ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ ابن خلدون ترجمة دي سلان ج ١ ص ٤٢٦ ـ كتاب السير ص ٢٢٤.

(١٦) التجاني ص ٢١٩ ويقول إن اسمه شكر وهو معروف بالصقلبي، ولم يذكر التجاني أنه كان حاكماً لطرابلس. ولكن ذكر أماري في كتابه تاريخ المسلمين بصقلية ج ٢ ص ٢٦٤، ج ٣ ص ٨٥٤.

محاربة الطولونيين في مصر. وفي تاورغاء تخلى عنه الجند، بسبب وحشيته، فاضطر إلى التخلي عن هذه الفكرة والعودة إلى تونس(١٧).

٣ ـ سيادة العبيديين في إفريقية. طرابلس والسيادة العبيدية. ثورات ٩١٢ في طرابلس وثورات ٩٢٢ بالجبل:

جاءت الأسرة التي أزاحت الإمارة الأغلبية من الشرق. وهي إحدى الجماعات الشيعية التي تنادي بإمامة إسماعيل كخليفة شرعي لمحمد وعلي وهو الذي سيخرج من صلبه المهدي. وقد كان لهذه الجماعة الإسماعيلية، منظمات سرية، ودعاة منتشرون في كل مكان. ومن هؤلاء الدعاة أبو عبيد الله الذي جاء إلى إفريقية حوالي سنة ٩٠٠ م، واستطاع أن يظفر بمساندة بربر قبيلة كتامة، فدمر إمامة الإباضية في تيهرت، وحارب الأغالبة وطرد الأمير زيادة الله الثالث (٩٠٣ ـ ٩٠٤ م) من القيروان. ومن رقادة في سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) وفي هذه الأثناء، كان المدعو عبيد الله قد أعلن أنه المهدي المنتظر، وأنه من نسل إسماعيل. وقد أبلغه أبو عبيد الله فتحرك من سوريا، حيث كان متخفياً، وانتقل في سنة ٩٠٥ م إلى طرابلس. وأوفد أبا العباس ليقدمه ويخطر كتامة بوصوله. وقبض زيادة الله على الرسول، وعلم منه ما يدور ويدبر، فأرسل إلى حاكم طرابلس الأمر بالقبض على المهدي الذي كان قد غادر طرابلس. ويقال إنه استطاع أن يستميل الحاكم إلى جانبه بما قدمه إليه من هدايا فسمح له بالمرور. وعندما وصل إلى المغرب، وجمع أنصاره من قبيلة كتامة، زحف المهدي نحو الشرق، يتقدمه الداعية أبي عبيد الله. وفي ٩١٠ م استولى الشيعة على رقادة(١٨)، وفر زيادة الله إلى طرابلس، حيث أقام بها تسعة عشر يوماً ثم تحول إلى مصر، ومنها إلى القدس ٩١٢ م. وأصبح المهدي سيد إفريقية. وتعرف سلالة هذه الأسرة باسم العبيديين أو الفاطميين نسبة إلى فاطمة بنت محمد وزوجة علي ابن أبي طالب.

---

(١٧) فوندر هايدن ص ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٢٢٠.

(١٨) تقع رقادة على بعد عشرين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من القيروان.

إن عهد الحكم الأغلبي في إفريقية الذي امتد ما يقرب من قرن، والـذي خضعت لـه مدينـة طرابلس - إن لم تكن طـرابلس الغرب - خضـوعاً متـواصلاً طوال تلك الفترة، يسجل إتمام دخـول الأهالي الـبربر في الإسـلام، وزوال أي أثر للمسيحية واللغتين اللاتينية والإغريقية، وانتشار اللغـة العربيـة، وبالإجمـال (مشرقة) المنطقة[١٩].

ومن الـطبيعي ألا يتعاطف الإبـاضية الـذين يشكلون العنصر الغـالب في طرابلس ولا البربر الآخرون مع العبيديـين المعروفـين بالعنف والتعصب فضـلاً عن أنهم وافدون طارئون.

وقد أرسل عبيد الله، مكنون بن ضبارة، لحكم طرابلس وهو من العناصر التي يثق بهـا. وقد صحب قـوة من قبيلة كتامـة التي كانت معـروفة بـإخلاصهـا للمبادىء العبيدية، ولكن سرعان ما انفجرت في إقليم طرابلس الغرب (٩١٠ - ٩١١ م) ثورة قام بإشعالها بربر هوارة وزناتة. وقد قام بإخمادهـا بطريقـة دمويـة عنيفـة القائد العبيدي أبو زكي تمّام الـذي قتل هـو الآخر. ولقي نفس المصـير على يد الحاكم مكنون، بنـاء على أوامـر تلقاهـا من سيده، وذلـك لاشتراكـه في مؤامرة موجهة ضد عبيد الله[٢٠].

وبعـد عامـين من ذلك، سنة ٩١٢ م، أثارت المعاملة السيئـة التي سلكتها قبيلة كتامة ضد سكان طرابلس، من رجال ونساء، انتفاضة عامة أخرى. وقـد قتل أفراد قبيلة كتامة [٢١]، وتـرك مكنون المـدينة هـارباً فـأقفلت أبوابهـا، وتولى

---

(١٩) أنظر تعقيبات (فوندرهايدن ص ٣٢٣ - ٣٢٤).

(٢٠) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٠، ابن عذاري ترجمة فانيان ص ٢٢٧.

(٢١) يمكننا أن نستخلص ملامح الوضـع العام بـطرابلس تحت العبيديـين من المعلومات الخـاصة بملاحقتهم العنيفة للجماعات السنية، خاصة ضد العلماء فارضين عليهم معتقداتهم وطقوسهم. وفي (ريـاض النفوس) من مجمـوعة أمـاري (المكتبة العـربية الصقليـة) أن أبا العبـاس، أخـا عبد الله، الذي مهد السبيل للمهدي قد أهـان أبا العبـاس بن بطريقة قاضي طـرابلس وأحد علماء الشريعة بها وجلده.

قيادة الدفاع محمد بن إسحاق المعروف بابن قرلين[٢٢]. ووجهت خمس عشرة سفينة ضد هذه المدينة المتمردة، ولكن الطرابلسيين هاجموها وأشعلوا فيها النيران[٢٣]. وجاء أيضاً جيش من البربر بقيادة أبي القاسم، ابن الأمير العبيدي، فهزم هوارة، وفك الحصار عن المدينة[٢٤]، واستولى عليها من طريق الحرب. ويرى آخرون أنه استولى عليها عن طريق الاتفاق مقابل[٢٥] إنقاذ الأهالي الذين قاموا بتسليم زعماء الثورة، ودفعوا تعويضاً كبيراً[٢٦].

ويروي إبن الأبار أن خليل بن إسحاق بن الورد، المولود بطرابلس، من أسرة عسكرية، وقد درس في شبابه التشريع، وانصرف إلى الطرق الصوفية والتردد على حلقات الذكر الليلية في المساجد، كلف بعد ثورة ٢٢٩ هـ (٩١٢ م) من قبل المهدي بمعاقبة المذنبين ومصادرة أموالهم[٢٧].

وبعد عشرة أعوام (٩٢٢ م) قامت ثورة جديدة، أثارت الاضطراب في الجبل. فقد هزم الإباضيون من قبائل نفوسة بزعامة أبي زكريا يحيى الأرجالي، القائد العبيدي علي بن سليمان ولكنهم هزموا بعد ذلك، في مراكزهم الحصينة بالجزيرة وتيركت والجبل. وقتل أبو زكريا نفسه[٢٨].

---

(٢٢) ابن عذاري ترجمة فانيان ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٢٣) ابن عذاري ترجمة فانيان ص ٢٣٤.

(٢٤) يقال إن السكان قد أكلوا الموتى من شدة الجوع.

(٢٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٠. ابن عذاري ص ٢٣٦.

(١٦) أربعمائة ألف دينار حسب ما ذكره التجاني ص ٢٠٧ وثلاثمئة ألف قطعة ذهبية جسب ما ذكره ابن خلدون (والنائب ص ٨٥). أما أماري فيقص علينا في المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٠١ وج ٢ ص ١٩٠ أنه بينما كان أبو القاسم قائماً بطرابلس، وصلها أسطول من مسلمي صقلية، من الموالين للخلافة العباسية قاصدين موانىء إفريقية التابعة للعبيديين لمقاومتهم ودعوة الأهالي إلى السنة وطاعة الولي الشرعي. وبالنظر لوجود أبي القاسم بطرابلس فقد عاد الأسطول الصقلي دون أن يهاجم طرابلس.

(٢٧) أماري: المكتبة العربية الصقلية ١ ص ٥٣٠ ـ ٥٣٢.

(٢٨) سار في حملة ابن المهدي على مصر؛ وكان والياً للعبيديين على صقلية. وقد عرف بقسوته وشدته، أنشأ حي (الخالصة) ببالرمو. وقد انتهى قتيلاً على يد أبي يزيد. وفي ٣٣٢ (٩٤٣ ـ ٩٤٤) أنشأ مئذنة طرابلس حسب ما يقول التجاني.

إن الهزائم المتلاحقة التي مني بها البربر خلال ٩١٠ - ٩١٢ - ٩٢٢ م لم تضعف من عزائمهم. ففي عام ٣٢٢ هـ (٩٣٣ (٩٣٤ م) قام ابن طالوت وزعم أنه ولد عبد الله الذي مات في ذلك العام، فقاموا معه بعد أن أثار حماسهم، وحاولوا الهجوم على طرابلس، ثم تبين لهم كذبه، فقتلوه وحملوا رأسه إلى العبيديين(٢٩).

٤ - ثورة أبي يزيد في إفريقية (٩٣٨ - ٩٤٧ م). نهاية الحكم العبيدي

لقد انشغل أبو القاسم، خليفة عبد الله، بالدفاع عن ممتلكاته ضد ثائر خطير يعرف باسم (أبو يزيد). وهو بربري إباضي، ولد بتونس، واستطاع أن يظفر باتباع كثيرين في كافة أطراف إفريقيا الشمالية، وأثار البلاد ضد العبيديين. وكان من عادته أن يركب حماراً، ولذا عرف بصاحب الحمار. وفي صيف ٩٤٧ م فقط تمكن اسماعيل بن أبي القاسم وخليفته من إخماد هذه الثورة. ومات صاحب الحمار متأثراً بجراحه، وكان بربر نفوسة قد وقفوا إلى جانبه وحاربوا معه(٣٠).

وفي ٣٤٥ هـ (٩٥٦ - ٩٥٧ م) قام أبو الفتح زيان الصقلي (من صقلية) الحاكم العبيدي الطرابلسي، بتدعيم السور وإعلائه من جانبي البر والبحر(٣١). ولم يبق بطرابلس أي أثر آخر لحكم العبيديين. وفي سنة ٩٧٢ م ترك المعز لدين الله، إفريقية، متوجهاً إلى مصر، بعد احتلالها بقليل، حيث أسس مدينة القاهرة، وحيث عرفت أسرته باسم الأسرة (الفاطمية) وباسم (الفاطميين).

---

(٢٩) كتاب السير ص ١٤٣.

(٣٠) ابن الأثير ج ٨ ص ٣١٥ - ٣٣٢ ابن خلدون ج ٧ ص.١٣ - ابن عذاري ترجمة فانيان ج ١ ص ١ - ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٣١١. Basset, Sanctuaires ecc P. 454

(٣١) التجاني ٢٠٦ - (أنظر أيضاً ص ٢٤٠ حيث ورد اسمه زيان الصقلي) أنظر النائب ص ٨٧ حيث ذكر أنه أبو الفتوح زيان الصقلي. أنظر أيضاً ما يلي في هذا الفصل من أخبار تتعلق بزيان الصقلي الذي كان عاملاً للعبيديين على طرابلس. بعد أربعين سنة من هذا التاريخ.

وقد ظلت تحكم هناك. وترك المعز على بلاد إفريقيا يـوسف بن بلقين بن زيـري وهـو بربـري من صنهاجـة، ولكنه عهـد بحكم طرابلس وإجـدابيـا وسرت إلى عبد الله بن يخلف الكتامي.

٥ ـ إمـارة بني زيري في إفـريقية ـ استقـلال طـرابلس تحت حكم بني زيري

كـان على يـوسف بن بلقيـن وأحفـاده أن يقـاومـوا بـربـر قبيلة زنـاتـة، وخصوم صنهاجـة، مقاومـة طويلة. وقـد استطاع يـوسف بن بلكين أن يضيف طـرابلس وإقليم طرابلس الغـرب إلى البلاد الخـاضعـة لـه من إفـريقيـة. ومـع الـزمن، وكـما يحـدث في العـادة، أصبـح بنـو زيـري شبـه مستقلين، والأمـراء الحقيقيين لإفريقية. وفي نفس الوقت كـانت تتكون في طـرابلـس دولة بـربريـة محلية تعرف باسم بني خزرون[٣٢].

بنو خزرون، أو بنو خزر، أسرة قوية من قبيلة مغراوة، من جذم زنـاتة، وفي سنـة ٣٦٥، نجد أحـدهم، وهـو خـزرون بن فلفـل، يحتـل (سجلماسـة)[٣٣] بـالمغرب. ولـما انشقت أسرة بني خزرون ونشبت العـداوات بين أفـرادها انتمى أحـدهم وهو سعيـد بن خزرون بن فلفل إلى الـزيريـين الذين كـانوا خصـوماً لأسرته، وتحالف معهم، وحصل بذلك على حكم مدينة (طبنة).

وقد ارتفعت مكانة بني خزرون بمصاهرة الأمراء الزيريين، وقد تزوج وروّ بن سعيـد، ابنة المنصـور[٣٤]. وفي نفس السنة ٣٨١ هـ مـات فلفل. وكـان يشغـل نفس منصبه بمدينة (طبنة). ولما مات المنصـور (٣٨٦ هـ)، وخلفه ابنـه باديس،

(٣٢) عـن إمـارة بني زيـري انـظر: H. R. Idris, La Berbèrie orientale sous les Zirides - Paris 1962

(٣٣) ابن الأثـير ج ٨ ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠ ـ ابن عـذاري ج ١ ص ٣٣٦ ـ ٣٦٧ ـ ٣٦٨ ـ ابن خلدون ج ٧ ص ٣٨ ـ ٣٦٩.

(٣٤) ابن عذاري ص ٣٥٨. ابن الأثير ج ٩ ص ٤٧ حيث ذكر أن المنصور قد زوج أحد أبنائه من ابنة سعيد بن خزرون. ابن خلدون ج ٧ ص ٣٩

ظلت العلاقات طيبة بين بني زيري وبني خزرون. ولكن القرابة التي تربط خزرون بقبيلة زناتة لا يمكن إنكارها ولا إغفالها. وفعلاً فإنهم بعد أن قدموا خدمات جليلة إلى بني زيري، وجد بنو خزرون أنفسهم من جديد يتضامنون مع أقربائهم من قبيلة مغراوة ضد العدو المشترك.

كانوا يقيمون بأقصى حدود المغرب، وزحفوا جميعاً نحو الشرق، وغزوا إفريقية، واشتبكوا في معارك مع باديس وقواته وهدّوا المدن، وكانوا يلوذون بالصحراء كلما شعروا بالتهديد والخطر. وفي سنة ٣٩٠ هـ نرى فلفل ظاهراً على الإقليم الواقع بين قابس وطرابلس. وقد استولى على هذه المدينة الأخيرة بمساعدة زناتة، ويحتمل أن تكون قبيلة نفوسة قد ساعدته هي الأخرى.

كانت طرابلس، بعد بسط سيادة بني زيري عليها، تحكم باسمهم من قبل نائب[٣٥] أو عامل يعرف باسم عسيلة بن بكار الذي خان أسياده، وسلم المدينة إلى يانس الصقلي، حاكم برقة، من قبل الخليفة الفاطمي بمصر ٣٩٠ هـ (٩٩٩ - ١٠٠٠ م) فأرسل باديس أحد قواده فتمكّن من التغلب على يانس. وحاصر طرابلس التي صمدت لهذا الحصار حتى جاء فلفل بن سعيد من بني خزرون. وحاول القائد الزيري أن يسد عليه الطريق، ولكن فلفل استطاع أن يضلله، وسلم المدينة إلى ممثل الفاطميين. وهكذا ربح بنو خزرون من الصراع بين الزيريين والفاطميين، وتمكنوا من الاستيلاء على حكم مدينة طرابلس ٣٩١ هـ (١٠٠٠ م)[٣٦].

وقد استهل فلفل عهده في البداية بالاعتراف بسلطة الفاطميين، وزحف في العام التالي على قابس لتنصيب يحيى بن علي الأندلسي[٣٧] الذي أرسل من مصر حاكماً على طرابلس وقابس. وقد عاد يحيى إلى مصر بعد أن ترك خيله

---

(٣٥) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٩ - أماري المكتبة العربية الصقلية ج ١ ص ٤٣٥.

(٣٦) وقع الصدام طبقاً لما يراه التجاني بجنزور (ص ١٥٤).

(٣٧) ابن عذاري ج ١ ص ٣٧٠ - ٣٧١ - ابن الأثير ج ٩ ص (١٠٩ - ١١٠) ابن خلدون ج ٧ ص ٤١.

بيد الزيريين[٣٨]. وسيطر فلفل سيطرة تامة، خالية من المضايقة، وظل في حالة حرب مع الزيري باديس، وحين يئس من مساعدة الفاطميين اتجه إلى الخليفة في قرطبة. وأرسل إليه وفداً. ولكنه توفي سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ - ١٠١٠ م) قبل عودة الوفد[٣٩].

وبعد وفاة فلفل، قررت زناتة بالإجماع مبايعة أخيه ورّو بن سعيد. وفي هذا الوقت، تحرك باديس ضد طرابلس، فابتعد ورّو مع الموالين له من قبيلة زناتة عن مدينة طرابلس. بينما خرج الجند العرب للقاء باديس في الطريق، ومرافقته إلى طرابلس حيث استقر في قصر فلفل (٤٠٠ هـ) (١٠١٠ م). ويذكر ابن عذاري أن باديس قد نزل في ٢٥ مارس ١٠١٠ م تحت أسوار المدينة، واستقبله الأهالي بحفاوة كبيرة. وقد نصب خياماً فاخرة أقام فيها ولكن عاصفة عنيفة هبت فاقتلعت الخيام، وعند ذاك نزل الأمير بقصر فلفل[٤٠].

وقد أظهر ورّو، حينذاك، خضوعه لباديس. واكتفى بأن يكون حاكماً على نفزاوة (تونس) مع التعهد بالتخلي عن طرابلس التي ظل يحكمها باسم الزيريين محمد بن الحسن. ولكن ورّو لم يقم على العهد طويلاً، إذ حاول في

(٣٨) ابن عذاري ج ١ ص ٣٧٨ ويشير إلى زيدان الصقلي الذي أوفده الفاطميون لحكم طرابلس في ٣٩٢ هـ (١٠٠١ - ١٠٠٢) قبل يحيى المذكور هنا. وثمة زيدان الصقلي الذي ذكره أماري في تاريخ المسلمين بصقلية ١ ص ٤١٤.

(٣٩) ابن عذاري ج ١ ص ٣٧٩ - ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٥ ابن خلدون ج ٧ ص ٤١.

(٤٠) ابن خلدون ج ٧ ص ٤١، إذا لم يجانبني الصواب فإن اسم (فلفل) قد ظل عالقاً ببعض أطراف مدينة طرابلس حيث يقع السور الشمالي، وكان ثمة باب يعرف باسم باب (الفلفول) قبل إزالة السور. أما ابن خلدون ج ٧ ص ٤١ وابن عذارى ج ١ ص ٣٨٣ فيشيران إلى قلعة أو قصر (فلفل) الذي يحتمل أن يكون قائماً عند هذه البقعة. ومن العادات المتبعة في عاشوراء إلى سنوات قريبة قيام الأطفال بالطواف على المنازل يطلبون الفول وينشدون الأنشودة المعروفة (يا فول يا فلفول) فهل هي ذكرى الحاكم البربري؟ أم هي مجرد ترديدة بسيطة؟ يذكر (دلفيني) في كتابه:

Delphini: Recueil de textes pour l'étude de l'arabe parlé, Paris - Alger 1891 p. 262

ان أطفال الجزائر يتغنون بباديس في إحدى ألعابهم.

سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠ - ١٠١١ م) إعادة الاستيلاء على طرابلس، ولكن المحاولة فشلت وظلت طرابلس أعواماً أخرى تحت حكم الزيريين.

ولما مات ورّو انقسمت زناتة (طرابلس الغرب) بين مؤيد لأخيه خزرون ومؤيد لابنه خليفة. وظل بطرابلس أبو عبد الله محمد بن الحسن ثم أخوه عبد الله بن الحسن يحكمان باسم الزيريين. وعندما قتل الأمير الزيري محمد بن الحسن في سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ - ١٠٢٣ م) قام أخوه[٤١] بتسليم طرابلس إلى خليفة بن ورّو، فقاوم حامية صنهاجة للزيريين، ودخل القصر، وطرد الحاكم الزيري، ووضع نفسه تحت حماية الخليفة الفاطمي بالقاهرة.

وعادت من جديد لعبة الصراع بين نفوذ الشرق والغرب. وقد ثبت حكم بني خزرون بطرابلس، مستغلاً الصراع بين الزيريين في إفريقية، والفاطميين بمصر. ذلك الخلاف الذي سيمتد ويطول وتنتج عنه نتائج خطيرة بالنسبة لإفريقيا الشمالية بأسرها.

واستمر بنو خزرون في الاحتفاظ بطرابلس عدة أعوام أخرى، وصمدوا للأمراء الزيريين في إفريقية بمعاونة قبيلة زناتة. وتاريخ هذه الفترة غير واضح كل الوضوح، ويبدو مما يمكن استخلاصه من المراجع التاريخية أن سعيد بن خزرون (أخا ورّو) قد أزاح خليفة الذي ذهب إلى مصر وعاش في بلاط الفاطميين. أما سعيد فقد قتله بنو زغبة في ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ - ١٠٣٨ م). وهم طليعة الهجرة أو الزحف العربي الذي سنتحدث عنه فيما بعد. وكانت المدينة تحكم في ذلك الوقت بواسطة أمير يساعده مجلس شورى. وكان العالم أبو الحسن علي بن محمد بن المنمر الذي كان يرأس مجلس الشورى عند مقتل سعيد، قد سلم المدينة إلى خزرون بن خليفة. ولكن أخاً لسعيد اسمه المنتصر، جاء إلى طرابلس في نهاية ١٠٣٨ م واستولى على السلطة. ونفى أبا الحسن

(٤١) ابن عذارى ج ١ ص ٣٩٥ - ٤٠٣ - ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣٠ - ابن خلدون ج ٧ ص ٤٢

علي بن محمد المنمّر[٤٢] بينما كان عمه خزرون يهرب خفية[٤٣]. وصار المنتصر حاكماً على طرابلس وكان له دور هام في هجرة قبائل بني هلال وبني سليم. ويمكن أن تضاف إلى هذه المعلومات النادرة غير الوثيقة من تاريخ طرابلس الغرب في القرن الحادي عشر وبداية القرن الذي يليه، نقطة هامة عن الوضع الديني والسياسي في طرابلس الغرب. ومن المؤكد أن السيطرة العبيدية على طرابلس قد شملت - على الأقل - طرابلس والشريط الساحلي المجاور ونشرت به المذهب الشيعي. إلا أنه بقيام بني زيري وبني خزرون، عاد المذهب المالكي إلى طرابلس التي احتفظت به على الدوام. مع بقاء المذهب الإباضي محدوداً ببربر نفوسة. وقد قللت الهجرة العربية في القرن الحادي عشر من هذه الجماعة الإباضية، مكونة بالتدريج عنصراً جديداً مزيجاً من العرب والبربر. وذلك بالانصهار بين العرب الوافدين وهوارة البربرية التي تخلت عن المذهب الإباضي إلى المذهب المالكي السني[٤٤].

---

(٤٢) دفن بغنيمة من قرى مسلاتة. التجاني ص ٢٣٠ - ٢٣١ وابن خلدون ج ٧ ص ٤٣ (حيث يرد اسم العالم المذكور على النحو التالي: أبو الحسن بن المنتصر. وهكذا أيضاً لدى النائب ص ١١٥. أنظر أيضاً:

H. R. Idris, Deux juristes Kairanouais del'époqueziride in (Annales Inst. Et. Orient Univ. Alger XII 1954 P. 153 - 155.

(٤٣) ابن خلدون ج ٧ ص ٤٢. النائب ص ١١٥ - ١١٦ وهو غير دقيق ويرى أن سعيد قد قتل في ٤٤٦. أما ابن خلدون الذي يستند إلى التجاني ص ٢٦٧ فيرى أن الخبر مشكوك فيه، ذلك أن زغبة لم تنتقل إلى إفريقية من مصر إلا بعد ٤٤٠ ولم تكن موجودة بطرابلس في ٤٢٩.

(٤٤) إسماعيل كمالي (سكان طرابلس الغرب) بالإيطالية، طرابلس ١٩١٦ ص ١٦.

الفصل السادس

هجرة قبائل بني هلال وبني سليم - الموحدون - النورمان

* أهمية هجرة قبائل بني هلال وبني سليم إلى إفريقيا الشمالية في القرن الحادي عشر - أسباب الهجرة.
نهاية إمارة بني خزرون.
توزيع العرب المهاجرين في طرابلس الغرب.
طرابلس تحت حكم النورمان واستعادة الموحدين لها.

١ ـ أهمية هجرة بني هلال وبني سليم إلى إفريقيا الشمالية ومعناها وأسبابها

كان نزوح العرب، من قبائل بني هلال وبني سليم، نتيجة من نتائج الخلاف والصراع بين الفاطميين والزيريين ـ كما سنرى ـ على أنه لا يمكن إغفال العامل الطبيعي في تزايد العدد ورغبة التوسع لدى هؤلاء البدو العرب الذين وجدوا في الغرب متنفساً لإشباع رغبة الغزو والسيطرة.

وقد شكلت هذه الهجرة حدثاً ذا أهمية قصوى، إذ جلبت إلى المغرب عنصراً قوياً وكبيراً من العرب الذين كان لهم أثر واضح في تعديل التكوين السلالي والوضع اللغوي في المنطقة. وقد هز هذا العنصر الوافد، العنصر البربري الغالب بل قضى عليه في بعض الأحيان، وأثر تأثيراً واضحاً في النظام السياسي للمنطقة.

ويجب التذكير بأن أولى الغزوات العربية (القرن السابع) والغزوات التالية، لم تحمل من الشرق إلى إفريقيا الشمالية (عدا مصر) سوى عدد قليل من الجند، ورجال الدولة الذين كانوا يعودون غالباً إلى مواطنهم الأصلية. وفي القرن الحادي عشر تمكنت هذه الموجة العربية الوافدة من التغلب على البربر، خاصة في طرابلس الغرب وتونس.

يقرر هذا ابن خلدون الذي يلاحظ أن العرب لم يستقروا أبداً بالمغرب قبل الإسلام، وبعد الفتح، وأن نفس القبائل التي اعتبرت (حميرية) من اليمن، مثل كتامة وصنهاجة المتحدرتين ـ كما تقول الروايات المتواترة ـ من سلالة (أفريقش) الذي جاءت منه تسمية (إفريقيا) وفقاً لرأي النسّابين العرب، كانت قد تبربرت. والعرب الذين جاؤوا مع الفتح (القرن السابع) بذلوا مقاومة

قـوية ضـد البربـر. ثم ضرب الإسلام بجـذوره في البلاد. وكـان عـلى العـرب المسيـطرين الاكتفـاء بـالحكم في المـدن (أو حمـايتهـا) ولم يستقبـروا بـالأريـاف والـدواخل. ثم يضيف ابن خلـدون أنـه في منتصف القرن الخـامس الهجـري (الحادي عشر ميلادي) دخـل العرب المغـرب، واستقروا بـه وانتشروا في أرجاء البلاد مع بقية القبائل.

وإذا كنـا قد لاحـظنا في القـرون الأربعة السـالفـة صراعـاً مستمـراً بـين البربر أنفسهم (كتامة وصنهاجة ضـد هوارة وزنـاتة، أو الـبربر الإباضيين ضـد البربر السنيين) ثم رأينا صراعاً بين الـبربر والحـاميات العـربية والـولاة العرب، فسـوف نرى، ولمـدة أربعة قـرون تاليـة، الصراع يحتـدم بـين الـبربـر، سكـان المنطقة، وبين العرب الوافدين. ونرى ثورات مستمرة يقوم بهـا العرب لصـالح هذا الملك أو غيره، وهم يتنقلون باستمرار في المغـرب وإفريقيـة، وينقسمون في الغالب في صراع حول أنفسهم، أو ضد البربر حتى نهاية القـرن الخامس عشر، حين تم الاستقرار البشري وأصبح شبه نهائي، فكان من نتائـج ذلـك سيـطرة الهـدوء النسبي، دلالة عـلى الإعياء، وإرهـاصاً بـأحداث جـديدة. وقد تسلط هؤلاء الأعـراب على البـلاد، واستغلوا السكان، وألـزموا الـبربر غـالبـاً بـدفـع الضريبة لينالوا حريتهم أو ليكـونوا تحت الحـماية، ولكنهم لم يحسنـوا إقامـة دولة تسيطر على أقاليم كاملة باستثناء بني جامع الذين حكموا قابس لمدة قصيرة. وقد ظل النظام السيـاسي العربي معتمـداً على القبيلة التي يـتزعمها (الشيـخ) أو على مجموعة القبائل الموحدة (العشيرة). أما الـدول فقد ظل البربر يؤسسونها، مثـل دولة بني ثابت التي حكمت طرابلس في القرن السادس عشر.

قلنـا إن هـذا الغـزو كـان نتيجـة للصراع بـين الفـاطميـين والشيعيـين الـزيريـين والسنيين[1]. وقـد تزايـد هذا الصراع السيـاسي الديني إلى درجـة وقوع مذبحة كبرى للشيعيين في إفريقية ٤٠٧ هـ (١٠١٦ ـ ١٠١٧ م)[1]. وعندما قـام

(١) لقـد قاد الصراع في طـرابلس ضد الشيعيـين العالم الـطرابلسي أبـو الحسن عـلي بن محمـد بن المنمّر، وكان أول من أحيا المبادىء السنية وألغى من الآذان عبارة (حيٌ على خير العمل) التي أدخلها العبيديون. التجاني ص ٢٩٩.

الأمير الزيري المعز بإعلان وقوفه في وجه الفاطميين والاعتراف بالخلافة العباسية، في بغداد، أشار أحد وزراء الخليفة الفاطمي بأن يدفع الخليفة ضد أفريقية بعرب بني هلال وبني سليم. وكانوا من بادية الجزيرة العربية. وقد استقروا حينذاك بمصر. وتقول الرواية: إن الخليفة الفاطمي منح كل واحد منهم بعيراً وديناراً وأباح لهم اجتياز النيل قائلاً: (أعطيكم المغرب وملك المعز بن بلكين العبد الآبق فلا تفتقرون)[2]. وقد اجتاز بنو هلال النيل، واستولوا على بلاد برقة واستباحوها، ودعوا إخوانهم بني سليم الذين ظلوا بمصر إلى اللحاق بهم وكانوا يرغبونهم في البلاد. وقد أقام بنو سليم في المناطق الشرقية من ليبيا. بينما سار بنو هلال نحو إفريقية، وتوزعوا (كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه)[3]. وكان أول من وصل الى إفريقية عرب قبيلة رياح الذين حاول المعز استخدامهم لأغراضه، فأصهر لأحد زعمائهم وزوجه ابنته، وسعى لتوجيه نقمتهم ضد بني حمّاد. وهم بنو عمه ومنافسوه. ولما رآهم ينادون بالسيادة الفاطمية، جمع البربر من صنهاجة وزناتة الذين كانوا يعادونه حتى ذلك الوقت، ودعاهم للوقوف في وجه الزحف العربي. وقد هب لنجدته أيضاً حاكم طرابلس، المنتصر بن خزرون بألف فارس من زناتة[4]. وقد هزمت القوة العربية المكونة من زغبة ورياح، قرب القيروان، بربر المعز الذي لجأ إلى المهدية. ثم كان للنورمان والموحدين توجيه الضربة الأخيرة إلى الإمارة الزيرية التي كانت أول ضحية لهذا العزو العربي. وقد صيغت حول هجرة بني هلال ملحمة شعرية طويلة لم تدرس حتى الآن دراسة دقيقة وافية. وهي متنوعة مختلفة في أحداثها ومضمونها، حسب مختلف البلدان (مصر وطرابلس وإفريقية والمغرب)[5] وقد كانت هذه الملحمة مبعثاً لنسج الكثير من القصص الشعرية

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٢.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨.

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٥.

(٥) Bel, La Djazya, nel journ. Asiatique, marzo - Aprile 1902 marzo - aprile 1903.

= M. **Hartman,** Lieder der libyschen Wiste, Leipzig 1899 cat Berlino W. **Ahl Wardt,**

التي نرى من المهم جمعها من أفواه المغنين والمنشدين الشعبيين (الطالب). وفيها يتردد اسم الزناتي خليفة البطل البربري الذي واجه الغزو الهلالي ببطولة وشجاعة.

٢ ـ نهاية إمارة بني خزرون بطرابلس

سار الفتح العربي، على شريط داخلي، من إفريقية والمغرب. ولم يستقر العرب فور نزوحهم بالسواحل، حيث ظلت المدن الهامة في أيدي الأمراء البربر حتى بعد الانتصار العظيم الذي تم قرب القيروان. وبعد أن احتل بنو زغبة المنطقة الواقعة بين طرابلس وقابس ظلت طرابلس تحت حكم بني خزرون(٦).

إن تاريخ هذه الأسرة الذي يبدأ سنة ١٠٥٠ م وينتهي سنة ١١٠٠ م غير معروف معرفة كافية. ونحن لا نعلم سوى أن المنتصر بن خزرون قتله في سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ ـ ١٠٦٨ م) أمير بني حماد، حين تبينت له خيانته وتواطؤه مع العرب الفاتحين(٧).

وقد حاول ـ بنو زيري ـ من المهدية، تأكيد سيادتهم على طرابلس(٨). وقد أرسل أحد أمراء الأسرة، وهو تميم بن المعز ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ ـ ١٠٧٨ م) ابنه حاكماً على طرابلس. وفي سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) طرد أحد المغامرين الأتراك، المعروف باسم (شاه ملك) الذي قدم من مصر واستغل حالة التذمر التي كانت سائدة بين سكان المدينة فأعلن نفسه حاكماً عليها(٩).

وفي روايات أخرى أنه، بدلاً من المنتصر بن خزرون، خلفه أخوه خليفة،

= Verzeivhniss der arabisch n Handerschriften der K. Bibliotheck zu Berlino 1887 - 1899, N.M 9188 - 9362).

E.W. Lane, Manners and Customs of modern Egypt, cap. XXI ed 1890 P.359 - 367.

(٦) ابن خلدون ج ٧ ص ٤٣.

(٧) الحماديون أسرة بربرية من المغرب الأوسط كانت في ذلك العهد تسود الجزائر وتونس.

(٨) ابن الأثير ج ١ ص ٧٣ ـ ابن عذاري ص ٤٤٨.

(٩) ابن الأثير ج ١ ص ١٦٤ ـ ابن عذاري ٤٥١ ـ ٤٥٢.

وخلف هـذا في سنة ٤٨٨ هـ محمـد بن خزرون بن خليفـة[١٠]. ولكن نفـوذ بني خـزرون أخذ في الاضمحـلال. بينما كـان نجم أسرة أخرى في الصعـود، وهي أسرة بني مـطروح. وقد سـاعد هؤلاء الاحتـلال النـورمـاني في ١١٤٦. وطـرد المحتلون الجدد أسرة بني خزرون. وقد تشتت قسم من هذه الأسرة في طرابلس الغرب. ولجأ أحدهم وهو عبد الصمد بن محمد بن خزرون إلى جبال (أوراس) بـالجزائـر وكانت منه سلالـة لامعة[١١]. ولم يخلف بنـو خزرون أثـراً بين أسـماء السـلالات والأنساب بـطرابلس الغرب في الـوقت الذي احتفـظت فيه القبـائل بـأسمائهـا كاملة مثـل زنانـة، خـاصـة في السهـل وسهـل الحـوض (بئـر الغنم) والرحيبات وغيرها[١٢].

(١٠) النائب ١١٦ ـ ١١٩. لا نعلم من أي المصادر استقى المؤرخ الطرابلسي هذه المعلومات.

(١١) ابن خلدون ج ٧ ص ٦٣.

(١٢) دي أغسطيني (سكان طرابلس الغرب) المقدمة ص ٨.

شجرة أسرة بني خزرون

(التواريخ كما ذكرها النائب)

خزر

فلفول

خزرون

سعيد

١) فلفول	٢) وارّو		خزرون	مقاتل
٣٩٣ ـ ٤٠٠	٤٠٠ ـ ٤٠٥			
	٣) خليفة	٤) سعيد	٦) المنتصر	٧) خليفة
	٤١٧ ـ ٤٣٣	٤٣٣ ـ ٤٤٦	٤٥٠ ـ ٤٦٠	٤٦٠ ـ ٤٨٨
	٤)خزرون			
	٤٤٦ ـ ٤٥٠			
	٨) محمد			
	٤٨٨ ـ ؟			
	عبد الصمد			

٣ ـ توزيع العرب في طرابلس الغرب

يهمنا من القبائل التي تنتمي لبني هلال، بالنسبة لطرابلس الغرب، بنو رياح وبنو زغبة. وقد جاء هؤلاء مع الطلائع الأولى، واحتلوا منطقة طرابلس وقابس، وظاهروا الموحدين ضد بني غانية، ثم تحولوا تدريجياً نحو الغرب، وجاء بدلهم بنو زغبة الذين ساعدوا قرقوش كما سنرى ـ في طرابلس الغرب وإفريقية. ثم أيدوا بني غانية ضد الموحدين، وتحولوا هم أيضاً نحو الغرب، بعد أن ضايقهم بنو سليم[١٣].

(١٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٣١ ـ ٤٠.

فـالهجرة لم تتم كلهـا في وقت واحد، ولكنهـا كانت مـوجـات متتـابعـة، والقادمون الجدد يطردون الذين تقدموهم، ويستولون على ما كان بأيديهم(١٤)، أما بنـو سليم ـ خلافـاً لبني هلال الـذين ساروا إلى الغـرب ـ فقد استقـروا بـبرقـة وطرابلس الغرب. ومن تياراتهم الهامة نشير إلى بني دبّـاب (أولاد سليمان ـ أولاد أحمد ـ بنو جابر) ومنهم تتحدر قبيلة (العوامـر) التي تضم (المحاميـد ـ الجواري ـ النوايل الخ). أما أولاد سالم فتضم (العلاونة ـ الأحامـد ـ بني زغبة) ومنهم قبيلة المقارحة المعروفة بسطوتها وقوتها(١٥).

وقـد شكل بنـو دبّاب ـ أسـاسـاً ـ ومـا زالـوا يشكلون حتى اليـوم، العنصر الرئيسي للعرب في طـرابلس الغرب. ومنـذ زمن التجاني (بـداية القـرن الرابـع عشر) وابن خلدون (القرن الرابع عشر) كان أولاد سليمان وأولاد سالم يسيطرون عـلى المناطق الشرقيـة، والمحاميـد والجـواري يسيـطرون عـلى المنـاطق الغـربيـة وضواحي مدينة طرابلس(١٦). ولم يتغير الوضع كثيراً منذ ذلك العهـد حتى القرن التاسع عشر.

٤ ـ طرابلس تحت حكم النورمـانيين واستيـلاء الموحـدين عليها فيـما بعد

لم تلبث الأحـداث الجديـدة التي وقعت في صقليـة أن انعكس تـأثـيرهـا وردود فعلها على الشمال الإفريقي وطرابلس. فالنورمانيـون الذين استـطاعوا في سنـة ١٠٩١ م استعـادة صقليــة، وتمكنـوا في سنــة ١٠٩٦ م من اسـتردادهـــا واستخلاصها بصفة كاملة من المسلمين، تمكنوا أيضـاً في سنة ١٠٩٦ م من تحـرير مـالطا(١٧). وبعـد أن أصبحوا سـادة لمملكة واسعـة، تواجـه إفريقيـة، أنشأوا لهم

(١٤) التجاني ص ١٢.

(١٥) إسماعيل كمالي ص ٣٣ ـ ٣٧ ـ دي أغسطيني ص ١٢ ـ ١٤.

(١٦) التجاني ص ١١٨ ـ ١٧٩ ـ ١٨٧ ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ـ ٢١٢ ـ ٢١٣.

(١٧) اضطر روجير الثاني إلى التدخل شخصياً في مالطا في ١١٢٧ لتأكيد سيادته عليها. أنظر:
F. Cerone, L'opera politica e militare di Ruggero II in Africa In Oriente, Catania 1913 - p. 23.

أسطولاً بحرياً، أرادوا به استغلال ضعف إمارة الزيريين، من أجل التغلغل والنفاذ إلى الساحل المقابل. وفي سنة ١١٣٥ احتلوا جربة، وفي ٢٥ يونيو ١١٤٣ أنزل أسطولهم جيشاً بطرابلس التي كان يحكمها شيوخ بني مطروح. وكان النورمانيون قد شرعوا في تسلق الأسوار، حين تلقى سكان المدينة نجدة عربية من الريف، قَوِيَ بها سكان المدينة، فخرجوا إلى أسطول الغزاة وحملوا عليهم حمْلة قوية منكرة، فانهزموا هزيمة فاحشة، وأرغموهم على الفرار واللحاق بسفنهم[١٨].

وفي سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ - ١١٤٦ م) تعرضت طرابلس، لمجاعة فظيعة. وكانت الأحداث الناشئة عن هذه الكارثة قد سهلت للنورمانيين عملية احتلال طرابلس. كانت الحملة بقيادة (جورج الأنطاكي Giorgio di Antiochia)[١٩]. وقد تم له احتلال طرابلس في ١٧ أو ١٨ يونيو ١١٤٦ بالاتفاق مع بني مطروح الذين أزيحوا عن الحكم قبل أيام من وقوع الحملة النورمانيّة، من قبل أحد المرابطين، وقد تم تنصيبه حاكماً على البلاد أثناء مروره بها في طريقه إلى الحج.

وقد منح النورمانيون الأمان للسكان، فعاد الكثير من الهاربين إلى المدينة التي كان يتردد عليها الصقليون المسيحيون، بصفة عامة. وقد عمها رخاء سريع[٢٠]. وأقام النورمانيون ستة أشهر يحصنون أسوارها، ويحفرون خنادقها،

---

(١٨) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٠ - ٧١.

(١٩) من مسيحيي سوريا وقد سبقت له الخدمة مع الزيريين منذ ١١١٠ وتهيأت له فرصة الإحاطة التامة بأوضاع البلدين.

(٢٠) يؤكد ابن الأثير (ج ١١ ص ٧١) أن الجيوش النورمانية قد قامت بنهب المدينة عقب احتلالها. أما التجاني (ص ٢٠٨) فيؤكد أن جورج قد عامل السكان معاملة حسنة وأنهم أعانوه على احتلال مواقع أخرى من الساحل. أما الإدريسي (المكتبة العربية الصقلية لأماري ج ١ ص ١٣٢) فيقول إنهم قتلوا الرجال وسبوا النساء. ويذكر ابن خلدون ج ٧ ص ٤٤ أن بني خزرون كانوا ما يزالون بطرابلس ٥٤٠ هـ (١١٤٥ - ١١٤٦) ولكن الخبر غير صحيح. وللمزيد من المعلومات التي لا تشكل إضافة خاصة انظر (أماري: المكتبة العربية الصقلية ج ١ ص ١٣٢ - ٤٦٢ ج ٢ ص ١٠٠ - ٢٢١ - ٢٢٥، وكذلك تاريخ المسلمين في صقلية الطبعة الثانية ج ٣ ص ٤١٥ - ٤١٧.

وأخذوا رهائن ممثلة في كبار الشخصيات، منهم بنو مطروح والمرابطون[٢١]. ثم أعادوا رهائنهم.

وكانت جيوش الحامية النورمانيّة ـ حسب رأي التجاني ـ مكونة من المسلمين والصقليين. وقد أسندت الولاية إلى الشيخ أبي يحيى بن مطروح التميمي، وأسند القضاء إلى أبي الحجاج بن زيري. وفي سنة ١١٤٨ م قام جورج الأنطاكي بالاستيلاء على المهدية وصفاقس وقابس، بحيث أصبح الإقليم الواقع بين طرابلس وقابس خاضعاً للنورمانيين[٢٢]

وقد دام العهد النورماني بطرابلس اثنتي عشرة سنة. أي إلى الوقت الذي أخذت تزحف فيه من المغرب قوة سياسية دينية جديدة، هي قوة الموحدين التي اكتسحت بقايا الحكم الزيري[٢٣] والحاميات التي أقامها النورمانيون في إفريقية.

---

(٢١) أسس المرابطون في القرن الحادي عشر بالمغرب نظاماً دينياً وسياسياً قوياً شمل المغرب بأسره والأندلس. وقد أسس يوسف بن تاشفين، أحد ملوكهم البارزين، مدينة مراكش قرب سنة ١٠٦٣ م. وقد أزاح الموحدون فيما بعد هذه الأسرة. أنظر الإشارات الواردة في كتاب:

G.B. Birago Avogadro; Historia Africana della divisione dell' Imperio degli arabi Venezia 1950 P. 324 - 326.

عن تبعية طرابلس ليوسف بن تاشفين. (ص ٣١١ ـ ٣٢٤ ـ ٣٢٦).

(٢٢) عن التوسع النورماني في عهد روجيرو الثاني أنظر: أماري، تاريخ المسلمين بصقلية الطبعة الثانية ج ٣ ص ٣٧٧ ـ ٣٧٩ ـ ٣٨٧ د ٣٩٣ ـ ٤٠٦ ـ ٤٣٧.

وانظر كذلك كتاب العمل العسكري والسياسي لروجيرو الثاني بإفريقية والشرق (تقدمت الإشارة إليه ضمن المصادر).

كان روجيرو الثاني يهدف إلى إقامة إمبراطورية إفريقية مستفيداً في ذلك من خبرته بالشؤون الإفريقية ومن كثرة الاتصالات بين صقلية وإفريقية بالنظر إلى العدد الكبير من المسلمين الذي كان ما يزال يعيش بصقلية ومالطا. ويقول ابن خلدون إنه ما كاد النورمانيون يستولون على طرابلس حتى أبلغوا المسلمين من سكان صقلية بحرية الهجرة. ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن إفريقيا الشمالية تعتمد في سنوات الجفاف على قمح صقلية وبوليا.

(٢٣) أسس دولة الموحدين ابن تومرت، وهو بربري من قبيلة مصمودة. وقد تزعم حركة دينية مضادة للتأويلات والتفسيرات لفكرة (الله) التي شاعت في ظل المرابطين. وكانت نسمة من الحماس الديني والمثالية قد ألهبت أتباع ابن تومرت الذي يقال ـ حسب بعض المصادر ـ إنه مرَّ بطرابلس

وحين علم الطرابلسيون بزحف الموحدين دبروا، بصفة سرية، للقيام بثورة ضد النورمانيين، وتمكنوا من طردهم وإجلائهم عن المدينة، وأعلنوا الاعتراف بسيادة الموحدين (٥٥٣ هـ)[٢٤] (٢ فبراير ١١٥٨ - ٢٢ يناير ١١٥٩ م)[٢٥]. وعندما استولى عبد المؤمن على المهدية، سنة ١١٦٠ م، قدمت عليه وفود كان من بينها الوفد الذي أرسله أبو يحيى بن مطروح لإعلان مبايعة طرابلس له.

وقد استمر أبو يحيى في حكم مدينة طرابلس حتى سنة ١١٩٠ م. وحين أدركته الشيخوخة حصل على الإذن بالتوجه إلى الحج، وقد استقر بعد ذلك بالإسكندرية بمصر[٢٦].

تشكل سيادة الموحدين فترة من التقدم الحقيقي لإفريقيا الشمالية، وقد ازدهرت في ظلها التجارة مع البلدان المسيحية، وكانت مشمولة بحماية الاتفاقيات، إلا أنه وقعت بعض حوادث القرصنة[٢٧]. أما فيما يتصل بالناحية الدينية فقد ترك الموحدون أثراً واضحاً في إفريقيا الشمالية، حيث ازدهرت الدراسات الدينية وانتشر المذهب المالكي.

واستقبل الإباضيون من سكان طرابلس سيادة الموحدين بالترحيب لاتفاق

عائداً إلى المشرق بعد أن تلقى العلم على أعظم أساتذة العصر، وقد تمكنوا في وقت قصير من السيطرة على المغرب وإفريقية بأسرها. أنظر:

I. Goldziher: Le livre de Mohammed Ibn Toumert Mahdi des Almohades, texte arabe accompagniè de notices historiques et d'une introduction - Alger 1903.

(٢٤) يعني المؤلف أن السنة الهجرية تقع بين التاريخين المذكورين من التقويم الميلادي وسيلجأ إلى ذلك فيما يلي من الصفحات.

(٢٥) التجاني ص ٢٠٨ ويقول إن القاضي أبا الحجاج هو الذي نظم الثورة ضد النورمانيين. . أما ابن خلدون (ج ٦ ص ١٦٨) فيقول إن الحاكم أبا يحيى بن مطروح قد حرض الطرابلسيين على طرد النورمان. ويقول التجاني إنهم نصبوا الكمائن والفخوخ في الطرقات لمنع الفرسان النورمان من الحركة وتحقيق النجاح للثورة. أنظر أيضاً ابن الأثير ج ١١ ص ١٦٠.

(٢٦) يقال إنه قد أنشد بعض الأبيات في تذكرة لطرابلس.

(٢٧) **Amari,** diplomi arabi

اتجـاههم الديني مـع مبادئهم ومـذهبهم، في الوقت الـذي كانـوا في الماضي قـد جاهروا بعدائهم لكافة القوى التي اصطدموا بها[٢٨]. ولكن سيطرة الموحديـن لم تطل. ويروي لنا أحد المؤرخين المغاربـة[٢٩]، وهو يتحـدث عن حملة أبي يعقوب يوسف على قفصـة في ٥٧٥ هـ (١١٧٩ ـ ١١٨٠ م)، أنه بـإخماد تلك الثـورة لم يبق أي أثـر لـلأعـداء في إفـريقيـة. ولكن لن يمضي وقت طـويــل حتى يصـل مغامرون متعصبون هم قرقوش وبنو غانية.

(٢٨) **Motylinski,** Aqida des Abadhites.

(٢٩) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب طبعة القاهرة ١٣٢٤ هـ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

الفصل السّابع

المغامر قرقوش وبنو غانية

- اضطرابات ودمار في افريقية -

بداية عهد الحفصيين "القرن الثامن"

* المغامر قرقوش في طرابلس.
* بنو غانية في طرابلس الغرب وإفريقية.
* بداية الأسرة الحفصية.
* طرابلس تحت الحفصيين (القرن الثامن). اضطرابات وثورات، تدخل ملك آراغونا وصقلية في شؤون طرابلس.
* حكم آراغوني - صقلي في جربة.

١ ـ المغامر قرقوش في طرابلس الغرب

كانت طرابلس قد استراحت قليلاً إلى حكم الموحدين، حين ظهر مغامر جديد، هو بهاء الدين قرقوش ـ ويلقبه المؤرخون العرب (بالأرمني)[1] قادماً من مصر. وكان يعمل في جيش صلاح الدين. وعندما تخلى تقي الدين، أحد أقرباء صلاح الدين، عن فكرة القيام بحملة على إفريقية والمغرب، لم يشأ قرقوش[2] وجماعة من رفاقه التخلي عن احتمالات الحظ والنجاح في المغرب الإفريقي لقد أراد أن يقوم ـ بمبادرة شخصية ـ كما نقول اليوم ـ ولعله كان متفقاً مع صلاح الدين. وقد اجتاز العقبة[3]، واستولى على (سنترية)، أي واحة سيوة، وأوجلة وزويلة التي كانت عاصمة للبربر من بني الخطاب، سادة فزان في القرن العاشر، فقضى قرقوش على هذه الأسرة البربرية، وعذب حتى الموت آخر ملوكها، محمد بن الخطاب بن أزليطن. وأعلن سيادة صلاح الدين على جميع الأماكن التي استولى عليها، ودعا باسمه في المساجد[4].

وعندما وصل إلى طرابلس وجد عوناً ودعماً من عرب بني دبّاب. واستطاع أن يستولي بمساعدتهم على جبل نفوسة، حيث جمع مالاً كثيراً ساعده على تجنيد بعض المرتزقة العرب. ووضع الأمير العربي لقبيلة رباح، مسعود بن

---

(١) يسميه ابن خلدون في بعض المواضع من تاريخه (الغزّي) باسم الجند الأتراك الذين كانوا يرافقونه. وينبغي أن يكون هو نفسه كردياً أو تركياً.

(٢) (قارة) تعني في التركية الأسود و(قوز) تعني (الطائر) وهكذا فإن كلمة قرقوز تعني نوعاً من الطير الذي يشبه النسر. أو نوعاً من أنواع النسور.

(٣) هي الموقع المعروف عند اليونانيين (كاتابتمون Katabathmon) وتقع عند الحدود المصرية.

(٤) التجاني ص ٩٣ (١٠٣ ـ ١٠٥ ـ ١١٠ ـ ١١٥) ـ ابن الأثير ج ١١ ص ٢٥٦.

سلطان، في خدمته. وبعد أن جمع، بهذه الطريقة، قوة كافية، أقبل زاحفاً على طرابلس التي وجدها مسالمة، خالية من كل حامية[٥]، فاستولى عليها قرب (١١٨٥ م) وتملك أيضاً قابس، وبعض الأماكن الأخرى في إفريقية. وفي قابلس ركز الذخائر الكثيرة التي جمعها[٦].

وفي نفس الوقت ظهر في إفريقية علي بن اسحاق الميورقي، من أسرة بني غانية، ووريث مطالب المرابطين في حكم البلاد الذي اغتصبه الموحدون. وقد نزل في بجاية، سنة ١١٨٤ م، واستولى على قفصة وهدد تونس والمهدية. وكان يعتمد على عون الخلافة العباسية، وسلطان مصر صلاح الدين، ويفهم من ذلك أنه نال تأييداً قوياً من قرقوش الذي استقر بقابس.

وقد دفع هذا الوضع الدقيق الحرج سلطان الموحدين ابن المنصور إلى التحول شخصياً إلى المغرب، ومقاومة الأعداء بنفسه، سواء في ذلك علي الميورقي أو قرقوش. ورغم أنهما استطاعا أن يحققا في البداية نوعاً من النجاح إلا أنهما هزما في الحامة بتونس، وهربا باتجاه الصحراء (١١٨٧ م) وعادت قابس وقفصة وتوزر وطرابلس إلى سيطرة الموحدين[٧].

وبعد أن قام زميله قرقوش بتدمير الإقليم، أظهر الطاعة للموحدين وعاش فترة طويلة ضيفاً على أبي زيد بن أبي حفص الذي كان يحكم تونس باسم الموحدين. ولكنه لم يلبث طويلاً، وعاد إلى الاستيلاء على قابس، وذبح مشايخ قبيلة الكعوب غدراً، وزحف على طرابلس واستولى عليها بالتعاون مع يحيى الميورقي أخي علي الميورقي. واتجها نحو الجبل. وهنا تخاصم الحليفان وأعلنا العداء. ويشرح المؤرخون العرب بأن صلاح الدين كان في حاجة إلى عون الموحدين، فمال إلى مصادقتهم، ولم يعد يؤيد ورثة العرش المرابطي. ولذا

---

(٥) التجاني ص ٩٦ ـ ٢١٠.

(٦) ابن الأثير ص ٢٥.

(٧) التجاني ص ٨٥ ـ ٨٦.

صار قرقوش عدواً ليحيى. وتقاتلا في موقع بالجبل يعرف باسم (محسن)[٨] وهزم قرقوش الذي لجأ إلى الداخل. وترك بطرابلس عبده المعتوق (ياقوت) الذي قاوم ببسالة الحصار الذي ضربه يحيى الميورقي على المدينة التي لم تستسلم إلا بعد أن حاصرتها سفن ميورقية من البحر، وحصل سكانها على الأمان، ونفي ياقوت إلى مايورقة سنة ١١٩٥ م تقريباً.

٢ ـ مقتل قرقوش

بعد أن استولى يحيى الميورقي على طرابلس، ترك على ولايتها ابن عمه تاشفين بن غازي، واتجه هو إلى الاستيلاء على جبل نفوسة، وإجلاء خصمه قرقوش الذي فرّ، ولاحقه حتى ودَّان، بمساعدة بني دبّاب، فأسره وقتله مع أحد أبنائه ثم صلبه. وكان ذلك في سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ ـ ١٢١٣ م)[٩]. وترك قرقوش ابناً آخر اشتهر بشجاعته وقوته البدنية. وبعد أن عمل هذا الابن مدة في خدمة الموحدين، هرب إلى فزان، وأشعل بها الثورة. وقد استطاع ملك (كانو) قتله سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وأعاد بذلك السلم إلى المنطقة[١٠]. وهكذا تنتهي بشكل بائس تعس قصة قرقوش وأسرته. وكانت فترة من الاضطرابات والقلاقل أثرت أبلغ الأثر في المعاصرين لها. وأصبحت ذكرى للقادمين بعدها. وقد تداول عرب بني دبّاب، أباً عن جد، قصة هذه الأحداث[١١].

---

(٨) لم أستطع أن أعثر عليها فوق الخرط وينبغي أن تكون قرب (قِطّيس) التي يرد ذكرها متصلاً بهذه الواقعة الحربية. التجاني ص ٨٨ ـ ٢١٠.

Bel, op. cit. p. 96.

(٩) التجاني ص ٩٢ (١١٠ من طبعة تونس سنة ١٩٥٨) ويقال إنه لما اقتيد للقتل سأله ابنه إلى أين يروحون بنا؟ فقال: إلى حيث رحنا بآبائهم. مشيراً بذلك إلى الزعماء العرب الذين سبق أن قتلهم.

(١٠) التجاني ص ٩٢ (ص ١١١) وقد أصبحت فزان منذ ذلك الوقت وحتى القرن الرابع عشر تابعة لسلطنة كانم، وكان للسلطان ممثل في تراغن.

(١١) التجاني ص ٩٢ (ص ١١١) من الشائع في طرابلس القول (حكم قرقوشي) للدلالة على الأحكام التعسفية الهوجاء. ولكن الأمر في هذا يرتبط بقرقوش آخر يضرب به المثل. أنظر مادة قرقوش في دائرة المعارف الإسلامية.

ويبدو أن المنطقة الواقعة غربي طرابلس، وتعرف بقرقارش، إنما تستمد اسمها من قرقوش الذي شيد قلعة بها[١٢].

وبعد قرقوش قدم إلى إفريقية جند من المغامرين عرفوا باسم الغز، وهم من أتراك آسيا الوسطى الذين سبق أن جاءت بعض جماعات منهم للعمل في جيوش ملوك المغرب. وما يزال بيفرن فرع من قبيلة يعرف باسم (الغزاز) (جمع غز). ولا ريب في أنهم متحدرون من سلالة جنود قرقوش. ويزعم سكان ورشفانة المعروفون بأنهم من البربر، أنهم يتحدرون من أصل كردي طبقاً للروايات الشعبية المتواترة[١٣].

٣ - بنو غانية في طرابلس الغرب وأفريقية

بعد الانتصار الذي حققه يحيى الميورقي على خصمه قرقوش في (محسن) استطاع أن يسيطر على إفريقية وطرابلس الغرب مدة تبلغ حوالي عشر سنوات، دون مضايقة من أحد، وبعد أن تمكن من السيطرة على طرابلس احتل قابس والمهدية والقيروان وبونة وتونس ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م). وقد كانت السيادة في هذه المنطقة للعباسيين. وكان يحكم تونس أخو يحيى الغازي في المهدية. وهو أحد أبناء علي بن الغازي الذي أبرم اتفاقاً تجارياً مع مدينة (بيزا) الإيطالية. وتدخل الملوك الموحدون بقوة وحزم لتدعيم سيطرتهم على إفريقية.

كان يحيى الميورقي قد عاد منذ قليل من حملته على الجبل، حين علم بزحف الناصر الموحدي (٦٠١ هـ) (١٢٠٥ م)، فانسحب من جديد إلى الجبل، وبلغه هناك أن طرابلس قد ثارت، وخلعت الحاكم الذي فرضه عليها. فزحف يحيى على طرابلس ودمرها. ومن المرجح أن المدينة لم تتعرض خلال القرون الهجرية الأولى لما تعرضت له من تدمير وتلف كاللذين تعرضت لهما في عهد قرقوش وبني غانية.

---

(١٢) الترجمة التركية لتاريخ ابن غلبون ص ١٤ والترجمة الإيطالية لابن غلبون ص ٧٤ والنائب ص ٢٠١ فيرود ص ٧ ـ أغسطيني ص ٩.

(١٣) دي أغسطيني ص ٢١٩.

وبعـد النـورمـانيـين، كـانت قـد جـاءت إلى الحـكـم أسرة بني مـطروح فعملت على تجميل المدينة. وينبغي أن ترد أكثر الأضرار التي حلت بها إلى بداية القـرن السابـع. ويبدي الـرحالـة التجاني، بعـد قرن من ذلـك، أسفه لما حل بالمدينة من دمار وإهمال(١٤).

وقـد هزم يحيى الميـورقي (١٢٠٥ م) في جبل (التـاجرة) بقـابس وهرب نحو الشرق، وبهذه المعركة استولى الناصر عـلى إفريقيـة عدا المهـدية التي ظلت تقاوم الحصار مدة طويلة. وبعد أن استولى عليها انتقل إلى تونس، ووزع عماله على المنطقة، واستعمل عـلى طرابلس عبـد الله بن إبراهيم بن جـامع(١٥)، وهـو من أبناء الأسر المخلصة للموحدين الموالية لهم.

ومن تـونس، أرسل النـاصر أخاه إسحـاق لملاحقـة أعدائـه المنهزمـين. وزحف نحـو الشرق، واستولى عـلى إقليم بني دمار(١٦)، وجبـل مطماطـة وجبـل نفوسة. وتوغل بعد طرابلس حتى سواقي بني متكود. (منطقة سرت)(١٧).

وقـد ظل يحيى الميـورقي على إصراره الـذي لا يقهـر، يجـوب المنـاطق الواقعة بين أفريقية والمغرب، باحثاً عن ملجأ في جبال طـرابلس وسهولهـا، وفي فزان. وقد صارت هذه المنطقة الداخلية من ودان إلى غـدامس قاعـدة متحركـة لغـزواته لإفـريقيـة حتى بجـايـة. وفي سنـة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ ـ ١٢٢٥ م) نـراه من جديد يهاجم مواقع الموحدين، فيهزم مـرة أخرى. ولم يعـد الأمر يقـوم على حملات منظمة، ولكنها غزوات كان يقوم بها سليل بني غانية اليائس، في المغرب الأقصى حتى حدود مصر، بجيش من المرتزقة المغـامرين(١٨). وقـد مات في سنـة

---

(١٤) التجاني (أنظر الفصل التالي).

(١٥) النائب ص ١٤٢.

(١٦) بين قابس وجربة.

(١٧) الموقع في منطقة سرت. أنظر: الزركشي ص ١٢ ـ ١٣ (وترجمة فانيان ص ٢٢).

Bel, op.cit. p. 134.

R. Basset, Les Sanctuaires du Djebel Nefousa, in journal Asiatique XIII, 1899 p. 455.

(١٨) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

٦٦٣ هـ (١١٣٧ - ١١٣٨ م) قرب مليانة، وبموته انتهت أسرة المرابطين[١٩].

٤ - بداية عهد الحفصيين

بين القبائل البربرية العديدة التي تنتمي إلى (مصمودة) التي خرج منها الموحدون، كانت الصدارة تنتهي إلى (هنتاتة). وهم المؤيدون الرئيسيون لابن تومرت وعبد المؤمن. وكان زعيم هنتاتة، أبو حفص، صاحب نفوذ كبير، وهو معروف ببطولته وشجاعته. وقد توفي أثناء عودته من إحدى الحملات في إسبانيا سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ - ١١٧٦ م). وظلت سلالته تتمتع بسلطة واسعة. وكان ابنه أبو سعيد حاكماً على إفريقية حتى سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٨ م) وخلفه أحد أبنائه الأخيرين، وهو أبو محمد عبد الواحد الذي ساهم مساهمة فعالة في الحرب ضد يحيى الميورقي.

وكما سبق أن لاحظنا، فإنه يحدث في كثير من الحالات أن تكون الولاية وراثية فتؤدي إلى خلق أسرة حاكمة.

والحفصيون - نسبة إلى أبي حفص - بدأ حكمهم في سنة ٦٠٣ هـ، بعبد الواحد. وواصل ابنه، بنجاح كبير، عملية تدعيم حكم أسرتهم الجديد. مع بقاء التبعية الاسمية للموحدين. وتمكن أخوه أبو زكريا ٦٢٥ هـ (١١٢٧ م) من السيطرة على الحكومة، واستطاع بعد عامين من ذلك إلغاء اسم الموحدين من الخطبة. وخلع على نفسه لقب (أمير المؤمنين). وقد مات في سنة ١٢٤٩ م. ويعتبر أقوى أمراء إفريقية والمغرب. وخلفه أبو عبد الله المستنصر (١٢٤٩ - ١٢٥٠ م) الذي بلغ بالحفصيين أقصى درجات القوة. وكانت المملكة الجديدة تمتد من طرابلس حتى تلمسان[٢٠].

---

(١٩) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧.

(٢٠) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٥ - ٢٧٨ - الزركشي ص ١٧ - ١٨ (وترجمة فانيان ص ٣١ - ٣٢).
BEL, op.cit. p. 227

٥ ـ طرابلس تحت حكم الحفصيين (القرن الثامن). اضطرابات وثورات وتدخل ملك أراغونا وصقلية في شؤون طرابلس[٢١]

انتقلت طرابلس التي ظلت مدة قرن تحت حكم الموحدين إلى حكم الحفصيين بتونس، حين أخذوا يسلكون مسلك الملوك المستقلين. ويذكر التجاني الحادثة التالية التي تتصل ببداية عهد الحفصيين بطرابلس[٢٢]. فيروي أنه كان يعيش بطرابلس في سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤٢ م) المدعو أبو عبد الرحمن يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن محمد الهرغي. وكان يتمتع بنفوذ واسع. وقد نقم في ذلك العام من قيام الأمير الحفصي بقتل وزيره الجوهري الذي كان صديقاً له. فأثار ثورة في طرابلس، ولكن أغلبية أهل طرابلس خشيت العاقبة، وأبلغت حكومة تونس التي أرسلت الأمر بقتله. ونفذ فيه الحكم وعلقت جثته وجثث أعوانه بباب هوارة. وأرسلت الرؤوس إلى تونس[٢٣].

ولا نعلم على وجه الدقة التتابع التاريخي للحكام الحفصيين، وسنكتفي بذكر بعض الأسماء والوقائع[٢٤].

كان يتولى حكم البلاد أبو إسحاق محمد بن عيسى الهنتاني[٢٥] حين قام أحمد بن أبي عمارة، من مواليد بجاية، مفسر الأحلام الطامع في السلطة، وأخذ يجوب إفريقية، وظفر بتأييد بني دبّاب، وزعم أنه (الفضل) أحد أبناء الحفصيين، وكان قد قتله السلطان الحفصي. وشرع يثير الاضطرابات باعتباره مطالباً بعرش تونس. وقد هاجم هذا المدعي طرابلس مع مرغم بن صابر زعيم قبائل بني جواري، فتصدى له محمد الهنتاني الذي دافع عن المدينة بقوة وبسالة

---

(٢١) بخصوص السيادة الحفصية، انظر.

R. Brunschvig; La Berbérie orientale sous les Hafsides, Paris 1940 - 1941.

(٢٢) التجاني ص ٢٣٢ (ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨) ابن خلدون (ترجمة دي سلان ج ٢ ص ٣٠٢).

(٢٣) كان قبره ما يزال موجوداً بطرابلس في القرن الرابع عشر.

(٢٤) يذكر النائب في هذا الخصوص بعض المعلومات التي لم أستطع أن أتبين مصدرها.

(٢٥) حكم من ١٢٤٧ إلى ١٢٨٥ حسب ما يورده النائب ص ١٤٩ ـ ١٥٦.

بينما خضع الإقليم الغربي لطرابلس الغرب من جنزور والماية وزوارة، لابن أبي عمارة الذي احتل قابس، ثم احتل تونس في سنة ١٢٨٣ م. وقد قبض عليه في العام التالي وقتل(٢٦).

وقد ظل البدو من العرب يشكلون على الدوام عنصر خطر دائم على الأمن في طرابلس الغرب وإفريقية. وكان في وسع كل طموح أو مغامر أن يجد الطريق ليجذب إليه الأنصار بالمال. لتحقيق أغراضه. وكانت طرابلس أو سهلها الداخلي، في الغالب، ميداناً لتجميع هؤلاء البدو وحشدهم. كما كان الأمر في العهدين الروماني والبيزنطي اللذين كانت فيهما هذه المنطقة قاعدة لبدو البربر الذين كانوا يغزون طرابلس ولبدة. وقرطاجنة أيضاً.

وتتوفر لدينا معلومات عن الحملة التي قادها الأمير الحفصي أبو زكريا يحيى (سيد تونس الغربية) في سنة ٦٨٥ هـ (١١٨٦ م) على إقليم طرابلس. وقد حصل عند موقع يعرف باسم (الأبيض) على خضوع الجواري والمحاميد وآل سالم وعرب برقة. وعندما كان بمصراتة علم بأن سلطان تلمسان يهاجم بجاية عاصمة إمارته، فغادر طرابلس الغرب عائداً إلى مقر إقامته(٢٧). ولكنه قتل في تونس، حيث قام ثائر جديد بمعارضة الحفصيين. وانطلقت الحركة من جديد في طرابلس الغرب(٢٨).

كان أبو دبوس، آخر أمراء الموحدين، قد قتل في سنة ٦٦٨ هـ وتفرق أبناؤه، وانتقل عثمان إلى شرقي الأندلس ضيفاً على ملك أراغون في برشلونة حيث وجد كثيراً من أقاربه. واستقبل بما يليق به من حفاوة وتقدير. وأصبح ممثل الأسرة الآفلة. وكان يحلم باستعادة ملك والده فركب البحر بنية النزول

(٢٦) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٠٢ (ترجمة دي سلان ج ٢ ص ٣٨٨) الزركشي ص ٣٥ (ترجمة فانيان ص ٦٣). لقد ورد ذكر هذا الحصار في (الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية لابن قنفد) ترجمها:

Cherbonneau, in (Journal Asiatique) serie IV vol XII 1848 P.237.

(٢٧) ابن خلدون (ترجمة دي سلان ج ٢ ص ٤٠ الطبعة الجديدة).

(٢٨) ابن خلدون ج ٦ ص ٨٦ ـ ٣٠٨ الزركشي ص ٤٤ (ترجمة فانيان ص ٨٠).

بـطرابلس. وقدم لـه الأراغون سفنـاً وجنوداً. وأطلقـوا سراح القـائـد العـربي مرغم بن صابر الذي كان أسيراً بصقلية[٢٩]، وبعثوه رفقة عثمان الـذي وصل إلى طرابلس، وحاول الاستيلاء على المدينة بواسطة الجنود المسيحيين والعرب الذين جمعهم مـرغم (٦٨٨ هـ) (١٢٨٩ - ١٢٩٠ م). ولكنهما فشـلا في هذه المحـاولة، وتخليـا عن الحصـار، ورجعت السفن بعـد أن أنـزلت عثـمان ومـرغـماً بسـواحـل طـرابلس حيث أخـذا يجـوبـان المنطقـة ويجمعـان الخـراج من الأهـالي. وبهـذه الطريقة جمعا المال اللازم لدفع أجرة المسيحيين لقاء المساعدة التي قدموهـا لهما[٣٠]. ومنذ ذلك الحين ظل عثمان بن دبوس، ولمدة محددة، معترفاً به كأمير على عـرب الجـواري. وفي مارس ١٣٠٦ م ثـارت ثائـرة سكـان تـونس عـلى أحـد الـزعـماء

---

(٢٩) أسر مـرغم بن صابـر سنة ١٢٨٥ من قبـل القشطاليـين الـذين كـانـوا مـوجـودين بسفنهم في جربةالتي وقعت قبل ذلك بقليـل تحت سيطرة الصقليين. وقد قبض عليـه حين كـان يهبط من الجبل ويسير في جماعة من العـرب ضد تـونس، عبر السـاحل. وقـد نقل إلى صقليـة واعتقل بمسينا - أنظر:

Storia Sicula di **Batrolomeo Di Neocastro** in Rerum Italicarum Scriptores. XIII cap. 85.

ويقـول ابن خلدون ج ٦ ص ٣٠٨ إنـه كـان أسـيراً في بـرشلونـة. ولا يبـدو أن هـذا القـول صحيح. ويستخلص أماري من مصادر صقلية أنه نقل إلى صقليـة وسجن بمسينا وكـان رفيقاً في الأسر لشارل الأعرج. أنظر:

Amari: La guerra del Vespro siciliano IX Ed. Milano 1886. II. P. 78 - 79.

(٣٠) هذه المعلومات المستخلصة من ابن خلدون ينبغي أن توضع موضـع المقارنـة مع أخبـار المؤرخ الصقلي برتولوميو دي نيوكاسترو الذي سبق أن أشرنا إليه والذي يروي لنا أن الأميرال روجيرو دي لوريا قد نقل مرغم إلى إفريقية وأطلق سراحه مقـابل فـدية ذهبيـة. وقد نـزل مرغم مـع ثمانين شاباً بقيادة بوتراد دي كانيللي القاتالاني، وقد استعان بهم في إخضـاع مدينـة (تولـومينيا أو تولوميرتا) التي تقع على مسافة سبعة أيام والتي كـانت قد تمـردت، وقد حـاول التخلص من دفع الفدية المتفق عليها ونصب المكائد للجنود الأراغـون. ولكن القائـد القشطالي ألـح عليه حتى حصل على المبلغ ورجع إلى سفن الأميرالية للعودة إلى صقليـة. وقد ذكـر نيكولـو سبيشيالي في كتابه:

Nicolà Speciale, Historia Siciliae (Rerum Italicarum Scriptores, X,II cap. XVI.

أن روجيرو دي لوريا قد قام في ١٢٨٥ باجتياز سواحل بربرية في عمارة بحرية تتألف من ست عشرة سفينة وأنه قد حمل عبيداً من (طلميثة).

الطغاة من بني كعب، واسمه (حداج). وكان قد أراد أن يقتحم جامع الزيتونـة من غير أن يخلع حذاءه، تحدياً لكافة التقاليد المعروفة[31]، فقتلوه. وقد أثار هذا الحادث بني كعب الذين أقسموا على الأخذ بالثأر. وبعث أحمد بن الليـل الذي كـان زعيماً لهم، في ذلـك الوقت، داعيـاً عثمان إلى القـدوم. وزحف عثـمان من إقليم طرابلس حيث كان يقيم، وهاجم تونس، دون جدوى. فلما هزم أكثر من مرة عاد إلى طرابلس، ثم انتقل الى المغرب[32].

كانت طرابلس تمثـل موقعـاً له أهميتـه الكبيرة بـالنسبة للحفصيـين بتونس باعتبارها معقلاً شرقياً للإقليم الخاضع لسيادتهم. وعندما جاء عبـد الواحـد إلى طرابلس سنة ١٢١٧ م أمر بتحصين المدينة ورفـع سوراً عـرف باسم (الستـارة) أمـام الأسوار الشرقيـة[33]. ولم ينته العمـل منه إلا عنـد سنة ١٣٠٠ م تقـريبـاً. واهتم أيضاً السلطان أبو عبد الله بتجميل مدينة طرابلس.

٦ ـ السيطرة الصقلية ـ الأراغونية في جربة (١٢٨٥ ـ ١٣٣٤ م)

بعد مضي أكثر من قـرن على نهايـة السيادة النـورمانيـة، في شمال إفـريقيا، احتل الأميرال الصقلي(روجيرو دي لوريا أو لاوريـا Ruggero di Loria Lauria) جزائر جـربة وقـرقنة ١٢٨٤ م. ويقـال إنه قتـل في هذا الاحتـلال أربعة آلاف نسمة وأسر ستة آلاف نسمة. وأنشأ قلعـة للدفاع عن البلدة[34]، وأسر في ذلـك

---

(٣١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣١٤ (ترجمة دي سلان ج ٢ ص ٤١٥) الزركشي ص ٤٤ ـ ٤٥ (تـرجمة فانيان ص ٨٠).

(٣٢) ولاة طرابلس عند نهاية القرن الثالث عشر وبدايـة القرن الـرابع عشر غـير واضحين. ويـرى النائب (ص ١٥٦) أنه منذ سنة ١٢٨٥ وما تلاها قد تولى الولاية يوسف بن طاهر اليربوعي.

(٣٣) هكذا يؤكد التجاني ص ٢٠٦ الذي يقول إنه استخلص هذه المعلومات التي كانت مكتوبة على باب عبد الله.

(٣٤) أنظر: **Bartolomeo Di Neocastro** op. cit. cap. 83.

Niccolo Speciale op. cit X Libro I cap. XXX.

الـوقت مـرغـماً زعيم عـرب الجـواري بـطرابلس ١٢٨٥ م ثم أطلق سراحـه فيـما بعد (سنة ١٢٩٠ م)(٣٥).

وقد وضع روجيرو دي لوريا جزر جربة وقرقنة تحت سيادة البابـا بونيفـاشيو الثامن الذي نصبه في سنة ١٢٩٥ حاكماً عليها مقابل دفع ضريبة سنوية قدرهـا خمسـون ليرة ذهبية. وقد خلفـه في حكم جربـة ابنه كـارلو، ثم الصبي الحـدث روجـيرو الثاني، ثم روجـيرو الثالث بمسـاعـدة الـوصي (كـرادو لانشيـا Corrado Lancia) . وقد جرد الحفصيون بقيادة علي اللحياني جيشـاً ضد المسيحيـين الذين يحتلون جـربة سنـة ١٣٠٧، وقد أرغمت النجـدات التي بعث بها ملك صقليـة الجيش التونسي على الانسحاب. كما أفادت فيها بعـد في إخضاع الأهـالي الذين ثاروا بمساعدة تونس.

كـانت جربـة منقسمـة إلى فـريقـين: أولاد مؤمن ويؤيـدون المسيحيـين. والمـاستونـة يعارضـونهم ويقاومـونهم. وقـد أثـار هؤلاء في سنـة ١٣١١ م ثـورة خـطيرة. وأرسل ملك صقليـة فردريـك الثاني ملك أراغـونا المغـامـر القشـطالي رامون مونتـانير (Ramon Montaner) لإعـادة النظام. وظـل هذا حـاكماً عـلى جربة من ١٣١١ إلى ١٣١٤ م وتلاه آخـرون معينون من قبل ملك صقلية حتى سنة ١١٣٤ م حيث تمكن أهل جربة في تلك السنة، بمساعـدة حكومـة تونس، من طرد الحامية الأراغونية الصقلية. ورجموا الحاكم دون بدرو سراكوزة، وظلت جربة منذ ذلك الوقت، ولمدة نصف قرن، تحت سيطرة الحفصيين(٣٦).

---

(٣٥) أنظر الفقرات المتقدمة من هذا الفصل.

(٣٦) أنظر:

Marmol, Vol a fol 290.

Cerone, Seconda Spediziane di Alfonso V contro Lisola di Gerba in Annuari de l'institut d'Etudis Catalans 1909 - 1910. p. 52.

الفصل الثامن
طرابلس عند بداية القرن الخامس عشر

* طرابلس كما وصفها الرحالة التجاني ١٣٠٧ - ١٣٠٨ م.
* الأضرحة والمساجد والمدارس.
* القوس الرومانية
* المقابر.
* الأوضاع الثقافية والاقتصادية.
* ضواحي طرابلس.
* الوضع السياسي والاقتصادي في طرابلس الغرب في القرن الرابع عشر.

١ ـ طرابلس كما وصفها الرحالة التجاني في ١٣٠٧ ـ ١٣٠٨ م[١]

عند نهاية سنة ١٣٠٧ م قام عالم تونسي، هو أبو محمد عبد الله التجاني، بالسفر من تونس في معية أبي يحيى زكريا اللحياني زعيم الأسرة الحفصية، متجهين الى الحج. وكانت المرحلة الأولى من الرحلة جزيرة جربة التي كان اللحياني ينوي انتزاعها واستخلاصها من المسيحيين[٢]. وقد فشل الحصار، وعاد الجند إلى تونس. وتابع اللحياني رحلته، وأقام شهرين وعشرين يوماً ببلدة جنزور، ثم دخل طرابلس في ١٤ ديسمبر ١٣٠٧ م. وقد وصف هذه الرحلة، التجاني في كتابه عنها. وسنستفيد منها في إعطاء صورة عن الوضع في طرابلس، في ذلك الوقت[٣].

ولما توجه إلى طرابلس وأشرف عليها (كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشي الأبصار، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء. وخرج جميع أهلها مظهرين للاستبشار، رافعين أصواتهم بالدعاء وتخلى والي البلد، إذ ذاك، عن موضع سكناه، وهو قصبة البلد فنزلنا بها). ويحدثنا التجاني عن القصبة فيقول: (إن آثار الضخامة بادية على هذه القصبة، غير أن الخراب تمكن منها. وقد باع الولاة أكثرها. فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن، إنما استخرجت منها. ولها رحبتان متسعتان[٤]. وفي الخارج منها المسجد المعروف في القديم بمسجد

(١) أنظر أيضاً:

R. Brunschvig, op. cit. I. p. 391 - 395.

(٢) **Marmol,** op. cit. fol 290.

(٣) تقع الصفحات الخاصة بطرابلس بين ٢٣٧ ـ ٣٠٦.

(٤) يحتمل أن يكون ذلك داخل القلعة.

العشرة[٥]، لأن عشرة من أشياخ البلدة كانوا يجتمعون فيه للمشورة، فيدبرون أمر البلد، وذلك قبل تملك الموحدين لها. فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم، وزال من المسجد ذلك الاسم)[٦].

(وكان فيما يقابل هذه القصبة، موضع يعرف بالرياض، مخصوص بوالي البلد، وأصله من مباني بني مطروح، رؤساء طرابلس في القديم، ويذكر من حسنه ـ كان ـ وثماره وضخامة مبانيه. وهو الآن خرب، غير أن به آثاراً دالة على ما يذكر عنه. وقد أقطع هذا الموضع، في هذا الوقت، لبعض العرب فغيره على حاله، وابتنى في موضعه داراً)[٧]. وإلى جوار القصبة يوجد حمام البلد، وهو، (صغير الساحة، إلا أنه قد بلغ من الحسن غايته، وتجاوز من الظرف نهايته، وكان هذا الحمّام من منافع القصبة، فبيع من جملة ما بيع منها. . . وبالبلد حمّامان آخران غيره، إلا أنهما في الحسن دونه).

أما شوارعها (فلم أر أكثر منها نظافة، ولا أحسن اتساعاً واستقامة، وذلك أن أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً، من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية، فالماشي بها يمشي مشي الرخ خلالها)[٨].

وقال إن الطرابلسيين كانوا معتنين بأسوار المدينة (ورأيتهم قد شرعوا في حفر خندق متسع، يرومون أن يصلوه بالبحر، من كلا جانبي البلد، وابتداء حفره من الركن الذي بين القبلة والمشرق. وعارضهم في حفره هناك موضع يعرفونه بالرملة، وهو حقف رمل متسع لاصق إلى جانب السور، ولا يزالون أبداً يتكلفون نقله، من ذلك الموضع، فإذا جهدوا جهدهم في حمله ورميه في البحر، أعادته الريح كما كان لا تقدمه عن موضعه ولا تؤخره).

---

(٥) أنظر: العمري، وصف إفريقية وإسبانيا ـ طبعة حسن حسني عبد الوهاب، تونس ص ٩ عن الشيوخ الذين كان يتألف منهم مجلس السلطان الحفصي في القرن الرابع عشر.

(٦) لا ريب في أن التسمية تعود إلى بني خزرون وبني مطروح.

(٧) يرجح أن يكون موضع الرياض المذكورة بين القلعة ومسجد أحمد القرمانللي الحالي.

(٨) يعتقد بأن الرحابة النسبية وانتظام الشوارع تعكس طوبوغرافية المدينة.

ويحيط بهذا السور الآن فصيل أقصر منه، على العادة في ذلك، يسمونه الستارة، ولم يكن في القديم، وإنما أمر ببنيانه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص أيام وصوله إلى طرابلس). وقد مد هذا السور حتى اتصل بالبحر، أيام إقامة الرحالة التونسي.

وفي الأسوار أبواب عديدة. يذكر منها الباب الأخضر (باب زناتة حالياً). وباب الستارة، ويسمى أيضاً (باب عبد الله) ويطابق باب المنشية المعروف بهذا الاسم حتى الماضي القريب. ثم باب هوارة. وهو بالسور القديم، وهو يقابل الباب المتقدم الذكر. وباب البحر[9]، وهو الذي يؤدي إلى الميناء، وداخل المدينة، خلف باب هوارة (بطحاء متسعة يعرفونها بموقف الغنم، يبيعون بها أغنامهم ومواشيهم، وبخارج باب البحر منها، منظر من أنزه المناظر مشرف على الساحل، حيث مرسى المدينة، وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر، وتصطف هناك، اصطفاف الجياد في أواريها)[10].

٢ ـ الأضرحة والمساجد والمدارس

ويحصي التجاني منها:

١ ـ مسجد عمرو بن العاص (ينسب بناؤه إلى عمرو بن العاص) وهو قرب (موقف الغنم) في المكان الذي يقوم عليه حالياً مسجد أحمد باشا القرمانللي.

٢ ـ مسجد العشرة، مقابل القصبة.

---

(٩) أنظر تحصينات طرابلس للبروفسور أوريجما:

Aurigemma: Le fortificazioni di Tripoli Not. arch. min. delle colonie 11 - 1916 p. 217 - 300.

ولقد ورد ذكر باب البحر وباب هوارة في الأبيات المنسوبة إلى أبي يحيى بن مطروح، وقد أنشدها أثناء وجوده بالإسكندرية. ولقد أوردها التجاني وترجمها إلى الإيطالية البروفسور أوريجما في عمله المذكور أعلاه

(١٠) التجاني ص ٢١١ (ص ٢٤٦).

٣ ـ مسجد يقع بين الباب المعروف بالباب الأخضر وباب البحر، وقد اشتهر بنزول ابن تومرت به[١٦] عند مروره بطرابلس، وإلى جانبه ميضاة جعلت للمتوضين والمغتسلين.

٤ ـ المسجد الأعظم الذي شيده أبو عبيد[١٢]، وقد وصفه، وهو جامع متسع على أعمدة مرتفعة، وسقفه حديث التجديد، وبه منار متسع مرتفع قائم من الأرض على أعمدة، مستديراً فلما تم نصفه كذلك، سدّس. وكان بناؤه في العام المكمل للمئة الثالثة على يد خليل بن إسحاق[١٣]، وأصله من طرابلس. (وهو من أبناء جندها، وممن ولدوا بها، وكانت له صولة وهيبة، وحظ جليل من العلم وباع متسع في الأدب).

وينقل التجاني: (أن شَكْراً المعروف بالصقلبي ابتنى الماجل الذي بجامع طرابلس من الجهة الجوفية والقبة التي عليه، في سنة تسع وستين ومائتين) ٨٨٢ ـ ٨٨٣ م. ويقول إن المسجد الأعظم يقع بين القصبة والمدرسة المنتصرية، القريبة من القوس الرومانية. وهذا يبعث على الظن بأن هذه المدرسة كانت تقوم قريباً من المكان الحالي لمسجد درغوث. وثمة اعتبارات أخرى تجعل هذا الوصف مطابقاً لجامع الناقة، كما سوف نرى فيما بعد.

٥ ـ المُصلّى: وهو المكان الفضاء المخصص للعبادة، مثل صلاتي العيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى الذي يوافق العاشر من ذي الحجة طبقاً للتقويم

---

(١١) ربما تطابق هذا المسجد بمسجد حومة غريان.

(١٢) هكذا وردت في المخطوطة وربما كان تصحيفاً لاسم (عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية من ٧٣٤ إلى ٧٤١). وهو الذي شيد المسجد الأعظم بتونس. (النويري ترجمة دي سلان في ذيل كتابه ـ تاريخ البربر الطبعة الجديدة ج ١ ص ٣٥٩) وكذلك (النويري: تاريخ المسلمين بإسبانيا وإفريقية:

Historia de los musulmanes de Espana y Africa.

النص العربي والترجمة الاسبانية. وقد ورد الاسم خطأ (Habhan) ص ٣٧. أما التجاني فيقول لقد شيده بنو عبيد وقد كرر ذلك في صفحة ٢٦٦ .(فهو إذن من إنشاء العبيديين).

(١٣) بخصوص خليل بن إسحاق انظر ما كتبناه في الفصل الخامس.

القمري الإسلامي. وكان يوجد هذا المصلى، في عصر التجاني، جانب البلد، بين جنوب وشرق منه. وكان المصلى القديم في الجانب الغربي، وقد بناه عبد الله بن أبي مسلم، وخليل بن إسحاق سنة ثلاثمئة (٩١٢ - ٩١٣ م) في موضع يعرف (بالعيون، سمي بذلك لأن هناك عيون ماء عذبة، وهو بشاطىء البحر، وماؤها ينصرف إليه) ويرجح أن يكون هذا الموضع هو المكان الواقع غربي طرابلس، بين السور والمقبرة اليهودية. وما يزال يعرف (بالعيون) بسبب المياه النابعة من الأرض، المنصرفة إلى البحر.

أما المدارس فإن المنتصرية أجملها، وكان بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا فيما بين سنة ستمائة وخمس وخمسين إلى سنة ستمائة وثمان وخمسين ٦٥٥ - ٦٥٨ هـ (١٢٥٦ - ١٢٥٩ م) وهي أحسن المدارس وصفاً وأجملها صنعاً. وتقع قرب القوس الرومانية[١٤].

٣ - القوس الرومانية

من المفيد أن ننقل هنا وصف التجاني لقوس (ماركوس أوريليوس (Arco di Marco Aurelio) الواقعة بين المدرسة التي سبق ذكرها وباب البحر يقول التجاني:

(بين هذه المدرسة وباب البحر، مبنى من المباني القديمة العجيبة وهو شبه قبة من الرخام المنحوت المتناسب الأعالي والنحوت التي لا تستطيع المائة نقل الواحدة منها. قامت مربعة، فلما وصلت إلى السقف ثُمِّنت، على إحكام بديع،

(١٤) يقول التجاني إن القوس الرومانية تقع بين المدرسة المذكورة وباب البحر فهي إذن تقع إلى الجنوب الغربي من القوس، حيث يقوم مسجد قورجي. ويذكر التجاني (ص ٢١٧) (ص ٢٥٢) أبياتاً من الشعر لأحد العلماء التونسيين يمدح فيها المدرسة مشيداً برياضها وروائحها. ويذكر الكاتب الطرابلسي الخروبي وهو من علماء القرن السادس عشر (مخطوطة ٢٥٠ بمكتبة الأوقاف بطرابلس ص ٣) يذكر عرضاً اسم (مدرسة الرخام) التي يحتمل أن تطابق المدرسة الموصوفة أعلاه التي لا بد أن تكون قد استعمل بها رخام الآثار الرومانية. وقد تم دمارها في القرن السادس عشر.

وإتقان عجيب صنيع، وهي مصورة بأنواع التصاوير العجيبة، نقشاً في الحجر، وقد بني عليها مسجد يصلى فيه وأخبرت أن ذلك كان لأحد الكبراء حاول هدمها، وأخذ رخامها. وعلى بعض قطعها من الجهة الشمالية أسطر مكتوبة بخط رومي، وقد أخبرني أبو البركات بن الفقيه أبي محمد بن أبي الدنيا عن والده الفقيه أبي محمد، أنه لم يزل معنياً بالبحث عمن يحسن ترجمتها، وأنه وجد نصرانياً يعرف ذلك الخط فذكر له نصه: (أمر ببناء الكنيسة فلان بن فلان من حلال ماله الذي اكتسبه من غلة زيتونه، وفي يوم إتمامه لبنائها أو في يوم شروعه في بنائها وصل إليه الخبر من الشام أن نبياً من العرب ظهر بالحجاز اسمه محمد بن عبد الله)[١٥].

إن هذه الحكاية، والتفسير الغريب للنص، يشهدان على ما رسخ في الأذهان حتى ذلك العهد من أخبار الازدهار الماضي الذي عاشت البلاد في كنفه في العهد الروماني، ووفرة إنتاج الزيت بها.

٤ ـ المقابر

يقول التجاني[١٦] إنه شاهد مقابر ممتلئة بالموق (ورأيت مقابر طرابلس كلها، فوجدتها قد امتلأت من بني آدم، وغلبت عظامهم على تراب الأرض فلا ترى منها ملء كف من تراب إلا وعليها جمجمة أو عظم، ولا سيما الجهة الشمالية منها. وكثيراً ما يدفنون هناك الغرباء الذين ليسوا من أهل البلد. وهناك مدفن جثة أبي عبد الرحمن بن يعقوب بن أبي يعقوب بن يوسف بن محمد الهرغي، الثائر بطرابلس[١٧]. وكان هذا الرجل قد ظهر في أول دولة الأمير أبي زكريا يحيى ظهوراً عظيماً واشتهر بالإقدام والاقتحام في كل الأمور العظام).

(١٥) التجاني ص ٢١٨ (ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣).
(١٦) التجاني ص ٢٣١ (٢٦٧ ـ ٢٦٨).
(١٧) أنظر الفصل السابع ـ الفقرة الخامسة.

ولا بد أن بعض هذه المقابر تقع قرب المحطة الرئيسية حيث عثر على بعض شواهد القبور التي ترجع إلى قرون سحيقة[18].

وقد زار الرحالة قبر سيدي عبد الوهاب الذي يوجد خارج السور بين شرق وشمال. ويحتمل ألا يكون الضريح الحالي الموجود بباب البحر قائماً في عهد التجاني، وإلا لوجب أن يتحدث عنه كمسجد لا كضريح. ويذكر الخروبي ـ من القرن السادس عشر ـ المسجد[19].

٥ ـ الأوضاع الثقافية والاقتصادية

كانت طرابلس ـ كما لاحظ بحق الرحالة التونسي ـ بعيدة عن الحركة الحضارية. وقد كانت للثقافة الإسلامية مراكز هامة بالمغرب في فاس ومراكش وبإفريقية في القيروان وتونس والقاهرة بمصر وقليل منها بطرابلس. ولكن وجود طرابلس على طريق الحجاج، والاتصال بين الشرق والغرب الإسلاميين، قد هيأ لها فرصة الاحتفاظ ببعض التراث الثقافي المتواضع. وكان المسافرون القادمون من الشرق ومصر وتونس والمغرب والأندلس يحملون معهم أنباء البلدان البعيدة وأحداثها، كما ينقلون الكتب ويقومون بالتدريس. وكان يكفي أن يأتي إلى البلاد، فقيه بصفة (قاض)، أو بتكليف من أحد الأمراء، أو يكون في طريقه إلى الحج، أو موفداً إلى بلاطات أحد السلاطين، حتى يتوقف بضعة أشهر فيلتفّ حوله عشاق المعرفة، ويصبحوا له تلاميذ يتلقون عنه العلم، ويحصلون على إجازته التي تشبه الشهادات الحديثة.

وهكذا نفهم كيف أنه لم يكن لطرابلس ـ عدا مدة قصيرة من العهد القرمانلي ـ حظ رعاية الأشخاص الذين يرتبط بهم تقدم العلم والحياة العلمية، فاحتفظت بشكل محدود متواضع ـ ولكن لا يستهان به ـ بذخائر العلوم الدينية والدنيوية.

---

(١٨) متحف طرابلس.

(١٩) المخطوطة المشار إليها سابقاً في هوامش هذا الفصل. (هامش رقم ١٤).

لقد كان الفقيه المشهور، أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الأجذابي[٢٠] الذي عاش بطرابلس، يرد على الذين يسألونه (أنى لك هذا العلم ولم ترتحل؟ فقال: اكتسبته من بابي هوّارة وزناتة، وهما بابان من أبواب البلد نسباً إلى من نزل بهما في أول الزمان، يشير بذلك إلى أنه استفاد العلم من لقاء من يفد على طرابلس فيدخل من هذين البابين من المشرقيين والمغربيين)[٢١].

وكان من البارزين آنذاك، أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبيد وهو من المتضلعين من علوم الشريعة الإسلامية. ولد بطرابلس في ٦٣٩ هـ (٤١ ـ ١٢٤٢ م) وقد تلقى العلم على الفقيه أبي موسى عمران بن معمر من طرابلس[٢٢]. وعلى الفقيه أبي عباس بن عيسى الغماري الذي كان قاضياً بطرابلس وعلى أبي محمد عبد الله بن إبراهيم بن مسلم القابسي، من قابس. وقد ولي قضاء طرابلس هو الآخر[٢٣].

وكان قد توفي، قبل ذلك، بتونس التي ولي قضاءها، الفقيه الطرابلسي أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات أبي الدنيا، صاحب المؤلفات المشهورة في العقائد والقياس والجهاد[٢٤].

وكان يعيش بطرابلس، ويدرس بها، في ذلك الوقت، أبو الحسن ابن الولي (سيدي عبد الوهاب). وقد ذكر أن قبر الفقيه الإمام أبي إسحاق إبراهيم الأجذابي معظَّم لدى الناس، وهو صاحب تآليف جليلة في النحو والفقه وغيرها[٢٥].

---

(٢٠) توفي قبل سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) أنظر بروكلمان ج ١ ص ٣٠٨ وتوجد نسخة جيدة مخطوطة من كتابه (كفاية المتحفظ) بمكتبة الأوقاف بطرابلس.

(٢١) التجاني ص ٢٢٩ (ص ٢٦٤).

(٢٢) التجاني ص ٢٥٦ : هو الفقيه القاضي أبو علي حسن بن معمر الهواري الطرابلسي، وقد توفي بتونس في أواخر يناير ١٢٨٣ م وقد ذكره الزركشي، طبعة تونس ص ٣٧ وهو أخو أبي موسى عمران كما يبدو من أقوال التجاني ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢٣) التجاني ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢٤) أنظر ترجمته لدى الزركشي ص ٣٤ ـ ٤١.

(٢٥) التجاني ص ٢٦٢.

وذكر التجاني أن اعتماد المدينة في تموينها (على ما يجلب إليها من البحر، ومن عادتهم ألا يتركوا أحداً يخرج شيئاً مما حصل ببلدهم من الطعام إلى خارجه ويعاقبون على إخراجه). وإذا صح هذا الخبر فإنه يدل على أن محصول تلك السنوات كان ضئيلاً. ومن جهة أخرى، يستنتج من هذا النص، أن التجارة مع السفن القادمة من سواحل إيطاليا كانت نشطة حينذاك، بطرابلس، كما هو الشأن في شمال إفريقيا بأسره[26].

ويضيف التجاني أن (طرابلس معدومة المثال في إصابة الزرع[27]، إذا أصابت. وليس يدرى مثلها في ذلك، وأشهرها بذلك الفحص الذي يسمونه سوفجين. قال البكري: وربما أنبتت الحبة في هذا الموضع في بعض السنين مئة سنبلة).

٦ ـ ضواحي طرابلس

وفي ضواحي طرابلس المدينة، لاحظ الرحالة كثرة المحارس والمساجد. وذكر أن هذه المحارس[28] تقع في المرتفعات الحصينة، وهي تصلح لمراقبة الأعداء الزاحفين عن طريق البر أو البحر، وينسب بناؤها إلى الأغالبة (القرن العاشر) الذين شيدوها على طول سواحل إفريقية والمغرب[29]. ويلحق بها في العادة مسجد، وقد زالت عنها فيما بعد الوظيفة الدفاعية لتصبح مجرد أماكن للعبادة.

والمساجد الرئيسية التي ذكرها التجاني هي:

١ ـ مسجد الشعّاب، وينسب بناؤه إلى أبي محمد عبد الله الشعاب الطرابلسي.

---

(٢٦) أنظر الهامش رقم ٢٠ من هذا الفصل.

(٢٧) الإصابة: يعبر عنها في طرابلس وتونس (بالصابة) وهي وفرة المحصول.

(٢٨) التجاني ص ٢١٣ (ص ٢٤٧ ـ ٢٥١).

(٢٩) التجاني ص ١٩ (ص ٢٣) ـ ابن الأثير ج ٧ ص ١٩٦ (ترجمة فانيان ص ٢٤٨) ويقول ابن الأثير إن إبراهيم بن الأغلب (بنى الحصون والمحارس على سواحل البحر حتى كان يوقد النار من سبتة فيصل الخبر إلى الإسكندرية في الليلة الواحدة).

وكان نجاراً مشهوراً بالتقوى والكرامات. وكانت وفاته سنة ٣٤٣ هـ (٨٥٧ - ٨٥٨ م).

٢ - مسجد الخطاب، بخارج المدينة، من جهة الشرق. وقد اشتهر خطاب البرقي بكراماته.

٣ - مسجد الجدود، ويعرف أيضاً بمسجد الجدة، لأن إحدى جدات بني الأغلب، ثم عرف فيما بعد بالمسجد البارزي[٣٣]، لسكناه به. وهو بخارج طرابلس من جهة الجنوب. مشرف على المقابر.

٤ - مسجد المجاز، ومعروف بسكنى الفقيه أبي الحسن علي بن أحمد الخصيب الطرابلسي.

وقد ترك لنا التجاني أخباراً عن الأماكن التي زارها ابتداء من الحدود التونسية حتى مسلاتة. حيث قطع رحلته وعاد إلى تونس وهو يصف زوارة الصغرى[٣٢]، وتسمى أيضاً وطن المرابطين (وهي قرية ذات نخل كثير باسق الارتفاع وماؤها في غاية العذوبة. وقد استولى الآن الخراب على هذه القرية. فليس العامر منها إلا بعض الغامر. وأهلها قوم من الخوارج غلاة في مذهبهم) وشيخهم المبجل هو عبد الرحيم الزواري. وأمام زوارة وبمقربة منها قصر يسمى وزدر (قدم رسمه، وبقي اسمه، وتخلع أكثر البناء الذي به، وهذا القصر هو المشهور ببيع من يجتاز به من الحجاج وغيرهم للنصارى)[٣٣] وكان هذا الفعل منهم كثيراً شائعاً فيما تقدم، وأما الآن فقد قل ذلك لقلة العابرين. ثم تابع الرحلة ماراً بزوارة الكبرى (وهي قرية أضخم من الأولى، وأكبر غاية، وفي أهلها شجاعة موصوفة، وعزة نفس، وطاعتهم للعرب مشوبة بعصيان). ثم

---

(٣٠) تعرف هذه الحصون باسم الرباطات (جمع رباط) ومنها جاءت كلمة المرابط وتعني الشخص الذي يتفرغ للدفاع والعبادة.

(٣١) لعلها مقبرة سيدي منذر.

(٣٢) **C.A. Nallino**, Venezia e Sfax Nel sec. XVIII Secondo il cronista arabo Maqdish in centenario M. Amari, Palermo 1910 P. 351 - 352.

(٣٣) أنظر القسم الثاني من هذا الكتاب.

نـزل (دلول) وهي تبعـد عن زوارة الكبرى عشرين ميـلاً، حيث لاحظ خـراب البنيان بها.

وفي اليـوم التالـي وصـل إلى تلّيل (وهـو حصن في رأس تل مشرف عـلى البحـر، وأهله برابـرة نكّارة مـوصوفـون بخبث وشر). ووصل يـوم الاثنين إلى زاوغة (ومنها تـظهر للمتـوسم بعض مباني طـرابلس) (وبهذه المـدينة آثار قديمـة وأعمدة مرتفعة من الرخام قائمة إلى الآن، لا بناء يكتنفهـا، ووجدت سـاريتين منها متجاورتين على شكل واحد، وكـل واحدة مؤلفـة من أربع قـطع في غايـة الضخـامة والارتفـاع وحسن الصنعة، غـير أن إحداهمـا قد سقـطت قطعـة من أعلاها. فأخبرني أهل الموضع أن بعض كبراء العـرب كلفهم رمي تلك القطعة لأنـه سمع أن كـل قطعـة منها مملوءة ذهبـاً، فرمـوها فكسروهـا فلم يجـدوا بهـا شيئاً).

ويتابع التجاني وصف رحلتـه فيشـير إلى أنه كـانت توجـد جانب زواغـة (من جهة البحر، آثار المدينة القديمة المعروفة بصبرة قـاعدة ذلـك الموضـع كله، ولم يكن هنـاك أحصن منها) وقـد وصف صرمان (زاويـة أولاد سهـل) بقـولـه: (رابطة حصينة يحف بها شجر كثير من التين والرمان والخـوخ، وغير ذلـك، ولها أرض متسعة تعرف بالسابرية، وسهل صاحب الزاوية كـان يعرف بـأبي عيسى، توفي عام ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ - ١٢٧٥ م)[٣٤].

(ثم زاويـة أولاد سنـان، وهـم أقـربـاء النـوائـل، ويحكمهم عبـد الله بن دبّـاب بن جاريـة، الشديـد القسوة، المشهـور بتعذيب البربر[٣٥]. وهنـاك مجمـع العرب وسوقهـم).

وقريباً من الزاويـة قـرية المـاية[٣٦]، وهي قـرية صغـيرة بها نخـل يسير، وقصور مرتفعة متفرقة. وبمقربة منها قرقوزة، وبها آثار قديمة.

---

(٣٤) التجاني ص ٢١١ - ٢١٣.
(٣٥) التجاني ص ٢١٤.
(٣٦) التجاني ص ١٨٥ (ص ٢١٤).

وفي غرة سبتمبر حل التجاني بجنزور: (فرأيت غابة ملتفة الأشجار، وبها مياه عذبة، وأكثر شجرها الزيتون، وأكثره من الغرس القديم على نحو زيتون الساحل. وليس يعظم شجره في موضع من المواضع ما يعظم في هذه القرية، وبها مع ذلك نخل كثير، ورطبه متناهي الطيب، وبها أيضاً شجر التفاح والرمان والعنب والتين كثير. وهي كثيرة القصور وقد استولى الرمل على أكثرها. وهم الآن يتوقعون استيلاءه على باقيها). وكانت فيها تقدم من أملاك أهل طرابلس، فلما وقعت فتنة الميورقي[٣٧]، بتلك الجهات، وانقطع بسبب ذلك طرق أهل البلد إليها، وانتفاعهم بشيء من عللها، زهدوا فيها فباعوا من بعض البربر، فهم أصل المجريسيين)[٣٨] (وبها جامع متسع للخطبة، يذكر أن عمرو بن العاص رحمه الله أسسه، واحتجز من هذا الجامع موضع دفنت فيه أم سالم بن مرغم وكثير من ولده).

(ويجاور هذا الجامع قصر خرب متسع يعرفونه بالقصر القديم، ويقال إنه أول قصر بني بجنزور، ولم يبق منه الآن إلا سوره المحيط به، وهم يعظمون أمره، ويقولون إن فناء ما بقي منه يؤذن بخراب البلدة وفناء أهلها، وإلى جانب هذا الحائط يكون مجتمعهم لنصب سوقهم وهي سوق نافقة ضخمة يجتمع البربر بها من الأقطار النائية في كل جمعة).

ونورد فيما يلي نص حديث التجاني عن وضع العرب والبربر.

(وأهل زنزور قوم من البربر هواريون ثم مجرسيون كما تقدم، وكان لمجريس قبل هذا قوة واشتداد بقريتهم هذه، وامتناع من العرب، ولم يكن أحد من العرب ولا غيرهم يدخل غابتها ولا يتجاوز شجرة واحدة منها إلا بإذن منهم. وكان بها إذ ذاك أجناد مرسومون في ديوان العطاء كلهم من أهلها، قد عدوا هنالك جنداً لمن يلي طرابلس، فكانوا يذيقون الأعراب شراً، ويكفون منهم فساداً كثيراً وضراً. ولم تزل العرب حاقدة عليهم إلى أن ضعف الأمر،

---

(٣٧) أنظر ما تقدم ذكره في الفصل السابع.

(٣٨) التجاني ص ٢١٤ ـ ٢١٥. مجريس بربر من بطون هوارة.

وتمكن مرغم بن صابر من الدولة، وطلب من الملك أخذه هذه القرية بظهير[39]، فأعطيها، وذلك في أول سنة ست وسبعين وستمائة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ ـ ١٢٧٨ م).

ولم يقتنع الجلف مرغم[40]، فتوجه إلى طرابلس ليطلع أحد الفقهاء على هذا الظهير، ولم يطمئن إلا بعد أن تأكد من صحته. وأنه يحمل العلامة الجارية[41]. ومنذ ذلك الوقت أخذ يضطهد السكان البربر إلى أن كاد يفنيهم، (وفي وقتنا هذا متفرقون إلى جماعات كثيرة، وأظهر فرقهم فرقة تعرف بالقياد، وبني سلام، وبني خطاب، وبني مزيلة وبني رزق[42] وبني إبراهيم وجميعهم منقسمون بين المراغمة من الجواري على رتبهم، لكل واحد منهم جماعة يجبيها ويحميها) (على حسب شجره وسعة أرضه). . .

وغالباً ما يقوم البربر ببيع نسائهم وأولادهم لدفع الجباية، ويلاحظ التجاني أنه ينتج عن ذلك، أن يصبح أهلها (أجراء للعرب ناصحون واسم الملكية لهم هو النصح في الخدمة)[43].

ويذكر أن قرب البحر ضريح الشيخ أبي محمد عبد الجليل الحكيمي ومسجده. مات وقد نيف على المئة ودفن هناك سنة ١٢٨٦ م. وعلى مسافة يسيرة من هذا المسجد من الغرب، وعلى الساحل أيضاً، مسجد يعرف بسيقاطة[44]، وقد ابتناه الفقيه أبو الحسن السيقاطي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ م).

ويحل الرحالون بجنزور ضيوفاً على سالم بن مرغم، زعيم الجواري.

---

(٣٩) المقصود ملك تونس.

(٤٠) التجاني ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٤١) العلامة هي الاصطلاح الذي يستعمله ملوك العرب ويدمغون به المراسيم وهي تقوم مقام الختم والتوقيع. (أماري Amari, Diplomi p. 396).

(٤٢) دي أغسطيني ص ٢١١ (سكان طرابلس الغرب).

(٤٣) التجاني ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٤٤) في الخرط المرفقة بكتاب (أغسطيني: سكان طرابلس الغرب) (سقاطة).

وقام التجاني بزيارة تاجوراء الواقعة شرقي طرابلس[٤٥]، وهو يقول عنها: (وهي قرية كبيرة عامرة، وبها قصر متسع، يشتمل على دور كثيرة. وفي وسط هذا القصر حصن أقدم بناء منه. يقال إن حميد بن جارية، أبا الجواري، ابتناه وشارك فيه في العمل بنفسه ليحض أهل الموضع على إتمامه. وهو الذي عمّر هذه القرية، ونقل أهلها إليها من أرض هناك تعرف بأرض عبد رب[٤٦]. وكان ابتداء عمارتها في سنة خمسين وخمسمائة. وهم يدعون أنهم عرب، وينتسبون إلى تميم. ويذكر أنهم سكنوا الأرض المعروفة بأرض عبد رب، من حين الفتح الإسلامي، ثم نقلهم منها حميد بن جارية إلى هذه القرية)..

ويذكر التجاني من مشاهير تاجوراء الفقيه أبا العباس أحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري، وهو عارف بالتاريخ والأدب. مات سنة ١٣٠٩ م. ويذكر أيضاً الشريف أبا عبد الله محمد الحسيني التاجوري (وله بطرابلس وجهاتها شهرة عظيمة). وهو عارف بالكيمياء ومتطلع إلى السيادة. مات في طرابلس ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ ـ ١٢٥٥ م). ويذكر بعد تاجوراء قصر (صيبار) (بكسر الصاد المهملة تليها ياء معتلة ثم باء مفردة) وهو معمور. ثم بئر طشانة التي تعرف باسم صاحب القبر القريب منها[٤٧]. وهو عربي من دبّاب (وكان هذا الرجل ذا رئاسة في قومه وصيت بعيد، واشتهر بالكرم، فلم يذكر معه في وقته غيره... وهو مشابه لما يذكر عن حاتم).

ويشير بعد هذا المكان إلى (عين تامدنت)[٤٨] (بالتاء الصحيحة المثناة وبكسر الميم وكسر الدال المهملة وسكون النون) وهي عين متسعة عذبة الماء، يتضمنها واد متسع، يشتمل على غابات مشتبكة) ويعني الرحالة منطقة مسلاتة، ثم عين (فارة) وقصر (فارة) (وهو خال لا عمارة فيه) ثم (قصر الورانيز)[٤٩]

---

(٤٥) التجاني ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٤٦) دي أغسطيني ٤٧

(٤٧) الطشّاني: لدى أغسطيني ص ٥٢

(٤٨) تسمية عربية بربرية (عين تامدنت) ومعناها (عين التين).

(٤٩) قوم من البربر ـ أغسطيني ص ٤٩.

(وهم قوم من هراغـة أنزلـوا بتلك القصور قـديماً، فـأجلتهم العرب واحتلتهـا منهم، فانتقلوا منها إلى أرضهم المعروفة بهم التي بين تاجوراء وطرابلس والقصر المعروف ببني خيار).

ويتابع التجـاني الرحلة حتى القصر المعـروف ببني خيار، ويـذكر أنـه كان خـالياً خـربـاً أجلت العـرب أهلـه فانتقلوا إلى المحـرس بين قابس وصفاقس. وقـد وصل إلى (عـين ودرس) (بكسر الواو وسكـون الدال المهملة وكسر الـراء) وهي واقعة قرب (غانيمة) حيث ضريح الفقيه المشهور أبي الحسن علي بن محمد بن المنمّر[٥٠].

وهناك عرضت له علّة، فانقلب راجعـاً إلى طرابلس، ومنهـا إلى تونس، بعد أن تعذر عليه مواصلة الرحلة.

٧ ـ الوضع السياسي والاجتماعي في طرابلس الغرب في القرن الرابع عشر

تمكننا رحلة التجاني من رسم إطـار عام للوضـع السياسي والاجتـماعي في طرابلس الغرب في القرن الرابع عشر.

كـان يحكم طرابلس ممثـل الحفصيين في تـونس[٥١]. ولكن سلطتـه كـانت منحصرة في المـدينـة. وعـلى طـول الســاحـل يعيش أقـوام أغلبهم من الـبربــر المستقرين الخاضعين للعرب المحاربين الـذين كانـوا يفرضـون عليهم الضريبة. وإلى الغرب من قابس كـانت السيادة لعـرب النوائـل، وإلى الشرق منها كـانت السيادة للعرب من بني وشـاح[٥٢]، من بطون دبّـاب. وهم ينقسمون إلى بـطون كثيرة منها الجواري[٥٣] والمحاميد وجماعات صغيرة أخرى.

---

(٥٠) التاجوري (كتاب الإشارات) ص ٤٩
هكذا وردت في رحلة التجاني ص ٢٦٥ ـ ٣١٧ ـ ٤٧٧ طبعة سنة ١٩٥٨ الصـادرة عن كتابـة الدولة للتربية القومية والشباب والرياضة بتونس.

(٥١) لعله يوسف بن الطاهر اليربوعي الذي تقدم ذكره.

(٥٢) التجاني ص ٧٠ ـ ٩٩ (٨٦ ـ ١١٨).

(٥٣) التجاني ص ١٧٧ (ص ٢٠٦).

وكانت للمحاميد أغلبية في منطقة قابس، ولكنهم كانوا أقلية غـربي زوارة. ومن زوارة شرقاً حتى طرابلس كانت الأغلبية للجواري. وهم ظاهرون بين القبائل ببني مـرغم (المراغمـة)[٥٤] وكـان زعيمهم سـالم بن مـرغم. وإلى الشرق، نحـو سرت وبرقة، كان يعيش أولاد سالم مستقلين[٥٥]، وهم أيضاً من سلالـة دباب. وكان زعيمهم غلبون بن مرزوق.

ولم تعط لنا الرحلة معلومـات عن دواخل البلد، ويمكن القـول بأن البـدو الرحل وأشباه الرحل من السكـان كانوا يعيشون في الدواخل عيشة مستقلة عن طرابلس. غير أن الـبربر الـذين كانـوا يشكلون الأغلبية في جـربة وزوارة، قـد احتفظوا بجماعات مستقلة في الدواخل أيضاً في غريان وجبل نفوسة.

(٥٤) Roman Muntaner, Chronique d'Agron de Sicilie et de Grèce, nel sec XIV
وقد برر المؤلف المذكور صعوبة الـدفاع عن جـربة بـوجود القبـائل العـربية المحـاربة المحيـطة بالمنطقة.

(٥٥) لا يذكر التجاني أولاد سليمان الذين كانوا يقطنون المناطق الشرقية من طرابلس.

الفصل التاسع

استمرار الحكم الحفصي
- حكم بني ثابت أو بني عمّار بطرابلس -
فترة الانهيار

"القرن الخامس عشر"

* استمرار حكم الحفصيين.
* بداية حكم بني ثابت بطرابلس ١٣٢٤.
* استيلاء فيليب دوريا على طرابلس ١٣٥٥.
* استمرار أسرة بني ثابت في طرابلس وتدخُّل ملك صقلية الأراغوني.
* نهاية بني ثابت وشجرة الأسرة.
* طرابلس في القرن الخامس عشر حتى بداية السيطرة الإسبانية (١٥١٠).

١ ـ استمرار حكم الحفصيين بطرابلس

لقد عمل أبو يحيى زكريا اللحياني، أثناء إقامته بطرابلس (١٣٠٧ ـ ١٣٠٩ م) على كسب تأييد العرب من قبيلة الجواري، ثم تابع رحلته إلى الأراضي المقدسة. وفي هذه الأثناء توفي بتونس الأمير الحفصي، وخلفه إبنه أبو البقاء خالد، ولكنه وجد خصماً له في شخص أبي بكر، أمير قسنطينة. ولما عاد اللحياني من الحج، وأطلع على أحوال إفريقية، نادى بنفسه أميراً عليها، وزحف على تونس بجنده الذي استأجره. ودخلها في نوفمبر ١٣١١ م وجلس على عرش الحفصيين[1] ولم يطل عهد اللحياني. فقد تخلى عن مساعدته العرب من بني عوف وبني دبّاب. وعندما أقام أبو بكر في قسنطينة حكومة قوية ثابتة، تبسط نفوذها على المغرب الأوسط ويؤيدها بربر المنطقة، نهض لمنافسة العرش الحفصي. وكان اللحياني شيخاً مسناً فداخله اليأس، وجمع في بداية ١١٣٧ م خزائنه (عشرون قنطاراً من الذهب عدا الفضة والأحجار الكريمة على حد قول المؤرخ التونسي ابن أبي دينار)[2]. واتجه إلى طرابلس حيث استقر بها، وفي الوقت نفسه كان جنوده، وعرب الجواري، يجوبون البلاد. وقد أخضعوا أولاد

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٥ ـ الزركشي طبعة تونس ص ٤٩ (ترجمة فانيان ص ٨٩) في سنة ١٣١٣ عقد اللحياني اتفاقية مع حكومة بيزا الإيطالية اعترف فيه لرعاياها بالحق في أن ينشئوا بمواني مملكته ـ بما في ذلك طرابلس ـ فندقاً وكنيسة وفرناً ومقبرة، وأن يتبعوا القنصل في منازعاتهم، وحرية التجارة مع دفع عشر قيمة البضائع الموردة وعشرين في المئة من قيمة المعادن الثمينة. (أماري Amari, Diplomi arabi, serie I dip XXIX)

(٢) ابن أبي دينار القيرواني (المؤنس في أخبار إفريقية وتونس) طبعة تونس ١٢٨٦ هـ ترجمة:
Pellissier e Rémusat, Parigi 1845 p. 238

سالم وأولاد سليمان بطرابلس الغرب الشرقية وبلاد برقة وألزموهم بدفع الضريبة.

وفي تونس كان أحد أبناء اللحياني يدافع عن العرش الحفصي ضد أبي بكر، ولكنه هزم وطرد من تونس، ولجأ إلى المهدية حيث استقر بها[3]. وحينئذ فكر اللحياني في أن وضعه بطرابلس لم يعد آمناً، فاستجلب ست سفن مسيحية[4] وشحن ثروته وأسرته وابنه عبد الواحد، وترك حكم طرابلس إلى صهرة أبي عبد الله محمد بن أبي عمران. ونشر أشرعته نحو الإسكندرية[5] حيث حل ضيفاً على السلطان قلاوون، وظل بها إلى أن مات سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ ـ ١٣٢٨ م)، حين كان أقاربه وأبناؤه ما يزالون يقاومون من أجل استرداد العرش الحفصي بتونس. وأخيراً تغلب أبو بكر على منافسيه. وظلت طرابلس مستقلة عن تونس[6]، تحت حكم محمد بن أبي عمران الذي لم يركن إلى الإستسلام، وتحالف مع أبي ضربة لاسترجاع تونس. وقد وجد تأييداً وتحريضاً من حمزة بن عمر زعيم البدو من عرب بني كعب بإفريقية. وقد استطاعا بمعونة هؤلاء العرب الاستيلاء على تونس في نهاية ١٣٢١ م ولكن سرعان ما طردهما وأجلاهما أبو بكر في الربيع التالي. وقد تعاونت أسرة عبد الواد في تلمسان مع بربر زناتة، وعرب بني سليمان، لمساعدة أبي ضربة ومحمد ابن أبي عمران، ولكن حكم تونس ظل بيد أبي بكر. وقد أنهى أبو ضربة أيامه في تلمسان، وظل محمد بن أبي عمران حاكماً على طرابلس.

وفي عام ٧٢٤ هـ (١٣٢٣ ـ ١٣٢٤ م) اضطر محمد بن أبي عمران إلى

---

(٣) ويقول المؤرخون (ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٠ والزركشي ص ٥٣ (ص ٩٦ من ترجمة فانيان) إنه قد بنى قصراً سمي بالطارمة. وقد شيده من الرخام والزليج. أنظر:
Aurigemma, (Le forticazioni della città di Tripoli). p. 1247

(٤) استأجرها من جربة.

(٥) أنظر ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

(٦) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

مغادرة طرابلس بسبب المظالم التي ارتكبها رجل الحاشية البطيسي الذي قتله السكان الذين أساء معاملتهم. كما قتل قاضي المدينة، وهو في تونس[٧].

٢ ـ بداية حكم بني ثابت بطرابلس قرب سنة ١٣٢٤ م

بعد طرد محمد بن أبي عمران، تولى حكم طرابلس محمد بن كعبور، ولكنه قتل بواسطة سعيد بن طاهر المازوقي الذي أخذ يحكم المدينة مع أبي البركات ابن أبي الدنيا. ولما مات سعيد بن طاهر تولى السلطة أحمد البربر من قبيلة زاكوغة، من هوارة، واسمه ثابت بن عمار، ولكنه بعد ستة أشهر من ذلك سقط قتيلاً على يد أحمد بن الطاهر. وحكم هو بدوره مدة قصيرة، ثم قتله بربر زاكوغة انتقاماً منه وأخذاً بالثأر.

وأخيراً، وقرب عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ ـ ١٣٢٧ م) اختار الطرابلسيون حاكماً عليهم، هو محمد، ابن القتيل ثابت بن عمار، وهكذا ترسخت في طرابلس الأسرة البربرية (بنو ثابت) وتعرف أيضاً ببني عمار[٨] الذين احتفظوا بالحكم مدة تقرب من ثمانين عاماً[٩].

---

(٧) هذه المعلومات وغيرها من المعلومات التالية لم أستطع أن أعثر عليها في كتاب ابن خلدون طبعة بولاق، وهي توجد في الطبعة المترجمة من قبل دي سلان ج ١ ص ٢٥٦ وج ٣ ص ١٧٢. ويبدو منها أن محمد بن أبي عمران قد تمكن من تدعيم أوضاعه بتونس لفترة أخرى قصيرة، وقد حضر صهره عبد الواحد من الإسكندرية بعد وفاة والده، وتمكن بمساعدة العرب من الاستيلاء على تونس لأيام قليلة (صيف ١٣٣٢) ثم أسره أبو بكر الذي عامله معاملة كريمة وعينه حاكماً على الإقليم الواقع بين طرابلس وقابس، ولكنه مات بالطاعون فور وصوله.

(٨) هكذا في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية أنظر مادة (عمّار) حيث تتوفر تفصيلات أوفى عن هذه الأسرة. وانظر أيضاً (المؤرخ التركي منجم باشي ج ٢ ص ٥٩٥) وقد ذكر أسرة بني عمار مؤرخون آخرون من الأتراك. أنظر: هامر **Hammer** الترجمة الإيطالية ج ١١ ص ٢٢٣ ـ ٣٤٧ وكذلك حاجي خليفة (تقويم التواريخ) ترجمه إلى الإيطالية ج. ر. كارلي:
G.R.Carli Cronologia Historica Venezia 1960 p. 112.

(٩) هذه المعلومات لا توجد بكتاب ابن خلدون طبعة بولاق وقد استخلصت من ترجمة دي سلان ج ١ ص ٦٥٦ ج ٣ ص ١٧٢.

٣ - فيليب دوريا يستولي على طرابلس

يقال إن محمد بن ثابت حكم طرابلس مدة ثمانية عشر عاماً[١٠]. وكان يعيش حياة متواضعة يخفي تحتها طموحه إلى الحكم، وكان يشتغل بالتجارة ويرتدي ثياب التجار العاديين، ويسير في الأسواق، ويعامل الناس معاملة لطيفة، وقد استدعى وكيلاً عن السلطان الحفصي بتونس لإدارة البلاد وترك لنفسه مظهر السيادة.

وفي هذا الوقت أخذت سلطة المرينيين وقوتهم في الازدياد، فأطاحوا بالحفصيين، واستولى أحدهم، وهو المعروف بأبي الحسن في ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ - ١٣٤٨ م) على تونس، وتلقى ولاء محمد بن ثابت حاكم طرابلس. وعندما استعاد الحفصيون عاصمة حكمهم، ظلت طرابلس مستقلة وخلف محمد الذي قتلته إحدى القبائل، ابنه ثابت. (يبدو أن ذلك قد تم حوالي ١٣٤٧ م). وكان على خلاف والده، إذ أخذ يتصرف تصرف الملوك وأحاط نفسه بحاشية رائعة ممتازة. وفي عهده أبحر الأميرال الجَنَوِيّ فيليب دوريا Filippo Doria من جنوا في حملة على سردينيا. ولما فشل في هذه الحملة فكر في الهجوم على طرابلس التي كان يعلم هو ورفاقه شيئا عن وسائلها الدفاعية الضعيفة وازدهارها النسبي. وما كادت جنوا تعلم بهذه الحملة حتى تبرأت منها، وقاطعت دوريا[١١].

---

(١٠) ولكن حكمه لا بد أن يكون قد دام ٢١ سنة إذا صح أن وفاته كانت في سنة ١٣٤٨. أنظر الصفحة التالية.

(١١) **C. Manfroni,** Tripoli nella storia marinara **d'Italia,** Padova 1912.

Picca, L'Italia e la Tripolitania attraverso la Storia, Roma 1911.

Manfroni, L'Italia nelle vicende marinare della Tripolitania, Verbania 1942 p. 44 - 46 - 60.

G. Stella, Annales genuenses 1298 - 1409 in **Rerum Italicarum Scriptor** vol XVII col. 1093.

استعاد الشاعر الإيطالي داننزيو ذكرى هذه الحملة في (أنشودة الدم) ضمن القصائد التي أنشأها في تمجيد الحملة الإيطالية على ليبيا.

واستنـاداً إلى المصادر العـربية فـإن التجار من جنـوا كانـوا يـترددون عـلى طرابلس، فلاحظوا ضعف تحصيناتها، فأغراهم ذلك بـالهجوم عليهـا. وفي عام ٧٥٥ هـ (٢١ ينـايـر ١٣٥٤ ـ ١٥ ينـايـر ١٣٥٥ م)، تجمعـوا في الميناء[١٢] ثم انتشروا في الأسواق منصرفين إلى أعمالهم التجارية، ثم قاموا أثناء الليـل بتسلق الأسوار، واستولوا على المدينة، فأعلن الفزع وارتـاع الناس الـذين خرجـوا من بيوتهم للمقاومة، فلما رأوا الأعداء قـد تمكنوا من الأسـوار، لـم يفكروا في غـير النجـاة بـأنفسهم. ولجـأ ثـابت بن محمـد إلى أولاد مـرغم، من عـرب قبيلة الجـواري، فقتلوه وأخـاه عـمّاراً أخـذاً بثـأر سـابق. وكـانت مـدة حكمـه ستـة أعوام[١٣].

وكانت الغنائم وفـيرة ـ طبقاً لما تؤكده المصـادر الإيطاليـة المعاصرة ـ وقـد بلغت مليوناً وثمانمئة فيورين Florino من الذهـب، بـين نقود وبضـائع، وسبعـة آلاف أسير، واحتفظ الجَنَوِيُّون بالمدينة عـدة أشهر[١٤]، ثم بـاعوهـا بمبلغ خمسين ألف قـطعـة[١٥] إلى أحمـد المكي (صـاحب قـابس الـذي جمـع المبلغ مما عنـده، واستوهب الباقي من أهل قابس والحامّة وبلاد الجريد فجمعوها له حسبةً ورغبة في الخير)[١٦].

وبفرار ولدي ثابت إلى الإسكندرية بمصر، ظلت السيادة في طـرابلس بيد أحمد المكي الذي اعترف بالسيادة العليا للمـرينيين حتى سنـة ٧٦٦ هـ (١٣٦٥ ـ

---

(١٢) يحدد فيلّاني **Villani** تاريخ هذه الغزوة بسنة ١٣٥٤ م بينما يحـدده ستيلا **Stella** بسنـة ١٣٥٥، ويرى مؤرخ عربي، هو القيرواني (طبعة تونس ص ١٤٠ ـ ١٤١) أنها قد وقعت بتاريخ ٧٥٦ هـ، وتقع هذه السنة بين التاريخين الميلاديين التاليين (١٦ يناير ١٣٥٥ ـ ٤ يناير ١٣٥٦).

(١٣) ابن خلدون طبعة دي سلان ج ١ ص ٦٥٩ ترجمة ج ٣ ص ١٧٥. أنظر أيضاً ملاحظة:
R. Brunschvig, Arabica, II 1956 p. 228.

(١٤) خمسة أشهر حسب رأي القيرواني ـ تونس ص ١٤١.

(١٥) خمسون ألف مثقال من الذهب حسب رأي ابن خلدون.

(١٦) ابن خلدون ـ المصدر السابق ـ. ابن بطوطة (تحفة النظار) طبعـا باريس ١٨٧٤ ـ ١٨٧٩ ج ٤ ص ٣٥٠. الزركشي ص ٨٠ (ترجمة فانيان ص ٤٧).

١٣٦٦ م)[١٧] وهو العام الذي خلفه فيه على الحكم ابنه عبد الرحمن.

٤ ـ استمرار أسرة بني ثابت وتدخُّل ملك صقلية الأراغوني بطرابلس

في السنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩ م) استغل أبو بكر بن محمد بن ثابت عودة السيادة الحفصية إلى تونس، فاستأجر بالإسكندرية سفناً مسيحية حاصر بها طرابلس، واجتذب إلى جانبه البدو من العرب، ثم هاجم المدينة واستولى عليها. واعترف بالسيادة الحفصية، وبعث لهم الهدايا ودعا باسمهم في خطبة الجمعة. وحين توفي أبو بكر في ٩٧٢ هـ (١٣٨٩ م) انتهى الحكم إلى ابن أخيه علي بن عمار. وكانت قيادة الجيش بيد قاسم بن خلف الله. وقد شك علي بن عمار في إخلاص قاسم، وداخلته ريبة في رغبته في تأييد حقوق يحيى في الحكم، وهو ابن أبي بكر بن ثابت، وكان حدثاً صغيراً. فبادر إلى إبعاد القاسم عن طرابلس بحجة جمع الضريبة من مصراتة، ثم سمح له بالعودة إلى طرابلس. ولكن قاسماً كان يخاف على حياته، فاستأذن في السفر إلى الحج، فأذن له. والتقى في الإسكندرية بأحد أعوان سلطان تونس، وتمكن بفضل حمايته من التحول إلى تونس حيث حرض السلطان على احتلال طرابلس. فأرسله السلطان على رأس قوة صحبة ابنه أبي حفص عمر.

وقد استمر حصار مدينة طرابلس حولاً كاملاً. وصمد بن عمار بعناد في وجه الجيوش الحفصية، وفي وجه العرب الذين أغرتهم الأموال التونسية. واضطر جيش الحفصيين إلى العودة إلى تونس في ٧٩٣ هـ (١٣٩٢ ـ ١٣٩٣ م)[١٨] واستطاع علي بن عمار أن يحتفظ باستقلاله عن تونس عدة

---

(١٧) في معاهدة معقودة سنة ١٣٥٨ بين مدينة بيزا الإيطالية والسلطان المريني فارس أبو الحسن ورد ذكر طرابلس بين البلدان التابعة للسلطان. ولكن أحمد بن المكي لم يكن ليكترث بسيادة سلاطين فاس البعيدين عنه، فقد عقد في سنة ١٣٥٦ م مباشرة مع الفينيسيين معاهدة تجارية في بلاطه بطرابلس. أنظر: أماري:

Amari, Diplomi arabi serie 2° depl. XXXI e Appendice.

(١٨) ابن خلدون ترجمة دي سلان ج ٣ ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

أعوام، ولكنه اضطر إلى البحث عن سند خارجي فجاءه العون من مملكة صقلية. وكان ملوك صقلية الأراغون قد عادوا في نهاية القرن الرابع عشر إلى الاهتمام بشؤون إفريقيا الشمالية. وعاودتهم الرغبة في احتلال جربة التي خرجت من أيديهم سنة ١٣٣٤ م. وقد تمكن الأميرال الصقلي (مانفريدي كيارومونتي من احتلال جربة في سنة ١٣٨٨ م بمساعدة السفن الجَنَوِيّة، ولكنه قاد الحملة لحسابه الخاص متأسياً بسلوك (لاوريا Lauria) الذي قام به قبل قرن من ذلك التاريخ، إذ طلب من البابا أن يخصه بالجزيرة، وينصبه حاكماً عليها، فتم له ما أراد، ولكنها لم تلبث أن أعلنت الثورة والاستقلال حتى عن تونس.

وكلف مارتينو الصقلي الكبير Martino il Vecchio ١٣٩٢ م غوليلم تالامنكا Guglielmo Talamanca وفيتو دي مالكندونييس Vito de Malcondignis بالذهاب إلى تونس ليطلبا من السلطان أبي العباس إعادة جربة، أو المساعدة في إعادة احتلالها. ولا نعلم ما إذا كانت هذه السفارة قد تمت، أم لم تتم. ولكن من الثابت أن الجرابة قد ظلوا على استقلالهم عن سلطان تونس، وأنهم قبلوا في العام التالي، مع ملك طرابلس، عون الملك مارتينو الصغير، ضد السلطان.

وقد بعث هذا الملك إلى إفريقية غوليلم تالامنكا، وأوغوني دي سانتا باشي Ugone di Santa Paceمفوضين تفويضاً تاماً، ومعتمدين بوثيقة رسمية مؤرخة في ٢٢ إبريل ١٣٩٣ للتفاوض مع أمير طرابلس وسكان جربة على أسس إعادة القلعة وجزيرة جربة بكاملها، وتحرير الأسرى المسيحيين ودفع تعويض معين. وقبل أن يسافر المبعوثان (مايو ١٣٩٣) وصل إلى الملك مارتينو، وفد من طرابلس وجربة لإبلاغه بأنهم قد رفعوا علم الملك فوق تلك المواقع، وهم يدعونه لإرسال من يستلم شؤون طرابلس وجربة[١٩].

---

(١٩) Rosario Gregorio, Considerazioni sulla storia di Sicilia, libro V cap. VII - 166 in Opere scelte 3° ed. Palermo 1845 p. 443.

F. Cerone, Seconda spedizione di Alfonso V contro l'isola di Gerba in annuari de Linstitut d'Estudis'Catalans 1990 - 1910 p. 67 - 69.

وقد تم فعلاً لرسولي الملك الاستيلاء على جربة واحتفظا بها حتى ١٣٩٩ م، وهو العام الذي استعاد فيه سلطان تونس كلاً من جربة وطرابلس.

٥ ـ أسرة بني ثابت ـ شجرة الأسرة

في سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ ـ ١٣٩٨ م) حضر سلطان تونس أبو فارس عبد العزيز إلى طرابلس، وأزاح علي بن عمار، وعين بدلاً منه ابن عمه يحيى بن أبي بكر بن ثابت[٢٠]. ثم عاد في خريف عام ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) واستولى على المدينة بعد حصار طويل، وعين حاكماً (قائداً) يتولى شؤونها باسمه مباشرة[٢١].

وهكذا انتهت على هذا الوجه أسرة بني ثابت أو بني عمّار التي يمكن أن تشكل شجرتها على النحو التالي:

عمّار

ثابت

(١٣٢٤)

محمد

١٣٢٧ ـ ١٣٤٨؟

ثابت	عمّار	أبو بكر
١٣٤٨ ـ ١٣٥٥؟		١٣٦٩ ـ ١٣٨٩
أبو بكر[٢٢]	علي	
يحيى	عبد الواحد	١٣٨٩ ـ ١٣٩٨
١٣٩٨ ـ ١٤٠٠		

G. La Mantia, La Sicilia e il suo nuovo dominio nell. Africa Settentrionale dal sec XI al XVI in An. Storico Siciliano Nuova Serie XLIV 1922 p. 201.

(٢٠) هكذا يستنتج من ابن خلدون ج ٣ ص ١٧٥ ترجمة دي سلان.

(٢١) الزركشي طبعة تونس ص ١٠٥ ترجمة فانيان ص ١٩٥.

(٢٢) يرى المؤرخ (منجم باشي) أنه حكم بالاشتراك مع أخيه.

٦ ـ طرابلس خلال القرن الخامس عشر حتى الاحتلال الإسباني

ظلت المملكة الحفصية تحتفظ بطرابلس طوال العشر الأوائل من القرن الخامس عشر. أي أثناء العهد المديد للأمير القوي أبي فارس عبد العزيز (١٣٩٣ ـ ١٤٣٤ م) الذي اعتاد أن يقود بنفسه حملاته العسكرية في أطراف مملكته الشاسعة. ثم أخذت سلطة تونس تخف، وتتابعت الثورات التي ساهم فيها عنصر جديد (المرابطون أي الأولياء)[٢٣]. وهو العنصر الذي أخذ في هذا القرن بالذات يؤثر على الحياة في كافة أطراف إفريقيا الشمالية التي أصبحت تعرف في هذا العهد لدى الأوروبيين باسم (بربريا Barberia)[٢٤].

وفي ٨٣٣ هـ (١٤٢٩ م) بعث قائد طرابلس نبيل بن أبي قطّاية برأس أحد المرابطين من الدواخل ويدعى ابن أبي سانونة. وفي نفس العام توفي بطرابلس محمد المنصور بن السلطان الحفصي، ونقل جثمانه إلى تونس[٢٥].

وفي نهاية ١٤٥١ تتحدث الأخبار المتوفرة لدينا عن حملة قام بها السلطان الحفصي، في إقليم طرابلس، من أجل جباية الضرائب. وفي خريف ١٤٥٦ ـ

---

(٢٣) عن (المرابطية) في القرن الرابع عشر بالشمال الافريقي انظر:

R. Brunschvig, La Berbèrie orientale sous les Hafsides, II. p. 336 - 341.

(٢٤) نرى أن نذكر هنا بحكم قرب الموقع والمعاصرة الحملات الأخيرة لملوك الأراغون بصقلية على جربة. ففي سنة ١٤٢٤ قام (أنفانتي دون بدرو I. Don Pedro أخو الملك ألفونسو الخامس بقيادة فرقة قوية ضد جربة، وعندما أحبطت المباغتة اتجه إلى فرقته وهاجمها وقتل سبعمائة من سكانها وأسر ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسين أسيراً، وقد افتداهم التونسيون بالذهب، وبتبادل الأسرى المسيحيين الذين حملتهم نفس السفن إلى سيراكوزة في ١٤ أكتوبر ١٤٢٤.

وفي سنة ١٤٣٢ قام الملك ألفونسو شخصياً بالإقلاع من برشلونة ماراً بسردينيا وصقلية ومالطا واتجه بأسطوله نحو جربة (١٥ أغسطس) ونزل بها وقاد عدة حملات فاشلة ضد المدافعين عنها الذين كان يقودهم السلطان التونسي نفسه. وأخيراً انسحب بحملته إلى صقلية. انظر:

F. Cerone, art. cit. in Annuari de l'institut d'Estudies Catalans 1909 - 1910 (doccument aragonesi inediti).

(٢٥) الزركشي ص ١١٢ (ترجمة فانيان ص ٢٠٧).

١٤٥٧ م خرج السلطان من جديد بجيشه، وبعث وزيره إلى طرابلس لينحي القائد ظافر، ويستبدله بقائد آخر اسمه رضوان[٢٦].

ومر السلطان الحفصي على رأس حملته؛ بطرابلس عام ٨٦٣ هـ (١٤٥٨ م) وتابع سيره حتى تاورغاء. وعند عودته ولى أبا النصر جاء الخير قائداً على طرابلس[٢٧].

وبانهيار مملكة الحفصيين شكلت البلدان الشرقية منها (قابس والجريد وطرابلس) حكماً ذاتياً قريب الشبه بالجمهورية. وكان لطرابلس مجلس (شورى) يرأسه (شيخ).

أما السلطة التي يتألف منها الزعماء المحليون في هذا العهد، فهي غير واضحة لدينا كل الوضوح. وطبقاً لما يورده المؤلف الفرنسي المجهول[٢٨]:

Histoire Chronologique du Royaume de Tripoli de Berbérie.

فإن الشيخ المعروف باسم (سيدي منصور) قد بويع أول ملك مستقل على طرابلس تحت حماية ملك تونس. وقد قتل عام ١٤٧٢ وخلفه يوسف الذي قتله الطاعون عام ١٤٨٠ م. ودعي الشعب بعد وفاته إلى الاجتماع بالمسجد الكبير، وبايع الأمير (مامي؟ Mami) بإجماع الحاضرين. وقد خلفه في سنة ١٤٩٢ م

---

(٢٦) الزركشي ص ١٢٨ ـ ١٣٤ ـ ١٣٥ (ترجمة فانيان ص ٢٣٦ ـ ٢٤٦ ـ ٢٤٧) لا يبدو صحيحاً ما يراه برونشفيق: من أن ظافراً قائد طرابلس هو ظافر بن جاء الخير الذي عين في سنة ١٤٦٣ قائداً لتونس ونائباً للسلطان في حالة غيابه (الزركشي ص ١٤٠ ـ ترجمة فانيان ص ٢٥٧).

(٢٧) الزركشي ص ١٣٥ (ترجمة فانيان ص ٢٤٧) يكاد يكون من المؤكد أنه هو القائد أبو نصر، ابن القائد أبي مسرور الجاء الخير المتوفى في ١٠ شعبان ٨٧٣ الموافق ١٣ فبراير ١٤٦٩ ويوجد شاهد قبره لدى المركيز ليتوريو دي جريجوريو بمسينا، ولا نعلم إذا عثر عليه بطرابلس أو بتونس.

(٢٨) توجد بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ١٢١٩ ـ ١٢٢٠ وقد نشر البروفسور أوريجما وصفاً مستخلصاً منها لمدينة طرابلس في مجلة المستعمرات الإيطالية:

S. Aurigemma, Una descrizione di Tripoli nel sec XVII in Riv. delle Colonie Italiane VI - 1932 P. 178 - 189 - 259 - 272.

كما يعتمد أيضاً (فيرود) في كتابه حوليات طرابلس الغرب على هذا المصدر ص ١٧ ـ ١٨.

الشيخ عبد الله. ويبدو أن هذا الشيخ كان يحكم البلاد حكماً ذاتياً حين هاجمها الإسبان في سنة ١٥١٠ م.

ويؤكد (فيرود[٢٩] Féraud) في خبر يبدو أنه مستخلص من كتاب المؤلف المجهول أن آخر شيخ بطرابلس هو عبد الله، وكان رجلاً تقياً ورعاً صالحاً متعصباً لدينه، وقد حمله هذا التعصب على أن يعد فرقة من السفن الصغيرة لمضايقة المسيحيين. وكانت له مع ذلك علاقات تجارية مع صقلية ورودس.

أما المعلومات التي نعرفها على نحو مؤكد وثيق عن تاريخ طرابلس خلال نصف القرن الذي سبق الحملة الإسبانية، فهي ضئيلة وقليلة. وتسمح لنا بعض المعلومات والأخبار المستخلصة من مصادر مختلفة، بعد الفحص والتقييم، بإيضاح بعض الوقائع والأحداث. ويمكن الظن بأن تبعية طرابلس لتونس لم تتوقف نهائياً في سنة ١٤٦٠ رغم أنه من الثابت أن هذه التبعية قد خفت بشكل قوي جداً، وقد تخللها في الغالب ثورات وإقامة حكومات محلية.

ويلاحظ مؤرخ عربي مصري[٣٠]، هو ابن إياس، أنه في صيف سنة ١٤٦٨ م وصل إلى مصر خبر وفاة صاحب طرابلس. دون أن يذكر اسمه. وأنه قد قتل في طرابلس في خريف ١٤٩١ م ابن أبي النصر جاء الخير (في النص: رجاء الخير) (الذي كان من أبرز أعيان العرب) وكان ابناً للقائد الذي تركه السلطان الحفصي بطرابلس الغرب سنة ١٤٥٨ م كما أشرنا إلى ذلك من قبل. ويمكن أن نربط بين هذه الأخبار والأخبار التي يرويها لنا (ليون الإفريقي[٣١]، بأن السلطان أبا زكريا الثالث بن مسعود قد استولى على طرابلس (١٤٨٨ - ١٤٨٩ م) وربما كانت هذه آخر المحاولات لإعادة السيادة الحفصية إلى طرابلس.

(٢٩) فيرود ص ١٨.

(٣٠) تاريخ مصر - القاهرة - ١٢١١ - ١٣١٢ ع ٢ ص ٩٩ - ٢٧٢.

(٣١) ترجمة (ج. تمبورال **Temporal**) نشر سكيفر **Schefer** باريس ١٨٩٦ ج ٣ ص ١٨٦. وطبعة راموزيو **Ramusio** فينيسيا ١٨٣٧. ص ١٢٧ (القسم الخامس - ٥١).

وحسب رأي مارمول[٣٢] فإن سكان طرابلس قد ثاروا قرب سنة ١٤٩٠ م بسبب المظالم التي أنزلها بهم (Bu Camen) حفيد زكريا ملك تونس[٣٣]. وقد اختاروا أحد الزعماء لرئاسة حكومتهم. وقاموا - بمساعدة العرب - بتسميم القائد التونسي الذي أرسل لمقاومتهم. وظلوا تحت سيادة ذلك الزعيم حتى صار هو نفسه طاغية، فأزاحوه وانتخبوا بدلاً منه أبا بكر عبد الله، وهو أحد الأعيان الزاهدين الناسكين. وقد لبث في الحكم حتى وصل إلى طرابلس الكونت بدرو دي نافارو في سنة ١٥١٠ على رأس الحملة الإسبانية.

هذه الأخبار المستخلصة من المصادر العربية والغربية لم تزدد لدينا وضوحاً، بل لعلها ازدادت تعقيداً وغموضاً بالمعلومات التي كتبها بيري ريس[٣٤]، قريب البحار والقرصان (كمال ريس) فهو يقول: (إنه بعد وفاة السلطان عثمان تولى الحكم ابنه أبو بكر، وقد قتله قريبه يحيى بن مسعود الذي اعتلى حينذاك العرش الحفصي، ثم قام خليفته[٣٥] بإرسال وزيره لاحتلال طرابلس. وأن الطرابلسيين الذين كانوا قد سئموا حكم الحفصيين قد طردوه وانتخبوا شيخاً عليهم، من بين التجار، وكان رئيس جماعة قرصانية. وبعد أن قتل هذا الشيخ على يد شاب، استدعوا عربياً اسمه عباس، وأسندوا إليه حكم المدينة. وحين كان (كمال ريس) بطرابلس، صحبة قريبه (بيري ريس) في سنة

---

(٣٢) مارمول ج ٢ ص ٣٠٠ ويحتمل أن تكون معلومات مارمول مستقاة من ليون الإفريقي. وقد رددها أيضاً نيكولو دي نيكولاي:

Nicolo de Nicolai: Navigation et Viaggi, Venezia 1580 P. 20 - 21.

(٣٣) حكم زكريا تونس من ٤٩٠ إلى ٤٩٤، أنظر:

R. Brunschvig in Revue Tunisienne. N.S. fasc. 1, 1930 P. 38 - 48 e la Berbérie orientale sous les Hafsides 1, P. 227 - 278.

(٣٤) استُقِيَتْ هذه المعلومات من الطبعة المصورة الصادرة بالآستانة في ١٩٣٥ تحت إشراف الجمعية التاريخية التركية. وقد قارنت هذا النص بنص المخطوطة رقم ٥٦٢ بـ Millet Kutubkhànesi بالآستانة.

(٣٥) تولى أبو عبد الله محمد بن الحسن السلطة في ١٤٩٤. أنظر:

Brunschvig op cit. 1 - 280.

٩١٣ هـ (١٥٠٧ ـ ١٥٠٨ م)، سلم إليه سكان طرابلس التماساً حتى يرسل إليهم حاكماً من قبله[٣٦]، (سنجق بك). وحين عاد (بيري ريس) إلى الشرق بلغته الأنباء باحتلال الإسبان لطرابلس.

وفي رأي المؤرخ التونسي (القيرواني)[٣٧] أن قسماً كبيراً من المملكة الحفصية قد استقل عن تونس في عهد السلطان محمد (ابن الحسن ١٤٢٦ ـ ١٤٩٤ م). وقد أعلنت طرابلس استقلالها في عهد المدعو محمد بن الكرب الذي سلم المدينة إلى المسيحيين.

ويمكن أن نستخلص بعض الإشارات والتلميحات إلى الأوضاع العامة بطرابلس، خلال الأعوام العشر التي تقدمت الاحتلال الأسباني، من الأخبار الخاصة بالعلاقات التجارية مع الدول الإيطالية. ورسالة (مارشيللو Marcelle) عن حركة التجارة مع بربريا تفيد بأن بعض سفن البندقية التي حلت بميناء طرابلس ١٤٩٦ قد وجدت تعليمات تمنع شحنها أو تزويدها حتى بالمياه، وقد صدرت هذه التعليمات من سلطان تونس[٣٨]، مما يدل على أن سيادته ما تزال قائمة على طرابلس ومعترفاً بها حتى ذلك الوقت. وتؤكد هذا الافتراض رسالة أخرى موجهة من حكومة جنوا إلى سلطان تونس بتاريخ ٢٤ يناير ١٤٩٨ تتضمن الاحتجاج على أسر زورق النبيل بترو دي فيسكو من رعايا جنوا، في مياه بونة، (من قبل سفينتين تركيتين جرى تجهيزهما في بلادكم بطرابلس كانت بواسطة العرب والأتراك[٣٩]). بينما نجد، بعد عدة أعوام من ذلك، حكومة

---

(٣٦) هكذا في المخطوطة رقم ٥٦٢ في (Millet Kutubkhanesi) بينما في الطبعة المصورة (٩١٠ هـ) (١٥٠٤ ـ ١٥٠٥ م). ولقد سبق أن جاء كمال ريس إلى طرابلس في ١٥٠١، ويقال إنه كانت له زوجة بها، حسب ما أوردته يوميات ـ مارين سانودو. ص ١٠٦ ج ٤.
Marin Sanudo IV P. 106)

(٣٧) طبعه تونس ص ١٥٠.

(٣٨) **Malipiero,** Annali Veneti in Arch. Storico Italiano VII. 1. 1843 P. 632.

(٣٩) **E. Marengo,** Genova e Tunisi 1388 - 1515 in att. Soc. Ligure di Storia Patria XXXII 1901 - P. 198.

يلاحظ الوجود التركي بطرابلس في نهاية القرن الخامس عشر.

جنوا توفد غاسبارو دي سوبرانيس دوناتو Gasparo De Sopranis Donato إلى ملك تونس ليستوضح عما إذا كانت شروط السلم ستتضمن جربة وطرابلس أو تستبعدهما، إذ لا يبدو أن تلك البلدان كانت تطيعه في ذلك الوقت طاعة تامة ((In buona obbendencia)[٤٠].

(٤٠) إنه E. Marengo, p. p.

الفصل العاشر

نظرة عامّة إلى علاقات طرابلس بأوْرُبّا في القرون الوسْطى

* العلاقات التجارية
* حوادث، قرصنة، استرقاق.

١ ـ العلاقات التجارية

كانت العلاقات التجارية الأولى لطرابلس بأوروبا تتم عبر صقلية وجزر البحر الصقلي (الأرخبيل المالطي وينتالبريا) التي استولى عليها العرب في القرن التاسع الميلادي. وظلت هذه العلاقات قائمة حتى في عهد النورمان، وتطورت بصفة خاصة عندما وضع النورمان أقدامهم في الشمال الإفريقي وطرابلس ذاتها (القرن الثاني عشر). ويقول الإدريسي[1] الجغرافي العربي الذي ألف في منتصف القرن الثاني عشر، إن ميناء شياكا Sciacca بصقلية كان غاصاً دوماً بالسفن، إذ كانت تتردد عليه بصفة مستمرة سفن إفريقية، وطرابلس الغرب (بربريا). وقد استمرت كثافة المبادلات بين طرابلس وصقلية حتى في القرون التالية، بالنظر إلى القرب النسبي، والاهتمام المتزايد الذي كان يبديه حكام صقلية بتلك الأقاليم. فلم يقتصر الصقليون على احتلال طرابلس من ١١٤٦ ـ ١١٥٨ م والتدخل في شؤونها قرب ١٣٩٣ م وبصفة مباشرة في ١٣٩٣ م. ولكنهم كانوا لفترة امتدت عشرات الأعوام سادة (جربة) ١١٤٢ ـ ١١٥٣ م و ١٢٨٥ ـ ١٣٣٤ م كما قاموا بحملات على جربة وقرقنة في ١٤٢٤ ـ ١٤٣٢ م[2].

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر أصبحت علاقات طرابلس

---

(١) Amari, Biblioteca arabo - Sicula, 1 p. 78 L'Italia descritta nel (Libro di Re Ruggero) compilato da Edrisi ed. e trad. Schiaparelli Roma 1883 p. 32 trad. p. 37).

ويقول هذا المصدر نقلاً عن مصادر عربية وإسبانية إن طرابلس كانت في القرن الثاني عشر مدينة مزدهرة لقربها من صقلية ومالطا بصفة خاصة ص (٣٢٤).

(٢) أنظر الهامش رقم ٢٤ من الفصل السابق.

بصقلية متداخلة متشابكة مع الأسواق القشطالية النابوليتانية. وكان ثمة تجار صقليون بطرابلس سنة ١٤٤٤ م. وكانوا مهتمين بصفة خاصة بالمفاوضات الجارية حينذاك بين الملك الفونسو (Alfonso il Magnanimo) والسلطان الحفصي، أبي عمر عثمان، لإبرام اتفاقية كانت قد صيغت بنودها أكثر من مرة، ووقعها الملك ألفونسو، ولكنها لم توقع من الطرف الثاني. وفي سنة ١٤٧٧ م تمكن الملك فرديناندو دا أراغونا (Ferdinando d'Aragona) من إبرام اتفاقية كان من المقرر أن تشمل نظرياً حتى طرابلس، رغم خروجها في ذلك الوقت عن حكم تونس تقريباً[٣]. وكانت الغاية من المفاوضات بين الملك فرديناندو والحفصيين غاية تجارية محضة. ومنذ القرن الثاني عشر وما تلاه (خاصة بعد الدمار الذي ألحقه العرب المهاجرون من بني هلال بإفريقية) كانت تلك الأقاليم تتزود بالقمح من صقلية. بالإضافة إلى أن التجار الصقليين والقشطاليين كانوا يتعاملون مع الموانىء الإفريقية لتصريف بعض البضائع الأخرى ومبادلتها. وقد اجتذبت الموانىء التونسية أكثر هذه التجارة، ولكن الموانىء الساحلية بطرابلس كانت أيضاً نشطة، تتردد عليها السفن. وكان إيواؤها ضرورياً للسفن التي تعمل في الحركة التجارية بين موانىء مصر وسوريا. وقد كانت إحدى البنود الرئيسية في هذه الاتفاقيات تقضي بالالتزام بنجدة السفن الغارقة قرب السواحل واحترامها. وقد غرقت سفينة بندقية بسواحل طرابلس سنة[٤] ١٤٩٧ بينما كانت عائدة من الإسكندرية، حاملة بضائع التجار العرب. وتتردد مثل هذه الوقائع كثيراً في وثائق ذلك العصر.

وقد كان لفينيسيا (البندقية) في القرن العاشر علاقات تجارية مع المهدية وطرابلس (الخاضعتين آنذاك للحكم العبيدي الذي كان يشمل صقلية ومالطا)

---

(٣) أنظر بشأن هذه المفاوضات:

F. Cerone, Alfonso il Magnanimo e Abu Amar Othman. Trattative e Negoziati tra il Regmo di Sicilia di qua e di la del Faro e il Regno di Tunisia (1432 - 1454) in Arch. Storica per la Sicilia orientale, IX 1912 p. 45 - 70, X 1913 p. 22.

(٤) **Malipiero,** Annali Veneti in archivio Storico Italiano, VII part II (1844) p. 635 (**M. Sanudo,** Diari, I, col 605 - 15 - 4 -149.

وتشهد محاضر مجلس الشيوخ بفينيسيا على وجود مثل هذه العلاقات حتى سنة ٩٧١ [٥]. وفي القرن الرابع عشر تبدو فينيسيا وهي تحظى بنظرة خاصة بين المدن التجارية المتنافسة المتزاحمة، إذ كانت تنافس، وبنصيب أوفر من التفوق والنجاح، مدن جنوا وبيزا والأراغونيس، حول أسواق إفريقية. وقد استطاعت بإحجامها عن المغامرة والدخول في عمليات الاحتلال أن تعقد اتفاقيات عادت عليها بالفائدة والنفع.

ومنذ بداية ذلك القرن - وربما قبل ذلك - كان امتياز استثمار ملاحات رأس المخبز (زوارة) خاصاً بفينيسيا، وقد احتفظت بهذا الامتياز مدة خمسة قرون[٦]، عدا فترات بسيطة محدودة. وفي وثيقة من فينيسيا ترجع الى ١٣٢١ نجد الحديث عن ملح رأس المخبز قرب جربة (De Raxababese sen de li gerbi). وفي الاتفاقية التجارية التي أبرمت في ٩ يونيو ١٣٥٦ بين فينيسيا وأحمد المكي صاحب طرابلس وإفريقية الشرقية، وردت الإشارة إلى ملاحات (Salis Rassambesii). ولا ريب في أن أولئك المسيحيين الذين أشار إليهم التجاني في رحلته، وتحدث عنهم أثناء مروره بجربة في ١٣٠٧ - ١٣٠٩، وقال أنهم اعتادوا شحن كثير من السفن بها[٧]، إنما قصد بهم التجار البندقيين. وفي القرن الخامس عشر أقامت فينيسيا خدمة بحرية منتظمة موجهة إلى إفريقيا الشمالية، بما في ذلك طرابلس، عن طريق رحلات سنوية لسفن (بربريا).

---

(٥) **De Mas Latrie,** Relations et commerce de l'Afrique Septentrionale ou Magreb avec les nations chrétiennes au moyen âge. Paris 1886 p. 26.

(٦) عن ملاحات زوارة وفينيسيا في القرون الوسطى انظر القسم الثالث من هذا الكتاب. وانظر أيضاً:

Marin, Storia del commercio de veneziani v. p. 45.

De Mas Latrie, Traités cit p. 221 - 224.

Nallino, Venezia e Sfax nel sec XVIII in Centenario Nascita - M. Amari I p. 350) ristampato C.A. Nallino, Raccolta di scritti editi e inediti vol III Roma 1941 p. 395

(٧) التجاني ص ١٢٢.

وكانت لجنوا نفس العلاقات التي كانت لفينيسيا، رغم ما يبدو من عدم وجود مصالح ظاهرة مستمرة، مثل ما كان يمثله امتياز الملح بالنسبة لفينيسيا.

ويبدو اسم جنوا في تاريخ طرابلس الغرب مقروناً بالحملة الجريئة التي قادها فيلبو دوريا عام ١٣٥٤ م. وكانت طرابلس ضمن الموانىء التي شملتها المعاهدات التي عقدت بين بيزا ١٢٣٤ - ١٣١٣ م والسلطان الحفصي أبي بكر زكريا[٨] (يحيى الأول وأبو يحيى). وفي ١٣٥٨ م مع السلطان المريني أبي عنان.

وفي القرن الخامس عشر حلت فلورنسا محل بيزا في العلاقات التجارية مع بربريا. وإن كانت لا تتوفر لنا معلومات عن اتفاقيات أو وقائع عامة هامة.

إن حركة التبادل التجاري، استيراداً وتصديراً، كانت مماثلة لتلك الحركة الجارية مع موانىء الشمال الإفريقي. وقد تناولتها أعمال ودراسات (دي ماس لاتري De Mas Latrie) (واماري Amari). ونرى بصفة خاصة بين منتوجات طرابلس (العباءات) الزرقاء والحمراء. وكانت سفن المسيحيين (الروم) في القرنين العاشر والحادي عشر تشحن الزيوت وبضائع أخرى مقابل المواد التموينية والمنتوجات الزراعية المختلفة، وقد ذكرت أيضاً (عباءات) إحدابيا[٩]. وكان ملح زوارة مشهوراً. وقد نهبت سفينة للنبيل الجَنَوِيّ (فنشقويرا دي فيفالدي Vinciguerra de Vivaldi) في مياه مالطا، من قبل سفينة تابعة لأسطول البابا. وكانت تحمل ٧٩ شوالاً من الصوف وتسع حزمات كبيرة من الجلد، وتسع ربطات من الحصر وبضائع أخرى، قيمتها كلها ألف دوكاتو، تم شحنها جميعها من ميناء طرابلس[١٠]. وكانت سفن فينيسيا تشحن من

---

(٨) Amari, Diplomi Arabi dell' Arch Fiorentino 2e serie, n. XXVIII p. 292 - 294 1° serie n, XXXI p. 309 - 312.

(٩) Amari, Diplomi Arabi p. XVI.

(١٠) مارنغو E. Marengo, op. cit. p. 260

طرابلس بصفة خاصة الزيت والملح[11] وتنقل إليها الأدوات الخشبية، ثم فيها بعد المنسوجات والخرز. وكانت جنوا تصدر الذهب (نقداً وسبائك) والسفن وخشب البناء والنبيذ والمشروبات الروحية والمنسوجات الحريرية، وبقايا القطن، وتوابل الشرق. وتستورد القمح والصوف والزيت الخاص بصناعة الصابون وريش النعام والجلد والحبال والشمع وفواكه (بربريا)[12].

٢ ـ حوادث، قرصنة، استرقاق

لم تدخل القرصنة إلى سواحل الشمال الإفريقي، في القرن السادس عشر، على أيدي القراصنة المشهورين من أمثال خير الدين وبربروس ودرغوث، بل كانت قديمة قدم الحروب البشرية، وكانت شائعة موجودة في العصور القديمة، وقد تصاعدت عند سواحل ليبيا والبحر الأبيض المتوسط في العهد الروماني والعهود التالية له. وحين تحكم العرب في السواحل الإفريقية أنشأوا قواعد للغزو والإغارة على الجزر والبلدان المسيحية. ورغم الهدنة، واتفاقيات الصداقة، والاتفاقيات التجارية مع الدول البحرية المسيحية، فقد استمرت الحروب طويلة بين الطرفين، متخذة شكل نشاط قرصاني. ولم تكن القرصنة ميزة قاصرة على العرب، ولكنها مورست بنفس الاندفاع من قبل البحرية المسيحية. ولم تكن تختلف عنها بشيء سوى أنها ـ أي الحملات المسيحية في جميع الأحوال ـ كانت أكثر تنظيماً، باعتبارها إرهاصاً وتمهيداً للحملات الصليبية[13]. وهي معروفة بأكثر من الغزوات العربية غير المنظمة. وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الأوضاع شيوع الاسترقاق. ولم تكن ثمة قواعد حقيقية، من الحقوق أو الأعراف الدولية، في عالم منقسم بخلافاته الدينية مثل ذلك العالم

---

(١١) ماليبييرو

Malipiero, Annali Veneti in Arch. st. Iatal, VII paete II p. 638.

(١٢) **P. Picca,** L'Italia e la Tripolitania attraverso la storia, in Nuova Antologia 1911 p. 8.

M.G. Canale, Tripoli e Genova 1886.

(١٣) يجدر التنويه بتلك الحملة التي قام بها في ١٠٨٧ قراصنة جنوا وبيزا على مدينة المهدية بتونس.

المعروف في القرون الوسطى. فإن أسرى الحرب، أو المخطوفين، كانوا يعتبرون لدى الطرفين من الخدم المقيدين المغلولين الملزمين بأداء أشق الأعمال وأقساها والتجديف على ظهور السفن الكبيرة. ونتج عن ذلك وجود أرقاء مسيحيين يتعذبون في بلدان الشمال الإفريقي، وأرقاء مسلمين يعانون في البلدان الأوروبية، ويحدث من حين إلى آخر تبادل الأرقاء واستخلاصهم بين الطرفين، ولكن ذلك كان محكوماً برغبة أصحاب الرق وتقديرهم.

وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت العلاقات بين الشمال الإفريقي (بربريا) وأوروبا الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط تتم عن طريق المبادلات التجارية، أو أعمال القرصنة، وكانت تتم بالتناوب أو تجري في وقت واحد، رغم الالتزام الذي تأخذ به حكومات الطرفين في احترام المواثيق والتقيد بها.

وقد ازداد عنف النشاط القرصاني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر[١٤]، واستمر في التصاعد حتى ارتبطت خيوطه بنشاط المشاهير من القراصنة الأتراك المشارقة عند نهاية القرن الخامس عشر[١٥]،ولدينا معلومات عن أحداث ووقائع معينة تهم مدينة طرابلس بصفة خاصة.

ففي سنة ١١٨١ م سافرت سفينة يملكها بعض الأفراد من بيزا، منطلقة من سواحل صقلية، محملة بالقمح. فرمت بها الرياح والأحوال الجوية السيئة عند موقع يعرف باسم (ماكري[١٦] Macri) غربي طرابلس. وقد فرض الأهالي

---

(١٤) يقول ابن خلدون إنه قرب سنة ١٣٥٠ تشكلت فرقة من البحرية العربية التي كانت تهاجم السفن والجزر والسواحل المسيحية، وقد كانت تعود إلى الديار بأحمال وفيرة من الغنائم الثمينة والعبيد. ولقد كان عدد العبيد كبيراً ببلدة بجاية حتى إن صدى صرير الأغلال كان يتردد في شوارعها عندما ينصرف الأرقاء إلى العمل. وكان مبلغ الفدية عالياً بحيث كان يتعذر على المسيحيين توفيره.

(١٥) أنظر القسم الثاني من هذا المؤلف ص ١٢٣.

(١٦) هو المعروف باسم (بورتو ماقرو Porto Magro. أنظر هوامش القسم الثاني من هذا الكتاب ص ١٦٩.

على البحارة بيع ما لديهم من القمح، رافضين تزويدهم بالمياه ما داموا مستمرين في رفض البيع. وفي هذه الأثناء اقتربت سفينة طرابلسية من السفينة المسيحية فظن البحارة أنها سفينة قرصنة، فبادروا إلى مغادرة سفينتهم على ظهور القوارب. واستولى المهاجمون على السفينة. وتمكن بحارتها الهاربون من الوصول إلى طرابلس فأسرهم الشيخ أبو بكر الذي كان يحكم طرابلس[١٧] نيابة عن الموحدين.. وكانوا عشرة أفراد من رعايا بيزا التي عملت على تحريرهم وإنقاذهم، فوجهت خطاباً إلى السلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف الذي كانت تتبعه طرابلس في ذلك الوقت[١٨].

وفي ١٣٠٥ م استولى القشطالي (جاسبير دي كاستيلنو Jaspert de Castelnou) في مياه طرابلس على سفينة محملة بما قيمته خمسة آلاف من **البضائع، وتحول بغنيمته إلى جزيرة (بنتالاريا) بلدة (قوصرة).** وفي نفس السنة شكر سلطان تونس ملك أراغونا على اهتمامه بمصلحة جماعة أسرها القرصان (سيمون ريكارد Simon Ricard) على إحدى السفن التي أبحرت من طرابلس، ملاحظاً أن الأشخاص التونسيين والطرابلسيين الذين كانوا على ظهر السفينة هم من رعاياه الذين يدينون له بالولاء والطاعة.

وفي سنة ١٣٠٧ م غرقت سفينة في مياه طرابلس. وكان صاحبها (برناردو ماركيت Bernardo Marquet) وتم تبادل الرسائل لاسترجاع البضائع التي كانت فوق السفينة[١٩].

وفي سنة ١٣٥٨ م قام ماركو فرنييه Marco Vernier من أصحاب السفن بتوجيه احتجاج إلى طرابلس طالب فيه بإرجاع جميع أمواله، وإطلاق سراح

---

(١٧) هو الشيخ أبو بكر الذي كان يحكم طرابلس باسم الموحدين.

(١٨) **Amari,** Diplomi arabi le serie, diploma II p. 7 - 9 - 2e serie diploma XIII p.269.

(١٩) **Andrès Gimenez Soler.**

Documentos de Tunez, originales o' traducidos del Archivio de la Corona de Arragon Annuari de l'institut d'Etudes Catalans III 1909 - 1910 p. 209 - 259.

الأسرى الفينيسيين الذين ألقي عليهم القبض وعوملوا معاملة الأسرى الأرقاء، خلافاً لما هو متفق عليه بين البلدين. وقد أرسلت فينيسيا في ١٣٦٢ م رسولاً إلى ابن مكي صاحب طرابلس وقابس وصفاقس وجربة[٢٠].

ورست سفينة التاجر القشطالي (طريس Torres)[٢١] في ١٤٤٣ م بحمولتها التي تتكون من ٨٠ (غرارة) من القمح عند (بورتو ماقرو Porto Magro) (قرب لبدة). وقد قام نائب القاضي وسكان منطقة المرسي بخداع صاحب القمح والبحارة، فاستولوا على السفينة، وقتلوا التاجر وأسروا البحارة الذين نقلوا إلى قائد طرابلس الذي أطلق سراحهم[٢٢].

وغادرت سفينة تابعة للبندقية ميناء (كانديا ـ بجزيرة كريت) في ١٤٧٥ م محملة بالنبيذ والقطن وبعض البضائع المختلفة، وكان على ظهرها أربعة من العرب الخطرين الذين قاموا عند رأس (ماليا Capo Mallia) بقتل رجال السفية، والاستيلاء عليها ونقلها إلى طرابلس حيث باعوها بثمانية دوبل[٢٣].

وفي سنة ١٤٩٣ م علم الكابتن (جيرونيمو كونتاريني Geronimo Contarini) حين كان بمياه مالطا على رأس سفينتين عاملتين في سواحل (بربريا) بقيام بعض القراصنة الأتراك بمهاجمة ثلاث سفن تجارية تابعة للبندقية، محملة بالبضائع، واستيلائهم عليها وتحويلها إلى طرابلس الغرب لاقتسام غنائمها. فاصطحب سفينتين مالطيتين وزورقاً، بعد أن وعد أصحابها بالغنائم، واتجه إلى طرابلس التي وصلها يوم ١٠ أغسطس ١٤٩٣، واقترب بسفنه من الميناء مسترداً السفن الثلاث، وقليلا من البضائع التي كانت بها. وقد

---

(٢٠) هو أحمد المكي. أنظر ما ذكرناه عنه في الصفحات السابقة. أنظر الوثيقة الخاصة بالحادث المذكور لدى: De Mas Latrie, p. 228.

(٢١) يقع هذا الميناء قرب لبدة. أنظر القسم الثاني من الكتاب ص ٢٢٨.

(٢٢) F. Cerone, Alfonso il Magnanimo ecc. arch. Storico per la Sicilia Orientale X 1913 P. 26 - 62.

(٢٣) Malipiero, Annali Veneti in Arch. St. Italiano VII - 11 - P. 619.

قفز زعيم القراصنة الأتـراك لاجئاً إلى البر، وجرح في هذه المعركة ما يقرب من ستين مسيحياً، وقتل جميع الأتراك، وأصيبت سفينة القيادة البندقيـة في المؤخرة. وعندما احتجت طرابلس على خرق حرمة الميناء، وطـالبت بإرجـاع الغنائم، رد كونتارينو بالرفض مستنداً في ذلك إلى أن السفن التركية هي البادئة بالاعتـداء وخـرق الاتفاقيـات القائمـة بين سلطان تـونس وجمهوريـة البندقيـة. وأن أعلام السفن كانت تركية، ولم تكن عربية. وأنها كانت أول من فتح النار أثناء مهاجمة الميناء. وانتهى الحادث بهـذه الطريقـة. وبعد أن تمكن كـونتـارينـو من تحـريـر البحارة البندقـيين عاد إلى فينيسيا، وكوفىء على شجاعته وعمله الحازم القوي، بتعيينـه (قبطانـاً للخليج) وهـو الاسم الذي كان يعرف به البحـر الادريـاتيكي حينذاك (Capitano Del Golfo)[٢٤].

إن مخاطر التجارة مع سواحل الشمال الإفريقـي لم تكن تتمثل في القرصنة فحسب. ولكن المسيحيين كانوا يتعرضون لمضايقات وانتقام مما يقترفه مواطنوهم القراصنة، حتى في مدينة طرابلس ومدينة تونس وميناثيهما وديـوانيهما (الجمـارك) وفنادقهما.

وليس هنـاك مجـال لاستعـراض القـواعـد والتقـاليـد التي كـانت تحكم العمليات التجارية في موانىء الشمال الإفريقي (بربريا). وفي وسع القـارىء أن يرجع في الخصـوص إلى أعمال ودراسات (دي ماس لاتريه) وأعمال (أماري).

ونـذكر في ختـام هذا الفصـل، من القسم الأول من الكتاب، أنـه عـلى الرغم من عدم الانتظام المستمر فإن العلاقـات بين إفريقيا الشـمالية والمـوانىء المسيحية في البحر الأبيض المتوسط، وفي طليعتها الموانىء الإيطالية، قد ساعدت وأفادت في حفظ العلاقة والروابط بين ضفتي هذا البحر. وعلى الـرغم، من أن ما نعرفه عن هذه العلاقات قليل في الواقع فإنه يمكننا القـول بأن هـذه العلاقـات كـانت خلال الفـترة التي تمتد من القـرن الثاني عشر حتى الخـامس عشر، أكـثر

(٢٤) المصدر السابق ٧ ـ ١ ـ ١٨٤٣ ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

حيـوية، وأكـثر ودية مما هي عليـه في القـرنـين اللذين أعقبـا احتـلال الأتـراك لطرابلس وتونس والجزائر احتلالاً مباشراً. (أي خلال النصف الثاني من القـرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر).

وقد دخلت قرب سنـة ألف للميلاد، ومـا بعدهـا، اصطلاحـات عربيـة تجارية في اللغات اللاتينية الجديدة مثل تعريفة: Tariffa وديوانة Dogana. كـما انتقلت عادات ومنتوجات زراعية وصناعية من الشرق إلى أوروبا. وقد شاركت في هذا التبادل موانيء الشمال الإفريقـي، ومن بينها مينـاء طرابلس الـذي ساهم في هذا المجال بنصيب متواضع يتناسب وحجمه.

القسم الثاني

الفصل الأول

سيطرة الأسبان وفرسان مالطا على طرابلس

١٥١٠ ـ ١٥٥١ م

* الاحتلال الإسباني ١٥١٠.
* مظاهر الفرح في أوروبا، والأسف في العالم الإسلامي، لسقوط طرابلس.
* حملة ضد جربة. هجوم العرب على المدينة.
* أوضاع طرابلس تحت الحكم الإسباني.
* القراصنة العثمانيون في سواحل الشمال الإفريقي.
* التنازل عن طرابلس إلى فرسان مالطا ١٥٣٠ ـ ١٥٥١ م.
* حكم فرسان مالطا في طرابلس ١٥٣٠ ـ ١٥٥١ م.
* حصار العثمانيين لطرابلس واستيلاؤهم عليها عام ١٥٥١ م.
* قائمة بأسماء حكام طرابلس من فرسان مالطا.

١ ـ الاحتلال الأسباني ١٥١٠

هاجم الإسبان طرابلس واستولوا عليها في ٢٥ يوليو ١٥١٠ م.

ويقص المؤرخون العرب الذين يميلون إلى تفسير الأحداث التاريخية الكبرى باستخدام الأسطورة أو الخرافة، أن طرابلس كانت تعيش في ازدهار عظيم، وتنعم برخاء كبير، وأن الاستقرار الطويل، واستتباب الأمن الداخلي والخارجي قد عودا الناس الاستسلام إلى الحياة الناعمة المريحة، فأغفلوا التسلح، ونسوا استخدام السلاح.

وقد وصلت في ذلك الوقت إلى ميناء طرابلس بعض السفن المسيحية. ونزل التجار إلى البر لشراء بعض البضائع. فاستضافهم أحد السكان في بيته، وأكرمهم بما قدمه إليهم من مختلف الأطعمة، ومن بينها (دلاعة) أي بطيخة. ولم يكن المضيف يملك سكيناً في بيته لقطع هذه الدلاعة. فأسرع إلى السوق يشتري سكيناً. وقد استغرب هؤلاء التجار من رخاء المدينة ووفرة ثروتها، ولاحظوا أن سكان طرابلس قد أصبحوا مجردين من السلاح إلى درجة يمكن معها الاستيلاء على المدينة بسهولة ويسر. وقد نقلوا ذلك إلى ملكهم عندما عادوا إلى وطنهم، فأرسل على الفور أسطولاً لاحتلال طرابلس[1].

نشر روسي هذا الفصل بكامله في كتاب مستقل وقد نقله إلى العربية خليفة محمد التليسي بعنوان (طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا) نشر مؤسسة الثقافة الليبية ـ طرابلس ١٩٦٩.

(١) أورد هذه القصة العياشي الرحالة المغربي الذي عاش في القرن السابع عشر في كتابه (الرحلة) وردها ابن غلبون والنائب. وفيرود في حولياته الطرابلسية. (Féraud, Annales P. 19).

ولكن الاحتلال الإسباني لطرابلس سنة ١٥١٠ حدث يجب أن يدرس على وجه آخر يختلف عن هذا التفسير كل الاختلاف.

لقد أدخلت أحداث القرن السادس عشر طرابلس وإفريقيا الشمالية بأسرها في إطار السياسة الأوروبية مدة طويلة استغرقت عشرات الأعوام.

ففي سنة ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية. وواصل محمد الثاني ثم بايزيد الثاني وسليم الأول من بعده فتوحاتهم في شبه جزيرة البلقان. تلك الفتوح التي زادت من حدة التناقض السياسي والديني بين الشرق والغرب، وأصبحت تهدد أوروبا المسيحية.

وكانت تجري في أوروبا ذاتها أحداث أخرى تتجه إلى حفظ التوازن، ثم إلى مواجهة التوسع الإسلامي الذي تولى الأتراك العثمانيون توجيهه وقيادته منذ قرون.

وكانت المقاومة، وحركة الاسترداد، وقد انطلقتا من أقصى بلدان أوروبا الغربية، ونعني بها إسبانيا التي استطاعت في سنة ١٤٩٢، أن تطوي صفحة آخر الممالك العربية في غرناطة.

وقد أصدر الملك الكاثوليكي فرديناند دي أراغونا، والملكة إيزابيلا دي كاستيليا أمراً يقضي بإجلاء جميع المسلمين من شبه جزيرة أيبريا[٢]. وكان الإسبان في ذلك الوقت في مستهل حياة وطنية جديدة. فلم يكتفوا بتحرير بلادهم من الفاتحين القادمين من إفريقيا والشرق، ولكنهم ألقوا أنفسهم، في حماس عارم فتي، إلى العمليات التجارية والتوسّع في احتلال البلدان، وانتهوا بالضرورة إلى احتلال سواحل إفريقيا الشمالية، تلك السواحل التي يبين التاريخ أنها كانت دائماً عرضة للاحتلال من كل شعب يتطلع إلى التفوق والسيادة على البحر الأبيض المتوسط.

---

(٢) الأمر الصادر في ١٥٠٢ كان يفرض على المسلمين الاختيار بين الجلاء أو اعتناق الديانة المسيحية. أما أمر الطرد فقد أصدره الملك فيليب الثالث في سنة ١٦٠٩.

وفي نفس الوقت كان البرتغاليون يدفعون سفنهم في إقدام إلى اكتشاف سواحل إفريقيا الواقعة على المحيط الأطلسي. واكتشف الإيطالي كريستوفرو كولومبس ـ الذي كان يعمل لحساب إسبانيا ـ قارة أمريكا. ووجد فاسكودي جاما (١٤٩٧) الطريق البحري للهند الشرقية. بينما كانت البندقية مضطرة إلى امتشاق السلاح وانتهاج السبل السياسية للدفاع عن إمبراطوريتها الاستعمارية المهزوزة. أما الدول الغربية في أوروبا فقد وحدتها الحركات القومية في ممالك كبيرة زادت من قوتها، ومكنتها من السيطرة السياسية والتجارية.

كانت إسبانيا في ذلك الوقت، على رأس تلك الحركة، تكرس جهودها لهذا النشاط المتحمس الحافل بالوعود.

ومن سواحل إسبانيا التي كانت عرضة لغزوات العرب التي كانت تنطلق بصفة خاصة من وهران والجزائر وبجاية[٣] كانت تخرج المراكب الإسبانية لغزو سواحل إفريقيا الشمالية ونهبها. وكان احتلال الشمال الإفريقي يبدو شيئاً ضرورياً للإسبان تدعو إليه أسباب سياسية واقتصادية، وفي نفس الوقت أسباب دينية[٤].

وكان الكردينال (خمينش Ximenes)، أسقف طليلة ورئيس وزراء فردناند الكاثوليكي، قد جعل من نفسه داعية وملهماً لهذه الحملات التي اتخذت لون الحركة الصليبية. وفي سبتمبر ١٥٠٥ احتلت أولى الفرق الإسبانية المرسى الكبير. وفي ١٧ مارس ١٥٠٩ استولى الكونت (بدرو دي نافارّو Conte Pietro di Navarro)[٥] على وهران. وفي ٥ يناير ١٥١٠ احتل نفس القائد مدينة

---

(٣) **De Sandoval,** Vida y hechos del emperador Carlos Quinto Pamplona 1634 - vol I cap. 23.

(٤) **F. Braudel,** Les Espagnols et l'Afruque du nord de 1482 - à 1577 in Revue Africaine, 1928 P. 184 - 233, 351, 428.

(٥) ولد بيترو دي نافورو أو الكوندي بدرو نافارو Pedro Navarro قرب سنة ١٤٦٠. ويختلف المؤرخون في مسقط رأسه فمن قال إنه في (بسكاليا Biscaglia) ومن قائل إنه ولد في نافارا Navarra وكان رجلاً مفطوراً على المغامرة والمجازفة، اشتغل بالقرصنة البحرية في مستهل =

بجاية. وفي هذه البلـدة عقد في شهر مايو من نفس العـام إتفاقية مـع سلطان تونـس أعلن بموجبها تبعيته للملك الكاثوليكي.

وفي ٧ يونيو غـادر الكونت بـدرو بجايـة على رأس قـوة تتألف من ثـمانية آلاف رجل، واتجه إلى (فـافينيانـا Favignana) لينتظر السفن القـادمة إليـه من نـابولي وصقليـة، للمشاركـة في الهجوم على طرابلس[٦]، تحت إشراف نائب الملك بصقلية وتوجيهه. وقد تم تنفيذ هذه الحملة بمشاركة جنـود إيطاليـين، خاصـة من صقلية[٧].

وقـد عاد الأسـطول إلى (فافينيانا) في ١٥ يـوليـو ١٥١٠ حيث تـوقف في جـزيرة (غـوزو Gozo) بمالـطا. وانضم إليه بعض المـالطيـين بصفـة مـرشـدين (لمعرفتهم بطرابلس وخـبرتهم بكافـة سواحـل الشمال الإفـريقي)[٨] وتولى مهمـة الإرشاد البحـري المرشد المـالطي (جـوليانـو أبيلا[٩] Giuliano Abela). كانت الحملة مكـونـة من ستـين سفينـة، ومن غليـوطـين، وعـدد من المـراكب ذات الشراعين، وخمسين مركباً من ذات الأشرعة الثلاثية.

وفي مـالطـا انضمت إليهـا خمس سفن مالـطية مسلحـة تسليحاً جيـداً. وحـين غادرت الحملة مـالطا، يـوم ٢٠ يوليـو، كانت تتكـون من مئة وعشرين

= حياته، ثم انخرط في جيش دون كونسالفو دي قردوفة (Don Consalro di Cordova) في جـزر أيونيا وإيطاليا الجنوبية وقـد برز في كثـير من المحلات بشجـاعته وحنكتـه العسكريـة، خاصـة كمهندس عسكري أثناء إعادة احتلال مملكة نـابولي. وقـد منح في سنـة ١٥٠٤ إقطاع مـدينة (أوليفيتو Oliveto) بمقاطعة Abruzzo كما منح أيضاً لقب (كـونت). وفي سنة ١٥٠٩ أسنـدت إليه قيادة الحملة على وهران. أنظر:

Historia del Conde Pedro Navarro ecc. di Don Martin De Los Heros Madrid 1854 (Collection de Documentos Inéditos para la Historia de Espana vol XXV - XXVI.

(٦) مارتين دي لوس هروس ص ١٤٠.

(٧) ساندوفال، فصل، ٣٦.

(٨) M. Longhena, L'impressa di Tripoli nel 1510 in Rv. d'Africa, gennaio febbraio 1912 P. 4.

(٩) روسي: Archivum Melitense VI Malta 1929.

قطعة بحرية بين صغيرة وكبيرة. وعلى ظهرها خمسة عشر ألف جندي إسباني وثلاثة آلاف جندي إيطالي ومجموعة من المغامرين[١٠].

وقد قص علينا الكونت بدرو دي نافارو قصة احتلال المدينة في رسالة وجهها إلى نائب الملك بصقلية بتاريخ ٢٩ يوليو من العام نفسه[١١]. ومن المهم أن نتابع هذا القائد الذي يخبرنا بأن الأسطول قد وصل طرابلس صباح الخميس ٢٥ يوليو، وهو يوم القديس يعقوب. وهو قديس مبجل عند الإسبان عزيز عليهم. وقد نزل إلى البر، في ساعات قليلة، ستة آلاف رجل قام نصفهم بمهاجمة المدينة، بينما بقي النصف الآخر لحماية المهاجمين وتأمين عملية الهجوم على العرب القاطنين بالريف. وسرعان ما استولى المهاجمون، بمساعدة المدفعية، على جزء من السور، وعلى برجين من أبراجه، ثم استولوا على البرج القائم عند باب العرب[١٢]، وفتحوا الباب الذي دخل منه الإسبان إلى المدينة. وظلوا يحاربون ثلاث ساعات داخل شوارع المدينة، إذ كان الطرابلسيون يقاومون بعنف.

ليس صحيحاً إذن، ما تردد من قول بأن سكان طرابلس قد أصبحوا مجردين من السلاح، كما تصور لنا الأسطورة التي ذكرت فيما تقدم.

(كان هناك عدد كبير من الموتى بين صفوف العرب، وهم من الكثرة بحيث لا تجد موطئاً لقدمك إلا فوق الجثث. ويقدر عدد القتلى بين العرب بحوالي خمسة آلاف. أما الأسرى فهم أكثر من ستة آلاف. أما قتلى المسيحيين

---

(١٠) م. لونقينا، نفس المصدر السابق ص ٥.

(١١) توجد الرسالة في (يوميات) مارين سانودو ١١ ـ ٧٤٦ ـ ٤٧٧، وقد ترجمها مانفروني:

C. Manfroni in Tripoli nella storia marinaria d'Italia, Padova 1912 P. 35.

C. Manfroni. L'Italia nelle vicende marinare della Tripolitania Intra 1935.

(١٢) في الإسبانية Puerta de los Alarbe أي الباب الذي يؤدي إلى عرب البادية. وهو يطابق باب المنشية، وربما باب الحرية.

فقد كان عددهم قليلاً). وإذا صحت هذه الأرقام فإنها تدل أيضاً على أن مدينة طرابلس كانت آهلة بعدد كبير من السكان.

ومن المؤكد أن المدينة كانت حينذاك مزدهرة وغنية، وتشهد بذلك العبارات التالية التي خاطب بها القائد، نائب الملك بصقلية: (سيدي[١٣]. . . إن هذه المدينة هي أكبر في واقعها مما كنت أتصور، ورغم أن الذين يشيدون بها، ويطرونها، يتحدثون عنها حديثاً حسناً، إلا أني أرى أنهم لم يقولوا إلا نصف الحقيقة، سواء فيما يتصل بتحصيناتها أو نظافتها، حتى لتبدو مدينة إمبراطور أكثر منها مدينة لا تنتمي لأي ملك خاص). .

ورغم أنه من الممكن أن يكون إعجاب الكونت بدرو دي نافارو صادراً عن شعور طبيعي بالزهو والفرح بنجاح المهمة التي أنجزها، إلا أن المقارنة بالمواقع الأخرى التي احتلها هذا القائد من إفريقيا الشمالية، في ذلك الوقت، تظهر كيف كان لهذا الإعجاب ما يبرره، في طرقها الفسيحة نسبياً، ومنازلها المترفة الجميلة، وفي ذلك الأثر التاريخي الخالد البارز، وهو قوس ماركوس أوريليوس. إن الشهرة التي شاعت عن غنى طرابلس (التي اجتذبت قبل قرن ونصف فيلبو دوريا في حملاته القرصانية الجريئة) قد انتشرت في أوروبا بطريقة خيالية. وعندما وصل نبأ الاستيلاء على طرابلس سنة ١٥١٠ رددت الشائعات بأن في طرابلس تاجرين يملك كل منهما مليوناً من النقد الذهبي السائل[١٤].

ويقدم لنا باتستينو دي تونسيس Batistino de Tonis الذي شارك في الحملة هذا الوصف لمدينة طرابلس: (تقع مدينة طرابلس في سهل منبسط. وهي مربعة الشكل، ويحيط بها سور يبلغ امتداده أكثر من ميل: ولها سوران مزدوجان تحف بهما خنادق منخفضة وضيقة. السور الأول فصيل منخفض، أما السور الثاني فهو مرتفع جداً، وضخامته متناسبة مع الأبراج، وهي ذات مواقع دفاعية ضخمة، ومحاطة بالبحر من جهاتها الثلاث ولها ميناء ممتاز قادر على

(١٣) هو نائب الملك بصقلية.

(١٤) م. سانودو (اليوميات).

إيواء أربعمائة سفينة ومراكب من ذات المجاذيف. ومن أجل ذلك كان ضياع هذه المدينة مبعثاً للأسىَ والأسف. ويقال إن سكانها أكثر من عشرة آلاف نسمة، جلهم من العرب وبعضهم من اليهود، وقد أسر منهم حوالي خمسة آلاف أو أكثر، أما البقية فقد قتلوا، ولم ينج منهم إلا القليل الذي تخطى السور من جانب الحي اليهودي[١٥] Jodecha الواقع شمال المدينة).

وترك لنا باتستينو دي تونسيس أيضاً قصة حية عن احتلال المدينة. وقد بلغ الهجوم ذروته عندما تمكن حامل العلم (جيم ديز Jaime Diez) من رفع العلم الأول (فوق السور، داخل القلعة والباب العربي)[١٦]، ودخلت القوات المسيحية المدينة، كأنها أسراب الطيور، لا يكاد الإنسان يصدق أنها دخلت من الأبواب، وأخذت تقتل وتطارد الأعداء الذين تحصنوا بالقلعة والمسجد الكبير، وبعض الأبراج والحصون. ولم تتوقف الجيوش البحرية عن المقاومة عند جهة باب البحر. ولما كانت القوات البرية قد دخلت المدينة، فقد اضطرها شعور الخجل إلى إظهار مزاياها، وأمكنها، أي البحرية، بعد ذلك أن تجتاز السور وتدخل المدينة التي أصبحت مباحة من جميع جهاتها. أما الأعداء فقد قتلوا شر قتلة، وحوصر الأحياء في القلعة والمسجد، وتمكنت القوات من الاستيلاء على المسجد بعد قتال مرير، وأسر الملك الذي يدعى (الشيخ)[١٧] مع أولاده وزوجته وأسرته المالكة. كما أطلق سراح مئة وخمسين أسيراً من أسرى العرب وعبيدهم الذين وجدوا مصفدين في الأغلال) وقد مات في هذه المعركة مئة وخمسون جندياً مسيحياً وأكثر من ألفين من العرب[١٨].

---

(١٥) هو الحي اليهودي الواقع إلى شمال من المدينة (الحارة).

(١٦) أنظر الهامش المتقدم بخصوص الباب العربي.

(١٧) الشيخ هو الرئيس.

(١٨) **M. Longhena,** art. cit. P. 7.

S. Aurigemma, (1) Fortificazioni di Tripoli in Not arch Min. Colonie 11 p. 257 - 259.

(2) Il Castello di Tripoli di Barberia in Rinascita della Tripolitannia Roma 1926 p. 538.

وثمة تقرير Relación لشخص مجهول شارك في الأحداث، وهو يزودنا بتفصيلات أخرى عن نزول القوات وعمليات الاحتلال.

لقد وصل الأسطول الإسباني إلى مشارف طرابلس يوم ٢٤. وأرسل على الفور الكولونيل البندقي (نسبة إلى البندقية، فينيسيا)[١٩] (جيرولامو فيانيللو Gerolamo Vianello) الذي كان قد أقام بطرابلس، من قبل، بوصفه تاجراً. وكان على معرفة كاملة بالمدينة. وذلك لكي يجمع المعلومات عن الوضع العام، وليتأكد مما إذا كانت قد وصلت إلى البلاد نجدات تركية.

وتم تنفيذ عمليات النزول، صباح يوم ٢٥، تحت قصف المدافع الطرابلسية التي كانت تقابلها نيران المراكب الغازية. وقد جرى تقسيم قوة الحملة إلى مجموعتين: الأولى مكونة من أربع فرق. وتعداد كل فرقة ألف جندي وكانت بقيادة:

ديجو باكيكو	Diego Pacheco
جوناس دي أرياجا	Joanes de Arriaga
جوان سالجادو	Juan Salgado
أفيلا	Avila

وكانت هذه الفرق مكلفة بمهاجمة المحاربين المقيمين خارج المدينة، والعمل على الحيلولة دون وصول النجدة من الريف. أما القسم الآخر، المكون من بقية الجيش والمؤلف من أحد عشر ألف رجل، فكان مكلفاً بالهجوم وتسلق الأسوار.

ويؤكد هذا التقرير أيضاً أن المقاومة الكبرى قد تمت حول المسجد الكبير، حيث قتل ألفان من العرب، بين رجال ونساء. وأن (الشيخ) قد أغلق على نفسه القلعة، ثم سلم نفسه مع بقية المسلحين وولديه وأخ له. وأن قتلى

(١٩) أنظر بخصوصه:

N. Naldoni, in Atti I Congresso Studi Coloniali Firenze 1931 - vol II p. 264.

العرب كانوا ستة آلاف، وأنه أسر حوالي عشرة آلاف، وجرى إطلاق سراح مئة وسبعين أسيراً مسيحياً، وأغلبهم من صقلية ومالطا.

أما القوات الإسبانية والإيطالية فقد كانت خسائرها ثلاثمئة قتيل، بينهم أميرال الحملة (كريستوبال لوبيز دي أرياران) (Cristobal Lopez de Arriaran) وكان من الممكن أن تكون الغنائم أكبر مما استطاعت أن تحصل عليه القوات الغازية، لولا أن العرب قد أخطروا بهذه الحملة قبل خمسة وثلاثين يوماً من وقوعها، عن طريق أحد تجار (جنوا)، وكان قد علم بذلك بواسطة أصدقائه من التجار الجَنَوِيين بصقلية. ولذلك بادروا إلى نقل ثرواتهم على ظهور الإبل (خمسة آلاف) إلى المناطق المجاورة مثل تاجوراء وجنزور.

وكانت طرابلس في ذلك الوقت مدينة تجارية، وتعتبر أغنى من تونس، ويتردد عليها تجار العرب وتجار الشمال الإفريقي والأتراك وتجار جنوا وصقلية ومالطا. وقد استولى الغزاة، في الميناء، على مركب من نوع (كرافيلا Caravella) ومركب آخر من نوع (غاليرا Galera) ذي اثنين وعشرين مقعداً، ومركبين من نوع ثمانية عشر مقعداً، وعدة زوارق أخرى. وفي اليوم التالي، للاحتلال تم الاستيلاء على عدة سفن كانت قد وصلت من الإسكندرية والشرق، على غير علم منها بوقوع المدينة تحت السيطرة الإسبانية[٢٠].

وثمة تفصيلات مختلفة هامة، فيما رواه سوريتا (Curita)[٢١] وهو من عهد متأخر قليلاً عن الفترة التي وقعت فيها الأحداث المذكورة. فيقول إن تعداد المدافعين عن المدينة يبلغ أربعة عشر ألف مقاتل. وأن الإسبان قد هاجموا المدينة من باب البحر، ومن الباب المعروف لديهم باسم باب النصر (من الواضح أنه باب المنشية) وأن الشيخ قد أسر في أحد الحصون المواجهة للقلعة. وقد أسر

---

(٢٠) طبع هذا التقرير بمجموعة:

Martin De Los Heros, loc. cit. p. 479 - 482.

(٢١) Historia dell Rey don Fernando el Catholico, Caragoca 1580, vol II Libro IX.

معه أخوه وابنه. كما فر (الجَنَوِيـون) الذين كـانوا يسـاعدونـه في الدفـاع راكبين خيولهم خارجين من أحد الأبواب الصغيرة.

ويتحـدث مصدر آخـر عن أن زعيم طرابلس (الشيـخ الـذي كـان وليـاً صـالحاً محـترمـاً جليـلاً)[٢٢] أسر في القصبـة، أي في القلعـة، وأرسـل إلى مسينـا. ويخبرنا قنصل البندقية في باليرمو بتاريخ ٣ سبتمبـر بوصول مجموعة من الأسرى تقـدر بحوالي ألف وأربعـمائة أسـير. وأنهم كانـوا في انتظار وصـول المـزيـد من الإسرى. وأن الأسرى قد بيعوا في المزاد العلني بسعر يتراوح بين ثلاثة دوكات وخمسة للشخص الواحد[٢٣].

٢ ـ مظاهر الفـرح في أوروبا، والأسف في العالم الإسلامي، لسقـوط طرابلس ـ حملة على جربه ـ هجوم العرب على المدينة

استقبـل نبأ احتـلال طرابلس بفـرحة عـظيمة وبهجـة غـامـرة في أوروبـا المسيحيـة. وقد شجـع هـذا النجـاح ملوك إسبـانيـا عـلى أن يـدفعوا بحمـلاتهم نحو إفريقيـة دفعة قـوية. ويبـدو أن الحماس قـد سرى إلى الملك الكاثـوليكي، فأحب أن ينهض بنفسه إلى قيادة حملة تهدف إلى توسيع رقعة انتصاراته.

وجرت في الأندلـس استعدادات جادة لتحقيق هذه الغاية، خلال شتـاء وربيع سنة ١٥١٠ ـ ١٥١١. وكان من المقرر أن تسافر الحملة من ميناء مالـطا. ولكن الأحداث التي وقعت في إيطاليـا قد صرفت ـ منـذ ذلك الـوقت ـ اهتمام الملك فرديناند عن الشؤون الإفريقية[٢٤].

وقد أثار الاحتـلال طرابلس بهجة خاصة في إيطاليا. ودعا منـدوب البلاط البابوي في بـولونيـا (فرانشيسكـو اليدوسي Francesco Alidosi) المسيحيـين إلى تنـظيم مظاهـرة كبيرة تعبـيراً عن فرحتهم وبهجتهم بـاحتـلال (مـدينـة تسمى

(٢٢) ساندوفال: نفس المصدر. فصل ٣٦.

(٢٣) سانودو: (يوميات) ١١ ـ ٤٦٨.

(٢٤) م. مارتين دي لوس هيروس ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

طرابلس البربرية وهي أرض عـامرة بـالسكان)[٢٥]. وقـد تبادل (دوج) البنـدقية التهـاني الحارة مـع ملك إسبانيـا ونائب الملك في صقليـة[٢٦]. وفي رومـا احتفـل بسقوط طرابلس يوم ١٠ أغسطس، ونظم موكب ديني[٢٧]. وكـان استقبال هـذا النبأ عظيمـاً يتناسب مع ما كانت تتمتع به طرابلس من سمعة باعتبارها مـدينة غنية وقوية بحصونها.

وكانت فرحة سكان إيطاليا الجنوبية وصقلية ومالطا فرحـة عميقة. ويبـدو أنه قد أنشيء بهذه المناسبة في صقلية وسام تذكاري[٢٨].

وتجدر الإشارة إلى أنه كان من بين التهاني التي وصلت إلى فردينانـد الملك الكاثوليكي للإشادة بهذا الحدث السعيـد، تلك التهنئة التي وجههـا إليه المـرشد الأكـبر في رودس (أمـريكـو د امبـواز Emerico d'Amboise). إذ مـا كـاد يبلغ باحتلال طرابلس، من قبل نائب الملك بصقلية، حتى بادر على الفور إلى تقديم التهاني. وانتهز هذه الفرصة لإبلاغه بالانتصـار الذي أحـرزه أسطولـه، في نهاية أغسطـس من ذلـك العـام، عـلى أسـطول سلطان مصر في خليـج (الأيـاس Laiazzo). وقد حث المرشـد الأكبـر الملك عـلى مواصلة حمـلاته عـلى إفريقيـة حتى مصر، على أمل أن يتمكن من ضم قواته إليـه (لخدمة الله في هذه المهمـة السامية)[٢٩] (Y serviz a Dios en tan meritoria impressa). ونجد صدى هذه البهجـة التي تـرددت في إيـطاليـا بسبب احتـلال طـرابلس ـ خـاصـة إيـطاليـا الجنوبية ـ في ذلك المدح الذي وجهه إلى الملك الكـاثوليكي المـدعو أنـطونيو دي فراريس، المعروف باسم (غالاتيـو Galateo) المتوفي سنـة ١٥١٧ م. فقد أشـاد في هذا المدح بانتصاراته الإفريقيـة التي حفظت كـالابريـا وصقلية من الغـزوات الإسلامية (خـاصة بعـد احتلال طـرابلس، المدينـة العظيمـة التي تقع في مـوقع

---

(٢٥) **G. Pantanelli**, Tripoli in un documento Bolognese del secolo XVI Bologna 1912.

(٢٦) م. سانودو (يوميات) ١١ ـ ٢٨٤.

(٢٧) م. سانودو (يوميات) ١١ ـ ١٢٣.

(٢٨) مارتين دي لوس هيروس ص ١٤٧.

(٢٩) الرسالة بتاريخ ٨ سبتمبر ١٥١٠ وقد أوردها مارتين دي لـوس هيروس ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨.

ملائم لغزوات الأفارقة والعرب. وهي ملجأ للأتراك الـذين يغزون الشـواطىء المسيحية). ويضيف قائلاً (إنه) يرى أن احتلال طـرابلس كان أهم من احتـلال تـونس). ويلاحظ في نفس الـوقت (أن تونس أيضـاً ستقع تحت سلطتـه بفضل المسيح)[٣٠].

ولم يكن بأقل من ذلـك شعور الأسف الذي سرى في البلدان الإسلاميـة المجاورة مثل تونس ومصر لسقوط هذه المدينة الهامة في أيدي المسيحيين.

وفي رسالة من تـونس مؤرخة في ٩ نـوفمبر ١٥١٠. وقـد نقلت من بالـيرمو وذكرها مارين سانودو في يومياته، ورد (أن العرب ومشايخهم كـانوا يعـتزمون قتـل جميـع المسيحيين، ولكن سلطان تـونس منعهم من ذلك. وهي تؤكـد في الوقت نفسـه أن الملك كان يستعد لمهاجمة طرابلس، وكان يتوفر على ثلاثين ألف رمّاح وعشرين ألف من الرماة وعشرين ألف مسلح آخر)[٣١].

ويلاحظ مارين سـانودو نفسـه بتاريـخ ٢٤ نوفمـبر ١٥١٠ نقلاً عن أحـد القادمين من القاهرة ودميـاط أن العرب المغـاربة في الإسكنـدرية قـد تجمعوا في المسجـد فور علمهم بسقـوط طرابلس في يـد الجيش الإسباني، وهجمـوا على فندق الإسبان هناك، وألحقوا به أضراراً فادحـة، ولكن أمير الإسكنـدرية عـالج الموقف وأصلحه)[٣٢].

ولكن سلطان مصر في ذلك الوقـت كان ضعيفاً جداً. وبعيداً كـل البعد عن التأثير على مصير طرابلس. وكان الخطر الذي يهدد هذا الاحتلال الجديـد، يكمن في الهجوم المتوقع من جانب عرب الدواخل. وقد طلب بدرو دي نافارو، في رسـالته إلى نـائب الملك في صقلية ـ التي سبق أن ذكـرناهـا ـ أن ترسـل إليـه المدافع والمجانيق والأقواس.

---

(٣٠) La Giapigia e vari opuscoli di Antonio De Ferrarii detto il Galateo, vol II, Lecce 1868 p. 102 - 116.

(٣١) سانودو (يوميات ١١ ـ ٧٠٩ ـ ٧١٠).

(٣٢) سانودو (يوميات ١٠ ـ ٦٢٤).

ورغبة في ضمان استمرار السيطرة الإسبانية على طرابلس، واتخاذها قاعدة للعمليات الحربية القادمة في إفريقية، نهض الكونت على الفور إلى حملة على جزيرة جربة. وبعد أن استلم دعماً قوامه ثلاثة آلاف رجل بقيادة (ديجو دي فيرا Diego de Vera) غادر طرابلس يوم ٢٨ أغسطس على رأس حملته، وترك لحماية طرابلس والدفاع عنها حامية مكونة من ثلاثة آلاف رجل بقيادة الكولونيل (سامانيجو Samanyego وبالومبينو Palumbino).

وقد حمل الكونت بدرو دي نافارو معه اثني عشر ألف جندي. ولحقت به في جربة سبع عشرة سفينة إسبانية بقيادة (دون غارسيا دي توليدو Garcia de Toledo) وعلى ظهرها ثلاثة آلاف رجل. وجرت المعركة ضد العرب في جو خانق، شديد الحرارة. فانتهت إلى كارثة. حين أخذت القوات المسيحية تتهافت في فوضى وتشتت على إحدى الآبار. وكان العرب يترصدونهم ويستدرجونهم، وما كادوا يجرونهم إلى هذه الحالة حتى هاجموهم. وأقاموا لهم مذبحة في الموقع. وقد ارتفع عدد الضحايا إلى أربعة آلاف بين قتيل وجريح. وفي رواية أخرى إلى ألفين. وكان ضمن الموتى دون غارسيا دي توليدو، وابن دوق ألبا، وشخصيات أخرى مثل غارسيا سارمينتو.

وقد غادر الأسطول جربة يوم ١٣ أغسطس، فاستقبلته العواصف في الطريق، ولم يصل طرابلس إلا يوم ١٩ سبتمبر[٣٣]. وبينما كانت الحملة في جربة استطاع بضعة آلاف من العرب، بقيادة بعض الزعماء المسيحيين الذين

---

(٣٣) م. لونقينا، المصدر المذكور، ص ٩ - ١٠.
- م. سانودو (يوميات ١١ - ٤٢٧ - ٥١٤). وقد أخبر قنصل فينيسيا ببالرمو أن ثماني سفن قد خرجت قاصدة جربة ولكنها لم تتمكن من الاستيلاء عليها. وثمة وقائع إباضية نشرها مترجمة مع التعقيب عليها (موتولنسكي) بعنوان:
Expédition de Pedro de navarre et de Garcia de Tolède contre Djerba 1510 Paris 1907.
انظر أيضاً (التقرير Relacion) الذي نشره مرتين دي لوس هيروس و (سوريتا: تاريخ الملك دون فرناندو الكاثوليكي) الكتاب التاسع، الفصل التاسع عشر.

فروا من معسكر بدرو دي نافارو، مهاجمة المدينة، وتمكنوا من تسلق السور، ولكن المدافعين ردوهم على أعقابهم، وقذفوا بهم خارج السور[٣٤].

وفي اكتوبر أبحر الكونت بقصد احتلال المنستير، تاركاً بطرابلس ديجو دي فيرا مع ثلاثة آلاف جندي. ولكن العاصفة ردته إلى طرابلس بعد أن تكبد خسائر فادحة في سفنه ورجاله[٣٥].

وفي الشتاء أعد الكونت حملة على جزيرة قرقنة، وهو يهدف من ذلك بصفة خاصة إلى الحصول على قاعدة بحرية لسفنه، ولعمليات قادمة يقوم بها ضد جربة والساحل. ولكن هذه العملية كان مصيرها الفشل أيضاً، إذ تعرضت إحدى الفرق المؤلفة من أربعمائة جندي إلى هجوم شنه عليها العرب أثناء الليل، عندما كانت مشغولة بتطهير بعض آبار المياه. ويعتقد أن هذه العملية قد تمت نتيجة خيانة بعض الرواد المرشدين وتواطؤهم. وقد أبيدت الفرقة. وكان بين القتلى البندقي الذي سبق ذكره وهو (جيرولامو فياناللو الذي كان يشرف على تلك الأشغال ويتولى إدارتها[٣٦].

وكان العدد القليل من الطرابلسيين الذين نجوا في يوليو ١٥١٠ قد لجأوا إلى العرب المقيمين بالضواحي. وكانوا يعملون بمساعدتهم على استعادة المدينة. وتألفت مراكز تنظيمية في الجبل وغريان وتاجوراء والمناطق القريبة من طرابلس.

وقد أدرك السلطان الحفصي بتونس أن برنامج الإسبان كان يقوم على احتلال جميع بلدان الساحل الشمالي لإفريقيا المعروفة باسم (بربريا). وحاول أن يتخذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن أرضه، ويبدو أيضاً أن السلطان أبا عبد الله محمد بن الحسن كان يميل إلى مساعدة الطرابلسيين حلفائه الطبيعيين على الأعداء المسيحيين.

---

(٣٤) م. سانودو (يوميات ١١ ـ ٦٣٩).

(٣٥) م. سانودو (يوميات ١١ ـ ٧٠٦).

(٣٦) التقرير Relacion المشار إليه فيما تقدم والذي نشره مارتين دي لوس هيروس.

وكـانت الأنباء تتـوالى من تونس بغضب المسلمـين هناك، وثـورتهم عـلى المسيحيين، وابتهاجهم بهزيمة الإسبان في جربة.

وكانت تجري في تونس الاستعدادات وإرسال الرجال لدعم العمل الحربي من أجل استرجاع طرابلس[٣٧].

وقد وصل الكـونت بدرو دي نافارو إلى كـابـري بجيشـه الذي هبط إلى أربعة آلاف رجل، وأسطوله الذي نزل إلى ثلاثة وعشرين شراعـاً، بعد الهـزيمة التي مني بها في قرقنة.

ومنذ ذلك الحـين لم يعد يبـدو اسمه في تـاريخ طـرابلس، بعد أن بـدت صورته زاهية بالنصر يوم ٢٥ يوليو ١٥١٠، ثم طمستها نكبات جربة وقرقنة.

وثقل هذا الحادث على نفوس الإسبان، وأحسوا بمرارته وفداحتـه. ويبدو أن هذا الحادث المنحوس الذي وقع في أغسطس ١٥١٠ هو الذي أطلق العبارة المـشهـورة (Los Gelves, madre, malos son de ganar) ومـن المعـروف أن الإسبـانيين وحلفـاءهم قد تعـرضوا لهـزيمة أخـرى شنعاء في عمليـاتهم البحريـة والبرية سنة ١٥٦٠. وسوف نرى أن (هوجو دي مونكـادا (Hugo de Moncada) هو الشخص الوحيد الذي أحرز انتصاراً باهراً ملحوظاً سنة ١٥٢٠.

أما الكونت بدرو دي نافارو فقد عمل في خدمة الإسبان ضد فرنسـا في إيطاليا سنة ١٥١٢ ووقع أسيراً في أيدي الفرنسيين، ثم أطلق فرانشيسكو الأول سراحه. وعمل في خدمة الفرنسيين ضد بلاده حتى قبض عليه مواطنوه في بداية ١٥٢٩ ونفذوا فيه حكم الإعـدام. ويعتقد أن إعـدامه قـد تم في (كاستيـل دل أوفو) بنابولي (Castel dell'Ovo)[٣٨].

---

(٣٧) م. سانودو(يوميـات ١١ ـ ٨٢٣). أنظر أيضـاً: دي ماس لاتـري ص ٢٧٩. ويروي المؤرخ التونسي (القيرواني) ص ١٥١ تونس أنه حين احتل المسيحيـون طرابلس بعث السلطان محمد جيشاً بقيادة محمد أبو حداد، قائد (توزر) الذي أسر زعيم المسيحيين. (هكذا).

(٣٨) مارتين دي لوس هيروس.

٣ ـ أوضاع طرابلس تحت حكم الإسبان

لقد تحدثنا عن محاولة قام بها العرب لاسترجاع طرابلس في صيف ١٥١٠. وفي فبراير ١٥١١ أعادوا الكرة من جديد، فهاجموا المدينة التي كان يدافع عنها ديجو دي فيرا بقوة قوامها خمسة آلاف رجل. أما المهاجمون فقد كانوا حوالي أربعين ألف رجل[٣٩]. ومع ذلك فلم يستطيعوا التغلب على المقاومة الباسلة التي أبداها المتحصنون المحاصرون، وكان ثمة أكثر من مئة (مرابط) يطوفون في دواخل طرابلس وتونس ويدعون العرب للجهاد ومهاجمة طرابلس. وقد انفجر لغم ألقي من السور، فتسبب في مذبحة للمهاجمين، وأصاب المسيحيين أيضاً بخسائر فادحة[٤٠].

إن رسائل قنصل البندقية ببالرمو تبعث على الاعتقاد بأن الأوضاع قد تحسنت في طرابلس عند أواخر ١٥١١. ولكن كان لا بد من الاحتياط ضد احتمالات الهجوم الجديد من قبل الأهالي والأتراك الذين بدأوا، منذ زمن، يظهرون على السواحل الإفريقية. ونحن نعلم أن سفناً تركية (عثمانية) قد هددت طرابلس سنة ١٥١٢، فاتُّخذت الاحتياطات بتحصين القلعة والصخرة[٤١].

لقد ألحقت مدينة طرابلس بمملكة صقلية، وأخضعت مباشرة لحكومة نائب الملك الذي كان يقيم بصقلية. وفي سنة ١٥١١ استدعي ديجو دي فيرا من جديد ليتولى القيادة العامة للمدفعية وخلفه على منصب الحاكم والقائد (دون جيم دي ريجوسن Don Joume de Reguesens). وقد جاء في معيته دون

---

(٣٩) سوريتا ج ٢ الكتاب التاسع الفصل ٣٢.

(٤٠) P. Perali, La guerra di Tripoli del 1511 - in un Diora orvietano dell'epoca in Bibliofilia, XIV, 1912 p. 324.

(٤١) م. سانودو (يوميات) ١٢. يحتمل أن تكون الصخرة المذكورة حصناً دفاعياً بالميناء عرف فيما بعد باسم (Castellejo). وكانت أوضاع القلعة في سنة ١٥١١ سيئة وقد كتب دون هوغو دي مونكادا إلى شارل الخامس أن إصلاحها يتطلب مبلغاً يتراوح ما بين 35 إلى 40 ألف دوكاتو.
Colleccion de documentos, ecc XXXIV p. 117.

أنـطونيـو فنتيميليـا (A. Ventimiglia) وجيـوفـاني أنـطونيـو مـونكـادا G. de Moncada والقس غاسباري دي سانجوسا G. di Sanguessa من هيئة القديس يـوحنا القـائمة حينـذاك برودس. كـما حضر معه آخـرون. ومجموعـة من الجند تتألف من ألفين وخمسمائة رجل[٤٢].

ولكن الإسبانيين الذين كانوا يباهون باحتـلال طرابلس، بـاعتباره حـدثاً سعيداً وانتصاراً للمسيحية بأسرها، لم يغفلوا عن ضمان الاحتكـارات التجاريـة لصالحهم في تلك البقاع[٤٣]. ونحن نعرف النظم التي كانت تطبقها الجمارك في طـرابلس والتي صـدرت عن نيابة الملك بصقليـة خـلال (١٥١١ ـ ١٥١٢ ـ ١٥٢١)[٤٤]. فقد كان بطرابلس مسؤول جمركي، أو أمـين جمرك، يسـاعده مخـزّن ومحصّلان ومحرر ومباشران. وقد شغـل منصب أمين المخـزن في ١٥٢١ الاسباني ديجودي أوبرجن (Diego di Obregon) الذي كان قـد شارك في العـام السابق في الحرب بجربة. وكانت الضريبة المفروضة على البضـائع المتبـادلة بـين العرب والمسيحيـين تشكل نسبـة عشرة في المئة. وتعفى من الضريبـة المواد التمـوينيـة الخـاصة بجنـد الحاميـة. كما تجبى عن الغنـائم البحريـة التي يحملها القـراصنـة المسيحيون للبيع في أسواق طرابلس، نسبـة عشرة في المئة بـالإضافـة إلى حقوق الأميرالية.

وكان يتدفق على مدينة طرابلس عدد كبير من الـرقيق، خاصـة من جبال برقة. وتحدد التنظيمات الجمركية دفع عشرين (تاري) عن كل رأس من الأرقـاء المجلوبين من برقة وغيرها، يستوي في ذلـك البيض والسود. وبخصـوص فديـة العرب بطرابلس فتقضي التنظيمات بدفع نفس القيمة التي كانت تدفع في المدينة المـذكـورة، قبـل الاحتـلال الاسبـاني، من أجـل افتـداء واستخـلاص الـرق

---

(٤٢) سوريتا (المصدر المشار إليه) ج ٢ الكتاب التاسع ـ الفصل ٣٢.

(٤٣) دي ماس **De Mas,** Traités, ecc. p. 336 - 342.

(٤٤) **G. La Mantia,** La Secrezia o dogona di Tripoli e i capitali della sua amministrazione approvati dal vicère di Sicilia negli anni 1511 a 1521 in archivio Storico Siciliano XLI (1916) p. 466 - 490.

المسيحي. أي خمسة دوكات من الذهب عن كل رأس. ودوكاتو واحد كحق لقائد باب المنشية.

ويلاحظ أن الجرابى كانوا يدفعون للجمرك نفس ما يدفعه الرعايا الآخرون التابعون لصاحب الجلالة. وكانت مدينة البندقية التي تبعث بسفنها إلى طرابلس لعرض بضائعها، تدفع ضريبة باهظة. وقد احتج تجار البندقية المتضررن من هذا الإجراء في سنة ١٥١٨، لدى الملك شارل الخامس عن طريق السفير (كورنارو Cornaro).

وقد أخذ الوضع التجاري بطرابلس ينهار بسرعة بسبب هذه الإجراءات التضييقية التي قللت من عدد السفن المترددة على ميناء طرابلس. بسبب الأوضاع العامة في البلاد وعزلة المدينة، إذ كان الثوار يمنعون أية حركة منتظمة تتجاوز أسوار المدينة، ويعوقون اتصالها بالدواخل والمراكز الساحلية الأخرى، بينما انتعشت حركة تجارية في الموانىء الصغيرة المتناثرة على الساحل الطرابلسي البعيدة عن السيطرة الاسبانية.

ولم تعد مراكب البندقية التي أطلق عليها اسم (مراكب بربريا) لاختصاصها بالزيارات السنوية لهذه الموانىء، تجد من المناسب التوقف في طرابلس، وتحولت إلى الرسو برأس مسراتة (La Maxerata) شرقي طرابلس للمتاجرة مع الأهالي(٤٥).

وفي سنة ١٥١٣ عين ملك إسبانيا، نائب الملك بصقلية، دون هوجو دي مونكادا (Hugo de Moncada) حاكماً على طرابلس (مدى الحياة) بمخصصات سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوكاتو لمواجهة النفقات اللازمة(٤٦).

وكانت طرابلس في ذلك الوقت تابعة لصقلية. وقد بعث نائب الملك في سنة ١٥١٢ النبيل الصقلي جيوفاني فرانشسكو باترنو (G.F. Paterno) ليتولى

---

(٤٥) م. سانودو (يوميات ٢٧ - ٢٥).

(٤٦) م. سانودو (يوميات) رسالة من باليرمو بتاريخ ٢١ - ٢ - ١٥١٤.



حكمها باسمه. وقد أقام بها عدة أعوام وعرف بدفاعه عن المدينة.

وفي ١٦ اكتوبر ١٥١١ وزع في كاتانيا منشور أعلن فيه نائب الملك بصقلية، هوجو دي مونكادا، أنه سوف تقدم للراغبين في السفر إلى طرابلس والإقامة بها (المساكن الملائمة) وتخصص لهم الأراضي المناسبة للزراعة، ويعفون من كل ضريبة أو رسوم لمدة عشرة أعوام كما يبرأون من كل إدانة مدنية أو جنائية عدا الجرائم الخطيرة(٤٧).

وبموت فردناند الكاثوليكي سنة ١٥١٦ وفقدان الكاردينال خمينس سنة ١٥١٧، أهملت اسبانيا حملاتها على إفريقية، بالنظر إلى انهماك شارل الخامس في صراعاته بإيطاليا، ومزاحمة منافسه الأول، فرانشيسكو الأول، ملك فرنسا.

ولا نعلم سوى القليل عما كان يجري بطرابلس خلال هذه الفترة ومن ذلك تسجيل خسائر فادحة في وباء الطاعون الذي أصابها في سنة ١٥٢٣(٤٨). .

ويقص علينا (ليون الإفريقي)، وهو مسلم اعتنق الديانة المسيحية أثناء الأسر، وعرف بأعماله وآثاره الجغرافية (أن طرابلس كانت حين زيارته لها تستعيد سكانها وأن القلعة كانت مجهزة بأسوار ضخمة ومزودة بمدفعية).

وفي إطار الأوضاع العامة بطرابلس والسواحل المتاخمة لها من الشمال الإفريقي تجدر الإشارة إلى حملة ناجحة قام بها دون هوجو دي مونكادا ـ أميرال

---

(٤٧) أنظر: G. Longo, La Sicilia e Tripoli, Catania, 1912 p. 23 - 26 - 36 - 39.
كانت فكرة استيطان المسيحيين بطرابلس تدخل في اتجاهات السياسة الاسبانية ولكن دون هوجو دي مونكادا كتب في ١٥١١ إلى شارل الخامس يقول (إن فكرة تعميرها بالمسيحيين فكرة لا طائل من ورائها).
(pensar de problarla de Cristianos es excusado) coleccion de documentos, ecc, XXXIV p. 117.

(٤٨) م. سانودو (يوميات ٣٤ ـ ٤٢٧).

اسبانيا سنة ١٥١٥[٤٩] ـ على جزيرة جربة في سنة ١٥٢٠ . وكان تحت إمرته مئة شراع وثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة جندي من المشاة، وألف من الفرسان.

وكانت الفرقة التي تقدمت الزحف على الجزيرة قد هوجمت وأحاط بها العرب، وخسرت ستمائة رجل، وأوشكت على التلف التام، ولكن نائب الملك لم يفقد صوابه، وعاد بالهجوم على أعدائه في اندفاعة قوية مدعمة بفرق أخرى، وأجبر الشيخ على الاستسلام، وتوقيع اتفاقية بتبعيته للملك الكاثوليكي[٥٠].

أما (شيخ طرابلس) الذي اقتيد أسيراً إلى صقلية فقد أطلق سراحه بعد عشر سنوات من أسره. ويبدو أنه منذ ١٥١١ كان العرب النازحون عن طرابلس يجعلون من عودة الشيخ شرطاً أساسياً لعودتهم إلى المدينة. وقد أرسلوا مبعوثاً إلى بالرمو، ولكن نائب الملك لم يستجب لمطالب النازحين الطرابلسيين، وفكر في تعمير المدينة بالمسيحيين ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ ثم اقتنع بإطلاق سراح الشيخ واستخدام نفوذه لتهدئة الأوضاع السياسية وتسويتها.

وفعلاً فإن ثمة رسالة موجهة من الملك شارك الخامس في سنة ١٥٢٠ إلى نائب الملك بصقلية تتضمن موافقته على فكرة إعادة الشيخ لاستخدامه في توطيد العلاقات بين المحتلين والأهالي، وتهدئة الحالة.

كما كتب الملك شارل الخامس إلى ملك نابولي، داعياً إياه إلى كسب مودة أبناء الشيخ وإرسالهم إلى طرابلس في نفس المهمة[٥١].

---

(٤٩) قام شعب بالرمو الثائر بطرد (دون هوجو دي مونكادا في ١٥١٦) وقد عين بعد ذلك قائداً عاماً للأسطول الاسباني وحملاته على إفريقيا وتولى أيضاً منصب حاكم طرابلس.

(٥٠) Vida de el famosc Caballero Don Hugo de Moncada, opera di Gaspar de Baeça 1564 pub. Coleccion de documentos inéditos para la historia de Espana XXIV p. 15 - 78.

(٥١) المصدر السابق ص ١١٧ ـ ٢٢٩.

وتفيد رسالة أخرى من بالرمو[٥٢] بتاريخ ١٢ يناير ١٥٢٣ (بأنه قد عاد إلى طرابلس ذلك الشيخ الذي كان يحكمها عند احتلالها. وقد حفظت له سيادته ومركزه الشخصي، بحيث عاد إلى المدينة سكان أكثر من خمسمائة بيت. وأرسلت بعض الأخشاب والمواد الأخرى اللازمة للمنشآت وهم يأملون ـ عن طريق الشيخ المحبب لدى سكان المدينة ـ في عودة الأمور إلى مجراها العادي، بمرور الزمن).

وفي هذه الأثناء أخذ يتزايد نفوذ القراصنة العثمانيين وتتعاظم سطوتهم على سواحل الشمال الإفريقي.

٤ ـ القراصنة العثمانيون في شمال إفريقيا

كان القراصنة العثمانيون طلائع الامبراطورية العثمانية على سواحل (بوبريا) شمال إفريقية. وقد هيأوا الظرف[٥٣] لاحتلال كل البقاع التي تمتد من الجزائر حتى طرابلس. ويمكننا أن نؤرخ ذلك بنهاية القرن الخامس عشر، بمعنى أنه اعتباراً من نزوح العرب عن الأندلس، بدأ التدخل التركي في غربي حوض البحر الأبيض المتوسط. بل إن مسلمي إفريقية الذين أصبحوا مهددين بتزايد القوة الاسبانية قد بعثوا يستدعون الأتراك إلى ثغورهم وطلبوا نجدة سلطان القسطنطينية، وبدأ حوالي سنة ١٥١٠ قيام العلاقة الدائمة بين السواحل الإفريقية وقراصنة الأتراك الذي تميزوا بالجرأة والإقدام.

---

(٥٢) م. سانودو (يوميات ٣٣ ـ ٦٠٤).

(٥٣) تتوفر حول هذا الموضوع مصادر كثيرة (وببلوغرافيا وافرة، يمكن أن تراجع من أجلها الصفحات ٤١٦ ـ ٤٨١ من كتاب سلفاتوري بونو: قراصنة الشمال الإفريقي. طبعة تورينو ١٩٦٤.

Salvator Bono, I corsari barbareshi, Torino 1964.

وانظر أيضاً العمل الدقيق: قراصنة الشمال الإفريقي من تأليف ستانلي لان بول.

Stanley Lane Poole, The Barbary Corsairs, London - New York 1890 E.

E. Bravetta, Pirati e Corsari, Milano 1932.

وفي سنة ١٥١٢ - وكما أشرنا من قبل - ظهرت أولى الإشارات إلى وجود السفن التركية التي أخذت تهدد طرابلس التي لم يمض على احتلالها من قِبَل الإسبان سوى زمن قليل. وبدأ حينذاك نشاط الإخوة (بربروس)(٥٤).

وطبقاً للروايات المتواترة فإن أحد أئمة جيش محمد الثاني، وكان يسمى يعقوب، قد استقر به المقام في (ميليتينة (Militene (Medilli) قرب سنة ١٤٨٠. ورزق بأربعة أولاد هم عروج وإسحاق والياس وخضر. وأصبح عروج في وقت قصير قرصاناً مرعباً مخيفاً. وكانت حياته مليئة بالمغامرات. وقد أسره فرسان رودس مدة من الزمن، ثم أطلقوا سراحه فقصد جربة، حيث لحق به أخوه خضر المعروف فيما بعد باسم خير الدين بربروس.

وقد أثار عروج كثيراً من القول حوله، وأحاطت به شهرة كبيرة أثناء وجوده بسواحل إفريقيا الشمالية، حيث تطلق عليه المصادر الغربية اسم بربروجسا، وهو الاسم الذي ورثه فيما بعد يخوه خير الدين، ويذكره به المؤرخون الغربيون(٥٥). (Cairedino o Ariadeno Barbarosse).

---

(٥٤) في كتابة موجودة بمسجد خير الدين بالجزائر بتاريخ ١٥٢٠ وردت الإشارة إلى أنه (خير الدين بن الأمير المجاهد في سبيل الدين أبي يوسف يعقوب التركي.

(Revue Africaine, XI, 1867 p. 455 art. (di A Devoulux).

(٥٥) في الوثائق الاسبانية التي ترجع إلى القرن السادس عشر وسم اسم خير الدين بطرق مختلفة (Cayradin, Zayradin, Haradin)

(Hariadeno Barbarossa o Barbaroja)

انظر: مجموعة (الوثائق غير المنشورة من التاريخ الاسباني collection de documentos inéditos pora la histoirie de Espana vol III passim وما يزال الجدل يدور حتى اليوم حول أصل اسم (بربروسا) فبعضهم لا يرى أن هذا الاسم يشير بالفعل إلى لون لحيته الحمراء. ويرى آخرون أن الأصل فيه تركيب لكلمتي (بابا عروج). وقد أوردت المصادر التركية غير المنشورة قصة عروج وإخوته.

(**F. Babinger**, Die Geschiech sschreiber der Asmanen) und ihre werke, Leipzig 1927, p. 78 - 79 - 383.

وثمة ترجمة عربية لوقائع تركية نقلت إلى الفرنسية ونشرها:

Sander-Rang et Denis, fondation de la Régence D'Alger, Paris 1837.

وفي سنة ١٥١٠ وضع الأخوان نفسيهما في خدمة السلطان محمد، سلطان الحفصيين، بتونس. وحصلا على الإذن باستخدام (حلق الوادي) قاعدة لعملياتهما، مع الالتزام بتقديم خمس الغنائم إلى السلطان. ومنذ ذلك الوقت أخذا يجوبان البحار، ويغزوان ويهددان الممتلكات الاسبانية في إفريقيا. وفي سنة ١٥١٤ هاجم عروج بجاية. وفي سنة ١٥١٥ هدد بربروس طرابلس[٥٦]. وفي نفس السنة سجل ظهوره بثلاثة مراكب أمام تونس[٥٧]. وفي عام ١٥١٦ احتلا الجزائر وتولى حكمها عروج (بربروسا).

وفشلت كل محاولات الاسبان في استرجاع الجزائر. وقتل عروج بعد سنتين بواسطة فرقة فرسان اسبانية، غربي تلمسان[٥٨]، فخلفه على الحكم أخوه خير الدين (بربروسا). ووضع نفسه تحت حماية سلطان القسطنطينية، سليم الأول، وحصل على مساعدات بحرية ومتطوعين من الشرق.

وقد سعى خير الدين سنة ١٥٢٥ إلى الاستيلاء على جربة كما ضايق حلق الوادي. وكانت مراكبه العديدة التي كانت تبلغ في بعض الحالات ثمانين سفينة، تغزو سواحل إفريقيا الشمالية، وتعرقل حركة التجارة.

وكان النشاط الكبير الذي أبداه القراصنة الأتراك قد زاد من صعوبة

كما توجد ترجمة اسبانية غير منشورة، تم نقلها إلى الايطالية ونشرها:

Pelaez, Palermo 1887.

أنظر أيضاً:

hammer, Geschichte des osm. Reiches II

p. 125.

(٥٦) سوريتا ج ٢ ـ الفصل العاشر ٩٧. وقد وردت به أول إشارة إلى خير الدين في المصادر الغربية.

(٥٧) م. سانودو (اليوميات الفصل ٢٠. رسالة من باليرمو بتاريخ ١٨ ـ ٥ ـ ١٥١٥ تشير إلى وجود بربروس بطرابلس ورسالة أخرى بتاريخ ٢٩ ـ ٧ ـ ١٥١٥ تشير إلى وجوده بتونس.

(٥٨) م. سانودو (اليوميات) حيث تشير رسائل من (فلّادوليد) في نوفمبر ١٥١٧ إلى احتلال بربروسا لتلمسان. وفي رسالتين من باليرمو بتاريخ ٣١ ـ ٥ ـ ١٥١٨ و ٥ ـ ٦ ـ ١٥١٨ إشارة إلى مقتل بربروسا.

الوضع وتعقيده بالنسبة إلى الإسبان في إفريقية. وكـانت طرابلس نفسهـا تعاني أوضاعاً سيئة. ففي سنة ١٥٢٦ كان الشيخ الذي وثق فيه الإسبان قد فـر من المدينة وانضم إلى الثوار بتاجـوراء[٥٩]. وساد الخـوف من هجوم متـوقع يقـوم به الأسطول التركي. وترددت في أكثر من مـرة شائعات خلال الفـترة الواقعـة بين ١٥١٧ ـ ١٥٢٩ عن إرسال حملات ضد الإسبان في طرابلس[٦٠].

٥ ـ التنازل عن طرابلس إلى فرسان مالطا

النظام المعروف الآن باسم هيئة فرسان مالطا[٦١]، كان قد تـطور عن هيئة (أمـالفيتانيـة Amalfitana) دينية كـانت تتولى ـ قبـل الحروب الصليبيـة ـ رعايـة أحد الملاجىء في القدس، ومساعدة المعوزين، خاصة الحجاج الذين يقصـدون الأراضي المقدسة عند المسيحيين.

وقد تحولت الهيئة في زمن الحروب الصليبيـة إلى منظمـة دينية فـرسانيـة وضعت تحت حماية القديس (يوحنا باتيسيا) وأطلق على أعضائها اسم (اسبتـارية Ospedalieri) نسبـة إلى أعمال الاستشفـاء التي يقـدمـونها، كـما عـرفـوا بـاسم اليوحانيين في بعض الحالات النادرة.

ومـع أن القيام عـلى شؤون المستشفيات ظـل هـو الـطابـع الغـالب عـلى نشاطاتهم، غير أنه كانت للفرسان مهام عسكرية. وقـد ساهمـوا في الدفـاع عن الأراضي المقدسة ضد المسلمين. وقد كانت لهم أملاك كثيرة واسعـة في فلسطين وسوريا وكيليكية. وعندما طردهم صـلاح الدين سنـة ١١٨٧ من القدس، مـع بقية الصليبيين، استقـروا في عكا (القـديس يوحنـا داكري) حتى سنـة ١٢٩١، وطردوا أيضاً من آخر هذه الأجزاء من الأراضي المقدسة، فانسحبوا إلى قبرص،

---

(٥٩) م. سانودو (اليوميات) رسالة بتاريخ ٢٦ ـ ٣ ـ ١٥٢٦ وردت الإشارة إلى فرار شيخ طرابلس وانضمامه إلى الثوار بتاجوراء.

(٦٠) م. سانودو (اليوميات) الفصل ٢٤ ـ ٥٦٧ إلى ١١١.

(٦١) بخصوص فرسان مالطا انظر المقال الذي كتبه

(M. Rava, I Cavalieri di Malta a Tripoli in **L'Oltremare** giugno 1929) p. 253 - 257.

واحتلوا حوالي سنة ١٣٠٦ جزيرة رودس والجزر المجاورة لها، وأقاموا دولة حقيقية تحت حماية البابا وأمراء المسيحية.

وبعد قرنين، أي في ٢٦ ديسمبر ١٥٢٢ دخل السلطان سليمان الأول رودس التي دافع عنها الفرسان ببسالة، بعد حصار عنيف، دام ستة أشهر. وترك الفرسان هذه الجزيرة الجميلة والتجأوا إلى شيفتافيكيا (Civitavecchia) وتم تعيين مركز المنظمة في فيتربو (Viterbo) وظلت فرقة الأسطول في شيفتافيكيا حيث كانت تقوم بعمليات جريئة في ملاحقة القراصنة المسلمين.

ولم يكن هذا الركود الذي اتسمت به أعمال المنظمة، أثناء إقامتها بإيطاليا، ليتلاءم مع تاريخها الطويل الحافل بالصراع ضد أعداء الصليب. وكان الفرسان يرغبون في استعادة رودس أو الاستقرار في أية جزيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط حيث يمكنهم أن يستأنفوا نشاطهم الصليبي. وفي أكتوبر ١٥٢٤ أرسل المرشد الأكبر إلى شارل الخامس وفداً يطلب منحهم جزيرة مالطا. وقد أبدى الامبراطور ترحيبه بهذا الطلب، واشترط أن تتولى المنظمة مهمة الدفاع عن قلعة طرابلس ومدينتها. وقد أرسل المرشد ثمانية من الفرسان لزيارة جزيرة مالطا وغوزو وطرابلس، وقدموا تقريراً عن أحوال القلعة والسور وميناء طرابلس[٦٢]. وذكر المبعوثون الثمانية أن المدينة تقع في مكان صحي، ويحيط البحر بثلثي مساحتها، أما الثلث الباقي فيحيط به سور دائري طوله ٣٧٢٨ خطوة. وأن ثمة مسافة من السور تبلغ حوالي مئتي خطوة، قد لحقها الدمار، يقصد الاستفادة من موادها في تدعيم تحصينات القلعة. أما الأسوار فيبلغ ارتفاعها قصبتين ونصفاً، وهي مهددة في أكثر من موضع بالانهيار والخراب. وقد جرت حمايتها بواسطة أسوار إضافية لا تصمد للمدفعية، وهي بلا أبراج وخنادقها ضيقة وليست عميقة.

---

(٦٢) (Bosio: Istoria della S. Religione Gerosolimitana).

أنظر أيضاً أعمال (أوريجما) التي سبق ذكرها.

كما تابعت في كثير من النقاط بحثي الذي نشر باسم:

Il dominio dei Cavalieri di Malta a Tripoli in Archivum melitense VI Malta 1924.

أما المنازل والمنشآت (فمن المؤكد أنها كانت كلها مدمرة نتيجة الهجوم الواقع على المدينة ١٥١٠). وأما القلعة فتكاد تكون مربعة الشكل، وذات برجين أو ركنين حادين يواجهان المدينة. وهي في حاجة إلى الإصلاح والترسيم سواء فيما يتصل بالأساسات التي تهرت وتآكلت بتأثير البحر، أو فيما يتصل بتلبيس الأسوار المكونة من تربة رملية. ويعتقد أنها لن تصمد للمدفعية العنيفة، يضاف إلى ذلك أن القلعة والمدينة تخضعان لتحكم هضبة أو جبل صغير يقع إلى الجانب الجنوبي الشرقي. أما الميناء فهو صغير وغير مأمون وتهدده الرياح الشرقية وتقيه بعض الجزر الصغيرة من الجهة الغربية وطرابلس مزودة بالمياه. وثمة بئر قرب القلعة من الجهة الشرقية. وأن السكان قد انخفضوا إلى ستين عائلة عربية، وهم يملكون خمسة وعشرين حصاناً للدفاع عن المدينة، والقيام بهجمات على الأعداء. وهم موالون للإسبان. أما الدخل فيتمثل في نسبة العشرة بالمئة التي تجبيها الجمارك على البضائع وضريبة الرق. وهي (دوكاتو) لكل رأس سواء في الدخول أو الخروج.

وكان على نائب الملك بصقلية (دون أتّوري بنياتللي Don Ettore Pignatelli) أن يدير وسائل المحافظة على طرابلس والقيام بشؤونها. وكان يتلقى من الإمبراطور مبلغ اثني عشر ألف سكودو سنوياً للنفقات العادية. أما العتاد والنفقات الإضافية الطارئة فكان يتولاها الإمبراطور. وكانت بالقلعة مدافع كثيرة.

وقد ترددت المنظمة في قبول العرض بإلحاق طرابلس ضمن سيطرتها، الأمر الذي كان شرطاً ثقيلاً مقروناً بمنح مالطا[٦٣]. وقد نصح المبعوثون الذين زاروا طرابلس سنة ١٥٢٤ المرشد الأكبر بعدم قبول هذه المهمة الثقيلة، ومع ذلك فقد كان لا بد من الإذعان لإرادة الإمبراطور، وعدم إضاعة الفرصة التي تهيىء للمنظمة تنظيماً يتلاءم مع تقاليدها وأهدافها. وقد استغرقت المفاوضات

---

(٦٣) م. سانودو (اليوميات) ٥٣ ـ ٣٥٩ حيث ينقل رسالة بتاريخ ١٠ ـ ٦ ـ ١٥٣٠ يشير فيها إلى تردد فرسان مالطا في قبول طرابلس وعدم رغبتهم فيها بسبب النفقات وبعد المسافة.

مـدة طـويلة حتى أمكن الاتفـاق النهـائي. وذلـك لتـوالي بعض الأحـداث التي أذهلت شارل الخامس، وصرفتـه عن التفكير في طـرابلس، وهي حرب إيـطاليا وروما سنة ١٥٢٧. وأخـيراً وقع الإمـبراطـور في ٢٤ مـارس ١٥٣٠ مـرسـوم التنازل عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا في (كاستيل فرانكو بولونييزي Cas-telfranco Bolognese).

وقد ورد في هذا المرسوم ما يلي:

(رغبة منا في تـدعيم الديـر والمنظمـة والهيئة الـدينية لمستشفيـات القديس يوحنا وتوفير إمكانية الاستقرار لها.

واستناداً إلى رغبتنا في أن ينال المرشد الأكبر الجليل المبجل ورؤسـاء الهيئة وقادتها وفرسانها مقراً ثابتاً ومركزاً محدداً...

وانطلاقاً من محبتنا ومن العطف الذي نحمله لهذه الهيئة، فقد قـررنا عن طيب خاطر التنازل للمرشد الأكبر والمنظمة عن مقـر ثابت دائم. ويعتـبر مرسـومنا هذا ساري المفعول على جميع العهود التـالية لنـا، على ورثتنـا وجميع خلفـائنا في مملكتنا. ونحن نتناول ونمنح بكامـل الإرادة الحرة المـرشد الأكـبر والدين والمـنظمة المعروفة باسم القديس يوحنا المقدسي إقطاعاً نبيلاً دائماً حراً مشمـولاً بالإعفـاء كلاً من المدينة والقلعة والجزر التابعة إلينا في طـرابلس ومالـطا وغوزو مـع جميع البقاع التابعة لها.

وإقـراراً منهم بإقـطاعنـا، عليهم أن يقـدمـوا صقـراً في كـل عـام، عنـد الاحتفال بعيد جميع القديسين...)[٦٤].

---

(٦٤) بوزيو: في كتابه فرسان القـديس يوحنـا المشار إليـه (ج ٣ ـ ٨٠) ويوجـد أصل هـذا المرسـوم باللغة الـلاتينية بمـالطا (Palazzo Magistrale) وقـد نقلت منه صـورة طبق الأصل في الجـدول الثاني من بحثي:

Storia della Marina dell Ordine di S. Giovanni di Gerasaleumue, di Rodi e di Malta. Roma 1916.

وفي يونيو ١٥٣٠ كان مندوبو المرشد الأكبر الذي انتقل في هذه الأثناء إلى (نيس) ثم إلى (سيراكوزة) قد استلموا السيطرة على مالطا، واتجهوا الى طرابلس حيث استلموا من (فرانشيسكو فلاسكيز F. Velasquez) نائب الحاكم، كشفاً بالمدفعية التي كانوا ملزمين بإرجاعها إلى الإمبراطور. وسرعان ما وصلت إلى طرابلس سفينتان تحملان العتاد والمؤونة وقافلة من الفرسان وفرقة من الجنود، تحت قيادة غاسباري دي سانغوسا (Gaspare de Sanguessa) أول حاكم توفده المنظمة إلى طرابلس[٦٥].

فإذا أخذنا بعين الاعتبار المعنى التاريخي والنتائج المترتبة على هذه السيطرة الإسبانية، أدركنا أنها كانت مجرد حدث ضمن الدور الذي مثلته إسبانيا، بحظ قليل من النجاح، في شمال إفريقيا خلال القرن السادس عشر.

إن إسبانيا ـ كما لاحظنا في بداية هذه الدراسة كانت مدفوعة بطموحها إلى التفوق على كافة الدول والانفراد بالسيادة على البحر الأبيض المتوسط. كما كانت مدفوعة بالحركات الدينية، في توسعها واحتلالها للمراكز الرئيسية من سواحل الشمال الإفريقي. ولكن مشاكل أوروبا والقوى والوسائل التي استنفدتها اكتشافات العالم الجديد، قد حالت دون تأكيد هذه السيطرة بشكل دائم. وإذا تجاوزنا عن بعض المشاكل والصعوبات الأخرى التي استنفدت الطاقات الإسبانية، فلا يبدو لنا أنه كانت لأسبانيا ولا لحكامها خطة استعمارية منظمة مضمونة. كانوا يفكرون في إقامة سلسلة من الحاميات (برسيدويوس Presidios) على الساحل. دون التوغل في الداخل.

وقد فكر الكاردينال خمينس (Ximenes) في ١٥٠٩ والملك فرديناند في سنة ١٥١٢ في إرسال فرسان من الهيئات الدينية العسكرية في (سانتياغو، وكلاترافا، والقنطرة) إلى بجاية ووهران وطرابلس وذلك للقيام بدور مماثل لفرسان رودس.

---

(٦٥) يوزيو: ج ٣ ص ٨٤.

وقد جاء في رسالة الملك فرديناند إلى (بدرو دي نافارو) في مايو ١٥١٠ تأييده لـوجهة النـظر القائلة بـإسكان المسيحيـين في وهران وبجـاية وطـرابلس. أخذاً بـالفكرة القـائلة باستحـالة الاحتفـاظ بها مـدة طـويلة، بـالإبقـاء عـلى سكـانها العرب[٦٦].

ويمكن أن يقـال إن ذكـر الاحتـلال الإسبـاني لـطرابلس ظـل مقـرونـاً أو مرتبطاً بصفة عامة بإعادة تحصين القلعة وبنائها.

أمـا دواخل طرابلـس فلم تطأهـا أقدامهم أبـداً إلا في حمـلات قصـيرة موجهة ضد القرى الساحلية القريبة من طرابلس.

٦ ـ حكم فرسان مالطا في طرابلس ١٥٣٠ ـ ١٥٥١[٦٧]

إن مسؤولية النهوض بأعباء قلعة هامة، والتهديد المستمر من الـبر والبحر والأوضـاع القلقـة للمنظمـة التي لم تنظم شؤونها في مقـرها الجـديـد، بمـالـطا، وبعض الانقسامات الداخلية بين الفرسـان أنفسهم، كل هـذه الأسباب جعلت مركز الحاكم في طرابلس دقيقاً حرجـاً. وقد أسنـد هذا المنصب في الغـالب إلى شخصيات من ذوي الشأن والشجـاعة. وقـد شغل منصب الحـاكم مرتـين (فرا أوريليو بوتيجلا Fra Aurelio Bottigella) وهو قائد بحري جريء. كـما شغل منصب الحـاكم مدة ثـلاث سنوات (١٥٤٦ ـ ١٥٤٩ م) (فـرا جيـوفـاني لافـاليتي Giovanni La Valette) وقد أمسك بزمام الأمور بطريقة حازمة. وكان مـوضع تقدير. كما كان الزمن يدخر له مستقبلاً رفيعاً.

وكان إلى جانب الحاكم، في الغالب، نائب له وفـارس يشغل منصب أمـين الخـزانة، ويهتم بـإدارة البنود المـالية التي لم تكن تتكـافأ أبـداً مـع أهميـة أعـمال

(٦٦) بردول بمقاله المشار إليه في المجلة الإفريقية ١٩٢٨ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ سوريتا في مصدره المشار إليه، ج ٢ الكتاب التاسع، الفصل ٤٩.

(٦٧) أنظر:

I Cavalieri Geroslimitani a Tripoli negli anni 1530 - 1551 dall'opera di Giacomo Bosio.. **Istoria.. parte III a cura di S. Aurigemma, Intra 1937.**

التحصين وضرورتها. كما يشرف على حركة الجمرك الذي اقتصر على بعض الاستيرادات والتصديرات الضئيلة، فآل دخله بالتالي إلى شيء محدود بسيط. وكان يقيم في القلعة بصفة عادية خمسون شخصاً من الفرسان، ومائتان تقريباً من الجنود، منهم اثنا عشر مدفعياً. وقد تم تجنيدهم في مالطا وإيطاليا.

أما المدينة فقد كانت تتولاها حامية من الأهالي لا يزيد عددها على مئة بين فرسان ومشاة. وقد نقص عدد السكان كما يبدو إلى ثمانين أسرة.

ولقد تعرضت طرابلس إلى متاعب كبيرة من جراء الهجوم الذي وقع سنة ١٥١٠ - كما سبق أن أشرنا - وقد هدم جزء من السور لاستخدامه في تدعيم القلعة التي كانت تبدو في حالة لا تمكنها من الصمود أو مواجهة أي هجوم قوي عنيف. وقد أطلق على الركنين أو البرجين اللذين يقعان عند طرفي الجانب المواجه للشرق اسم القديس جورج (للركن المواجه للمدينة) واسم القديس جاكومو (للركن المواجه للبحر) بينما أطلق على الساحة الواقعة بينهما اسم القديسة بربرا.

أما داخل القصر فقد كان يضم بيت الحاكم والفرسان والمخازن، كما كانت هناك - بلا ريب - كنيسة يغلب على الظن أنها مسماة باسم القديس ليوناردو. وكان في خدمتها أربعة من القساوسة التابعين للمنظمة. وكان هناك باب رئيسي إلى جانب برج سان جورجو يصل القلعة بالمدينة(٦٨).

وقد توفرت للميناء حماية طيبة بوجود البرج المسمى (سان بيترو) ويقوم قرب الجمرك، عند نقطة التقاء السور الشمالي الشرقي بالسور الشمالي

(٦٨) **Rossi,** Il dominio dei cavalieri di Malta in archivum melitense VI p. 46 - 50

Ramanelli, Scavi e scoperte nella città di Tripoli in Not. Arch. Min. Colonie III 1932 p. 110 - 111.

Aurigemma, Il Castello ecc, p. 543.

Guidi, Il restauro del Castello di Tripoli negli anni XII - XIII con una breve descrizione del fortilizio e delle opere d'arte che vi sono custodite, Tripoli 1935.

الغربي. كما كان هناك حصن آخر يسمى (كاستيلاجو Castellejo) يحمي مدخل الميناء عند أقصى أطراف الجزر[٦٩].

إن سلطة حاكم طرابلس (كما هو الشأن أيضاً في العهد الإسباني) لم تكن لتمتد إلى أبعد من نطاق المدينة. كانت بعض القرى الواقعة على الساحل الغربي مثل جنزور والماية وزواغة (طرابلس القديمة) تدفع خلال الأعوام الأولى للاحتلال الضريبة، بطريقة غير منتظمة.

وفي تاجوراء التي تقع على مسافة اثني عشر كيلومتراً شرقي طرابلس، تركزت ـ كما أوضحنا ـ مقاومة العرب ومقاومة القراصنة الأتراك الذين كانوا يتطلعون إلى استرجاع طرابلس، ويثيرون القلاقل والمضايقات في وجه الحامية المكونة من الفرسان.

وفي ذلك الوقت أصبح خير الدين (بربروسّا) سيد الجزائر، وتزايدت قوته، وصار فيما بعد قائداً عاماً لكافة الأساطيل العثمانية. وكان يعترض في جرأة وإقدام أساطيل البندقية والإمبراطورية. وكان يقوم بغارات متوالية على السواحل الإيطالية والإسبانية، ويزود بالسلاح والجنود نائبه الذي يسمى هو الآخر خير الدين، ويحمل في خيلاء لقب ملك تاجوراء. وقد حول بلدة تاجوراء إلى قلعة حصينة. وأقام بها برجاً لحماية ثغرها الصغير الذي كانت تؤمه وترسو به سفن القراصنة[٧٠].

وكان سلطان تونس مولاي الحسن الذي تولى العرش سنة ١٥٢٦ يدعي حقوقاً شرعية للسيادة على طرابلس الغرب. وكان على علاقة حسنة مع منظمة فرسان مالطا. وقد أبدى عدة محاولات لطرد الأتراك من تاجوراء، وتسليمها إلى

---

(٦٩) أنظر دراسات أوريجما عن القلعة وتحصينات طرابلس.

(٧٠) م. سانودو (اليوميات) ٥٥ ـ ٥٠٨.
أنظر أيضاً الوثائق الملحقة بكتابي (طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا ص ٨١ ـ ٨٢) قدم خليفة التلسي خلاصة لهذه الوثائق في آخر الكتاب المعرب.

الفرسان، حكام طرابلس[71]. وقد قاد أوريليو بوتيجلا Aurelio Bottigella الذي عهد إليه بحكم طرابلس سنة ١٥٣٥، حملة ناجحة على تاجوراء. أما خلفه (غارسيا كورتس Garzia Cortès) فقد اصطحب معه، من مالطا، سنة ١٥٣٣ مهندس المنظمة (المايسترو بشينو Picino) وهو من فلورنسا، وكان مكلفاً بدراسة التحصينات الضرورية العاجلة التي تحتاج إليها القلعة. وقد تم فعلاً تدعيم الأوضاع الدفاعية في القلعة، خلال الأعوام التالية، في عهد الحاكم شكلنج Schiling[72].

وفي هذه الأثناء مات في مالطا المرشد الأكبر (ليزلي أدامو I'Isle Adamo) وأصبحت أوضاع طرابلس مهددة بالخطر، بعدما احتل خير الدين (بربروسا) تونس، في شهر يونيو في العام التالي، وأرسلت جماعة من الفرسان إلى طرابلس لدعم حاميتها، في ديسمبر ١٥٣٤ م[73].

وكان الخطر من وجود (بربروسا) في تونس واضحاً جداً حتى وجد شارل الخامس نفسه مضطراً إلى أن يقود بنفسه حملة قوية، على تلك القلعة المنيعة، وقد شاركت في الحملة منظمة فرسان مالطا بإرسال الرجال والسلاح. وهزم (بربروسا) وطرد من تونس. وأعيد إلى العرش السلطان الحفصي مولاي الحسن (يوليو ١٥٣٥ م).

---

(٧١) م. سانودو (اليوميات) ٤٦ - ٩٩ - ٢٣٨ - ٦٢٢ الفصل ٥٧ - ٤٣٨ ثمة إشارات كثيرة مختلفة في هذه اليومات الثمينة، يبدو أنها تؤكد أن التحالف بين نظام فرسان مالطا وسلطان تونس كان تحالفاً فعالاً خاصة في عام ١٥٢٢. وقد قامت قرب شهر يونيو من ذلك العام قوات تونسية بمحاصرة تاجوراء. وقد رفض السكان العودة إلى حكم الأتراك. وقد ذكروا للموفد التونسي أنهم قد أعلنوا ولاءهم للسلطان التركي وأنهم يفضلون أن يمزقوا إرباً إرباً على العودة تحت عرش تونس. وفي نهاية تلك السنة غادر الأتراك تاجوراء إلى جربة ثم عادت تاجوراء في الأشهر الأولى من عام ١٥٣٣ إلى سيطرة (خير الدين التركي) اليوميات ٥٨ - ٥٣٣.

(٧٢) بوزيو ج ٣ ص ١٢٤ - أوريجما (القلعة.. ص ٥٥٣) - روسي: طرابلس تحت حكم الإسبان - التذييل - الوثيقة رقم ٣.

(٧٣) روسي: سيادة فرسان مالطا على طرابلس... في: Arch. Melit ج ٦ ص ٤٨ و٦٣ - ٦٤. وكذلك تذييل كتابه (طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا الوثيقة الرابعة).

أما خير الدين، صاحب تاجوراء الذي يسانده ويعاضده المغامرون من القرصان الذين يتدفقون عليه من كل مكان، وكان بعضهم مرسلاً إليه من (بربروسا) نفسه، فقد كان يعمل على تشديد الضغط على طرابلس، واستطاع أن يشيد برجاً سمي برج (القيادة أو القائدة alqaide) على مسافة ميل من القلعة.

كان الحاكم آنذاك، فرا جورج شكلنج. وكان أحد قادة البحرية الشجعان. وقد حصل على نجدة من مالطا، قامت في صيف ١٥٣٦ م تحت قيادة بوتيجلا بهجوم على البرج، واستولت عليه وهزمت خير الدين صاحب تاجوراء. ويحتمل أن يكون قد قتل في تلك الأثناء، ومن المؤكد أنه لم يظهر له ذكر منذ ذلك الوقت[٧٤]. وقد ظهر في مكانه حوالي سنة ١٥٣٩ م في تاجوراء مراد آغا، زعيماً وقائداً للثوار، ويسميه كتاب العصر من الغربيين Moratago o Muradaga.

أما الأخبار التي رددها المؤرخون العرب عن وصوله فقد كانت حافلة بالخيال. وهي تقص علينا أنه بعد احتلال الإسبان لطرابلس سنة ١٥١٠ م، قام وفد من تاجوراء بالسفر عن طريق البحر إلى القسطنطينية سنة ٩٢٦ هـ (١٥٢٩ ـ ١٥٣٠ م) طلباً لنجدة السلطان ومساعدته. وعندما وصل الوفد إلى القسطنطينية تعجب الأتراك من مسلك أعضائه، فسألوهم عن المكان الذي قدموا منه، فأجابوا أنهم من طرابلس الغرب، وأنهم قدموا القسطنطينية التماساً لمساعدة السلطان. وقد استقبلهم السلطان وأصغى إلى مطالبهم، مستخدماً في الترجمة بينه وبينهم المسيحي الأصل (أولوج)[٧٥] (علج) مراد آغا الذي كان

---

(٧٤) أنظر الوثيقة الرابعة والوثيقة الخامسة في ذيل كتاب روسي عن (طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا). تعريب خليفة محمد التليسي.

(٧٥) يقول (نيكولودي نيكولاي) الذي قابل مراد آغا أثناء حصار طرابلس عام ١٥٥١ وتحدث إليه (إنه خصي. وأصله من راقوزة وإنه كثير الخبرة بفنون الحرب).

Nicolò de Nicolai, Navigationi et Viaggi - Venezia 1580 P. 22.

وبخصوص حياة مراد آغا انظر:

يعرف اللغة العربية. وقد أعاد السلطان الوفد صحبة مراد آغا نفسه الذي حل بطرابلس واعترف به زعيماً أو رئيساً على سكان غريان سنة ٩٥٢ هـ (١٥٤٥ - ١٥٤٦ م)[٧٦].

ويخبرنا (بوزيو)[٧٧] أنه في سنة ١٥٣٩ م أغار (بربروسا) على المياه الإيطالية. وأن مراد آغا نائبه (كاهيته) قد استحثه وألح عليه في القيام بالاستيلاء على طرابلس.

وفي سنة ١٥٣٩، عقب المرة الثانية التي تولى فيها أوريليو بوتيجلا الحكم، جاء إلى طرابلس (فرا هرناندو دي براكامونتي Hernando de Bracamonte) وكان يشغل منصب المرشد الأكبر في ذلك الوقت، (جيوفاني دي هوميديس Giovanni de Homedes) الذي أخذ يسعى لدى شارل الخامس ويلح على أهمية طرابلس وضرورة الاهتمام بأوضاعها الدفاعية الضعيفة وطلب من الإمبراطور أن يختار بين أمرين (إما أن يساعد في تسوير طرابلس من جميع الجهات بأسوار قوية حصينة حديثة، ويحيطها بأبراج ملكية منيعة وخنادق حسنة، وإما أن يأمر جلالته بأهون الأضرار، وهو نسف القلعة بالألغام وتخريب الميناء بردمه، وإغراق بعض المراكب المشحونة بالصخور والرمال عند مدخله)[٧٨].

إن المكاتبات المتبادلة بين سلطان تونس الخاضع لحماية الإسبان، وبين (دون فرّانتي غونزاغا Don Ferrante Gonzaga) نائب الملك بصقلية، تلقي أضواء على الأوضاع العامة بطرابلس، وبقاعها الأخرى، في تلك الأعوام، فهو

R. Bartoccini, La Moschea di Murad Agà in Tagiura in Architetture ed Arti Decorative, III - 1924.

S. Aurigemma, Murad Agà in Riv. della Colonie Itatiane 1930 p. 853 - 873

(٧٦) ترددت هذه الرواية لدى الرحالة المغربي (العيّاشي) فاس ١٣١٦ ص ٦٦ - ٦٧ وذكرها أيضاً ابن غلبون ص ٦٧ الطبعة الإيطالية، ورددها أيضاً النائب ص ١٨٥.

(٧٧) بوزيو (ج ٣ ص ١٢٨).

(٧٨) بوزيو (ج ٣ ص ١٨٨).

يرد على (غونزاغا) الذي يوصيه بإرسال قوة لتحرير جربة وتاجوراء (بتاريخ ٢١ نوفمبر) (أن الشوكة في العين تؤلم أكثر من الشوكة في القدم).

لقد استولى الأتراك على بعض أراضيه، وهي في نظره أهم من تاجوراء. وحين تلقى تحريضاً مماثلاً رد عليه السلطان بالقول الذي رد به في سنة ١٥٤١ مؤكداً أن اهتمامه منصرف إلى تحرير القيروان، وأنه إذا استرجع هذه الأراضي فسيسهل عليه الاستيلاء على تاجوراء.

وفي العام التالي أبلغ سلطان تونس غوزانغا بأنه قد وصلت مراكب تركية إلى سواحل الشمال الإفريقي، وأنها تركت قسماً من ركابها بتاجوراء. أما الباقي فيبدو أنه يتجه إلى المهدية. ويبدو أن الأتراك قد وضعوا خطة واسعة كبيرة يرمون من ورائها إلى احتلال ساحل شمال إفريقيا بأسره[٧٩].

وفي سنة ١٥٣٧ وسنة ١٥٣٩ جرت بين (بربروسا) وبين الإمبراطورية مفاوضات تدخل في نطاق المحاولة التي تهدف إلى فصل (بربروسا) عن السلطان سليمان. وقد طلب بربروسا طرابلس وتونس وبجاية. ولما كان من المتعذر تسليمه تونس فقد وعد ببونة وبجاية، وحتى طرابلس إذا كانت المنظمة مستعدة للتنازل عنها[٨٠].

---

(٧٩) Lettre inédite di Muley - Hassen Re di Tunisi e Ferrante Gonzaga Viveré di Sicilia 1537 - 1547 publicate de Federico Adorici e illustrate - da Michele Amari - Modena 1865 p. 44 - 45 - 62 - 65.

Gaetano Capasso, Il Coverno di Don Ferrante Ganzaga in Sicilia dal 1535 - 1543 in (Arch. Storico Siciliano XXXI 1906 p. 37 - 39.

[illegible]nchicourt, (Etudes Kairouanaises) in Revue Tunisienne 1932 p. 327.

(٨٠) **Carlo Capasso,** Barbarossa e Carlo V in Riv. Stor. ital. serie IV, II 1932 p. 169 - 209 - 304 - 348.

ومن جهة أخرى يبدو أن نائب الملك بصقلية دون فرانتي قونزاغا قد أوفد في سنة ١٥٤٠ سفيراً إلى ملك إسبانيا مقترحاً عليه العمل على احتلال تاجوراء وجربة بقصد إجلاء الأتراك عن سواحل المشرق ثم يتجه بعد ذلك إلى احتلال (قليبيا) على الساحل التونسي ثم القيروان بالتعاون مع ملك تونس (برودل المصدر المذكور ص ٤١١).

وفي عهد ولاية فرنانـدو دي براكـومنتي نجد ـ للمـرة الأولى ـ الإشارة إلى وجود أحد المسيحيين المعتنقين للإسلام، ويـدعى مراد آغـا (Moratagа)، وهو يقوم بمساعدة بربروسا بتضييق الحصار على المدينة[٨١]، ويـزحف بخطوط جبهتـه إلى مسافة ثلاثة أميال من القلعة، ولذا فقد كـانت تجري أعـمال حفر الخنـادق، وتعليـة الحصن (Castellejo) لتأمـين الدفـاع عن الميناء. ومن أجـل تحقيق هـذه الغايـة أرسل إلى طرابلس أكثر من مرة، قائد عام البحريـة فرا جـورج شكلنج (G. Schiling) في ديسمـبر ١٥٤٣ وابـريـل ١٥٤٣[٨٢]. وقـد رفض سكـان السواحل الغربية الذين كانوا خاضعين في البداية لطرابلس، دفع الضريبة.

وفي عهد (كريستوفانو دي سوليس فرفان Cristofano de Solis Farfàn) سنـة ١٥٤٥، تقررت الحملة ضـد المايـة قرب جنـزور. وتوجـه حينـذاك عـلى رأس أربعة مراكب تابعة للمنظمة (فراسنيورينو قتّنارا Signorino Gattinara).

وفي إحـدى الليـالي الأولى من شهـر أغسـطس خـرج حـوالي ألف من المسلحين، قسم منهم عن طريق الـبر والآخر عن طـريق البحر، وتجمعـوا قـرب

---

(٨١) أما أن مراد آغا كان يعمل تحت قيادة بـربروسـا فذلـك أمر تؤكـده الأخبار التي أوردنـاها فيـما تقدم. ويذكر المؤرخ التركي حـاجي خليفة في كتـابه (تحفـة الكبار) أن مـراد آغا كـان صحبة بربروسا في ١٥٣٥ غداة هزيمته في تونس. أنظر:

L. Bonelli, in Centenario della nascita de Michele Amari, Palermo 1910 vol II p. 348 - 349.

حيث نشر رسـالة مخـطوطة لـبربروسـا بتـاريـخ ١٥٤٣ يحتـج فيهـا عـلى قيـام سفن البنـدقيـة باستخلاص بعض الأسرى المسيحيين ممّن كانوا على ظهر سفينتين قـادمتين من الشـمال الإفريقي بقيادة مراد آغا. وكان مراد آغا قد وصل إلى تاجوراء في ١٥٤٢ بثلاث سفن محملة بالأتراك.

(٨٢) روسي: طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا، الوثيقتان السابعة والثامنة بذيل الكتاب. ويقول بوزيو (ج ٣ ص ١٢٦) أن حاكم طـرابلس فراهـرنانـدو دي براكـومنتي قد أبلغ مـالطا بوصول مراد آغا إلى تـاجوراء في مستهـل خريـف سنـة ١٥٤٢ موفـداً من بربـروسا بسفينتـين كبيرتين مسلحتين تحملان ثلاثمئة جندي تركي مكلفـاً بدعم الثـورة على سلطان تـونس والعمل بقدر الإمكان على الاستيلاء على مدينة طرابلس وقلعتها.

وبخصوص التضارب في تواريخ وجود مراد آغا بتاجوراء ووصوله إليها انظر:

Aurigemma, I Cavalieri gerosolimitani a Tripoli negli anni 1530 - 1551 Intra 1937 p.94.

القـرية، ولكن سـوء تصرف ضارب الـطبل الـذي أعطى إشـارة الهجـوم قبـل موعدها كان سبباً في إخفاق المبـاغتة. ومـع ذلك فقـد كانت الغنـائم قيمة، وأسر ٤٢٥ أسيراً[٨٣]. وقد قاد (لافاليتي La Valette) الـذي حكم طرابلس من سنـة ١٥٤٦ إلى ١٩٤٩ عدة حملات متكررة على مراد آغا. ووسع المجال أمـام المدينـة المحاصرة بإبعاد نطاق الحصار عنها. كما قاد في سنة ١٥٤٦ حملة مفاجئة خرجت أثنـاء الليل للهجـوم على تـاجوراء، عن طـريق البر، قـوامهـا جنـود مسلحـون بالقرابينات، وتدعمها سفينتان قامتا بـإنزال بعض المـدافعين الـذين توغلوا حتى البرج الذي يحمي الميناء الصغير بتاجوراء. فأشعلوا النار في أحـــد مراكب مراد آغا. وعندمـا طلع النهـار لاحقهم مـراد آغا في طـريق عودتهم إلى طـرابلس. وجرت معركة بين الفـريقين أسر فيهـا الفارس (مـارزيليا Marziglia)[٨٤]. وقـد تزايد القلق بخصوص الدفاع عن طرابلس، وتوجه المرشد الأكبر بطلب المعـونة من البـابا أيضـاً. وأرسل إلى رومـا في ٨ ينايـر ١٥٤٧ رئيس دير لـومبارديـا (فـرا كارلو سفورزا Fra Carlo Sforza) لكي يتولى نقـل الطلب والتـذكير بـالأوضاع الحرجة التي تواجهها المدينة.

وقد يكون من المناسب أن نورد هنا النص الكامل للتعليمات التي صدرت إلى المبعوث:

(تعليماتنا إليكم أيها المتدين الجليل اللامع فراكارلو سفـورزا عن القضايـا التي تتناولونها بالبحث مع صاحب القداسة عـن قضية طرابلس.

أولاً - قبلوا قدمي صاحب القداسة فور وصولكم إلى روما، وبلغوه نيـابةً عنا، رغبتنا في خدمته كأبناء حقيقيين وخدام مطيعين. وقدموا إليه الرسـالة التي

---

(٨٣) بوزيو ج ٣ ص ٢٣٩.

(٨٤) بوزيو ج ٣ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

أوريجا: (مراد آغا) مجلة وزارة المستعمرات ص ٨٥٧ - ٨٥٨، أنـظر أيضاً الـوثيقة العـاشرة الملحقة بكتاب رومي عن طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا. حيث تتحدث الوثيقـة المذكورة عن إرسال قائد السفن فرا هرناندو في يوليو ١٥٤٦ إلى تاجوراء للاستيلاء على سفينة مراد آغا.

بعثناها باعتمادكم، وذكروه كيف أنه منذ أن منح قداسته جزر مالطا وقوزو وقلعة طرابلس إلى المنظمة، ونحن نبدي اهتماماً دائماً بتدعيم هـذه القلعة وتـزويدهـا بالجنود وكافة الأشياء الضرورية، متكبدين في ذلك نفقات باهظة وإرهاقـاً كبيراً للمنظمة، وكما هو معلوم لدى قداستـه فإنـه منذ أربعـة أو خمسة أعـوام[٨٥]، قد جاء إلى هنا التركي مراد آغا، وهو من أتباع بربروسا وقد أعلن نفسه ملكـاً على تاجوراء. وهي أرض قريبة جداً من قلعة طرابلس. وقد استطاع بطرقه الخاصة أن يجمع حوله ـ بالإضافة إلى الأتـراك الذين معـه ـ عدداً آخـر من العرب الـذين ربـطتهم به صـلات ود وتحالف، ومن ذلـك الـوقت تعـرضت القلعـة إلى حـرب متتابعة متواصلة عادت بالضرر على الـطرفين. ورغم أن ملك تـونس ـ بتأييـد من منظمتنا ـ قد اهتم بطرد مـراد آغا ولكنـه لم يتمكن من ذلك، مما زاد في قوتـه كل يوم، سواء بتأييد من بربـروسا أو من درغوث ريـس، وهو قـرصان كبـير من المـوالين لـه والمقربـين إليه. وطبقاً للمعلومات المتـوفرة لـدينا، فـإنـه بتـأييـد من بربروسّـا، وبتضامن واتفاق مع درغوث ريس والأهالي المجـاورين، يعد العـدة الآن لتنفيذ خطته للاستيلاء على القلعـة. ويعتقد أنـه سينفذ خـطته تلك، ولـو بالاقتصار على الأقل ـ على احتلال مدينة طرابلس التي تحيط بتلك القلعة. فـإذا قـدر له أن يحتلهـا فسيصبح من المتعـذر الاحتفاظ بهـا والدفـاع عنها. وإنـه إذا حدث هذا ـ لا قدر الله ـ فسوف تكون خسارة فادحة لا لمملكة صقلية وكالابريا ولكنها خسارة للمسيحية بصفة عامة. وستكون وكراً للقـراصنة الـذين ستمتلىء بهم هذه البحار.

ونظراً إلى أن إمكانيات المنظمـة ليست كافيـة ولا صالحـة لمواجهـة هذه الأخطار، واستناداً إلى ما كتب إلينا من تقارير من طـرابلس عن ضرورة العمل لحشد أربعة آلاف أو خمسة آلاف جندي، حتى تتمكن المنظمة فيما بعد من طرد هذا التركي، من أرض تاجوراء؛ وأنـه إذا تم ذلك فسـوف يحقق خيراً كثـيراً، وراحة عظمى للمسيحية ـ وهذا أمر لا يمكن إتمامه إلا بتأييد قداستـه ومسانـدته ـ

(٨٥) ربما كانت أكثر من خمس سنوات. فقد وصل مراد آغا إلى تاجوراء قرب ١٥٣٩.

أرجو أن تلتمسوا منه أن يتكرم بتأييدنا في هذه المهمة، بالعدد المذكور أعلاه، كله أو جله، فبهذه الطريقة يمكننا أن ننفذ هذه العملية. ومن أجل هذا، التمسوا منه في إلحاح، للأسباب المنوه عنها سابقاً ولأسباب أخرى ملحة تقتضيها هذه الظروف وتجنباً للإطالة، نتركها لحكمتكم بعد أن سبق أن أعلمناكم بها بتوسع)[٨٦]. مليتا ١٥٤٦ (١٥٤٧).

إذن، لقد كان المرشد الأمير يطلب مساعدة البابا لحشد حملة تتألف من أربعة أو خمسة آلاف جندي و تكفي لطرد مراد آغا من أراضي طرابلس. وقد أوضحت رسالة المرشد توضيحاً تاماً الإطار العام للأوضاع. ولكن المساعدات لم تأتِ، لا من البابا، ولا من الإمبراطور. وكان نفوذ إسبانيا وسيطرتها على إفريقية قد أخذ في الانهيار، منذ مني جنود شارل الخامس (١٥٤٠) وأسطول أندريانا دوريا بهزيمة في الجزائر. وأصبح الأسطول التركي المتحالف مع الأسطول الفرنسي سيد البحر الأبيض المتوسط.

وفي سنة ١٥٤٧ مات خير الدين بربروسا المؤسس الرئيسي للقوة البحرية التركية. ولكن بقي الأتراك قادة لهم وزنهم وقيمتهم. وكان في طليعتهم من حيث الشهرة والمكانة، درغوث الذي ورد ذكره فيما تقدم.

درغوث. ويطلق عليه الكتاب الأوروبيون المعاصرون له، واللاحقون (Dargut, Dragut, Dorguette). أما العرب فيسمونه (دارغوث) والأتراك (Dorghut) وبالتصغير (درغوتشيه). ولد حوالي ١٤٨٥ في مقاطعة (منتيشة Menteshà) على السواحل الغربية من الأناضول[٨٧]. وانصرف منذ شبابه الباكر إلى القرصنة في بحار الشرق. وفي سنة ١٥٣٣ ذكر بين القراصنة العثمانيين الذين كانوا يهاجمون سفن البندقية في بحر إيجه[٨٨]. ثم انتقل إلى العمل تحت

---

(٨٦) روسي: سيطرة فرسان مالطا المنشورة في (Arch. Melit.) ج ٦ ص ٦٥ - ٦٦.

(٨٧) هي بارض (Charabalac) أمام (استنكوي) حسب ما يورده:

P. De Salzar, Historia de la guerrà y presa de Africa ecc. Napoli 1552.

P. De Sandoval, Vida y hechos del Emperador Carlo B Pampola 1634.

(٨٨) م. سانودو (اليوميات) الفصل ٤٨ - ص ١٢٢ - ١٢٨.

قيادة (بربروسا) واشتهر بسلب السفن المسيحية في مياه شمال إفريقيا. وفي يونيو ١٥٤٠ فاجأه (جانتينو دوريا G. Doria) عند سواحل كورسيكا فأسره وباعه إلى أسرة (لوملليني Lomellini) من جنوا، وقد استخدموه في التجديف فوق مراكبهم. وافتدي سنة ١٥٤٤ بناء على اهتمام شخصي من بربروسا، فاستأنف نشاطه القرصاني بمزيد من الحيوية والقوة تحت علم سلطان القسطنطينية[٨٩].

وأصبح وضع طرابلس ضعيفاً لا يقوى على الصمود، بل مرت فترة وجدت المنظمة نفسها في سنة ١٥٤٨ مضطرة إلى التفكير في تركيز قواتها بطرابلس، بعد أن تأكدت لديها استحالة الاحتفاظ بطرابلس ومالطا معاً بطريقة مشرفة مضمونة. وقد خططت لذلك بناء على اقتراحات قدمها بعض الفرسان من ذوي المكانة والنفوذ، من بينهم (لافاليتي)[٩٠]. ولكن تغلب الاتجاه الداعي إلى ترك المشكلة دون حل نهائي، وانتظار ما يسفر عنه الزمن والأحداث من توجيه وإرشاد.

وفي سنة ١٥٤٩، عند نهاية حكم جيوفاني لافاليتي، كاد مراد آغا أن يقع أسيراً في أيدي فرسان مالطا من جراء كمين نصبه له فرا جيوفاني دي شردان مع عدد من الفرسان الطرابلسيين المرتزقة، وبعض سكان المنشية. وكان مراد آغا متجهاً في كوكبة صغيرة من الفرسان لحضور حفل ختان في بيت أحد أصدقائه المخلصين، وهو عبد القادر بن الشوشانة، شيخ إحدى القبائل. وقد أسر ابن الشوشانة وعربي آخر. واقتيدا تحت الحراسة إلى طرابلس. أما مراد آغا الذي حوصر وطوق في البداية، فقد تمكن من الإفلات، محتمياً بالمقاومة اليائسة التي أبداها حرسه الخاص المرافق له، ومعتمداً على سرعة جواده العربي. وبدلاً من الاحتفاظ بابن الشوشانة، أو الحصول على مبلغ كبير لافتدائه وإطلاق سراحه، أراد الفرسان أن يستميلوا إليهم بعض سكان المنشية والساحل فبادروا

---

(٨٩) ترجم لدرغوث الكاتب التركي علي رضا سيفي في كتابه (درغوث ريس طبعة ثانية - القسطنطينية ١٩١٠) ثم أعيد طبعه بالحرف التركي اللاتيني في ١٩٣٢.

(٩٠) انظر الوثيقة الحادية عشرة في ذيل كتاب روسي عن فرسان مالطا.

إلى إطلاق سراح الأسير، بشرط أن يعمل على إزاحة مراد آغا عن المكانة التي يتمتع بها بين عرب الضواحي والدواخل.

وقد عهد بمهمة التفاوض مع ابن الشوشانة والأهالي إلى الشيخ المنصور وابنه علي والي أحمد بن (جوهرة؟ جوارة؟ Bengioara) من الزعماء ذوي النفوذ بالمنشية.

وما كاد مراد آغا يشعر بذلك حتى أشاع أن ابن الشوشانة ما يزال على إخلاصه له، في السر. وأن زعماء المنشية مكلفون من قبله بالتظاهر بالاتفاق مع فرسان مالطا حتى إذا حانت الفرصة ثاروا على المنظمة، بناء على تعليماته. ووقعت المنظمة في المكيدة. واعتقلت ثلاثة من الزعماء المذكورين، وتسعة أشخاص آخرين وأرسلتهم جميعاً إلى مالطا، حيث حوكموا وبرئت ساحتهم[91]. ولم يكن لمثل هذه الأحداث أن تستجلب عطف الأهالي وتجاوبهم مع فرسان مالطا.

وكان درغوث قد أقام في سواحل الشمال الإفريقي (بربريا) أهم قواعد نشاطه القرصاني. وفي سنة ١٥٤٩ تمكن بمساعدة مراد آغا الذي أرسل إليه مئة من الرماة[92] من احتلال المهدية (إفريقية لدى كتاب ذلك العصر). ومن هناك كان يقذف بسفنه لسلب المراكب والسواحل المسيحية خاصة سواحل إيطاليا. وكان من الضروري إقصاؤه عن هذه المراكز. وقد قام دوريا بالفعل بحملة، تحت قيادة نائب الملك بصقلية جيوفاني دي فيجا، ومساندة منظمة الفرسان التي بعثت أربعة مراكب ومجموعة من الفرسان. واحتل المهدية في ١٠ ديسمبر ١٥٥٠[93].

ونشير إلى أنه أثناء الحصار المسيحي للمهدية بعث درغوث بأربع سفن

(٩١) بوزيو (ج ٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٤).
(٩٢) ب. دي. سالازار، نفس المصدر المذكور ص ٥٩ - ٦٠.
(٩٣) بوزيو (ج ٣ ص ٢٧٦ - ٢٧٨) انظر أيضاً الوثيقة الثانية عشرة في ذيل كتاب روسي عن فرسان مالطا.

من نوع غليوطة إلى مراد آغا في تاجوراء طالباً عونه. وقد هاجم هذه السفن جيوفاني مورت Moret ، وهو قرصان من نيس، في نهاية أغسطس ١٥٥٠ قرب طرابلس وتاجوراء. وقد تمكنت السفن من الافلات، ولكن بعد أن قتل بعض بحارتها وبعض رجال مراد آغا الذين هرعوا إلى الشاطىء[٩٤].

أما درغوث الذي ترك أحد نوابه بالمهدية فقد أخذ، طوال عدة أشهر، يجوب المناطق الداخلية من تونس[٩٥]، ثم جمع فرقته القرصانية في مضيق القنطرة بجربة، وحاصره دوريا هناك في ابريل ١٥٥١، ولكنه استطاع أن يسحب سفنه عبر قناة أرضية حفرها، وخرج بها إلى عرض البحر واستولى على المركب الرئيسي القادم من صقلية لدعم دوريا. وفي نهاية أبريل باغت مالطا ونزل بجنوده في سواحلها. وقد قاموا بسلب قرية (سيجوي Siggéui) ثم تابع درغوث رحلته إلى الشرق، حيث لحق بالأسطول العثماني الذي جاء بعد ثلاثة أشهر لحصار طرابلس.

وفعلاً، لم تتأخر الأنباء باقتراب الأسطول العثماني. وقد أرسلت المنظمة منذ نهاية ابريل ١٥٥١ إلى طرابلس غاسباري دي فاليس Gaspare de Vallies)، وكان يشغل رتبة مارشال بالمنظمة، وذلك ليخلف (بيترو نونيس دي هريرا Pietro Nunez de Herrira) على منصب الحاكم. مجددين له نفس التوصيات والتوجيهات المعتاد تقديمها إلى كل الحكام ملحين عليه بالتزام النظام والعادات الحسنة وحماية القلعة وحراستها هي والمدينة والحصن[٩٦].

---

(٩٤) **De Salazar**, op.cit. p. 66.

Monchicourt, L'insécurité en Méditerranée durant l'été de 1550 in Revue Tunisienne 1917 p. 317 - 324

(٩٥) هاجم درغوث قفصة التي هب أهلها للدفاع عنها ولم يفلح في احتلالها.

Monchicourt, Episodes de la carrière tunisienne de Dragut in Revue Tunisienne 1918 p. 35 - 43.

(٩٦) انظر الوثيقة الثالثة عشرة في ذيل كتاب روسي عن فرسان مالطا.

وفي بداية يوليو تواترت الأنباء بخروج الأسطول التركي من الدردنيل واتجاهه نحو مالطا وطرابلس.

فأرسلت المنظمة إلى طرابلس، بصفة عاجلة، (غوليلمو كوبيير Guglil-mo Coupier) مع خمسة وعشرين فارساً، وفرقة من الجنود الذين جندوا في مسينا بقيادة (جيوفاني كالابريزي G. Calabresi) وكان كوبيير مكلفاً بتولي مهام نائب الحاكم العام. أما السفن التي حملت الجنود إلى طرابلس فقد نقلت عند عودتها النساء والأطفال الذين رأى الحاكم أنه من المناسب تسفيرهم من طرابلس[٩٧]. وأخذت المدينة تتهيأ لمواجهة الصدام والهجوم المعادي.

٧ ـ حصار العثمانيين لطرابلس واستيلاؤهم عليها سنة ١٥٥١

طبقاً لما تقصه إحدى الروايات الطرابلسية المتواترة[٩٨]، فإن الأسطول العثماني بقيادة درغوث قد مر بطرابلس سنة ١٥٥١ في طريقه إلى تونس[٩٩]، فالتمس مراد آغا والأهالي من درغوث التوقف بطرابلس ومهاجمة فرسان مالطا. فاعتذر درغوث في البداية بأنه ليست لديه تعليمات من السلطان بهذا الخصوص، ولكنهم بينوا له سهولة المهمة، والتزموا بتبرير هذا التصرف أمام السلطان. وتم حصار المدينة براً وبحراً. وطالب المحاصرون باستنقاذ حياتهم والإذن لهم بالرحيل. فوافق درغوث على مطالبهم واستولى على المدينة.

ولكن الواقع أن الحملة على طرابلس كانت مدبرة من القسطنطينية[١٠٠]، وأن الأسطول العثماني كان يتألف من حوالي مئة وخمسين

---

(٩٧) بوزيو (ج ٣ ص ٢٨٦ ـ ٢٩٣) وكذلك روسي في كتابه المشار إليه، الوثيقة رقم ١٤.

(٩٨) أورد هذه القصة الرحالة المغربي (العياشي) في رحلته ج ١ ص ٦٦ وكذلك ابن غلبون في تاريخه ص ٩٤ (ص ٦٨) وكذلك فيرود في حولياته الطرابلسية ص ٤٠.

(٩٩) حسب الروايات المتواترة فإن الأسطول كان متجهاً إلى تونس لدعم (علج علي) باشا في حصاره لتونس. ولكن هذا من سبق الأحداث التي جرت بعد عشرين سنة من هذا التاريخ.

(١٠٠) انظر الوثيقة الرابعة عشرة الملحقة بكتاب روسي عن فرسان مالطا التي تتضمن العمليات الخاصة بالنجدة التي وجهت في يوليو إلى طرابلس. وقد كانت المنظمة على علم بأن خروج الأسطول العثماني سيكون نحو مالطا أو نحو قلعة طرابلس.

شراعاً (أي سفينة) بقيادة سنان باشا، ومساندة درغوث ريس وصالح بك حاكم رودس. وقد حاذى الأسطول الساحل الصقلي، ثم هاجم مالطا وحاول عبثاً الهجوم على مدينة (نوتابيلي Notabile)، ولكنه استطاع أن يغزو جزيرة قوزو، وأسر منها خمسة آلاف أسير.

ثم اتجه إلى طرابلس فوصلها في الخامس من أغسطس. وكان بالقلعة من وسائل الدفاع ـ بما في ذلك النجدة الأخيرة ـ حوالي مئة من الفرسان وخمسمائة من الجنود من كالابريا ومالطا وردوس وبعض المئات من العرب الموالين للمنظمة. وإزاء هذه القوة، كان الأتراك يتوفرون على عدد قوي من الجنود وعلى المدفعية القوية، وعدد كبير من الأهالي المحاربين الذين جمعهم مراد آغا.

وقبل أن يأمر سنان باشا ببداية الهجوم، وصل إلى طرابلس السنيور (دارمونت D'Aramont) سفير ملك فرنسا لدى سلطان القسطنطينية، وهو بالتالي شخصية محترمة ومحبوبة لدى الأتراك. كان قد توقف بمالطا أثناء رحلته من فرنسا إلى تركيا. فرجاه المرشد الأكبر أن يتجه إلى طرابلس للبحث في إقناع القائد التركي بالعدول عن خطة الهجوم على طرابلس، ولكن سنان باشا رفض الاستجابة أو الإصغاء إلى دعوة العدول عن هذه المهمة. وبعد أن أمضى سنان وقتاً كافياً بتاجوراء للتخطيط، وتركيز جهوده وتنسيقها بالاتفاق مع مراد آغا، بدأ سنان عملية الحصار، وطلب من الحاكم على الفور تسليم المدينة، الأمر الذي رد عليه (غاسباري فاليس) بالرفض قائلاً إنه يفضل الموت على الاستسلام.

وفي ٨ أغسطس اقترب المهاجمون بمدفعيتهم من القلعة، تحت حماية الحواجز والخنادق، وتجمعوا في جبهة عند الجانب الشرقي من القلعة عند السهل الممتد بينها وبين الظهرة، (حيث تقوم حالياً طرابلس الجديدة). ولم يكن متيسراً لسنان باشا مهاجمة المدينة عن طريق البحر لأن مدفعية حصن (Castellijo) كانت تمنع سفن الأتراك من الدخول إلى الميناء.

وفي ذلـك اليوم نفسـه بدأت تنـطلق أولى طلقات المـدفعيـة الـتركيـة التي كـانت ترد عليهـا مدفعيـة المحصنين في القلعـة رداً فتاكـاً مؤثراً عـرّض الأتـراك لخسـارة أربعة أفـراد من خيرة رجـال المدفعيـة لـديهم، واثنـين من (الشـواش) وبعض (الـرياس) وعـدد كبير من الانكشـاريـة. ورئيس كتبـة بـترت القنـابـل يده[101].

وفي ٩ أغسطس استؤنف القصف، بطريقـة أكثر عنفـاً، واقتربت المـدافع الـتركية إلى مسـافة مئـة وخمسين متراً من القلعة. وعنـد المسـاء تسبب انفجـار البارود في مقتل ثلاثين تركياً[102]. وتعرض سور القلعة إلى أضرار بالغـة لا يمكن إصـلاحها. وكـان الماء قليـلاً سيء المذاق، نـظراً لاستحالـة الاستفادة من المـاء العذب الموجود في البئر القائمة تحت الجانب الشرقي من القلعة. كما كانت ثمـة حـالات عصيان وتمـرد، واشتباه في الخيـانة. ويمكن القـول بأنـه قـد تسرب إلى نفوس المحاصرين منذ اليوم الأول الشعور بعدم الثقة وضعف الإيمان.

وبعد أن جمع الحاكم المجلس، وتشاور معـه في الأمر، قـرر الاستسـلام بمقتضى بعض الشروط، وأرسـل وفداً يتـألف من شخصيـن إلى سنـان بـاشـا لعرض هذه الشروط التي أظهر سنان باشا قبولها وموافقته عليها.

وكان من بين هذه الشـروط أن تتاح الحرية للمحاربين من فرسان مـالطا بالعودة إلى المسيحية (لعلها إلى البـلاد المسيحية). ولكن الحـاكم الذي دعي إلى سرادق القـائد الـتركي، وتوجـه إليه صحبـة أحد الفـرسـان، لم يلبث أن كبـل بـالأغلال، ونقـل إلى أحد المـراكب، وعـاد الفـارس المرافق إلى القلعـة ينقـل شروط الاستسلام. وهي إطلاق سراح ما يقرب من مائتين من الفرسان والجنود وأسر البقية الباقية.

وفي يوم ١٤ أغسطس فتحت المدينة والقلعة أبوابها للأتراك الذين اندفعوا إلى السلب والنهب. وقـد جـرد الجميـع بـاستثنـاء المـدافعـين عن حصن

---

(١٠١) نيكولو دي نيكولاي في مصدره المذكور آنفاً ص ٣٩.
(١٠٢) نيكولو دي نيكولاي، نفس المصدر السابق ص ٣٩.

(Castellejo) الـذين كـان في وسعهم الخـروج بكـل مـا يقتضيـه الشرف العسكري. أما الجنود المرتزقة فقد كان مصيرهم الأسر والاسترقاق. وأما العرب الذين كانوا في خدمة الفرسان، ثم وقعوا في قبضة الأتراك، فقد قطعوا تقطيعاً. واستطاع بعضهم أن يلوذ بالفرار قبل الاستسلام بقليل، وينجو بنفسه هارباً إلى تونس. وقد ذهب زعيمهم فيما بعد إلى مالطا، وحصل على إقرار بالصداقة الدائمة مع المنظمة لنفسه ولخلفائه(١٠٣).

واحتفل الأتراك بانتصارهم يوم ١٦ أغسطس، عند الخندق المقابل لخرائب القلعة، في الجانب الشرقي منها، حيث أحدثت المدفعية التركية ثغرة في السور. وشارك في هذا الحفل السفير الفرنسي السنيور دارمونت بناء على دعوة القادة الأتراك. وفي المساء أضاء الأسطول التركي الأنوار احتفالاً بهذه المناسبة.

وأصبح مراد آغا حاكماً على طرابلس. وهو المنصب الذي كان يتطلع إليه دارغوث في الخفاء. وعاد الأسطول العثماني إلى القسطنطينية يحمل عدداً من أسرى المسيحيين، وغنائم وفيرة. ولم تستطع سوى بقية ضئيلة من الفرسان لا تزيد على مئتين، ركوب البحر صحبة السنيور دارمونت والعودة إلى مالطا، حيث حوكموا وسجنوا(١٠٤).

وحين وصل السفير الفرنسي إلى مالطا استقبله المرشد الأكبر استقبالاً عادياً فاتراً، كما يشهد بذلك (نيكولاي) سكرتيره ورفيقه في الرحلة(١٠٥). لقد أظهر الفرسان من الإسبان والإيطاليين سخطاً وحنقاً على الفرنسيين، بل وعلى زملائهم وإخوانهم في المنظمة، رغم الحياة التي تقاسموها والنظام الذي يوحد بين أعضاء الدير.

وكان قد أخذ منذ مدة يتسرب إلى تلك الوحدة المتماسكة للمنظمة التنافس القائم على أساس وطني وسياسي. وكان للصراع الفرنسي الاسباني

---

(١٠٣) بوزيو ج ٣ ص ٣٠٧.

(١٠٤) أرشيف مالطا fol 126 (Decreta Concilio run 209).

(١٠٥) نيكولودي نيكولاي ص ٢٢.

الذي ساذ القرن السادس عشر انعكاساته على العلاقات في صفوف فرسان مالطا.

وقد أخذت الهمسات والاتهامات للسفير الفرنسي تتعالى وتتزايد، حتى إن ملك فرنسا طلب من المرشد الأكبر (الاسباني هوميديز) تصريحاً بنفي تلك الاتهامات، فكان له ما أراد[١٠٦].

أما (دي فالييس) الذي حكم عليه بالسجن فقد لبث في سجنه حتى صار (لافاليتي)، وهو من مواطنيه، مرشداً أكبر، فعفا عنه حين خفت سورة الأحقاد والانتقام السياسي.

ولا يتردد (بوزيو) في رد أسباب ضياع طرابلس إلى جبن بعض الجنود المرتزقة ونذالتهم، وإلى الانقسامات التي شطرت المسيحية، ولا يمكننا أن نقول بخطأ هذا الحكم. ولكن علينا أن نفطن وندخل في اعتبارنا صعوبة الاحتفاظ بمدينة كطرابلس، بعيدة عن القاعدة، محاطة بالأعداء المحليين. والقراصنة الأتراك، ثم محاصرة المدينة بقوات كبيرة من الأتراك، بالإضافة إلى أن المنظمة نفسها لم تكن مستعدة استعداداً كاملاً من الناحيتين المادية والمعنوية. وكان من نتائج (الإصلاح) الذي أدخل على المنظمة فقدانها لمشاركة رجال انجلترا وألمانيا وإمكانياتها. لقد انهار الفرسان الذين يدافعون عن طرابلس، منذ الوهلة الأولى، واستسلموا لمصيرهم، ولعلهم لم يقوموا بكل ما يجب أن يؤدوه لكي يسقطوا بطريقة أكثر شرفاً ومجداً.

لم يترك حكم الفرسان أثراً واضحاً بطرابلس. ولكن من المؤكد أن بعض التحصينات في القلعة[١٠٧] كانت من أعمالهم. خاصة برج القديس جاكومو الذي دمرته القنابل فيما بعد، وأعيد ترميمه مع إدخال بعض التعديلات عليه.

---

(١٠٦) **Charrière,** Negoctiations de la France dans le Levant II P. 154-162.

ورد ذكر وقائع سنة ١٥٥١ بشكل مؤيد للحاكم الفرنسي وللسفير الفرنسي دارمونت في:

Villégagnon, De Bello melitense, Paris 1555.

(١٠٧) أوريجما (قلعة طرابلس) ص ٥٤٧.

ويمكن أن نشاهد في الحـديقة الصغـيرة[١٠٨]، أمام المتحف، درعاً حجريـة، ربما كانت تحمل شعار المنظمة، وقد ظلّت ظاهرة عند المدخـل الرئيسي للقلعـة حتى سنة ١٩٣٠.

ونـذكر في الختـام أن منظمـة فرسـان مالـطا قد حـاولت مرة أخـرى سنة ١٥٥١ اسـترجاع المـدينة، ووجهت حملة في سنـة ١٥٥٢ عـلى زوارة، وسـانـدت الحملة التي قامت بها القوى المسيحية المتحالفة سنة ١٥٥٩ ـ ١٥٦٠ والتي كانت تستهدف طرابلس، ولكنها انتهت نهاية تعسة بعملياتها الحربية في جربة.

إن الوثيقة التي تتضمن خطة المنظمة لإعادة احتلال طرابلـس قـد وردت في التقرير المعروف باسم (Costae Discorsi Barberia)[١٠٩] الذي قدمه في سنة ١٥٨٧ الكومندتور فرانشسكو لنفريدوتشي Lanfreducci والكفاليير أوتوني بوزيو Bosio إلى المرشد الأكبر فردالا Verdala الذي كان قـد كلفهما بـإعداده. وهمـا يقدمان في التقـرير معلومـات عن هجوم مفـاجىء يمكن أن يتم تنفيذه بنجـاح، بقوة قوامها ألف وخمسمائة مسلح. وقد تدخلت فعلاً سفن المنـظمة من جـديـد في شؤون طرابلس سنة ١٥٨٩ بمناسبة قيام ثورة بين الأهالي. كـما هوجم مينـاء طرابلس، أكثر من مرة من قبل فـرق مالـطية، كـما حدث في سنـة ١٦٣٩ وسنة ١٦٤٢[١١٠].

في القرن الثامن عشر كانت العلاقات بين طـرابلس ومالطـا علاقـات سلمية. وجرى تبادل المجاملات بين البك والمرشد الأكبر[١١١].

---

(١٠٨) أزيل في سنة ١٩٣٤ بمناسبة ترميم القلعة. أنظر: G. Guidi, op. cit. p. 26.

(١٠٩) نشرت في الإيطالية مع ترجمة إلى الفرنسية نقلاً عن مخطوط بالجزائر. وقد قام بنشره:

Charles Monchicourt e **Pierre Grandchamp** nella Revue Africaine 1925, p. 35-165.

(١١٠) أنظر بحثي عن فرسان مالطا المنشور في: Archivum melitense VI p. 67

(١١١) روسي: مراسلات بين المرشدين الكبار لهيئة فرسان القديس يوحنا بمالطا وبايات طرابلس منذ ١٧١٤ حتى ١٧٧٨ في مجلة الدراسات الشرقية (الإيطاليـة) ١٠ ـ ١٩٣٣ ـ ١٩٢٥ ص ٤١٤ ـ ١٥.

ROSSI, Riv. degli Studi Orientali X, 1923 - 1925 p. 414 - 430.

وجدير بالملاحظة أن المرشد الأكبر في مالطا قد ظل حتى القرن الثامن عشر يحمل لقب (سيد أو ملك) وأمير الحكم الملكي بطرابلس.

٨ ـ قائمة بأسماء حكام منظمة مالطا بطرابلس

١ ـ غاسباري دي سانجوسا ١٥٣٠ ـ ١٥٣١	Gaspare de Sanguessa
٢ ـ برناردينو ماكادو ١٥٣١ ـ ١٥٣٢	Bernardinos Macado
٣ ـ أوريليو بوتيجلاّ ١٥٣٢ ـ ١٥٣٣	Aurelio Bottigella
٤ ـ غارسيا كورتس ١٥٣٣ ـ ١٥٣٥	Garzia Cortès
٥ ـ جورج سكيلنج ١٥٣٥ ـ ١٥٣٧	Giorgio Schiling
٦ ـ أوريليو بوتيجلا ١٥٣٧ ـ ١٥٣٩ (للمرة الثانية)	Aurelio Bottigella
٧ ـ هرناندو دي براكامونتي ١٥٣٩ ـ ١٥٤٤	Hernando de Breacamonte
٨ ـ كريستوفانو دي سوليس فرفان ١٥٤٤ ـ ١٥٤٦	Cristofano de Solis Farfan
٩ ـ جيوفاني لافاليتي ١٥٤٦ ـ ١٥٤٩	Giovanni La Valette
١٠ ـ بيترو نونيس دي هريرا ١٥٤٩ ـ ١٥٥١	Pietro Nuñez de Harrera
١١ ـ غاسباري دي فالييس أبريل ١٥٥١ أغسطس ١٥٥١	Gaspare de Vallies

الفصل الثاني

الحكم العثماني ـ الولاة الأوائل

* مراد آغا (١٥٥١ ـ ١٥٥٦؟)
* درغوث باشا (١٥٥٦ ـ ١٥٦٥).
* الحملة المسيحية على جربة (١٥٦٠).
* أوضاع طرابلس في سنة ١٥٦١.
* حصار مالطا ووفاة درغوث باشا ١٥٦٥.
* خلفاء درغوث في حكم طرابلس حتى سنة ١٥٨٦.
* الاضطرابات في طرابلس خلال الأعوام ١٥٨٨ ـ ١٥٩٠ والأعوام العشرة التالية.
* تدبير الهجوم على طرابلس من قبل قوات مالطا وصقلية ونابولي في ١٦٠٠.
* طرابلس الغرب خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. معلومات جغرافية واجتماعية وبشرية.
* النظام الإداري لولاية طرابلس بعد الاحتلال العثماني.

١ ـ مراد آغا (١٥٥١ ـ ١٥٥٦؟)

رغم أن بعض المصادر تفيد بأن حكم طرابلس قد آل عقب الاحتلال العثماني إلى درغوث[١]، إلا أن الذي لا ريب فيه أن حكم تلك المدينة قد عهد به حينذاك إلى مراد آغا[٢]. وقد اتجه إلى إصلاح المدينة التي دمرت بسبب الغارات المتوالية. كما انصرف إلى تشييد حصون جديدة، احتياطاً للغارات المتوقعة في المستقبل. وتابع في نفس الوقت العمل على إنهاء المسجد الكبير الذي يحمل اسمه، والذي ما يزال قائماً حتى الآن بتاجوراء[٣].

---

(١) أسند إليه بدلاً من ذلك سنجق (قارلي ايلي).

(٢) البرموني: روضة الأزهار، مخطوط بمكتبة أوقاف طرابلس ص ٥٢ ـ أنظر أيضاً كتاب (الإشارات ص ٦)، و(النائب ص ١٩٠). يبرهن المؤرخ التركي صفوت بك في المجلة التاريخية العثمانية (رقم ١ ـ ١٩٠٨ ص ٢٢) بوثائق تاريخية على أن مراد آغا قد عين بليربي على طرابلس قبل درغوث وهو ينسب عدم تعيين درغوث بهذا المنصب إلى المنافسة التي كانت قائمة بينه وبين سنان باشا. أنظر أيضاً الترجمة الحديثة (درغوث ريس) طبعة القسطنطينية ١٩٠٩. ويقول مارمول في الجزء الثاني من كتابه صفحة ٣٠٤ إن سنان باشا قد سلم طرابلس إلى مراد آغا صاحب تاجوراء. ويقول بوزيو (ج ٣ ـ ٣١٤) مؤكداً أن سنان باشا قد نصب مراد آغا حاكماً على المدينة والقلعة وأوصى بأن يخلفه عند وفاته درغوث باشا. أنظر أيضاً فيرود (الحوليات) ص ٥٣.

(٣) ترى الروايات الطرابلسية المتواترة (كتاب الإشارات ص ٢٢) أن المسجد قد بني من أموال الغنائم وأن أعمدته قد أخذت من بعض السفن المسيحية (يحتمل أن تكون منقولة من لبدة). أنظر:

R. BARTOCCINI E AURIGEMMA

T. COCCO, Murat Aga signore di Tripoli di Tagiura in arch. Storico per la Dalmazia, ottobre 1926 p. 17 - 21.

وفي سنة ١٥٥٢ قام فرسان القديس يوحنا بحملة مفاجئة أو بنوع من الغارة والغزو لاسترقاق بعض الأشخاص واستخدامهم في الأعمال الدفاعية بمالطا[٤].

وقد قامت بهذه الغارة فرقة بحرية مؤلفة من اثني عشر مركباً بقيادة أسقف كابوا (ليوني ستروتزي Leone Strozzi) وكانت السفن تحمل فوق ظهرها ثلاثمئة وثمانية من أعضاء هيئة الفرسان، بالإضافة إلى ألف من الجنود. وقد غادرت الحملة مالطا يوم ١٢ أغسطس متجهة إلى ساحل (بربريا). وفي ليلة ١٣ تمت عملية النزول بزوارة. وقد قام بعض المالطيين المتنكرين في الملابس المحلية بعمليات استطلاعية في المنطقة، مستغلين قدرتهم على التفاهم مع الأهالي بسبب لهجتهم العربية التي تشبه إلى حد بعيد لهجة سكان إفريقيا الشمالية، وقد أبلغوا عن وجود مجموعة كبيرة من الخيام والنيران في أحد الوديان القريبة، مما يوحي بوجود جيش مرابط بالموقع. إلا أن قادة الحملة استهانوا بهذا القول، ولم يعبأوا به، ولم يهتموا بقرب هؤلاء المسلحين منهم، ورأوا أنه مجرد نجع من نجوع البادية. وبادروا بالهجوم على زوارة دون أن يتخذوا الاحتياطات اللازمة. وكانت الغارة مظفرة ناجحة إذ أسروا ما يقرب من ألف وخمسمائة أسير. غير أنهم فوجئوا قبل عودتهم إلى السفن بمجموعة من المسلحين تقدر بحوالي أربعة آلاف مسلح، تعترض طريقهم. ويقال أن مراد آغا نفسه كان يتولى قيادة هذه المجموعة. وتعرضت الحملة المالطية إلى خسائر فادحة، وتركت في ميدان القتال عدداً كبيراً من القتلى والفرسان والجنود الإيطاليين والمالطيين[٥].

ذكرنا أن مراد آغا قد اهتم كثيراً بتحصين طرابلس. وقد وضع في سنة ١٥٥٣ تصميماً لإنشاء حصن، عند الجانب الشمالي الغربي من المدينة[٦]، ولكن

---

(٤) بوزيو ج ٣ ص ٣٢٧ - ج ١٠، فسالو (تاريخ مالطا) ١٨٥٤ - ص ٤٣٢ روسي: سيادة فرسان مالطا على طرابلس في Arch. Melit. ج ٦ ص ٦٦ - ٦٧.

(٥) بوزيو ج ٣ ص ٣٢٧ - ٣٣١.

(٦) في رسالة من خوان براكامونتي من تاجوراء إلى نائب الملك بصقلية. وقد ذكرها أوريجما في دراسته عن تحصينات مدينة طرابلس.

الاضطرابات صرفته عن الاستمرار في هذه المشروعات، وكان عليه بالإضافة إلى ذلك أن يهتم بجزيرة جربة التي كانت في ذلك الوقت تابعة لطرابلس. وكان لديه من المبررات القوية ما يدفعه إلى الشك في أن الشيخ سليمان، زعيم جربة، ما يزال يحتفظ بعلاقات مع الإسبان عن طريق نائب الملك بصقلية. وقد هدده وأنذره بشدة، ولكن الشيخ سليمان رد بقوله إنه ليس ثمة ما يبرر قيام مثل هذه الظنون والشكوك[٧]. في حين لم يكن ثمة ريب في صلاته السرية مع الإسبان الذين كان يطلب مساعدتهم ويعرض عليهم تسليم الجزيرة. ونحن نعلم من الوثائق الإسبانية لذلك العصر أن مراد آغا قد أمر في ٢٩ مارس بقتل أحد قواد جربة المدعو (Matera)[٨] كما كان مراد آغا مشغولاً أيضاً بمواجهة النفوذ الإسباني في تونس. ويبدو من الترجمة الإسبانية لرسائل مراد آغا وسنان باشا (قائد الأسطول العثماني) إلى سلطان تونس، بتاريخ يونيو ١٥٥٢، أن الأتراك كانوا يفكرون في مهاجمة المهدية وحلق الوادي لطرد الإسبانيين رغم التزامهم في ذلك العام بالتعاون مع القوات البرية والبحرية الفرنسية العاملة في البحر الترّيني.

وقد أبلغ مراد آغا سلطان تونس بقرب وصول الأسطول العثماني إلى المياه التونسية. وأنه تلقى الأوامر للحاق به، والاستعداد لذلك، وجَمع المؤن ووسائل النقل والأخشاب اللازمة لوقاية المدفعية. وأن نفس الأمر قد صدر إلى (بيلربي الجزائر). والواقع أن الأسطول التركي قد أخره الفرنسيون عند السواحل الإيطالية[٩].

وفي سنة ١٥٥٣ أرسل حاكم المهدية الأسباني رسولاً إلى نائب الملك بصقلية يستحثه على إرسال أجور الجند، ويخطره بأنه إذا لم يتم ذلك فسيجد

(٧) E. Cat, Mission bibliographique en Espagne (Ecole de lettres d'Alger) VIII P. 81.

(٨) E. Cat, loc. cit.

(٩) Monchicourt, Dragut amiral turc (1551 - 1556) Revue Tunisienne N.S.I (1930) P. 113 - 115.

نفسه مضطراً لقبول عروض مراد آغا والي طرابلس الذي يعـرض عليه، بـاسم سلطان القسطنطينية إنقاذ الحامية وإخراج الأمتعة مقابل تسليم القلعة(١٠).

وهكـذا يبـدو، أنـه خـلال السنـوات العشر الأولى للحكم الـتركي بـطرابلس، وطوال القـرن السادس عشر، قـد امتدت سلطة حكـومة طـرابلس فشملت كل الأجزاء الغربية من تونس. ويذكر ابن غلبون(١١)، أن سكان جربـة وقـابس قد اعـترفوا بـدرغـوث الـذي يعتـبره ـ خـطأ ـ أول حـاكم تـركي عـلى طرابلس.

ويبدو من بعض المصادر أن مراد آغا قـد مات سنـة ١٥٥٣، ولكن الخبر الذي أشرنا إليه فيما تقدم، يدل عـلى أنه كـان ما يـزال على قيـد الحياة في سنـة ١٥٥٤.

ويؤكـد المؤرخـون الأتـراك(١٢) أنـه بعـد احتـلال طـرابلس تم تثبيت درغـوث في منصب (بـك سنجق قـارلي إلي Qarli Eli) وهي (أكـارنـانيـا Acarnania) بـاليونـان، وتقع عـلى ساحـل أبيرو الـذي يمتد من بـريفيسـا إلى ليبانتو. وهو المنصب الذي كـان يشغله قبل احتـلال طرابلس. وقـد سعى لدى السلطان للحصـول على منصب (بيليربي الجـزائر)(١٣) ولكنـه لم يظفـر به. كما لم يظفر بمنصب قائد الأسطول العثماني بالنظر إلى معارضة رستم باشا في ذلـك(١٤). ونحن نعلم، من جهـة أخرى، أن درغـوث قـد وجـد نفسـه خـلال السنـوات ١٥٥٢ ـ ١٥٥٤ ضمن الأسـطول العثماني الـذي كان يعمـل في البحر الـتريني، بالتحالف مع الفرنسيـين. وفي سنة ١٥٥٣ ـ ١٥٥٤ أسنـدت إليه القيـادة العليا لـلأسطول مـع بقاء لقب (كـابودان بـاشا) لسنـان. وفي سنة ١٥٥٥ عهـد بهذا

---

(١٠) E. Charrière, Negotiation ecc. II p. 257.

(١١) ابن غلبون: طبعة القاهرة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ ص ٩٤ (٦٨).

(١٢) حاجي خليفة: تحفة الكبار. طبعة ١٩١٠ ص ٦٩.

(١٣) عين في هذا المنصب (صالح ريس) الذي كان قبل ذلك بك رودس.

(١٤) E. Charrière op. cit. p. 321.

المنصب إلى بيالي باشا[١٥]. وفي مستهل سنة ١٥٥٦، وبعد أن علم درغوث بوفاة مراد آغاد، طلب تعيينه حاكماً على طرابلس، فاستجيب إلى طلبه. وفي ١ مايو كان يشاهد مالطا وهو يتخذ طريقه نحو طرابلس، وتمكن قبل الوصول إليها من الاستيلاء على سفينة تابعة للبندقية، في مياه لمبدوزا، مشحونة بالمواد، في طريقها إلى مالطا[١٦].

وقد ظل اسم مراد آغا حياً في الروايات الطرابلسية، خاصة، بين سكان تاجوراء حيث شيد مسجده الجميل الذي يحمل اسمه والذي دفن بجواره[١٧]، بالإضافة إلى المدرسة الملحقة به. وقد نسب إليه أيضاً بناء بئر للسابلة (سبّالة) على الطريق التي تربط طرابلس بتاجوراء، قرب الملاحة. وتقول الأسطورة، إن الأرض قد تفجرت ماء تحت ضربة من حربته. وقد اقترنت شهرته، كما اقترنت شهرة درغوث، بشيء من الهالة الدينية المقدسة[١٨]، فعرف أنه (مرابط) أي ولي من أولياء الله المدافعين عن العقيدة[١٩].

---

(١٥) نفس المصدر المتقدم ص ٣٢١.

(١٦) طبقاً للوثائق الإسبانية التي قام بدراستها (كات E. Cat) أنه حين مرض مراد آغا أوفد السلطان إلى طرابلس درغوث، فوصلها في الوقت الذي كان مراد آغا ما يزال على قيد الحياة. أما ابن غلبون فيؤكد (٩٨) (٧٢) أن درغوث قد تولى حكم طرابلس في نفس الوقت الذي استمر فيه مراد آغا على سيادته على تاجوراء دون تدخل في شؤون الولاية. وقد توفي سنة ٩٦٧ هـ. أما النائب فيقول إن وفاته كانت سنة ٩٦٤ هـ (١٥٥٦ ـ ١٥٥٧) وهي أقرب إلى الاحتمال. وثمة خبر هام أورده بوزيو ج ٣ ص ٣٧١ نقل فيه أن درغوث قد مر بمالطا في مايو ١٥٥٦ متجهاً إلى طرابلس ليخلف مراد آغا الذي توفي قبل ذلك بقليل. أنظر برنيا ٥٣ ـ ٥٤ وفيرود ص ٥٥ ـ ومونكيكورت ص ١١٧.

(١٧) أنظر في الخصوص دراسات: ر. برتوشيني ودراسات س. أوريجا.
وقد شارك في تشييد المسجد أسرى ومسيحيون كثيرون.

(١٨) أذكر أني سمعت إشارة إلى الاعتقاد الشعبي العام الذي يجعل من مراد آغا أخاً لدرغوث.

(١٩) البرموني: روضة الأزهار (مخطوط بمكتبة أوقاف طرابلس ـ ص ١٣١) يذكر أن مراد آغا قد اعتقل أحد الأولياء وألقى به في جب، بعد أن اتهمه باستلام أموال أحد الثائرين العرب، وقد استنزل عليه الولي نقمة سيدي عبد السلام، فلم يلبث مراد آغا أن أصيب بمرض لم يشف منه إلا بعد أن وضعت فوقه عصا الولي. وقد بادر فور شفائه إلى التوجه إلى زليطن =

لقد بدا العثمانيون الأوائل في نظر الطرابلسيين منقذين ومحررين من النير المسيحي، وأحاطت بهم هالة المدافعين عن الدين، ولكن ذلك لم يمنع الأهالي، خاصة البدو، من الشعور بالحقد البالغ العنيف على الحكم التركي، والانتفاض عليه مراراً وتكراراً.

٢ ـ درغوث باشا (١٥٥٦ ـ ١٥٦٥)

تولى درغوث الحكم المباشر للولاية، في سنة ١٥٥٦، وأخذ يتصرف في شؤونها بهمة عظيمة لم تقتصر على المدينة، ولكنها شملت الدواخل والمقاطعات المجاورة لتونس التي كانت تعتبر بلداً معادياً، بسبب وقوعها تحت الحكم الإسباني. وفي ديسمبر ١٥٥٦ زحف درغوث على (قفصة) واستولى على جربة. وترك على قيادة قلعتها أولوج علي (علج علي) وثبت في مشيختها الشيخ موسى بن جلّود أخا عثمان بن جلود[٢٠]، وهو من المخلصين له الحائزين ثقته، ونقل معه إلى طرابلس الشيخ سليمان الذي أعدمه بعد ذلك[٢١]. وقد أقام البرج الكبير للدفاع عن الجزيرة، ولم ينته العمل فيه إلا سنة ١٥٥٧ كما تشير اللوحة التذكارية. وهي السنة التي زحف فيها على القيروان، على رأس جيش

= لزيارة سيدي عبد السلام ومكث بها سبعة أيام هو ومرافقوه دون أن يتمكن من مقابلة الولي الذي استقبله في الأخير ملتحفاً بملابسه، ولا يلمح وجهه إلا بمشقة. وقد أغمي على الولي وظل على هذه الحال يومين أو ثلاثة، وحين استيقظ قال لابنه عمران (هؤلاء الأقوام سم زعاف، وفي كل المرات التي توقفتها بطرابلس أو بغيرها تجنبت الوقوف بأبوابهم إلا لضرورة. وما من مرة قابلتهم إلا اعتراني مرض. ثم تساقط جلد الولي كما يتساقط جلد الثعبان. ويضيف البرموني قائلاً إن مراد آغا قد عاد بعد ذلك إلى زيارة الولي وأخذ عنه (التلقين) وتعهد بعدم الإضرار بأحد من الناس. ويذكر أنه توفي بعد ذلك وكان مشهوراً في عصره، بل كان أشهر الحكام الأتراك بطرابلس. وكان يعيش بعمل يديه ويخيط الملابس (هكذا) وكان عادلاً. وكان له فضل تحرير طرابلس من الإفرنج. توفي سنة ٩٦٧ هـ (١٥٥٩ ـ ١٥٦٠) بطرابلس ونقل جثمانه إلى تاجوراء حيث دفن بها قرب المسجد الذي بناه ليرحمه الله).

(٢٠) حكمت أسرة (جلود) جربة حتى القرن الثامن عشر. ومنذ بداية القرن السابع عشر توقفت الجزيرة عن التبعية لطرابلس وانتقلت إلى نفوذ تونس.

(٢١) E. Cat. Mission Bibliographique ecc. P. 8.

يتألف من ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل. ويبدو أن هذا الزحف قد تم بناء على رغبة السكان. ولم يترك درغوث بطرابلس سوى ثلاثمئة جندي وألف وخمسمائة من العرب وثلاثة آلاف من الأرقاء لحماية القلعة.

كانت القيروان قبل ذلك ببضع سنوات مستقلة عن تونس. ويحكمها زعيم من أهلها اسمه محمد بن أبي الطيب. وقد استطاع درغوث أن يستولي على المدينة بسهولة، وشنق محمد المذكور.

وفي سنة ١٥٥٧ اجتاح وباء الطاعون مدينة طرابلس، ومات الكثير من سكانها، بينهم عدد كبير من الأرقاء المسيحيين[٢٣].

ووجه درغوث عناية خاصة وكبيرة إلى التحصينات العسكرية، وشيد المسجد الذي يحمل اسمه. وشرع في إقامة البرج الذي عرف فيما بعد باسم (برج التراب) عند الجانب الشمالي الغربي من السور. كما رمم القلعة وبنى قصراً كبيراً في قلب لمدينة اتخذ منه سكناً[٢٤].

٣ ـ الحملة المسيحية على جربة (١٥٦٠)

أنهى صلح (كاتو ـ كامبرسيس Cateau - Cambresis) الذي عقد في سنة ١٥٥٩ الصراع بين فرنسا واسبانيا. وخلف شارل الخامس على الحكم

---

(٢٢) **R. Basset e O. Houdas,** Epigraphie Tunisienne in Bulletin de Correspondance Africaine 1882 p. 196.

(٢٣) **E. Cat.** op. cit. p. 86.

(٢٤) **Aurigemma,** Notiz, arch. min. delle colonie II p. 272.

Una descrizione di Tripoli ecc. Riv. delle colonie VI - 1932 - 178 - 189 - 259 - 272.

ثمة رسم لمدينة طرابلس يرجع تاريخه إلى سنة ١٥٥٩ بالمكتبة الوطنية بفلورنسا، يشير إلى قصر أقامه القرصان درغوث. وكان يدعى في اللغة التركية (السراي). ويوجد شارع قرب المقر القديم لبنك روما يسمى طريق السراي ويحتمل أن يكون ذلك القصر الذي يتألف من ثلاثة أدوار والمحلى بالقيشاني والمزود بالنوافذ والذي ورد ذكره في:

Voyage dans les Etats Barbaresques - Paris - 1785 P. 172.

وترى الروايات المتواترة أنه قد شيد من قبل فرسان مالطا.

فيليب الثاني[٢٥]. فكان أول ما اتجه إليه تفكيره هو العمل على إيقاف التهديد العثماني في إفريقية مستجيباً في ذلك أيضاً إلى إلحاح المرشد الأكبر لفرسان مالطا. وقد وافق على مشروع حملة ترمي إلى استرجاع طرابلس واستخلاصها من درغوث. وأبدت ايطاليا اهتماماً كبيراً بهذه الحملة إلى درجة أنها قامت بطبع صورة خيالية تمثل حصاراً مضروباً حول مدينة طرابلس[٢٦]. ذلك أن الحملة لم تصل إلى طرابلس، ولكنها اشتبكت عند (جربة) في معركة بحرية انتهت بها إلى كارثة ماحقة، كما سوف نقص ذلك.

وكان نائب الملك بصقلية (دون مدينا شيلي Duca di Medina Coeli) قد كلف من قبل فيليب الثاني بتنظيم الحملة وقيادتها، فبادر إلى الاستعداد، واستطاع أن يعد خلال سنة ١٥٥٦ السفن والفرق العسكرية اللازمة، وقد شاركت فيها بالإضافة إلى اسبانيا المقاطعات التابعة لها، وكذلك البابا وفلورنسا وفرسان مالطا. وقد تجمع في مدينة (مسينا) أربعة عشر ألف رجل من اسبان وألمان وإيطاليين. وكان الأسطول يتألف من أربع وخمسين قطعة بحرية من نوع (غاليرا وغليوطة) وثماني وعشرين قطعة بحرية كبيرة، وعدد آخر من السفن الصغيرة. وكانت بقيادة (أندريا دوريا Andrea Doria) حفيد دوريا الكبير. أما الجيش البري فقد كان بقيادة (دون الفارو دي ساندي Don Alvaro De Sande).

غادرت الحملة مالطة، في فبراير ١٥٦٠، ووصلت جزيرة جربة، وتوقفت عند (روكيتا Rocchetta) للتزوّد بالمياه. وهناك دخلت في أول صدام مع العرب والأتراك الذين يحمون الجزيرة ويدافعون عنها. ثم تابعت سفرها نحو المياه الضحلة (بالو Palo) أمام زوارة. وهنا أجرى (دون الفارو دي

---

(٢٥) بخصوص سياسته في البحر الأبيض المتوسط انظر:

F. Braudel, La méditeranné et le monde méditerannéier à l'époque de Philippe II, Paris 1949 (2e edi. Paris 1967).

(٢٦) **C. Manfroni** Una Ristanpa che rappresenta un attacco navale di Tripoli non mai avvenuto, in Rivista marittima, Roma 1913 P. 267 - 276.

ساندي) محادثات مع عرب قبيلة المحاميد الذين كانوا يعادون الأتراك، فأبدوا الاستعداد لتأييد الحملة المسيحية على طرابلس. وعلم أيضاً أن درغوث الذي كان بجربة قد عاد برجاله وفرسانه إلى طرابلس. وأوفد (علج علي) إلى القسطنطينية، يطلب نجدة السلطان ومعونته. ومن جهة أخرى فإن الأحوال الجوية قد عاقت السفن عن مواصلة رحلتها نحو الشرق إلى طرابلس. فقرر دون مدينا شيلي إنزال الجيش بجربة لإنقاذه من خطورة المياه الضحلة.

وفي ٢ مارس رست الحملة من جديد في جربة، وفي اليوم السابع منه نزلت كل الجيوش التي استطاعت، بعد معركة ظافرة ضد العرب والأتراك، السيطرة على القلعة وإعدادها للدفاع. وبينما كانت الحملة المسيحية تضيع الوقت في الانتظار بجربة، كان الأتراك يعدون لحملة مضادة يواجهونها بها. وقد أبلغ السلطان منذ سنة ١٥٥٩ بالحملة التي يجري إعدادها ضد طرابلس. وقد بعث فعلاً بتاريخ ٥ ربيع الأول ٥٦٧ (٥ ديسمبر ١٥٥٩) فرماناً إلى درغوث ينبهه إلى وجوب الحذر ويدعوه إلى حسن معاملة الأهالي للاحتفاظ بولائهم ومساندتهم. وأرسل في نفس الوقت رسائل ومنشورات إلى زعماء العرب من شيوخ طرابلس وجربة وتاورغاء[٢٨] وعلمائها.

لقد ذهب درغوث، إذن، إلى جربة لإعداد وسائل الدفاع ونقل الأسلحة، ثم تحصن بطرابلس في انتظار الهجوم الذي لم يقع.. ووصل بدلاً من ذلك الأسطول العثماني بقيادة بيالي باشا الذي هزم الأسطول المسيحي قرب جربة في الليلة الواقعة بين ١٠ ـ ١١ مايو، واستولى على تسع عشرة (غاليرا) سفينة كبيرة. وبقي بجربة دون الفارو دي ساندي صامداً في القلعة لحصار بيالي باشا ودرغوث[٢٩].

(٢٨) الوثائق التي نشرها صفوت بك في المجلة التاريخية العثمانية (باللغة التركية) ١ ـ ٢ (١٩٠٨).

(٢٩) وصل درغوث إلى جربة في ١٦ مايو ١٥٦٠ (صفوت بك ص ١٠٠) ويؤكد شيرني في كتابه:

CIRNI, Successi dell' armata ecc. Venezia 1560. p. 133 - 138.

أن درغوث الذي كانت رايته خضراء قد وصل من طرابلس على رأس ١١ (غاليرا) ثم غاب

وحين غادر درغوث طرابلس متجهاً إلى جربة لم يبق بها في نهاية مايو سوى ألف رجل تحت قيادة نائبه (القائد)، كما كان بها ما يقرب من مئتي مدفع للدفاع عن الأسوار. وكان التموين بها قليلاً. وكان من شأن أي هجوم مسيحي، في مثل تلك الظروف، أن ينتهي إلى أحسن النتائج ويخرج بالنصر الأكيد[٣٠].

وفي هذه الأثناء، ظل دون الفارو صامداً مستمراً في مقاومته، منتظراً، بلا جدوى، وصول الدعم إليه من مالطا وصقلية. وحاول القيام بعدة (خرجات) لفك الحصار المضروب حوله. وفي إحدى هذه المحاولات وقع هو نفسه في الأسر (٢٩ يوليو). وبعد يومين من ذلك استسلمت الحامية، بعد أن وهنت قواها وتفوق عليها العدو بعدده.

وهكذا انتهت هذه الحملة التعسة، بعد أن قتل الكثير من أفرادها أثناء المعركة أو ذبح عند الاستسلام.

وقد حاول جان أندريا دوريا Gian Andrea Doria بتحريض من المرشد الأكبر لفرسان مالطا، القيام بهجوم مفاجىء على طرابلس يوم ١٠ أغسطس. ولكنه وجد نفسه، نتيجة خطأ ربابنة السفن، أمام تاجوراء بدلاً من طرابلس. وحين انتبه إلى هذا الخطأ، محاولاً تلافيه، هبت عاصفة ألقته عند (لمبدوزا) ثم (بنتاليريا) حيث علم هناك باستسلام حامية جربة[٣١].

وكان من المقرر أن يقوم بيالي باشا ببعض الغارات والغزوات في البحر الأبيض المتوسط، قبل عودته إلى القسطنطينية. ولكن درغوث الذي ضايقه الثوار العرب بالدواخل، في العام السابق، أقنع بيالي باشا بالتوجه إلى طرابلس لمساعدته في القضاء على التمرد، قرب تاجوراء. وقد وصل بيالي إلى طرابلس

وعاد إليها يوم ٢٨ صحبة المدفعية والجنود. وقد تلقى المحاصرون إمدادت من السلطان أحمد، سلطان تونس الذي كانت تربطه صلات صداقة بدرغوث. أنظر القيرواني ص ١٦١.

(٣٠) مونكيكورت ص ١٤٧.

(٣١) مونكيكورت ص ٢٤٧.

وصول الفاتحين. وقد دخلت السفن التركية الميناء مزينة بالأعلام والشارات التي غنمتها من الأعداء. وكانت أعلام الأعداء منكسة فوق سواري السفن وعند مؤخرتها دلالة على النصر[٣٢]. وأقام بيالي باشا بطرابلس الأيام القليلة الكافية لمعاقبة سكان تاجوراء، وتجريدهم من السلاح، ثم أقلع بأسطوله وتزود بالمياه في جزيرة قوزو بمالطا، وسيراكوزة بصقلية، ووصل إلى القسطنطينية في ٢٧ سبتمبر[٣٣].

٤ ـ أوضاع طرابلس عام ١٥٦٠

لقد ترك لنا أسقف كاتانيا (نيكولو ماريا كاراشيولو[٣٤] Nicoló Maria Caracciolo) الذي كان أسيراً بطرابلس سنة ١٥٦١ وصفاً لأوضاع المدينة وحكومتها في ذلك العهد، من خلال تقرير قدمه في سنة ١٥٦٢ إلى نائب الملك بصقلية، يحثه فيه على القيام بحملة على طرابلس. وكان يرى أن هذه الحملة ضرورية وعاجلة، وأن إغفالها والتجاوز عنها لا يمكن أن يتم (دون تعريض ممالك صقلية ونابولي للخراب الدائم وتعريض جميع المسيحيين[٣٥] للإذلال الكبير المهين).

---

(٣٢) ص ٤٧. لقد صارت تاجوراء منذ سنة ١٥١٠ وكراً للثوار والتآمر على حكام طرابلس الأجانب.
أنظر التفصيلات الواردة في الصفحات التالية.

(٣٣) ULLUOA ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٣٤) ج. لونقو (صقلية وطرابلس ـ كاتانيا ١٩٦٢ ص ٥١ ـ ٥٤). أسر درغوث الأسقف كراتشيولو أمام جزيرة سترونبولي حين كان في طريقه من صقلية إلى نابولي ثم أطلق سراحه بعد أن قدم فدية ثمينة. ويقال إن درغوث قد ألزمه بالقسم على أن يدفع مبلغاً كبيراً آخر إذا صار بابا.

(٣٥) توجد مخطوطة هذا التقرير بأرشيف الفاتيكان تحت اسم:

Discorso dell essere di Tripoli del Vescovo di Catania 1562.

وقد نشره وقدم له ج. فرايكين في مقاله:

J. FRAIKIN: Un piano di attaco di Tripoli nel 1562 in Rivista d'Italia luglio 1912 p. 119 - 128.

كان درغوث قـد بلغ، في ذلك الـوقت، السبعين أو الثمانين من عمـره. ويبدو أنه كان ما يزال يحتفظ بقواه رغم ما كان يشكوه من علـل كانت تضـايقه منذ حين. وكان يعتبر أقدر على الشؤون البحرية منـه على الشؤون البرية، وكـان عـلى استعداد دائم للدخـول في معارك يـائسة (عن خـوف لا عن تدبـير) وكـان الحظ حليفاً له في كل عملياته. ولم يكن حولـه رجال من ذوي القيمـة العاليـة. فقد كان القسم الأكبر من أتباعه من القراصنة، ورؤساء السفن القرصانية. وقد اعتـادوا ـ كقائـدهم ـ على الغـزو في البحر الأبيض المتـوسط[٣٦]. أما الجنـد فقد كانت قيادتهم إلى (السنجق دار)[٣٧].

وامتدت سيطرة درغوث فشملت طرابلس الغرب بأسرها. وبلغت جنوباً منطقة غريان، وشرقـاً منطقـة مصراتة، وكـان حكمه عـلى غربي طـرابلس أكثر توسعاً وامتداداً حيث شمل كل الجنوب التونسي من جربـة وصفاقس والمـونستير وسوسة والقيروان.

وكان تحت تصرف درغوث دخـل البلاد الـذي كان يـرتفع إلى مئـة ألف سكـودو سنويـاً. وكان ينفق منـه على الحـرس الذي لم يكن كبـير العـدد. وهـو يتألف في أغلبه من (المشارقة) الأتراك أو من الطارئين على الإسـلام المعتنقين لـه حديثاً. وكـان سلاح الفـرسان يتـألف من خمسمائـة فارس. وكـانت الحاميـة في طـرابلس تتألف من ستـمائة من المشـاة وألف وخمسمائـة من الفرسـان، أما بقيـة الجيش فهي موزعة على الحاميات الداخلية والساحليـة، هذا إلى سبعـين قطعـة مـدفعية أرضيـة، ومثلها عـلى ظهور السفن. وتكـوّن كلها مـدفعية البـاشا التي لا يمكن الاستهانة بها. وكانت إمدادات الأسلحة النارية متوفرة في الـوقت الذي كانت تقل فيه مؤن الجيش.

---

(٣٦) **F. Braudel.** Les Espagnols en Afrique du Nord de 1542 à 1577 in Revue Africaine LXIX 1928 p. 426 - 427.

(٣٧) تقرير الأسقف كراتشيولـو. . . السنجق دار، معناهـا صاحب العلم أو حـامله، أي القائـد، وهو يحمل لقب «بك». والفقرات التالية ملخصة عن التقرير وتردد آراء الأسقف المذكور.

كان الأهالي يكرهون درغوث، ويضيقون بالضرائب الفادحة ولا يطيقونها. وكان البدو من أولاد سليمان في الشرق[٣٨]، والمحاميد في الغرب[٣٩]، وزعماء الجبل يرفضون الخضوع لحكمه، وكانوا في حالة تمرد دائم. وقد رأينا كيف ثار سكان تاجوراء على حكومة طرابلس في سنة سابقة.

وفي مثل هذه الأوضاع كان من السهل، حسب رأي الأسقف كروتشيولو، الاستيلاء على طرابلس بطريقة تعتمد على المباغتة، وبحملة تتألف من ست وستين سفينة تحمل على ظهرها تسعة آلاف من المشاة، على أن تلتزم السرية التامة في العمل، إذ إن درغوث قد زرع جواسيسه حتى في البلدان المسيحية. وهو يتلقى عن طريق (حلق الوادي) بتونس أخباراً باللغة العربية، يبعث بها إليه العرب المقيمون بمملكة نابولي وصقلية.

ويقول الأسقف إن الحملة يجب أن تنزل جنودها شرقي طرابلس، في الموقع المعروف باسم (برج الماء) حيث يكون نجاح الحملة أمراً محققاً، بالنظر لضعف أسوار المدينة والقلعة، واحتمال تضامن العناصر الطارئة على الإسلام في الدفاع عن قضية واحدة مشتركة.

ومن المعلوم أنه لم يجر حتى مجرد التدبير أو التخطيط لهذه الحملة. فقد كانت ذكرى فشل حملة جربة وإخفاقها ما تزال حية في النفوس، حتى ذلك الوقت.

٥ ـ حصار مالطا ووفاة درغوث باشا ١٥٦٥

في ذلك المعقل المنعزل بجزيرة مالطا المجهزة بالحصون القوية الممتازة، نظم فرسان القديس يوحنا أسطولاً جريئاً كان يضايق قراصنة الشمال الإفريقي والأتراك، ويقطع عليهم سبيل الاتصال بالقسطنطينية وجزر إيجه ومقاطعات إفريقيا الشمالية.

---

(٣٨) في النص (سلمان Sulman).

(٣٩) في النص (Alahamiti).

وكان قراصنة طرابلس والجزائر يقيمـون حسابـاً كبيراً لسفن مـالطا التي لم تكتف بالمراقبة البحرية التي تقوم بها في حملات سنوية، تعـرف باسم القـوافل. ولكنها كانت تنتقل في الغالب بهجماتها وغـزواتها إلى مـوانىء الشمال الإفريقـي للقيـام بعمليات تخـريبية، وأسر الأرقـاء الذي يستخـدمون في أعمـال التحصين بمالطا. وفي الأعمال البحرية التي تعتمد على المجداف.

وفي نهاية ١٥٦١ نزلت حملة من فرسان مالطا ليـلاً بقصر أحمد (بمصراتـة) ونهبت الموقع. ثم عادت أدراجها حـاملة معها خمسـة وستين أسيـراً (أغلبهم من النساء والأطفال)(٤٠).

إن أسبـاب الخلاف بـين الأتراك وبـين فـرسـان مـالـطا لا تـدخـل تحت حصر. نظراً لحالة الحرب الدائمة القائمة بـين الطرفـين. فلم يكن يمضي عـام دون اصطدامات أو خطف للسفن. ففي ربيع ١٥٦٤ استولت الفرقة المالـطية على سفينة صغـيرة تابعـة لسواحـل (بربـريا). وسفينتـين للشحن كانتـا تحملان التجهيزات المرسلة من الآستانة إلى درغوث بطرابلس.

وفي يوليو، من نفس العـام، هاجمت هـذه الفرقـة المالـطية، في منخفض الأدرياتيك، سفينة تركية كبيرة في طريقها من القسطنطينية إلى البندقية(٤١).

ولم يكن السلطان سليمـان الطاعن في السـن الذي قدر له في الماضي أن يطرد فرسان رودس، ثم ينتزع منهم السيادة على طـرابلس، ليعرض عن إلحـاح أتباعه الذين كانوا يطالبونه بإنزال العقاب الرادع الذي يضرب به المثل، يحد به من جرأة فرسان مالـطا وتطاولهم. ويبـدو أن درغوث قـد التمس من السلطان، أكثر من مرة، المـوافقة عـلى القيام بتلك الحملة. وقـد أسندت قيـادة الجيش إلى السردار مصطفى باشا. وكان الأسـطول تحت إمرة بيـالي باشـا. ولكن السلطان أوصى قـواده كثيراً بـأن يسلموا قيـادهم لخبرة درغـوث ومهارتـه، عند التحـاقـه بالحملة على مالطا.

(٤٠) بوزيوج ٣ ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٤١) روسي: تاريخ بحرية نظام فرسان مالطا ص ٤٦ ـ ٤٧.

وكانت الحملة تتكون من مئتي قطعة بحرية، وخمسين ألف رجل. وقد وصلت أمام الجزيرة يوم ١٨ مايو ١٥٥٦، فوجدت الفرسان قد أعدوا أنفسهم للدفاع عنها، في حصون (سان المو Sant' Elmo وسان ميكيلي San Michele وسان أنجلو Sant' Angelo) وفي (البرقو Borgo).

وفي يوم ٢٩ مايو، وصل (علج علي)، وأصله من كالابريا، قادماً من الإسكندرية لدعم الحملة. وكان درغوث قد وصل إلى مالطا يوم ٣٠ مايو ١٥٦٥ قادماً من طرابلس على رأس ثلاث عشرة قطعة وغليوطين وألف وأربعمائة مسلح.

وعندما بدأ مصطفى باشا حصار سان ألمو في أقصى جزيرة (شيب الرأس أو شائب الرأس Sceberras) التي تقوم عليها الآن مدينة (فاليتا)، عارض درغوث الخطة التي رآها غير مناسبة، وكان من رأيه تحبيذ الهجوم على حصن سان أنجلو والبرقو. ومع ذلك فقد اتجه بكل قوته وحماسه إلى قيادة الهجمات المتكررة على حصن سان ألمو. وصد المدافعون هذه الهجمات بلا ملل ولا إعياء. وعاد الأتراك إلى تجديدها دون توقف، وبتضحيات كبيرة في الجند. وكانت المدفعية التركية تدك الحصن وجرت المعارك في الأيام الأخيرة فوق الأسوار.

وفي ١٦ يونيو، وبينما كان درغوث خارج الخنادق يهم بقيادة هجوم جديد حاسم، أصابته شظية صخرية طائشة في رأسه، منطلقة من القصف الصادر عن حصن سان أنجلو. وقد ظل بين الحياة والموت حتى يوم ٢٣ يونيو، حيث توفي في نفس اليوم الذي تمكن فيه الأتراك من اقتحام آخر المعاقل الدفاعية. ودخلوا حصن سان ألمو، وقد نقل جثمانه إلى طرابلس ودفن بجوار المسجد الذي بناه.

وقد أثارت وفاة درغوث شيئاً من القلق بين صفوف المهاجمين، ومع ذلك، واصل مصطفى باشا الهجمات، على أمل الاستيلاء على مركز الدفاع، أي البلدة التي كانت تحميها قلاع سان أنجلو وسان ميكيلي. وكانت مقاومة الفرسان والجنود الإيطاليين مقاومة بطولية، كما لو كانوا يشعرون في ذلك

الوقت أنهم، بدفاعهم عن مالطا، إنما يـدافعون عن مصـائر إيـطاليا والمسيحيـة بأسرها.

وقـد ضاعف المـرشد الأكـبر (فرا جيـوفاني لافـاليتي) من جرأتـه وحيـويتـه وطاقاته حتى يشجع زملاءه، في تلك الفترة العصبيـة المريـرة التي امتدت طـوال شهري يوليـو وأغسطس. ولم تصـل إلا في التاسـع والعشرين من يونيـو نجدة صغيرة من صقلية. أما النجدة الكبرى التي كانت معقد الآمال فلم تصل إلاّ في الليلة الواقعة بين السادس والسابع من سبتمبر. حين يئست الحملة العثمانية من النصر، وأخـذت تعد العـدة للانسحـاب، بعدمـا فقدت مـا يقرب من عشرين ألف رجـل، وهي أرقام تفـوق جداً خسـائر الفـرسـان التي بلغت في مجمـوعهـا ستمائة من الفرسان، وتسعة آلاف تقريباً من مقاطعات إيطاليا ومالـطا من الجنود الذين أبدوا مقاومة بطولية.

إن مالطا التي تحتفل بالسابع من سبتمبر، كعيد وطني، مـا تزال تحتفظ في متحف السـلاح بخنجر ودرع ينسبـان - دون سند مؤكـد - إلى درغـوث. وثمـة رأس بري يقع غربي سان ألمو (عند الطرف الأقصى المقابـل للمرسى حيث شيـد فيما بعد برج أو حصن تينيه Tigne) يعتقد أنه الموقع الـذي أصيب فيه درغـوث بضربته القاتلة ويسمى (رأس درغوث)[٤٢].

---

(٤٢) بخصوص الحصار، انظر:

Bosio, (III p. 566 - 576).

Cirni. (Commentari) ecc Roma 1567.

C. Sanminiatelli Zabrella, (Lo Assedio di Malta 18 maggio - 8 Settembre,1565, Torino 1902.

Rossi, L'assedio di Malta nel 1565 secondo gli storici ottomai in Malta letteraria, maggio 1926 p. 143 - 152.

وبخصوص الروايات التركية حول الحصار المذكور انظر (هامر Hammer).
في تعبير ابن غلبون (أظهر العلم والورع).. المعرب.

وقـد أطلق الكتاب المسلمـون على درغـوث صفة الشهيـد[٤٣]، لأنـه مـات وهـو يقاوم الكفـار. وذكراه مقـدسة عنـد المسلمين الـذين يتمتع لـديهم بمنزلـة (الولي) أي (المرابط) كما يقال في لغة العامة. مثل مراد آغا.

وقد اهتم الأتراك بإحياء ذكـراه أكثر من اهتمام الطرابلسيين الذين يقـترن اسمه في أذهانهم بمسجده وضريحه، والذين لم يحبوه أثناء حياته، وكانـوا ينظرون إليه كحاكم أجنبي. وحين حاولت الحكومة العثمانية في مـطلع القرن الحديـث تدعيم قواتها، أطلقت اسم (درغوث) على بعض السفن الحربيـة، رمزاً لـلأمجاد القديمة وتخليداً لها. وعلى الرغم من الظلال المقيتة التي يقدم من خلالها التاريـخ الغربـي صورة هذا القرصان الجريء والبحار الماهر، فإنه من الحق أن يقال أنه كان إحدى الشخصيـات المميزة للقـرن السادس عشر. مـات في سن متقدمـة. أقرب إلى الثمانين منه إلى السبعين، ومع ذلك فقد كان ما يـزال في عنفوان قـوته وحيويته.

وفي مـالطا، وفي سنـة ١٥٦٥، بـدأ الصراع بـين الهـلال والصليب. وقد انتهى بانتصار المسيحيـة ذلك الانتصار الذي تأكد بعد ستة أعـوام من ذلك في معركة (ليبانتو). وقـد أضعـف من هذه الانتصـارات وقوع تـونس في سنة ١٥٧٤ بصفة نهائية في أيدي الأتراك الذين ظلوا بهذه الطريقة سـادة الشمال الإفريقي. وقــد تطلب الأمـر مضي أكثر من ثـلاثـة قـرون أخـرى قبـل أن تتمكن الـدول الأوروبية من الغلبة ونقل سيطرتها وحضارتها إلى سواحل الشمال الإفريقي.

٦ ـ خلفاء درغوث حكم طرابلس ١٥٨٦

لم يتأكد رأي المؤرخين، أو يتم الاتفاق بينهم علـى الشخص الذي خلف درغـوث في الحكم سنة ١٥٦٥. فبعض الـروايات تـرى أن هذه المهمـة قـد أسنـدت إلى يحيـى باشـا الذي لا نعـرف عنه سـوى أنه مـات في سنة ٩٧٣ هـ

(٤٣) Spartaco Murgo, Dragut il Pirata - Re di Tripoli in Tribuna coloniale 23-12-1922.

(٢٩ يوليو ١٥٦٥ ـ ١٨ يوليو ١٥٦٦) وأنه قد دفن بقصر قرقوش بقرقارش[٤٤].

أما بعض المصادر الأخرى فترى أن خلافة درغوث قد انتهت إلى (علج علي) المعروف لدى المؤرخين الغربيين باسم (Lucciali - Occhiali Occiali) وكان هذا الرجل من الذين اعتنقوا الإسلام، وأصله من (كالابريا Calabria) ومن مواليد بلدة (كاستللي Castelli) الواقعة قرب (رأس الأعمدة Capo delle Colonne) وكان قد أسره أحمد علي، وهو أيضاً يوناني الأصل من المحدثين في الإسلام وكان من رؤساء البحر بالجزائر. فرمى به إلى عمل المجداف. وكان قبيحاً دمياً ولذا لقب (بالفرطاس). وقد برز اسمه في أعوان درغوث. وقد أرسله سنة ١٥٦٠ إلى القسطنطينية للإبلاغ بوصول الأسطول المسيحي إلى جربة. وعاد مع الحملة العثمانية ضمن حاشية بيالي باشا. وكان له نصيب وافر في توجيه المعركة الحربية التي انتصر فيها الأتراك. وفي سنة ١٥٦٥ كان يشارك في حصار مالطا. وحين مات درغوث رافق جثمانه إلى طرابلس، ثم عاد إلى مالطا عند نهاية الحصار[٤٥]. وقد حصل على ثروة طائلة من القرصنة، ومن الثروة التي خلفها درغوث[٤٦]. ولا يستبعد أن يكون قد خلف درغوث في حكم طرابلس. وكان عليه أن يواجه مهامّ شاقة لإخضاع عرب الدواخل المتمردين. وفي سنة ١٥٦٧ تمكن من إخضاع أهالي تاجوراء وتاورغاء. وألزمهم بدفع الضريبة التي بلغت ثلاثة آلاف دوكاتو[٤٧].

وقد بني (علج علي) البرج المربع للدفاع عن السور المجاور لباب المنشية. وكان قد هد في الأساس ليكون مخزناً للبارود. ومن هنا جاءت التسمية (دار البارود). وقد كشفت الترميات الأخيرة عن الوضع الهندسي الداخلي لهذا الحصن، بميادينه الخاصة بالمدافع، وبفتحاته (feritoie) التي تواجه السهل الواقع شرقي طرابلس، حيث تقوم المدينة الجديدة. ويذكر أحد الشواهد

(٤٤) ابن غلبون ص ٩٩ (ص ٧٤) ـ النائب ص ٢١٣ ـ فيرود ص ٧٧.

(٤٥) **Cirini**, Commentari, fol 120.

(٤٦) **Haedo**, Historia de Argel fol 77.

(٤٧) مارمول ج ٢ ص ٣٠٥.

التاريخية بتاريخ ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ ـ ١٥٦٨) أنه شيد من قبل علي باشا(٤٨). وفي ١٥٦٨ عين السلطان سليم الثاني، علي باشا (بيلربي الجزائر). وبعد ثلاثة أعوام من ذلك برز في معركة (لبانتو) حيث سحب فلول الأسطول العثماني إلى القسطنطينية. وكان قد نال حظوة كبيرة لدى السلطان الذي كرمه وغير اسمه من (علج علي) (ومعناها الجنس المسترق غير العربي) إلى (كيلغ Qilîg) ومعناها السيف. وعهد إليه بالقيادة العليا للأسطول. وهو معروف لدى الأتراك باسم (Qilîg') علي وبهذا عرف المسجد الجميل الذي بناه في (طبخانة Topkhàne) على ضفاف البسفور.

مات في ٢٧ يونيو ١٥٨٧ في القسطنطينية عن عمر يناهز الثمانين(٤٩).

وعندما انتقل (علج علي) إلى حكم الجزائر سنة ١٥٦٨، خلفه على حكم طرابلس جعفر باشا(٥٠). وهو روسي الأصل لا تتوفر لدينا معلومات وثيقة عنه. وقد وقعت في هذا العهد معركة (لبانتو) التي تذكر في تاريخ طرابلس بالنظر إلى أهميتها، ومشاركة طرابلس فيها بستة مراكب (غاليرات)

---

(٤٨) أوريجا Not. Arch. Min. Colonie II p. 279

(٤٩) نشر عن (علج علي) كتاب لا يخلو من الأخطاء هو:

Defontin - Maxange (Alger avant la conquête Eudji Ali Corsaire Beglier bey d'Afrique et grand-Amiral , Paris 1930.

انظر أيضاً:

Volente, Vita di Occhiolo, Milano 1960.

(٥٠) تذكر مخطوطة (جيرارد) المؤلف الفرنسي المجهول، وكذلك (فيرود ص ٧٧) أن الوالي كان اسمه جعفر وهو الاسم الذي تؤكده اللوحة التذكارية التي كانت معلقة بباب المنشية. ويرى آخرون، مثل النائب ص ٢١٣، أن الولاة الذين تعاقبوا بعد درغوث هم يحيى باشا ومصطفى باشا، ويغفل ذكر (علج علي). أما (القيرواني) فيرى أن خليفة (علج علي) كان مصطفى باشا. وهكذا ورد اسم بليربي طرابلس في مرسوم صادر من القسطنطينية بتاريخ ١٥٧٤ يوضح أوضاع الحملة على تونس. . . أنظر:

رفيق: وثائق رسمية حول حملة تونس ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة استانبول (١٩٢٦) باللغة التركية.

و (غليوطين). وقد فقدت طرابلس فيها (غاليرتين وغليوطين). ولم يسلم الوالي من الكارثة إلا بمشقة[٥١].

ويلاحظ أن (الجامعة المسيحية) التي تمت في سنة ١٥٧٠ كانت تنوي ـ طبقاً للمخطط الاسباني ـ أن توجه حملاتها أولاً إلى استعادة طرابلس واحتلال الجزائر. ولكن خطة الهجوم المباشر على الأتراك تغلبت في آخر الأمر، بالنظر إلى إلحاح البندقية والبابا عليها[٥٢].

وساهم جعفر باشا أيضاً في احتلال (حلق الوادي) وتونس في سنة ١٥٧٤، ضمن الحملة التي كانت بقيادة (علج علي) قائد الأسطول، وسنان باشا[٥٣].

ويبدو أن حكم جعفر باشا قد اتسم بالطغيان، وأنه قد أرهق البلاد

(٥١) مخطوطة (جيرارد ج ١ ورقة رقم ١٤٩). وقد أكد المؤرخ التركي حاجي خليفة في كتابه (تحفة الكبار ص ٩٣) وجود جعفر باشا في معركة لبانتو، وكذلك (هامر ١٢ ص ٥٩٧) بينما يذكر مارمول (ج ١ ـ ٢٩١) اسم (شعبان شلبي) حاكم طرابلس الذي حضر المعركة على رأس ٢٢ (غليوطة).

(٥٢) بالإضافة إلى الكثير الذي كتب حول معركة لبانتو، يحسن الرجوع إلى:

D. Serrano, La Liga de Lepanto entre Espana, Venecia y la Santa Sede 1590 - 1573 Madrid 1918 - 1919-1-2 vol.

(٥٣) طبقاً للوثائق التي نقلها أ. رفيق في دراسته المنوه عنها في الهامش رقم ٥٠ من هذا الفصل فإن (بليربي طرابلس) الذي نهض ضد حلق الوادي وتونس هو مصطفى باشا. ويذكر حاجي خليفة (ص ٩٨) والمؤرخ .Pecevi (ج ١ ـ ٥٠٢) مصطفى باشا. أما (السجل العثماني ج ٤ ص ٣٧٥) فيقول إن مصطفى باشا كان بليربي الجزائر ثم طرابلس. وقد ساهم في الحملة على تونس. وتجد هذه المعلومات المتضاربة خلالها في رأي فيرود (ص ٧٧) الذي يرى أن جعفر باشا قد أرسل إلى تونس قائد جنده مصطفى باشا. وربما أمكن توضيح الأمر بأحسن من ذلك بافتراض أن بليربي طرابلس في ذلك العهد كان يسمى (مصطفى جعفر) على طريقة التسمية الثنائية الشائعة لدى الأتراك. ويشير(السجل العثماني) (ج ٢ ـ ص ٧٠ ـ ٧١) إلى شخصين مسميين باسم جعفر باشا أحدهما روسي الأصل، تولى ولاية تونس وتوفي في ٩٩٥ هـ (١٥٨٦ ـ ١٥٨٧) والثاني كان حاكماً على (تبريق Tebrig) دون أن يشار إلى أن أياً منهما قد تولى ولاية طرابلس الغرب.

بـالضرائب الفادحـة البغيضة. وقـد هاجـر سكـان جـربـة، وتشتتـوا في مختلف البقاع، هربـاً من جوره وبـطشه[٥٤]. أمـا سكان طـرابلس فقد ثـاروا على فـداحة الضرائب. وفي سنة ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ - ١٥٧٥) ثار المدعو (حجاج؟ 'Haggàg) في غـريان[٥٥]. وعمـد جعفر بـاشا في سنـة ١٥٧٧ إلى تخفيض الضريبـة بـواقـع النصف حتى يحـد من ثـورة (نـويـر)[٥٦]. وقـد خلد اسم جعفـر بـاشـا بلوحـة تذكاريـة ترجع إلى سنة ٩٨٩ هـ (١٥٨١ - ١٥٨٢) وضعت فوق باب المنشية. بمناسبة إعادة ترميمه. وقد ثبتت على جانب آخر من السور عنـدما جـرى تهديم الباب[٥٧]. وسوف نشير - فيما بعد - إلى ما تم في عهد جعفر باشـا من احتـلال الأتراك لفزان، وتنشيط العلاقات التجارية مع بورنو سنة ١٥٧٨. وتـوفي جعفر باشا حوالي سنة ١٥٨٢، وخلفه رمضان باشا ولا نعرف إلا القليل عن أحـداث عصره[٥٨]. لقد جاء إلى الحكم من الجزائر سنة ١٥٨٣[٥٩]، وقاد حملة على أهالي الجبل الثائرين، ووصل إلى ككلة في عنفوان الصيف، ووجد الآبـار قد ردمت، وكـان عليـه أن يعـود أدراجـه، وكـانت متـاعب الحملة قـد أوهنت نفـوس الانكشاريـة فقتلوه في طريق العودة سنة ١٥٨٤[٦٠].

وكانت أرملته، وهي مسيحية الأصل قبرصية سبيت سنة ١٥٧٠، عائـدة إلى القسطنطينيـة على ظهـر سفينة كبـيرة (غالـيرا)، فهاجمهـا عند جـزيرة (زانتي

---

(٥٤) فيرود ص ٧٧.

(٥٥) ابن غلبون ص ٩٩ (ص ٧٤).

(٥٦) نوير: بطن من بطون قبيلة المحاميد.

(٥٧) أوريجا. Not. Arch. min. Colonie II p. 180.

(٥٨) هذا ما يمكن أن يستخلص من فيرود ص ٧٧.

(٥٩) **Garrot,** Histoire générale de l'Algerie, Algerie 1910 p. 437.

(٦٠) مخطوطة (جيرارد) ورقة ١٥١ - ١٥٤ ج ٢ وقد اعتمد عليه فيرود ص ٨٠. وكذلك:

D. Haedo, (trad. nella Revue Africaine XXIV 1880 p. 432.

أما دي ثو:

De Thou (Histoire Universelle IX for 226.

فيقول إن الجند قد قتلوه أثناء حربه ضد سلطان القيروان.

Zante) الكابتن البندقي (P. EMo) فاستولى على السفينـة بعد معركة مريـرة. قتل فيها مئتان وخمسون رجـلاً من البحارة، وكانت تحمل أربعمائة من الأرقاء، وثـمانمئـة ألف سكـودو. وقـد اغتصب النســاء ثم ألقى بهن في البحـر، ولقيت الأرملة نفس المصير.

ولم تدخر الحكومة العثمانية وسعــاً في الحصول عـلى تسويـة عادلــة لهذا العمل القرصـاني الذي قـام به البنـدقي الذي قـطع رأسه، وأعيـدت السفينة، وعوض الأسرى الأربعمائة بعدد مماثل(٦١).

ويقـول فيرود (متـابعاً في ذلـك جيرارد) إن رمضـان باشـا قد خلفـه على الحكم مصـطفى باشـا الذي حكم حتى سنـة ١٥٨٨. ولكننا نفتقـر إلى الأخبار الـوثيقة في هـذا الصدد بينـما توجـد وثـائق يمكن أن يستخلص منهـا أن (بليربي طـرابلس) فـي سنة ١٥٨٦ كـان حسن باشـا. وكان لـه أسـطول يجـوب البحـر الأبيض المتـوسط. وقد قـام القراصنـة الـطرابلسيـون بـالاستيـلاء عـلى سفينـة إنجليزية قرب جبل طـارق، ونقلوا الأسرى إلى طرابلس. وكـان السلطان مراد الثاني على علاقات طيبـة مع الملكـة أليزابيت، ملكـة إنجلترا. فكتب إلى حسن بـاشا يـأمره بـإطـلاق الأسرى، ولكن الـوالي رد قـائـلاً (لن أطلق سراح هؤلاء الكفار، حتى ولو أقصيت من منصبي، وسـأغنم سفنهم حيثما وجـدتها). وكتب إليـه السلطان، مرة أخـرى بتاريـخ ٢ رجب ٩٩٤ هـ (يـونيـو ١٥٨٦)، ولكننـا نجهل النتيجة التي انتهت إليها هذه المكاتبة الأخيرة(٦٢).

وقـد حكم حسن بـاشــا طـرابلس حتى سنــة ١٥٨٦ أو سنـة ١٥٨٨،

---

(٦١) هامير. **Hammer,** (trad. italiana XIII p. 283-284
أمـا (فيرود) ص ٨٠ فـيرى أن المرأة كـانت أخت رمضان بـاشا وليست أرملتـه وأن اسم هذه الأخـت أمينة.

(٦٢) استخلصت هذه المعلومات من المقال الذي نشره أحمد رفيق المدعم بوثائق المحفوظات العثمانية في المجلة التركية:

Yeni Meg' nùah anno 1-1917

m. 4 p. 69-71

والراجح أن يكـون هو المقصـود باسم (علج حسن) الـذي تحدث عنـه (حاجي خليفة) في تاريخه، وقال: إنه قدم في صيف ١٥٨٨ من المغرب إلى القسطنـطينية وعين على رأس الأسطول العثماني، وهو نفسه الذي سافـر في العام التـالي لقمع الثورة في طرابلس[٦٣].

٧ ـ الاضطرابات في طرابلس خلال الأعـوام ١٥٨٨ ـ ١٥٩٠ والأعوام العشرة التالية

لقد مرت طرابلس الغرب خلال أواخر السنـوات العشر الأولى من القرن السـادس عشر، ومطلع القـرن التالي لـه، بفترة من الاضـطرابـات المتـواصلة، بسبب ازديـاد الـروح العـدائيـة لـدى العـرب، وانتشـار الفـوضى في أوسـاط الإنكشاريـة الـتركية التي جعلت منهـا ـ منذ ذلـك الحين ـ مثـاراً للاضـطرابات والقلاقل.

ويلاحظ المؤرخ الطرابلسي، ابن غلبون، بحق، أن الجند قد تغلبوا عـلى الحكومة، وأن الـوالي الموفـد من القسطـنطينية لم يعـد يتمتع بـأي امتياز، أو بتعبـير المؤرخ نفسه (وتغلب الجنـد على أمـر البلد، فلم يكن لـواليهـا من قبـل السلطان تصرف، واضطرب أمرها وفسد نظام الملك وكثر الهرج في الرعية)[٦٤].

ونقم سكـان الـدواخـل بسبب ظلم الأتـراك، وجعلت الاضـطرابـات

وقد نشر (ميرويـر) أيضاً وثـائق من محفوظـات مارسيليـا أشارت إلى حسن بـاشا كحـاكم على طرابلس سنة ١٥٨٦.

M. Mireur (Documents pour servir à l'histoire de la France, mélanges historiques V p. 631.

أما ماسون فيرى أن الحادث قد وقع بطرابلس ١٥٨٣.

Masson, Hisoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique Barbaresque Parigi - 1903.

Costa e Discorsi di Barberia di Lanfreducci e Bozio, Revue Africaine 1925 p. 78-81.

(٦٣) حاجي خليفة (تحفة الكبار) ص ٩٩.

(٦٤) ابن غلبون ص (١٠١) (ص ٧٦).

والثـورات البلاد في حالة من الهيجـان الملائم لـلاستجابـة إلى دعوات الـرجال الذين امتلأت نفـوسهم بالحـماس الديني والـطموح السيـاسي. وتلك هي الفترة التي تعكس أكثر من غيرهـا حوادث الانتفاضات التي كان يقودها المرابـطون أو المغامرون.

ويقـول ابن غليـون إن يحيى بن يحيـى السـويـدي، وهـو رجـل علم وورع، قدم من المغرب، فـوضع نفسـه على رأس الثـورة التي اندلعت في سنـة ٩٦٦ هـ (١٥٨٨ ـ ١٥٨٧) بتاجوراء على المذبحـة التي قام بهـا الأتراك لمجمـوعة من الحجاج. وقد وجد أتباعاً له في تاجوراء ومسلاتة. واستطاع بفصاحته وبيانه أن يجمع حواليه (حاضر الوطن وباديه). وقد خرج إليه الجند الأتـراك لمقـاومته وقمع حركته. ولكنهم هزموا عند مسـلاتة، وكسروا وقتـل منهم نحو الألف من قبل سكان زليطن وضواحيها[٦٥].

ووجد الوالي نفسه إزاء خطر محدق عظيم، فـاتجه إلى طلب النجـدة من والي تونس. ويبدو أنه كافأه على هذا الصنيـع بـالتنازل عن حقـوقه في جـزيرة جربة[٦٦].

وتقـدم الثائـر حتى تاجـوراء، وحاصر طـرابلس، ولم يجد بـأساً في طلب

---

(٦٥) ابن غلبون ص ١٠١ (٧٦). مخطوطة جيرارد ج ١ ورقة ١٥٨ ـ فيرود ص ٨١ ـ ٨٢.
ورد ذكـر ثورة يحيى في مخـطوطة عـبرية يمتلكهـا (م. غـاسـتر M. Gasster) الـذي أعـطى عنهـا معلومات في مقال نشر بعنوان المهدي في طرابلس سنة ١٥٨٩ في مجلة (Islamica) المنشـورة في (Lipsia 1926 P. 193 - 199.) وتختلط الرواية اليهودية فتمزج بين التاريخ والأسـطورة وتقول إن يحيى بن يحيى قد قدم على تاجوراء، وزعم أنه المهدي وأعلن نفسه ملكاً على سكان المنطقة ومصراتة وغريان، وقد أباد الأتراك وأرغم اليهود على اعتناق الدين الإسـلامي ومنع استعـمال العملة التركية، وسك نقوداً خاصة به، وقد طلب محمود باشا (هكذا) حـاكم طرابلس نجـدة الآستانة. وقد حضر لنجدته حسن باشـا الذي هـزم ولم ينج إلا بمشقـة، ثم عاد بقـوات أكبر وانتصر على العرب الثائرين وقبض عـلى يحيـى وقتله وسلخه وأرسـل جلده محشواً بـالقش إلى القسطنطينية. وقد ألغى حسن باشا الإجـراءات التي فرضهـا على اليهـود بالتحـول الإجباري عن دينهم.
(٦٦) جيرارد ج ١ ورقة ١٦٠.

النجـدة من فرسان مالطا. وكانت هيئة فرسان مالطا التي حكمت طرابلس من ١٥٣٠ إلى ١٥٥١، والتي حـاولت استعـادة البـلاد بـالتعـاون مـع الحلفـاء المسيحيين عن طريق الحملة التي جـردت سنـة ١٥٦٠، وانتهت إلى الكـارثـة المؤسفة التي وقعت في جربة، تحتفظ بتطلعها إلى السيطرة على تلك القلعة الهامة (طـرابلس). أو كـانت تـرغب ـ عـلى الأقـل ـ في كفهـا عن أن تكـون وكـراً للقراصنة. وسنرى أنها أعدت في سنة ١٦٠٠ أيضاً حملة على طرابلس بـالتعاون بين فرسان مالطا وصقلية ونابولي. وجدير بالذكـر في هذا الصـدد أن فارسـين إيطاليين تابعين لفرسان مالطا وهما (بوزيو Bosio ولانفـردوتشي Lanfreducci)) قدما في سنـة ١٥٨٧، بتكليف من المرشـد الأكبر، تقـريراً يقـترحان فيـه القيام بعمليات مفاجئة ضد طرابلس[٦٧]. ونفهم من ذلك أن هيئـة فرسـان مالـطا لم تحجب مساعدتها عن الثائر يحيى. ويرى Dal Pozzo (دال بوتزو) الذي اعتمد في تـاريخه عـلى وثائق محفـوظات مـالـطا أن والي طـرابلس (حسن آغـا، ملك طـرابلس) قد انتقـل إلى القسطنـطينية، حـين تفاقم أمـر الثورة، لـطلب العون والنجدة. وقد قام الحاكم الجديد ـ أثناء غيابه ـ بالزج بالجنود الأتراك الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف رجل، في عملية إخماد الثـورة فقتلوا جميعاً. وحين نقص ما بيد هذا المرابط (يحيى) من مدفعية وذخيرة وخبراء، فكر في الاتجـاه إلى فرسـان مالطا. وأرسل وفداً إلى المرشد الأكبـر يطلب عونه ومساعدته على طـرد الأتراك من كل سواحل الشمال الإفريقي (بربريا).

وأرسلت هيئة الفرسان الجنرال (هـوميديس Homedes) قـائد الأسـطول على ظهر السفينة (كابتانا) التي غـادرت مالـطا في ١١ أغسطس ١٥٨٩ وأنـزلت أسلحة ومعدات حربيـة وبعض الخبـراء بشاطىء غير بعيد عن طـرابلس. مع الوعد بمزيد من العون والدعم. وفي ذلك الوقـت كان حسن باشـا قد حصـل عـلى نجدة من السلطان، ورجـع إلى طـرابلس بخمس عشرة سفينـة، وثـلاث

(٦٧) مونكيكورت وجراند شامب: المجلة الإفريقية الفرنسية ٦٦ ـ ١٩٢٥ ص ٣٥ ـ ١٦٥.

(معونات) وتسعة قوارب. وأحضر إلى المدينة عوناً من الرجال والذخيرة(٦٨).

وتتحدث عن هذه الفترة وثيقة هامة، ننقلها بنصها الكامل عن محفوظات هيئة فرسان مالطا، بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٥٨٩ (أي بعد بعثة الجنرال هوميديس)، وتتعلق بإرسال الفارس (كارلو ماركي Carlo Marchi) إلى السواحل الطرابلسية للحصول على معلومات عن نشاط (حسن آغا) الذي وصل بأسطوله، حينذاك، إلى بربريا. وكانت من مهمات الرسول أيضاً تشجيع (المرابط) يحيى على الاستمرار في المقاومة.

«تعليماتنا إليكم أيها الأخ في العقيدة، كارلو ماركي، الفارس الإيطالي، عمّا يجب عمله في رحلتك التي كلفناك بها، إلى سواحل بربريا.

سافروا باسم الله وبركة العذراء والقديس جيوفاني باتستا حامينا وراعينا بواسطة (الفرقاطة) التي أمرنا بأن تقلكم مع مجلس القيادة الذي خصصناه لكم. وحاولوا النزول قرب طرابلس، أو في أي مكان يبدو لكم أكثر ملاءمة وأمناً وبعداً عن التعرض للأعداء أو ملاقاتهم.

فإذا لم تجدوا في تلك الجهات من تتحدثون إليه فدبروا أمركم بمشورة المجلس إلى أن يساعدكم الله في الحصول على معلومات وثيقة، لا بخصوص التعليمات الصادرة عن حسن باشا فقط، ولكن عن حركة (المرابط) الذي يقود العرب أيضاً.

وحاولوا أولاً أن تستخبروا، بصفة خاصة، عن كل ما قام به حسن آغا، عقب مجيئه إلى طرابلس، وحالة القلعة، وكمية سلاحها ونوعيته، وعما إذا كان يخطط للبقاء (ببربريا) أثناء الشتاء، أم أنه سيعود، بعد أن يعيد الأمور إلى نصابها، وموعد عودته وسفره. وما إذا كان سيذهب أولاً إلى تونس، وبصفة عامة، عن كل ما يبدو لكم جديراً باهتمامنا من شؤون الحملة التركية.

---

(٦٨) **Dal Pozzo** (Historia della sacra religione militare di S. Giovanni Gerosolimitano - Verona e Venezia 1703 - 1715) P. 314 - 315.

واستخبروا أيضاً عمّا فعله (المرابط) وما ينوي فعله. وما إذا كان قد استلم الإمدادات والسلاح الذي أرسلناه إليه. وإذا ساقكم الله إلى مكان آمن قريب منه، وتمكنتم من التحادث معه بضع ساعات، دون تعريض شخصكم للخطر، وبعد الحصول على ضمانات متمثلة في رهائن، وفقاً لما تقضي به الحكمة والاحتياط، فلن يكون إلا الخير من ذهابكم إليه لتشجيعه على الصمود والدفاع. وأن تنقلوا إليه أننا أرسلنا إليه البريد، لمعرفة حاجاته، وأننا لن نتخلف أو نتقاعس عن مساعدته، بكل ما في وسعنا. وهو أمر اعملوا على إفهامه إياه بكل طريقة. فإذا تعذر عليكم مخاطبته شخصياً فاتصلوا به عن طريق العرب، وتغلغلوا في أوساطهم لمعرفة ما إذا كانوا قادرين على مقاومة الأتراك ومحاصرة مدينة طرابلس، رغم الدعم الذي ورد إليها، مع الحرص على كافة التفاصيل التي ترونها ضرورية، والتزام الحذر والحيطة. فإذا رأيتم أنكم قد حصلتم على المعلومات الكافية فاتخذوا سبيل العودة بأسرع ما يمكن، مع الحذر بأن لا يقع لكم مكروه في الذهاب والإياب. حماكم الله ورعاكم)[٦٩].

ولا تتوفر لدينا أية معلومات عن نتائج هذه المهمة التي قام بها الفارس (كارلو ماركي). ولكن لدينا معلومات عن الأوضاع العامة في مدينة طرابلس، عند نهاية سنة ١٥٨٩، سجلها شاهد عيان، هو الرحالة المغربي (أبو الحسن التمكروتي) الذي مر بطرابلس، في أكتوبر ١٥٨٩ في طريقه إلى القسطنطينية. وقد ذكر أنه وجد بطرابلس أسطولاً مكوناً من ستين سفينة[٧٠]. وأن المتمرد كان رجلاً متوحشاً، فظاً قاسياً. وأنه ثار للحد من عنف الأتراك وجورهم، ولكنه كان يتصرف في الواقع بدوافع الطموح وشهوة السيطرة والسلطان، وأنه

---

(٦٩) محفوظات مالطا:

Libri Bullarun, vol 445 (1588 - 1590) fol 274

Arch. Melit. VI P. 67 - 68.

روسي: سيطرة فرسان مالطا الخ.

(٧٠) حسب رأي المؤرخ العثماني (سيلانيكي Selàniki) في تاريخه ص ٢٦٧ وحاجي خليفة في (تحفة الكبار) ص ١٤٢ كانوا بقيادة جعفر باشا.

ألحق بالأتراك أضراراً فادحة وخسائر كبيرة. وأنه قتل منهم في معركة واحدة ألفاً وثمانمئة رجل، من اليهود الذين كانوا يجرون المدافع.

وقد استطاع الكابودان باشا، بعد مساعدة انكشارية الجزائر وتونس، أن يهزم المتمرد، ويدفع به وأتباعه إلى الصحراء، وقتل مئتي رجل من تاجوراء (لعلهم كانوا من أتباع المرابط). وفي ١٨ نوفمبر ١٥٨٩ غادر الكابودان باشا طرابلس، متجهاً بأسطوله إلى القسطنطينية. وقد سافر الرحالة المغربي مع هذا الأسطول.

أما الأحداث التالية التي وقعت سنة ١٥٩٠ فهي غير واضحة رغم أننا نعرف، بصفة عامة، النهاية البائسة التي انتهى إليها الثائر، فما كاد يسافر الأسطول حتى عاد الثائر إلى إضرام الثورة معتمداً على مساعدة فرسان مالطا.

وفي سنة ١٥٩٠ أرسلت من جديد فرقة من الأسطول مكونة من ثلاث قطع بقيادة (هوميديس) مع سفينتين مساعدتين إلى طرابلس. وقد سافر على ظهرها الكومندتور (ستيفانو كيارومنتي Stefano Chiramonte) مكلفاً بالاتفاق مع الثائر على خطة احتلال طرابلس. وكان عليه أن يتوجه الى مقابلة (المرابط) والاتفاق معه، لتوفير حراسة مكونة من خمسمائة مسلح لمساندة مجموعة من الخبراء والثقات، كان من المقرر أن تقوم تحت قيادة (الكومنتدتور أكتافيو دي كستلوني ساليرنس Ottoria de Castellone Salernes) بالاقتراب من مدينة طرابلس، وزرع لغم بأحد المواقع المناسبة، ونسف باب المدينة، فإذا دخلوا المدينة كان في وسعهم نسف باب القلعة بلغم آخر. وتقضي الخطة بوجوب

---

(٧١) النفحات المسكية في السفارات التركية، نشر:

H. De Castries, Paris 1929 p. 31.

وقد أكد دال بوتزو ج ٢ ص ٣١٥، سفر الباشا (حسن آغا) مع الأسطول العائد إلى القسطنطينية في نهاية ١٥٨٩.

(٧٢) روسي: سيطرة فرسان مالطا ورشة

Archivum Melitense VI p. 69 - 70.

ودال بوتزو ج ١ ص ٣١٨ - ٣٢٠.

(٧٣) دال بوتزو ج ١ ص ٣٢٠.

تدمير القلعة، واسترجاع مدفعية هيئة فرسان مالطا التي بقيت بها عقب الانسحاب الأول. وعلى المرابط أن يقدم الرهائن التي تحفظ فوق السفن كضمان، وأن يكون مستعداً لمساندة العملية. فإذا اتفق كيارومونتي مع المرابط فيجب أن يعود إلى السفن لاتخاذ القرار النهائي. وتضيف المصادر المالطية أن كيارمونتي قد نزل بزواغة، وذهب للتحادث مع (المرابط يحيى). ولكن يحيى وجد صعوبة في الاتفاق على العملية، ولم يفعل شيئاً من هذه الخطة الانقلابية الجريئة ضد طرابلس.

ويقول أحد المؤرخين الأتراك[٧٤]: إنه بعد سفر الباشا قام المتمرد بمهاجمة والي[٧٥] تونس أحمد باشا الذي كلف بالدفاع عن طرابلس، وأضرم النار في مخزن البارود، فقتل أحمد باشا. ولكن جنوده هاجموا المتمردين بعنف وهزموهم وقتلوا (المهدي) المزعوم (يحيى) وسلخ جده وأرسل إلى القسطنطينية حيث عرض فترة من الزمن في ميدان (بايزيد)[٧٦].

وكان الرحالة المغربي الذي أشرنا إليه موجوداً بالقسطنطينية في ربيع ١٥٩٠ حين وصل جلد القتيل، فوق إحدى السفن التي كادت تتعرض للغرق. وهو يقص علينا أن الجلد قد عرض في أسواق المدينة، وأن السلطات قد كافأت الذين قتلوه بالنقود والهدايا وأقطعتهم بعض الأراضي في بلدانهم[٧٧].

وقد أكد هذا المؤرخ الطرابلسي ابن غلبون. ويقول إن المتمرد قد سلم إلى الأتراك من قبل (نوير) أحد زعماء قبيلة المحاميد. ومكافأة لهم على هذا

---

(٧٤) سيلانيكي ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٧٥) يعرف أحمد باشا والي تونس (بالاستنكولي) لأن أصله من (كوس) وقد صار ابنه علي كابودان باشا للأسطول العثماني وصدراً أعظم فيما بعد (١٦١٨) - حاجي خليفة ص ١٤٢. يجانب حاجي خليفة الصواب حين يقول في ص ٩٩ إن حسن باشا قد تمكن في حملته التي قام بها سنة ٥٨٩ من قتل المرابط الثائر.

(٧٦) دال بوزيوج ١ ص ٣٢٠ وقد ذكر أن المرابط سلخ حياً وحشي جلده بالقش وأرسل إلى القسطنطينية.

(٧٧) نفس المصدر المتقدم ص ٣٤.

الصنيع (كتب لهم في خراج البلد، وجعل لهم منه سهماً وافراً، وأمر بتعظيمهم حين القدوم لدار الملك، طرابلس، فلم يزالوا عليها وفيهم بقية من ذلك إلى يومنا هذا) أي إلى عهد المؤرخ، حوالي سنة ١٧٣٠[٧٨].

وجرى تغيير (بليربي طرابلس) الذي لا نعرف اسمه، وعين بدلاً منه أحمد باشا بن عويس في يوليو ١٥٩٠.

أما الفترة التي تمتد من سنة ١٥٩٠ إلى سنة ١٦١٠ تقريباً فهي من أشد الفترات غموضاً في تاريخ طرابلس. وتعطينا مخطوطة (جيرارد) التي أخذ عنها (فيرود) هذه السلسلة من الولاة المتعاقبين[٨٠]:

مصطفى باشا من ١٥٨٤ حتى ١٥٨٨.
حسين باشا حتى ١٥٩٥.
إبراهيم باشا حتى ١٦٠٠.
اسكندر باشا حتى ١٦٠٦.
سليم باشا حتى ١٦٠٧.
علي وأحمد باشا من ١٦٠٧ حتى ١٦٠٩.

وهذه القائمة من الولاة غير ثابتة تاريخياً، بل ثمة وثائق تبدو مشككة في صحة هذه القائمة، كما رأينا فيما تقدم من حديث عن وجود حسن باشا بطرابلس.

إن السجل العثماني لثريا بك Thureyyâ يخبرنا بأن جعفر باشا الملقب (بالفرنج) (وهو أحد المعتنقين للإسلام الذين تربوا في مدرسة علج علي) كان حاكماً لطرابلس من سنة ١٠٠١ هـ إلى ١٠٠٥ هـ (١٥٩٢ - ١٥٩٣ إلى ١٥٩٦ - ١٥٩٧).

---

(٧٨) ابن غلبون ص ١٠١ (ص ٧٦).
(٧٩) سيلانيكي ص ٢٦٦.
(٨٠) فيرود ص ٨٠.

ونفتقر إلى الشواهد التاريخية واللوحات التذكارية لهذا العهد. وقد ورد ذكر علي بك في إحدى هذه اللوحات التذكارية المثبتة في مسجد درغوث باشا بتاريخ ١٠١٣ هـ (١٦٠٤ ـ ١٦٠٥). ولعل مرد ذلك إلى قيامه بالترميم، وربما كان يشغل في ذلك الوقت مركز قائد الجند.

وقد استخرج (فيرود) بعض أخبار هذه الفترة من تاريخ جربة، حيث أقام إبراهيم باشا مذبحة، في تلك الجزيرة سنة ١٥٩٨، وسلخ الشيخ عبد الله البرجي حياً بتهمة معارضة قوانينه الجائرة ومقاومة العنف الذي قامت به قوات الباشا المذكور. وفي عهد اسكندر باشا شيد التونسيون حصناً عند (البيبان) رسم الحد الفاصل بين تونس وطرابلس. وقد قدموا ـ حوالي تلك الفترة ـ مساعدات لسكان جربة، وانتزعوها بصفة نهائية من تبعية طرابلس(٨١).

وفي نطاق هذا الغموض الذي يلف العصر، وقلة الأخبار عنه، فإن الشيء المؤكد أنه قد استمرت، طوال ذلك الزمن كله، ثورات العرب على الأتراك المسيطرين. ففي سنة ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ ـ ١٦٠١) قاد المدعو عبد الصمد ثورة على الأتراك. وبعد ثلاث سنوات من ذلك، قاد المدعو (نيال)(٨٢) ثورة أخرى في تاجوراء. ومن الثابت أنه كان والياً (مرابطاً) كالآخرين وكان للثورة طابع ديني، وقد عبر المرابط عن حقده على الأتراك في العبارة التالية (حيثما يضع التركي قدمه يسود الخراب ولا ينمو العشب)(٨٣). وقد هاجم المتمردون المعسكر التركي الواقع عند السهل الشرقي للمدينة. وذبحوا الإنكشارية، ودخلوا المدينة ونهبوها. ولقي هذا المرابط مصير أسلافه، إذ خذله أتباعه وخانوه وسلموه، فسلخوه وأرسلوا جلده إلى القسطنطينية(٨٤).

إن الرحالة المغربي (التمكروتي) الذي أشرنا إليه، والذي مر بطرابلس

---

(٨١) فيرود ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٨٢) ابن غلبون ص ١٠١ ـ ١٠٢ (ص ٧٧).

(٨٣) هذه العبارات لم ترد لدى ابن غلبون، وقد ذكرها فيرود ص ٨٣

(٨٤) فيرود ص ٨٤.

سنة ١٥٨٩ ـ ١٥٩٠، كشف لنا عن العداء الحاقد الذي كان يضمره الطرابلسيون للأتراك. وهو حقد تبرره تصرفات الأتراك الجائرة الذين حرموا السكان جزءاً من أراضيهم ومساكنهم، وارغموا الأهالي على تزويجهم ببناتهم.

ويلاحظ الرحالة المغربي من جهة أخرى أن جميع سكان إفريقية يحملون شعور الثورة على الأتراك، وهم على استعداد لتبني أية قضية يرفعها ثائر عليهم سعياً للتحرر من تلك العبودية. ويقول إن كثيراً من التونسيين والمصريين الذين التقى بهم في القسطنطينية كانوا يحسدون المغرب على أوضاعه ويبدون الرغبة في أن يكونوا خاضعين لسلطان المغرب الشريف[٨٥]، بدلاً من الأتراك ولكن علينا أن ننبه إلى مظاهر المنافسة بين سلطان الشرق الذي كان يتصرف باعتباره خليفة لجميع المسلمين، وبين سلطان المغرب الذي لم يعترف أبداً بسيادة الأتراك العثمانيين أو خلافتهم..

٨ ـ مشروع خطة لهجوم فرق بحرية من مالطا وصقلية ونابولي على مدينة طرابلس

عقد الفرسان الأمل لاسترجاع طرابلس على استغلالهم لهذا الوضع المضطرب أو، على الأقل، العمل على إلحاق الضرر بها. وقد تدخلوا ـ كما رأينا ـ في سنتي ١٥٨٩ ـ ١٥٩٠ لمساعدة يحيى الثائر. وخططوا في نهاية يونيو ١٦٠٠ لإرسال فرقة بحرية إلى طرابلس، تتكون من خمس سفن من نوع (غاليرا) وثماني سفن أخرى من نابولي، بقيادة (د. غارسيا توليدو D. Garzia Toledo) وأربع سفن وغليوطين من صقلية بقيادة (أندريا دي سالازار Andrea Salazar وكانت قد وصلت كلها إلى مالطا، وتقضي بمفاجأة طرابلس ومباغتتها بتلغيم المدينة والقلعة. وقد أعطيت التعليمات التالية إلى القائد العام للأسطول (فرا. بيترو دي كونساليس دي مندوسا Pietro Gonçales de Mendoça) أسقف أيبيرنيا (Ibernia).

---

(٨٥) دي كاستريه ص ٣٣.

(فيما يخص تنفيذ هذه المهمة فإنه بعد القيام بالاستعراض وتجربة الفرقة عند طرف المرسى الشرقي، كما هو محدد، فلا نرى تذكيركم بشيء سوى أنه من المناسب إرسال أحد الأفراد للاستخبار وجمع المعلومات عن طرابلس، بالطريقة التي تبدو للسنيور غارسيا أكثر ملاءمة، متخذين الحيطة بعدم اكتشافهم والانتباه - قبل كلّ شيء - إلى النزول في إحدى الليالي المناسبة من حيث الطقس، حتى تتمكنوا من زرع الألغام قبل وصول الناس، وبذلك تؤدي مفعولها عند الانفجار. ونحن نثق في خبرة الكابتن (بلريقاردو Belregardo) قائد سفينتنا سان جورج الذي سيكون في وسعه النزول إلى البر، بعد الاطمئنان على سفينته، وذلك لإنجاح العملية.

أما الربابنة الآخرون فإنه بعد إنزالهم للأفراد إلى البر، أصدروا إليهم التعليمات للاحتفاظ بالعدد المناسب من البحارة والحراسة اللازمة للسفن الكبيرة حتى لا تفكر طغمة البحارة الكافرين في التخريب. وحين تكونون في البر، فإن رغبتنا إلى جميع ربابنة السفن، العمل على طاعة سفينة القيادة النابوليانية معلناً ومقرراً عدم رفع العلم عنها ما دمتم تديرون الأمور فوق البر.

إذا أراد الله، فستكون هذه الحملة على طرابلس ناجحة، ورأينا الذي أقمناه على مبررات ومنطق حي، أن يتم تدمير كل شيء، وتسويته بالأرض مع توخي أن يكون تدمير القلعة بواسطة الألغام مؤدياً إلى تخريب الميناء أيضاً)[٨٦].

وقد سافر هذا الأسطول الموحد من مالطا في ٢٨ يوليو وعبر سواحل بربريا. ولكن الطرابلسيين كانوا قد أخطروا بهذه الحملة فاستعدوا للدفاع، وفوتوا فرصة المباغتة على الأساطيل الثلاثة التي قرر قادتها العودة إلى مالطا دون القيام حتى بمجرد المحاولة للنزول بالبر[٨٧].

---

(٨٦) روسي: Archivum melitense, VI p. 70 - 71.

(٨٧) دال بوتزوج ١ ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

٩ ـ طرابلس الغرب في النصف الثاني من القرن السادس عشر. معلومات جغرافية وبشرية واجتماعية

تتجمع لدينا، من الوصف الذي كتبه (مارمول نحو ١٥٧٠)[٨٨]، ومن تقارير فرسان مالطا (بوزيو ولانفردوتشي في ١٥٨٧)[٨٩]، معلومات نرى من المفيد إيرادها في هذا المقام لتقديم إطار مختصر للوضع الجغرافي الاجتماعي بطرابلس الغرب أثناء النصف الثاني من القرن السادس عشر.

لا يتبع مارمول ترتيباً تاريخياً منظماً في ذكره للمواقع، فإذا أعدنا تنظيم المواقع التي يذكرها، مبتدئين من الشرق إلى الغرب، فإننا نجد لديه ذكراً للبلدان التالية:

صحراء برقة : وهو اسم يطلقه مارمول على الرقعة التي تمتد من مصراتة شرقاً. ويقول مارمول: إن العرب يسمون هذه المنطقة صحراء برقة.

نعيم : (Naim) ويرى مارمول أنها تطابق نصب فيليني (Arc Philenorum) وينطلق من هنا إلى الغرب فيشير، إلى رأس سرت (capo de Sorta) ثم يذكر (سيباكا Sibaca) ويوفراتة (Eufrata) وشديق Cedic ولارد Lard ويذكر أيضاً:

زوديقة : (Zudica) ويقول إنه يسكنها عدد صغير من صيادي السمك. وهي تطابق (تريري Trieri) القديمة. وربما تطابقت أيضاً مع (شيديق Cedic) التي أشرنا إليها فيما تقدم وهي (Zudica - Sudica - Sudico) كما تبدو من

---

(٨٨) مارمول: ج ٢ ورقة ٢٨٨ ـ ٣٠٨.

(٨٩) أنظر الهامش رقم ٦٧ من هذا الفصل.

الخرائط الجغرافية للقرون الوسطى، فهل تطابق (اليهودية Giudecca)؟.

قصور حسان : (Caçar Hascen) بين سرت ومصراتة. وهي أطلال ذات أسوار قديمة. بناها جيش عقبة بن نافع كما يقول ابن رقيق[٩٠].

تاورغاء : (Taurca) وهي تاورغاء المعروفة. ومن المناطق التابعة للجباية التركية. وقد ثار سكانها في سنة ١٥٦٧ عند نشوب الثورة في تاجوراء[٩١]. وقد نهبها محمد بك والي الإسكندرية ونهبها أيضاً قائد طرابلس (محمد بك) وألزمها بدفع ثلاثة عشر ألف دوكاتو غرامة.

مصراتة : خضعت فترة من الزمن لطرابلس وتونس.

مسلاتة : موقع خصب على بعد اثنتي عشرة عقدة (هكذا) شرقي طرابلس.

لبدة : (Lepide) مدينة أثرية قديمة.

تاجوراء : (Tajora) على بعد أربع عقد شرقي طرابلس وبها مسجد عظيم وحصن بناه الأتراك مؤخراً على هيئة قلعة مستديرة وكانت عاصمة للعرب حين كانت طرابلس تحت سيطرة المسيحيين.

العمروس : (Hamron) على مسافة عقدتين من طرابلس. وكان

---

(٩٠) مؤرخ عربي توفي بعد سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦) كتب كتاباً كبيراً في تاريخ إفريقية والمغرب. وهو مفقود، وقد ذكره كثير من المؤرخين العرب اللاحقين وذكره مارمول أكثر من مرة في وصفه لإفريقية.

(٩١) أنظر ما تقدم في هذا الفصل من حديث عن هذه الثورة.

سكان المدينة يترددون على أسواق طرابلس حين كانت بيد المسيحيين.

قصر أحمد : (Cassar Hamet) أطلال سميت أخيراً (بالصهريج) (Cisterna) على بعد فرسخ من طرابلس.

قــار : (Car) (قرقارش؟) على ساحل البحر قرب طرابلس. وبها أطلال قديمة. وكان يسيطر عليها العرب حين كانت طرابلس تحت حكم المسيحيين. وبينها وبين طرابلس القديمة محاجر، ربما شيدت بها تلك المدينة.

جنزور : (Gianzor) على بعد أربع عقد شرقي طرابلس (هكذا في الأصل). موقع خصب. كان سكانه يترددون على سوق طرابلس أوان خضوعها للسيادة المسيحية.

صرمان : (Sarman) قرب طرابلس القديمة. تسكنها هوارة. بها شجر وعدد كبير من السكان.

زاوية بن جربوع : (Zauit ben Giarbu) وهي الزاوية الحالية. تتمتع بمكانة محترمة لدى السادة المسلمين، إذ يعيش بها بعض الأولياء.

زوارة : (Zaora).

ومن المواقع الداخلية وسكانها، يذكر مارمول:

بني يفرن ونفوسة : وهي جبال طرابلس ويسكنها البربر مثل جربة.

غريان : جبال على بعد ست عشرة عقدةً إلى الجنوب من طرابلس. تنتج الزعفران وتدفع لطرابلس أكثر من ثمانين ألف دوكاتو في العام.

بنو وليد : (Beni Guarid) جبال على بعد اثنتين وثلاثين عقدة من طرابلس، وسكانها من البربر. ويعيشون حياة مستقلة.

والأرض غنية بنخيلها. وهي تنتج كميات وافرة من الزيت. وهم من أتباع الأتراك. وغالباً في حرب ضدهم.

أما عن طرابلس فيذكر أن درغوث قد أنشأ بها قصرين قبالة البحر، ودعم السور بأبراج وحصون. وكان الحصن تحت حماية الأتراك. أما المدينة فيسكنها العرب.

أما وصف (بوزيو ولانفردوتشي) فأكثر ترتيباً، إلا أنه لا يخلو من الخطأ وعدم التدقيق. وهو يقتصر على الساحل، ويهدف إلى إعطاء إرشادات للملاحة والحملات البحرية. ونذكر منه المواقع التالية:

نعيم : (Naym) بخليج سدرة. وهي محاطة ببطابية. ويسكن البدو بضواحيها. ويقيم بها الشيخ عبد الله الذي يتبع والي طرابلس. ولكنه يثور في الغالب ويمارس سلطة وسيادة على جميع العرب القاطنين من رأس بونندريا (Capo Bonandrea) حتى طرابلس.

سبيكة : (Scibeica) وهي (Sibica) في خرط ذلك العهد، وتطابق حالياً مرسى الزعفران. وهي بئر ماء عذب.

رأس مصراتة : (Capo Misurato) وبالقرب منه مجموعة من المساكن التي يقطن بها العرب (يعني: مصراتة).

زليطن : (Ziletta)[92] غنية بمنتوجات المنطقة من الزعفران والزيت والتمور ودقيق فزان.

بورتوماقرو : (Porto Magro) هل هو مرسى (عقرة؟) (Ugra). وهو برج حول منازل يسكنها العرب. وهو خال من

(٩٢) بوزيو ولانفردوتشي يضعانها خطأ إلى الغرب من تاجوراء.

المدفعية. ومرسى صالح لإيواء عشرين مركباً في كل وقت. (مرسى عقرة؟) به مساكن كثيرة للعرب، وتشحن منه التمور والعبيد المجلوبون من فزان (بلد السود).

لوكاتا : (Loccata) قرب لبدة. وهي مدينة محاذية للساحل.

تاجوراء : (Tesura) ميناء صالح. وعلى بعد ثلاثة أميال منه توجد البلدة المعروفة بهذا الاسم. ويبلغ عدد سكانها عشرة آلاف نسمة وهي غنية وعامرة بالناس من ذوي الشأن. ومسورة بأسوار ترابية (طوابي).

الساحل : (Seghel) وهي بلدة على بعد ستة أميال غربي تاجوراء.

المنشية : (Miscia) طرابلس. وبها عدد كبير من الرجال الذين يتوفرون على حراسة حسنة.

جنزور : (Zanzera) على بعد اثني عشر ميلاً غربي طرابلس.

المايـة : (La Maya).

الزاوية : (Zevia).

طرابلس القديمة : على بعد ثلاثين ميلاً غربي طرابلس ويسكنها عدد من العرب.

زواغة : (Zuaga) على بعد ٢٥ ميلاً غربي طرابلس القديمة. وبها حوالي خمسمائة نسمة، وساحلها مفتوح. وبها برج في وسطها.

زوارة : على بعد اثني عشر ميلاً إلى الغرب من زواغة. قرية كبيرة. بها ما يقرب من ألفي نسمة. وبها مسجد يشاهد على بعد ميلين من الساحل.

مستنقع زوارة : (Stagnone di Zuara) خليج يبلغ ثلاثين ميلاً. وأعماقه ضحلة. وتتوفر به المياه العذبة تحت السطح.

ظهر الحمار : (Groppa d'Asino) على بعد اثني عشر ميلاً إلى الغرب.

ضحل بالو : (Secco di Palo) ويمتد من (ظهر الحمار) حتى زرزيس بتونس المعاصرة.

أما وصف طرابلس الذي قدمه الفارسان الإيطاليان المنتميان إلى هيئة فرسان مالطا فيطابق المعلومات التي تؤخذ من الأخبار السالفة[٩٣]. فالمدينة تضم ستة آلاف نسمة أغلبهم من النساء والأطفال. وثمة أعداد من اليهود والعبيد. ولا يزيد عدد المسلمين المتصدين للدفاع عن ثمانمائة. وتصلها المواد التموينية من جنزور ومصراتة، والزيت من غريان، ويتاجر العرب واليهود مع الإسكندرية، ويتاجر رعايا البندقية مع (زانتي وشيفالونيا وكورفو). وينقل إلينا الفارسان رأي بعض الخبراء العارفين بالموقع الذين يؤكدون إمكانية الاستيلاء على المدينة والقلعة باقتحام الخندق الذي يفصل القلعة عن المدينة بواسطة ألف وخمسمائة من الجنود.

ويلاحظ - طبقاً لتقرير بوزيو ولانفردوتشي - أن سلطة حكومة طرابلس في سنة ١٥٨٧ كانت تمتد من رأس (أندريا) في (برقة) شرقاً حتى تشمل صفاقس غرباً، وإلى الشرق من ذلك تسيطر حكومة الإسكندرية. وإلى الغرب من ذلك حكومة تونس. إلا أن سلطة حكومة طرابلس لا تتجاوز الشريط الساحلي. وقد تحدثنا عن الشيخ عبد الله، وهو زعيم عرب الشرق، وهو ملتزم بالثورة في أغلب الأحيان. أما الجنوب الغربي، نحو القيروان، فقد تركزت فيه مقاومة البدو. ويدخل مارمول أيضاً مدينة قابس وجزيرة جربة في نطاق سلطة حكومة طرابلس.

---

(٩٣) انظر ما تقدم من وصف لمدينة طرابلس في الصفحات السابقة.

١٠ ـ النظام الإداري لولاية طرابلس عقب الاحتلال التركي

من المفيد في هذه المرحلة أن نحدد، بقدر الإمكان، النظام الإداري الذي أقامه الأتراك في ولاية طرابلس.

وتعني كلمة (باشاليك) في اللغة التركية، المقاطعة الخاضعة لسلطة الباشا. فحين استولى الأتراك على شمالي إفريقيا، أقاموا بها ثلاث (باشويات) أي (باشاليك) وهي الجزائر وتونس وطرابلس. وتتبع السلطان عن طريق (كابودان) باشا، أي القائد العام للأسطول التركي. وتقوم بينها وبين السلطات المركزية علاقات من التفاهم المتبادل في الشؤون الداخلية، وفي المواجهة الدفاعية ضد المسيحيين، غير أن المصادر التركية تستعمل في حديثها عن هذه الولايات الثلاث كلمة (أوجاق) بدلاً من (الباشاليك). وهو تعبير مشتق من النظام الانكشاري الذي كانت تحكم به تلك الولايات الثلاث. وتطلق كلمة (أوجاق) على هيئة من الانكشارية أو فرقة. وباشا طرابلس، إذن، هو رئيس (الأوجاق). الإنكشاري بالمقاطعة التي يحكمها. وهو يحمل بالإضافة إلى لقب الباشا لقب (ميرميران أو بليربي)[٩٤]. وتوجد تحت تصرفه الهيئة الإنكشارية المشرقية. وهم مسيحيون في الأصل، انتزعوا من عائلاتهم في سن مبكرة، ودربوا عسكرياً ونشئوا على العقيدة الإسلامية. ولهيئة الإنكشارية رؤساء يتدرجون في رتبهم حسب نظام خاص. (بك. داي، آغا. بلوك باشي. أوضا باشي) وهذا الأخير يرأس (أوضة)، ومعناها في التركية (غرفة). فهو تقريباً قائد فرقة تتكون من عشرين شخصاً. أما (البك) فهو اللقب الذي يمنح للضباط المكلفين بمهام أعلى. ثم صار لقباً خاصاً بقائد الحملة. (المحلة أو النوبة) المكلفة بجباية الضرائب من الأهالي. ثم أطلق على صاحب السلطة التنفيذية في قيادة الجيش. وفي العهود الأخيرة صار لقب (بك) من ألقاب التكريم

---

(٩٤) بخصوص هذا اللقب، انظر:

J. Demy (Chansons des Jannissaires d'Alger in mélange René Basset II Paris 1925 p. 62-63.

والتشريف التي تخص أبناء (الباشوات) حتى ولو لم تكن لهم مهام أو مناصب عسكرية. أما لقب (داي) ومعناه (العم) فقد أخذ بمرور الزمن يقتصر معناه على الضابط المكلف بدفع رواتب الجند. أما الشؤون العامة للحرس الإنكشاري فقد كانت تجري مناقشتها في المجلس المسمى (الديوان) الذي يرأسه (الآغا) وتخضع له مجموعة من صف الضباط برتبة (شاويش).

أما رؤساء البحرية فيسمون (رايس). وللكابودان رايس سلطة على جميع السفن التابعة للباشا أو الداي أو لمن يتولى شؤون الحكومة. ونجد أيضاً بين المناصب منصب (نائب رايس). وهو القائد الثاني أو الربان المساعد للسفينة (Yelkengi) أي (المختص بشؤون الأشرعة).

أما البحارة فيتألفون في أغلبهم من المتطوعين الأتراك أو من المسلمين المشارقة والمعتنقين مؤخراً للإسلام. ونسبة العرب من أهالي البلاد قليلة. ويستخدم الأسرى المسيحيون في التجديف، تحت ضرب السياط(*).

وتشكل العناصر المنتمية إلى البحرية القرصانية نوعاً من الرابطة أو الهيئة أو المنظمة القرصانية تسمى (طائفة). ولها الحق في الحصول على جزء من الغنائم، بعد حسم الأنصبة المخصصة للحكومة (بليك) والقادة الكبار.

ويساعد الباشا (كاهية) وهو نائبه. ثم (خزندار) ويختص بشؤون الخزينة. وعدد من (الخوجات) وهم يقومون بوظيفة الكتبة والاستشارة ثم (قاضي الجند) وعدد من (الدفتردار) أي الموظفين الإداريين، ووكيل الجباية والخراج ويتولى شؤون المخازن والتموين.

أما الجندي العادي فتطلق عليه الكلمة التركية (يولداش Yoldash)(٩٥)

(*) كما يستخدم أسرى المسلمين في التجديف تحت ضرب السياط. لقد كانت ثمة تقاليد سائدة وقواعد مطبقة لدى الطرفين.

(٩٥) أفدت في جمع هذه المعلومات من مصادر مختلفة عربية وشرقية مثل القيرواني من أبي ضياف وابن غلبون ومحفوظات القناصل والتقارير والأخبار. ولقد حاول (جيرارد) في مخطوطته أن =

ويسمى حرس الباشا أو حرس القصر (حنبة Hanba). أما سلاح الفرسان فيدعى (سباهي Spahi).

لقد تعرضت حكومات الولايات (الباشويات) إلى تغييرات مختلفة، تبعاً لظروف القوة والضعف التي مرت بالامبراطورية العثمانية. فنجد في البداية في سواحل (بربريا) إفريقيا الشمالية باشوات مشهورين عظاماً من أمثال درغوث وعلج علي في طرابلس، وصالح رايس وحسن البندقي في الجزائر، ثم يأتي بعد ذلك دور الباشوات الذين يقلون عن أولئك سلطة وأهمية، من الذين واصلوا اسمياً تمثيل الباب العالي، ولكن لم يكن لهم أي وزن أو ثقل مباشر في الإدارة والحكم المحلي. أو هم لم يكونوا ـ على الأقل ـ من القوة بحيث يستطيعون فرض أنفسهم على الحرس الانكشاري. وهم أعجز عن فرض أنفسهم على الأهالي في الدواخل الذين كانوا يستردون دوماً استقلالهم ويرفضون دفع الضرائب.

وتظل مدينة طرابلس في بعض الأحيان معزولة عن بقية أجزاء البلاد. وعلى هذه الحال كانت طرابلس سنة ١٦٠٠. وحدث بعد ذلك أن فقد الباشا كل هيبته وامتيازه. وكثيراً ما كان يرجّع أو يقتل من قبل الحرس.

وهكذا أخذت تضعف باستمرار العلاقات بين طرابلس والقسطنطينية. وبين القسطنطينية والجزائر وتونس. حيث سيطر القواد وأخذوا يتنازعون السلطة، ويستقلون بها كما لو كانوا في أرض منقطعة عن الحكومة المركزية. وكانوا يتصرفون تصرف الملوك المستقلين ويعقدون الاتفاقيات مع الدول الأخرى. وذلك يفسر تلك التسمية التي أطلقها الأوروبيون على هذه المقاطعات (Reggenze Reami).

. .

= يقدم لنا وصفاً لحكومة طرابلس ونظام الحكم بها. والعرض الذي قدمناه هنا غير كامل، وكان ينبغي ذكر مناصب ووظائف أخرى، مثل رئيس الجمارك وريس دار الصناعة وقائد الفرسان الوطنيين، كما يمكن زيادة التعرف على طبيعة العلاقات مع القسطنطينية ومدى تبعية الولايات للامبرالية العثمانية. وقد كانت أوامر القسطنطينية ومراسيمها تنقل في العادة بواسطة موفدين يسمون (qapigi).

إن الدايات والبكوات والأغوات، أي الضباط الكبار، وفي بعض الأحيان بعض صفوف الضباط ورؤساء البحرية، كانوا يتمكنون من السيطرة على الحكم، والأخذ بزمام الأمور، في طرابلس وتونس والجزائر.

وهكذا تعقب فترة الباشوات الموفدين من القسطنطينية فترة الدايات والبايات. وينبغي علينا أن نفهم الأمر على الوجه التالي: بعد أن كان الحكام والولاة يعينون من القسطنطينية، أصبحوا يختارون اختياراً حراً من قبل الأهالي. وكثيراً ما يحصل هؤلاء الدايات والبايات على اعتراف القسطنطينية التي تخلع عليهم (القفطان) والسيف وتمنحهم لقب باشا وميرميران. وقد تدخلت الآستانة في بعض الحالات لفض النزاع المحلي، وفرض الوالي الذي تعينه. وجاءت فترة من الزمن أصبحت فيه الولايات الثلاث منفصلة بشكل كلي عن القسطنطينية. فتأسس في تونس حكم العائلة الحسينية (١٧٠٥) وفي طرابلس حكم الأسرة القرمانللية (١٧١١). وفي الجزائر (١٧١٠) تولى حكم البلاد الدايات المنتخبون من الديوان مباشرة.

ويكتفي السلطان بالنسبة للفريقين بإرسال اعترافه، وتثبيتهم في المنصب، مقابل هدايا تقدم إلى البلاط والوزراء ورسل السلطان (Gabïgï Gabïgïbasi)[٩٦]. وتغيرت فيما بعد أيضاً نظم الحرس، فقد تخلص الباشوات الأقوياء من أمثال القرمانللية، بوسائل الغدر والتصفية العنيفة، من كافة العناصر الإنكشارية المثيرة للقلق. واستبدلوهم بحرس من الأرناؤوط ومن الطارئين على الإسلام. وأنشأوا (عصابات Bande) من القولوغلية والعرب[٩٧].

إن رقعة أوجاق طرابلس غير محددة تحديداً دقيقاً، فهي تضم من الوجهة النظرية ليبيا الحالية بأسرها، ولكن سلطة طرابلس على برقة لم تكن قائمة. وظلت على هذا الحال حتى القرن السابع عشر. كما سوف نرى. وكانت

---

(٩٦) في المقابر (التربة) الملحقة في العادة بالمساجد بطرابلس يلاحظ المشاهد أنها تعلوها عمائم ضخمة وقد تكون ملونة في بعض الحالات.

(٩٧) ولدوا من زواج الجنود الأتراك بالنساء المحليات. أنظر ترجمة روسي لتاريخ ابن غلبون ص ١١٦ رقم ٤.

حدودها حتى القرن السادس عشر تضم جزءاً من الأراضي التونسية الحالية. وهكذا نفهم أن حكومة طرابلس في سنة ١٥٨٧ كانت تمتد حتى قابس وصفاقس[٩٨] ثم تحركت هذه الحدود، في القرن السابع عشر، نحو الشرق. مع عدم الرسم الدقيق لها، فقد كانت تعرف بصفة تقليدية عند (البيان) وجزيرة جربة التي كانت في عهد مراد آغا وخلفائه تابعة لطرابلس، ثم انتقلت في نهاية القرن السادس عشر إلى نفوذ (أوجاق) تونس التي ضمت إليه بصفة نهائية - فيما يبدو - في عهد يوسف داي التونسي. (١٦١٠ - ١٦٣٧)[٩٩].

---

(٩٨) بوزيو ولانفردوتشي ص ٦٧ ويقولان إن حدود حاكم تونس تنتهي عند صفاقس وأن صفاقس تابعة لوالي طرابلس.

(٩٩) روسو (الحوليات التونسية) ص ٤٨ - حسن حسني عبد الوهاب (خلاصة تاريخ تونس) تونس ١٣٤٤ ص ١٤٣.

الفصل الثالث

الحكم العثماني - الدّايات والباشوات ١٦١٠-١٦٧٢

* صفر داي (١٦٠٩ - ١٦١٤)
* مصطفى شريف داي (١٦١٤ - ١٦٣٠)
* رمضان داي (١٦٣١ - ١٦٣٣)
* الساقزلي محمد باشا (١٦٣٣ - ١٦٤٩)
* علاقات طرابلس بفزان وبورنو
* علاقات طرابلس ببرقة
* الساقزلي عثمان باشا (١٦٤٩ - ١٦٧٢)
* طرابلس قرب ١٦٧٢
* ضواحي طرابلس قرب ١٦٧٢

١ ـ صفر داي

في مستهل القرن السابع عشر (وفي رأي ابن غلبون في سنة ١٠١٢ هـ أي ١٦٠٣ ـ ١٦٠٤) كان على رأس الولاية بطرابلس أحمد أو علي[1] أو جعفر باشا[2]. وقد تمكن أحد زعماء الحرس المدعو (سليمان داي) والشهير (بصفر داي)[3] من قتل بعض عناصر الجند، وتدعيم سيطرته وبسطها على البلاد[4]، بعد أن كان ـ قبل ذلك ـ يدير شئون الخزانة وجباية الضرائب ـ وقد خرج عليه في سنة ١٠١٥ هـ (١٦٠٦ ـ ١٦٠٧) المدعو عويس الذي كان يسانده سكان تاجوراء، وعرب قبيلة بني رقيعة[5]. ونهض سليمان (صفر داي) لمنازلتهم ومقاومتهم بقوات بحرية وبرية. وتمكن من دخول تاجوراء مستغلاً الشقاق الذي نشب بين أهاليها وبين بني رقيعة. وفتك الجند بسكان تاجوراء، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، كما نهبوا البلدة ودمروها.

إن الأخبار القليلة التي تتوفر لنا عن صفر داي تظهره في صراع مستمر

---

(١) هكذا ورد لدى فيرود ص ٩٠ ـ ٤٤٩. وفي وثائق القنصلية الفرنسية بتونس التي نشرها **P. Grandshamp** (La France en Tunisie au début du XVII siècle II - (1601 - 1610) III (1611 - 1620) Tunis 1924 - 1925.

ورد بتاريخ ٣٠ ـ ٥ ـ ١٦١٠ ذكر (علي باشا) والي طرابلس، بمناسبة عملية افتداء. وفي ٩ ـ ٨ ـ ١٦١٢. كما وردت بهذه الوثائق معلومات هامة عن شخصية الوالي بطرابلس في تلك الفترة.

(٢) هكذا لدى النائب ص ٢٢٧.

(٣) ابن غلبون ص (١٠٢) (٧٧) ـ فيرود ٨٩ ـ ٩٠.

(٤) ابن غلبون ص ١٠٢ (ص ٧٧).

(٥) ومنهم (قبيلة الرقيعات) القاطنة بضواحي طرابلس.

مع سكان الدواخل، خاصة سكـان تاجـوراء التي عاد إلى مهـاجمتها مـرة أخرى بقواته فور عودتها من حملة على فزان[٦]. ومع ذلك فإنـه كان زعيـماً متوافـراً على طـاقـات واضحـة. وقـد تـرك أثـراً لفـترة حكمـه ظهـر في الحيـاة المعـمارية بطرابلس. إذ توجد عند مدخل جامع النـاقة لـوحة تـذكارية بتاريـخ ١٠٩ هـ (تبدأ هذه السنة يوم ٢٦ مـارس ١٦١٠ بالتقـويم الميلادي). وهي تخلد ذكـرى ترميمه للمسجـد. وتوجـد أيضاً كتـابة أخـرى بمتحف طرابلس بـاللغة الـتركية بتاريخ ١ شـوال ١٠١٢ (١٤ نوفمـبر ١٦١٣) تشهد بتجـديده (لبـاب البحر). ويعرف عنه أيضاً تنشيطه للتجارة وإرساله لبعثة إلى فزان. وقد استقبل السلطان إدريس سلطان بورنو في سنة ١٦١٤ وفد الـداي بكل مـظاهر التكـريم والحفاوة البـالغة. وهـو الوفـد الذي أرسـل لتجديـد الحلف الذي عقـده والـد السلطان (عبد الله) مع حسين باشا[٧].

وتشهد رسائل الأسرى الفرنسيين بالسيـطرة التي مارسهـا صفر داي عـلى طرابلس وتحكمه في شئونها، فتقول: (إن سيـدنا صفـر داي يبسط سيطرتـه على البـلاد بأسرهـا ولا يقيم أي وزن أو اعتبـار للبـاشـا). وكـانت للبـاشـا سلطة اسمية. وكان الطرابلسيون، في سنة ١٦١٢ يقومون بتجهيز أربعة مراكب كبـيرة للأعمال القرصانية في الشتاء، وسبعة مراكب في الصيف.

وكـان بـطرابلس من الأسرى مئـة وخمسـون قبض عليهم في السنتـين الأخيرتين[٨]. ومع ذلك فقد كان طغيانه وعنفه وجوره عـلى الناس من الأسبـاب التي أدت إلى إنهاء حكمه، وفقدان حياته. فحين عاد عـلي باشـا إلى الأستانـة، أرسل الباب العالي والياً جـديداً عـلى طرابلس اسمـه أحمد[٩]، وقـد وصل في

---

(٦) أنظر التفصيلات عن هذه العلاقات في الفقرة الخامسة من هذا الفصل.

(٧) جيرارد ج ١ ص ١٧٢ - برنيا ص ٨٩.

(٨) P. Masson: Histoire du commerce français dans le Levant au XVII siècle Paris 1896 p. 41.

(٩) مخطوطة جـيرارد ج ١ ص ١٧٢ - برنيـا ص ٩٠. وهذه النقـطة من تاريـخ طرابلس محـاطـة بـالغموض. وقـد ذكر جـيرارد (ص ١٦٩ ج ١) وجاراه بـرنيا في القـول بأن صفـر داي قـد =

١٦١٤ وتقبل الهدايا التي قدمها إليه الداي، ولكنه لم يستطع أن يفرض سلطته كحاكم ممثل للباب العالي. واستولى الضجر على الناس فاستسلموا للاضطرابات والقلاقل. وأمكن إخضاع سكان غريان وترهونة بواسطة مراد بك قائد الجيش التركي، غير أن الطرابلسيين تمكنوا من إبلاغ احتجاجهم إلى الوزير الأكبر والسلطان الذي كلف كابودان باشا الأسطول العثماني (خليل باشا) بقتل صفر داي[10].

وقد غادر خليل باشا الآستانة في ١٠٢٣ هـ (تبدأ السنة في ١١ فبراير ١٦١٤) وقام بعملية بحرية استعراضية ضد مالطا، وأنزل بعض القوات التي ردها المدافعون عن الجزيرة، ثم تحول نحو طرابلس، واستدعى صفر داي للحضور إلى إحدى السفن، وقيده بالأغلال، ثم، وبحضور أعيان البلاد الذين أخذوا يستعرضون مظاهر حكمه الفاسد، أمر بشنقه أمام القلعة[11]!

وقد مثل السلطان بطرابلس، في عهد سليمان داي، شريف باشا (وبسطرمة باشا). وقد عرف هذا الأخير بهذا الاسم لكثرة ما قدم من هدايا من

أطاح في ١٦٠٩ بصديقه سليمان داي الذي كان (آغا) الجيش وأقنع الأستانة بالاعتراف به بما قدمه لها من هدايا. ولكن الأستانة أوفدت في سنة ١٦١٢ علي باشا الذي لم يستطع أن يمارس أية مسؤولية.

(١٠) هم سكان تاجوراء طبقاً لما يذكره ابن غلبون ص ٤٥ (ص ٧٨ - ١٠٣) من طبعة القاهرة. وهم الطرابلسيون طبقاً لما يراه جيرارد، وبرنيا ص ٩١، وفيرود ص ٩٢.

(١١) يقول ابن غلبون (ص ١٠٣) (٧٨) إن سكان تاجوراء هم الذين أخطروا السلطان أحمد الأول بالمظالم التي ارتكبها صفر داي، فأرسل السلطان أسطولاً في سنة ١٠٢٣ هـ (١٦١٣ - ١٦١٤) وقبض على صفر داي بخدعة وصلب بأحد سواري سفينة القيادة. أما فيرود (ص ٩١ - ٩٢) وبرنيا ص ٩٢ - ٩٣ فإنهما يجمعان الرواية التي ترى أن صفر داي قد شنق أمام باب المنشية. أما المؤرخ العثماني (نعيمة) ج ٢ ص ١١٦ فيروي أن الأسطول وصل إلى طرابلس في ١٦ يوليو، وأن ثروة الداي قد صودرت وصلب هو أمام القلعة بعد اجتماع عقد بمركب القيادة. ويطابق ذلك ما يرويه المؤرخ حاجي خليفة في كتابه (تحفة الكبار) ص ١٠٤ (وصل إلى طرابلس ١٠ يوليو) وتبلغ الأموال التي صودرت من الداي مئة وخمسين ألف قرش. (هامر ١٥ ص ٢٦٥).

هذا النوع من الأكـل إلى السلطان (وتصنع البسطرمة من لحم الغزال)[١٢].

٢ ـ مصطفى شريف داي

لا نعرف على وجه الدقـة واليقين الشخص الـذي تولى حكم طرابلـس بعد سليمان داي (صفر)[١٣]. ففي إحدى الروايـات أن خليل باشا قد ترك على حكومة طرابلس أحمد بـاشا. ودعمـه بقوات مـرسلة من قارة عثـمان الذي كـان يحكم تونس. وقد خلفه سليمان بـاشا الـذي أرسله الباب العـالي إلى طرابلس، وقد سادت مدة حكمـه موجة من الثـورات قام بها أهالي غريان وترهونة. وقد تدخل سيدي الصيد في إخمادها والتغلب عليها[١٤].

وجاء بعد سليمان باشا في سنة ١٦٢٣ حسن بـاشا الـذي استطاع إيقـاف الاضطرابات في الدواخـل بمعونة زعيم (أولاد نـوير) وقـادر بك قـائد الفـرسان العرب[١٥].

وفي رواية أخرى أن الإنكشـارية قـاموا بعـد مقتل صفـر داي بمبايعـة أحد أشراف (قسنـطينة) بالجزائر، وهـو (مصـطفى شريـف)، زعيماً عليهم (ودايـاً) لطرابلس. وهو من أصل جزائري، وكان قد وفد على طرابلس في عهـد سليمان داي، وكان له إلمام بالطب، وقد تميزت شخصيته بـالدمـاثة واللطف والـظرف. واقتصرت مهامه على (تفريق رزق الجنـد وضبط الخـراج) حتى سنـة ١٠٣٥ هـ (١٦٢٥ ـ ١٦٢٦) أو سنة ١٠٤٠ هـ (١٦٣٠ ـ ١٦٣١)[١٦].

---

(١٢) ابن غلبون ص ١٠٣ (٧٨).

(١٣) لا أعلم القيمة التي تنطوي عليها المعلومات التي زودنا بها حاجي خليفة في كتـابه تحفـة الكبار ص ١٠٥ التي تشير إلى أن قائد الأسطول العثـماني كان بـطرابلس في ١٦١٧ حين كـان يشغل منصب البك بها المدعو سويدان أوغلو الذي قدم العون للأسطول الذي أضرت به العواصف في تلك الفترة.

(١٤) هو سيدي الصيد الذي نتحدث عنه فيما يلي من الهوامش.

(١٥) برنيا ٩٤ ـ ٩٦ وربما كان المفتش البابوي في مالطا قد عنى هذه الأحداث في رسالته المؤرخة في ٢٩ مايو ١٦٢٩ الموجهة إلى الكاردينال بربريني (نقل البعض أن جماعات كبيرة من العـرب قد تضررت أضراراً كبيرة بضواحي طرابلس) مكتبة الفاتيكان ـ Barb. Latini ١٦٧٨.

(١٦) ابن غلبون ص ١٠٤ (٧٨) ـ فيرود ص ٩٢.

ولا يمكن التوفيق بين هذه الروايات المتضاربة إلا بإدراكنا أنه إلى جانب الباشوات الموفدين من الباب العالي، كان شريف داي يتولى شئون المدينة. وقد انتهى هو الآخر نهاية سيئة. وقد قام الباب العالي - بعد أن أبلغه خليل باشا بسوء الأوضاع في طرابلس - بإرسال قاسم باشا والياً عليها[١٧]، وقد صدرت إليه التعليمات بمعاقبة مصطفى شريف الذي اعتصم بالقلعة وتحصن بها، هو وجنوده ومدفعيته، بينما أقام قاسم باشا قرب حصن درغوث. ونشبت بين القلعة والحصن معركة بالمدفعية[١٨] ولكنهم لم ينجحوا في القبض على الداي إلا بانتهاج أسلوب الخداع والتضليل. ويروى أن أحد الجنود تنكر في زي الشيخ (سيدي الصيد) وتشبه به[١٩]. وكانت للداي عقيدة في الشيخ. فاستجاب إلى دعوة هذا الجندي المتنكر بالنزول، بعد أن قدم إليه السلّم، فنزل ظناً منه أنه سيدي الصيد (فقطعوه قبل أن يصل الأرض)[٢٠].

وقد جدد مصطفى شريف معاهدة التحالف مع بورنو، وشجع القرصنة، وفي سنة ١٦٣٠ توغلت إحدى سفنه الكبيرة حتى مياه سردينيا وغرقت بها، وقد نجا البحارة، واستطاع الأسرى المسيحيون الذين كانوا فوق ظهرها أن يستردوا حريتهم بإلقاء جلاديهم في البحر[٢١]. وفي سنة ١٦٣١ كان للقراصنة

(١٧) يرى فيرود ص ٩٢ أن قاسم باشا كان بطرابلس وتولى الأمر فور مقتل سليمان داي وظل بالحكم إلى مبايعة مصطفى شريف. أما ابن غلبون فيقول إن الحرس نفسه قد ثار ضد الداي وحاصره بالقلعة ص (١٠٤).

(١٨) برنيا ص ١٠٣ - ١٠٤.

(١٩) انظر ما ورد بخصوص سيدي الصيد في الفقرة السابعة من الفصل السابع.

(٢٠) هكذا لدى ابن غلبون ص ١٠٤ (٧٨ - ٧٩) أما فيرود (ص ٩٢ - ٩٣) وبرنيا ص ١٠٤ فيجاريان مخطوطة جيرارد فيرويان أن الداي نفسه قد أبدى الاستعداد للاستسلام ولكنه اشترط التحدث إلى سيدي الصيد الذي كان ينتظره بالديوان أمام القلعة. وما كاد يهبط من القلعة حتى قطعه الجند إرباً إرباً. وقد غضب الشيخ الصيد من هذا التصرف واستنزل اللعنات على طرابلس وأقسم ألا يعود إليها.

(٢١) برنيا ص ١٠٤ - ١٠٥.

الطرابلسيين خمسة عشر مركباً. وكانوا مرهوني الجانب أكثر من قراصنة الجزائر وتونس، وقد أسروا في ذلك العام مئتين وخمسين أسيراً فرنسياً[٢٢].

ولا تتوفر لدينا أنباء كافية عن حياة الأسرى الأرقاء بطرابلس في ذلك العهد. ولا ريب في وجود بعض آثارها في محفوظات القنصليات والإرساليات والمؤسسات الخاصة بعتق الأرقاء وتحريرهم. ويبدو من سجلات القنصلية الفرنسية بتونس ذلك الخبر المؤسف الذي يتصل بالمدعو (فيتورينو داليو Vit-torino Da Leo) الذي أسره القراصنة الجزائريون وهو على ظهر زورق متجه من بالرمو إلى نابولي، فنقل إلى تونس ثم إلى طرابلس حيث مات بها في سنة ١٦٢٦، بعد ثماني عشرة سنة من الأسر[٢٣].

٣ ـ رمضان داي

رغم وجود قاسم باشا فقد انتقلت ممارسة السلطة، بعد مقتل مصطفى شريف، إلى المدعو رمضان داي أحد أفراد الحرس، وفي عهده اكتسب الساقزلي محمد نفوذاً قوياً. وهو أحد اليونانيين الذين اعتنقوا الإسلام. واسمه الأصلي (جيوفاني سوفيتي Giovanni Soffieti) من جزيرة (كيوس Chio). ويعرف في اللغة التركية باسم الساقزلي محمد[٢٤]. وتروي أخبار طرابلس أنه جاء إلى طرابلس بحاراً على ظهر سفينة مسيحية، ووجد نفسه في أحد الأيام خارج باب هوارة[٢٥] حيث يجلس العرّافون وقارئو الكف، فتنبأ له أحدهم بأنه سيصبح حاكماً على طرابلس. ثم سافر إلى الجزائر واعتنق الإسلام، وجهز سفينة وصار قرصاناً. ثم عاد إلى طرابلس بسفينته، وقدم نفسه إلى رمضان داي، مبدياً

(٢٢) P. Masson Histoire du commerce français au XVII siècle p. 42 - 43.

(٢٣) Grandshamp, op. cit. IV p. 135.

(٢٤) مخطوطة جيرارد التي يعتمد عليها ص ٩٣ وبرنيا ص ١٠٥. ويرى ب. دان P. Dan أنه ينتمي إلى أسرة (جوستنياني).

(٢٥) ابن غلبون ص ١٠٥ (٨٠).

الـرغبة في خـدمته، وأصبـح فعلاً أحـد (رياس) طـرابلس، وتزوج من إحـدى بنات رمضان داي[٢٦].

كـانت الحكـومـة ضعيفـة، وكـانت ثمـة امـرأة تـدعى مـريم بنت فـوز الشهـابلية[٢٧]زوجـة أحد الحـراس، وتتمتع بنفـوذ واسع في المـدينة. وكـانت لها مكانة لدى العرب لأنها كانت تتوسط بينهم وبين الحرس. وكان رؤساء الحـرس يقصدونها مباشرة فيما يعرض لهم من الأمور ويراجعونها في منزلها.

وحين رأى الساقزلي محمد هذا الوضـع أقنع رمضان داي بأن يسلم إليـه السلطة، وقبل رمضان، وأشار عليه بحيلة تجنبه الصدام مع الجند، وذلـك بأن أمره بأن يخرج للغزو، وأن يعلم رفاقه في البحر بذلك، ثم يعود ليلاً، ويستأذن في دخول القلعة، ففعل ذلك. ودخل القلعة فاستولى عليهـا وبطش بمن فيهـا. وفي الصباح بايعه الناس[٢٨].

٤ ـ الساقزلي محمد باشا (١٦٣٣ ـ ١٦٤٩)

كان أول ما اتجه إليه تفكير الساقزلي محمـد هو الاستحواذ على ثروة مريم المذكورة، فعمد أولاً إلى تسميم زوجها، وأدخلها إلى القلعة كزوجة لـه أو لأحد أعوانه، ثم قتلها واستولى على ثروتها. وقد أحسن اختيار قائـد ممتاز هـو (عثمان ساقزلي). وهو أيضاً من نفس الموطن (جزيرة كيوس). ويبدو أنه كان عبداً أعتقـه شريف داي. وقد عينه محمد الساقزلي (قائداً) لمنطقة ساحل الأحامـد ومسلاتـة وكلفه بجمع الضرائب والأعشار. وقد اكتسب عثمان الساقـزلي، من حياتـه بين العـرب، خبرة بسلوكهم وعـاداتهم. وحين رغب محمـد السـاقـزلي في إخضـاع البدو، بمساعدة أحمد بن رقيعة، سلم قيادة الجند إلى عثمان الذي استطاع بـالمكر والخديعة والحملات المستمـرة أن يضـايق العرب، وكـان جابـر بن موسى، من تاورغاء، قد أعلن الثورة، والتف حوله الناس لما عـرف به من الكـرم والسخاء.

---

(٢٦) ابن غلبون ص ١٠٦ (٨٠).

(٢٧) دي أغسطيني (سكان طرابلس الغرب) ص ٣٢٠.

(٢٨) ابن غلبون ص ١٠٦ ـ ١٠٧ (٨١).

فذهب عثمان لمحاربته، والتقى الطرفان بتاورغاء، فانهزم جيش عثمان، فنزل عن فرسه واستند إلى جذع نخلة، وقال لرجاله أنه سيقتل نفسه ما لم يعودوا إلى الهجوم. فأثارت هذه الحركة حمية الجيش، فعاد إلى الهجوم. وقتل جابر ونهبت دياره ونجوعه. ونقل أبناؤه إلى مكان قرب مصراتة يعرف باسم أولاد الشوشانة حيث قتلوا هناك.

ولم يلبث الساقزلي محمد الذي عرف بمقدرته ونشاطه أن حصل من السلطان مراد الرابع على أمر تعيينه والياً على طرابلس، ومنحه لقب الباشوية[29]. ولكي نوضح الطريقة التي كانت تتم بها تعيينات الولاة في مقاطعات الشمال الإفريقي، ونبين مدى الثروات التي يجمعونها، نرى من المفيد أن نذكر واقعة أوردها المؤرخون الأتراك[30].

في نهاية عام ١٠٥٣ هـ (١٦٤٣) جاء إلى طرابلس كابودان الأسطول الإمبراطوري العثماني، بيالي باشا. ودعا محمد داي إلى مباحثات يجريها معه فوق سفينة القيادة. وخشي محمد داي أن يلقى نفس نهاية صفر داي[31]، فبعث إلى الباشا صحنين من الذهب وصحنين من الفضة، هدية للسلطان. وبعث بهدايا أخرى إلى الوزير الأكبر، وقدم هدايا لبيالي باشا الذي عاد إلى القسطنطينية واتهم بعدم تقديم كل الهدايا الثمينة إلى السلطان. فحكم عليه بالإعدام.

وقد ارتبط ذكر محمد الساقزلي بالضرائب الفادحة التي فرضها على النخيل والزيتون. كما قرر رسوماً على حق المرور من باب المنشية وباب البحر كانت تدر عليه ألفين وخمسائة ريال في السنة. وقد زاد خليفته من هذه الضرائب[32].

---

(٢٩) النائب ص ٢٣٤.

(٣٠) نعيمة ج ٤ ص ٦٦ - ٦٧. حاجي خليفة (تحفة الكبار) ص ١١٤

G. Sagredo, Memorie storiche di Monarchi ottomani - Venezia 1679 p. 774.

Hammer, II p. 239

(٣١) أنظر ما تقدم بخصوص صفرداي ونهايته.

(٣٢) ابن غلبون ص ١٠٧ (٨٢).

ومات محمد باشا في نوفمبر ١٩٤٩ متسمماً. ويقال إن ذلك كان بسبب تفاحة قدمها إليه طبيب مسيحي من رقيعة. ودفن بالتربة الملحقة بمسجد درغوث التي بناها رمضان داي ثم وسعها محمد الساقزلي وأوقف عليها أوقافاً كثيرة[٣٣]. كما قام بإصلاح وترميم مسجد القلعة[٣٤]. ونشطت القرصنة في عهده نشاطاً كبيراً. ولكنها كانت تلقى مقاومة عنيفة أيضاً. خاصة من فرقة مالطا. ففي ربيع ١٦٣٤ جهز سبعة مراكب وأخرج ثلاثة منها في يونيو بقيادة أشهر (الرياس) فاستولوا على مركبين فرنسيين محمّلين بالبضائع، قادمين من إزمير. ولكن سفن الباشا هوجمت قرب طرابلس من قبل ستة مراكب مالطية بقيادة (الفارس فرا كارلو فالدينا Fra Carlo Valdina)وقد تمكن الفرسان من انتزاع السفينتين الفرنسيتين والاستيلاء على سفينتين طرابلسيتين. وقتلوا عدداً من أعدائهم بينهم الرايس (شريف) وأسروا ثلاثمئة وثلاثين شخصاً، بينهم الرايس (مراد) الذي كان من المسيحيين المعتنقين الإسلام[٣٥].

ولكن هذه الخسارة الفادحة لم تكن لتثبط من عزيمة محمد باشا الذي أعاد تنظيم فرقته بحيث صارت تتوفر على عدد يتراوح بين ٧ إلى ٩ مراكب. ومركب من نوع (غاليرا). وفي يوم ١٣ مارس ١٦٣٨ هوجمت الفرقة الطرابلسية من جديد في مياه كالابريا من قبل السفن المالطية العاملة تحت قيادة (فرا جاكومو دي ليبج شارول (Giacomo de Liège Charrault) فاستولت على ثلاث سفن برئاسة الرايس إبراهيم المدعو (Beccaza) وقتل من الطرابلسيين ٢٠٩ وأسر

---

(٣٣) ابن غلبون ص ١٠٩ (٨٤) تحمل الكتابة المسجلة فوق قبره تاريخ ١٠٥٩ هـ (تبدأ بالتاريخ الميلادي ١٥ - ١ - ١٦٤٩). وقد دفن بنفس التربة ابنه علي بك المتوفى في رمضان من نفس السنة. وثمة ترجمة غير دقيقة لحياة محمد باشا أوردها (ثريا بك) في السجل العثماني ج ٤ ص ١٥٥.

(٣٤) اللوحة التذكارية التي تذكر الترميم توجد بالمتحف وتحمل تاريخ ١٠٤٤ هـ (١٦٣٤ - ١٦٣٥).

(٣٥) مخطوط جيرارد وقد جاراه برنيا ص ١١٩. أنظر روسي:

Il dominio dei cavalieri, in Archivum melitense VI p. 72 - 73 - ID, storia della Marina dell' Ordine p. 68.

٢١٤ . وقدرت خسائر طرابلس في المعركة بحوالي مئة ألف سكودو. وقد تم تحرير كثير من الأسرى المالطيين بطرابلس مقابل الأسرى الطرابلسيين.

وفي العام التالي، وفي ليلة يونيو، تمكنت الفرقة المالطية من التسلل إلى ميناء طرابلس، وأحرقت مركبين. وفي سبتمبر ١٦٤٠ تمكنت فرقة مالطا بقيادة (لاندغرافيو داسيا Landgravio d. Assia) من مهاجمة مركب طرابلس عند رأس الأعمدة فأسرت ٣٦ تركياً، وقتلت واحداً وأطلقت سراح ١٤ أسيراً مسيحياً. عشرة منهم من مملكة نابولي وأربعةُ فرنسيون كانوا في خدمة باشا طرابلس. أما الرايس فقد كان من جنوا، ومن الداخلين في الإسلام، وكان يعمل قبل ذلك لحساب الإسبانيين ثم فر من باليرمو بعدد من الرقيق إلى ساحل الشمال الإفريقي.

وفي ١٦٤٢ تمكن الفارس (فرا برنارد فكيتي Bernordo Vecchietti) بواسطة المراكب المالطية من إحراق بعض المراكب الطرابلسية في ميناء طرابلس، واستولى في ٦ سبتمبر من ذلك العام على فرقاطة طرابلسية كان بها ١٣٧ أسيراً[٣٦].

ومع ذلك كله فقد كان من الثابت وجود نوع من العلاقات الدبلوماسية بين مالطا وطرابلس، في بعض الأحيان. وثمة وثيقة مرسلة من المرشد الأكبر (لاسكاريس Lascaris) إلى باشا طرابلس بتاريخ ٢٩ فبراير ١٦٤٤ ترجوه فيها إطلاق سراح خمسة بحارة مالطيين أسروا بطرابلس قبل عام من ذلك. بينما كانوا على ظهر سفينة يمتلكها (جيوسبي بويسون Giuseppe Buison)[٣٧].

٥ ـ علاقات طرابلس بفزان وبورنو

تعود فزان التي لم نتحدث عنها، منذ حديثنا عن القرن الثالث عشر، إلى فلك السياسة الطرابلسية في القرن السادس عشر. فبعد مقتل ابن المغامر

(٣٦) المصدر السابق ج ٦ ص ٧٨ ـ ٨١.

(٣٧) محفوظات هيئة فرسان مالطا ـ مالطا ـ مجلد ١٤٢٢ رسالة ٢٩ ـ ٢ ـ ٦٤٤.

(قرقوش)[٣٨] تولى سلاطين كانم حكم البلاد بواسطة ممثل عنهم يعرف باسم (ماي). ومقره تراغن بالحفرة الشرقية، بين مرزق وزويلة. وترى الروايات المحلية المتواترة أنه بضعف سيطرة كانم على فزان، قامت على حكمها أسرة محلية (خرمان)التي أزاحها عن الحكم (ربما في بداية القرن السادس عشر) أولاد محمد، من سلالة مغربي شريف اسمه محمد[٣٩].

وتقص الروايات أن (خوذ) زوج المنتصر بن محمد صاحب فزان قد داخلها ما يداخل النساء من الغيرة من ضرتها، وما تحظى به من تقديم لدى زوجها فراسلت الأتراك، ودعتهم إلى احتلال فزان في ٩٨٥ هـ (١٥٧٧ - ١٥٧٨)، ثم ندمت على فعلتها، ووقفت في وجه الزحف. ولكنها أسرت وقتلت بقصرها بسببها. وكان زوجها قد مات قبل مقدم الأتراك. كما فر ابنه الناصر إلى السودان، وترك الأتراك عاملاً منهم اسمه (مامي التركي).

وفي سنة ٩٩٠ هـ (١٥٨٢ - ١٥٨٣) ثار أهل البلد على مامي وقتلوه ومن معه من الجند، عن آخرهم، ولم يفلت منهم سوى قسم قليل من أولاد علوان (العلاونة) الذين كانوا عوناً للجند. وعاد الناصر إلى فزان، واستعاد سلطته، واستقر بها حتى سنة ١٠٠٨ هـ (١٥٩٩ - ١٦٠٠)، وهي السنة التي مات بها[٤٠]. وخلفه ابنه منصور الذي أراد سليمان داي إرغامه على دفع الإتاوة،

---

(٣٨) أنظر ما تقدم من ذكر قرقوش في الفصل الثامن من القسم الأول من هذا الكتاب.

(٣٩) بخصوص العلاقات بين طرابلس وفزان انظر المراجع التالية:

G. Nachtigal, Saharà und Sûdân I p. 166.

G. Pesenti, Aclume notizie sugli esploratori del Fezzan e sulla sua storia fino ai giorni nostri Boll. della R. Soc. geogr. it. serie V vol VI - 1917 p. 720 - 722.

Rossi, Le relazioni del Fezzan|con Tripoli e la costa del Mediterraneo in Boll. Soc. Georg. Etal ser. 8 Vol I 1948 p. 298

- أشار المؤلف إلى المعلومات الواردة في كتاب إبن غلبون عن فزان، وقد أفاد منها (فرومانت) نائب قنصل فرنسا بطرابلس. وقد نقل عنه فيما بعد فيرود والألماني كراوس.

(٤٠) ابن غلبون ص ٩٩ - ١٠٠ (٧٤ - ٧٥).

فـامتنع عليـه[٤١]، فأرسـل الداي جيشـاً تصدى لـه المنصور، هـزمه في الجـولـة الأولى، ثم عادوا إلى الهجوم فهزموه وجرح جراحاً قاتلة. بينما فر أخـوه الطاهـر إلى السـودان ١٠٢٠ هـ (١٦١١ - ١٦١٢) واستـولى الأتـراك من جـديـد عـلى فزان. وجعلوا عليها عاملاً تركياً اسمه (حسين النعال). وانتهى هذا أيضاً نهاية سيئة إذ قام أهل البلدة عليه في ١٠٢٢ هـ فقتلوه، وأبـادوا الحامية ورجع الـطاهر من السودان فبايعه أهل فزان، واعترفوا بسيادتـه عليهم، وسار فيهم في البـداية سيرة حسنة، وأدار الأمر بحكمة وتـدبر حتى سنـة ١٠٣٢ هـ (١٦٢٢ - ١٦٢٣) ثم طغى وتجـبر، وزاد في الخراج عـلى الخرمـان[٤٢]، بوادي الأجـال، فلجأوا إلى طـرابلس. ولم يستسلموا لمحـاولات الطاهـر الذي كـان يسعى للتصالـح معهم وإرضائهم عن طريق (مرابطي) سبهـا، وعامله عـلى سوكنـة أبي نوح المصراتي. واتجهوا إلى رمضان داي وصهـره محمد السـاقزلي الـذي كان يسيـطر على شؤون الحكم، فوجه معهم جيشاً إلى فزان[٤٣]. ولما علم الطاهـر بذلـك فر إلى (برنو)، وكان ملكهـا إذ ذاك عمر المقدسي الذي كان سعيداً بوقوع الطاهـر بين يـديـه ليسـوي معه حسـاباً قـديماً، وينتقم منـه لقتل ابني أخيـه محمد المنصور. واحتل

---

(٤١) أنظر ما تقدم عـن سليمان داي.

(٤٢) لم يرد هذا الاسم القبلي لدى أغسطيني في كتابه طرابلس الغرب.

(٤٣) ابن غلبون ص ١١٣ (ص ٨٨).

(+) في الطبعة التي حققها الشيخ الـطاهر الـزاوي (فر إلى أبي نـوح) وفي تعليقه بـهامش ص ١٥٧ أشار إلى أنها وردت بمخطوطـة مكتبة الأوقـاف (إلى أبي نوح). . وقـد صحح ذلـك روسي في ترجمته لتاريخ ابن غلبون كما ذكرها أيضاً في هذا الكتاب. . وهو الصواب (المعرب).

(+) عند ابن غلبون ص ١٥٨ (وكان في نفسه من الـطاهر شيء بسبب سمله عيني ابن أخيـه محمد المنصور).

(+) يقصـد المؤلف جهيم أخا الـطاهر، وإلا لـوجب أن يقول محمـد بن جهيم ابن أخي الطاهر كما وردت لدى ابن غلبون ص ١٥٨. وقد ورد بهذه الصفحة خطأً قوله (ومـات ولده جهيم بهـا) والصواب (ومات والده جهيم بها) ولعلها من الأخطاء المطبعية. . (المعرب).

(+) النص الأخير ورد عند ابن غلبون كما يـلي (وفر أمـامهم متقلباً في أرض فـزان إذ أدخل أرضـاً دخلوا فيقاتلهم حتى سئم الجميع) ص ١٥٩ وهو يختلف اختلافـاً بيناً عن النص الـذي أورده المؤلف. فالإشارة إلى النهب والقتل زيادة لم ترد في الأصل الذي اعتمد عليه. . (المعرب).

الأتراك البلد وعينوا عاملاً عليها أحمد بن هـويدي الخرماني الـذي بقي بها مـع الحـامية حتى سنـة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٦ ـ ١٦٢٧) فتوجـه إليهم الأمـير محمـد بن جهيم (أخو الطاهر) الذي فر إلى (كاشنة) بالسـودان. وقد دعـاه الفزانيـون خفية بعد وفاة والـده إلى العودة إلى فزان. وقد اصطدم الطرفان بين زويلة وتراغن، وانتصر محمــد بن جهيم، وانحصر الجيش الــتركي بمـرزق، وحــين بلغ بهم الإرهـاق مبلغه وفني مـا معهم من الزاد، طلبوا العـون من محمد بـاشا، فـوجه إليهم الـدعم المطلوب. وحـين علم محمد بن جهيم بـذلك تخلى عن الحصار، وأخذ يجوب أرض فزان ينهب ويقتل.

وقد اجتمع فقهاء فزان (المرابطون) واتفقـوا على إيقـاف القتال ومـراجعة محمد باشا، وأرسلوا إليه وفداً يتكون من الفقيه علي الحضيري وأخيه. وهمـا من سـلالة سيـدي حامـد الحضيري[٤٤]. وفيـما يلي الشروط التي تقـرر الصلح عـلى أساسها[٤٥]:

١ ـ أن يخرج الترك من أرض فزان.
٢ ـ أن يحكم فزان أحد شيوخها.
٣ ـ أن يكون محمد بن جهيم شيخ فزان.
٤ ـ أن يؤدي إتاوة كل سنـة مقدارها أربعة آلاف مثقال ذهباً، ألفان منها تـبراً وألفـان يعطون قيمتهـا عبيـداً وإمـاء. وجعلوا ثمن العبـد الـذكـر خمسـة وعشرين مثقالاً، وثمن الأمة ثـلاثين مثقـالاً، وثمن الخصي ثمانـين. ويتم نقل العبيد عـلى نفقة (شيـخ فزان) الـذي يتولى تعـويض من يموت أثنـاء الـرحلة حتى سوكنـة. أما المسـافة بـين سوكنـة وطرابلس فتتم عـلى نفقـة حكومة طرابلس.

---

(٤٤) أغسطيني ص ٣٧٢
وقد وردت في الصفحة ١٦٠ من الطبعة التي حققها الشيخ طاهر الزاوي (كلالة سيدي حامد الحضيري) وهو خطأ مطبعي واضح صـوابه (سلالة سيدي حامد الحضيري) (المعرب).
(٤٥) كراوس وفرومنت في مصادرهما المذكورة. ابن غلبون ص ١١١ ـ ١١٦ (٨٧ ـ ٩٠).

٥ ـ على شيخ فزان أن يبعث كل عام بهدايا إلى سلطات طرابلس المختلفة. وقد ذكر منها (البك) وكاهية السقيفة (مستشار الباشا) وكاهية الحرب (النائب العسكري للبك) ثم آغا الأتراك (وهو قائد الإنكشارية) وآغا العرب وأمين السر والشاوش(٤٦).

وتم الصلح حين التزم محمد بن جهيم بهذه الشروط. وسحبت القوات التركية، وظلت العلاقات بين طرابلس وفزان سليمة لفترة من الوقت.

وكانت لطرابلس أيضاً علاقات نشطة مع بورنو، وهي العلاقات التي بدأت منذ عهد درغوث باشا، ونحن نجد أثراً لها في أخبار طرابلس عند بداية القرن السابع عشر، أثناء عهد سليمان داي(٤٧). وتم خلال ١٦٣٦ ـ ١٦٣٨ تبادل أيا والوفود بين الساقزلي باشا (وماهيي هامور Mahi Hamour) صاحب بورنو.

وفي ١٦٥٢ جدد عثمان باشا علاقات الصداقة والتجارة مع الحاج علي صاحب بورنو الذي بعث في ذلك الوقت سفيراً، اسمه إسماعيل، يحمل رسالة باللغة العربية وهدايا تتألف من مئتي عبد أسود من الجنسين وسرج مطرز. وعاد السفير يحمل إلى سيده هدايا عثمان باشا، وهي بعض الرقيق المسيحي وخمسون فرساً(٤٨).

---

(٤٦) ابن غلبون ص ١٦٠ (واشترطوا لآغة العسكر ثلاثة عشر مثقالاً وثلثا ذهباً ولكتبة دار الملك سبعة مثاقيل إلا ثلثاً، ولسعي النوبه؟ (هكذا في طبعة الشيخ الطاهر الزاوي)، أما روسي فيثبتها (سفير النوبة) أي قائد القافلة وآمرها فقد خصصوا له ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثا وخصياً. (المعرب).

(٤٧) أنظر ما تقدم بخصوص صفر داي.

(٤٨) استخلص هذه المعلومات من مخطوطة جيرارد ومن مقال:

De La Roncière, Une Histoire du Bornou aux XVII siècle par un chirurgien français à Tripoli in Revue de l'histoire des Col. Français 1919 p. 78 - 88.

٦ - علاقات طرابلس ببرقة

كانت برقة معروفة قديماً بازدهارها. ولكنها كانت قد انهارت قبل الفتح العربي، في القرن السابع. ولكنها ظلت على أهميتها حتى القرن الحادي عشر. وكانت لها علاقات مع مصر والجمهوريات البحرية الإيطالية حفظت للتجارة نشاطها.

وكان الفتح العربي في منتصف القرن الحادي عشر قد سجل نهاية ازدهار البلاد. ويقول ابن خلدون[٤٩] عن برقة التي كانت تشمل منطقة سرت (أما برقة فدرست وخربت أمصارها، وانقرض أمرها وعادت مجالات للعرب، بعد أن كانت داراً للواتة وهوّارة).

أما مارمول الذي قدم لنا وصفاً مطبوعاً لإفريقية باللغة الإسبانية في سنة ١٥٧٣ فيقول: إن عرب برقة الواقعة بين بربريا (غربي مصراتة حتى المغرب) وبين مصر، كانوا على درجة بالغة من الفقر تضطرهم إلى رهن أطفالهم للتجار المسيحيين من صقلية، حتى يحصلوا على القمح، وأنهم قليلاً ما كانوا يقدرون على الوفاء بالرهن، فيظل أبناؤهم عبيداً بصقلية ويعتنقون في الغالب الدين المسيحي. ويؤكد مارمول أنه شاهد عدداً كبيراً منهم في تلك الجزيرة. ويتحدث عن عرب برقة فيصفهم بأنهم قطاع طرق يعترضون القوافل المتجهة من المغرب أو سواحل الشمال الإفريقي إلى مصر[٥٠].

وقد اعتاد الحجاج الذين يمرون بطرابلس في القرن السابع عشر على التزود بلوازمهم من المؤن، بما يكفي لثلاثة أشهر إذا كان الفصل شتاء، وما يكفي لشهرين إذا كان الفصل صيفاً قبل أن يضربوا في تلك المفازة التي ليس لها نظير، ويعنون بها صحراء برقة. هكذا كانوا يسمون البلاد التي كانت موطناً (لكالياك) ومقراً لحضارة زاهرة.

---

(٤٩) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٣.

(٥٠) مارمول (وصف إفريقية) ج ١ ص ٤٢.

ويصف الرحالون - مثل العياشي الذي مر بها في ١٦٦٢ م الأطلال القديمة، مستعرضاً ذلك في سلسلة متصلة من الأماكن الأثرية. كما يصف أقواماً من البدو القطاع، يجوبون الجبل الأخضر، متحملين طغيان الزعماء البدو، دون أثر لأية حكومة.

ويعود الفضل إلى محمد باشا الساقزلي وخليفته عثمان باشا الساقزلي في احتلالهما - ولو بشكل محدود - لبعض المناطق الرئيسية من الساحل وإن كانا مدفوعين في ذلك بدافع الطمع في الجباية والخراج.

وتم احتلال بنغازي قرب ١٦٣٥ وأنشىء بها حصن. وبعد ذلك بقليل، قرب سنة ١٦٣٩[٥١]، قام عثمان الذي كان يعمل قائداً في خدمة محمد الساقزلي على رأس حملة برية، من طرابلس، تدعمها فرقة من السفن، متجهاً إلى واحة أوجلة الواقعة على طريق القوافل التي تصل فزان بمصر. وقد واجهت الحملة الطرابلسية مقاومة من المدعو أحمد بن عبد الهادي الذي تصدى لها بجيشه وقومه. ولعب عثمان معه لعبة المكر والدهاء، وتظاهر بالنوايا السلمية وأنه قدم إلى تلك الواحة دون أهداف حربية، فدخل بهذه الطريقة إلى البلدة، وقبض على أحمد وقيده بالأغلال، وجرد الأغنياء من ثرواتهم وسجن حتى النساء - فيما يقال - واستل الأقراط من آذان الأطفال. وبعد أن جمع هذه الغنائم الطائلة والعبيد الذين كان من بينهم أحمد بن عبد الهادي عاد عثمان إلى طرابلس منتصراً[٥٢].

وتلا احتلال بنغازي احتلال درنة قرب ١٦٦٢، وكان سكان سرت والجبل الأخضر يخضعون بصورة ظاهرية لعثمان، وكانت سلطة العثمانيين في الواقع محدودة بعدد من المراكز الساحلية، وكان في بنغازي نائب للباشا، وكان

---

(٥١) فيرود (الحوليات الطرابلسية) ص ١٠٠ - ١٠٢.

(٥٢) ابن غلبون ص ١١٨ (٩٢) - كانت الفضة التي غنمها من الوفرة بحيث استخدمها محمد باشا الساقزلي في سك النقود، وكانت أول عملة تسك بطرابلس، وتعرف باسم قرميل. وكانت تزن نصف درهم ولها قيمة أربعة طرانيش، ولا يجري تداولها إلا في إقليم طرابلس.

الناس يدفعون الضرائب. وكان التجار من طرابلس ومصراتة يقومون بتصدير الصوف والإبل وغيرها من الحيوانات والعبيد[٥٣]. وكان لدرنة أيضاً حاكم موفد من طرابلس، وكانت لها صلة تجارية كبيرة مع الإسكندرية وكريت (كانديا)[٥٤].

٧ ـ الساقزلي عثمان باشا (١٦٤٩ ـ ١٦٧٢)

بعد وفاة محمد باشا قام الكيخيا محمود، بتكليف من الخازن رمضان، بإبلاغ عثمان بك بوفاة الباشا[٥٥]، فحضر إلى القلعة ودعي لاستلام الحكم. فامتنع في البداية ثم قبل (فأخذه محمود كيخية وأجلسه على الكرسي وبايعه. وتابعه على ذلك رمضان الخازن ومصطفى شلبي[٥٦] ومحمد بك حتى بايع أهل القلعة كلهم) وأمر المنادي بالنداء بالرحمة للراحل والنصر للقادم الجديد، وبايع الناس بالإجماع، ومنح كل جندي عشرة ريالات[٥٧].

وقد زاد عثمان باشا من نشاط القرصنة، مثيراً بذلك تدخل القوى المسيحية، ففي سنة ١٦٥٨ أرسلت انجلترا إلى طرابلس الأميرال (ستوكس) (Stoakes) الذي ألزم عثمان باشا والديوان على القبول بمعاهدة صلح. وفي ١٥ يوليو ظهر الفرنسي (الكفالير بول Paul) بأسطوله أمام طرابلس طالباً إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين، وأفلح في الحصول على قائمة بأربعمائة أسير فرنسي، والتأكيد بإطلاق سراحهم وتسليمهم مقابل فدية قدرها مئة وخمسون سكودو عن الشخص الواحد. وقام عثمان باشا بتحسين وسائل الدفاع البحري، وأقام

---

(٥٣) استقر كثير من سكان مصراتة منذ ذلك الوقت في بنغازي مكونين (مستوطنة).

(٥٤) العياشي (الرحلة) فاس ١٣١٦ ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٥٥) لعله رمضان خوجة الذي أنشأ في سنة ١٠٦٤ (١٦٥٣ ـ ١٦٥٤) المسجد والكتاب الواقعين بمدينة طرابلس والمعروفين باسم جامع النخلي. وربما جاء الاسم من أحد أئمة المسجد الذين كانوا يتولونه.

(٥٦) شالابي هي الصيغة العربية للكلمة التركية (شلبي).

(٥٧) ابن غلبون ص ١٠٩ (٨٤).

مدفعية جديدة بين حصني درغوث والمندريك، احتياطاً لأية هجمات محتملة(٥٨).

وفي أغسطس ١٦٦٢ جاء إلى طرابلس الأميرال الهولندي (رويتر Ruyter) ليبرم اتفاقيات مماثلة للاتفاقيات التي عقدت مع الجزائر وتونس، فاستقبل استقبالاً حسناً، ولكنه لم يتمكن من إبرام الاتفاقية. في حين حصل الإنجليزي السير جون لاوسون John Lawson في ١٨ أكتوبر ١٦٦٢ على موافقة عثمان باشا بتجديد الاتفاقية التي عقدت في عهد كرومويل سنة ١٦٥٨(٥٩).

ورغبة في ضمان حرية التجارة لمواطنيه، وتوفير الحماية لهم ضد الهجمات القرصانية، قام سفير إنجلترا في ١٦٦٣، بناء على تعليمات من حكومته، باستصدار تصريح من السلطان بتركيا، يعترف فيه الباب العالي لإنجلترا بحق معاقبة رعاياه من طرابلس وتونس والجزائر، في حالة الإخلال باتفاقيات الصلح التي عقدت معها (عقدت مع الجزائر سنة ١٦٦١) ويقضي التصريح بأن لا يكون للعمل الحربي الذي تقوم به إنجلترا ضد القراصنة وضد مدنهم، أي أثر في الإضرار بالسلم والصداقة القائمين بين صاحب الجلالة البريطانية والإمبراطور العثماني. وقام سكرتير السفير الإنجليزي بالقسطنطينية (Rycaut) بنقل نسخ من هذا التصريح إلى حكام الولايات الثلاث طرابلس وتونس والجزائر. وقد وصل إلى طرابلس في ٢٩ أغسطس على ظهر المركب (بونافنتور Bonaventure) بقيادة الكابتن وليام بركلي (William Berkely). واستقبلها الباشا بالترحيب، وتعهد بعدم خرق اتفاقات السلم وباحترام قداستها(٦٠).

---

(٥٨) مخطوطة جيرارد ج ٢ ص ٨١ - فيرود ص ١١٧ - ١١٨. - برنيا ص ١٥٦ وكذلك

P. Piccolomini, C. Corrispond. tra la Corte di Roma e l'inquisito re di Malta durante la guerra di Candia nell Arch. Stor. Ital 1910 - p. 23.

(٥٩) **Edward Hertslet,** A complete Collection of the traites and Conventions, vol I London 1827 p. 125.

Feraud p. 119.

(٦٠) **Knolles,** (The Turkish History) continuary, de Rycaut, VI ediz. Londra 1687 II p. 137.

إن الحرية التي تركت لحكام طرابلس وتونس والجزائر، في إبرام اتفاقيات ومعاهدات فورية مع الدول، وقبول الباب العالي بحق الدول الكبرى، في إلزام تلك الحكومات باحترام شروطها بالقوة، من الأدلة الواضحة على وهن العلاقات (بربريا) أي الشمال الإفريقي، وبين القسطنطينية، وضعف سيادة السلطان عليها.

كانت الحرب في ذلك الوقت مشتعلة في كريت بين الأتراك والبندقيين (فينيسيا) (١٦٤٥ - ١٦٦٩). وكانت القسطنطينية تحثّ قراصنة الشمال الإفريقي على المساهمة في هذه الحرب، ولكنهم كانوا يرفضون أو يعتذرون أو يرسلون ببعض سفنهم إلى بحر إيجة لمضايقة أساطيل البندقية وحلفائها. وفي سنة ١٦٦٧ بعث عثمان باشا بسبع سفن للالتحاق بالأسطول العثماني(٦١). وقد أتاحت أعوام الحرب في كريت، وانشغال القوى المسيحية بالجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، ومساعدة الجزيرة المحاصرة، فرصة كبيرة لقراصنة الشمال الإفريقي لزيادة نشاطهم حتى أصبحوا في النصف الثاني من القرن السابع عشر، أخطر مما كانوا عليه في الماضي وأكثر إرهاباً وإرعاباً.

وفي ١٦٦٩ قام أسطول فرنسي بقيادة (دالميراس D. Alméras) بالظهور أمام طرابلس، واستطاع أن يفرض على الباشا، في تلك المناسبة، تمكين الأخوة المخلصين (Frati Redentoristi dell' Ordine) من إنقاذ خمسة وعشرين أسيراً فرنسياً، وكان بطرابلس في ذلك الوقت ١٥٥٩ أسيراً مسيحياً(٦٢).

وقد اتسم حكم عثمان باشا بالقوة، ولكنه كان عرضة لكثير من المؤامرات والثورات العربية. وفي سنة ١٦٦٦ قام شريف مصطفى بن رجب بك، ومحمد ابن نوير زعيم المحاميد بالتآمر لقتل عثمان باشا يوم ١٢ يوليو، بمناسبة إنزال المركب (الشمس الذهبية) وأحبطت المؤامرة وأعدم ابن رجب بك، وفي سنة ١٦٦٧ قام زعيم المحاميد على رأس حركة جديدة، امتدت فشملت بني وليد

---

(٦١) هامر ج ٣ ص ٦٢٥ Hammer, III p. 625.

(٦٢) فيرود ص ١٢٤ - برنيا ص ١٥٦.

وترهونة ومصراتة وأولاد سليمان، وزحف على طرابلس، وفي المعركة التي جرت يوم ١٢ يونيو هزم رجب بك وقواته التركية. وفي سنة ١٦٦٩ قام عثمان باشا بارتكاب عمل من أعماله الوحشية فقتل في طرابلس خمسة وعشرين شخصاً من أبناء القبائل الثائرة، فأثار بذلك ثائرة المحاميد، ولكن عثمان باشا استطاع أن يستمليهم بالهدايا والعطايا، وتمكن من إرسال ١٥٠٠ إنكشاري وثلاثمئة أسير مسيحي لدعم قلعة ككلة والاحتفاظ بالجبل تحت سلطته[٦٣].

وحصل عثمان أيضاً على اعتراف السلطان محمد الرابع به، وتعيينه على رأس الولاية، وكان عليه أن يعمل كل سنتين على كسب عطف السلطان ووزرائه، بما كان يقدمه من هدايا ثمينة وسخية[٦٤]. ونحن نعلم أنه بعث في إحدى السنوات ستين ألف سكودو هدية إلى السلطان وعشرة آلاف سكودو للوزير الأكبر، وهدايا أخرى لضباط الحاشية السلطانية ووالدة السلطان. وكانت تغطية هذه النفقات الكبيرة تأتي من غنائم القرصنة ومن الضرائب الفادحة التي أثقل بها كاهل المواطنين، وأرهقهم بأكثر مما كان الأمر في عهد سلفه محمد الساقزلي.

ويقول ابن غلبون[٦٥] ـ نقلاً عن البهلول ـ (ومن عظيم ظلمه الفاحش أنه إذا باع أحد الشركاء عقاراً، ولو جزءاً لا يتجزأ، أغرم البائع وغير البائع مكس العقار كله، ممن باع ومن لم يبع). وارتفع التزام ضريبة المرور من بابي المدينة من ألفين وخمسمائة ريال إلى أربعة وعشرين ألف ريال، وكان يحصل عن كل عبد مبلغ العشر من ثمن بيعه. وفرض على كل عبد يجلب من فزان ضريبة قدرها

---

(٦٣) معلومات مستخلصة من مخطوطة جيرارد. أنظر أيضاً:
باولو توسكي: المصادر غير المنشورة من تاريخ طرابلس الغرب.

P. Toschi, Fonti inedite di storia della Tripolitania, II (Voyage to the Straits) di Augusto Holsteyn in Annali R. Instituto Orientale di Napoli vol II 1930 p. 23 - 24.

فيرود ص ١٢٢ ـ ١٢٣

(٦٤) ابن غلبون ص ١٠٩ (طبعة القاهرة ص ١١٠) ص ٨٥.

(٦٥) ابن غلبون ص ١١٨.

ريالاً وثمناً[٦٦]. تلك هي الإجراءات المطبقة في المدينة، أما في الدواخل فيتسلط القواد على الرعايا، ويرغمونهم على دفع الخراج الذي يرتفع ارتفاعاً فاحشاً. وقد نزح بعض الأهالي إلى بلدان أخرى، ففرض على الباقين ما لزم البلدة كلها، قبل النزوح. وكان عثمان يجبر الناس على شراء غنائمه البحرية بأسعار عالية، ويلزم الصناع بما ألزم به التجار (حتى إن ما قيمته أربعون، باعه من أخذه بثمانية عشر). وقد أحصى النخيل وفرض على كل نخلة عشرين عثمانياً في العام، وفرض ضرائب خفيفة على الكروم، وصنف البساتين صنفين (سمى صنفاً مرصداً وهو القوي الشجر وسمى الضعيف غير مرصد، ووظف على كل جابية ريالين إلا ربعاً، وعلى غيره نصف ذلك، وربما كان المرصد في بعض السنين لا يفي بما عليه، وربما أعطى صاحبه الوظيف (الضريبة) ولا يبقى له شيء). ولم تجد الاحتجاجات. وفرض على أهل تاجوراء قبول إحصاء النخيل، وفرض على كل شجرة قرميلاً ونصفاً بينما تدفع أماكن أخرى قرميلاً واحداً في العام[٦٧].

ولى عثمان قيادة الجيش ابن أخته رجب بك، وحين مات هذا الأخير بالطاعون[٦٨] ولى سليمان، وهو ابن بنت أخيه. وقدم عليه أبناء ابن أخيه فأقامهم على بعض المناصب، فظلموا الناس وتعسفوا[٦٩]. وكان القراصنة الذين وجه إليهم عثمان باشا أقصى اهتمامه وعنايته، سبباً في ما حل به من هلاك، نتيجة الجشع والتسلط الذي كان يمارسه في الاستئثار بالنصيب الأكبر من الغنائم.

ففي سبتمبر ١٦٧٢ استولى على مركبين بندقيين وآخر فرنسي، تقدر قيمتها جميعها بحوالي مئة وخمسين ألف سكودو، ولم يرض الجند بالحصة التي

(٦٦) الثمن هو اسم لأحد أجزاء العملة المستعملة في ذلك العصر.

(٦٧) ابن غلبون ص ١١٨ (٩٢).

(٦٨) ربما كانت وفاته في ١٠٦٨ هـ (١٦٥٧ - ١٦٥٨) إذ إن كثيراً من القبور الملحقة بالمدرسة تحمل هذا التاريخ.

(٦٩) يذكر ابن غلبون عند هذه النقطة عادات شائعة في البلاد.

قررها لهم، وهي عشرون ألف سكودو، فاتفقوا على رفضها والخروج عليه، وخلع بيعته. وفي إحدى الأمسيات أطلق أحد الجنود رصاص بندقيته أمام مقهى بسوق الترك كان غاصّاً بالناس. فكان ذلك إعلاناً للثورة. وتمكنت قوة تتألف من حوالي أربعمائة انكشاري بقيادة مصطفى البهلوان (من فوجيا بإزمير) من الاستيلاء على الثكنات والحصن. فطلب عثمان باشا عون العرب ومساعدة رجب رئيس الحرس التركي وعثمان ريس رئيس المرسى. ولكن عثمان بك كان محاصراً في قصره الواقع قرب مسجد درغوث. كما قتل بعض أعوان الباشا والمخلصين له وقطعوا تقطيعاً، وأغلق الباشا القلعة على نفسه. وحين رفض رجب بك الخروج، نصب الثوار مدافعهم قرب قوس (ماركوس أوريليوس) وفوق حصن درغوث وأسوار الحي اليهودي (الحارة). كما ركزوا بنادقهم فوق دار القنصل البريطاني فاستطاعوا أن يرغموا رجب بك على الاستسلام. وقد قتلوه بعد ذلك، (٢١ نوفمبر)، مع علي الجربي وأحد الفرنسيين المعتنقين للإسلام) وكذلك (مانولي Manole وجاكومو جوستنياني G. Giustiniani وهما من أقاربه من إغريق جزيرة (كيوس)[٧٠]. وأمر عثمان باشا بضرب المدينة من القلعة، ودمّر دار عثمان رئيس المرسى الذي انتقل إلى جانب الثوار، فرد هؤلاء بمدفعيتهم التي نصبت في أفضل المواقع وأحسنها. فقصفوا القلعة واحتلوا دار البارود وحصن الولي الذي يوجد خارج باب زناتة، قرب خزان المياه بالظهرة.

ولم تجد وعود الباشا بزيادة المخصصات وتخفيض الضرائب. ولم يكن لها أي تأثير على الإنكشارية، كما لم تفد في اجتذاب العرب إلى صفه، بل إن قسماً منهم قد اتفق مع (ديلاور بك) القائد الجديد للحرس. وأما الآخرون الذين كان يقودهم عبد الله بن منصور، زعيم المحاميد، فقد حيل بينهم وبين تقديم مساعدة فعالة للباشا المحاصر. ولما تيقن عثمان باشا، أنه هالك، شرب يوم ٣٠

---

(٧٠)

نوفمبر ١٦٧٢ السم، فمات. وكان في الثانية والسبعين. ويرى آخرون أنه مات بالسكتة القلبية[٧١].

أنشأ عثمان باشا المدرسة المعروفة باسمه (مدرسة عثمان باشا) قرب جامع درغوث. وصحنها الجميل (بخلواتة) المخصص للطلبة يؤدي إلى مقبرة مجاورة وحديقة أخرى معدة هي أيضاً للدفن. وتمتاز (الميضأة) الرخامية بدقة الصنع. وقد أوقف عليها أوقافاً كثيرة منها الفندق الكبير (الواقع بأقصى سوق الترك) والحمام الكبير.

وعلى الجملة فإن عثمان باشا رغم عنفه وجوره وطغيانه، فإن اسمه يذكر بين أقوى ولاة ذلك العصر وأقدرهم[٧٢].

٨ ـ طرابلس قرب ١٦٧١

لقد ترك لنا الجراح البرونفسالي (جيرارد Girard) وصفاً لمدينة طرابلس، قرب سنة ١٦٧٢. وكان قد أسر في المياه الطرابلسية، أثناء حرب كريت، وظل بطرابلس حتى سنة ١٦٧٦، وألف كتاباً بعنوان: (Histoire Chronologique)، وقد أفدنا منه في سرد وقائع هذا العصر. وقد استفاد[٧٤] في تأليفه من الملاحظات الشخصية التي كونها أثناء أسره، وهي شاملة لكل الأحداث التي شاهدها ووقف عليها، أو التي استخلصها من وقائع السنوات السابقة لوجوده بطرابلس، كما يرويها شيوخ الأتراك والمسيحيين المتحولين إلى الإسلام والعرب والأسرى المسيحيون الذين كانوا يقاسون ويعانون آلام الأسر مدداً تتراوح بين أربعين وخمسين عاماً. كما حصل على معلومات من القنصل

(٧١) ابن غلبون ص ١٢٦ ـ ١٢٧ (٩٨ ـ ١٠٠) توسكي ص ٢٦ ـ ٢٩ فيرود ص ١٢٦ ـ ١٢٩
De La Croix, Mémoires contenant diverses relations de l'Empire Ottoman, Paris 1784 - 1 p. 340-352.

(٧٢) التاريخ الخارجي هو ١٠ ذو القعدة ١٠٦٤ (١٣ سبتمبر ١٦٥٤).

(٧٣) ذكر عثمان باشا بطريقة موجزة عابرة في السجل العثماني لثريا بك. ج ٣ ص ٤١٩.

(٧٤) خبر مستقى من مخطوطة جيرارد.

(ن ـ برادلي N. Bradley) بخصوص تاريخ العلاقات الإنجليزية الطرابلسية. أما عن الفترة الواقعة من ١٦٧٦ حتى ١٦٨٥ فقد أفاد في تكوين معلوماته مما كان يستخلصه من الرسائل التي كانت تصله من (بربريا) الشمال الإفريقي ومن القسطنطينية[٧٥].

لقد بدت طرابلس قرب سنة ١٦٧٢ للمؤلف جيرارد الذي كان مهتماً بجمع عناصر وصفه التاريخي لها، مدينة ذات شكل خماسي، غير متناسقة الأطراف، ويبلغ محيطها ١٨٠٠ خطوة (هندسية) محاطة بأسوار ذات بابين، وستة أبراج، وحصن، ثم القلعة[٧٦]. ويؤدي باب المنشية إلى الريف، وهو واقع بين خندق القلعة، ودار البارود، يليه الدباغ وبرج الولي وبرج باب زناتة، ثم الركن الذي به حارة اليهود. ثم حصن غير كامل بدأ في تشييده محمد الساقزلي لإحكام السيطرة على المدينة. فعاقه الموت عن إتمامه. ثم حصن الطابية أو حصن الشريف (شيده محمد شريف داي قرب ١٦٢٧) وهو الحصن الذي ساعد الثوار في سنة ١٦٣١ على ضرب القلعة التي اعتصم بها شريف داي وحوصر فيها. وكذلك أثناء الثورة ضد عثمان الساقزلي.

وكانت القلعة تتوفر على صهريج، وبها جسر قابل للرفع. وفي الزاوية يقوم حصن درغوث الذي يتصل هو الآخر بجسر قابل للرفع. وبين القلعة سور يحمي الميناء. وثمة ساحة تدعى (البلفدير ـ ميرادور (Mirador) تنصب فيها المدفعية في بعض الأحيان، وثمة برج مربع شبه خرب، ثم باب البحر، ويوجد خارج هذا الباب سكن رئيس المرسى، وعلى طول السور ثمة مجموعة من الدكاكين لتخزين الأشرعة والحبال. وتشاهد بعد الباب مجموعة من الأبراج

---

(٧٥) مخطوطة جيرارد ص ٥ ـ ١٠.

(٧٦) انظر مقال أوريجما المذكور أدناه بخصوص رسم (سللر Seller) الذي نشر بلندن سنة ١٦٧٥ والذي قال عنه جيرارد (ج ١ ص ٣٣) إنه دقيق جداً. ولتحديد هذه الوقائع الطوبوغرافية انظر:

Aurigemma, Per la Storia delle forticazioni di Tripoli in Riv. Colonie Italiane 1929 p. 460 - 473·

الصغيرة القائمة على الأسوار وساحة تدعى ساحن حصن المجزرة، أقامها عثمان باشا سنة ١٦٦٩، ومنها يمكن ضرب مدخل الميناء.

ولم تكن للمدفعية خنادق، ولا حصون أمامية، كما كان الشأن في العهد الإسباني وعهد فرسان مالطا. فقد ردم الأتراك الخنادق. ويبلغ محيط القلعة حوالي خمسمائة خطوة، وبه باب واحد يقفل أثناء الليل، وثمة نافورة أمام المدخل تقذف ماء استخرج بطريقة صناعية. وتأتي بعد ذلك السقيفة التي يقيم بها حرس الكيخيا، وإلى اليمين، وبعد الباب الأول، ممر طويل يجلس فيه محمد وعثمان باشا على نوع من كراسي العرش لمقابلة رسل السلطان. وقد قام بالي داي بإتلاف هذا العرش بناء على نصيحة خليل باشا[٧٧]. ثم يمر الداخل بأبواب أخرى. وبعد الباب الرابع، يدخل المرء بلاطاً يدعى (الميدان) حيث يمضي رئيس الدولة الطرابلسية أغلب الوقت في تصريف شئون الحكم. وبها مقعد ملاصق للجدار يستخدم (كرسياً للعرش)، وخلفه نوافذ ذات قضبان متشابكة، يصدر الوالي تعليماته من خلالها إلى الكتبة الذين يجلسون عند الممشى الذي يقع خلفها. وإلى يسار الميدان يوجد مسجد القلعة الذي كان كنيسة في عهد فرسان مالطا. أما بقية القلعة فهي مساكن ومخازن وأفران ومطاحن. والأسوار مزودة بأربعين مدفعاً. وثمة باب وهمي يؤدي من القلعة إلى البحر.

أما الميناء فيحميه حصن المندريك[٧٨] (Castellejo) حيث توقد الأضواء ليلاً لإرشاد السفن. وكان عثمان باشا قد حصن هذا البرج تحصيناً جيداً في سنة ١٦٦١، ثم عمل بالي داي وإبراهيم داي[٧٩] على وصل برج المندريك ببرج درغوث بواسطة سور منيع، وحصن صغير، فوق أحد المرتفعات التي كان بها في الماضي طاحون هوائي وضريح الولي سيدي (Antioche). وتساهم البطاريات المقامة عند الشاطىء الشرقي من المدينة في الدفاع عن الميناء. أمّا

---

(٧٧) انظر ما ذكر بخصوصه في مستهل الفصل القادم.

(٧٨) انظر ما تقدم بخصوصه في هذا الفصل.

(٧٩) انظر بخصوصه الفصل القادم.

طرق المدينة فهي في الغالب ضيقة، والمباني بها مكونة من دورين وشرفات وردهات داخلية (وسط الحوش). لقد دمرت البلاد تدميراً كاملاً خلال الفترة الواقعة بين ١٥١٠ ـ ١٥٥١، وفي القرن السابع عشر بعث الأسرى اليونانيون متعة إنشاء المنازل الجميلة المترفة. وكان مسجد درغوث أجمل مساجد المدينة التي بلغت في ذلك الوقت ما يقرب من عشرين مسجداً، ويليه مسجد سيدي سالم ومسجد الخروبة. وتقع المقابر خارج المدينة. وكانت للقراصنة مقبرة خاصة بهم داخل سور سيدي حمودة، أمام باب المنشية.

ويقيم الإنكشارية في الفنادق. وقد أنشأ عثمان باشا الفندق الكبير سنة ١٦٥٤ في سوق الترك، وهو يحوي أكثر من مئة غرفة، ثم الفندق الجديد قرب مسجد درغوث، وقد أنشأه سليمان كاهية في ١٦٧١ م. وأنشأ عثمان باشا قرب القلعة سوقاً مغطاة تعرف الآن بسوق (الربع) قرب مسجد أحمد القرمانلي[٨٠]. وكانت تعرف في ذلك الوقت باسم (سوق العرب) مقابل السوق الأخرى التي تعرف باسم (سوق الترك).

٩ ـ ضواحي طرابلس قرب ١٦٧٢ ـ

كانت سلطة طرابلس، حينذاك، تمتد حتى بن قردان غرباً. وكانت زوارة أهم المواقع علي الساحل الغربي. وهي معروفة ويتردد عليها تجار البندقية بسبب الملاحات التي كانت تدر دخلاً طيباً للوالي. وكان البندقيون يقومون بتوجيه سفنهم لشحن الملح، مقابل أثمان فورية تدفع عند كل شحنة أو مقابل التزام سنوي يقرب من ألفي سكودو، وكان للبندقية وكيل دائم بطرابلس للقيام على الشؤون المتصلة بهذا النوع من التجارة. كما كان للوالي مندوب بزوارة يتولى شؤون تصريف الملح نيابة عنه.

وإلى الغرب من زوارة تقع زواغة، ويسميها المسيحيون طرابلس القديمة، وهي عبارة عن أطلال خربة مهجورة. ثم الزاوية وهي مدينة هامة

(٨٠) مخطوطة جيرارد ص ٧٩.

بمدرستها الإسلامية التي تقوم على تدريس العلوم القرآنية. وبها (قائد) مكلف بجباية الضرائب. وتعرف (جنزور) بخصوبتها وبها أيضاً (قائد). وإلى الغرب منها يقوم برج قرقارش، وبه كهوف أرضية، وبئر ماء عذب، ويأوي إليه الأسرى المسيحيون العاملون في قطع الأشجار بذلك الشاطيء.

وإلى الشرق من ذلك تمتد المنشية الغنية ببيوتها الجميلة التي يسكنها الأتراك والطارئون على الإسلام والعرب. وقد أنشأ عثمان باشا ومحمد باشا دوراً جميلة في المنشية، تحف بها أشجار الفواكه من رمان ولوز وبرتقال وليمون. وفي العمروس تعقد السوق كل يوم جمعة. وبتاجوراء مقر (قائد). وقد فقدت تاجوراء أهميتها ودمرت أكثر من مرة من قبل الأتراك، ويظفر مسجد مراد آغا القائم بها بتقدير كبير لدى المسلمين.

وعند رأس (المنشير) توجد بيوت مبنية من الصخر أقامها الأسرى المسيحيون، وبالقرب منها (ملاّحة). وغير بعيد عنها ضريح سيدي الصيد الذي يتمتع بحق الاستجارة به واللجوء إليه.

أما في الداخل فإن السيطرة للقبائل، وأقربها إلى مدينة طرابلس قبائل ورشفانة التي كانت تحتل رقعة أوسع من رقعتها الحالية[٨١].

(٨١) معلومات مستقاة من مخطوطة جيرارد ج ١ ص ٢٤ ـ ٣٠.

الفصل الرّابع

العهد العثماني (تابع)
الدّايات والباشوات
١٦٧٢ - ١٧١١

* خلفاء الساقزلي عثمان باشا من ١٦٧٢ - إلى ١٦٨٤
* القرصنة والقناصل
* الحاج عبد الله داي ١٦٨٤ - ١٦٨٦
* إبراهيم التارزي داي ١٦٨٦ - ١٦٨٧
* محمد الإمام باشا ١٦٨٧ - ١٧٠١
* عثمان قهوجي داي
* مصطفى غليبولي داي
* خليل بك ١٧٠٢ - ١٧٠٩
* قائمة بأسماء الدايات والباشورات والبكوات الذين تعاقبوا على حكم طرابلس منذ ١٥٥٤ حتى سنة ١٧١١.

١ ـ خلفاء الساقزلي عثمان باشا ١٦٧٢ ـ ١٦٨٤

لما مات عثمان باشا أعلن حسين الريس نبأ وفاته، وأبلغ به سكان المدينة الذين تجمعوا في صباح اليوم التالي في القلعة وبايعوا عثمان ريس والياً عليهم. وكان عثمان هذا يونانياً من جزيرة (Cerigo) ومن المستجدين في الإسلام، وخلعوا عليه لقب داي، وعين علي القبطان (كابودان) الملقب بالإغريقي، كاهية له، وذلك في ٢٨ ديسمبر ١٩٧٢. ولكن إبراهيم مصروغلي (ابن المصري) الذي كان قد خرج على رأس حملة لمقاومة الثوار في الدواخل[١] رفض الموافقة[٢] على المبايعة. وتفسر معارضته ومعارضة رفيقه (كور محمد)[٣] وعدد كبير من الإنكشارية بأن عثمان كان يونانياً مستجداً في الإسلام غير أصيل فيه. وفي جلسة صاخبة عقدت في الديوان أزيح عثمان ريس عن كرسي الرئاسة، ووضع بدلاً منه بالي شاوش وهو من (أبيبرو ـ جانينا). وكان شاوس عثمان باشا. وعين كاهية له مصطفى البلهوان (أول ديسمبر ١٩٧٢)، وأسندت لعثمان رئاسة السفن، وظل بها زمناً قصيراً ثم قتل خنقاً في ١٤ ديسمبر ١٩٧٢[٤] كما قتل علي كابودان خنقاً على ظهر إحدى السفن في أول يناير ١٦٧٣[٥].

---

(١) تستخدم كلمة محلة في التعبير عن الجماعة المسلحة التي تخرج للحملات بقيادة البك.

(٢) ابن غلبون ص ١٢٨ (١٠٠) فيرود ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٣) كور في التركية معناها الأعمى.

(٤) باولو توسكي: المصادر غير المنشورة من تاريخ طرابلس الغرب: حوليات معهد الدراسات الشرقية بنابولي (١٩٣٠) ص ٧٣.

(٥) على الرغم من أن مراد بك لم يكن على رأس حكومة تونس التي كان يتولاها الحاج محمد =

وتجدر الإشارة إلى أن (بالي شاوس) قد أظهر قسوة نحو المسيحيين، أكثر مما فعل أسلافه. فألغى بعض التنازلات التي تقررت في عهد محمد وعثمان الساقزلي، ودمر كنيسة (سان جورج) المخصصة لليونانيين، كما دمر كنيسة الإرسالية الفرنشيسكانية، وسمح فقط بممارسة الطقوس الدينية في الحمامات (سجون الأرقاء) طبقاً للمعاملة التي يعامل بها أسرى المسلمين في حمامات ليفورنو ومالطا[٦].

وأرسلت الحكومة الطرابلسية وفداً إلى القسطنطينية يحمل هدية للسلطان محمد الرابع، تتألف من عشرين ألف زوكيني ذهباً وثمانية خصيان، وثماني عباءات طرابلسية حمراء، وخمسة أغطية فاسية، وأصناف أخرى من الحرير والصوف وسروج للخيل وساعة كبيرة وثلاث ساعات صغيرة. وهدايا مماثلة أقل قيمة للوزير الأكبر (أحمد كويرلو Kôprûlû) والوزير الثاني وقائمقام القسطنطينية، وسلطات أخرى ضمن الحاشية. وكان من بين الرقيق الذي أرسل الى السلطان أحد فرسان مالطا، وهو الفارس (تيميريكورت Thèmericourt) الذي غرق في مياه طرابلس فأسره الطرابلسيون. واستقبل السلطان الوفد في قصره بأدريانوبوليس Adrianopolis في فبراير ١٦٧٣. وقد قتل الفارس تيميريكورت بناء على أمر السلطان، بعد أن رفض اعتناق الدين الإسلامي[٧].

وفي هذه الأثناء قام مراد بك[٨] قائد الحرس بتونس على رأس حملة لمهاجمة طرابلس انتقاماً لصديقه عثمان باشا. وكان الحرس الطرابلسي بقيادة القولوغلي

= المنتشلي داي إلا أنه كان متصرفاً في شؤون تونس. وقد توفي في ١٦٧٥. أنظر: أ. روسو (الحوليات التونسية).

(٦) دي لا ركروا (المذكرات) ص ٥٢.

(٧) توسكي في مقاله المذكور ص ٣١

C. Magni, Quanto di piu curioso ecc II Parma 1692 p. 56 - 60.

(٨) فيرود ص ١٣٤.

شعبان بك[9] الذي خلف في هذا المنصب (ديلاور بك) الذي قتله (بالي داي). وقد خرج في قوة تتألف من ألفين وخمسمائة مسلح ضد مراد بك الذي كان يتوفر على قوة قوامها تسعة آلاف مسلح يدعمهم (موسى) زعيم جربة، وأولاد نوير. وقد وقع الصدام في العجيلات وانتهى إلى هزيمة الطرابلسيين. وقد استسلم أربعمائة انكشاري للقوات التونسية، بعد أن تخلت عنهم قوات الفرسان.

وحينئذ دعا بالي داي عرب المنطقة لمساعدته، بواسطة الولي سيدي عبد الحفيظ بن سيدي محمد الصيد، فجاء سكان تاجوراء والساحل، ومحمد المريض من ترهونة، وزعماء مسلاتة ومصراتة وغريان، ومنصور وصالح مع المحاميد. وقد أدى انتشار هذه القوة ودعوات الولي سيدي عبد الحفيظ إلى ارتحال مراد بك وعودته إلى تونس.

وفي ٢٦ أبريل ١٦٧٣ وصل إلى طرابلس الباشا الجديد. وأصله من (بوسنيا). وكان السلطان قد أرسله إلى طرابلس مندوباً عنه ثم أسند إليه ولاية طرابلس. وحل الباشا بالمدينة محفوفاً بكل مراسم الاحتفال لاستقباله، وأنزل بالبيت الذي كان مخصصاً لرجب بك. وخصصت له مخصصات شهرية دون أن يكون له أثر ومشاركة في شؤون الحكم الذي استأثر به (بالي داي) لنفسه.

وكان التهديد التونسي ضد طرابلس قد شجع عرب برقة في بنغازي ودرنة على محاولة طرد الأتراك. فطلب محمود بك دعماً من طرابلس، فأرسلت إليه قوة تتألف من ثلاثمئة انكشاري عن طريق البحر، ومئتين وخمسين فارساً عن طريق البر، تمكن بواسطتها من إقرار الأمن والنظام. إلا أن ثورة العرب بطرابلس كانت أخطر من هذه الثورة البرقاوية، وذلك أنهم أرادوا الاستفادة من العون الذي قدموه (لبالي داي) في المطالبة بتحقيق ما وعد به من الاعفاء من الضرائب. وقد شبت الثورة في كل المناطق الواقعة بين غريان وتاورغاء، ولم

(٩) القولوغلي هو ابن الإنكشاري. أنظر ملاحظة روسي في ترجمته الإيطالية لابن غلبون ص ١١٦ هامش ٤.

يستطع بالي داي إخماد هذه الثورة إلا بعد مجهود كبير وبالتعاون مع المحاميد وأولاد نوير.

ولم يلبث الولي سيدي عبد الحفيظ الصيد أن اصطدم ببالي داي نفسه، ووقعت بينهما وحشة خاف منها سيدي الصيد على نفسه، ففر إلى تونس ولم يعد إليها إلا بعد وفاة الطاغية (١٦ مايو ١٩٧٥). وبويع بعده مصطفى البهلوان، إلا أن رؤساء البحرية، ومنهم مصطفى الكبير المعروف بالإستنكولي وأحمد ريس درغتلو وإبراهيم مصطفى مصروغلو، كانوا متغيبين في عملية قرصانية في بحر إيجة، حيث غنموا سفينة. وقد توقفوا أثناء عودتهم بقصر أحمد (بمصراتة) وهو مرسى به حصن يصلح قاعدة للقراصنة الطرابلسيين. فلما علموا بموت الداي وتعيين خلفه اتفقوا على إزاحته. وما كادوا يصلون إلى طرابلس حتى نادوا بزميلهم مصروغلو داياً على طرابلس.

كانت صورة الباب العالي بطرابلس في هذا الوقت صورة ضعيفة هزيلة، فلم يكن خليل باشا الذي أرسلته القسطنطينية يتمتع بأية سلطة، وظل جامداً لا يحرك ساكناً إزاء صراع الزعماء المحليين الذي كان يرقبه في سلبية تامة.

وفي هذه الأيام التي سيطرت فيها الفوضى، وأعقبت حرب كريت، تزايد نشاط القراصنة، وأصبح أكثر كثافة وحجماً مما كان، دون تقيد أو احترام أو مراعاة للمواثيق المبرمة. وقد دعا ذلك من جديد الفرق البحرية المسيحية للقيام بمظاهرات قوية ضد شواطىء طرابلس. ففي عهد بالي داي تمّ خرق شروط الصلح التي وقعها عثمان باشا مع الإنجليز. وفي عهد إبراهيم داي قامت ست سفن طرابلسية، خلال شهري أغسطس وسبتمبر ١٦٧٤، بالاستيلاء على سفينتين إنجليزيتين (مارتين ـ هانتر Martine Hunter) كانت الأولى متجهة من البندقية إلى قادس، والثانية من ليفورنو إلى إزمير، فأرسلت إنجلترا إلى طرابلس السير (جون ناربرو J.Narbrough) قائد الأسطول الإنجليزي بالبحر الأبيض المتوسط، يرافقه (ناتانيال برادلي Nathniel Bradley) الذي كان قنصلاً لإنجلترا

بطرابلس. ووصلت الفرقة البحرية يوم ٣ مـارس ١٦٧٥، وطلب برادلي إعـادة الغنائم التي غنمها القراصنة فوق السفينتين. ولم يـوافق الداي عـلى ذلك. بـل بادر إلى إجراء التحصينات الدفاعية، اللازمة في الميناء، قرب بـرج المندريـك. وقـامت السفن الإنجليزيـة يوم ٢٦ بقصف الأعـمال الدفـاعيـة، ثم تحـولت إلى مالطا. وتمكن القراصنة من الخروج من نطاق الحصـار الإنجليزي والتحـول إلى المشرق حيث باغتوا قرب جزيرة (سابينزا Sapienza) السفينة التجارية (برستول Bristol) التي كانت متجهة من إزمير إلى ليفورنو فسلبوها، وأفرغوا شحنتها من البضائع في درنة، ثم نقلوها بعد ذلك عن طريق البر[١٠].

وفي ليلة ٢٤ ينـايـر ١٦٧٦ عـاد الإنجليـز بـأسـاطيلهم إلى طـرابلس، واقتحموا الميناء ببعض زوارقهم التي قـامت بعملية جـريئة أحـرقت فيها أربعـة مراكب للداي[١١]. وفي ٢٦ يناير ضربوا المدينة، ثم استمروا في حصارهـا. وقد تضايقت المدينة من الخسائر التي تعرضت لها، واعتراهـا الخوف من التعـرض لما هو أسوأ[١٢]. وقد ظل الساحل حتى مصراتة تحت رقابة السفن الإنجليزية طوال شهري يناير وفبراير. واستولت القـوة الإنجليزيـة على بعض الـوسائط البحـرية الصغيرة، وأشعلت فيها النار. وقد وجـد في بعضها أعـلام رسمت عليها ثـلاثة أقمار وذراع تشهر سيفـاً. واضطر إبـراهيم داي في ١٥ مارس ١٦٧٦ إلى تـوقيع اتفاقية صلـح أجبر الطرابلسيون بموجبها على إرجاع جميع الأسرى الإنجليـز أو رعايا الإنجليز، دون دفع أيـة فديـة، وتقديم تعـويض قدره ثـمانون ألف دولار عن الإهانات التي لحقت صاحبة الجلالة البريطانيـة ورعايـاها. وهـددوا بتوقيـع عقوبات أشد قسوة ضد أية عملية تهدف إلى خرق السلم[١٣].

---

(١٠) **Rycaut** Cont. a knolles, the Turkish History, London 1687 - 11 p. 242

(١١) المصدر السابق ص ٢٤٤.

(١٢) مخطوط جيرارد (فيرود) الحوليات ص ١٣٩ ـ ١٤٥ ـ هولستين طبعة توسكي ص ١٠.

(١٣) يوجد نص الاتفاقية المذكور باللغة الإنجليزية ضمن محفوظات القنصليـة البريـطانية بـطرابلس ولكنه غير كامل. وقد نشره:

Hertslet, A complete collection ecc - 1 - London 1872 p. 128

وساهم الطاعون الذي انتشر في طرابلس في زيادة الأوضاع سوءاً، إذ مات يوم ٢٦ مارس ١٦٧٦ خمسون ألف شخص منهم أحد عشر ألفاً من سكان المدينة وحدها. وثمانية من الأسرى المسيحيين. وكان بين الموتى أيضاً سيدي عبد الحفيظ الصيد الولي المبجل[١٤].

وشعر ابراهيم بالنذر التي يحملها الجو السياسي في طرابلس، وأن مصيره لن يختلف عن مصير أسلافه، فخشي أن يفقد أمواله ويذهب ضحية لمؤامرة من المؤامرات، بزعامة مصطفى الكبير أو مصطفى غروس Gros[١٥] المعروف بالإستنكولي وكان صديقاً له. فتظاهر الداي بالرغبة في نفي ابنه جزاء له على ما ارتكب من أخطاء. وكان ابنه يشغل منصب رئيس المرسى وقد اجتمع الجند الإنكشارية في البيوت القريبة المعدة لسكناهم قرب باب هوارة (باب المنشية) وذهبوا إلى الداي يشفعون عنده في نفي ابنه، فأبى ذلك عليهم فوضع ابنه على ظهر سفينة بقيادة الرئيس عمر الميتشو، كانت تتهيأ للسفر نحو مصراتة، وشحن فوق السفينة نفسها صناديق من الأمتعة الغالية الثمينة وقلالاً مملوءة مالاً، ثم تظاهر بأنه ذاهب لتفقد الأعمال الجارية شرقي الميناء عند البرج المعروف ببرج سيدي الشعاب. ومن هناك ركب البحر وفر إلى الإسكندرية (أول أبريل ١٦٧٦)[١٦].

وأجمع الجند على بيعة إبراهيم شلبي الذي كان رئيساً لحمام سان أنطونيو. وكان إبراهيم هذا من المورة (Morea). وكان كاهية أحمد بك. ومن مواليد الأناضول. وفي ٨ أبريل كانت السفن تعود من المشرق[١٧] تحت قيادة مصطفى

---

(١٤) معلومات مستقاة من مخطوطة جيرارد - فيرود ص ١٤٢ - ١٤٣ - ا. هولستين (باولو توسكي) ص ١٨.

(١٥) من الكلمة الإيطالية (غروسو Grosso) ويدعى أيضاً (غراندو) أي الكبير.

(١٦) ابن غلبون ص ١٢٩ - ١٣١ (١٠١ - ١٠٣). وطبقاً لما يرويه جيرارد الذي جاراه (هولستين وفيرود) أن إبراهيم داي قد سمم زوجته للاقميرة بنت عثمان غيرة عليها من الوقوع في أيدي الآخرين بالنظر إلى عدم إمكان تفسيرها دون إثارة شكوك الآخرين. أما ابن غلبون فيرى أنه قد ركب البحر مع أسرته وأتباعه ص ١٣١ (١٠٣).

(١٧) انظر أسماء السفن وربابنتها في تقرير (هولستين نشر توسكي ص ٤٢).

الإستنكـولي الملقب[18] (غرانـدو) أيضـاً، بعـد قيـامـه بتجنيـد بعض الجنـود في المشرق. ولم يجد صعوبة في إزاحة إبراهيم شلبي، وإعلان نفسـه، (دايآ) بـدلاً منه. واختار (كاهية) عثمان شريف.

وكان الهروب غير المتوقع للماكر ابـراهيم مصروغلو قد فاجأ السـير جون ناربـرو أيضاً، فرأى من الحيطة وحسن التقدير أن يعيد عقد الاتفاقية مع الداي الجديد مصطفى (غراندو)[19]. وقد حاول ابراهيم مصر وغلو العودة إلى طرابلس، فذهب إلى القسطنطينية[20]، وسعى للحصول على حكم المقـاطعة التي فـر منها. وحصل على الموافقة في أغسطس ١٦٧٦ ومنح لقب بليربي وأرسلت لحمايته تسع سفن من نوع (غاليوطا)، ورافقـه محمـد آغا ريس رسـول السلطان. ورفضت طرابلس قبول عودة ابراهيم داي، فعـاد مندوب السلطـان في ينـاير ١٦٧٦ إلى القسطنطينية مع ثلاثين شخصاً من أعيان البلاد الذين تـولوا الإبـلاغ عن المظالم التي ارتكبها ابراهيم داي خلال عهده السابق. وقد رغب ضباط الباب العـالي في إرغام الطرابلسيين على الانصياع لإرادة السلطان، ثم تغلبت فكرة التغـاضي (أي استعـمال الرأفـة نحو البلدان النـائية). وسمـح للوفد الـطرابلسي بـالعـودة محفـوفاً بشعـور الأمن والاطمئنـان إلى عـدم عـودة الـداي السـابق إلى حكم البلاد[21].

ولما استتب أمر السلطة لمصطفى الكبيـر أظهـر صرامة وحـزماً في معـاملة الجند[22]، ونفى عدداً كبيراً منهم، كما أظهر رأفة بالرعية ومحبة لها، وأسقط عنها

---

(١٨) أنظر الهامش رقم ١٥ المتقدم.

(١٩) يوجد ملحق المعاهدة بمحفوظات القنصلية البريـطانية بـطرابلس. وهو بتـاريخ ٢٦ صفـر ٨٧ الموفق ٢٦ مايو ١٦٧٦.

(٢٠) انظر ما سوف يرد بخصوصه في الفقرات التالية من هذا الفصل.

(٢١) رشيد (تاريخي) استنبول ١٢٨٢ ج ١ ص ٣٣١ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - فون هامر ج ٣ ص ١٠٨٧.

(٢٢) ابن غلبون ص ١٣٢ (١٠٤) انظر ما رواه هذا المؤرخ عن مخصصات الجند والبحارة.

بعض الضرائب. وكانت وفاته غرة صفر ١٠٨٨ (٥ أبريل ١٦٧٧) بالطاعون[٢٣] ودفن بروضة مدرسة عثمان باشا[٢٤].

ولما مات مصطفى الكبير بايع الجند رجلاً مسناً اسمه عثمان بابا، وهو علج مستجد في الإسلام من مواليد[٢٥] (نيس Nizza) كان عبداً لبعض الجند الجزائري، مكلفاً بتوزيع مخصصات الجيش[٢٦]. وقد استطاع القنصل الإنجليزي (كابل H. Caple) أن يلزمه بالتوقيع على ملحق لمعاهدة ١٦٧٧[٢٧] بتاريخ ٢٨ مايو ١٦٧٨. وقد وقعه بالإضافة إلى عثمان بقية ضباط الحكومة وفيهم خليل باشا الذي كان ما يزال بطرابلس حتى ذلك الوقت. وإذا لم تكن ثمة وقائع أخرى فإن هذه الواقعة وحدها تكفي للدلالة على ضعف تبعية الولايات الثلاث، وطرابلس بصفة خاصة، للباب العالي. وقد كان خليل باشا (طرطوراً) بلا سلطة يمثل الباب العالي، ولكن الدول كانت تتفاوض مع الداي الحاكم المحلي الحقيقي. ورغم بقاء الباشا واستمراره في تمثيل السلطان فإن المعاهدات كانت تجدد عند تغيير الدايات.

وحكم عثمان مدة تزيد على العام، ومات في ١٦٧٨[٢٨]، وخلفه آق محمد تيمور الأناضولي[٢٩].

وقد حققت الفرقة المالطية في سبتمبر ١٦٧٨ انتصاراً جديداً على

---

(٢٣) ابن غلبون ص ١٣٣ (١٠٥).

(٢٤) يوجد قبره بين الركام، وقد كتب عليه هذا قبر المرحوم مصطفى داي مدينة طرابلس الغرب توفي في ١ صفر ١٠٨٨.

(٢٥) معلومات مستقاة من مخطوطة جيرارد الذي جاراه فيرود ص ١٤٨.

(٢٦) ابن غلبون ص ١٣٣ (١٠٥).

(٢٧) محفوظات قنصلية إنجلترا بطرابلس. ولم يرد الملحق فيما نشره (هرتسلت Hertslet).

(٢٨) تاريخ الوفاة ليس ثابتاً. في مخطوطة جيرارد (كذلك فيرود ١٤٨) حددت بتاريخ ٢٧ أبريل ١٦٧٨. ولكن ذلك لا يتفق مع تاريخ الاتفاقية المذكورة أعلاه. ويقول ابن غلبون ص ١٣٢ (١٠٥) خطأ أيضاً إنه حكم عاماً وشهراً واحداً وأنه توفي في ربيع الأول ١٠٨٩ (٢٣ أبريل - ٢٢ مايو ١٦٧٨).

(٢٩) تعني كلمة (آق Aq) في التركية (الأبيض) وكلمة (تيمور) تعني الحديد. وقد ورد هذا اللقب =

القراصنة الطرابلسيين. فقد استطاعت مراكبها بقيادة الفارس البرتغالي (دون جيوفاني كوريّا دي سوسة G. Correa de Susa) أن تغرق قرب قبرص مركبين لقراصنة طرابلس، بعد معركة عنيفة. وأمكن إنقاذ ١٤٤ من ملاحي المركبين و ١١ عبداً مسيحياً[٣٠]. وافتدى أحد رؤساء البحرية الطرابلسية المسمى أحمد ابن بيرام في سنة ١٦٨٤ بمبلغ سبعمائة قرش مقسطة على أربعة عشر شهراً[٣١].

وخلال هذه الفترة، ظل خليل باشا الملقب بالأرناؤطي، بطرابلس. وكان يدرس إمكانية الفرصة المناسبة للإطاحة بالحكومة المحلية، وكان يعد العدة لمؤامرة بالتعاون مع كاهيته أحمد ومحمد الدباغ وعلي كابودان المنيكشالي من (منيكشيه ـ في المورة) والخازن محمد الخزندار الذي كان عبداً من أصل فينيسي اعتنق الإسلام وجمع ثروة طائلة[٣٢].

وبعد أن اتفقوا على الخطة بعثوا جندياً يدعو آق محمد لحضور الاجتماع الذي يعقدونه، وكان من المقرر أن يعقبه خليل باشا على القلعة فيدخلها ويستولي على كرسي الحكم. فلما خرج آق محمد نبهه أحد الحرس إلى المؤامرة التي تحاك ضده، فرجع على الفور إلى القلعة وبطش بكل من وصل إلى يده ممن أظهروا التأييد لخليل باشا، وكان من بينهم عدد كبير من العرب.

وأصبح وضع آق محمد داي دقيقاً حرجاً بسبب خروج المحاميد عليه

لدى جيرارد، ونقله عنه فيرود ص ١٤٨ كما ورد أيضاً لدى حسن صافي في كتابه تاريخ طرابلس باللغة التركية طبع الآستانة ١٣٢٨. أما ابن غلبون فيذكره بلقب (الحدّاد).

(٣٠) دال بوتزوج ٢ ص ٤٧٤ ـ ٤٧٦ ـ روسي: تاريخ البحرية ص ٧٧.

(٣١) محفوظات مالطا مجلد ٦٤٦ ص ٣٧٧. وقد ورد في نفس المصدر ص ٦٤٧ أنه في سنة ١٦٨٥ أطلق سراح محمد بن أحمد وهو أسير طرابلسي بلغ من العمر ثمانين سنة، بعد أن أمضى بالأسر بمالطا ٥٦ عاماً.

(٣٢) ابن غلبون ص (١٠٦). وقد أوقف محمود المذكور أمواله على أعمال البر والخير والمنشآت الدينية بقصر أحمد بمصراتة، وعلى معبد يقع إلى الغرب من (الزندانة الكبرى) أو الحمام الأكبر (أي السجن الأكبر) ويطابق موقعه جامع محمود الذي أنشىء سنة ١٠٩١ (١٦٨٠ ـ ١٦٨١) والمصلى بالقرب منه، والمسجد الملاصق لضريح سيدي الحطاب، وهو أيضاً بتاريخ ١٠٩١ هـ.

بعـد أن لجأ إليهم مصـطفى البهلوان من منفاه بجـربة وأثـارهم عليـه. كـما كـان آق محمد يرتاب في أمر (قائد) غريان، مراد المالطي (من أصل مـالطي مسيحي)، فأمر قائد الجند بالتخلص منه وقتله غيلة. ولكن حسن عبازة، قائد الانكشـارية بطرابلس، المتطلع إلى الاستيـلاء على السلطة، تـدخل لإنقـاذ مراد الـذي أبلغ بنوايا الـداي نحوه، فجمـع أنصاره وأعـوانه والمخلصـين لـه وزحف بهم عـلى طرابلس، وقتل الداي. وبايعوا حسن عبازة مكانه، وأصبح مراد قـائداً للجنـد يحمل لقب (بك)[٣٣].

كـانت فزان تبـدو حتى ذلك الـوقـت بمظهـر الإقليم الهـادىء، أو لعـل دايـات طـرابلس الضعـاف الـذين شغلوا بخـلافـاتهم وحــروبهم لم يجـدوا مــا يساعدهم على التفرغ والاهتمام بشأن هـذا الإقليم. فبعد الصلح الـذي عقد مـع محمد الساقزلي باشا سنة ١٦٣٠[٣٤] ظلت البلاد خاضعـة لمحمد بن جهيم الـذي كان يحمل لقب (الشيخ). وحين مات في (١٦٥٨ ـ ١٦٥٩) تولى ابنه الحكم حتى وفاته (١٦٨٢)، ثم تولى الأمر أخوه نجيب، فامتنع عن أداء الخراج، بحجـة أنه سبق أن أداه إلى الخـازن الـذي زور عليـه وأنكـر الأداء. فـأمـر الــداي حسن عبازة، مراد بـك بالخـروج إليه في حملة قـوية، فقـاتله وقتله في قريـة (دليم)[٣٥] (بينها وبين مـرزق نحو ست سـاعات أو خمس). فـاستولى عـلى الخزانـة، وولى محمد الناصر ـ أخا القتيل[٣٦] ـ أمـر البلد، وأسقط عنه خـراج ثلاث سنـين إلى أن يستقر حال البلد.

ولمـا عاد مـراد من حملتـه عـلى فـزان، غنيـاً مَهيبـاً، ثـار عـلى حسن عبـازة بمساعدة الجند، وخلعه ونفاه إلى جربـة (يونيـو ١٦٨٨) ونصّب (يلك محمود)[٣٧]

---

(٣٣) ابن غلبون ص ١٣٦ (١٠٧).

(٣٤) انظر ما ذكر بخصوص الساقزلي محمد في الفصول السابقة.

(٣٥) أغسطيني (سكان طرابلس الغرب) ص ٣٦٦.

(٣٦) ابن غلبون ١٣٨ (١٠٩).

(٣٧) تعني كلمة (يلك Yuluk) بالتركية (الأمرد). والتفسير الـذي أعطاه لهـا ابن غلبون بأنها (مجرى الماء) ص ١٣٨ (١٠٩) خطأ.

داياً ثم خلعه بعد يومين وعين بدلاً منه علي الجزائري - روميلي الأصل - في ١٣ يونيو ١٦٨٣.

وكان الزعيم الحقيقي لطرابلس في ذلك الوقت مراد بك تحيط به حاشية من الأعوان والأنصار (القباضية) من أمثال حسين كابودان الملقب (كلايجي)[٣٨] ومراد الفوشلي (نسبة إلى فوشه قرية بالأناضول).

وفي رجب ١٠٩٥ (١٤ يونيو - ١٣ يوليو ١٦٨٤) قرر مراد بك وأعوانه خلع الجزائري، واختاروا بدلاً منه الحاج عبد الله داي الإزميرلي. وكانت العصبة المتكونة من المستجدين في الإسلام سيدة الموقف، وتتصرف في الأمر بالإبرام والنقض، كما تشاء، وحسب ما يروق لها. وبخصوص دواخل البلاد فلا تتردد أية إشارة إليها في المصادر التي تهتم بتاريخ هذه الفترة. وكانت الحياة العامة في طرابلس متركزة على نشاط القرصنة.

٢ - القرصنة والقناصل

في النصف الأول من القرن السابع عشر، بدأت الدول الأوربية في تثبيت قناصلها بسواحل إفريقيا الشمالية (بربريا). وحاولت عن طريق المعاهدات الحصول على تحرير الرقيق، ووضع حد للأعمال القرصانية. وقد مثل القرنان التاليان سلسلة متتابعة من الخرق للاتفاقيات والتهديد والغارات، كما رسخت خلالها قاعدة مهينة، وهي الخراج أو الرسوم التي كانت تدفع مقابل عدم الاعتداء على السفن البحرية. فكان يجب على من يرغب في عدم التعرض للمضايقات أن يدفع هذه الرسوم، دون أن يأمن عدم التعرض لتسلط الرؤساء الذين يؤيدهم الدايات والباشوات بصفة علنية أو نسبية.

---

(٣٨) شيد حسين بالقرب من شارع الشط مسجده الجميل بمئذنة جميلة، وقد انتهى في جمادى الثانية من عام ١٠٩٩ (أبريل ١٦٨٨). وتقوم بالقرب منه داره الريفية الأنيقة التي كانت تضم عدداً من الحريم من المسيحيات الشابات. وقد كان حسين من المستجدين في الإسلام. ويقال ان أصله من كالابريا - فيرود ص ١٥٠.

ولم تستطع الدول الكبرى، في ذلك الوقت، مثل فرنسا وانجلترا وفينيسيا، وبيومنتي ـ فيما بعد ـ أن تضع حداً لجشع القراصنة، والعمل على تأديبهم إلا على فترات زمنية ومراحل. أما الدول الصغرى، فقد كان عليها أن تخضع لدفع الرسوم حتى سنة ١٨٣٠ التي قضي فيها على القرصنة بصفة نهائية.

إن نظام فرسان مالطا، بمركزه في البحر الأبيض المتوسط، ونظام فرسان القديس ستيفانو والقديس ماوريزيو ولازارو، إنما أنشئت جميعها لمواجهة حملات القراصنة. وقد حاولت أن تحد من جرأة القراصنة الطرابلسيين والتونسيين والجزائريين، ولكنها لم تستطع أن تمنع شياطين البحر من مهاجمة السفن والتوغل حتى في خلجان البحر الأبيض المتوسط وموانئه، تنهب السواحل وتأسر الرجال وتسبي النساء والأطفال. وكانت سواحل صقلية ونابولي أكثر تعرضاً لهذه الهجمات.

وقد انتزعت فرنسا وإنجلترا الأسبقية لإقامة علاقات قنصلية بطرابلس، وترد أولى الإشارات إلى وجود قنصل أو وكيل قنصلي لفرنسا بطرابلس في العشر الأولى من القرن السابع عشر، وإن كان ذلك بشكل متقطع. وفي سنة ١٦٣٠ أرسل الملك لويس الثالث عشر (برينقير Bèrenguier) إلى طرابلس فعمل على تحرير الأسرى من مواطنيه، وترك قنصلاً لفرنسا هو دو مولان[٣٩] Du Molin. وفي سنة ١٦٤٠ استقر بطرابلس تاجر فرنسي اسمه (بايون Bayon) واستطاع أن يكسب نفوذاً واسعاً مكنه من أن يعمل ويتصرف كقنصل، في حماية مصالح الفرنسيين، رغم عدم حصوله على هذا المركز بصفة رسمية. وتصرف مثله أيضاً تاجر من مرسيليا اسمه (استيين Estienne). ولكن العلاقات المنظمة المنتظمة بين فرنسا وطرابلس لم تبدأ إلا في سنة ١٦٨٠، وعلى ذلك يبدو أنه من الواجب أن يعترف للإنجليز بأسبقية إقامة علاقات قنصلية مع طرابلس، وإنشاء قنصلية بها. ويعتقد فعلاً أنه منذ سنة ١٦٥٤ قام الأميرال (بليك Blake) بتنصيب قنصل بطرابلس. ومن الثابت على كل حال أن الأميرال

---

(٣٩) معلومات مستقاة من مخطوطة جيرارد ج ٢ ـ فيرود ص ٩٢ ـ ماسون ص ٦٠.

(ستوك Stoakes) قد ترك في سنة ١٦٥٨ قنصلاً بطرابلس هو (صمويل توكر Samuel Toker) . ولا يبدو أنه كان للبندقية في القرن السابع عشر قنصل خاص بها في طرابلس، وكان أمر حماية المصالح التجارية المحدودة القائمة مع بربريا، والمشاكل الناشئة عن الاعتداءات موكولاً إلى ممثلها (بايلو Bailo) في القسطنطينية. على أنه يبدو أن القسطنطينية كانت في سنة ١٦٧٦ - ١٦٧٨ بسبيل إقامة علاقات أكثر مباشرة مع طرابلس. وتفصيل ذلك نورده فيما يلي:

كان الداي إبراهيم مصر وغلو الذي فر من طرابلس عام ١٦٧٦ قد أجرى اتصالات في القسطنطينية، للعودة إلى حكم تلك البلاد، وتعيينه والياً عليها، (باشا). وقد أجرى في ذلك الوقت مع محمد الحفصي[٤١] الذي حصل على نفس المنصب، بالنسبة إلى تونس، مباحثات مع ممثل البندقية (موروسيني Morosini) من أجل إقامة علاقات صداقة وتجارة بين الولايتين والبندقية. وتقضي الاتفاقيتان اللتان حررت نصوصهما بأن تقوم ثماني سفن بندقية، أربع منها برخصة طرابلسية وأربع برخصة تونسية، بالتردد على مرافىء طرابلس للقيام بأعمال الاستيراد والتصدير، دون التعرض لأي اعتداء من القراصنة. وقد هيأ موروسيني نفسه للتوقيع على الاتفاقيتين، بعد أن حصل على موافقة مجلس الشيوخ البندقي (السناتو)، لولا أن تونس وطرابلس رفضتا استقبال الواليين.

وقد استطاع محمد الحفصي باشا فقط أن يسيطر في ١٦٧٨ على ولايته، ووقع معه السفير البندقي الاتفاقية المذكورة في السنة ذاتها، ولكنها لم تدخل حيز التنفيذ، إذ تعذر على الباشا أن يمارس سلطة قوية في تونس التي أقصي عنها، وأعيد إلى القسطنطينية في ١٦٨٠[٤٢].

ولم يفلح مصروغلو في الحصول على مساندة الباب العالي لتمكينه من

(٤٠) معلومات مستقاة من مخطوطة جيرارد ج - فيرود ص ١١١ - ماسون ص ١٦٩.

(٤١) هكذا وردت في الوثائق الفينيسية المذكورة. أما روسو في كتابه (الحوليات التونسية) فقد ذكرها (الحفصي) ص ٦٢.

(٤٢) روسو ص ٦٣.

السيطرة على ولاية طرابلس. وقد أوضح ذلك السفير البندقي في رسالة مؤرخة في ٦ أغسطس ١٦٧٨، بعث بها إلى مجلس الشيوخ لقد استطاع (Capsa Bassa) الحصول على تعيينه والياً على تونس، بعد أن اقتسم الوزير الأكبر ووزراؤه ثماني بورصات ثم ستمائة أخرى. ولكن المصروغلو لم يستطع أن يظفر بهذا النجاح بالنظر لقلة ماله، وتمكن فقط من الحصول على وعد الوزير بمساعدته وإزاحة الباشا الحالي لطرابلس فور دفعه هدية لخزانة الوزير قيمتها ثلاثمئة (بورصة).

هكذا كانت القسطنطينية تنظم توزيع المناصب، وإدارة المقاطعات، وهكذا أيضاً فشلت مبادرة السفير موروسيني في إقامة علاقات تجارية أكثر أمناً مع طرابلس.

وتبين فيما بعد أن المدعو نيكولو باربيك Nicoló Barbich من بلدة (سلفيه Selve) قد طلب في سنة ١٦٨٣ تعيينه قنصلاً بطرابلس التي أقام بها خمس سنوات في الأسر. وعندما سئل الحكماء الخمسة (Cinque Savi) عن رأيهم في إنشاء قنصلية بطرابلس لاحظوا ضعف المبررات التجارية لإقامة مثل هذه القنصلية، وركزوا على الاعتبار الخاص برعاية الأسرى من مواطنيهم[٤٣] وحمايتهم. وكان التنافس الفرنسي - الإنجليزي والتنافس الفرنسي - الفينيسي (البندقي) بخصوص الامتيازات القنصلية والنفوذ السياسي في الولاية، في كثير من الحالات، سبباً في تعكير العلاقات المتبادلة بين هذه الدول[٤٤]. وسوف نجد الفرصة للتحدث عن هذه الخلافات فيما يلي من الفصول.

إن التأريخ للقناصل بطرابلس معناه سرد تاريخ المدينة. فما أكثر ما تدخلت

---

(٤٣) استخلصت هذه المعلومات المتعلقة بمفاوضات بايلو موروسيني في ١٦٧٦ - ١٦٧٨ وإنشاء قنصلية بطرابلس في سنة ١٦٨٣ من المقال التالي:

D. Levi, Le relazioni fra Venczia e la Turchia dal 1670 al 1684 e al formazione della Sacra Lega, in arch. Veneto - Tridentino, VII 1925 p. 1 - 46 - VII (1925) p. 40 - 100 XVII (1026) p. 97 - 155.

(٤٤) أنظر ما يلي من الحديث عن هذه العلاقة في الصفحات التالية.

الدول الكبرى، وما أضخم ما آل إليه نفوذها وتأثيرها على الأحداث التي ألمّت بالمدينة.

٣ ـ الحاج عبد الله داي (١٦٨٤ ـ ١٦٨٦) ـ إبراهيم تارزي داي (١٦٨٦ ـ ١٦٨٧)

في عهد الداي الحاج عبد الله تلقى القراصنة الطرابلسيون درساً قاسياً على يد الفرنسيين: كانت قد قدمت في سنة ١٦٧٧ إلى ملك فرنسا مذكرة ينصح فيها بتوجيه حملة على قراصنة طرابلس الذين كانوا يتوفرون في ذلك الوقت على سبعة مراكب حكومية، ومثلها مراكب خاصة. وتقول المذكرة إن أكثر من ثمانمئة أسير فرنسي يوجدون بطرابلس، وهم مرغمون على أعمال المجداف على ظهور السفن الطرابلسية. وأن سفينتين فرنسيتين سلبتا وتعرضتا للهجوم في سنة ١٦٧٦، بينما كانتا راسيتين بميناء قبرص[٤٥]. وفي سنة ١٦٧٩ أرسل القائد (دي فالبيل De Valbell) لعقد اتفاقية تحمي السفن التجارية الفرنسية من الهجمات المتتالية، ولكنه لم ينجح في مفاوضته. وأرسل الأميرال (دوكين Duquesne) إلى المشرق لمعاقبة قراصنة طرابلس على نحو ما فعل مع قراصنة تونس والجزائر، وقد فصل من أسطوله فرقة بقيادة المركيز (دوفريفيل D'Aufreville) اصطدمت في مياه المورة بست سفن طرابلسية. كانت سفينة القيادة فيها تدعى (القمر) وتتوفر على ٦٥ مدفعاً وخمسمائة بحار، وقد لجأ قراصنة طرابلس إلى ميناء (كيوس). فقام المركيز دوفرفيل والأميرال دوكين بمحاصرتها وضربها رغم احتجاج ضباط الباب العالي حتى أذعنت للشروط المفروضة[٤٦] بإعادة الأسرى الفرنسيين وإحدى السفن واحترام السفن التجارية الفرنسية في المستقبل (٢٧ نوفمبر ١٦٨١).

ورغبة في ضمان فرنسا لحقوقها بطرابلس، أوفدت القنصل (دي لا مجدلين De la Magdaleine)، ولكن الطرابلسيين لم يلبثوا أن خرقوا الاتفاقيات،

(٤٥) J. B. Labat, Memoires du Chevalier d'Arvieux, Paris 1735 vol V p. 413 - 419

(٤٦) روارد دي كارد ص ٢٤٣.

واستأنفوا في سنة ١٦٨٢ مهاجمة السفن الفرنسية، واعتقلوا القنصل (دي لا مجدلين) في مقره. وقد رد الفرنسيون على ذلك فقام الأميرال دوكين في سنة ١٦٨٣ والمارشال دي استريز D'Estrées في سنة ١٦٨٥ بضرب مدينة طرابلس[٤٧]. وفي هذه السنة أيضاً عدلت نصوص اتفاقية سنة ١٦٨١. وكانت الشروط الجديدة أكثر قسوة، وهي تظهر في فرنسا التي كان يحكمها لويس الرابع عشر، إرادة قوية صارمة. وقد تضمنت حرية التجارة بين البلدين، وحصانة السفن التجارية، ونصت المادة الخامسة على التعويض عن السفن والبضائع المنهوبة منذ سنة ١٦٨١، وقدر التعويض بمبلغ ٦٦٦، ١٦٦ من القروش الإشبيلية، تدفع بعضها نقداً، وبعضها في شكل منتوجات محلية مثل الجلود والشعير. . إلخ. كما فرضت أيضاً إعادة جميع الرعايا الفرنسيين أو الأجانب الذين كانوا يسافرون تحت الراية الفرنسية ممن استرقوا منذ سنة ١٦٨١، أو قبل هذا التاريخ، حتى تاريخ المعاهدة (المادة ١٢).

وقد حددت بعض المواد الأخرى أن القضايا بين الفرنسيين يكون أمر البتّ فيها موكولاً إلى القنصل وحده. أما القضايا المتعلقة بالنزاع بين الفرنسيين والأتراك أو العرب فيتم النظر فيها أمام الديوان بحضور القنصل. ويحق للقنصل أن يمارس في مقر قنصليته الطقوس المسيحية، وأن يرفع فوق مقره أو زورقه العلم الوطني. ويفهم من بعض الإشارات الواردة في المادتين (١٢ - ٢٧) أن السفن الطرابلسية لم تكن في ذلك الوقت بالميناء، ولكنها كانت خارج الميناء في غزوات، ويلاحظ أنه قد ورد أيضاً ذكر درنة، مما يدل على انتعاش تجاري في ذلك الوقت.

وقد طلب الداي العجوز الحاج عبد الله، عفو ملك فرنسا في رسالة ذليلة حملها يوسف خوجة الدفتر دار الكبير ومحمد خوجة وأربعة أشخاص آخرين برتبة (بلوك باشي)[٤٨].

---

(٤٧) رواد دي كارد ص ٢٤٤ - ماسون ص ١٧٠ - ١٧١ - فيرود ص ١٥٧ - ١٦٢.

(٤٨) ترجمها فيرود في حولياته ص ١٦٥ - ١٦٦ - برنياص ١٩١ - ١٩٣.

وقد خلّف طرابلس في ١٦٨٥ والاتفاقية الناتجة عنه أثراً قوياً في نفوس الطرابلسيين. وطبقاً للروايات المحلية فإن الحاج عبد الله قد نصح من قبل بعض أعيان المدينة بالانصياع إلى شروط الفرنسيين. وكان من هؤلاء الناصحين عمر محمود بن فشلوم[٤٩]، وهو من زليطن. وكذلك بنو المكني. وغيرهم. وقد حاول مراد بك المالطي أن يعرقل عقد هذا الصلح الذي كان في حقيقته استسلاماً تاماً، وضربة قاسية لكبرياء القراصنة الطرابلسيين ومصالحهم. إذ أطلق سراح أكثر من ألف ومئتي أسير مسيحي دون دفع أية فدية[٥٠].

ويكتب المؤرخ الطرابلسي إبن غلبون معلقاً على ذلك في مرارة وألم (فمن يومئذ تقوّى الإفرنج في البلد، وعلا شأنهم، واشترطوا في صلحهم ذلك أموراً لا يلتزمها مؤمن يوقن بلقاء الله ووعده. منها دخول طاغيتهم كائناً من كان بنعله على ملكها، يطأ بساط ملك خليفة الله ورسوله في الأرض، ويمشي كبيرهم شاهراً سلاحه بين يدي الملك. وأن لا يحاكموا مسلماً في خصومة إلى الشريعة المطهرة، وإنما تكون الحكومة بدار كبيرهم. أيقظ الله لهم ملك الإسلام وأعانه حتى يردهم إلى الصغار)[٥١].

وكان مراد المالطي يكره مسلك الأتراك، ويستقبح سلوكهم السيء في الحكم، فكان لذلك يفضل العيش في الدواخل، ولا يكاد يقيم بالمدينة إلا قليلاً. وقد استعان بمنصور بن خليفة الترهوني في إضعاف المحاميد؛ وتشتيتهم بعد أن طغوا وتجبروا على سكان الدواخل. كما حاول بعد ذلك أن يواجه أيضاً طغاة الأتراك، فاستعان عليهم أولاً بمراد الفوشلي صهره، وحسين قبطان. ثم

(٤٩) أنشأ عمر بن عبد الله فشلوم مسجد فشلوم الواقع قرب الشارع الكبير بتاريخ ذي الحجة ١٠٩٠ (٣ يناير - ١ فبراير ١٦٨٠).

(٥٠) فيرود (الحوليات الطرابلسية) ص ١٦٤ حيث أورد تقريراً هاماً كتبه بتي دي لاكروا مترجم ملك فرنسا للغتين التركية والعربية. وكان قد رافق حملة استريز. ويذكر أن عدد سكان مدينة طرابلس في ذلك الوقت أربعون ألف نسمة منهم ٣٥٠٠ من الأتراك و٣٥٠٠٠ من العرب و١٥٠٠ من المسيحيين بما في ذلك الأسرى. وتتوفر على إحدى عشرة سفينة حربية وثلاث غليوطات، ويتألف الجيش من ١٢٠٠ من السباهيس الأتراك والقولوغلية.. إلخ.

(٥١) إبن غلبون ص ١٤٠ (١١١).

فكر في أن يكيد لـلاثنين ويتخلص منهما. فـاحتـال أولاً في القبض عـلى مـراد الفوشلي فكتب إلى حسين كلايجي، وعبـد الله داي، وإلى بني فشلوم، بإرسـاله إليه مقيداً في ترهونة. فلما وصلوا إلى مراد المالطي (بعين الوزغة) بترهونة قتلهم وكتب إلى الـداي، وإلى بني فشلوم يطلب إرسـال حسين كـلايجي، فلما قبضـوا على حسين، وخرجوا بـه لتسليمه إليـه مروا بـه على مقـبرة سيدي حمـودة التي كانت خارج باب المدينة، فصاح حسين بالجند الذين كانوا يستروحون ويشترون ما يحتاجون إليـه بتلك الساحة. واستغاث بهم فانتزعوه من حـراسه انـتزاعاً، وأدخلوه المدينة، وسـدوا أبوابهـا (١٥ ربيع الأول ١٠٩٧ فـبراير ١٦٨٧) فقتـل بمسـاعدة الجنـد عمر وحمـود ابنيْ فشلوم، وحبس الحـاج عبد الله داي، وبـايـع التـارزي إبراهيم. وكـانت قيادة الجيش ولقب (بـك) من نصيب التركي محمـد المعروف باسم (صقال دلسي) الذي استطاع بمعونـة المحاميـد التغلب على مـراد المـالطي ودحـره، قرب تـاجوراء، بعـد أن تخلى عنـه العـرب من أولاد شبـل، وخذلته بقية القبائل الأخرى[٥٢]. ويقال إن أحدهم قد أكل من لحمه[٥٣].

وكـان إبراهيم تـارزي رئيساً اسميـاً. أمـا الغـالب عـلى الحكم والسلطة والمهيمن عـلى الشؤون الطرابلسيـة فقد كـان حسين كـابـودان كـلايجي الـذي تخلص في النهـاية من صنيعتـه، في نهاية سنـة ١٦٨٧، وخلعه وبـايع (قـاردغلي محمـد الإمام) ـ وهـو من الجبل الأسـود ـ (مونتينجـرو). وكان قبـل ذلك إمـاماً لأحد المساجد.

٤ ـ قاردغلي محمد الإمام باشا (١٦٨٧ ـ ١٧٠١) وخلفاؤه

لقد رأى الداي الجديد الذي حنكته التجارب، وتوفرت له فـطنة واسعـة أن لا سبيل لترسيخ النظام، في الجهاز الحكومي، وضمان السلم، إلا بالتخلص من الـطاغية حسـين كابـودان. واستطاع أن يكسب في هـذا الخصـوص تعـاون رجال البحر الذين سلموه إليه عقب عودته من إحدى الحمـلات، فقتله وزميليه

(٥٢) هل هم بربر فساطو؟ (دي أغسطيني ص ٣٢٠).
(٥٣) ابن غلبون ص ١٤١ ـ ١٤٢.

مصطفى صرك وإبراهيم صغجكلي، وقطعت رؤوسهم وعرضت بأعلى دار البارود[٥٤]. وانتزع من أحمد الفرطاس رئاسة الجند، وولاها الحاج عثمان الأناضولي، ثم عزله عنها وولاها (كنعان)[٥٥] وهو من المشرق. أما رئاسة الفرقة البحرية فقد أسندت إلى خليل. وهو من بلد الداي (قرادغلي). وقد سبب له حوادث خطيرة مع فرنسا، نتيجة استيلائه على بعض السفن الفرنسية. وعندما احتج القنصل الفرنسي لويس لامير Louis Lemaire على هذا التصرف، أودع السجن، كما قامت فرقة بحرية فرنسية سنة ١٦٩٢ بقصف مدينة طرابلس، دون أن تظفر بالترضية التي كانت تنتظرها[٥٦]، وأخفقت في مهمتها وتدخل الباب العالي أيضاً فأوفد رسولاً[٥٧] إلى طرابلس في مارس ١٦٩٣ لإقناع الطرابلسيين باحترام السلم مع فرنسا، ولكن دون جدوى، وأطلق سراح القنصل الفرنسي لامير فذهب إلى الجزائر. وعاد في مايو ١٦٩٣ إلى طرابلس بفرقة بحرية يقودها (دنيس دوسولت Denis Dusault)[٥٨] فأعاد الصلح باتفاقية وقعت في ٢٧ مايو ١٦٩٣. وقد تأكدت بها شروط اتفاقية سنة ١٦٨١ بالإضافة إلى ما تنص عليه المادة الخامسة من حصول فرنسا للمرة الأولى على الترخيص بنقل أعمدة الرخام من لبدة[٥٩]، وأماكن أخرى من طرابلس الغرب. كما تقضي بتسليم الأسرى الذين أسروا في الميناء، دون فدية، أما الذين أسروا في عرض البحر، فيدفع عن كل رأس فدية قدرها مئة وخمسون قرشاً إشبيلياً[٦٠]. وأخذت

---

(٥٤) أنظر ما تقدم ذكره عن دار البارود في الفقرة السادسة من الفصل الثاني القسم الثاني من الكتاب.

(٥٥) ابن غلبون ص ١٤٣ ـ ١٤٤ (١١٣ ـ ١١٤).

(٥٦) يرى ابن غلبون أن محمد باشا قد تميز بإقدامه على تحصين المدينة ص ١٤٤ (١١٥).

(٥٧) وصل القابجي: أي مندوب السلطان محمد آغا إلى تونس في شهر فبراير في ذلك العام على ظهر سفينة فرنسية. وقد تولى القنصل الفرنسي استقباله.

(٥٨) انظر ما ذكره ابن غلبون في الخصوص ص ١٤٤.

(٥٩) غراند شامب ٨ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

(٦٠) روارد دي كارد ص ٢٥٣. ماسون ص ١٧٣ ـ ١٧٥.
فيرود ص ١٨٣ ـ ١٨٤ غراند شامب ٨ ص ٤٦٨ ـ ٤٧٢.

هيبة فرنسا ومركزها بطرابلس يساويان مركز انجلترا التي أتيح لها أن تفرض سطوتها وتؤكد نفوذها، بقوة، منذ نهاية ١٦٥٨ ثم في ١٦٧٥ - ١٦٧٦. وقام محمد داي أيضاً بتأكيد الصلح مع[٦١] انجلترا في ٧ مايو ١٦٩١. وقد استطاعت انجلترا في ١١ أكتوبر ١٦٩٤، في عهد القنصل (توماس بيكر Thomas Baker) أن تقنع محمد داي بالاعتراف لها بامتيازات أكثر، تختص بقنصلها وعلمها[٦٢]، كنوع من المواجهة والتوازن مع النفوذ الفرنسي.

وقد طالت أيام محمد داي الذي يلقبه ابن غلبون بلقب الباشا[٦٣] - مما يدل على حصوله على هذا التعيين من السلطان - وأحبه الشعب والجند، ولكنه اضطر هو الآخر إلى أن يواجه بعض محاولات التمرد في المدينة، ومحاولات الثوراة في الدواخل. فما كاد محمد داي يستلم زمام الحكم حتى اتفق مصطفى شرياني مع بعض الجند للإطاحة بمحمد داي، وخلع بيعته. فلما أحس بهم خليل قاردغلي تسلح وهاجم المتآمرين وقتلهم. وقد سر محمد داي بذلك، وقرب إليه خليلاً وجعله قائداً للسفن وعقد له على ابنته «زينوبة».

وقامت في الدواخل ثورة خطيرة بقيادة منصور بن خليفة (من ترهونة) الذي كان مكروهاً من قادة الجند الأتراك لما قدمه من عون في الماضي إلى مراد المالطي. وقد استاء منصور من تصرفات الأتراك ونظامهم ورفض دعوة المثول بين يدي محمد الإمام باشا، فبعث إليه جيشاً كبيراً بقيادة يوسف بك[٦٤] الذي سار تحت لوائه كثير من العرب، من أعداء منصور والحاقدين عليه. فلما بلغ منصور نبأ الحملة فر نحو الشرق، ودعا قبائل سرت لمساعدته. وقد تصدى للأتراك وحلفائهم في موقع يقال له (أم اللجن) بين تاورغاء والهيشة، وكبدوهم

---

(٦١) يوجد نص التصديق على الصلح لدى (هرتسلت) وهو بتوقيع محمد داي وكنعان بك وقاسم كاهية ومحمد آغا.

(٦٢) هرتسلت ص ١٢٥.

(٦٣) ابن غلبون ص ١٤٦ (١١٦).

(٦٤) أرى أنه يوسف الذي ينتمي إلى أسرة المكني. ويقول فعلاً ابن غلبون إنه علي المكني أخوه (ص ١٤٩) (١١٩) وأسرة المكني التي أعطت لطرابلس علماء وقادة من ذوي الشأن والمكانة، يبدو أنها وفدت من تونس خلال الفترة الأولى من الاحتلال التركي.

هزيمة فادحة (آخر رجب أو أوائل شعبان من عام ١١٠٨ هـ) (فبراير أو مارس ١٦٩٧). وتعرض يوسف بك للنقمة والغضب، وعزله الداي عن قيادة الجيش التي سلمها إلى صهره خليل. وأزدهى منصور خليفة بهذا الانتصار فطغى وتجبر وأساء معاملة الناس، وتوجه إلى برقة، فأمر الوالي عامله على الجبل الأخضر محمد بن محمود بملاحقته ومقاومته. فجمع لهذا الغرض جنوده وأقواماً من درنة وبنغازي (ممن أصلهم من مصراتة وزليطن والقولوغلية) والعرب والموالين من الجبارنة والبراغيث وأولاد برعوص (البراعصة) وأولاد علي فاجتمع لديه منهم ألفان ومئتان من الفرسان. وقد هاجمه عرب برقة فهزموه وطاردوه واستولوا حتى على حريمه. ومات بعد ذلك بموقع يعرف باسم (قرارة بن جدي)، وهي محل حرث بين زليطن ومصراتة، في ١١٠٩ (١٦٩٧ ـ ١٦٩٨) في معركة مع خصمه عبد الله بن عبد النبي الصنهاجي، ومن انضم إليه من أولاد عبد الرحمن الجبالي وأولاد زيان وأولاد سلطان بتاورغاء وبني معدان والقولوغلية بمصراتة[٦٥].

وقام عبد الله بن عبد النبي بثورة، يدعمه في ذلك أولاد سلطان من تاورغاء، فنشر الدمار والخراب في مصراته وزليطن، بلد الفواتير. حتى خرج إليه خليل في حملة عسكرية فهزمه قرب تاورغاء (١٦٩٩ ـ ١٧٠٠)[٦٦].

وفي سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٩ ـ ١٦٩٠) رفض الناصر، صاحب فزان، دفع الخراج. فوجه إليه حملة بقيادة يوسف بك، فقاتله قرب مرزق، دون أن يحقق نتيجة حاسمة. وكان بالحملة من أولاد المكني علي ومحمد الغزّيل اللذان أغريا محمد باشا بالحملة وزينا له سهولتها. وقد غضب يوسف بك عليهما، وتوعدهما بالشر، ولكنهما استطاعا أن يسلكا سبيل الحيلة والمكيدة، فاستطاعا أن يبثا بذور الشقاق بين خصومهما، وسلم الناصر نفسه إلى يوسف الذي استولى

---

(٦٥) ابن غلبون ص ١٤٥ ـ ١٤٦ (١١٥ ـ ١١٧).

(٦٦) ابن غلبون ص ١٥٠ (ص ١٢٠). وفي كتاب: Etats des Royaumes de Berbérie - Tripoli - Tunis et Alger, Rouen 1703 - 1731, p. 1 - 90

وفي رسالة من طرابلس بتاريخ ٢٠ يونيو ١٧٠٠ يتحدث عن (محمد داي أوباشا) كما تثني الرسالة على قرة يوسف بك الذي كان يعود في ذلك الوقت من إحدى حملاته.

على الخزانة، ثم توجه إلى طرابلس واستصحب معه الناصر الذي أودع السجن.

وتولى أمر فزان ـ بتكليف من الباشا ـ محمد الغزيّل. وبعد خمسة أشهر ثار ضده أهل البلد وقتلوه، وبايعوا (تماماً بن محمد) من الأسر المحلية. وخرج علي المكني على رأس قوة للانتقام لمقتل ابن عمه، واتفق مع تمام، وقاتل محمد بن جهيم الذي أسره وسجنه في سبها. وقد تدخل أخوه يوسف وأفلح في إطلاق سراحه. وحينئذ رأى محمد باشا أنه من الملائم إعادة الناصر إلى حكم فزان. فأخرجه من السجن ونصبه حاكماً عليها[٦٧].

كانت التجارة مع فزان، في ذلك الوقت، ذات وزن واعتبار. وكانت تنقل إليها المنسوجات الذهبية والفضية المستوردة من البندقية، وكذلك النحاس الأصفر. ويجلب منها العبيد والتبر والعاج. وكان العبيد يباعون في أسواق الشرق. أما البضائع الأخرى فتوجه إلى أسواق البندقية وليفورنو ومارسيليا[٦٨].

وتنوه الأخبار العربية المحلية[٦٩] بشخص محمد باشا وتصوره بأنه كان (حليماً لين الجانب، حسن السيرة، لم يتخذ أعواناً لخاصته، ولم ير مستعملاً لحرير أو ذهب. . . كان ملازماً للخمس في الجماعة[٧٠]، يؤم الناس إن غاب من عينه للإمامة بالقلعة، كثير التوقير للعلماء. .).

ويقول عنه قنصل فرنسا (دي لالاند De la Lande) إن الرحمة في شخصه أقوى من العدل، وأنه باختصار يمكن أن يضرب كمثل على الشهامة في بربريا).

homme dont la clémence a été plus grande que la justice... en un mot, qui peut être cité comme un prodige de bonté en Barbarie) [٧١].

(٦٧) ابن غلبون ص ١٤٩ ـ ١٥٠ (١١٩ ـ ١٢٠).

(٦٨) ماسون ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٦٩) ابن غلبون ص ١٥٤ (١٢٣).

(٧٠) **L. Bercher,** Lexique arabe - français Algeri - 1944 p. 61

(٧١) ماسون ص ٣٣٤.

وكان يلقب (بشايب العين)، وبهذا الاسم يعرف المسجد الذي بناه بسوق الترك بطرابلس في ١١١٠ هـ (١٦٩٨ - ١٦٩٩) . وكان بناؤه على يد ثقته التونسي مصطفى قاربطاق. كما جدد محمد باشا بناء السوقين المحدقين بمسجده (سوق الترك وسوق الحرير) في العالم التالي[٧٢].

وفي سنة ١٦٩٤ أرسل محمد باشا جنوداً لمساعدة داي الجزائر في حربه على (باي تونس)[٧٣]، وبعد ستة أعوام طلب مراد باي تونس مساعدة طرابلس على داي الجزائر الذي لم ترق له الهدايا التي بعث بها إليه باي تونس. وقد ذهب خليل بك مع الجنود التونسيين، وقاتل في قسنطينية وستيف بالجزائر، وتعرض لخسائر فقفل راجعاً إلى طرابلس[٧٤].

وفي ربيع ١٧٠١ م كان خليل بك بجبل نفوسة، فثار عليه الجيش فظفر بهم في ذلك المكان، وقتل أكثر رؤسائهم، ونزل من الجبل حتى بلغ سهل جنزور، ولم يستطع أن يتحكم في الجيش، فتخلى عنه وفر إلى تونس[٧٥]. وقد

---

(٧٢) ابن غلبون ص ١٥٤ (٢١٣).

(٧٣) ابن غلبون ص ١٥٥ (١٢٤). يقول قنصل فرنسا بتونس في كتاب:

E. Plantet (Correspondance des Beys de Tunis et des Consuls de France avec la Cour, 1, Paris 1893 p. 520

إنه قد وصلت يوم ٢٥ أغسطس ١٦٩٤ ثلاثة مراكب وخمسة زوارق طرابلسية وأنزلت برأس قرطاج ما يقرب من ألف جندي لمساعدة داي الجزائر الذي كان مشتبكاً في حرب مع باي تونس. أما المؤرخ العثماني رشيد (ج ٢ ص ٢٩٠ - ٢٩١) فيعطي معلومات عن الصدام الجزائري التونسي وتدخل حكومة الآستانة باسم الأخوة الإسلامية والحاجة إلى استخدام سفن ولايات الشمال الإفريقي في تحرير جزيرة (كيرس) من احتلال البندقية. ويذكر أنه قد عين في ذلك الوقت من قبل الآستانة المدعو دستاري محمد باشا (٣ فبراير ١٦٩٥). أما (هامر ج ٢٤ من الترجمة الإيطالية ص ٥١٠) فيقول إن اسم الوالي (جاري محمد باشا).

(٧٤) فيرود ص ١٨٧ - ١٨٨. لقد ورد وصف حملة مراد بك على الجزائر في تاريخ قام بترجمته:

A. Cherbonneau (Journal Asiatique) 1851 L. XVII p. 36

(٧٥) في رسالة صادرة من تونس بتاريخ ٨ - ٦ - ١٧٠١ ورد ذكر ثورة وقعت بطرابلس في ١٩ أبريل. وقد أدى طغيان خليل بك إلى انتشار الحقد العام عليه بين صفوف الأهالي. وقد وصل خليل بك إلى تونس في ١٥ مايو واستقبله مراد بك أحسن استقبال. (بلانتت: مراسلات بآيات تونس وقناصل مع بلاط فرنسا ج ٢ باريس ١٨٩٤ ص١٣).

قام هذا الجيش[٧٦]، أو قام قسم منه بالمدينة قبل عودة الجيش[٧٧] بخلع الشيخ محمد باشا في ذلك العام، ووضعوه فوق سفينة متجهة إلى مصر ونفوه.

٥ ـ عثمان قهوجي داي

وبايعوا خلفاً له عثمان قهوجي، ويعرف بهذا اللقب، لأنه كان يطبخ القهوة بسوق الترك، وكانت مهمته مقتصرة على تولي شؤون الخزانة وتفريق رزق الجند[٧٨]. وهي بالفعل مهمة الداي في ذلك الوقت. أي أنه موظف إداري في خدمة الجند الذين اختاروه. وقد عين محمد الساقزلي قائداً للجيش. وتأكيداً لمواثيق الصداقة مع فرنسا بعث عثمان داي رسالة بليغة إلى ملك فرنسا[٧٩]. ولكنه لم يكد يمضي في الحكم ثلاثة أشهر حتى استبدل بمصطفى داي غليبولي، قائد سفينة القيادة. ولم يتم نقل السلطة بسهولة. فقد قاوم عثمان، وأطلق نيران القلعة على المدينة ثم قبض عليه ونفي مع جميع أتباعه وأعوانه. ولم يبق منهم سوى قائد الجيش[٨٠].

٦ ـ مصطفى غليبولي داي

وقد اتخذ الداي الجديد موقفاً عدائياً صارماً نحو قنصل فرنسا والإرسالية الفرنشسكانية، بعد أن بلغته الأنباء بسوء معاملة الأسرى الأتراك في مدينة (شيفتافيكيا Civittavecchia) فقبض على أربعة من أعضاء الإرسالية الفرنشسكانية وسجنهم لمدة عدة أيام[٨١]، بينما أكد معاهدته مع انجلترا[٨٢]. وكان خليل بك الذي فر إلى تونس[٨٣]، قد لحق بعد ذلك بصهره محمد باشا في

---

(٧٦) ابن غلبون ص ١٥١ (١٢١).

(٧٧) فيرود ص ١٨٨.

(٧٨) ابن غلبون ص ١٥٢ (١٢١).

(٧٩) توجد ترجمة لها لدى فيرود ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٨٠) ابن غلبون ص ١٥٢ (٢١) ـ فيرود ص ١٩٠ ـ ١٩٢ (وهو أكثر دقة).

(٨١) فيرود ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٨٢) بتاريخ ربيع الثاني ١١١٣ (٥ سبتمبر ـ ٤ أكتوبر ١٧٠١) وهي تحمل توقيع محمد بن أحمد (ميرميران) باشا. ولا ريب في أنه اسم الباشا الموفد من الآستانة في ذلك الوقت.

تركيا، وقام بتجهيز سفينة بالأسلحة، وعاد إلى تونس، لمحاولة احتلال طرابلس. وقد استغل التذمر الذي انتشر بين الأهالي من تصرفات مصطفى داي[٨٤] فنزل بالزعفران (مكان بسرت) وزحف على طرابلس أثناء غيبة الداي مع جيشه. واستلم المدينة، وأفسد ذمة الجيش بالوعود بزيادة المخصصات ورفع أجرتهم فخذلوا الداي مصطفى وسلموه إلى خليل الذي بعثه (١٧٠٢) إلى تاورغاء حيث قتل بها.

٧ ـ خليل بك (١٧٠٢ ـ ١٧٠٣):

وكان حكم خليل بك مضطرباً كحياته المضطربة. فما كاد يتم له الأمر حتى كان عليه أن يواجه ثورة عرب غريان والمحاميد. فقام في ربيع ١٧٠٣[٨٥] على رأس حملة قوية تتألف من ثلاثة آلاف انكشاري وخمسمائة فارس وستة آلاف من عرب غريان، فلاحقهم ودخل معهم في معركة بوادي الأرباع بينما كان المحاميد يغزون السهل حتى المواقع الريفية المحيطة بطرابلس، ويضايقون السكان. وقد عاد في يونيو ظافراً بعد أن هزم المتمردين[٨٦].

وكما سبق القول فقد كان خليل بك صديقاً لمراد صاحب تونس وكان قد ساعده على داي الجزائر في سنة ١٧٠٢. وحدث أن قتل مراد بك على يد بعض المتآمرين بقيادة إبراهيم شريف الذي أعلن نفسه (باياً) لتونس فحفظ خليل في نفسه حقداً على باي الولاية المجاورة، وصادر عدداً من الخيول التي يملكها إبراهيم شريف أثناء مرورها بطرابلس، وحين طلب إبراهيم إرجاعها رد عليه خليل رداً جافاً[٨٧]. يضاف إلى ذلك أن سفينة قرصنة تونسية اضطرتها

---

(٨٣) انحاز باي تونس إلى جانب خليل بك ضد طرابلس والجزائر. وقد قطعت العلاقات التجارية بين طرابلس وتونس بناء على تحريض من الجزائر. (بلانتت ج ٢ ص ١٥ ـ ١٦).

(٨٤) حدد للعشرين (قرميلاً) قيمة (ريال) الذي كان يساوي في السابق ١٣ قرميلاً.

(٨٥) ابن غلبون ص ١٥٤ (١٢٣) ـ فيرود ص ١٩٤.

(٨٦) فيرود ص ١٩٤.

(٨٧) ابن غلبون ص ١٥٧ (١٢٦).

الأحوال إلى اللجوء إلى ميناء طـرابلس فاحتجزها خليل بكل ما كان فوقهـا من أحمال ثمينة وعبيد[٨٨]. فقام إليه إبراهيم شريف على رأس محلة قويـة، يقال إنها كـانت تتألف من ثـمانية عشر ألف رجـل، وقد اصـطحب معه عثـمان قهوجي، وشعبان بن قره يوسف آغا اللذين[٨٩] كانا منفيين بتونس. وقد جرت المعركة إلى الجنوب الغربي من طرابلس في موقع يعرف باسم (طرة)[٩٠]. وهزم خليل بـك، وأغلق على نفسه المدينة المحاصرة (١٥ ديسمبر ١٧٠٤)[٩١]. واكتسحت الجيوش التونسية منطقة المنشية، ناشرة الخراب والدمار. واستمر الحصار مدة تـزيد عـلى الشهر. وكانوا يقصفون القلعة، من مواقعهم غربي المدينـة، دون أن يفلحوا في إحـداث أضرار كبيرة بها،كما لم ينجحـوا في نسف أي نقطة من السـور، بل إن المحاصرين قد قاموا أثناء الحصار بالخروج من باب البحر، وباغتوا التـونسيين، وضربوهم من الخلف، وألحقوا بهم خسائر فادحة. وفي يوم ١٩ ينايـر ١٧٠٥[٩٢] انسحب إبراهيم شريف إلى تونس بمن بقي له من رجال المحلة[٩٣].

وكان خليل من أقوى حكام طرابلس، وقد نوه قنصل فرنسا (كلود لامـير Claude Lemaire) بمـزاياه الـطيبة[٩٤]. ويقـول عنه ابن غلبـون: إن هيبته قـد

---

(٨٨) روسو (الحوليات التونسية) ص ٨٧.

(٨٩) ابن غلبون ص ١٥٦ (١٢٥).

(٩٠) ابن غلبون ص ١٥٦ (١٢٥).

(٩١) فيرود ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٩٢) ابن غلبون ص ١٥٦ - ربما كانت هي الخرجة التي وصفها القنصل لامير- فيرود ص ٢٠٠.

(٩٣) طبقاً للأخبار التونسية (بلانتت ج ٢ ص ٢٢) فقـد خرج بـك تونس يـوم ٢٩ أكتوبـر ١٧٠٦ على رأس قوة تتألف من عشرة آلاف مسلح وقام بمحـاصرة مدينـة طرابلس يـوم ١٠ ديسمبر، وحين اضطره الطاعون إلى أن يرفع الحصـار غادرهـا يوم ١١ ينـاير ١٧٠٥ (هكـذا؟) فوصـل تونس في أول مارس. وقـد اعتاد يهـود طرابلس الاحتفـال يوم ٢٣ تبت من كـل عام بـإقامـة (بوريم) خاص عرف باسم بوريم شريف على اسم باي تونس إحيـاء لذكـرى الحصار الـذي وقع بين ١٧٠٤ - ١٧٠٥ وشكراً لله الذي ساعدهم في تلك الظروف العسيرة.. وفيما يلي فقرة من هذا البوريم) (في عهد خليل، قائد الجيش، قدم من زرزيس إبراهيم شريف وزحف على طرابلس بجيش قوي وسفن. وأقام بالقـرب من المدينـة وحاول الاستيـلاء عليها وتـدميرهـا. وكان حوله من الرجال الأقوياء عشرة آلاف شخص..).

(٩٤) ماسون ص ٣٣٤ - فيرود ص ٢٠٠.

زادت بعد انتصاره على التونسيين (فكان إذا أرسل السرية القليلة من جنده وأتباعه فرّت الأعراب أمامها) وكان أول من اتخذ الحجاب من ملوك طرابلس (هكذا) وأول من لبس الحرير والذهب، وقد نحا في ذلك نحو ملوك تونس. وكان حازماً صارماً في معاملة أتباعه الذين كانوا يخشون سطوته وبأسه(٩٥).

وكان خليل بك رجلاً مستقيماً في علاقاته مع الدول الكبرى. واحتفظ بأوثق علاقات الصداقة مع فرنسا، بفضل المودة والألفة اللتين قامتا بينه وبين القنصل الفرنسي (لامير). وأوفد في سنة ١٧٠٤ الحاج مصطفى لتحية ملك فرنسا، وعاد في العام التالي يحمل هدايا ورسالة تحية(٩٦).،وبينما كانت الحرب مستمرة دون انقطاع(٩٧) بينه وبين مالطا ودولة البابا، فقد استولى فرسان مالطا في سنة ١٧٠٣ قرب رأس سبارتفنتو Spartivents على زورق طرابلسي فوقه سبعون رجلاً. كما استولوا على سفينة أخرى في ١٧٠٥ . وفي ٢٥ يونيو من عام ١٧٠٩ فوجئت سفينة القيادة (Capitana) وسفينة طرابلسية أخرى تحت قيادة علي قبطان(٩٨)، عند خليج برندسي Brindisi بالفرقة الموحدة لأساطيل مالطا تحت قيادة (فرا لودفيجو فليوريني Lodvico Fleurigny). وقد هوجمت السفينة الطرابلسية من قبل السفينة (سان جيوفاني) بقيادة الفارس الشجاع فرا جيوسبي دي لانغون Giuseppe de Longon . وقد أبدت السفن الطرابلسية مقاومة باسلة، وحاولت محاذاة السفينة المهاجمة، إلا أن اشتعال النار ـ صدفة أو يأساً ـ في السفينة (كابتانا) الطرابلسية دفع البحارة إلى إلقاء أنفسهم في البحر. وقد التقطت الزوارق أربعمائة نوتي وخمسين أسيراً مسيحياً فكت عنهم الأغلال.

---

(٩٥) ابن غلبون ص ١٥٦ ـ ١٥٧ (١٢٥ ـ ١٢٦).

(٩٦) فيرود ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٩٧) في مكتبة (لينشي) مخطوطة كورسيكية ٧٤١ ـ ورقات ١٢٤ ـ ١٢٨ توجد وثيقة لاتفاق تم بين قنصل فرنسا بطرابلس ١٧٠٤ ـ ١٧٠٦ وبين مركز الدعوة المسيحية لتحرير (أحمد بايندرلي) أحد رؤساء السفن، وكان أسيراً فوق السفن البابوية. وقد تقرر أن تدفع طرابلس فدية لتحريره قدرها ألف سكودو توجه لصالح المستشفى الذي أقامه القنصل المذكور بالمدينة.

(٩٨) ابن غلبون ص ١٥٨ (١٢٧).

وكانت السفينة الطرابلسية مجهزة بست وخمسين قطعة مدفعية ومئتين وأربعين قاذفة وتحمل خمسمائة نوتي وأربعاً وأربعين أسيراً مسيحياً.

أما السفينة الأخرى فقد كانت تتوفر على أربعين مدفعاً وثلاثين قاذفة حمم وخمسين رجلاً، وعشرة أسرى من المسيحيين. وكان بين الأسرى رئيسان بحريان. ولم يفقد فرسان مالطا سوى ستة رجال بالإضافة إلى ٣٩ جريحاً[٩٩].

وقد كانت من بواعث حملات خليل الداخلية ضرورة الحصول على الخراج. ويخبرنا القنصل الفرنسي (كلود لامير) بأن خليل بك كان في برقة سنة ١٧٠٦[١٠٠]، وبلغ واحة أوجلة، حيث اضطر خلال أربعة وعشرين يوماً من إقامته إلى تقديم التمور إلى خيوله الألف، بالنظر لقلة الشعير. ثم تحول إلى بنغازي، وأخذ يستعد للتوجه إلى درنة. ولكن صهره محمد باشا توفي في طرابلس أثناء غيابه (أكتوبر ١٧٠٦) فتولى صديقه حسين آغا القيام بأمور الحكم حتى عودة خليل بك. ومن ذلك الحين تولى خليل اسمياً وفعلياً كل السلطات الحكومية، وحصل على فرمان من السلطان أحمد الثالث بتعيينه (بليربي) طرابلس بتاريخ أواخر أكتوبر وأوائل نوفمبر من عام ١٧٠٨[١٠١].

وفي نهاية ١٧٠٩ خرج خليل باشا لمحاربة عبد الله بن عبد النبي الصهناجي الذي استولى على القافلة التي كانت تحمل خراج فزان. وقد بلغه أثناء هذه الحملة أن الرايس (إبراهيم أليلي) (من الأيا بالساحل الجنوبي للأناضول) قد خلع بيعته، وعين ممثله حسين آغا بدلاً منه ـ فعاد خليل على الفور وعسكر بجيشه في المنشية. فخرج سكان المدينة لمحاربته[١٠٢]. وفي ٢٢

---

(٩٩) روسي: سيطرة الفرسان إلخ (Arch. Metil) ج ٦ ص ٨١ ـ ٨٣ وكذلك (تاريخ البحرية الخ . .) ص ٨٤.

(١٠٠) فيرود ص ٢٠٣.

(١٠١) نشر الفرمان وترجمة بابنجر في مقاله:

F. Babinger (Bestallungsschreiben Ahmed III fur Chalili Pasha, Statthalter van Tripolis (Berberie) Von Jahre 1120 - 1708 in mitt. sem. f. Orient. Sprachen XXXIII (1930) II Abteiling, p. 130 - 137.

(١٠٢) ابن غلبون ص ١٥٩ (١٢٨) وقد فتح بهذه المناسبة (باب زناتة) الذي لم يسبق أن فتح من قبل، ثم أعيد إغلاقه كما يقول المؤرخ بعد المعركة.

أكتوبر وجهت طلقة مدفع إلى المدينة فقتلت المالطي (لورنزو حفرانة L. Hafrane).

وفي يوم ٢٥ أكتوبر، أثناء المعركة الدائرة بين أهل المدينة وأتباع خليل باشا قتل (بندتو فيلبي Benedetto Filippi) رئيس الخندق[١٠٣]. وجيوفاني سفرازيتا G, Sfrazetta وهو بواب القلعة وأصله من فينيسيا.

ولما فشل خليل باشا في استعادة المدينة عاد إلى الداخل، واتفق مع عبد الله الصهناجي نفسه ـ وهو الذي سبق أن خرج لمحاربته ـ فخرج إليه القائد الجديد للجيش (قارة محمد) ولاحقه حتى تاورغاء، حيث غدر بعبد الله الصهناجي وقتله، وفر خليل نحو ودان، وحل ضيفاً على الناصر صاحب فزان، ثم توجه إلى مصر، ومنها إلى القسطنطينية، شاكياً عارضاً أمره على السلطان[١٠٤].

واستقل إبراهيم (اليلي) بالحكم عاماً كاملاً، تصرف خلاله بحرية مطلقة، وشرد شيعة خليل باشا قتلاً ونفياً، وأحاط نفسه بأهل البلد متخلصاً من النفوذ التركي. وداخله شيء من الشك في (قارة محمد) قائد الجيش وهو تركي من الأناضول، فنحاه عن القيادة، وسلمها إلى محمد حسنين شاوس، ثم إلى صهره محمد بك الملقب (بابن الجن)[١٠٥] وهو قولوغلي، ومن رؤساء البحرية المشهورين، وقد ظفر بحب الأهالي، وإعجابهم به، لما تميز به من شجاعة ونسب قولوغلي (أبوه تركي وأمه عربية)[١٠٦]. وقد قام قارة محمد بإثارة عرب غريان وجاء بهم إلى طرابلس للانتقام، فلقيه محمد بن الجن بتاجوراء، وقتله، وسقط في المعركة ثلاثمئة متمرد.

---

(١٠٣) سجل وقائع الإرسالية الفرنشسكانية المعروف باسم الكتاب القديم (Libro Vecchio)

(١٠٤) أنشأ خليل بك بالظهرة المسجد المعروف باسم أحد الأئمة (جامع دورار) ابن غلبون ص ١٥٩ (١٢٨).

(١٠٥) ويقال له أيضاً (ولد الجن).

(١٠٦) ابن غلبون ص ١٦٠ (١٢٩) ـ فيرود ص ٢٠٥

أما سرد الأحداث التالية فيرتبط بقيام حكم الأسرة القرمانللية.

٨ ـ قائمة بأسماء ولاة ودايات طرابلس منذ سنة ١٥٥١ حتى سنة ١٧١١[١٠٧]:

مراد آغا	١٥٥١ ـ ١٥٥٦
درغوث باشا	١٥٥٦ ـ ١٥٦٥
علج علي باشا	١٥٦٥ ـ ١٥٦٨
مصطفى باشا	١٥٦٩ ـ ١٥٨٩
جعفر باشا	١٥٨١ ـ
رمضان باشا	١٥٨٢ ـ ١٥٨٥
حسين باشا	١٦٠٠
سليم باشا	١٦٠٦
علي باشا	١٦١١
سليمان صفر داي	١٦٠٦ ـ ١٦١٤
مصطفى شريف داي	١٦١٤ ـ ١٦٣٠
رمضان داي	١٦٣١ ـ ١٦٣٣
محمد ساقزلي باشا	١٦٣٣ ـ ١٦٤٩
عثمان ساقزلي باشا	١٦٤٩ ـ ١٦٧٢
عثمان ريس داي	١٦٧٢
بالي شاوس داي	١٦٧٢ ـ ١٦٧٥
إبراهيم مصروغلي داي	١٦٧٥ ـ ١٦٧٦
إبراهيم شلبي داي	١٦٧٦
مصطفى الكبير داي	١٦٧٦ ـ ١٦٧٧

(١٠٧) أنظر أيضاً ترجمة روسي لكتاب ابن غلبون ص ١٩٦ إذ وردت هذه القائمة على وجه يختلف، خاصة عن الفترة ١٥٦٨ ـ ١٥٨٨ حيث يحف الغموض بتعاقب الولاة وتسلسلهم وأسمائهم. ولقد فضلنا الإبقاء على القائمة كما أعدها المؤلف نفسه.

عثمان بابا داي	١٦٧٧ ـ ١٦٧٨
آق محمد داي	١٦٧٨ ـ ١٦٧٩
حسن عبازة داي	١٦٧٩ ـ ١٦٨٣
يلك محمد داي	١٦٨٣
علي الجزائري داي	١٦٨٣ ـ ١٦٨٤
الحاج عبد الله داي	١٦٨٤ ـ ١٦٨٧
إبراهيم تارزي داي	١٦٨٧
محمد باشا الإمام	١٦٨٧ ـ ١٧٠١
عثمان قهوجي داي	١٧٠١
مصطفى غليبولي داي	١٧٠٢
خليل باشا	١٧٠٢ ـ ١٧٠٩
إبراهيم أليلي	١٧٠٩ ـ ١٧١٠
إبراهيم خوجة	١٧١٠ ـ ١٧١١
الحاج رجب	١٧١١
محمود أبو مويس	١٧١١

الفصل الخامس

استمرار العهد العثماني

قيام الأسرة القرمانللية

عهد أحمد باشا القرمانللي

١٧١٤ - ١٧٤٥

* القرمانلليون.
* الأحداث التي أدت إلى استيلاء أحمد باشا القرمانللي على الحكم.
* حملات على الدواخل وفزان وبرقة.
* القرصنة والعلاقات مع الدول المسيحية الكبرى والقسطنطينية.
* شخصية أحمد باشا القرمانللي.
* أعماله.
* وفاة أحمد باشا القرمانللي.

١ ـ القرمانليون[1]

يتفق قيام السيادة القرمانللية في طرابلس سنة ١٧١١ مع قيام أسرة الحسين بن علي في تونس سنة ١٧٠٥، التي استمرت في الحكم حتى سنة ١٩٥٦. بينما ظل النظام الانكشاري في الجزائر قائماً مدة طويلة، واستمر بها حكم الدايات القلق المضطرب حتى سنة ١٨٣٠، دون أن تتمكن إحدى الأسر من جعل الحكم وراثياً فيها.

وينبغي البحث عن الأسباب التي مكنت الأسرة القرمانللية من السلطة، في تلك الطاقة التي توفرت لأحمد باشا الذي استطاع أن يواجه خصومه ويصمد لهم. ويقضي قضاء تاماً على كل محاولات التمرد والعصيان، بالإضافة إلى ضعف الجند من الأتراك والمشارقة والإنكشارية الذين وجه إليهم أحمد باشا الضربة القاضية الأخيرة.

لقد نشأ في طرابلس وضواحيها خلال قرنين من السيادة التركية عنصر

---

(١) ثمة دراسات خاصة عن الأسرة القرمانللية هي:

١ ـ ن. سلوش (طرابلس تحت السيادة القرمانللية) وقد نشر بمجلة العالم الإسلامي الفرنسية ج ٦ سنة ١٩٠٨ ص ٥٨ ـ ٨٣ ـ ٢١١ ـ ٢٣٢ ـ ٤٣٣ ـ ٤٥٣.

٢ ـ فادالا (مقال عن تاريخ الأسرة القرمانللية) وقد نشر بمجلة تاريخ المستعمرات الفرنسية ج ٧ ـ ١٩١٩ ص ١٧٧ ـ ٢٨٨.

٣ ـ ر. ميكاكي (طرابلس تحت حكم القرمانللية) نشرته مؤسسة (أنترا) بالإيطالية وقد ترجمه طه فوزي إلى العربية ونشره معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة.

٤ ـ ك. برنيا (القرمانلليون) بحث بالإيطالية نشر بمجلة (ليبيا) الصادرة بطرابلس سنة ٣ ـ ١٩٥٣ ـ (ص ـ ٥ ـ ٥٩).

بشري جديد غالب، هو العنصر القولوغلي المتحدر من سلالة الأتراك المتزوجين بالنساء المحليات. وقد أصبح القولوغلية خلال القرن الثامن عشر عنصراً غالباً، له وزنه القوي، في الحياة العامة، إذ يتفوق على الأتراك بقرابته إلى العرب والبربر الذين يكونون الأغلبية العظمى من السكان بطرابلس والساحل والمنشية والدواخل. ويتميز أيضاً بقدرته على فهم مشاعر السكان المحليين وحاجاتهم، غير أنه ينبغي عدم المبالغة في تقدير هذه الناحية. فقد ظل القرمانليون أنفسهم، في نظر سكان طرابلس، في ذلك الوقت، دخلاء طغاة منتزعين للسلطة. وعلى كل حال فإنه لم يكن مما يتفق مع طباع سكان طرابلس الغرب المتخلفين الذين تتكون أغلبيتهم من البدو المنقسمين المتناحرين، أن يكون لديهم نوع من شعور التضامن العام والارتباط بأسرة واحدة. ومع ذلك فإن الانصهار والاندماج بين القولوغلية والسكان المحليين قد أخذ دائماً يزداد ويتطور في نفس أسرة القرمانللي، فبالإضافة إلى التزاوج فإننا نراه في المراسم الحكومية، وسير الحياة في البلاط. ففي الوقت الذي كانت فيه اللغة الرسمية المستعملة في عهد أحمد باشا هي التركية، بدأ في عهد علي باشا إدخال اللغة العربية التي أصبحت لغة البلاط والدوائر في عهد يوسف باشا. ويمكن أن يقال عن هذا الأخير بأنه كان سيّداً (طرابلسياً) تولى السيادة على طرابلس.

وقد كان في وسعه أن يمنح لسلالته حكومة مضمونة مسالمة لولا طغيان السنوات الأخيرة، والغيرة الجامحة وطموح الحكم الذي نكب الأسرة القرمانللية بالصراع بين الإخوة. وأخيراً لو لم يتم احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ فيلفت نظر تركيا إلى آخر الأجزاء من الأراضي الإفريقية التي يمكنها أن تستعيد فيها سلطتها المباشرة.

أما موقف الباب العالي من القرمانلليين فيمكن فهمه على ضوء انشغال الدولة العثمانية في ذلك الوقت، ببعض الأحداث الداخلية، ثم التزامها بالدفاع ضد التهديد الروسي، فاعترفت بالأمر الواقع، وخلعت على سادة طرابلس الجدد التعيين الذي سبق أن خلعته على غيرهم مثل محمد باشا وعثمان باشا،

بالإضافة إلى أن الاعتراف بولاة الشمال الإفريقي (بربريا) كان يقترن في الغالب بهدايا سخية تقدم إلى السلطان والحاشية.

وقد سلكت ولايات تونس وطرابلس طريق تلك الظاهرة التي أسفرت عن تكوين ولايات (باشويات) ذاتية وراثية. وبرزت بشكل ظاهر في أطراف الأمبراطورية العثمانية، عند نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. فعلي باشا في (جانينا) بألبانيا الجنوبية. وأبو شاتلي Busciatli في البانيا الشمالية. ومحمد علي بمصر. وقد تميز انهيار الإمبراطورية العثمانية وتمزقها بتكوين هذه السيادات المستقلة في أطرافها النائية. وقد بذل الباب العالي في ١٨٢٠ محاولة قوية للتماسك استطاعت أن تقي أو تؤخر تفكيك الإمبراطورية. وفي إطار هذه المحاولة عادت إليه طرابلس لتعيش مدة ستة وسبعين عاماً أخرى ١٨٣٥ ـ ١٩١١.

وعلى الرغم من أن أحمد باشا كان ينعم بلقب (أمير المؤمنين) ويستمتع به، إلا أن القرامانلليين لم يخلعوا للباب العالي، وظلوا يدعون للسلطان في صلاة الجمعة، وقد طبع اسمه على العملة الطرابلسية المستعملة التي كان خليل بك أول من نظمها.

٢ ـ الأحداث التي أدت بأحمد باشا القرمانلي إلى حكم طرابلس

كان محمد بن الجن ـ كما أسلفنا ـ قولوغلياً، وقد تضاعفت قوته وزادت سطوته بعد الانتصار الذي أحرزه بتاجوراء، فحدثته نفسه بالتخلص من إبراهيم داي بمساعدة شيوخ الساحل والمنشية فحاصره في المدينة مدة ستة عشر يوماً، وفي يوم عيد الفطر (أول شوال ١١٢٢) قام الأهالي بفتح أبواب المدينة، ونفي إبراهيم داي إلى الإسكندرية، ووضع بدلاً منه إسماعيل خوجة، إمام جامع الخروبة، وقد تم تعيينه بناء على إشارة محمد بن الجن. ومن المؤكد أنه كان رجلاً ضعيفاً لا وزن له، وقد أراد محمد بن الجن باختياره له أن يكون أداة في يده يتصرف فيها كما يشاء.

وقد عمل الداي الجديد على التخلص من العناصر التركية، ولم يترك إلا

القليل منها الذي لم يتورط في مشاكل الحكم. ولم تدم حكومة الداي اسماعيل سوى فترة قليلة، إذ لم تزد مدتها على شهرين. ففي مساء اليوم الأخير من ذي القعدة ١١٢٢ (١٩ يناير ١٧١١) استبدله محمد بك بن الجن، بالحاج رجب. وفي هذه الأثناء كان قارة محمد المنفي قد حاول القيام بحركة انقلابية بطرابلس، ولكنه لم يكد يبلغ تاجوراء حتى هزم وفر من جديد إلى غريان.

إن الذي يلاحظ تتابع الأحداث خلال الأعوام ١٧١٠ - ١٧١١ لا بد أن يرى أن حكم طرابلس قد انتهى بصفة تامة إلى محمد بن الجن الذي كان بيده الحل والربط والتعيين والعزل وفق ما يشاء، وما تملي عليه أهواؤه. وقد مكث الحاج رجب مدة قليلة في منصب الداي[2]. وفي شهر يونيو تقريباً تولى ابن الجن هذا المنصب، وأسند قيادة الجيش إلى محمود أبي أميّس. وهو أحد ضباط الديوان. وقد سعى هذا الأخير بدوره إلى الاستيلاء على خيوط الحكم في ليلة ٤ يوليو فقتل غدراً محمد بن الجن وأعلن نفسه حاكماً على البلاد[3]. وهكذا تعاقب على الحكم، خلال ستة أشهر، أربعة (دايات) هم إسماعيل ورجب ومحمد ومحمود.

(٢) كتب القنصل بولارد Poulard يقول إن حكم هذا الداي لم يدم سوى أربع ساعات (فيرود ص ٢١٠).

(٣) حاولت أن أعيد ترتيب هذه الأحداث التي تتميز باضطرابها واختلاطها في مختلف المصادر. وقد استعنت في ذلك بكتابات ابن غلبون وفيرود (٢٠٥ - ٢٠٦) وبرنيا (ص ٢١٧ - ٢١٨). ويناقض ابن غلبون نفسه. فهو في صفحة ١٦١ يقول إن رجب داي قتله محمود أبو أميس بينما يقول في صفحة ١٩١ إن القتيل كان محمد بن الجن. ولا يذكر (فيرود) حكم رجب داي. ومن جهة أخرى فإنه في الاتفاقية المبرمة مع إنجلترا بتاريخ ٢٧ يونيو ١٧١١ كان يبدو محمد بن الجن في منصب الحاكم ومحمود أبو أميس كقائد للجند. (برنيا ٢٠٥ - ٢٠٦). وقد ذكر فيرود التاريخ المحتمل لقتل محمد بن الجن وهو ٤ يوليو. وتؤكد هذا الترتيب للأحداث رسالة صادرة من تونس عن القنصل (ا. سورهايند A. Sorhainde). أنظر:(بلانتت ص ٦٦) وهي بتاريخ ٢٥ يوليو ١٧١١ (أن بك طرابلس قد قتله في يوم ٤ الجاري محمود الذي كان يتولى منصب الخزندار. وقد أعلن نفسه حاكماً على الإيالة، ويقال أن القاتل هو خوجة سابق لخليل بك، لم يقدم على الاستيلاء على السلطة إلا ليحتفظ بها لسيده السابق، وصاحب نعمته. ويقال إنه في طريقه إلى العودة لاستلام منصبه القديم، ويحتمل العكس، أي أن يتشبث بكل قواه بالحكم، ولكن ليس هناك شك في أنه سيهزم. وأن خليل بك سيسترد السلطة للمرة الثالثة).

وقد حان الوقت لأن تظهر يد قوية تضع الأمر في نصابه، وتعيد النظام إلى طرابلس، ولو كان ذلك بثمن فادح من المذابح. وفي هذا الوقت ظهرت على السطح شخصية أحمد القرمانلي.

قرمانلي، اسم تركي، نسبة إلى (قرمان) وهو الاسم الذي يطلقه الأتراك على الجزء الجنوبي من الأناضول. ونحن نجهل الزمن الذي استقر فيه القرمانلليون بطرابلس. يحتمل أن يكون ذلك قد تم في النصف الثاني من القرن السادس عشر، مع وصول أفواج الإنكشارية الأوائل الذين جاءوا إلى الولاية.

يقول ابن غلبون (هو أحمد بن يوسف بن محمود بن مصطفى القرمانلي، نسبة إلى القبيل المشهور بأرض الأناضول)[٤] ويقول عن جدهم (كان جده مصطفى كبير طائفة من الجند، موقراً مهاباً وأبوه يوسف، نشأ عاملاً ولم يزل كذلك مهاباً موقراً بدار الملك، مشهوراً بها) ولم يتعرض أثناء الحكم التركي لما يتعرض له أبناء القولوغلية، من إهانة وتحقير من قبل الأتراك. وقد تقلد أحمد عمل أبيه. إذ ولّاه خليل باشا على ساحل المنشية. ورغم أن ذكره لا يرد صراحة فليس هناك شك في أنه كان له دور في الأحداث التي رويناها عن سنتي ١٧١٠ - ١٧١١. وفي الإشارة السالفة إلى زعماء المنشية الذين أيدوا محمد بن الجن، ضد الداي إبراهيم، يمكننا أن نتعرف أيضاً على أحمد القرمانلي. لقد كان أحمد القرمانلي قولوغلياً[٥] فهو بالطبع حليف لمحمد بن الجن القولوغلي. وقد ساعده - دون ريب - في إزاحة إسماعيل داي، والقضاء على العناصر التركية التي طوردت في سنة ١٧١٠ مطاردة عنيدة قاسية. حتى ليلاحظ ابن غلبون قائلاً (هكذا انتهى حكم الأتراك وبدأ حكم القولوغية). فهو إذن قد تحالف مع محمد بك بن الجن[٦] (الداي فيما بعد) ضد الأتراك، وضد العنصر الوطني البربري العربي، وكان على

---

(٤) ابن غلبون ص (١٩٠) (١٥٧).

(٥) بخصوص العنصر القولوغلي بالساحل والمنشية، انظر الصفحات من ٣ إلى ٣٠ من الدراسة الهامة التي قام بها (أغسطيني) عن سكان طرابلس الغرب.

(٦) يرى فيرود ص ٢٠٨ أن أحمد القرمانلي قد تزوج ابنة محمد بن الجن.

استعـداد للتخلص من العنصر القولـوغلي أيضـاً. وقد وجـد أحمـد القـرمـانللي نفسه في خطر عندما اتفق محمـود أبي أميّس مع العنـاصر الوطنيـة[٧] وقتل محمـد داي بن الجن في ٤ يـوليو ١٧١١، وتـولى السلطة مكـانـه. ولم تتـأخـر مـظاهـر العداوة بين محمود أبي أميس والقرمـانللي في الظهـور. وطبقاً للروايـات المتواتـرة فـإن محمود أبي أميّس أمـر ـ بعد أسبـوعين من تـوليه السلطة ـ أحمـد القرمـانللي بـالذهـاب ضمن بعثـة إلى غـريـان. حيث تلقى أعـوان أبي أميس الأمـر بقتله هناك. وقد تسرب الشـك إلى نفس أحمد القـرمانللي من أمـر هذه البعثـة فعاد أدراجـه ووصل إلى طـرابلس[٨] يوم الثلثـاء ٢٨ يوليـو ١٧١١ ـ وهـو يـوم سوق المدينة[٩] ـ وكان أهالي المنشية والساحل الموالين له، قد نادوا به حاكماً، وساعدوه على محاصرة المدينة التي كان له بداخلها أيضـاً بعض المؤيدين والمنـاصرين. وفي مساء اليوم نفسـه فتحت المدينـة أبوابهـا للزعيم المنتصر أحمد القـرمانللي، وقتـل محمود أبي أميّس نفسه حتى لا يقع في يد عدوه[١٠].

واكتفى أحمد القرمانللي بلقب (بك) وقيـادة الجيش، وترك يـوسف المكني لمنصب الداي بالقلعـة. وكان يـوسف قبل ذلـك ـ في عهد محمـد باشـا الإمام ـ قائداً لسلاح الفرسان[١١]. وانسحب أحمدم القـرمانللي إلى المنشية، ولكن أحداثـاً جديدة طارئة جرته إلى العمـل والتصرف. إذ كان عـلى السيادة القـرمانلليـة أن تؤكد نفسها إزاء خـطرين: يتمثل أحـدهما في شخص خليـل باشـا الذي أقصي عن الحكم في سنة ١٧٠٩، وعادت نفسـه إلى التطلع إلى الاستيـلاء على الحكم بمساعدة الأتراك. أما الخطر الثاني فهو متمثل في الاضطرابات القائمة بين سكان الدواخل. وقد انتصر على الخطـرين حظ أحمد القرمانللي وصموده.

---

(٧) يـرى فيرود ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ أن محمـود أبي أميس نفسه كـان عربيـاً وأن سكان طـرابلس من العرب قد بادروا إلى مبايعته.

(٨) ابن غلبون ص ١٦١ ـ فيرود ص ٢١٠ وهو يؤكد أن ذلك قد وقع في ٢٧ يوليو.

(٩) لعله سوق الثلثاء الواقع شرقي المدينة في ذلك الوقت.

(١٠) لا يقـول ابن غلبون إنـه قد انتحـر. وقد استخلص هـذا الخـبر فـيرود ص ٢١٠ من رسـالـة للقنصل الفرنسي بولارد بتاريخ ١ أغسطس.

(١١) ابن غلبون ص ١٦١ ـ فيرود ص ٢١٠.

كان خليل باشا الموفد من السلطان قد وصل في أوائل أغسطس ١٧١١ إلى ميناء طرابلس، تصحبه فرقة بقيادة (الملا إبراهيم) الذي نزل إلى المدينة صحبة المندوب السلطاني (Qapïgï Bash) وعقد اجتماعاً للديوان بحضور الداي ورجال البحرية، وناقشهم في الوضع مناقشة طويلة. وقرر الطرابلسيون عدم القبول بخليل باشا. وربما رشوا المندوب السلطاني ليقوم بإبلاغ رغبتهم إلى السلطان ورفضهم لولاية خليل باشا عليهم[١٢]. ولكن خليل باشا لم يتزحزح عن هدفه، فتابع السفر حتى زوارة، حيث أنزل ثمانمئة شخص. واستطاع أن يكسب بالمال تأييد عرب السهل، خاصة أولاد نوير، وزحف على المدينة براً[١٣]، وأمر الأسطول بالتوجه إلى محاصرتها بحراً. وأرسل أحمد القرمانللي جيشه المكون من القولوغلية والعرب. ووقع الصدام في منطقة قريبة من زواغة[١٤]. وهزم خليل باشا وألقي عليه القبض، وقتل، ونقل رأسه فوق حربة إلى طرابلس يوم السبت ٢٩ أغسطس ١٧١١.

وبعد أن توقفت السفن أمام طرابلس، مدة تقرب من أسبوعين، عادت أدراجها إلى تركيا[١٥]. وكان من المؤكد، إذ ذاك، أنه كان يعد لتلك المذبحة العامة للأتراك، في سبيل التخلص من آخر خلايا الإنكشارية، ويفسح الطريق للعمل الحكومي. وهي المذبحة التي نجد شبيهاً لها في تلك المذبحة التي أقامها محمد علي بمصر للمماليك، بعد قرن من الزمن. كان أحمد القرمانللي يمتلك بالمنشية، قرب سيدي الهاني، قصراً خاصاً. وقد دعا إليه الجنود والضباط الأتراك فقتلهم جميعاً، واحداً تلو الآخر، فكلما دخل واحد منهم (السقيفة الطويلة)

---

(١٢) فيرود ص ٢١٠ - ٢١١.

(١٣) فيرود ص ١٥٤.

(١٤) وليست الزاوية كما يقول فيرود ص ٢١٢.

(١٥) ابن غلبون ص ١٩٢ - فيرود ص ٢١١ - ٢١٢. وفي سجل وقائع الإرسالية الفرنشسكانية (ص ٩٢ من المخطوط) أنه في مارس ١٧١١ اعتنق الإسلام أكثر من خمسين أسيراً مسيحياً، ولكن بعد ستة أشهر من ذلك، قطعوا إرباً إرباً بزواغة (طرابلس القديمة) لانحيازهم إلى جانب خليل بك.

قطع رأسه حتى أتى عليهم جميعاً. ويقال إنهم كانوا حوالي ثلاثمئة رجل. وفي نفس الوقت قامت في المدينة وضواحيها حملة ملاحقة للعناصر التركية أو الموالية للأتراك[١٦]. ولكي يبرر أحمد القرمانللي هذه التصرفات تجاه السلطان أحمد الثالث، أرسل وفداً برئاسة أحمد بن عثمان، مع هدايا ثمينة وعرائض الجند والأهالي، تلقي ضوءاً على سوء تصرفات خليل باشا وافتراءاته على (المتمردين) الذين طردوه من البلاد[١٧].

وفي العام التالي (أغسطس ١٧١٢) وصل إلى طرابلس الريس محمد باشا الملقب (بجانم خوجة) موفداً من السلطان أحمد للاطلاع على الحالة في طرابلس. وقد استقبله أحمد القرمانللي في المدينة، ولكن أحاطه بعدد من المخبرين وراقبه مراقبة صارمة، وأخمد كل الفتن التي كانت تطل برؤوسها حتى انتهى المندوب من مهمته، وأكمل إقامته، وودعه بكل مظاهر التكريم والمجاملة[١٨].

٣ ـ حملات ضد الدواخل وأخرى بفزان وبرقة

بعد أن اطمأن أحمد القرمانللي إلى الخارج[١٩]، اتجه بجهوده للعمل ضد العرب في الدواخل. ففي صيف ١٧١٣ انتفض سكان تاجوراء، بالتحالف مع سكان ترهونة وقسم من أولاد حامد بن جارية. وقد تمكن من التغلب عليهم، والدخول إلى تاجوراء وترك شقيقه الحاج شعبان بن يوسف حاكماً عليهم. وكان يشغل منصب قائد الفرسان، وبعد ذلك قام المتمردون بمهاجمة الحاج شعبان في

(١٦) اعتمد المؤلف على كتاب عشر سنوات في بلاط طرابلس للمسز تولي من تلخيص (ا. سافين: طرابلس في القرن الثامن عشر) باريس ١٩١٢ ص ٤٣ باللغة الفرنسية.

A. Savine, Tripoli au XVIII siècle, Paris 1912 p. 43.

(١٧) ابن غلبون ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(١٨) ابن غلبون ص ١٩٣ ـ فيرود ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

(١٩) يرى فيرود ص ٢١٨ أنه بعد ذلك بقليل قدم على البلاد المدعو (باكير) وهو أحد الباشوات الموفدين من الباب العالي، ولم يكن حظه بأحسن ممن تقدموه ولم يتمكن حتى من النزول إلى البر.

قلعة تاجوراء التي دافع عنها حتى أدركه أخوه بجيش قوي مؤلف من سكان الساحل والمنشية. ووضعت تاجوراء مرة أخرى تحت قبضة الحديد والنار، وفرضت عليها الضرائب الفادحة حتى لا تكون قادرة على العصيان[٢٠].

وفي نهاية ١٧١٣ ثار حسين القولوغلي، وانتقل إلى مسلاتة حيث حصل على عون ترهونة، بقيادة بن منصور الترهوني. فنهض لهم أحمد بك بنفسه فشتتهم وأحرق نجوعهم وأرغمهم على اللجوء إلى الجبال[٢١]. وثمة متمرد آخر يعرف (بابن عشرين) قد لقي نفس المصير مع بعض زعماء العائلات المشهورة التي تضامنت معه.

وكان هناك مشاغب خطير آخر هو علي بن عبد الله بن عبد النبي الصنهاجي المعروف باسم (أبو قيلة)[٢٢] وهو ينتمي إلى أسرة تحترف النهب، وقد سبق أن أشرنا إليه في الأحداث الماضية. وقد قام في سنة ١٧١٥ بمهاجمة المناطق الجنوبية الشرقية من إقليم طرابلس الغرب. وارتكب أعمال عنف ضد أولاد خليفة الذين قتل منهم ستمائة رجل، وكذلك فعل مع أولاد نصر، كما انتهك أعراض النساء، وجمع حوله كثيراً من الأتباع والمناصرين، مدعياً أنه (المهدي). وقد بلغ برقة، وجنوب الجبل الأخضر، واستولى على قافلة كانت تحمل خراج واحة أوجلة إلى طرابلس. وقد نهض أحمد بك للقائه في منطقة الزعفران قرب سرت وهاجمه بغتة فاكتسح معسكره. وتمكن علي من الفرار من هذه المذبحة التي وقع فيها أخوه عبد النبي. وقد عاد أحمد بك إلى طرابلس منتصراً واستقبل استقبالاً رائعاً في مطلع سنة ١٧١٦[٢٣]. وما كاد يستريح قليلاً بطرابلس حتى

---

(٢٠) ابن غلبون ص ١٩٣.

(٢١) ابن غلبون ص ١٩٤.

(٢٢) روسي: الشعر الشعبي بطرابلس الغرب ـ مجلة (تريبوليتانيا) ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ ص ٢٤٣. ولقد أصبح أبو قيلة مضرب المثل في السطوة والقوة.

(٢٣) ابن غلبون ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

إن كثيراً من هذه الأحداث المرتبطة بإعادة سلطة الحكومة على الدواخل، وكذلك الأحداث التي وقعت بين ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨ أثناء العهد العثماني الثاني، تذكرنا، مراحل الاسترداد التي تمت في العهد الايطالي ١٩٢٢ ـ ١٩٣٠. فمناطق سرت ومصراتة وترهونة تتردد غالباً في أخبار الاضطرابات الداخلية. كما كانت سرت على الدوام المهد الرئيسي للثورات.

أغـراه (المكني) بقيادة حملة عـلى فزان التي رفضت في ذلـك الوقت دفـع الخـراج. وقد قام أحمد القرمانللي شخصياً بقيادة هذه الحملة في سنة ١٧١٦، وبلغ مرزق وحاصرها مدة تقرب من عشرة أيام، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار والرجوع إلى طرابلس، بعد أن ترامت إليه الأنباء بوقوع اضطراب بها في نهاية ١٧١٦. وقـد لحق بـه مندوبـون من صاحب فـزان يعلنـون خضـوعهم ويتعهـدون بـالتقيـد بالشروط القائمة.

وفي خـريف ١٧١٨ قاد أحمـد القرمـانللي حملة على صـاحب فـزان بعـد أن (ظهر منه من قلة الأدب ما يوجب التوجه إليه) حسب تعبير المؤرخ ابن غلبون. ولعله عنى بهـذه العبـارة رفض دفـع الخـراج. وفي نفس الـوقت هـزم أخـوه شعبان، علي بن عبـد النبي في منطقـة (دريدر) قـرب مزدة. بعـد أن حاول منْ جديد الخروج على سلطة الدولة. ولم يستطع أحمد القرمانللي في هذه الحملة أن يسيطر على مـرزق التي أغلقها السلطان في وجهـه. وانتقامـاً من الأهالي الـذين رفضـوا الخضـوع، أبـاح لجنـده وأعـوانـه نهب البـلاد التي لم تستجب لـه مثـل القـطرون (إقليم تحت ولاية صـاحب فزان، كثـير النخل والـزراعة، يـرده أهل كاوار ومن حوله من جفاة السودان وأهل النوبة).

وكـان الجيش الذي أرسـل إلى القطرون بقيـادة إبراهيم الـترياقي الـذي أصـاب غنائم وافـرة اختصها لنفسـه[٢٤]. كان صـاحب فزان في ذلـك الـوقت محمـد ناصر الـذي كان قـد أرسله إليها محمـد الإمام بـاشـا (المعـروف بشـايب العين).

وقد مات محمـد ناصر في سنـة ١١٣١ هـ (١٧١٨ - ١٧١٩) فخلفه ابنـه أحمد ناصر الذي وجه إليه أحمد القرمانللي في سنـة ١١٤٤ هـ (١٧٣١ - ١٧٣٢) حملة سار فيها ابنه محمد بك قائد الفرسان، وابنه محمود، على رأس المشاة، ثـم دعمها بعد ذلـك بالقائد خليـل بن خليل. وقـد أصيب أحمد نـاصر بالـرعب، فطلب الصلح والتزم بـدفع الخـراج ومصاريف الحملة. وعلم أحمـد القرمـانللي

(٢٤) ابن غلبون ص ١٩٦ - ١٩٧.

بذلك فأرسل قوة أخرى بقيادة الكاهية حسن الأحمر، يحمل أمراً إلى ابنه بأن لا يعود دون صاحب فزان.

واستسلم أحمد الناصر وابنه، وجاء إلى طرابلس حيث أقام أحمد القرمانللي حفلة غريبة، بحضور أعضاء الديوان، باع فيها صاحب فزان بفلسين إلى ابنه محمد بك، ثم أمره بالعودة إلى حكم فزان باسمه. وكلف رجب بن الحاج أحمد بن مصطفى بيري بمرافقته. والقيام بتدمير أسوار مرزق. وقد أعيد بناء الأسوار فيما بعد، في عهد محمد باشا، خليفة أحمد باشا وابنه[٢٥].

ووقعت في برقة أيضاً اضطرابات وحركات عصيان. ففي عام ١١٣٢ هـ (١٧١٩ ـ ١٧٢٠) كان يحكم درنة وبنغازي وجبال برقة الحاج شعبان القرمانللي أخو أحمد القرمانللي. وكان ضمن القواد الذين ساروا في ركابه إلى برقة إبراهيم الترياقي وعلي بن خليل الأدغم وهما من القولوغلية، وإبراهيم بلبيلو. وقد حركهم الطموح وشجعتهم دعوات المدعو مفتاح بن عبد الرحمن الأصفر الذي كان يدعي معرفة المستقبل. فأغراهم ذلك بالثورة والحصول على اعتراف قسم كبير من الأهالي. وقد تحرك القائدان المتمردان من برقة نحو الغرب، وأرغما القبائل الواقعة في طريقهما على الطاعة ودفع الضريبة. وقد تمكنا من الاستيلاء على تاورغاء وأسرا القائد المحلي، وحاولا أسر حسين أغا المكلف بجباية الضرائب، ولكنه تمكن من الفرار إلى طرابلس، وواصلا السير نحو الغرب، حتى وصلا مصراتة، واستمالا الأهالي إلى جانبهما، واستوليا على البارود والرصاص المخزن بقصر أحمد (مصراتة البحرية) والمعد للدفاع عن تلك المنطقة ضد هجمات السفن المسيحية، وجمعا إلى صفيهما بعض المشاغبين الذين يدعون معرفة الخبايا، وزحفا على تاجوراء حيث واجههما فرسان أحمد القرمانللي فشتتوهما. ثم أعلن أحمد القرمانللي العفو عن جميع المتمردين عدا الزعيمين علي بن خليل وإبراهيم الترياقي، وقد فر الأول إلى مصر وتاه الآخر في وحشة الصحاري الداخلية[٢٦].

---

(٢٥) ابن غلبون ١٩٦.

(٢٦) ابن غلبون ص ١٩٧ ـ ١٩٨ (١٦٣ ـ ١٦٤).

وحاول (جانم آغا) الذي أشرنا إليه فيما تقدم، والذي قدم إلى طرابلس كمبعوث للسلطان، بعد جلوس أحمد القرمانللي على كرسي الحكم، حاول أن ينشيء سيادة على برقة، وأن يتحرك منها لاحتلال طرابلس. وكان قد رقي إلى رتبة كابودان باشا، أي أميرال الأسطول العثماني التابع للسلطان أحمد الثالث ١١٢٦ هـ (١٧١٤ - ١٧١٥) وقد عزل بعد ذلك، ونفي إلى (كانديا) بكريت، بعد ثلاثة أعوام من تعيينه. وهناك تمكن من الاستيلاء على سفينة تركية، وشحن فيها كنوزه وأمواله، وحاول بمساعدة بعض المغامرين من جماعته الاستيلاء على أي مقاطعة من ولايات إفريقيا الشمالية[٢٧].

وفي سنة ١١٣٣ هـ (١٧٢٠ - ١٧٢١) استولى على برقة، واعترف به كثير من زعماء البدو، ومنهم عبد الله أبو طرطور الجبالي، وصالح بن سليمان، وسليم بن خالد بن موسى وغيرهم من زعماء الجبل الأخضر، ومرتفعات برقة. وبعث إليه أحمد القرمانللي حملة بحرية تمكن من التغلب عليها[٢٨]، ثم أرسل إليه قوات برية أخرى عن طريق ساحل سرت، تحت قيادة المدعو إبراهيم، واستطاعت الحملة في هذه المرة أن ترغم جانم خوجة على مغادرة برقة في ربيع ١٧٢١. وحاول المغامرة من جديد، عند السواحل الغربية، وانتقل ببعض السفن إلى زوارة، ولكنه لم يجد من الأهالي المساعدة المنتظرة فتخلى عن فكرة الاستيلاء على طرابلس[٢٩].

---

(٢٧) A. Refik, Tarikhi Sïmalar Costantinopoli 1331. p. 126 - 136.

(٢٨) ابن غلبون ص ١٩٨.

(٢٩) فيرود ص ٢٢٥ - ٢٢٦ - سانت إيللر، ويتحدث هذا المصدر (ص ٦٩) عن جانم خوجة الذي عزله السلطان فحاول المغامرة باحتلال طرابلس، وقد دعاه إلى ذلك سكان طرابلس وساعدوه ثم تخلوا عنه بعد ذلك بسبب وعود مغرية من والي طرابلس. وحاول جانم خوجة الاستيلاء على تونس ولكنه انتهى إلى اللجوء إلى قراصنة الجزائر الذين استضافوه. وحاول أيضاً أن يعقد اتفاقاً مع فرسان مالطا للقيام بحملة على تونس. وفي سنة ١١٤٣ هـ (١٧٣٠ - ١٧٣١) عفا عنه السلطان، وتولى قيادة الأسطول لمدة سنتين ثم عزل ودعي للمرة الثالثة لاستلام نفس المنصب (١١٤٥ هـ) (١٧٣٢ - ١٧٣٣). ولما كان قد أسن وبلغ التسعين فقد نفي في ١١٤٩ هـ (١٧٣٦ - ١٧٣٧) إلى (كوتاهية) بالأناضول. وكان صديقاً لسفير فرنسا المركيز (فيلانيف Villeneuve) وكانت بينهما مراسلات باللغة الفرنسية (ا. رفيق).

وفي سنة ١٧٢١ حيكت مؤامرة بقيادة المدعو ابن الرايس الذي انضم إليه بعض بني علوان، على الأسرة القرمانللية. ولكن المؤامرة التي دبرت ضد شخص أحمد باشا قد منيت بالفشل، وقتل أخوه الحاج شعبان بمنزله، وهرب ابن الرايس، ولجأ إلى بدو المحاميد. وقد قام بالتعاون معهم في سنة ١١٣٥ هـ (١٧٢٢ ـ ١٧٢٣) بمهاجمة إقليم سرت، وظل يسيطر عليه حتى هزمه إبراهيم القائد الجديد للفرسان، بعد أن خذله البدو، فأسر ونقل إلى المدينة، حيث نفذ فيه حكم الإعدام[٣٠]. وفي ربيع سنة ١٧٣٣ اجتاح المدينة وباء الطاعون، ومات فيه أكثر من أربعة آلاف نسمة. وفي العامين التاليين قاست طرابلس وبرقة كثيراً من أثر الجفاف والمجاعة الناشئة عنه[٣١].

٤ ـ القرصنة والعلاقة بين الدول المسيحية والقسطنطينية

كان لا بد أن يحتاج أحمد باشا إلى المال الكثير لكي يوسع لأتباعه في الرزق، ويقوم بالتزامات الحملات الحربية المتكررة. وكانت الوسيلة الرئيسية لتوفير الثروة في ذلك الوقت هي القرصنة. وقد ترك أحمد باشا الحرية لرؤساء بحريته في التصرف، حتى ضد سفن الدول الكبيرة التي تقوم بينه وبينها معاهدات صداقة وتبادل تجاري. رغم علمه بضرورة عدم إثارة الدول الكبرى، ودفعها إلى اتخاذ إجراءات رادعة ضده. وهكذا استولى القراصنة الطرابلسيون في سنة ١٧١٣ على سفينة فرنسية محملة بالزيوت، وجاء إلى طرابلس في العام التالي الكابتن (دوكين Duquesne) وحصل على ترضية مناسبة. وقد كان هذا الكابتن ابناً للأميرال دوكين الكبير. ولكي يظهر أحمد باشا حسن نواياه ومشاعره الطيبة نحو فرنسا، أرسل وفداً يحمل هدايا إلى ملك فرنسا تتألف من خيول ونعام وغزلان[٣٢]. وتجدد الصلح بين فرنسا وطرابلس

(٣٠) ابن غلبون ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ (١٦٥ ـ ١٦٦).

(٣١) فيرود (الحوليات) ص ٢٣٨ ـ ٢٤٢.

(٣٢) فيرود ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ـ برنيا ص ٢٢٧ ـ وبخصوص العلاقات مع فرنسا انظر دراسة: ر. ميكاكي العلاقات بين مملكة فرنسا وإيالة طرابلس الغرب في النصف الأول من القرن الثامن عشر ـ المجلة الاستعمارية الإيطالية ١٩٣٤ ـ ص ٦٥ ـ ٨١ ـ ١٥٩ ـ ١٨٢ ـ ٢٤٧ ـ ٢٧٦.

في سنة ١٧٢٠ على أساس الاتفاقية المبرمة في ١٦٨٥ . ولا بد أن نلاحظ النص الذي تضمنته المادة السادسة والعشرون والذي يقضي باعتبار الآباء المسيحيين والمبعوثين من أعضاء الإرسالية، أياً كانت الدول التي ينتمون إليها، رعايا لملك فرنسا مشمولين بحمايته، بحيث لا يتعرضون لمضايقة في أشخاصهم أو ممتلكاتهم أو كنائسهم(٣٣). وتعكر صفو العلاقات السلمية التي اتفق عليها في سنة ١٧٢٠ إذ نهبت سفينة تابعة لمارسيليا عام ١٧٢٢ . وطالت المفاوضات من أجل تسوية الحادث، ودفعت هذه المماطلة فرنسا إلى إرسال سفينة حربية في ١٧٢٥ بقيادة الكومندان (دي واتن De Wattan) وفي سنة ١٧٢٧ بقيادة الكومندان (دي مونس De Mons) وفي يوليو ١٧٢٨ بقيادة الأميرال (غراندبريه Grandpré) وقد قام هذا الأخير خلال الأيام الواقعة بين ٢٠ - ٢٦ يوليو بقصف المدينة، فأحدث بها أضراراً بالغة(٣٤). وسافر قبل أن يقرر الطرابلسيون قبول الاتفاق، إذ لم يتم التوقيع على اتفاقية صلح جديدة إلا في يوليو ١٧٢٩ ، وقد أعاد الطرابلسيون بموجبها السفن المنهوبة ودفعوا تعويضاً، وطلبوا العفو من ملك فرنسا(٣٥).

وفي سنة ١٧٣١ ، وبينما كانت تمر بطرابلس فرقة من الأسطول التابع لملك فرنسا، نزل بطرابلس المركيز دانتين D. Antin وأجرى محادثات مع الباشا حول تنفيذ الاتفاقيات المبرمة، بعد الغارة على المدينة(٣٦)، وقامت انجلترا في سنة ١٧١٦(٣٧) بتأكيد نصوص اتفاق سنة ١٦٦٧ فأوفدت في سنة ١٧٣٠ الأميرال

---

(٣٣) روارد دي كارد ص ٢٥٥ -.

(٣٤) Univers Pictoreque Algérie ecc·Paris 1850 p.1101.

(٣٥) روارد دي كارد ص ٢٧٤ - فيرو ص ٢٢٧ - ٢٣٦ وقد أفاض فيرود في وصف هذه الأحداث.

(٣٦) Nouveau voyage fait en Levant les années 1731 et 1732 par le sieur Tollo Paris 1742. P. 96 - 104.

(٣٧) يوجد النص التركي للاتفاق محفوظاً لدى القنصلية الإنجليزية وهو لا يطابق تمام المطابقة النص الذي نشره (هرتسلت).

(كـافانـديش Cavendish) لتأكيـد نفس نصوص الاتفـاق السابق[٣٨]. واهتمت هـولاندا أيضـاً اهتماماً كبيراً بـالاحتفاظ بعـلاقات طيبـة مع طـرابلس، حمـايـة لنشاطها البحري الذي كـانت تمارسـه بالشرق. ووقعت سنـة ١٦٨٣ اتفاقيـات صـداقـة، ثم جـددتهـا في سنـــة ١٧٠٣. وفي ١٢ سبتمـبر ١٧١٢ وصلت إلى طـرابلس ثلاث سفن هـولانديـة بقيـادة نـائب الأمـيرال (بـترسـون Peterson) فجـدد العلاقـات الطيبـة مع طـرابلس، وأهدى مئـة قنطار من البـارود وأربعة مدافع من البرونز. وفي أكتوبر ١٧٢٨ أبرمت هولانـدا اتفاقيـة سلم جديـدة مع أحمد باشا القرمانلي الذي أرسل مندوبـاً طرابلسيـاً إلى لاهـاي لتـأكيد مشـاعر الصداقة التي يكنها الطرابلسيون للهولانديين. وقد عاد المندوب يحمل إلى سيده أربعـة آلاف فيورين وألفـين لنفسه وخمسـمائة لسكـرتيره. ولا بـد أن نلاحظ أن الهدايا النقدية، وكـذلك هـدايا المـدافع والـذخيرة، التي كـانت الدول الكـبرى تشتري بها السلم، في ذلة وصغار، إنما كانت تستخدم في إعادة تنظيم القرصنـة البحرية[٣٩].

وفي سنـة ١٧٤٣ أرسلت بعثة طـرابلسية ثـانية إلى هـولانـدا، واستقبلت استقبالاً حسناً كما أحيطت بكل مظاهر التكريم.

وأقيمت مع النمسا علاقات صداقة، بفضل وساطة حكومة القسطنـطينية. وفي سنـة ١٧٢٦ عقـدت اتفـــاقيـة تمّ بمـــوجبهـا ضـــمان سفن الإمـبراطـــور من التعرض لانتهاكات القراصنـة. وامتد الضـمان وتوسـع حتى شمل سفن نـابولي وصقليـة وتوسكانا[٤٠]. وقد وصـل أول قنصل نمسـاوي إلى طرابلس في ١٧٢٩

---

(٣٨) يوجد نص الاتفاقيتين باللغتين الإنجليزية والتركية بمحفوظات القنصليـة الإنجليزيـة بطرابلس بتاريخ ٣ رمضان ١١٤٣ هـ (١٢ مارس ١٧٣١) ويحمل توقيعات أحمد باشا (ميرميران) ونعمان (محافظ) ويوسف (أمير ألاي). إما لقب الداي الذي كان ما يزال موجوداً حتى سنة ١٧١٦ فقـد اختفى ولم يعد له وجود في تاريخ طرابلس منذ ذلك الحين.

(٣٩) فيرود ص ٢١٧ ـ ٢٣٣.

(٤٠) نص الاتفاق المبرم بين شارس السـادس وامبراطـور النمسا وحكـومة طـرابلس نشره نقلاً عن اللغة اللاتينية دي لونغو في كتابه: صقلية وطرابلس المنشور في كـاتانيـا سنة ١٩١٢ ص ٦٧. =

وهو (جيوسبي مـاير Giuseppe Mayer)[٤١]. وكـان الصلح الذي عقـده شارل السادس قد أثار شعوراً من الأسى لـدى (لودفيـج موراتـوري الأكبر Ludovico Muratori) الذي وصم الدول المسيحيـة بالعـار في حوليـاته عن سنـة ١٧٢٦، لأنها بدلاً من أن توحد قواهـا (لسحق أوكار أولئـك القراصنـة الملاعـين، كانت تـذهب لاستجداء صـداقاتهم الغـادرة بـالـرجـاء والهـدايـا، إن لم نقـل بقبـول الجزية)[٤٢].

وفي سنة ١٧٤٢ وقعت خلافـات بين أحمـد باشـا وحكومـة نابـولي بسبب سفينة قرصنة طرابلسيـة تم الاستيلاء عليها عند سواحل كـالابريـا. وقد انتقم أحمد باشـا لهذا الحـادث بأسر بحـارة سفينتين نـابولتـانيتين كـانتا راسيتـين بميناء طرابلس في ذلك الوقت. وقبض على القنصل النابوليتاني وأسره. ولم تتم تسـوية الحادث إلا في العام التالي، بعد أن قدمت حكومة نابولي الترضية المطلوبة[٤٣].

ونشأت أيضاً خـلافات بـين مالـطا وطرابلس. وكـان ذلك أمـراً طبيعياً، إذ كـان من أهم أهـداف نـظام فـرسـان مـالــطا مـطاردة المسلمـين. وفي ١١ أبـريل ١٧٢٣ استـطاعت إحدى سفن مـالطا القبض عـلى سفينة طـرابلسية في (ليكاتا Licata). وبعد أيام قليلة من ذلك، علم المرشد الأكبر لفرسان مالطـا أن سفينة تركية استولت عند بنتالاريا على قـارب تابـع لمدينـة جنوا وآخـر تابـع لصقليـة كانـا محملين بالملح. فـأمر سفنـه بـالخـروج إلى عـرض البحـر والقيـام بعمليـات مطاردة للسفن الـتركية. وقـد قامت الفـرقيـطة سـان فنشنسـو بقيـادة الفـارس (دي كامـبري De Chambray) بمهاجمــة سفينـة معـاديـة كـانت في الواقع السفينة الرئيسية (باترونا) لطرابلس. واضطرتها إلى الاستسلام، واقتادتها إلى مالطا، بعد معركة استغرقت أربع ساعـات. وكانت تتـوفر عـلى ٤٨ مدفعـاً

= والاتفاق موقـع بتاريـخ ذي القعدة ١١٣٩ من قبـل (أحمد) والي طـرابلس و(ابراهيم) حـامل العلم و(مصطفى) محافظ المدينة و(علي) قائد الإنكشارية و(حسين) قائد الجند.

(٤١) أنظر فيرود حول الأحداث الغريبة التي أحاطت بالقنصل النمساوي مايير ص ٢٣٧.

(٤٢) لونغو (صقلية وطرابلس) ص ٦٣.

(٤٣) فيرود ص ٢٤١.

وتحمل أربعمائة رجل. فأسروا منهم ٢٦٧ رجلاً، منهم عشرون من أسرى الطرابلسيين، وأطلقوا سراح ٣٣ عبداً مسيحياً وماتت البقية في المعركة. وقد فقد المالطيون أربعة من رجالهم وجرح عشرة منهم جروحاً خطيرة[٤٤].

وفي أكتوبر ١٧٣٧ استولى القس (فردينـاند دلشي Ferdimando d'Elci) عند مياه (رأس باسيرو Capo Passero) على سفينة طرابلسية من نـوع (ترتـانا) مسلحة بأحد عشر مدفعاً واثنتي عشرة قاذفة حمم وبها ٤٥ تـركياً واثنـان من أحداث الإسلام، أحدهما الرايس بروفنسـالي. والثاني من لـوكا. وأربعة أرقاء مسيحيـون (صقلي وبـروفنسالي وكـالابري والآخـر من خليج فينيسيـا على بحـر الأدرياتيك).

ومع ذلك كلـه فإن العلاقات بين القرمانللية وفرسان مالطا خلال القـرن الثـامن عشـر كانت طيبـة إلى حد مـا، وكانـوا يتبادلـون الهدايـا والمجـامـلات والمراسلات الودية، وكانت الحوادث التي تقـع دون قصد، من حـين إلى آخر، بين سفن الدولتين، تحل بصفة سلمية[٤٥].

وفي مارس ١٧٢٢ حصل أحمد باشا من القسطنطينية على تعيينه الـرسمي والياً على طرابلس[٤٦] وقد منح لقب (ميراميران، ولقب باشا)[٤٧].

٥ ـ شخصية أحمد باشا القرمانللي

كان ذلك الرجل الذي أقدم في برودة على ذبح الإنكشاريـة الطرابلسيـة،

---

(٤٤) Relazione della pre sa fatta della Patona di Tripoli... dal Sig. cap. cav. De Chambray il 13 maggio 1723 ms. nella Bibl. Naz. di Fireze.
Palatino 882, X,2.
ويوجد تقرير مخطوط بأرشيف مالطا. Libri Conc. Status vol 267 fol 267

(٤٥) أنظر أيضاً تاريخ البحرية الخ.. روسي ص ٨٦.
Rossi, Corrispondenza tra i Gran maestri ecc. (Eo in Riv. degli Studi Orientali) X 1925 p. 414 - 432.

(٤٦) فيرود ص ٢٢٦.

(٤٧) **J. Deny**, art. cit. in Mélanges René Basset II p. 62 - 63.

وثبت لكثير من الهجمات، وقاد بنفسه جيوشه في كثير من المعارك التي انتصر فيها، يتوفر على طاقة لا تنفد، تكمن عادة في نفوس المؤسسين للسيادة والحكم العائلي. لم يكن أحمد باشا بالشخصية المتعلمة المثقفة، ولكن سطوته وكرمه جذبا إليه المتعلمين والدارسين الذين تجمعوا حول بلاطه. وكان الهدوء النسبي الذي ساد البلاد، بعد سنوات طويلة من الاضطرابات الداخلية، قد ساعد على إحياء الدراسات الدينية وبعثها[٤٨]. وكانت مدائح الشعراء تضفي على الأمير الطرابلسي هالة من السيادة والملكية التي يبدو أنها لم تحط بأحد من الحكام الذين تعاقبوا في الماضي على حكم البلاد، في تلك العصور التي اتسمت بالانهيار السياسي والروحي. وقد خص الشاعر الشريف أبو عبد الله بن العربي، الأمير القرمانلي بقصيدة مدح تجري على النسق العربي التقليدي، وقد استهلها بقوله:

لك الخير عرج بي على طلل الربع ... محط المنى مغني الكمي المقنع

وختمها بقوله:

أديب أريب فاضل متعفف ... نجيب حسيب عالي القدر أروع
أقول لأصحابي عليكم بأحمد ... أفاد فجاد بالحباء المنوع
فكم أضحك المحزون من نقش رسمه ... وأبكى جريئاً بالشكاسة مولع
أتيت وجيش الهم جر خميسه ... فقهقر جنبا من حسام مروع
اليك أبا الأمداد حنت مطيتي ... وأمالها سفن وجسمي بموضع
لها منك حاجات وفيك فطانة ... سكوتي بها خير لكم من توجعي[٤٩].

كان من ثمرات الرعاية التي أضفاها أحمد القرمانلي على العلماء تلك الدراسة التاريخية عن طرابلس التي قام بها أبو عبد الله محمد بن غلبون الذي

(٤٨) يؤكد ابن غلبون ص ٢٠٠ ـ ٢٠٦ ازدهار مدرستي طرابلس وتاجوراء. ويذكر من علماء العصر أبا عبد الله محمد بن مصطفى الماعزي وهو من القولوغلية، وقد درس بمصر ورجع إلى طرابلس، وقد كرمه الأمير القرمانلي وساعده على تشييد زاويته المعروفة باسمه في المنشية. كما يذكر أبا عبد الله النعاس بتاجوراء وعلماء أسرة المكني.

(٤٩) ابن غلبون ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦ وكذلك (المنهل العذب) للنائب ص ٢٩٥.

ينتمي إلى أسرة عربية كبيرة بمصراتة. فقد ألف في سنة ١٧٣١ - ١٧٣٢ كتابه (التذكار في من ملك طرابلس ومن كان بها من الأخيار) وقد دفعه إلى تأليفه قصيدة أنشدها أحمد بن عبد الدائم الأنصاري، وفي الرد على هجاء شخص مجهول، يعتقد أنه من فزان، لطرابلس والطرابلسيين، وهي تتألف من خمسة وعشرين بيتاً تتضمن خلاصة للوقائع البارزة في تاريخ طرابلس. وحول هذا الموضوع نسج ابن غلبون تاريخه الذي يبدأ بالفتح العربي حتى يصل إلى العام العشرين من عهد أحمد القرمانللي. ويروي لنا المؤلف أنه قد اختلف مراراً مع ممثلي الحكومة في مصراتة، حيث كانت لأسرته زاوية خاصة، يدرس بها، وأنه قد لجأ غالباً إلى الباشا الذي كان يحسن استقباله، وحين هطلت أمطار غزيرة في صفر ١١٣٩ هـ (٢٨ سبتمبر - ٢٦ أكتوبر ١٧٢٦) غمرت الفيضانات مصراتة وهدمت المنازل، وأتلفت الحيوانات والمزروعات، أظهر أحمد باشا القرمانللي كرماً وسخاء تجاه ابن غلبون، وأعانه بالمال على إعادة بناء الزاوية التي أنشأها هو نفسه. وكذلك أعاد بناء المسجد الذي بناه محمود الخزندار، ووضعه تحت إشراف أسرة ابن غلبون. ومع ذلك فإن هناك تأكيدات بأن ابن غلبون نفسه ذهب ضحية لطغيان الأمير الذي مجده، ولنزواته المتقلبة التي انتهت به إلى الحكم على هذا العالم بالموت[٥٠].

وما من شك في أن بلاط أحمد باشا كان بلاطاً رائعاً مزدهراً، وكثيراً ما يجد فيه ملجأ وملاذاً كثير من الحكام والأمراء المعزولين. وقد توطدت الصداقة في عهده بسلاطين المغرب وإشرافه الذين كانوا يمرون بطرابلس أثناء ذهابهم إلى مكة وعودتهم منها. وفي فبراير ١٧٣١ حلت ضيفة على الباشا زوجة سلطان المغرب المولى إسماعيل وهي المعروفة باسم (للاختاتة) فأكرمها وعاملها معاملة محترمة لائقة بمقامها الكبير، وأنزلها بجناح فخم من قصوره. ولما سافرت قدم لها

(٥٠) أنظر الترجمة التركية لكتاب ابن غلبون ص ٣٥ وكذلك الصفحات من ٨ إلى ١٢ من مقدمة (أتوري روسي) لترجمته الإيطالية لكتاب ابن غلبون.

خمسين بعيراً ووفر لها حراسة كافية، وأمر عمالـه بأن يقـدموا إليهـا كل مـا تحتاج إليه[٥١].

ومن جهة أخرى فـإن التاريـخ يذكـر أن أحمد بـاشا القـرمانلي قـام في سنة ١٧٤٢ بقتل الحاج محمد، صهر إبراهيم داي الجزائر، وكان عـائداً من الحـج، واستولى على خيوله التي بلغت مئتين وإبله وكان عـددها مئتـين وخمسين بعيـراً. وأخذ ما كان بحوزته من المال، ويقـدر بحوالي خمسـمائة (زوكيني) ويعتقـد بأنـه فعل ذلـك بتحريض من داي الجزائر نفسه[٥٢].

وقـد أظهر أحمـد باشـا على الـدوام نوعـاً من التسامـح إزاء الفئـات غـير الإسلامية، كما عامل اليهود معاملة إنسانية. وقد ظفروا طوال العهد القرمـانلي بـأهمية تجـارية كـبرى في طرابلس[٥٣]. كـما احترم المسيحيـين وحمى دوماً الـرسل الفـرنشسكان. وفي سنـة ١٧٣٠ حضر إلى طرابلس أحـد القسـاوسـة من هيئـة تخليص الأسرى، قادماً من القسطنطينية، واعتق ثلاثين أسيراً (٢٦ من البنـدقية و٤ من ميلانو) بعد أن افتداهم بمبلغ ١٠٤١٢ دوكاتو وحصل في الخصوص على جواز مرور شامل، كما عامله أحمد القرمانلي معاملة طيبة، تتسم بالمجاملة[٥٤].

---

(٥١) ابن غلبـون ص (٢٠١). كانت طـرابلس تحتفظ بعلاقـات مع البلدان الشرقيـة والغربيـة من إفريقيا الشمالية، خـاصة فيـها يتصل بمـرور قوافـل الحجيج، وقـد كلف مولاي عـلي بن محمد (سلطان المغـرب) بحمل هـدية من والـده سلطان المغرب إلى أمـير طرابلس أثنـاء مروره بهـا للحج في سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ ـ ١٦٦٩) نقلاً عن كتاب الاستقصاء للناصري.

(٥٢) فيرود ص ٢٤١.

(٥٣) ن. سلوش (رحلة من أجـل الدراسـات اليهـوديـة في إفـريقيـا) بـاريس ١٩٠٩. أدى وصول الاسبان إلى طرابلس إلى القضاء على الجالية اليهودية في سنة ١٥١٠، وقد أعـادت بناء كيـانها في النصف الثـاني من القرن السـادس عشر وتشكلت من عناصر من جبـل نفـوسـه وغـريـان وزليطن واسبانيـا وليفورنـو. وكانـوا يعيشون منعـزلين بحيهم المعـروف (الحارة) ولهم (قـائد) يضبط علاقاتهم بالحكومة. وقد أخذوا بعد ذلك يستولون تدريجياً على مقـاليد الاقتصـاد وشؤون الصناعة مثل صناعة المعادن الثمينة.

N. SLousch, Un Voyage d'études Juives en Afrique Paris 1909.

(٥٤) Rossi, Una missione de Redentoristi a Tripoli di Barberia nel 1730 in Riv. degli Studi Orientali X 1923 - 25 P. 140 - 144 ep. 413.

٦ - أعماله

يعدد ابن غلبون أعمال أحمد باشا على هذا النحو[٥٥]:

أنه أوقف أوقافاً كثيرة على سور البلد، وأجرى المياه للمدينة على (حنايا) لم يسبق بها[٥٦] وخصص لها وقفاً لصيانتها، وبنى (الفسقية) لسقي البحارة (شرقي المدينة)، وأنشأ السوق الجديدة[٥٧]، بإزاء القلعة من جهة الشمال، وجدد باب الخندق (غربي القلعة) بين سوق الخضرة وسوق الحدادين (أي

---

(٥٥) ابن غلبون ص ٢١٠ - ٢١١ (١٧٤ - ١٧٦).

(٥٦) في يوميات مسز تولي (عشر سنوات في بلاط طرابلس) يوجد رسم بالألوان لهذا الإنشاء المائي الضخم الذي نتبين بوضوح أنه كان قائماً خلال الفترة التي ألفت فيها كتابها. وكانت قد غادرت طرابلس في ١٧٩٣. ويؤكد الفقيه حسن في (الدفتر) أن أحمد القرمانللي قد أنشأ في سنة ١١٣٥ هـ (١٧٢٢ - ١٧٢٣) ناعورة وأقواساً، ويفهم من ذلك أن الماء يرفع بواسطة الناعورة ويوزع بواسطة الأقواس التي تنقله إلى المدينة. ويكتب (أنتوني كنيكت) مستشار القنصلية الإنجليزية بأكثر دقة في تقريره إلى القنصل فيقول (إن ما تعانيه المدينة من قلة المياه العذبة قد دفع الولاة السابقين إلى جلب الماء إلى المدينة باستغلال أحد الينابيع الطبية ونقل مائه بواسطة شبكة طولها ميل تزود داخل القلعة والحمامات العامة. وهي مسطحة وتقوم على ثلاثمئة قوس. إن السفن التجارية والحربية تتزود بمياهها عند النبع الرئيسي). وفي تخطيط المدينة سنة ١٧٦٦ أشير إلى مجرى ماء يقوم على ١٥٦ قوساً ينقل الماء إلى قلعة البك. كما ورد في كتاب (رحلة إلى دول البربارسك:

Voyage dans les Etats Barbaresques. ecc. Paris 1785.

وقد نقل عنه س. موروقو في جريدة Idea Nazionale، وطبقاً لما ورد في رسالة مؤرخة في ١ مارس ١٧٨٥ (ص ١٥٦ - ١٨٨) عن وجود خزان للمياه يزود الحمامات، وبتجميعنا لهذه الوقائع يمكن أن نتهي إلى أن الخزان المذكور كان يقوم قرب خزان الحميدية الحالي أي قرب الولي، وحيث كان يقوم موقع حصين يطابق (برج الماء) الذي ورد رسمه في الرسوم والمطبوعات البندقية التي ترجع إلى ١٥٦٧ ومع (بطارية الماء) التي ورد رسمها ملحقاً بعمل الرحالة (دلاشيلا). . . (أنظر أوريجما ج ٢ ص ٢٢٨).

وما تزال المنطقة تعرف حتى الآن باسم (العوينة) كما تشاهد حتى آثار الحوض الذي بني لتسهيل تزويد السفن بالمياه. ويحتمل أن يكون هذا الإنشاء قد هدم في أواخر القرن الثامن عشر في عهد علي برغل.

(٥٧) يقول ابن غلبون إنها كانت سوقاً أقيمت سنة ١١٣٦ (١٧٢٣ - ١٧٢٤)، أما (دفتر) الفقيه حسن فيسميها (سوق متاع الشيشمة) ويقول إنها أنشئت سنة ١١٣٥ (١٧٢٢ - ١٧٢٣).

ميدان الساعة). وبنى المخازن التي على يمين وشمال الداخل إلى القلعة. ورفع السور الفاصل بين القلعة والخندق. وبنى الحواصل التي على يمين الداخل إلى القلعة من الباب الملصقة بسور المدينة تجاه القلعة. وبنى بالقلعة بيوتاً ومقاصير أنيقة، وجدد ما وهى منها، وقد كانت قبله خراباً.

وثمة عمل آخر، لم يذكره ابن غلبون، وقد ورد ذكره في (دفتر) الفقيه حسن، وفي إحدى الكتابات بالمسجد، وهو البرج الذي يدافع عن الميناء، ولعله برج (المندريك) الذي بني طبقاً لما يذكره (الدفتر) في سنة ١١٤٠ هـ (١١٢٧ ـ ١١٢٨) م، ثم المسجد الذي يحمل اسمه والمدرسة والروضة الملحقتان به، وقد انتهى العمل فيه سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ ـ ١٧٣٨) حسب التواريخ التي تحف بقاعة الصلاة. وهو التاريخ نفسه الذي يوجد مكتوباً عند باب المئذنة. بينما تشير التواريخ المسجلة على الأعمدة الخارجية المواجهة لسوق المشير إلى سنتي ١١٤٩ ـ ١١٥٠ هـ (١٧٣٦ ـ ١٧٣٧).

إن الأعمدة الجميلة والعمل الدقيق في الزخرفة والتلبيس للجدران والقباب والانسجام العام في التركيب والظلال. تجعل من مسجد أحمد باشا أعظم عمل تذكاري للأسرة القرمانللية[٥٨].

٧ ـ وفاة أحمد باشا القرمانللي

لقد تضايق[٥٩] الباشا المسن في أواخر حياته، من جراء فقد بصره، فوضع حداً لآلامه بالانتحار ليلة ٣ ـ ٤ نوفمبر ١٧٤٥. وضريحه مقام في المقبرة الملحقة بمسجده الذي بناه[٦٠].

---

(٥٨) أوريجما: (مسجد أحمد القرمانللي بطرابلس) في مجلة (ديدالو Dedalo) يناير ١٩٢٧ ص ٤٩٢ ـ ٥١٣ ـ مع ١٥ صورة.

(٥٩) فيرود ص ١٢٤٤ أستناداً إلى معلومات معاصرة مسجلة في محفوظات القنصلية الفرنسية.

(٦٠) يلي ذلك تاريخ الوفاة الذي يشير إلى ١١٥٨ (١٧٤٥). أما دفتر الفقيه حسن فيحدد الوفاة بعشرة شوال الذي يطابق ٥ نوفمبر.

وينبغي أن يكـون حينذاك قـد بلغ الستين من العمـر. ذلك أن القنصـل الفـرنسي بـولارد الـذي زاره، غـداة مبـايعتـه، قــدَّر أنـه كــان في الخـامســة والعشرين[٦١].

(٦١) فيرود ص ٢١٠.

الفصل السادس

السيادة القرمانللية

- عهد محمّد باشا القرمانلّي -

علي برغل

* محمد باشا القرمانللي (١٧٤٥ - ١٧٥٤).
* القرصنة والعلاقات مع الدول الكبرى.
* مؤامرات وثورات في طرابلس سنة ١٧٤٥ - ١٧٥٢.
* الأعوام الأخيرة من عهد محمد باشا ووفاته.
* علي باشا القرمانللي ١٧٥٤ - ١٧٩٣ - مؤامرات.
* القرصنة - حملة البندقية على طرابلس سنة ١٧٦٦.
* طرابلس في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. المجاعة والطاعون في سنة ١٧٨٤ - ١٧٨٦.
* العلاقات مع الدول المسيحية.
* الأوضاع في دواخل طرابلس الغرب.
* يوسف القرمانللي يقتل أخاه حسناً ١٧٩٠.
* علي برغل يستولي على السلطة ١٧٩٣ - ١٧٩٥.

١ ـ محمد باشا القرمانللي (١٧٥٤ ـ ١٧٤٥)

كان لأحمد باشا القرمانللي، قرب سنة ١٧٣٠ ثلاثة أولاد، محمود بك حاكم برقة، ويوسف بك قائد الفرسان، ومحمد بك[1]. وقد مات يوسف أثناء حياة والده. وفي سنة ١٧٤٥ بقي محمود بك ببرقة، فخلف أحمد باشا ابنه الأصغر محمد. وكان أثيراً لدى الأهالي لأنه من أم عربية هي أرملة خليل باشا الذي قتل سنة ١٧١١[2].

٢ ـ القرصنة والعلاقات مع الدول الكبرى:

لا تتوفر أخبار كثيرة عن السنوات العشر التي أمضاها محمد باشا القرمانللي في الحكم. وما من شك في أنه قد استفاد من الهيبة التي خلفها والده، واستطاع أن يمسك بزمام الأمور بقوة وحزم. ولم يتوقف القراصنة الطرابلسيون في عهده عن خرق المعاهدات القائمة مع الدول الكبرى. وكانت العلاقات مع مملكة نابولي سيئة. ففي يوم ٥ أبريل ١٧٤٦ توجه أربعة ضباط من رجال الباشا إلى القنصلية النابوليتانية، ومزقوا العلم وأعلنوا الحرب. واستغل ذلك على الفور القراصنة الطرابلسيون في ملاحقة السفن النابوليتانية. وفي ٥ مايو ركب قنصل نابولي سفينة، من نوع (ترتانا) إنجليزية، وغادر طرابلس[3]. وقد قطعت العلاقات السلمية مع النمسا، ففي ٣١ ديسمبر ١٧٤٨ حضر مفوض من

(١) ابن غلبون ص ٢١٥ (١٧٩)
(٢) فيرود ٢٤٤
(٣) محفوظات القنصلية الإنجليزية سجل (حركة السفن).

توسكانا إلى طرابلس للتفاوض باسم صاحب الجلالة الإمبراطور. وقد عقد الصلح في ١٦ فبراير ١٦٤٩ وأعيد رفع العلم فوق القنصلية النمساوية[٤].

ووقع في ٤ يناير ١٧٤٩ حادث مفجع من حوادث القرصنة، على مسافة قصيرة من جزيرة (شيفالونيا). فقد تعرضت السفينة التجارية التابعة للبندقية والمسماة (سانتا ترينتا وسان فرانشسكو) بقيادة الكابتن (زورزي ترافانللي Zorzi Travanelli) والمتجهة إلى كريت لنقل الزيت والصابون إلى هجوم قامت به سفينتان طرابلسيتان. وقد دافعت السفينة عن نفسها ببسالة مستخدمة مدافعها وبنادقها، ولكنها غلبت في النهاية بالتجهيز الحربي والعدد الكبير للأعداء. وقد قتل من بحارتها البالغ عددهم ٥٦ بحاراً أربعة عشر رجلاً وجرح ستة وثلاثون أثناء دفاعهم البطولي عن علم سان ماركو، ودفع الطرابلسيون ثمن هذا الانتصار غالياً، إذ فقدوا أكثر من ثلاثمئة من مجموع رجالهم البالغ ستمائة رجل[٥]. ونقل الكابتن ترافانللي والجرحى (الذين مات ثمانية منهم أثناء الطريق) إلى طرابلس، أسارى، وقد تم علاجهم في المستشفى (لا ريب في أنه المستشفى الذي كان يديره الفرنشسكان) ثم بيعوا بعد ذلك للتجار اليهود والعرب. ولم يفلح الباشا في إقناع الكابتن ترافانللي باعتناق الدين الإسلامي، مع وعده بتعيينه قائداً لسفن القرصنة الطرابلسية. وقد تم افتداؤه في نفس العام عن طريق القنصل السويدي المكلف بحماية رعايا البندقية ومصالحها، وبوساطة من قنصل فرنسا، وغادر طرابلس في ٣٠ أغسطس على ظهر سفينة من مرسيليا، مرت بليفورنو ثم وصلت فينيسيا في ٢٠ سبتمبر[٦]. وقد نقل في التقرير الذي رفعه

---

(٤) محفوظات القنصلية الإنجليزية (سجل حركة السفن) وقد طبعت اتفاقية سنة ١٧٤٩ بفلورانسا بإيطاليا سنة ١٧٥٠.

(٥) هذه مبالغات القدماء التي نقلها المؤلف دون احتياط أو روية، وهي على كل حال أسلوب معروف في أغلب المصادر التاريخية القديمة يلجأ إليه عادة في تبرير الهزائم. ولعله ما يزال قائماً بشكل أو بآخر في البلاغات الحربية الحديثة التي تهول من خسائر الأعداء وتقلل من خسائرها. (المعرب).

(٦) **C. Coró**, Avventurose peripezie di un capitano veneto schiavo in Tripoli nel 1749 in (Tripolitania, dic. 1931 p.5 - 10)

إلى حكومته، أن عدد سكان مدينة طرابلس في تلك الفترة يتراوح بين ١٦ ـ ١٧ ألف نسمة، نصفهم تقريباً من اليهود. وقال إنه إذا استقرت العلاقات السلمية فإنه في الإمكان توجيه ثلاثين سفينة (هكذا) سنوياً لنقل الزيت والشمع والصوف وغيرها. وذكر أن البحرية القرصانية للباشا تتألف من أربع سفن من نوع (شابيكي) وثلاث سفن من نوع (غليوطة) وسفينة (كابتانا). وهي تخرج مرة واحدة في العام وتستغرق عملية الغزو البحري أربعين يوماً، وقد لا تخرج في بعض الأعوام. وثمة قراصنة يخرجون لحسابهم الخاص ولكنهم ملزمون بدفع ثلث الغنائم للباشا.

وفي ٩ سبتمبر ١٧٥١ عقد الإنجليز اتفاقاً جديداً مع طرابلس، ينظم العلاقات السلمية والتجارية. وقد جرت المفاوضات بين الباشا والأميرال (كيبّل Keppel) والقنصل (وايت)[٧]. وقد تقرر في هذا الاتفاق، بالإضافة إلى النصوص المعروفة باحترام السفن والأشخاص والإمتيازات القنصلية، أن تشمل نصوصه سكان (مينوركا Minorca) وجبل طارق اللتين انتقلتا بموجب صلح (أوترخت Utrech) إلى السيادة البريطانية[٨]. والتزمت إنجلترا من جانبها بإرسال الذخائر والأسلحة إلى طرابلس[٩].

وفي الأشهر الأولى من عام ١٧٥١ وصل إلى طرابلس المستر (هاميكين Hameken) موفداً من البلاط الدانمركي. وقد افتدى اثني عشر رجلاً دانمركياً بمبلغ ٢١٥٠٠ زوكيني، وعقد اتفاقية صلح، ودفع مبلغ ٢٦٠٠٠ زوكيني.

أما الفرنسيون فقد قاموا في سنة ١٧٥٢ بإضافة ملحق إلى اتفاقية ١٧٢٨

---

(٧) وصل إلى طرابلس ٢ أبريل ١٧٥١ يحمل هدية إلى الباشا.

(٨) يوجد نص الاتفاقية بالإنجليزية والتركية ضمن محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس. وقد أورده أيضاً باللغة التركية المؤرخ التركي (بهيج الدين) في ترجمته لإبن غلبون الصادرة بالآستانة سنة ١٢٨٤ هـ ص ٣٧ ـ ٤١ ـ أنظر أيضاً: حسن صافي (تاريخ طرابلس) باللغة التركية الآستانة ١٣٢٧، وكذلك (هرتسلت ج ١ ص ١٤٣) ويحمل الاتفاق توقيع محمد بن أحمد (ميرميران) وإبنه علي بن محمد، وحسن بن علي (الكاهية) وحسن آغا (رئيس الديوان).

(٩) **Zinkeisen**, Geschichte des asmanichen Reiches, V (Gatha 1857) p. 880 - 881.

يتألف من مادة تقرر عقوبات صارمة بحقّ القراصنة الذين يسيئون استعمال حق التفتيش على السفن الفرنسية. وأرسل محمد باشا وفداً إلى فرنسا، كما بعثت الحكومة الفرنسية بعثة عسكرية مكلفة بالنظر في إمكانية إقامة مركز لتحسين نوع الخيول الفرنسية بالخيول البربرية المحلية[10].

٣ ـ مؤامرات وثورات بطرابلس في ١٧٤٥ وفي ١٧٥٢

كان على (محمد باشا) أن يظل على الدوام متيقظاً للأخطار التي تواجهه بسبب المؤامرات التي كانت تحاك ضده. ففي نهاية سنة ١٧٤٥ قتل حسن كاهية وابنه أحمد، بعد أن تورطا في مؤامرة كانت تهدف إلى تنحية محمد باشا وتعيين شقيقه محمود بك. كما خنق في العام التالي رئيس البحرية وابنه، رغم أنهما كانا يمتّان إليه بصلة القرابة، بعد أن ثبت لديه تآمرهما ضده.

وقد أراد ولدا حسن كاهية الانتقام لأبيهما وأخيهما، فجاءا على رأس قوة من المسلحيْن، ولكنهما هزما إزاء الهجمات المتوالية التي شنها عليهما سكان الدواخل[11]. كما انفجرت اضطرابات جدية قصيرة في طرابلس في الليلة الواقعة بين ٣٠ ـ ٣١ يوليو ١٧٥٢، وهددت حياة محمد باشا ووضعتها موضع الخطر. وقد قادها البحارة الأرناؤوط العاملون في خدمة الباشا، ولم يكن لهم، كما يقول القنصل الدانمركي (سميث Smith) الذي شهد الثورة، من عمل سوى القرصنة، كما كانوا مسؤولين عن كافة المواقف العدائية من السفن التجارية. وقد تجمعوا ضد الباشا بسبب تضييقه عليهم وإصداره لأوامر لا تتلاءم مع الحرية التي كانوا ينعمون بها في الماضي. ويصف القنصل هذه الثورة فيقول: (لقد بدأت الانتفاضة عند التاسعة والنصف ليلاً، عند خروجهم من المسجد، عقب صلاة العشاء التي يؤدونها جماعة في شهر رمضان، وقد بادروا إلى قتل الشيخ (شيخ البلاد) مع أربعة من أعيان المدينة، ثم تمكنوا من السيطرة على الحرس، كما استولوا على حصن أخذوا يضربون منه قلعة الباشا. وقد أصيب

---

(١٠) فيرود ص ٢٥٠ برنيا ٢٣٣.

(١١) فيرود ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

الناس بالذهول، إلا أن عرب الدواخل تجمعوا عند باب المدينة، وأخذوا يهتفون بحياة محمد باشا وطلبوا فتح الأبواب للانضمام إلى سكان المدينة. ولما أدرك الثوار عدم مناصرة الناس لهم اجتازوا المدينة، وفتحوا (باب البحر) وركب عدد منهم (يبلغ المئتين) إحدى السفن الراسية الخاصة بالقنصل الإنجليزي، ونشروا قلوعها للريح، وشحنوها بمدافع الأبراج، وأبحروا بها. بعد أن أعلموا جميع القناصل أنهم سيهاجمون جميع السفن التي تعترض طريقهم. وكان على رأسهم نائب أميرال طرابلس، وأربعة من رؤساء القراصنة. وفي اليوم الثاني قبض على ما يقرب من خمسين شخصاً كانوا قد اختبأوا في مواقع مختلفة. وكان من بينهم بعض الرؤساء، فقطعت رؤوسهم جميعاً. وهكذا تخلصت البلاد من العناصر الشريرة، وأعلن الباشا أنه لم يعد يرغب في استخدام أحد من أبناء تلك البلاد، (ألبانيا)[١٢].

٤ ـ الأعوام الأخيرة من عهد محمد باشا ووفاته

كان القنصل (سميث) قد وقع في مايو ١٧٥٣ اتفاقاً مع طرابلس. وكتب إلى مجلس الدانمرك (Deputati del Collegio) مقدماً هذه الصورة عن الوضع العام في طرابلس: (لم يعتبر الحكم حتى الآن وراثياً ولكنه ينتقل من أسرة إلى أخرى، والأسرة الحالية تتولى الحكم منذ ما يقرب من أربعين عاماً. وحسب ما يبدو، ففي وسعها أن تحتفظ بالحكم في المستقبل، إذا أمد الله أعواماً أخرى في عمر الباشا القائم على الحكم، وهو ما يزال شاباً ولكن صحته معتلة. وعلى كل فإن ابنه (علياً) يبلغ من العمر عشرين عاماً وقد توفرت له خبرة كافية للصمود أمام الأعداء المتوقعين. إن العرب يميلون بطبيعتهم إلى الثورة، وهم يأملون من وراء تغيير الحكم أن يلقوا معاملة أقل عنفاً)[١٣].

---

(١٢) من رسالة باللغة الإيطالية للقنصل الدانمركي محفوظة بالقنصلية الإنجليزية بتاريخ ٥ ـ ٨ ـ ١٧٥٢. وقد ورد سرد لهذه القصة في كتاب المسز تولـلي ولكن بأقل دقة (ص ١٨). كما أشار إليها أيضاً فيرود ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤. كما ذكر هذا الحادث الفقيه حسن في (دفتره).

(١٣) هو ابنه علي الذي خلفه في العام التالي.

إن الباشا الأخير الذي توفي في ١٧٤٥[١٤] قد قام بإخماد أكثر من عشرين ثورة[١٥] خلال اثنين وثلاثين عاماً، من عهده. وقد خلفه ابنه الثاني، بدلاً من ابنه الأول الذي اكتفى بحكم المقاطعة التي أسندها إليه والده. وأقامه عليها أخوه أيضاً فيما بعد، وهي واقعة في الشرق وعاصمتها بنغازي. ويمضي فيشير إلى أن أخاً صغيراً لمحمد باشا كان يتولى حكم درنة، كما كان للباشا أخوة آخرون أصغر سناً. أما الداخل فيحكمه الشيوخ والقواد. وهم أحياناً من العرب، وأحياناً من أحداث الإسلام الذين يظفرون بحماية على حساب العرب. فلم يكن بيت الباشا بكامله في أيديهم وحسب، ولكنهم كانوا يملكون المناصب الكبرى في الدولة. وقد أشار في آخر الرسالة إلى الانسجام القائم بين أفراد الأسرة القرامنللية في ذلك الوقت[١٦].

وفي ربيع ١٧٥٤ انفجرت ثورة في درنة ضد البك، ولكنها أخمدت على الفور بمساعدة محمد باشا[١٧].

وقضت العلة على حياة محمد باشا فتوفي يوم ٢٤ يوليو ١٧٥٤ وهو في الخامسة والأربعين من العمر. فبايع الشعب بالإجماع إبنه علياً الذي كان عائداً لتوّه من غريان[١٨]، بعد أن قام بإخماد بعض الحركات التمردية. ويحمل شاهد ضريح محمد باشا، بتربة القرمانللي، هذه العبارة البسيطة (هذا قبر المرحوم محمد باشا بن أحمد القرمانللي توفي في شوال ١١٦٧ (يوليو ١٧٥٤).

٥ ـ علي باشا القرمانلي ١٧٥٤ ـ ١٧٩٣ ـ مؤامرات

صعد علي باشا القرمانللي إلى سدة الحكم وهو ما يزال شاباً حدثاً، في

---

(١٤) يقصد أحمد باشا مؤسس الأسرة القرمانللية.

(١٥) كانت في الواقع تتراوح بين ٣٤ و٣٥ ثورة.

(١٦) محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس، رسالة بتاريخ ١٨ مايو ١٧٥٣.

(١٧) محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس، رسالة القنصل الدانمركي بتاريخ ١٦ أبريل ١٧٥٤.

(١٨) محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس، رسالة من القنصل الدانمركي بتاريخ ٢٥ يوليو ١٧٥٤. وكذلك (الدفتر) بتاريخ ٢ شوال ١١٦٧ الأربعاء ٢٤ يوليو ١٧٥٤.

ريعان الشباب. وقد أمسك به مدة بلغت أربعين عاماً، وهي حالة نادرة في أي بلد من بلدان الشمال الإفريقي (بربريا). وقد وجد نفسه في البداية مشمولاً بمحبة الشعب. ولكنه لم يلبث طويلاً حتى أخذت تهدده مؤامرات بعض الزعماء المطالبين بمنصب القيادة في الجيش. بالنظر إلى صغر سن الابن البكر للباشا. وقد طمح أحد ضباط الحرس إلى هذا المنصب الهام الذي يمكن أن يصبح شاغله القوي خطراً على الباشا نفسه[19]. ولذا أخر علي باشا تعيين (البك). وفي نهاية ١٧٥٤ جاء إلى طرابلس، خليل، خال علي باشا وابن عمه. وكان أحمد باشا قد عينه حاكماً على درنة. وتردد القول بإسناد منصب (البك) إليه، لولا أنه وجد مقتولاً خنقاً في ١٨ سبتمبر[20] بالقلعة في ظروف غامضة. وأسند حكم درنة إلى محمود بك بالإضافة إلى بنغازي[21]. ولم يرق لبعض ذوي الطموح استمرار الأسرة القرمانللية في الحكم. وكان علي باشا على علم بالمؤامرات التي تحاك ضده. فقام في مطلع ١٧٥٦ بخنق الخازن ونفي رئيس البحرية[22]. وكانت أخطر هذه المؤامرات تلك التي نظمها في سنة ١٧٥٨ مصطفى أبو شاكر قريب الأسرة القرمانللية وأسرة المكني. وقد حاول المتآمرون إثارة سكان المنشية والساحل، أثناء الليل، ولكنهم أخذوا في الوقت المناسب، وقتل مصطفى بينما سجن إبراهيم المكني في القلعة[23].

---

(١٩) محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس، رسالة من قنصل الدانمرك بتاريخ ١٦ ـ ٨ ـ ١٦٥٤.

(٢٠) رسالة بمحفوظات قنصلية إنجلترا بتاريخ ٢٥ ـ ١٠ ـ ١٧٥٤ موجهة من قنصل الدانمرك ويقول فيرود (٢٥٥) أن خليل كان إبن عم علي باشا وأنه قضى عليه حقد خصومه الذين تألبوا عليه بسبب موقفه المعارض لنشاط القرنصة.

(٢١) محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس، رسالة من قنصل الدانمرك بتاريخ ٢٥ ـ ١٠ ـ ١٧٥٤.

(٢٢) محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس، رسالة من قنصل الدانمرك بتاريخ ٢٦ ـ ٣ ـ ١٧٥٦.

(٢٣) فيرود ص ٢٥٦ ـ ٢٥٦.

٦ ـ القرصنة وحملة البندقية على طرابلس سنة ١٧٦٦

إن عمل القراصنة الطرابلسيين الذي قيدته المعاهدات التجارية، والاتفاق مع الدول الكبرى، قد أصبح ضد الدول الصغيرة التي لم تعقد، حتى ذلك الوقت، اتفاقيات مع طرابلس. ومع ذلك فإن رعايا الدول المتعاقدة كثيراً ما كانوا يتعرضون في عرض البحر لهجمات القراصنة الطرابلسيين. وقد قامت إنجلترا في عهد قنصلها (وايت)، في أكتوبر ١٧٥٤ ثم في يناير ١٧٦١، بتعديل اتفاقياتها. وقد جاء اللورد (كليفلاند Cleveland) في سنة ١٧٦٢ بفرقة بحرية إلى طرابلس راغباً في إعادة التوقيع على المعاهدة[٢٤].

إن كل ذلك ـ رغم قلة المعلومات ـ يوحي بأن خرق الاتفاقيات كان يجري بصفة مستمرة غالبة. وقد كان القنصل (فراسير) الذي خلف القنصل (وايت) يشكو في مراسلاته من غطرسة الباشا وقراصنته[٢٥].

وكان قد تأسس بطرابلس، منذ ما يقرب من قرن أو أكثر، قبل العهد القرمانللي، مكتب صغير للشؤون الخارجية يهتم بالعلاقات مع الدول الكبرى، وذلك لتهدئة النفوس وتخفيف الغضب وإبعاد الخطر، ويحتمل أن يكون أيضاً لابتزاز الأموال. ورسخت عادة إرسال الوفود إلى أوربا لتبادل الهدايا والرسل والوعود. ففي سنة ١٧٥٦ ذهب محمود آغا سفيراً لطرابلس إلى السويد[٢٦]. وفي سنة ١٧٦٥ ذهب أحمد آغا إلى لندن لتقديم هدايا إلى ملك إنجلترا. وقد أبعدته الحكومة البريطانية، بعد عامين من إقامته، على نفقتها. وفي نهاية سنة ١٧٧٣ ذهب سيدي إبراهيم آغا إلى لندن، وتولت الحكومة الإنجليزية نفقات تسفيره[٢٧]. وكانت العلاقات بين طرابلس ومالطا علاقات طيبة وودية إلى حد

---

(٢٤) يوجد نص التعديل والتصديق بمحفوظات القنصلية البريطانية وهو يحمل توقيع علي باشا وإبنه البكر حسن (أميرالاي) وقائد الجيش ويوسف بن علي (الكاهية).

(٢٥) محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس رسالة من قنصل الدانمرك بتاريخ ١٦ ـ ١٠ ـ ١٧٥٦.

(٢٦) محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس. مراسلات قنصل إنجلترا خلال ١٧٦٥ ـ ١٧٦٦.

(٢٧) توجد معلومات غريبة في الخصوص لدى (فادالا ص ٢٠٠ ـ ٢٠١).

ما. ومع ذلك فإنه يتبين أنـه في يوم ٨ أغسـطس ١٧٦٥ دخلت السفينة (سـانتا أرسولا) بقيادة الكـابتن (بترو جـلالي) مالـطا وعلى ظهـرها بعض البحـارة وستة عشر عربياً أسروا فوق سفينة طرابلسية بقيادة الرايس (Veli Dobrac). وذهب الحاج محمد آغا إلى مالطا سنة ١٧٧٦ لتقديم الاحترامات الى المرشد الأكبر (دي روهان De Rohan)[٢٩].

وقـد انتعشت العلاقـات بين طـرابلس والبندقيـة في العهـد القـرمـانللي، وأصبحت أكثر نشاطاً وحيوية. فقد بعث والي طرابلس، الحاج عبد الرحمن آغا إلى البنـدقية سنـة ١٧٦٤ وتفاوض في تلك المـدينـة مـع مفـوض الجمهـوريـة (بروسبيرو فـالمارانـا Prospero Valmarana)[٣٠]. وعقد في ١١ ديسمـبر ١٧٦٤ اتفـاقاً أوليـاً صودق عليـه في أبريـل ١٧٦٥ باتفـاق نهائي منظم. ويعـترف هذا الاتفـاق للقنصل البنـدقي بحقوق وسلطات تـوازي حقوق القنـاصل الآخـرين وسلطاتهم، ويضمن احترام سفن الجمهورية ورعاياها، كما يمنح امتيـازات الملح بزوارة إلى البندقية وحدها[٣١]، ويمنع السفن الطرابلسية من الـدخول إلى خليـج البندقية، أي بحر الأدرياتيك، بحيث لا تتجاوز جنوباً رأس (سـانتا مـاريا) من جهة و(شيمارا Cimara) من جهة أخرى[٣٢].

---

(٢٨) محفوظات فرسان مالطا ـ مالطا (Libri Conc. Status) بتاريخ ٢٥ ـ ٨ ـ ١٧٦٥.

(٢٩) روسي: مـراسلات بـين المرشـدين الكبار لفـرسان مـالـطا وبـايـات طـرابلس من ١٧١٤ إلى ١٧٧٨ ـ مجلة الـدراسـات الشرقيـة الإيـطاليـة ـ السنـة العـاشرة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥ ص ٤١٤ ـ ٤٣٠.

(٣٠) رسالة باللغة التركية موجهة إليه بتاريخ ٢٢ يوليو ١٧٦٤ من المبعوث الطرابلسي توجد محفوظـة مـع ترجمـة لبلاتـو في محفـوظـات الـدولـة بفينيسيـا سجـل ١٦٦ رقم ٦٥٤ (Arch. di stato a Venezia)

(٣١) ك. نـاللينـو (صفـاقس والبنـدقيـة في القـرن الثـامن عشر) ص ٣٤٩. روسي: بعثة مخلصـين بطرابلس سنة ١٧٣٠ ـ مجلة الدراسات الشرقية ١٠ ـ ٢٣ ـ ١٩٥٢ ص ١٤٠ ـ ١٤٤.

(٣٢) ناني موشينيقو: **F. Nani Mocenigo,** Tripoli ei Veneziani 1764 - 1766 in memorie storiche militaryfase. I del 1914 Gittà di Castello 1914

وقد نشر النص التركي للإتفاقية المذكورة في الترجمة التركيـة لكتاب ابن غلبـون ص ٤٤ ـ ٥١ وكذلك لدى ناجي ونوري (في تاريخ طرابلس الغـرب). وتتكون الاتفـاقية من ٢٣ مادة، وقد =

وقد استقبل الكابتن (ماركانتونيو بوبيك M. Bubich) الذي نقل المندوب الطرابلسي، وكذلك القنصل (جيوسبي باللوفيتش G. Ballovich)، استقبالاً حاراً. وقد عاد الكابتن إلى البندقية يحمل معه ٥٤ أسيراً أطلق سراحهم، كما حمل معه وثائق هامة تتعلق بما جمعه من معلومات عن القوة العسكرية للحامية. وعمق الميناء[٣٣]، وغير ذلك من المعلومات التي ستفيدهم فيما بعد في حملتهم على طرابلس.

ولم تتأخر طرابلس كثيراً عن خرق الاتفاقيات. ففي سنة ١٧٦٥ قام القراصنة - بأمر من الباشا أو بتغاض منه - بسلب سفن البندقية، وقد فوجئت سفينة من نوع (غليوطة) بقيادة أحمد رايس، وهي تهاجم سفينة تابعة لمقاطعة (بوليا) فاقتيد إلى (زارا) حيث قتل أحمد نفسه أثناء محاولة الفرار.

وعاد من جديد إلى البندقية عبد الرحمن آغا الذي استطاع بمكر ودهاء أن يبتز أموالاً من جمهورية البندقية. ورجع إلى طرابلس، وبدلاً من أن يعمل على تسوية الخلاف زاد من تعقيده.

ولما استمرت الاعتداءات على السفن البندقية وبحارتها وعلمها، أرسل مجلس الشيوخ في صيف ١٧٦٦ الكابتن (جاكوموناني) مع أربع فرقيطات وغرابين (كورفيت) ووجهتها طرابلس. وقد ظهرت هذه السفن بمياه طرابلس بمظهر المتحفز للمعركة، المستعد لها، مما أرعب الباشا الذي قبل على الفور بإعادة الأسرى والسفن والبضائع وتقديم التحية الواجبة للفرقة البحرية، ومعاقبة الرؤساء المسؤولين. وعقد في أغسطس ١٧٦٦ اتفاق جديد يؤكد النصوص السابقة[٣٤].

= وقعها علي باشا وولي عهده حسن بك آغا الإنكشارية وأحمد كاهية ومصطفى الخزندار والحاج يوسف ومحمود وأحمد خوجة. وتوجد اتفاقية ١٧٦٤ واتفاقية ١٧٦٥ بنصيهما وترجمتيهما بأرشيف الدولة بفينيسيا - السجل ١٦٦ رقم ٥٥ - ٦٦.

(٣٣) ناني موشينيقو ص ٨٢.

(٣٤) النص التركي للاتفاقية الذي يتضمن تسع مواد مع ترجمة من دومينيكو سان فرمو توجد محفوظة في محفوظات الدولة بفينيسيا (السجل ١٦٦ رقم ٥٩). وقد نشرت الترجمة في ذيل =

وقبل ذلك بشهر أرسلت فرنسا إلى ميناء طرابلس سفينتين من نوع (فاشيللي) وفرقيطتين ومركبين من نوع (شابيكي) تحت قيادة الأمير (لستنوا Listenois) ليطلب احترام السفن الفرنسية. فأكد علي القرمانللي اتفاقيات سنة ١٧٢٨، مع إضافة ملحق بخمس مواد أخرى[٣٥]. وبعث رسالة اعتذار مهينة[٣٦] إلى الحكومة الفرنسية، يتعهد فيها بالتزام المواثيق الجديدة. وتجدد الصلح في ١٧٧٤، وقد حمل بهذه المناسبة سيدي عبد الرحمن البدري وسيدي أحمد بك صهر الوالي، هدايا إلى ملك فرنسا تتألف من خيول وإبل ونعام وغزلان وصقور[٣٧].

٧ - طرابلس في النصف الثاني من القرن الثامن عشر

تتيح لنا وفرة المعلومات والأخبار عن هذه الفترة أن نعالج بشيء من الإفاضة الوضع بطرابلس في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فقد عبر (أنتوني كنيكت Anthony Knecht) مستشار القنصلية الإنجليزية، وهو يكتب تقريره للقنصل الذي يخلفه على المنصب في سنة ١٧٦٧[٣٨]، عن أسفه لانهيار

الكراسة المشار إليها سابقاً من تأليف (ناني موشينيقو). ونشر النص التركي ملحقاً بالترجمة التركية لتاريخ ابن غلبون، ص ٥٢ - ٥٣. وفي سنة ١٧٧٣ وجه الباشا إلى دوج فينيسيا رسالة يؤكد له فيها عدم ارتكاب أية مخالفات ضد البندقية وامتيازاتها. وقد خلف القنصل (بالوفيتش) في سنة ١٧٧٧ القنصل أنطونيو بلاتو. أنظر برنيا ص ٢٣٥ حول بعض ما وقع لهذا القنصل. أنظر أيضاً:

Relazione spedita dal sig. segret. di S. E. Jacopo Nani capitano estrardinario delle navi da Tripoli ad un suo nobile Amico in Venezia trattato accordato da essa. E.S. col Bass'a di Tripoli. Venezia 1888 cura di A Torre p. 17

(٣٥) فيرود ص ٢٥٨ - روارد دوكارد ص ٢٣٤.

(٣٦) ترجمها فيرود ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٣٧) فيرود ص ٢٦٣ - برنيا ص ٢٣٦ وكذلك:

H. Dehéran: La vie de Pierre Rulfin orientaliste et diplomate Paris - 1929 - p. 47 - 50.

(٣٨) أنظر ما تقدم ذكره بخصوص هذا التقرير. لقد رجعت مباشرة لهذا التقرير ضمن محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس. وقد نشر باولوتوسكي ترجمة لهذا التقرير في مجلة المعهد الشرقي بنابولي ج ٣ - ١٩٣٠ ص ٣ - ٤٩.

الأسرة القرمانللية، كما لاحظ تـذمر السكـان واستياءهم وهـو يذكـر في تعداده للمناصـب التي تأتي بعد منصب الوالي (الباشا):

البـــك : وهو القائد العام للجيش المكلف بجباية الخراج والرسوم.

آغـــا : الإنكشارية وهو قائد جميع الجيوش قبل أن يتـولاها البـك مباشرة ويساعده (أغوات) آخرون.

الكاهية : وهي أعلى وظيفة مدنية، ويتولى صاحبها نيابة الوالي، وهو مستشار خاص له، يقدم العرائض، ويفض الخلافات.

رايس البحر : وهو أول سلطة بحرية، يتولى شؤون المينـاء ويرأس عـدداً آخر من الرؤساء.

الخزندار الأكبر : وهو أمين خزينة الحكومة.

الخزندار الأصغر : وهو أمين صندوق خاص بالوالي.

الكاهية الأصغر : ويتولى قيادة الحرس الخاص كما يعمل مربياً للبـك الصغير (ولي العهد).

شيخ البلاد : وهو نوع من العميد البلدي الذي يتولى شؤون المواطنين.

كما يتولى أربعة أو خمسة يعرفون باسم (خوجة) الشؤون الإدارية للبـاشا. ويمثل الحكومة نواب في المقاطعات، يعرفون باسم (قادة. . . قائد). أما الديوان أو المجلـس فيتألف من الموفدين إلى سفارات في أوروبـا و القادة العسكـريين. وهو يتولى مناقشة الشؤون الهامة وفـرض الضرائب وإبرام الاتفـاقيات. غـير أن علي باشا قد جمد الديوان وتجاهله، وقليلاً ما كان يدعوه أو يستشيره(٣٩).

أمـا القوات العسكـرية ـ طبقـاً لما يـذكره كنيكت ـ فتتـألف من مئتين إلى ثـلاثمئة من الـداخلين حديثـاً في الإسـلام، وأربعـمائـة انكشـاري، وخمسـمائـة أرنـاؤوطي (الباني مسلم) وستـمائة عـربي. وأما البحـريـة فتتـألف من الأرنـاؤوط

(٣٩) يـلاحظ دي لانسي قنصل فـرنسا في سنـة ١٧٦٥ أن الواليـين السابقـين من الأسرة القرمـانللية قد تجاهلا الديوان وكانا يحكمان حكماً مطلقاً. وإذا كان أحمـد باشـا ومحمد قـد استطاعـا أن يمسكـا بزمـام الأمور بعـدالة وحـزم فإن علياً (كان شخصيـة ضعيفـة تخضـع لتـأثـير الحـاشيـة والأتباع). فيرود ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

الداخلين في الإسلام والعرب المتطوعين الذين يعملون على أساس الحصة من غنائم القراصنة التي كانت قد أخذت منذ أعوام في الانهيار. فقد أصبحت الفرقة الطرابلسية في سنة ١٧٦٥ تتألف من ثلاث سفن من نوع (شابيكي). وكانت أقوى هذه السفن الثلاث مسلحة بعشرين قطعة مدفعية، وخمس سفن أخرى من نوع (غليوطة) استولى الفرنسيون والمالطيون والبندقيون على ثلاث منها[٤٠].

وقد كان الباشا مضطراً إلى مراعاة سفن الدول الكبرى احتراماً للمواثيق القائمة. ونستثني من ذلك سفن (جنوا ونابولي ومالطا). فقد كان القراصنة الطرابلسيون يفجرون نقمتهم وينفسون عن غيظهم بالعمل ضد سفن هذه الدول الثلاث. ولقد كان للسفن الطرابلسية خط أو مسلك بحري مفضل (فهي تتجه من طرابلس إلى مالطا ثم تحاذي سواحل صقلية، مستمرة نحو كالابريا، وتدخل فينيسيا (البحر الأدرياتيكي) وتمر بأرخبيل آسيا وسواحلها وتصل الإسكندرية ثم تعود إلى قواعدها).

وكان العدد الكبير من الداخلين في الإسلام يشكل الحرس الخاص للباشا. ويقدر (كنيكت) عددهم بين المئتين والثلاثمئة. أما (دي لانسي De Lancey) فيرتفع بهم إلى خمسمائة أو ستمائة. ويلاحظ أنه كانت لهم سطوة، وكانوا يفرضون رأيهم حتى على الباشا[٤١].

وكان اليهود عدداً كبيراً وكانوا نشطين[٤٢]. وكان أحد تجارهم المدعو (سانكو Sanco) ملتزماً بسك النقود الطرابلسية. أما العنصر المسيحي فلم يكن كبيراً، وكان يتألف من قناصل جميع الدول الكبرى وأتباعهم ورعاياهم وبعض التجار ويذكر (كنيكت) منهم أحد مواطني مدينة جنوا وآخر من ليفورنو وهو

---

(٤٠) فيرود ص ٢٥٧.

(٤١) فيرود ص ٢٥٨.

(٤٢) يرى دوكسيرا Doxera أنهم كانوا في سنة ١٧٨٣ حوالي ثلاثة آلاف نسمة من مجموع السكان البالغ أربعة عشر ألف نسمة.

صاحب حانوت صغير. ويذكر إسم المدعو (فروزينو Farrozino) وهو من أصل جَنَوِي. (أي من مدينة جنوا).

وثمة معلومات أخرى تكمل جزئياً تقرير (كنيكت)، تقدمها إلينا يوميات (ليدي ورثلي Lady Worthley) وكانت الكاتبة على إلمام بسيط بلغة البلاد. وقد قبلت بالقصر، بحيث أتيح لها أن تعرف البلاط القرمانللي معرفة حسنة، وتحدد تحديداً حقيقياً ملامح العناصر التي يتألف منها هذا البلاط. وقد تمكنت أيضاً أن تطوف بمختلف منشآت القصر (القلعة) المتصّل بعضها ببعض بواسطة طرق ومدارج مظلمة خفية، حيث تحجب كل أسرة حريمها الخاص.

وهي تصف علي باشا بقولها (إنه قصير القامة، وليس هناك شبه بينه وبين أبنائه. وقور المظهر، محترم رغم أنه لم يبلغ الأربعين من العمر) كان ذلك في ١٧٨٥[٤٣]. وإلى جانبه (للا حلومة) أو للا الكبيرة[٤٤] زوجته. وهي ملكة البلاط الصغير. وهي امرأة واعية ومحنكة كما تصفها الكاتبة تخفف بلطفها من قسوة زوجها وقادته (وكانت تعارض العادة البربرية التي تقضي بإلقاء المرأة العربية التي يغويها المسيحيون في البحر داخل كيس مقفل مشدود إلى صخرة تعجل بإغراقها)[٤٥].

ولم تكن الأحداث العائلية الخطيرة التي ألّمت بالأسرة القرمانللية لتستحق كل هذا اللطف الذي تشف عنه شخصية اللا حلومة التي كان قلبها يتعذب للآخرين. وكانت صورتها المحفوفة باللطف والألم تشع في الظلام الدامس لتلك القلعة القرصانية. وقد تزوج الابن الأول من الجميلة الحسناء عائشة، وأثار منذ الأعوام الأولى حسد إخوته، خاصة سيدي يوسف الذي كان ينظر نظرة سيئة

---

(٤٣) يوميات الليدي ورثلي ص ٣٢ ـ ويقول دوكسيرا ملاحظاً في سنة ١٧٨٣ (إن الباشا يبلغ الستين من العمر تقريباً، وله مظهر طيب ويرتدي ملابس متواضعة).

(٤٤) اللا معناها السيدة. وحلومة تصغير لحليمة واللا الكبيرة معناها السيدة الكبيرة وهي الزوجة الأولى للباشا.

(٤٥) يوميات الليدي ورثلي ص ٤٥٢.

ألى الوريث المقبل، حين يراه مصحوباً (بالنوبة)[٤٦] ومحفوفاً بحرس الشرف. وكانت الأم المسكينة تتنبأ بالمأساة التي ستقع، وتفضي في الغالب بآلامها للضيفة الأجنبية. وتحيط بالباشا حاشيته التي تتألف من الكاهية عبد الله ومن الوزير أو السكرتير مصطفى الكاتب. ومن رئيس الميناء وهو أحد أصهاره. ومن اللواتي ظفرن بثقة الشيخ علي باشا، العجوز اليهودية البدينة (إيستر) التي كانت تستدعى في الغالب لتسليته، وتنمية بما ترويه له من قصص وما تسرده من خرافات وحكايات. ولعلها هي اليهودية التي أشار إليها (كنيكت) في تقريره وقال عنها إنها مكلفة برعاية شؤون الحريم وتزويده بالجواهر والملابس. فهي إذن مستشارة وتاجرة. وكانت غنية جداً[٤٧].

وتتحدث الكاتبة في الغالب عن منازل وفيلات في منطقة المنشية المزينة بالقيشاني الفاخر[٤٨]، وما تزال توجد بعض المنازل في المنشية كانت في الأصل للقرمانللية، مثل فيلا (ناحوم) و(حوش لولاتو). ولا بد أن البيتين الواقعين قرب جامع القبطان قد كانا على غاية من الجمال في السابق، وأحدثهما عهداً ما يزال بمدخله المقوس الرائع وبرسومه النباتية والحيوانية اللطيفة. ويعرف الآن باسم (للا عائشة) وهي ابنة يوسف القرمانللي وزوجة الحاج خليفة، أمين بيت المال الذي كان مديراً للساحل في بداية العهد العثماني.

ولكي نعطي فكرة عن الوضع الإقطاعي في طرابلس الغرب في ذلك الوقت ـ إذا صح التعبير ـ نرى من الملائم أن نسوق الواقعة التي أثرت على

---

(٤٦) وردت (التوبة) لدى المؤرخ التونسي القيرواني ص ١٦٤ ـ ١٨٠ ـ ٢٨٦ وتعني النوبة (الحراسة المسلحة) والفرقة الموسيقية.

(٤٧) صورت أخبار العصر حسن بك في صورة حسنة إلا أن (دوكسيرا) ١٧٨٣ يراه (شاباً مضطرب النفس. طموحاً، استولى منذ زمن على السلطة الحقيقية، ولم يترك لوالده سوى ظلها ومظهرها) ويقارن بعد ذلك بين الأب والابن فيقول (يتميز الباشا الشيخ بالنوايا المستقيمة ولكنه عاجز وخامل مولع بالذهب، ضعيف الذكاء ولا سلطة له، بينما يتوفر الشاب على روح معتزة وبديهة سريعة، وهو محارب وعدو لكل مسيحي عامة ولدولة فينيسيا خاصة).

(٤٨) يوميات الليدي ورتلي ص ٤٢ ـ ٤٣ وكذلك: م. رومانللي (منازل طرابلس العربية القديمة) في مجلة (Architettura e arti Decorative) السنة الثالثة ـ ١٧٢٤.

الكاتبة، وكانت جديرة بالتعقيب، وتقول (خارج المنشية ثمة أرض واسعة، في حوزة أحد رجال الدين، وتعرف هذه المنطقة باسم (الصيد) وهو اسم الرجل، ومعناه (الأسد)، وهو معبد لا يستطيع أحد أن يتعدى على حرمته بما في ذلك الباشا. وتصبح حياة أي قاتل مصونة داخل هذه المنطقة)[49].

والمكان الذي تشير إليه الكاتبة هو الهنشير والولي الذي تتحدث عنه هو الذي أشرنا إليه، في أحداث سنة ١٦٣٠[50]، وهو محمد الصيد اليحياوي، وله قرابة بقبيلة (بني رقيعة) الرقيعات المقيمة بضواحي طرابلس. وكان رجلاً ورعاً تقياً صالحاً منصرفاً إلى العبادة والتصوف. وقد استطاع، بفضل تلك القداسة التي أحاطت به، أن يقف في وجه الطغاة وحكام ذلك العصر الحديدي، من تاريخ طرابلس، وأصبحت داره ـ أي معبده ومسجده ـ ملجأ وملاذاً حقيقياً للمستغيثين والمستجيرين. وقد توفي في نهاية رمضان من عام ١٠٥٠ (أوائل يناير ١٦٤١) وخلفه ابنه عبد الحفيظ الذي تمتع هو وسلالته بنفس المزايا التي كانت للأب. وفي منطقة الهنشير يبدي حارس الضريح للزوار العمود الذي ينز عرقاً كل رمضان. وتوحي القرية بكاملها بمنظر الحصن المسلح بالأسوار والهيبة الدينية والاعتقادات.

وقد كان من مصلحة القرمانلليين ـ كغيرهم من الحكام الذين تقدموهم ـ أن يكسبوا تأييد سلالة هذا الولي. وقد قام يوسف القرمانللي نفسه بتشييد مسجد على نفقته، في موقع آخر وبنى له قبة جميلة، وجعله ملاذاً آخر أحدث من ملاذ الهنشير، وأقامه في الحي المعروف (المرغني) باسم دفينه الولي (سيدي المرغني)[51].

---

(٤٩) يوميات الليدي ورتلي ص ١٤.

(٥٠) أنظر ما تقدم ذكره في الفصول السابقة بخصوص هذا الولي.

(٥١) ابن غلبون ص ١٠٤ (٧٩) ـ العياشي (الرحلة) ج ١ ص ٦٢ ـ ٦٣ والجزء الثاني منها، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ ـ عبد السلام بن عثمان التاجوري (كتاب الإشارات) ترجمة (جيسارو ص ٢٣ ـ رحلة الورتلاني ـ تونس ١٣٢١ ص ١٥٩ والجزء الثالث ص ١٧٥. أنظر كذلك فيرود ٢٤٢ ـ =

٨ ـ القرصنة والطاعون في ١٧٨٤ ـ ١٧٨٦

اجتاحت طرابلس في سنة ١٧٦٧ مجاعة فظيعة(٥٢)، وفي صيف ١٧٨٤ انتشرت المجاعة من جديد، وقد لاحظت ليدي ورثلي في يومياتها لشهر أغسطس (أن المدينة في ظروفها الراهنة، تمر بحالة مرعبة من المجاعة حتى إن المرور بشوارعها، على الأقدام أو فوق ظهور الخيل، أصبح شيئاً مخيفاً مفزعاً بسبب الجوعى الذين يموتون كل يوم على الطرقات)(٥٣).

وكما يحدث في العادة، فقد كانت المجاعة تجر خلفها الطاعون. وقد ظهرت الإصابات الأولى في ربيع ١٧٨٥(٥٤). وكان القبول الأعمى بفكرة القدر دون حذر ولا احتياط، والجهل، وقلة الأطباء (ثمة طبيب من جنوا وحيد في خدمة الباشا) قد مكنت هذا الوباء من حصد كثير من الأرواح.

ومن مجموع السكان البالغ عددهم أربعة عشر ألف نسمة، (وهو الرقم الذي تذكره الكاتبة لسكان المدينة)، قضى الطاعون على الربع وهو رقم له أهميته، وكثيراً ما كانوا يعجزون عن نقل الموتى إلى المقبرة. وكان الجنود القولوغلية، يطوفون بالمدينة ويزيحون الجثث. وقد انقطع الوباء في أوائل سنة ١٧٨٦. وكان الطاعون الذي اجتاح البلاد في سنة ١٧٨٥ سبباً من أسباب الانهيار الذي حل بطرابلس نتيجة ما جره عليها من أضرار فادحة. ويقول أحد الكتاب الفرنسيين عنه(٥٥) (Les ravages indicibles الذي كان له أوخم

= ٢٤٤ حيث يذكر مراسم وتقاليد غريبة كانت قائمة في العلاقة بين أحمد باشا القرمانللي والولي. ويذكر الجراح الفرنسي جيرارد في تاريخه عن الفترة الواقعة قرب ١٦٧٥ ما كان يتمتع به ضريح سيدي الصيد من مزايا خاصة في اللجوء إليه والاستجارة به.

(٥٢) فيرود ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٥٣) يوميات الليدي ورثلي ص ٦٧.

(٥٤) يوميات الليدي ورثلي ص ٨٢.

(٥٥) **A. C. Froment de Champ la garde,**
(Histoire abrégée du règne d'Ali Caramanli Pascia di Triploli de Barbarie ms. Bibl. Publica di Malta, n 113 p. 29.

العـواقب على الـوضـع الاقتصـادي والنـظام الاجتـماعي الآخـذين من قبـل في الضعف والهزال).

٩ ـ العلاقات مع الدول المسيحية:

عقـدت في ١٠ سبتمـبر ١٧٨٤ اتفـاقيـة صـداقـة وتجـارة بـين طــرابلس وإسبانيا، وقد تضمنت فيها تضمنت من مواد، المادة ١٨ التي تحدد رسوم المينـاء على أساس ٢٧ قرشاً عن كـل سفينة تـرسو بمينـاء طرابلس، وتعفى السفن من دفع الرسوم على الرسو في الموانى الأخرى التـابعة للمملكـة أو الإيالـة، ولا يلزم الربان بتسليم المقود والأشرعة (المـادة ٢٣)[٥٦]، وتم تعيين أول قنصـل لإسبانيـا بطرابلس[٥٧].

وقد تركزت امتيازات البنـدقية بـطرابلس، في استغلال مـلاحات زوارة. وفي ١٥ نوفمبر ١٧٨٣، وصلت إلى طرابلس فرقة بحرية بندقيـة بقيادة (أنـدريا كـويريني Andrea Querini) وهي ملكفـة بسفارات لـدى ولاة تونس والجـزائر وطرابلس. وقد استقبل رئيس البعثة استقبـالاً كريمـاً من والي طرابلس ثم تـابع رحلتـه إلى زوارة حيث فض الإشكـال النـاشيء عن تـأخـر البـاشـا في دفـع مستحقـات العمال الـوطنيين الـذين تولـوا شحن الملح. وحين وصـل إلى زوارة

---

(٥٦) نشرت الاتفاقية في مجموعة (مارتنس Martens) الطبعة الثانية الجزء ٣ ص ٧٦٠. وقـد ظلت عادة تسليم المقود والأشرعـة قائمـة لدى دول الشـمال الإفريقي (بـربارسـك) مدة طـويلة من الزمن. وهي نوع من الضمان لدفع رسوم الميناء والجمرك أو للحيلولـة دون الإفلات المحتمـل أو هروب الأسرى المسيحيين.

(٥٧) فيرود ص ٢٧١ ـ ٢٧٢. وقد كان أول قنصل لإسبانيا بطرابلس وقد اشترى الإسبانيون السلم مع طرابلس والباب العـالي بثمن فادح. وقد نصت الاتفاقية الإسبانية الطرابلسية ١٧٨٤ على منح جواز مرور من القنصل الإسباني يوصي السفن الإسبـانية بـأن تعامـل السفن الطرابلسيـة معاملتها لرعايا بلد صديق لصاحب الجلالة. وهكذا تحمي مثل هذه الاتفاقيات القرصنة ضـد مصالح الدول الصغيرة بإيطاليا.

كانت ترسو بمينائها ست سفن من البندقية، وسفينتان دنمركيتان لشحن الملح[٥٨].

ويقول فيرود[٥٩] إن جمهورية البندقية قد تنازلت فيما بعد عن امتيازاتها إلى ميلانو. ورغم العلاقات السلمية الودية القائمة مع فينيسيا فقد ساعد علي باشا القرمانللي، حمودة باشا باي تونس، ووقف إلى جانبه في الصدام الذي وقع بين تونس والبندقية في ١٧٨٤ - ١٧٩٢ وأرسل إليه المدافع والأسلحة[٦٠].

وكانت هولندة التي أخذت مصالحها التجارية في البحر الأبيض المتوسط والشرق الأقصى في النمو، قد عقدت اتفاقيات تجارية مع طرابلس في ١٧٠٣ و١٧١١ و١٧٢٨. وفي سنة ١٧٤٩ سافر مندوب عن القرمانللية إلى (لاهاي) وقد قدم إلى الجمعية الوطنية ومنح مكافأة بأربعين ثم بخمسين ثم بستين فيورينو في اليوم.

وفي سنة ١٧٨٠ بعث علي باشا القرمانللي إلى (غوليلم الخامس) برسائل تهنئة بعودته إلى (لاهاي) ومبلّغاً بإرسال أحد وزرائه وبعض الهدايا[٦١]. وفي سنة

---

(٥٨) كان ضمن المسافرين مع فرقة كويريني التاجر البندقي (دوكسيرا Marino Doxera) الذي ترك لنا وصفاً لرحلته بعنوان (istorico Giorale) في بلدان إفريقيا الشمالية. وتوجد مخطوطة هذه الرحلة تحت رقم ٢٥٨ بمكتبة Civico Museo مجموعة شيكونيا. وقد نشر قسماً منه (ا. بيلوت) بعنوان:

A. Pilot. Un Viaggio a Tripoli verso la fine del 1770, in Ateneo venetoluglio - Agosto 1913

كما لخصت هذه الرحلة في مجلة الجمعية الجغرافية ١٩١٣ ج ٢ ١١٨١ - ١١٨٤ وقد نشرها مؤخراً فرانشيسكو كورو تحت عنوان:

Una relazion veneziana dell' anno 1784 sulle reggense di Tunisi, Algeri e Tripoli - in Tripolitania nov. 1913 p. 9 - 17

(٥٩) فيرود ص ٢٧٢.

(٦٠) كارلو نالّلينو: البندقية وصفاقس إلى ص ٣٤٦.

(٦١) **A. Blessich** La penetrazione italiana in Tripolitania, in Bollettino R. Soc. Geogr. Italiana, serie IV vol IX Roma 1908 p. 777

١٧٨٥ وصل إلى ميناء طرابلس قائد السفينة الهولندية الكابتن (كينسبرجن Kensbergen) الذي سلم الباشا مبلغ ستين ألف فيورينو. ولم يرض الباشا بالمبلغ، ورغب في أن يبعث ابنه إلى هولاندة على ظهر السفينة الهولاندية ذاتها، ولكن قائدها رفض ذلك بحجة أن بلاده لم تعد ترغب في استقبال سفراء. فقام علي باشا بطرد هذا القنصل الهولاندي (ورنسمان Warnsman) من طرابلس. وقد عاد هذا القنصل بعد مدة حاملاً إلى الباشا هدية بمبلغ ألفي دوكاتو[٦٢]. ويلاحظ قنصل فرنسا (فاليير Vallière) قرب سنة ١٧٨٦ أن تجارة طرابلس كانت في حالة من الركود التام نتيجة للمجاعة والطاعون اللذين اجتاحا البلاد في الأعوام الماضية، والمبادلات التجارية القليلة المحدودة كانت تتم مع مارسيليا وليفورنو عن طريق بعض التجار اليهود، وكذلك مع البندقية، وكان القائد مصطفى رئيس الجمرك، وهو نابوليتاني الأصل، يحتفظ بعلاقات تجارية مع صقلية ونابولي.

وكان الأسرى الإيطاليون في ذلك الوقت قليلين ولا يزيدون على مئة[٦٣]، ويلقون معاملة غير سيئة. وكانت العلاقات التي قامت بين طرابلس ومملكة الصقليتين في سنة ١٧٢٦ في عهد أسرة (أستريا Austria) قد استؤنفت مباشرة بين نابولي وطرابلس بواسطة اتفاقية ١٧٤١. وفي يوليو ١٧٦٣ قامت سفينتان نابوليتان بمهاجمة سفينة قرصنة طرابلسية، في بحر إيونيو، وعلى ظهرها ثمانية مدافع، واثنان وثمانون رجلاً. وتتوفر بعد ذلك معلومات عن تأكيد الاتفاقيات بين طرابلس ونابولي في ١٧٨٥ - ١٧٨٧[٦٤].

١٠ - الحالة في دواخل طرابلس الغرب

في المنشية وتاجوراء ومسلاتة ومصراتة والزاوية وزوارة، كان القادة يبثون في الناس الشعور بسلطة الحكومة. كما كانت غريان أيضاً خاضعة تقريباً لسلطة هذه الحكومة. أما في المناطق النائية فقد كان البدو يحيون حياة حرة خارجة عن

(٦٢) فيرود ص ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٨٩.

(٦٣) فيرود ص ٢٧٥ - ٢٧٧.

(٦٤) Blessich, art, cit. p.871 - 877

كل قيد. ففي الشرق كان أولاد سليمان بزعامة سيف النصر يسيطرون على منطقة سرت وطرق فزان. وكانوا قد قتلوا رمضان آغا (قائد) مصراتة، في سنة ١٧٢٨. وتمت المصالحة بين الباشا وأولاد سليمان بوساطة الولي سيدي الصيد[٦٥]. أما النوائل في المنطقة الغربية، على حدود تونس، فقد كانوا في الغالب ملازمين للثورة، مثل ورشفانة في المنطقة الساحلية الغربية. وقد ظل المحاميد في الجبل (الجنوب والغرب من طرابلس) موالين مخلصين للقرمانللية، اعترافاً بالمعاملة المخلصة الصادقة التي لقوها في الماضي من أحمد باشا القرمانللي. وكان حسن بك، الابن الأكبر للباشا، يخرج من حين إلى آخر على رأس محلة إلى الدواخل لجمع الضرائب ومعاقبة المتمردين. وقد قاد في سنة ١٧٨٩ حملة على سيف النصر وقبيلة أولاد سليمان.

ولم يكن في الإمكان أن تبلغ السلطة المباشرة لحكومة طرابلس إلى فزان، ومع ذلك فإنه يبدو أن هذا الاقليم كان هادئاً ومواظباً على دفع الخراج. أما بنغازي ودرنة فقد كان يحكمها ممثلون عن حكومة طرابلس.

١١ - مقتل حسن بك القرمانللي على يد أخيه يوسف

كان الحقد الذي يشعر به يوسف نحو أخيه حسن بك قد انتهى به إلى قتله. ولم يدع العدد الكبير من الأعوان الذين يحيطون بحسن بك وتحمس الناس له سبيلاً ليوسف سوى سبيل الغدر. ففي يوم الجمعة ٢٠ يوليو ١٧٩٠[٦٦] ذهب إلى القلعة، ودخل على والدته، وأبلغها برغبته الأكيدة الراسخة في التصالح مع أخيه. فاستدعت (للا حلومة) ابنها حسن بك حتى تتم المصالحة بحضورها. وتبادل الأخوان الحديث، بعض الوقت، أمام الأم، ثم أقسما على المصحف بأن يعيشا في وفاق ووئام، في مستقبل الأيام، ثم أشار سيدي يوسف إلى عبيده فسلّموه مسدسين، فأطلق النار فجأة على البك الذي كان يجلس

---

(٦٥) فيرود ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٦٦) فرومنت ص ٣١. لقد تم اختيار يوم الجمعة عن قصد لخروج الناس فيه من المدينة إلى (سوق الجمعة) الواقع شرقي مدينة طرابلس.

بجوار أمه. وقد رفعت للا حلومة يدها لحماية ابنها، ولكنها أصيبت بجروح فيها، وحاول البك أن ينهض ليوجه ضربة من سيفه إلى يوسف الذي بادر فأفرغ فيه المسدس وأصابه في قلبه. وقد تألم الأهالي لموت البك. وكانت فجيعة أمه وأرملته فيه كبيرة(٦٧). ودفن حسن بك في مسجد القرمانللي بجوار جده أحمد باشا(٦٨) ودعي أحمد - الابن الثاني - من الزاوية وأسند إليه منصب البك. وقد أبت رغبة يوسف في البروز والسيادة إلا أن تؤكد نفسها ضد أحمد بك أيضاً. ففي عام ١٧٩٠ خرج الاثنان في حملة إلى مصراتة، وكان أولاد سليمان يقفون إلى جانب مصراتة ويؤيدونها، ويقف الشيخ خليفة من قبيلة المحاميد إلى جانب القرمانللية. وقد قتل في هذا الصدام ابن سيف النصر.

ولكن سيدي يوسف عاد في سنة ١٧٩٠ إلى إضرام الخلاف مدفوعاً بتأييد عرب الضواحي، وتحريض أحد الأولياء (الشيخ الفطيسي) فحاصر صيف تلك السنة مدينة طرابلس. وقد ظل طوال العام التالي وقسماً من العام الثالث ١٧٩٣ خارجاً على سلطة والده، وقام بعدة غارات على أسوار المدينة. وقد تمكن علي باشا من الحصول على تأييد المحاميد وسيف النصر وأولاد سليمان والنوائل بينما كان عرب ترهونة وغريان يؤيدون يوسف ويقفون إلى جانبه.

١٢ - علي برغل يستولي على الحكم بطرابلس (١٧٩٣ - ١٧٩٥)

بينما كانت الأسرة القرمانللية تنهار وتتفكك بفعل خلافاتها الداخلية، كان

---

(٦٧) يوميات الليدي ورتلي ص ٢٢٩ - فرومنت، المخطوطة المذكورة ص ٣١ - ٣٢ فيرود ص ٢٨٣ - ٢٨٤ وانظر كذلك:

MÉDINA (Les Karamanlis de la Tripolitaine et l'occupation temporaire de Tripoli par Ali Boulgour, in Revue Tunisienne XIV gennaio 1907.

وانظر أيضاً، سلوش (طرابلس تحت حكم القرمانللية) مجلة العالم الاسلامي المجلد ٦ - ١٩٠٨ ص ٦٤. وبين المصادر غير المنشورة نذكر (وقائع) الإرسالية الفرنشسكانية المعروفة باسم (الكتاب القديم) مخطوط ص ٢٩٧. ورسالة من قنصل الدانمرك لوكنر **Lochner** لمحفوظات القنصلية الإنجليزية وهي مؤرخة في ٢٠ - ٧ - ١٧٩٠.

(٦٨) سجلت على قبره بعض الأبيات الشعرية وتاريخ الوفاة ذو القعدة ١٢٠٤ (يوليو ١٧٩٠).

(علي برغل)[٦٩] وكيل الخارج بالجزائر (أي المختص بالشؤون البحرية)، قد طرد من تلك المدينة [٧٠] في فبراير ١٧٩٣، لما ارتكبه من فظائع، فانتقل إلى الآستانة وساوم الحكومة[٧١]، وحصل على الفرمان السلطاني بتعيينه والياً على طرابلس. وقد مر بالمورة وجزر يونيو، وجمع مئات من المرتزقة المغامرين، وظهر يوم ٢٩ يوليو بأسطوله أمام طرابلس. واقترب من حصن الميناء وأبلغ الأهالي إرادة السلطان.

وكان علي باشا شيخاً مسناً ضعيفاً، أفزعه ظهور الأسطول، وتملكه الخوف من احتمال وصول امدادات جديدة له من القسطنطينية التي كان يتوقع منذ مدة أن تفاجئه بمثل هذه المواقف. فخرج على الفور من القلعة ليلة ٣٠ يتبعه الكاهية، وأخوه بك بنغازي الذي كان قد وصل قبل ذلك بقليل، لدعمه ومساندته. وفروا جميعاً إلى تونس في الوقت الذي كان علي برغل يدخل المدينة في يوم ٣٠ يوليو. وقد طرح أحمد بك وسيدي يوسف أحقادهما القديمة وخلافاتهما جانباً، وقاما بتسليح سكان الدواخل في محاولة لاسترجاع المدينة. وتلا ذلك حصار طويل حافل بالأحداث الخيالية[٧٢].

---

(٦٩) يوميات الليدي ورثلي ص ٢٥٧ ـ فرومنت ص ٤٠ ـ فيرود ص ٢٨٤ ـ ٢٨٩.

(٧٠) فيرود.

FERAUD (Ephémérides d'un secrétaire officiel sous la domination Turque à Alger de 1775 à 1805, Revue Africaine, XVIII 1875 p. 295.

ويبدو من هذه اليوميات أنه في يوم ٧ فبراير ١٧٩٣ قام حسين باشا بإلقاء القبض على سيدي علي وكيل الخارج وأركبه بالقوة إحدى السفن المسافرة إلى تركيا صحبة قارة محمد الخزندار.

(٧١) أحمد جودت باشا (تاريخ) باللغة التركية ج ٨ ص ٣٤٣. لقد توسط له أخوه الذي كان بدار الصناعة بالآستانة لدى كابودان الأسطول حسين وتمكن بواسطته من الحصول على تعيينه (بليربي) طرابلس.

(٧٢) محفوظات القنصلية الإنجليزية، رسائل القنصل لوكاس (وقائع الإرسالية الفرنشسكانية) رسائل بلاتو، القنصل الداغركي (محفوظات القنصلية الإنجليزية) فرومنت ـ برنيا ص ٢٤٠ ـ ٢٤٦ فيرود ص ٢٨٩ ـ ٣٠٤ ـ سلوش، مجلة العالم الإسلامي ١٩٠٨٠. وانظر أيضاً: م. كوهين (اليهود بليبيا ـ عادات وتقاليد، ترجمه إلى الإيطالية م.م. مورينو ـ روما ١٩٢٩). ١٩٢٨.

ولم تتبع للا حلومة زوجها، عند هربه، وبقيت بأحد منازل المدينة، حيث توفيت في ١٧٩٣، وهي تحمل الرؤيا المؤلمة للأسرة المشتتة المتمزقة. وقد تعرض اليهود إلى اضطهاد أكثر من غيرهم[٧٣]. وسجنت استر تلك المرأة المتنفذة القوية، وكبلت بالأغلال لأنها رفضت دفع مساهمة مالية فورية. وطلب من القنصل البندقي (بلاتو) الذي يدير القنصلية الدانمركية دفع ١٢ ألف زوكيني، وحين رفض الدفع طرد من طرابلس، وأعلنت الحرب على حكومته.

ولم تفلح جهود يوسف بك ضد هذا المغامر الذي كان يتوفر على أسوار قوية وجنود شجعان وذخيرة ومدافع. وقد ساءت أحوال المحاصرين وأصبحت خطيرة بسبب انعدام المواد الغذائية، وبسبب وحشية المغامر علي برغل وجشعه وطغيانه.

وفي يوم من أغسطس ١٧٩٤ خرج علي برغل من المدينة وهزم يوسف القرمانللي الذي فر إلى تونس[٧٤].

وفي تونس أخذ يستعد لاسترداد السلطة من هذا المغامر. وكان علي برغل قد طلب من حمودة باشا، أثناء حصار المدينة، تزويده بالذخيرة، فرفض باي تونس ذلك، فأعلن عليه الحرب، واحتل جزيرة جربة بواسطة قارة محمد نائبه. وكانت عمليات النهب التي تمت في تلك الجزيرة أو التهديدات للاقليم التونسي، قد جعلت الباي يصمم على حشد جيش تونسي لاستخلاص طرابلس[٧٥].

(٧٣) يحتفل اليهود كل عام يوم ٢٩ تبت بإقامة بوريم (برغل). وتروي بعض التواريخ الطرابلسية العبرية من تأليف أ. خلفون هذا الحادث المحزن من تاريخ طرابلس. وقدأورد سلوش نتفاً عن هذا التاريخ.

(٧٤) رسالة بتاريخ ٢٠ - ١٠ - ١٧٩٤ من القنصل لوكاس (محفوظات القنصلية الإنجليزية).

(٧٥) B. ROY (Documents sur l'expédition de Tripoli en 1204 de l'hégire (1795) in Revue Tunisienne, XII, 1906 p. 283 - 291.

وفي مساء يوم ١٦ يناير ١٧٩٥ عند الساعة الثالثة بعد الزوال، ظهرت عند الهضبة البحرية الغربية طلائع الجيش التونسي بقيادة مصطفى خوجة، وفي صباح يوم ١٧، وفوق نفس الهضبة (ظهرت القوة المعادية التي لا تحصى، بين فرسان ومشاة وجمالين، وكانت من الكثرة بحيث تمتد من الهضبة حتى المنشية)(٧٦).

وقام علي برغل بآخر عمليات السلب والنهب، ونفس عن غضبه الدموي، وسافر ليلة ٨ فبراير(٧٧) متخلياً عن المدينة التي دخلها الأمراء القرمانلليون والجيش الذي لم يتردد في القيام ـ داخل المدينة وخارجها ـ بأعمال سلب وندالية. ودفع الأهالي مبلغاً كبيراً للجيش التونسي، وبايعوا أحمد باشا، وبقي علي باشا بتونس ثم جاء إلى طرابلس على ظهر سفينة انجليزية في فبراير. وتوفي في ٢٣ يوليو ١٧٩٦ وفي نفسه حسرة من الكوارث التي حلّت به، ومن الانقسام العائلي الذي أضعف أسرته(٧٨).

---

(٧٦) وقائع الإرسالية الفرنشسكانية، وتشير إلى برج لعله قلعة قرقارش.

(٧٧) رسالة بتاريخ ١٧٩٥/٢/١٢ من القنصل لوكاس (محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس) وقد سافر علي برغل بعد ذلك إلى مصر ومنها إلى مكة ثم إلى الآستانة التي أرسلته والياً على مصر حيث قتل في ١٨٠٤ (أحمد جودت تاريخ ج ٨ ص ٢٧٤).

(٧٨) رسالة بتاريخ ١٧٩٥/٧/٢٥ من القنصل الدانمركي لوشنر (محفوظات القنصلية الإنجليزية) يحمل قبره بتربة القرمانللية تاريخ محرم ١٢١١ (٧ يوليو ـ ٥ أغسطس ١٧٩٦). ويذكر (الدفتر) يوم الجمعة ١٦ محرم ١٢١١ (٢٢ يوليو ١٧٩٦) ـ أما فيرود فيورد خطأ ٣٣ أغسطس.

الفصل السابع

العهد القرمانللي ـ حكومة أحمد باشا الثاني ويوسف باشا وعلي باشا الثاني عودة السيادة العثمانية

* أحمد باشا الثاني ١٧٩٥ ـ يوسف القرمانللي (١٧٩٥ ـ ١٨٣٢) يزيح أخاه ويستولي على الحكم.
* شخصية يوسف باشا القرمانللي.
* العلاقات مع الدول الكبرى.
* الوضع في فزان والدواخل.
* أسرة يوسف القرمانللي وحكومته وبلاطه. الانهيار والاختلال الاقتصادي والسياسي بولاية طرابلس الغرب. نهاية ألقرصنة. والموقف الحازم للدول الكبرى في الخصوص.
  * ثورة الحفيد محمد بك وتنازل يوسف باشا القرمانللي ١٨٣٢.
* علي باشا القرمانللي الثاني.
* تدخل الدولة العثمانية وإعادة السيادة العثمانية على طرابلس.
* التجارة والوضع الاقتصادي بطرابلس الغرب قرب ١٨٣٠ ـ شجرة الأسرة القرمانللية.

١ ـ أحمد باشا القرمانللي الثاني ١٧٩٥ ـ يوسف باشا القرمانللي يزيح أخاه ويستولي على الحكم (١٧٩٥ ـ ١٨٣٢)

تولى أحمد باشا القرمانللي الثاني الحكم أشهراً قليلة معدودة، ثم استسلم كما هو متوقع وحتمي، لقوة شخصية أخيه يوسف وسطوته. ومن المهم أن نسوق هنا الحكم الذي سجله القنصل الانجليزي (سيمون لوكاس) الذي قال عن أحمد باشا إنه ما كاد يصل إلى الحكم حتى انساق إلى اللهو وأهمل شؤون الحكومة. وأضاف (أن سيدي يوسف كان على النقيض منه من حيث الشخصية، فلم يكن يدخن ولا يشرب الخمر، وقد تمرس عدة أعوام بتجربة الألم وتخرج من مدرستها، وأجاد فهم فن الحكم وكسب عطف الرعية التي كانت تحبه إلى درجة العبادة، وحاول بالاتفاق مع قادة الشعب إنقاذ البلاد من الدمار الكامل، فانتزع من أخيه خيوط الحكم ووضع نفسه مكانه)[1].

ففي يوم ١١ يونيو خرج أحمد باشا فوق جواده، من المدينة، في موكب كبير للترويح عن النفس. فقام يوسف بالاتفاق مع أعوانه بإغلاق أبواب المدينة خلفه، وفي أقل من نصف ساعة نصب نفسه والياً، وبايعته الرعية بالإجماع. ولم يكد أحمد باشا يسمع طلقات مدافع القلعة تعلن تنصيب الوالي الجديد حتى بادر إلى الهرب، واللجوء إلى حرم سيدي الصيد بالمنشية، ثم انتقل إلى الدواخل. وقد عرض عليه يوسف حكم بنغازي ودرنة وأوجلة، فقبل. وركب سفينة كان من المقرر أن تحمله إلى برقة، ولكن عاصفة عنيفة انتهت بها إلى مالطا، بعد مواجهة لكثير من الأخطار. وبدلاً من أن يلحق بمقر عمله الجديد،

(١) رسالة بتاريخ ٢٦ ـ ٦ ـ ١٧٩٥ بمحفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس.

فضل أحمد باشا الانتقال من مالطا إلى تونس، حيث أقام بها دون أن يتخلى عن نيته في العودة واسترداد السلطة[2].

٢ ـ شخصية يوسف باشا القرمانللي

كتبت المؤلفة الانجليزية في يومياتها عن عام ١٧٩٣، أثناء انشغال يوسف القرمانللي بتحرير المدينة من الغاصب الدخيل علي برغل، فقالت (إن مسلكه في مواجهة الأتراك الغاصبين قد أرغم الجميع على الاعتراف له بالبروز والتفرق على كافة أفراد الأسرة والإقرار له بالحكمة والدهاء رغم ما تميز به قلبه من قسوة)[3].

ويقول مؤرخ الإرسالية الفرنشسكانية في سنة ١٧٩٥ محدداً شخصية يوسف باشا (إنه ليس بالرجل القاسي، ولكنه عنيد ومترفع متكبر، لا يحترم القناصل ولا الدول الإيطالية والأوربية)[4].

كانت تلك شخصية يوسف باشا القرمانللي إلى أن أوهنت السنون والكوارث من معدنه الصلب القوي. كانت شخصية قوية متسلطة تحب الثروة كوسيلة للسيطرة وحب التأييد الشعبي. إنه خليط من الوحشية والكرم. وقد كتب عنه المكتشف الأثري الإنجليزي (سميث) فيما بعد (١٨١٦ ـ ١٨١٧) يقول (إن يوسف باشا يمثل مزيجاً من الفضائل والرذائل. فهو رجل اجتماعي ذكي وأب عطوف وصديق مخلص. ويبدو أن الطبيعة قد أرادته على أن يكون إنساناً شريفاً ولكن التجارب والمحن التي صادفته قد ساهمت ـ ولا بد ـ في طغيانه الجامح وفكره الخالي من الثقافة)[5].

واهتم يوسف باشا على الفور بتحسين الأوضاع الدفاعية بالمدينة، فقد كانت الصراعات الأخوية التي وقعت في ١٧٩١ ـ ١٧٩٣ وحصار سنوات

---

(٢) الرسالة المذكورة سابقاً ـ فيرود ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦.

(٣) يوميات الليدي ورتلي ص ٣٤٠.

(٤) الكتاب القديم، مخطوطة الإرسالية الفرنشسكانية ص ٢٨٩.

(٥) ترجم هذا النص في الأرشيف البلوغرافي الاستعماري. فلورنسا ١٩١٥ ص ١٦٤.

١٧٩٣ ـ ١٧٩٥ والإهمال الطويل للحكام السابقين، قد أضعفت هذه كلها وأوهنت من قوة التحصينات في المدينة ونشرت الدمار في الضواحي(٦).

وقد بدأ في ديسمبر ١٧٩٥ في إعادة ترميم أسوار المدينة مبتدئاً من الباب الذي يقع عند المقبرة المسيحية، باب (الفلفول) قرب الحصن الإسباني(٧). وفي سنة ١٧٩٦ كانت قوته في مجموعها تبلغ حوالي سبعين مدفعاً موزعة في عدة نقاط دفاعية. وكانت القوة البحرية تتألف من ثماني سفن وأكبرها مزودة بأربعة عشر مدفعاً. وكانت قيادة السفن بيد المدعو (بيتر ليزلي Peter Lysle) من مواليد Perth، وكان بحاراً فوق سفينة القنصل الإنجليزي. وقد اعتنق الإسلام وسمي مراد رايس(٨). وكان صديقاً حميماً للباشا الذي زوجه من إحدى بناته(٩).

كما جدد الباشا في سنة ١٨٠٠ ـ ١٨٠١ البرج المواجه للبحر والواقع في منتصف الطريق بين الميناء والقلعة. وهو يعرف ببرج (المجزرة) لوقوعه قرب مجزرة المدينة(١٠).

٣ ـ العلاقات مع الدول الكبيرة

ازدادت المنازعات مع الدول البحرية في عهد يوسف باشا، وأصبحت أكثرة حدة. ولا يمكن القول بأن الدول المسيحية قد قدمت صورة طيبة عن نفسها في مواجهة الموقف. ولم تستطع هذه الدول أن تمنع قراصنة الشمال الإفريقي وتضعهم عند حدهم إلا بعد عشرات الأعوام. عقب تحررها وتخلصها

(٦) يرجع إلى تلك الأعوام تدمير الخزان المائي الذي أقامه أحمد باشا والذي سبق الحديث عنه ضمن إنجازاته في الفصل السابق.

(٧) الكتاب القديم للإرسالية الفرنشسكانية ص ٢٨٩.

(٨) رسالة بتاريخ ٢٧ ـ ٦ ـ ١٧٩٦ بمحفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس.

(٩) **D. Badia y Leblich,** Voyages d| Aly Bey, Paris, 1814 - 11 - p. 24.

(١٠) الكتابة التي ما تزال تقرأ حتى الآن في إحدى نقاط الجانب المواجه لشارع سوق النجارة تحمل تاريخ ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ ـ ١٨٠١) وقد نشرها أوريجما
Aurigemma, Not. arch. min. delle colonie. 11, 1926 p. 292 - 398 - 399.

من المشاكل الناشئة عن قيام الثورة الفرنسية وحرب نابليون. وخلال هذه الفترة استمرت تلك العادة القائمة على كسب احترام القراصنة ومراعاتهم عن طريق البذل والعطاء. وقد اضطرت الدانمرك في سنة ١٧٩٦ وفي ١٧٩٧ إلى إرسال سفن إلى طرابلس لغرض مراعاة المعاهدات المبرمة واحترامها. ففي يوم ١٦ مايو ١٧٩٧ لقن الكابتن الدانمركي (بيل Bille) درساً قاسياً للسفن الطرابلسية، ثم وقع اتفاقية صلح جديدة.

ويقدر مجموع ما استطاع يوسف باشا أن يستلمه من أموال خلال ثلاث سنوات بما يلي[١١]:

إسبانيا	٤١٠٠٠	قرش
نابولي	٥٠٠٠	قرش
فينيسيا	٢٣٠٠٠	قرش
أمريكا	٤٩٠٠٠	قرش
راقوزا	٤٠٠٠	قرش
الدانمرك	٩٧٠٠٠	قرش
السويد	٧٧٠٠٠	قرش

وحين تصاعد الصراع الفرنسي ـ الإنجليزي من أجل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، عمدت انجلترا، صديقة الباب العالي، إلى التأثير على الحكومة العثمانية، حتى تأمر ولايات الشمال الإفريقي بالامتناع عن أية علاقة مع السفن الفرنسية. ثم دخلت تركيا الحرب، ضد فرنسا، إثر حملتها على مصر. وقد أرسلت الآستانة رسولاً سلطانياً إلى يوسف باشا يحمل إليه أمر الزحف على الفرنسيين بمصر[١٢]، والقبض على جميع الفرنسيين المقيمين بالولاية كرهائن، وملاحقة السفن الفرنسية المبحرة من طولون، واعتراض طريق المراسلات البريدية بين فرنسا وحملتها بمصر. ومع هذا كله فإن يوسف باشا لم

---

(١١) فيرود ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(١٢) فيرود ص ٣١٠.

يخف تعاطفه مع فرنسا[١٣]، تحت تأثير القنصل ورسائل الثناء التي تلقاها من نابليون. وحينما احتل نابليون مالطا ـ وبحركة سياسية أكثر منها إنسانية ـ أطلق سراح ألفي أسير مسلم كانوا بالجزيرة، وحصل من جانبه أيضاً على موافقة ولاة طرابلس وتونس والجزائر على إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين والمالطيين[١٤].

وقد استطاع القنصل الفرنسي (ب. بوسيير Beaussier) أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع يوسف باشا، رغم معارضة القنصل الإنجليزي ومعاكسته فتمكن من إرسال مواد تموينية إلى الجنرال (فامبواز Vambois) بمالطا.

وفي مايو عام ١٧٩٩ عاد القنصل الإنجليزي (لوكاس) إلى طرابلس، بعد أن خرج منها في مارس من العام نفسه، ترافقه سفينة برتغالية بقيادة الكومودور الإنجليزي (د. كامبل D. Campbell) وطلب تسليمه فوراً جميع الرعايا الفرنسيين الموجودين بطرابلس. وقد تردد يوسف باشا في البداية. ولكنه لم يجد مناصاً إزاء التهديد بالقصف، من تسليم القنصل الفرنسي ورعاياه. وقد نقل القنصل الفرنسي (بوسير) فوق السفينة البرتغالية مع غيره من الرعايا، وكان من بينهم المالطي (سافيريو ناودي Saverio Naudi) نائب القنصل والمترجم. وقد أبلغ حكومته بما حدث فور نزوله بجنوا[١٥]. وفي تلك المناسبة وقع الباشا

---

(١٣) كان لفرنسا على الدوام بطرابلس قناصل أقوياء أذكياء. وفي يوليو ١٧٩٦ وقع حادث خطير بين الباشا والقنصل الفرنسي. فقد لاحق أحد الأتراك شخصاً يهودياً وضربه داخل القنصلية الفرنسية التي استجار بها اليهودي المذكور. وقد قام القنصل الفرنسي بالقبض عليه ولم يطلق سراحه رغم محاصرة ثلاثمئة جندي من جنود الباشا للقنصلية. بل تمكن من الحصول على تسوية واعتذار. (برنيا ص ٢٥١ ـ فيرود ص ٣٠٦) بخصوص العلاقات مع فرنسا حتى سنة ١٨٥٠ انظر:

A. Bernard, (Un mémoire inédit de Pellissier de Reynaud, in Mém M. Basset Paris 1928, 1 p. 69 - 82.

(١٤) **H. Scicluna** (Actes et documents pour servir à l'histtoire de l'occupation française de Malta, Malta 1925 p. 88 - 145 - 156.

(١٥) رسالة بتاريخ ٦ مسيدورو العام السابع (وهو الشهر العاشر من التقويم الثوري الفرنسي) ويوافق (٢٥ ـ ٦ (١٧٩٩) محفوظة بالقنصلية الفرنسية بطرابلس. وقد نشرها فيرود ص ٣١٣ ـ

أول معاهدة سلم مع البرتغال بنفس الشروط التي حصلت عليها انجلترا التي كانت تحمي البرتغال في ذلك الوقت[16]. وكان إقصاء القنصل (بوسيير) هزيمة لا يستهان بها بالنسبة لفرنسا. فبعد الانتصار الذي أحرزه (نلسون) أصبح الاتصال البريدي بفرنسا عن طريق البحر أمراً شاقاً. وكان من شأن احتلال ولاية طرابلس التي تبعتها سواحل برقة، أن يبعث الأمل في إمكانية الحصول على أنباء عن هذا الطريق، إن لم تكن التجهيزات والدعم.

وقد اهتم نابليون كثيراً بضمان تبادل الاتصالات مع فرنسا عن طريق طرابلس[17]. وقد تلقى القنصل (بوسيير) الأمر بإقامة علاقات وطيدة مع طرابلس. وقد قام القنصل في مطلع ١٨٠١ بإصدار تعليماته إلى المغامر السمسار (سافيريو ناودي) لإجراء مفاوضات مع يوسف باشا. ويبدو من هذه

= ٣١٤ (حيث ينبغي أن يصحح تاريخ ٦ نوفمبر ١٧٩٩ بتاريخ ٦ مايو ١٧٩٩ وكذلك التاريخ ٢٤ - ١٢ - ١٧٩٩ الذي ذكر أنه يوافق ٦ مسيدورو) أنظر أيضاً وقائع الإرسالية الفرنشسكانية ص ٢٩٦ وكذلك ميكاكي ص ١٥٦ حيث يتبين أن سفر القنصل لوكاس قد تم في مارس ١٧٩٧.

(١٦) أنظر مجموعة (مارتنس Recueil) الطبعة الثانية ج ٦ ص ٦١٢ رقم ٦٧. لقد تغنى البرازيلي ف. كاردوسو F. Cardoso بقصيدة بالحملة البرتغالية على طرابلس نشرت بعنوان:

Carmen heroicum de rebus a Lusitanis ad Tripolin gestis, Lisbona 1800 La guerre de Tripoli.

وترجمت إلى اللغة الفرنسية سنة ١٨٤٦ بعنوان:

R. Basset, (Notice sommaire des manucrists orientaux des deux bibliothèques de Lisbone, Lisbona 1894, P 31

وقد قدم لنا نص الرسالة وترجمتها المؤرخة في ١٨ ذو القعدة ١٢١٣ والموجهة من يوسف باشا إلى كامبيل. وقد وقعها يوسف باشا بـ (المتولي أوجاق طرابلس الغرب).

(١٧) أنظر بهذا الخصوص المقالين:

F. Charles - Roux, (Bonaparte et la Tripolitaine) nell Arique Française (1925 suplem. p. 397 - 398 et 1926 Suppl. p. 474 - 477) e Naudi et le rétablissement des relations entre la France et Tripoli en 1802 in Revue de l'histoire des Colonies Française, 1929 p. 1 - 44 estratto dal vol. (En marge de l'Expédition d'Egypte Bonaparte et la Tripolitaine. Paris 1929 - Feraud p. 310 - 3.

التعليمات أن الغرض الأساسي للبعثة هو إبرام اتفاقيات لتسهيل الاتصال بمصر. وقد توسط في الأمر، لدى يوسف باشا، محمد الدغيس أحد الطرابلسيين المتنفذين. وهو صديق حميم لفرنسا.

وحضر ناودي إلى طرابلس وأبرم الاتفاق في ١٨ يونيو ١٨٠١. وتأكدت بموجبه النصوص السابقة، وأسبقية قنصل فرنسا في مراسم أعياد الفطر. وقررت المادة (٣٩) حرية الاتصالات البرية بين مدن ولاية طرابلس الغرب ومدن مصر، وتوفير التسهيلات لها، إما بقصد نقل منتوجات البلدين عن طريق القوافل والوسائل الأخرى، وإما نقل المسافرين. وتنص المادة الواحدة والأربعون على أن الإمدادات الفرنسية التي يتم إنزالها في طرابلس وبنغازي ودرنة تنقل إلى مصر بواسطة القوافل. وكذلك يشحن كل ما يرد من مصر إلى الموانىء الفرنسية سواء كان ذلك تابعاً للحكومة أو للأفراد[١٨].

وفي أغسطس ١٨٠٢ عاد (بوسيير) أيضاً إلى طرابلس، وأبرم اتفاقية العام السابق، بعد أن حذف منها النصوص الخاصة بالاتصالات بمصر عقب عودة بقايا الحملة الفاشلة إلى فرنسا[١٩].

وأمكن في سنة ١٨٠٢ بوساطة فرنسية، إيجاد حل لنزاع طويل مستحكم بين طرابلس والسويد. وقد تم الصلح على أساس اتفاقية سابقة عقدت في ١٥ أبريل ١٧٥٤ وفقاً للشروط التالية:

دفع مبلغ فوري قدره مئة وخمسون ألف فيورينو. ودفع مبلغ سنوي قدره ثمانية آلاف. عدا أنواع الدفع الأخرى[٢٠]. وبعد خلافات طويلة اتفقت

---

(١٨) أ. روارد دي كارد ص ٢٧٦. لقد اختلف ناودي بعد سنة ١٨٠٢ مع القنصل وترك وظيفته بالقنصلية واحترف السمسرة مثيراً المتاعب في وجه الجميع.

(١٩) مجموعة (مارتنس) الطبعة الثانية ج ٧ ص ٤٢٢. لقد تمت الاتفاقية الموقعة في ٢ أكتوبر ١٨٠٢ بين محمد الدغيس الوزير الأول للباشا والبارون دي جيديستروم Do Gedestrom وكان الوسيط في ذلك الكولونيل سباستياني Sebastiani الذي أرسله القنصل الأول إلى طرابلس.

(٢٠) في هذه تلميح إلى مطامع الباشا التي تقوم بعض الدول الأخرى بإرضائها مثل تقديم الهدايا إلى الوالي عند تغيير القنصل بآخر.

هولاندة في سنة ١٨٠٢ مع يوسف باشا القرمانللي على دفع مئة وخمسين ألف فيورينو. وقد تألم القنصل الهولاندي (كاوبر Kauper) من هذه الأحداث فلم يلبث أن مات في السنة التالية[٢١].

وفي نفس الوقت بدأت تنشأ لجمهورية الولايات المتحدة مصالح اقتصادية في البحر الأبيض المتوسط، وأخذت تقوم بتجاربها السياسية الأولى في التعامل مع دول الشمال الإفريقي. ففي ٤ نوفمبر ١٧٩٦ قام قنصل الولايات المتحدة (جو برلو Joe Barlow) بوساطة حسن داي الجزائر، بعقد اتفاقية مع طرابلس، على أساس الشروط المعمول بها في ذلك الوقت. وتنص المادة (١٠) على أن يتلقى الوالي مبلغاً سنوياً معيناً، كما يتلقى منحة مالية عند قدوم كل قنصل جديد، هذا عدا الهدايا والمبالغ المنتظمة الأخرى[٢٢].

وفي سنة ١٨٠٠ طالب يوسف باشا الولايات المتحدة بضريبة سنوية مماثلة للمبالغ التي تدفعها الدول الصغرى، وقد أدى رفض الولايات المتحدة إلى إعلان الحرب.

ففي يوم ١٤ مايو ١٨٠١ قام يوسف باشا بقطع سارية العلم فوق القنصلية الأمريكية. وفر الوكيل القنصلي (كاتاكارت Cathcart) إلى ليفورنو. وقامت فرقة بحرية أمريكية موجودة في البحر الأبيض المتوسط بمحاصرة طرابلس طوال صيف ذلك العام. وقصفت سفينة طرابلسية واستولت عليها وأسرت قائدها (محمد سوس) ثم أطلقت سراحه. وفي العام التالي أعلنت الولايات المتحدة الحرب على طرابلس[٢٣]. فقامت فرقة بحرية بقيادة الكومودور (موريس) في ربيع ١٨٠٣ بمحاصرة ميناء طرابلس، وهاجمت بعض القواعد المدفعية البحرية دون أن تنجح في تدميرها. وفي ٢١ أكتوبر ١٨٠٣ كانت الفرقاطة

---

(٢١) فيرود ص ٣١٧ ج ٣١٨.

(٢٢) مجموعة (مارتنس) الطبعة الثانية ج ٦ ص ٢٩٨. وقد وقع الاتفاقية يوسف باشا ومحمد بك، ومحمد الخزندار، وأحمد رئيس البحرية، وأحمد وزير القصر، وعلي رئيس الديوان، وسليمان الكاهية، وخليل قائد الجند، ومحمد شيخ البلاد، ومحمد الكاتب.

(٢٣) E. Dupuy, Américains et Barbaresques, Paris 1910 p. 132.

(فيلادلفيا) بقيادة الكابتن (بيندريج Baindrige) تتقدم الفرقة البحرية الأمريكية العاملة تحت قيادة الكومودور (بربلي Preble) وقد تقدمت الفرقاطة نحو ميناء طرابلس وهي تلاحق مركباً طرابلسياً بقيادة الرايس زريق آغا. وكانت على ثقة بإمكان ملاحقة هذا المركب، فأطلقت عليها النار، ولكن السفينة الطرابلسية الصغيرة تمكنت من الإفلات بين جزر الميناء بينما (شحطت) السفينة الأمريكية في المياه الضحلة، واضطرت إلى الاستسلام. وكانت مزودة باثنين وأربعين مدفعاً وثلاثمئة وسبعة بحارة، منهم تسعة وعشرون ضابطاً. وقد جاء الكومودور (بربلي) إلى طرابلس في ديسمبر، ولكنه لم يفلح في إطلاق سراح الأسرى، لأن الباشا كان يطالب بمبلغ كبير لافتدائهم. واكتفى بمحاصرة البحر وملاحقة القراصنة. وفي ١٦ فبراير ١٨٠٤ قامت سفينة أمريكية تسمى (إنتربيد Intrepid) بقيادة (ستيفانو ديكاتور S. Decatur) باستغلال ظلام الليل، واقتربت من الفرقاطة فيلادلفيا التي أزيحت عن مكانها، وأسرت حراسها، ثم أشعلت فيها النار[٢٤].

وقد زاد هذا التصرف من حنق الباشا ونقمته. وعاد الأميركيون من جديد إلى مهاجمة طرابلس، في أغسطس من ذلك العام، وقاموا بعمليات جريئة ضد مراكب القرصنة، داخل الميناء. وكانوا يناوبون بين المعارك والحرب وبين دعوة الوالي إلى الصلح والتسوية. ولكن الوالي كان مصراً على موقفه الرافض، رغم وساطة فرنسا. وكان يرفع باستمرار من قيمة المبلغ المطلوب.

ويندد القنصل الفرنسي بوسيير[٢٥] - الذي استخلصت هذه المعلومات من

(٢٤) ساهم الأسطول النابوليتاني في العمليات التي جرت سنة ١٨٠٣. وقد كانت السفينة التي قامت بالعملية الجريئة في فبراير ١٨٠٤ بقيادة (سلفاتور كاتالانو) من مسينا - أنظر برنيا ص ٢٥٥ وكذلك مقال رفيلو **A. M. G. Riviello** الذي اعتمد عليه وأشار إليه في الصفحة المذكورة.

La Bolina, Un percusore degli Italiana a Tripoli (Salvatore Catalano ecc) in Rassegna nationale 1912 p. 496 - 474

(٢٥) رسائل بمحفوظات القنصلية الفرنسية بطرابلس بالتواريخ الفرنسية: ١٠ برومـاي سنة ١٢ - ٢٧ بلوفيوس سنة ١٢ - ١٤ فروتودورو سنة ١٢.

مـراسلاتـه ـ بقسـوة بمسلك الأمـيركيين قـائلاً: (كـان من الأحسن أن يبـادروا بالهجوم، دون الدخول في مفاوضات. إن دول (بربريا) تتوفـر على فن الـظهور بمظهر القوي الحازم، بكل وسائلها المحدودة، خـاصة إذا فـطنت إلى الرغبـة في التلاعب بها وخداعها).

وبناء على نصيحة (كاتا كارت) الذي كان قنصـلاً بطرابلس و(إيتـون W. Eaton) القنصل الأمريكي بتونس، قام الأمـيركيون في سنـة ١٨٠٢ بنقل أحمـد بك القرمانلي الذي كان قد نحاه أخوه يوسف باشـا عن الحكم، من تونس إلى مالطا، ومنها إلى درنة، وساعدوه على الثورة على أخيه وانـتزاع حكـم تلك المنطقـة منه. ولكن قوات يوسف باشا كانت لها الغلبة واضطر أحمد بـك إلى اللجوء إلى مصر.

وقـد عاد الأمـريكيون إلى استغـلال فكرة المنـافسة بـين أحمد بـك وأخيـه يـوسف، من أجل إضعـاف هـذا الأخـير، فـاستغـل هـذه الفكـرة من جـديـد الكـومودور بـارون Barron الذي وصـل إلى البحر الأبيـض بفـرقة جـديدة في سبتمبر ١٨٠٤ وأرسل (إيتون) على ظهـر إحدى السفن إلى الإسكنـدرية، حيث قابل بـالفيوم في فـبراير ١٨٠٥ أحمـد بك، ودرس معـه خطة هجـوم بري عـلى درنة، يتم عبر الساحل، منطلقاً من بـرج التراب، غربي الإسكندريـة، خلال شهـري مارس وأبـريل من ذلـك العام. وتم الاستيـلاء على درنـة في ٢٩ منه، بمساعدة السفن البحربية الأمريكية[٢٦]. وكانت تجري في نفس الوقت المفاوضات التي استؤنفت في ربيـع تلك السنة بـين يوسف بـاشا والكـولونيـل (طوبيـاس لير Tobias Lear) قنصل أمريكا بالجزائر. وانتهت المفاوضات في ٣ يـونيو، بتبـادل الأسرى ودفع ستين ألف دولار إلى الباشا فدية لمئتي أسير أمريكي[٢٧].

---

(٢٦) أنظر الدراسة الهامة التي كتبها دي أغسطيني عن الحملة الأمريكية في برقة سنة ١٨٠٥ في مجلة المستعمرات الإيطالية سنة ١٩٢٨ ص ٧٢١ ـ ٧٣٢ وسنة ١٩٢٩ ص ٤١ ـ ٥٦.

(٢٧) أورد بهيج الدين في تاريخه النص التركي للاتفـاقية ويتـألف من عشرين مادة وخـاتمة من ٧٠ ـ ٧٧ وهي مؤرخة في ٤ يونيو ١٨٠٥ الموافق ٦ ربيع الأول ١٢٢٠ (أما أغسطيني في مقاله المشار إليه أعلاه فيرى أنه ٣ يونيو).

وتوجب على أحمد بك وإيتون بعد هذا الاتفاق أن يغادرا درنة، على ظهر سفينة أمريكية، وجاء محمد بك القرمانللي من بنغازي، وأعاد سلطة حكومة طرابلس على درنة.

٤ ـ الوضع في الدواخل وفزان

رغم ما كان يتمتع به يوسف باشا سيف من هيبة واحترام لدى العرب، إلا أن سكان الدواخل لم يركنوا إلى الهدوء حتى في عهده، وكان عليه أن يخمد في سنة ١٨٠٣ ثورة قامت في غريان، وقتل فيها صهره الخازن الكبير[٢٨]. وفي سنة ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ ـ ١٨٠٧) قتل محمد بك، أحمد سيف النصر زعيم أولاد سليمان الذين كانوا يغزون مناطق فزان وسرت وبرقة[٢٩]. وفي سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ ـ ١٨١١) وبعد أن قام سكان غدامس بقطع علاقتهم مع طرابلس، ورفضوا دفع الضريبة أرسل يوسف باشا ابنه علي بك. ولكن لم تقع مواجهة مسلحة، وتم الإتفاق على أن يدفع سكان غدامس عشرين ألف مثقال من الذهب إلى الوالي، بالإضافة إلى مئة وعشرين ألف محبوب كتعويض عن الحملة. وتجدد دخول غدامس في طاعة حكومة طرابلس وتم تعيين بعض الموظفين الطرابلسيين بها[٣٠].

وفي سنة ١٨٢٦ ـ ١٨٢٧ ثار عبد الصمد بن سلطان (بترهونة) وقد قام الجنود الطرابلسيون، بقيادة الحاج محمد بيت المال[٣١] بإخماد تلك الثورة والقضاء عليها. وكانت قبيلة (نوير)، وهي بطن من بطون المحاميد، أقوى القبائل بالجبل الغربي. وكان زعيمها أبو القاسم بن خليفة بن عون المحمودي قد وجد نفسه عاجزاً عن إخضاع أهالي نالوت وجبل نفوسة، فطلب مساعدة

---

(٢٨) رسالة من القنصل الفرنسي بتاريخ ٢٦ مسيدورو سنة ١١. لقد استعمل الخزندار العنف في جباية الضرائب. ويذكر بهيج الدين ص ٦٩ اسم الخزندار الأكبر ويقول إنه الحاج أحمد آغا. ويقول إن زعيم المتمردين كان اسمه عبد الوافي وقد قتل في هذه الثورة.

(٢٩) بهيج الدين ص ٧٧.

(٣٠) بهيج الدين ص ٧٨.

(٣١) النائب ص ٢٣٥.

يوسف باشا الذي أرسل إليه قوة بقيادة أحمد بك. وقد تم الاستيلاء على نالوت ١٨١٧ ـ ١٨١٨ بعد معارك. وعقب ذلك بفترة قليلة، استدعى يوسف باشا إلى طرابلس أبا القاسم بن خليفة في ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ ـ ١٨٢١) واستضافه وأحاطه بكل مظاهر التكريم، ثم قتله غدراً، ولعله بذلك أراد أن يزيح من طريقه هذا الزعيم القوي المهيمن على الجبل[٣٢].

وكانت فزان تشكل عنصراً من عناصر الثروة لطرابلس لا يمكن إغفاله. سواء بسبب الضرائب التي يدفعها الأهالي أو تجارة الرقيق والقوافل مع السودان. وقد تم إخضاعها بصفة تامة، بعد حملة أحمد باشا القرمانللي الأولى، وكانت تحافظ وتتقيد بالشروط المفروضة عليها. وقد خلف أحمد ناصر، المتوفى في ١١٨١ هـ (١٧٦٧ ـ ١٧٦٨) ، ابنه الطاهر، وخلف الطاهر في سنة ١٧٧٣ ـ ١٧٧٤ حفيده أحمد. وفي سنة ١٢٠٤ هـ (١٧٨٩ ـ ١٧٩٠) كان أخوه محمد يحكم فزان[٣٣].

وقد مر في عهده، بفزان، الرحالة الألماني (فريدريك هورنمان Friedrich Horneneman) ويخبرنا بأن محمد هذا كان يلقب نفسه (بالسلطان)، ولم يكن يستعمل كلمة (شيخ) إلا في مخاطبته للباشا. وكان العرش وراثياً في أكبر أفراد الأسرة. ويقيم السلطان في قلعته. وله حريم وبلاط أميري. ويسمى الوزير الأول (كليديما Kaledyma)[٣٤] والوزير الثاني (كيجومة Keijuma) وثمة قائد للجند وجماعة من المماليك، بينهم بعض الأوربيين. ويرسل الوالي كل عام

(٣٢) النائب ص ٣٢٤ ـ ٣٣٢ ـ بهيج الدين ص ٧٧ ويبدو من رحلات دنهام وكلابرتون وأودني ص ٢٩٩ أن يوسف باشا كان يهوى امرأة من الجبل تعرف باسم الجبالية سباها محمد بك، وهي التي حصلت من يوسف على الموافقة على السلطة الكبيرة التي أسندت إلى أبي القاسم بالجبل.

(٣٣) **Krause, op. cit. p. 371**

(٣٤) (كلاديمة) وتنطق بطرابلس (قليديما) وهي كلمة سودانية ومعناها أعلى سلطة بعد السلطان. وفي فزان يطلق الفزانيون المقيمون بطرابلس كلمة (قليديما) على الرئيس الذي يدير حفلاتهم الدينية الريفية.

مبعوثه المسمى (بك النوبة) لجباية الضرائب ويسافر في العادة إلى فزان في شهر نوفمبر ويمشي في ركابه وتحت حمايته الرحّالون والتجار[٣٥].

وقد كان (بك النوبة) في عهد يوسف باشا، محمد المكني. وقد أرسل في نوفمبر (١٢٢٧ هـ) (١٨١٢ ـ ١٨١٣) إلى فزان، برفقة حملة كبيرة موجهة ضد محمد الشريف الذي خلف أخاه، ورفض دفع الضريبة. وهاجم المكني، محمد الشريف، وقتله. كما قتل ولديه الكبيرين وكبار رجال حاشيته. وأصبح هو سيداً على فزان[٣٦]. وفي سنة ١٨١٦ ـ ١٨١٧ توغل في أراضي (كانم) وأسر ألفاً وثمانمئة أسير، ماتوا جميعاً أثناء الرحلة، بسبب العناء والإرهاق[٣٧].

وتنقل إلينا تقارير الرحّالين في ذلك العهد صورة عن الوضع في دواخل البلاد. وعلى سبيل المثال، فقد كانت سوكنة تدفع ما يقرب من ألفي دولار سنوياً، أي بمعدل دولار واحد عن كل مئتي شجرة، بالإضافة إلى التزامها بالإنفاق على الحاكم أو (السلطان) كما كان يلقب، أثناء إقامته بالإقليم. وكان المكني يقوم شخصياً بالرحيل من أجل جباية الضرائب، ويظل بالموقع حتى يسدد ذلك الموقع ما عليه من ضرائب[٣٨].

وأخيراً، قرب سنة ١٨٣٠، انتزع عبد الجليل بن غيث بن سيف النصر

---

(٣٥) Tagbuch seiner Reise ron Cairo mach murzuk in den Jahren 1797 - 1798. Wiemar 1802

(٣٦) ج. ف. ليون ويقول إن ذلك قد وقع في سنة ١٨١١ بينما يقول النائب ص ٣٢٣ إن ابن أخي محمد الشريف قد عرض على محمد المكني أن يقتل عمه منددًا بالشرور التي يرتكبها بمسلكه السيء وسوء تصرفه في الحكم ووعده المكني بأن يعينه في مكانه. ولكن المكني فتك به هو أيضاً بعد أن فرغ من مهمته في قتل عمه، وذلك بناء على طلب من أعيان مرزق.

(٣٧) ليون ص ٣ ـ ١٢٩ ـ النائب ص ٣٢٤. وكان صاحب بورنو في ذلك الوقت الشيخ محمد الأمين الذي درس بطرابلس. وكان المكني قد أرسل بناء على رغبته لإخماد إحدى الثورات. ويذكر الرحالة وعالم الآثار (سميث) (في الأرشيف البيلوغرافي الاستعماري ـ فلورنسا ج ١ ١٩١٥ ص ١٦٤) أن المكني قد تجاوز بورنو وتوغل في منطقة غنية بمياهها ويسكنها السود. وربما عنى بذلك كانم وضفاف بحيرة تشاد وقد عرفت بئر مقرو التي كانت تحدد في ذلك الوقت الحد لفزان باسم (مقبرة العبيد) (رحلة: دنهام ـ كلابرتون ـ أودني ـ ص ٤ ـ ١٠).

(٣٨) رحلة الكابتن ليون ص ٧٣ ـ ٧٤.

حكم فـزان من القرمـانللية، ووضعهـا تحت سيطرة أولاد سليـمان، حتى العهد العثـماني الثـاني[٣٩]. ويقـول النـائب: (إن عبــد الجليـل قــد ثـار في ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ ـ ١٨٣١) ووضـع نفسـه عــلى رأس الثـوار، واستقــر أولاً بـورفلة ثم استولى على سوكنة ومـرزق). وقد كـان أولاد سليمان منـذ بدايـة القرن التـاسع عشـر يضـايقون حـركـة القـوافـل في فـزان، ولكن المكنـي هـزمهم وحـد من سطوتهم.

٥ ـ الأسرة والبلاط والحكومة في عهد يوسف باشا القرمانللي. انهيار ولاية طرابلس وإفلاسها السياسي والاقتصادي. نهاية القرصنة والموقف الحازم للدول الكبرى.

ينقـل لنا (بـلاكيـر Il Blaquière)[٤٠] الـذي كـان بـطرابلس قـرب سنـة ١٨١٢ أنه كانت ليوسف باشا في ذلك الوقـت ثلاث زوجـات، واحدة بيضـاء وتعـرف باسم السيـدة الكبيرة، واثنتان سوداوان، وقـد أنجب من الأولى خمسة أولاد: ثلاثة ذكور وبنتين. (محمد بك ٢٣ سنـة. وقد تـزوج من إحدى بنـات عمـه ورزق منها ثـلاثة أولاد) أحمـد بك ١٧ سنـة. علي بـك ١٦ سنة. خـدوجـة وهي زوجة سليم الخزندار. وفاطمة خطيبـة مصطفى قـورجي رئيس البحريـة.

---

(٣٩) في كتـاب رحلة دنهام وكلابـرتـون وأودني (Narrative of Travels) ص ٣٦ يؤكـد المؤلفـون أن أولاد سليمان قد شتتوا من قبل الباشا بمساعدة قبيلة المقارحة، وأن أبناء سيف النصر قد لجـأوا إلى مصر. وقد برز في حملة السودان الأخيرة اسم عبد الجليل، وهو أكبر الأحيـاء النـاجـين من أسرة سيف النصر الذي أعلن خضوعه للباشا وكان يمتلك جزءاً من أموال أجداده بسببها وكان تحت تصرفه ألف فارس. ويرى النائب أنـه لم يكن على عـلاقات مـع يوسف بـاشا القـرمانللي فحسب بل إنه قد استخدم من قبل يوسف في حملات تتعلق بأمن الدواخل. وفي سنة ١٢٤٢ (١٨٢٦ ـ ١٧٢٧) وجـد سلطان بورنـو محمد الأمـين نفسه في وضـع حرج سيء بسبب ثـورة رعاياه عليه. وقد طلب مساعدة يوسف باشـا القرمـانللي الذي أرسـل إليه عبـد الجليل بن غيث ابن سيف النصر مع جنود من طرابلس، فأعادوا الأمن والنظام وعادوا بغنائم وافرة وعبيد.

(٤٠) مؤلف كتاب (رسائل من البحر الأبيض المتوسط) ج ٢ ـ لندن ١٨١٣.

(أي الأميرال الأول للباشا). ورزق من الزوجتين السوداوين بثلاثة ذكور وإناث[41].

ولم يكن يوسف باشا محظوظاً في أبنائه، على الأقل في شخص ابنه الأكبر محمد بك الذي يصفه الرحالة الإيطالي (دلا شيلا)[42] بأنه أسوأ (الوحوش القاطنة بإفريقيا) وأنه (كان إنساناً بليد الروح لم ينفذ إليها أي شعاع من العقل، وهو مجبول على أشد العواطف وحشية وعنفاً). وكان يجد متعة في إعداد أنواع من السموم، وتجريعها لخدمه، ثم يأخذ بمراقبتهم ليستمتع بمشهد الاحتضار. وسنرى كيف ثار بعد ذلك على والده، ثم كيف ثار ابنه من بعده على جده يوسف باشا، كما لو كانت تلك خصيصة عرقية متوارثة. وكان الوزير الأول سيدي أحمد، وهو رئيس سابق للبحرية، سفيراً بمالطا، معتمداً لدى حاكم الجزيرة الإنجليزي الجنرال (أوكس Oakes) في سنة ١٨١٠. وقد كان رجلاً مستهتراً[43]. أما كاهية الوالي فقد كان روسياً، معتنقاً للإسلام. أما الخزندار فيدعى سليماً وهو أخ لمصطفى قورجي. أما الكاتب الخاص للباشا فقد كان يهودياً واسمه (إبراهيم سروسي Abraham Serusi) وكان سيدي أحمد قد رحل في سفارة إسبانيا. ويبدو أنه كان رجلاً نابهاً، وكان يحسن الحديث باللغة الإيطالية[44].

أما المناصب البحرية فقد كان مصطفى قورجي يشغل المنصب الأكبر فيها. وقد صار فيها بعد صهراً للباشا، وأحد ثقاته. وقد مكنه عطف يوسف باشا عليه، والمركز الذي يحتله، من جمع ثروة طائلة، صرف بعضها فيما بعد، على إنشاء المسجد المعروف باسمه (قورجي) الذي انتهى العمل فيه سنة

---

(٤١) E. Blaquière, op. cit. 11 p. 9

(٤٢) رحلة دللا شيلا ص ١٠.

(٤٣) يصفه الرحالة الكابتن ليون بأنه (أمي).

(٤٤) بلاكيير ص ٩. ويقول الرحالة الكابتن ليون الذي كان بطرابلس خلال ١٨١٨ ـ ١٨٢٠ إن نوعاً من اللغة الإيطالية السيئة شائع بين سكان المدن ولذا فإن المسيحيين لا يجدون صعوبة في إنجاز أشغالهم وأعماله.

١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ - ١٨٣٤). بينما انتهى الرايس مراد الشهير (وهو اسكتلندي اعتنق الإسلام، وكان يعرف باسم بيتر ليزلي) نهاية بائسة، إذ غدر به الزمن وخانه الحظ. أما المكان الثاني في البحرية[٤٥] فقد كان بيد عمر الشللي رايس. وثمة رؤساء بحريون آخرون ورد ذكرهم في سلسلة عن حالة البحرية القرصانية الطرابلسية منذ سنة ١٨٠٥ حتى ١٨١٦ الموجودة بمحفوظات القنصلية الفرنسية بطرابلس[٤٦]. ونقتبس مثلاً من هذه المحفوظات، وهو يشير في الثلاثة الأشهر الأولى من سنة ١٨١٢ إلى أن ثلاث سفن قد غادرت الميناء، وعادت ثماني سفن. وكان النصف الثاني من العام أوفر حظاً من بدايته، إذ خرجت ١٢ سفينة ورجعت ١٥، وهكذا في الربع الثالث والربع الأخير من السنة ١٩ و٢٠ - ٦ و٨. وقد بلغت الحركة في مجموعها ٤٠ سفينة خارجة و٤١ سفينة وافدة. وهي تتألف من ١٣ سفينة مخصصة للقرصنة و١٠ سفن لحمل الغنائم. أما بقية السفن فهي تعمل للنقل البحري بين مالطا وتونس ومصر وسوريا وإزمير. ويذكر المستشار القنصلي الحصيف عدد المدافع التي زودت بها هذه السفن وتاريخ خروجها وعودتها وأسماء الرؤساء.

وتبرز منهم خلال الفترة الواقعة بين ١٨٠٥ - ١٨١٦ هذه الأسماء: محمد رودسلو (أي من رودس). محمد الزريق[٤٧]، ابراهيم قوار داريبا، الحاج علي بن رجب آغا، مراد ريس (انجليزي الأصل معتنق للإسلام) عمر الشللي، علي الشركسي، حسن المشرقي، اسماعيل تمومن، عبد الله حفيظ، فرج سلامة.. إلخ. وقد تمكن هؤلاء في سنة ١٨١٦ من أن يحملوا غنائمهم التي غنموها على ظهور السفن وقوارب الصيد التابعة للدول الصغيرة، خاصة جزر إيطاليا وسواحلها، على الرغم من انهيار القرصنة في ذلك الوقت، ومنعها من مهاجمة سفن الدول المتصالحة مع الباشا. وهكذا عاد حسن المشرقي إلى ميناء طرابلس،

---

(٤٥) بلاكيير (المصدر السابق).

(٤٦) يحمل السجل عنوان (العلاقات مع البايات القرمانللية).

(٤٧) ذكر اسمه في الوقائع التاريخية العبرية التي أفاد منها سلوش في دراسته عن القرمانللية التي نشرها بمجلة العالم الإسلامي ج ٦ سنة ١٩٠٨ ص ٥٦ - ٨٤ - ٢١١ - ٢٣٢ - ٤٣٣ - ٤٥٣.

في ٢ يناير بسفينته المزودة بأربعة مدافع، يحمل خمسة أسارى من النابوليتان. وقام عمر الشللي وخليل قيواز باقتياد عدد من الأساري التابعين لدولتي روما ونابولي. وذلك في ٢٨ فبراير من تلك السنة. كما عاد علي الشركسي يوم ١٩ مارس بخمسة وعشرين أسيراً نابوليتانياً.

ومنذ سنة ١٨١٥ وما بعدها - كما سوف نرى - ثار الضمير الشعبي في أوربا بأسرها ضد الأعمال البربرية التي يقوم بها القراصنة، وأرغم الحكومات على العمل بطريقة جماعية لإيقاف تلك المذلة. ولكن قبل أن يصل الأمر إلى الإلغاء النهائي للقرصنة الذي كان يعني بالنسبة لطرابلس والجزائر نهاية الإيالتين، كانت ثمة صراعات وصدمات عديدة مختلفة. فقد طالب يوسف باشا في سنة ١٨٠٨ السويد بمنحه مبلغ ثمانية آلاف فرنك - ، ولما لم تستجب السويد لطلباته قطع علاقاته معها، واستدعى القنصل السويدي، ثم تمكن نائب القنصل (أندريا كوستا Andrea Costa) من أن يجد السبيل لتسوية النزاع بترضية الباشا بمبلغ ٧٠ ألف فرنك[٤٨]، عبر على أثرها عن امتنانه في رسالة بعث بها إلى الحكومة السويدية.

وجددت انجلترا في مايو ١٨١٢ معاهدة الصداقة مع طرابلس وعرض القنصل الإنجليزي في نفس الوقت وساطته لتوقيع معاهدة صلح بين طرابلس ومملكة الصقليتين[٤٩]. وقد وردت آخر حوادث القرصنة الطرابلسية في تقرير كتبه ربان سفينة تحمل العلم النمساوي. وكان قد غادر ميناء تريستي في ١٨١٥ وفاجأه القراصنة في البحر الأدرياتيكي، وقد وجه تقريره في اللغة الإيطالية إلى مستشار القنصلية الإنجليزية بطرابلس، وذكر في ختامه ما يلي:

(لقد عوملنا منذ بداية الرحلة حتى وصولنا إلى هذا الميناء بأشد الطرق وحشية، وأقلها إنسانية، إذ وضعنا في مقدمة سفينة القرصنة، وكانت

(٤٨) بهيج الدين ص ٧٩ وهو يقدم نص الرسالة المؤرخة في ٢ رجب ١٢٢٣ (٢٤ أغسطس ١٨٠٨).

(٤٩) محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس - هرتسلت ج ١ ص ١٥٢.

المعاملة السيئة التي عوملنا بها والشتائم التي تنهال علينا، وما بها من تعذيب وحرمان كفيلة بالقضاء علينا جميعاً، لو طال أمد الرحلة عدة أيام أخرى. وقد وصلنا يوم ٣٠ الجاري عند الساعة الرابعة مساء إلى ميناء هذه البلاد، وتم إنزالنا إلى البر، ونقلنا بين هتاف الجماهير وشتائمها إلى قلعة المدينة). وقد أطلق سراح الأسرى بناء على تدخل القنصل الإنجليزي، ودفعت لهم تعويضات عن الأضرار التي تعرضوا لها[٥٠].

ولا بد أن نلاحظ أن مسلك الحكومة الإنجليزية نحو طرابلس قد أصبح في تلك الأعوام أكثر قوة وحزماً. وهو مسلك ينبغي أن نقرنه بالأهمية التي بدأ يكتسبها البحر الأبيض المتوسط، لدى الإنجليز، بعد امتلاكهم لمالطا. لقد وضعوا أقدامهم في مالطا سنة ١٧٩٩، مصممين على البقاء بها أطول مدة ممكنة، وقد تمسكوا بهذا القرار، حتى حين قررت اتفاقية (أميانس Amiens) إعادة الجزيرة إلى فرسان مالطا.

وبعد سنة ١٨١٤، أي بعد أن أقر في (فينا) امتلاك الانجليز لمالطا، أصبح موقف انجلترا أكثر قوة وصلابة، وأسبغ احتلالها للأرخبيل المالطي أهمية كبرى على العلاقات بإفريقيا الشمالية، لا بسبب القرب الجغرافي فحسب، ولكن أيضاً، لوجود جالية مالطية بطرابلس والجزائر وتونس. وبالفعل فإن قائمة الأشخاص المشمولين بحماية القنصل البريطاني، كما كانت تبدو في سنة ١٨٠٤ وتضم تقريباً مئة شخص، كانوا كلهم تقريباً من المالطيين كما تدل على ذلك ألقابهم العائلية[٥١]. وكانت العلاقات الطيبة القائمة بين انجلترا ومملكة الصقليتين قد زادت من إبراز سلطة القنصل الإنجليزي بطرابلس. وقد شغل هذا المنصب، منذ سنة ١٨١٤، ولعدة أعوام لاحقة، (جورج هامر

---

(٥٠) محفوظات القنصلية البريطانية بطرابلس (٣١ ـ ٨ ـ ١٨١٥).

(٥١) محفوظات القنصلية الإنكليزية بطرابلس ٢٩ ـ ٦ ـ ١٨٠٤.

(٥٢) يقدم لنا فيرود (ص ٣٢٧) معلومات عنه مستفيداً من ذكريات ابنه الذي تعرف عليه.

(٥٣) محفوظات القنصلية الإنجليزية بطرابلس، رسالة بتاريخ ١٢ ـ ٩ ـ ١٨١٥ موجهة إلى حكومة مالطا.

وارنجتـون George Hammer Warrington) الذي بـرز في حرب إسبـانيا[٥٢].
وهو رجل قوي، ألمعي، لم يطل به الأمد حتى أمسك في يديـه بخيوط السيـاسة الطرابلسية.

وفي سنـة ١٨١٥، حين اضـطرته الـظروف إلى العمل عـلى تحريـر أحـد الأرقاء المسيحيين كـان قد لجـأ إلى القنصلية، كتب وارنجتـون إلى حكومـة مالـطا يشكو من استمرار القـرصنة، واسـترقاق المسيحيـين قائـلاً: (إني لأتساءل إلى متى ستسمح انجلترا بهذه التجـارة؟)[٥٣]. وكانت انجلترا قـد تلقت، في ذلك الـوقت بـالذات، التكليف من مؤتمـر فيينا بـأن تفرض بقـوة أسطولهـا على دول الشـمال الإفريقي (بربارسك) إلغاء استرقاق المسيحيين.

وقد وصل لورد اكسموت Exmouth إلى طرابلس في ٢٧ أبريل ١٨١٦، بعد زيارته للجزائر وتونس، وعقد اتفاقية مع يوسف باشـا تشمل اليونانيين من سكان جزر أيونيا (الخاضعين بصفة مؤقتة لانجلترا) بالضمانات المتفق عليها، كما ألزمه بالتوقيع على تصريح خاص بإلغاء استرقاق المسيحيـين. وتم إطلاق سراح خمسمائة وثمانين أسـيراً، منهم أربعمائـة واثنان وعشرون من نـابولي وصقليـة ومئة وأربعون من ساردينيا وجنوا وعشرة من روما، وأربعة من هامبورج[٥٤].

وأجـبر اللورد إكسمـوت يـوسف باشـا عـلى عقـد معـاهـدات صـداقـة وعلاقات تجارية مع مملكة ساردينيا، ومملكة الصقليتين. وشعرت حكومة تورينو بـإيطاليـا بعد امتـلاكها لجنـوا وساردينيـا بضرورة تنظيم العـلاقات مـع الشـمال الإفريقي. خاصة بعد أن تزايدت، في سنة ١٨١٥، الهجمات على سفن ساردينيـا وسواحلها. وفي الاتفاقية المعقودة مع ملك اسبـانيا التي وقعهـا اللورد اكسموت

(٥٤) يحمل التصريح تاريخ ٢٩ أبريل وهو مطابق للتصريح الصادر في ١٧ أبريل والمـوقع من بـاي تونس، ويعلن التصريح: (أنه في حالـة أي حرب مقبلة لا قـدر الله مع أيـة دولة أوربيـة، لا يسترق ولا يستعيد أي أسير من الأسرى السياسيين للطرفين وأن يعـامل جميـع الأسرى معاملة إنسانية تامة كأسارى حرب حتى يتم استبدالهم بطريقة منظمة للعـادة الأوربية وأن يعـادوا إلى بلدانهم عند انتهاء الحرب دون دفع أية فدية) مجموعة (مارتنس) ج ١ ص ٤٩١ رقم ١٤.

في ٢٩ أبريل ١٨١٦ نيابة عن حكـومة تـورينو، اتفق أيضـاً على إنشـاء قنصلية ساردينية بطرابلس، وإلزام مملكة ساردينيـا بأن تدفع للباشا مبلغ أربعـمائة ألف سكودو إسباني، كنوع من الهبة، عند تغيير أي قنصل من قناصلها(٥٥). وقد تولى وارنجتون قنصلية ساردينيا.

وفي نـوفمـبر ١٨١٦، وصـل إلى طـرابلس أول قنصـل ساردينـي هـو (ف. بارتولوميئو بـوكاردي F. Bartolomeo Boccardi). ثم خلفـه بعد ذلـك (فيبونوشينو هوجو Veponuceno) ثم (ج. ب. بارودي C. B. Parodi).

وعقـدت في نفس الوقت، وبـواسطة من اللورد اكسمـوت، اتفاقيـة مـع مملكـة الصقليتين التي دفعت خمسين ألف قرش اسبانـي فدية لتحرير الأسرى، ومبلغ واحـد وأربعين ألف قـرش عند كـل مرة يتم فيهـا تعيين قنصـل لهـا في طرابلس(٥٦). وبقيت دوقية توسكانا ودولة البابا عرضة لعبث القراصنة. وقد قامتـا أيضـاً في سنة ١٨١٨ بعقـد اتفـاقيـات مـع طـرابلس(٥٧) وفي سنـة ١٨٢٦ تـولى (ج. روسني G. Rossoni) مهمة القنصل العام لدوقية توسكانا.

---

(٥٥) طبع نص الاتفاق في العمل الرائع الذي كتبه:

G. Ferrari (La Spedizione della Marina Sarda a Tripoli nel 1825, Roma 1912 (Estratto dalle mémoire Storiche Militari del Corpo di S. M. Ufficio Storico) p. 31 - 33 - Torino 1816 presso de Pane.

وقد طبعت النصوص الإيطالية والإنجليزية والفرنسية للمعـاهدات التي عقـدت في تلك الفترة مع بلدان الشمال الإفريقي (بربارسك) في:

Trattati di pace e di amicizia tra Sua maestà il Re di Sardegna, Cipro, e Jerusalemme e le Reggenze di Algeri, Tunisi, e Tripoli.

(٥٦) **Picca,** (L'Italia e la Tripolitania attraverso la storia, Roma 1911 p. 19.

(٥٧) بخصوص العلاقة بين دولة البابا ودول الشمال الإفريقي انظر:

(**La Veccia Vaglieri,** Santa Sede e Barbareschi dal 1814 11 1819, in Oriente Moderno, XIII 1932 p. 456 - 484.

وبخصوص الخلاف بين قنصل فرنسا وإنجلترا بطرابلس.. انظر لنفس الكاتب:

Una contraversia a Tripoli di Barberia nel 1825 fra i consoli inglese e francesse, in Riv. Cal. Ital. VI - 1932 - p. 378.

يستسلم المؤلف هنا لمشاعره الوطنية الذاتية.

وقد أكدت ضعف السيادة القرمانللية على برقة الانتفاضات التي وقعت في سنة ١٨٠٥ بوصول أحمد القرمانللي الذي كان يسانده الأمريكيون. وقد انقسم القوم إلى فريقين: فمنهم من انحاز إلى أحمد، ومنهم من سار مع يوسف. وقد أدى إرسال الدعم، وعقد الصلح مع أمريكا، إلى منح البلاد فترة من الهدوء والاستقرار. ولكن الحركات التمردية لم تلبث أن عادت إلى الظهور. وقاده محمد بك، أكبر أنجال يوسف باشا، حملة في سنة ١٨١٢ على بنغازي ودرنة، وأقام المذابح الدامية للثوار(٥٨). ثم خرج محمد نفسه على طاعة والده يوسف باشا الذي وجه إليه محلة قوية بقيادة ابنه الآخر أحمد بك، وذلك سنة ١٨١٦. وقد شارك في هذه الحملة الطبيب الجَنَوِيّ الدكتور (باولو دالا شيلا Paolo Della Cella) الذي ترك لنا ذكرى هذه الرحلة في كتاب ذي أهمية تاريخية وعلمية عظيمة(٥٩).

غادر أحمد بك طرابلس في ١١ فبراير ١٨١٦. وبلغ درنة في نهاية يونيو ١٨١٦، حيث فر أخوه ولجأ إلى خليج بومبا، بعد أن أقام مذبحة لرجاله ونسائه في القصر. ولاحقه أحمد بك الذي خرج من درنة حتى بلغ خليج بومبا، دون جدوى، بالنظر إلى اجتياز الأخ المتمرد الهارب للحدود المصرية. وعاد أحمد بك محاذياً الساحل حتى وصل إلى بنغازي، حيث أغرق في الدماء كل الجراثيم التي تحمل إمكانيات الثورة، وذبح شيوخ قبيلة الجواز، بعد أن دعاهم للقصر وغدر بهم.

إن المعلومات التي يقدمها إلينا الرحالة (دلا شلا) إنما هي في حقيقتها وصف أمين للنظام السياسي والإداري في العهد القرمانللي. وكان من العادات

---

(٥٨) في ١ أكتوبر ١٨١٢ وصل إلى طرابلس محمد ريس وأبلغ الوالي بأن البك قد انتصر في ضواحي درنة على المتمردين وقتل منهم أربعمائة شخص وغنم كثيراً من الماشية. وقد أطلقت مدفعية القلعة ٢٤ طلقة ابتهاجاً بهذا النصر وقام الباشا في اليوم التالي بإبلاغ القناصل بهذا النصر (محفوظات القنصلية الإنجليزية رسالة بتاريخ ١ ـ ١٠ ـ ١٨١٢).

(٥٩) رحلة الدكتور باولو دلا شيلا (رحلة من طرابلس إلى الحدود المصرية) جنوا ـ ١٨١٩ ـ الطبعة الثالثة (شيتا دي كستيلو) (Citta di Castello) ١٩١٢.

المتبعة عند مرور الحملة أن تتقدم إليها القبائل بالضرائب والهدايا أو تلزم بالانضمام إلى الجيش، بل وقد بدا في بعض الأحيان أن الغرض الوحيد للحملة إنما كان جباية الضرائب[٦٠].

وكانت واحة أوجلة تدفع الضريبة أيضاً إلى والي طرابلس. ولقد مر بها الرحالة (باكو Pacho) في سنة ١٨٢٥ قادماً إليها من مصر. وأفاد بأن الواحة كانت تحت حكم أحد (البكوات). وكان يحكمها في ذلك الوقت المدعو زيد عبد الله، وهو فرنسي معتنق الإسلام، من مواليد طولون، وكان يدفع لطرابلس عشرة آلاف قرش اسباني سنوياً[٦١].

وكان يوسف باشا يشعر بدنو التهديد البحري، وكان يرغب في إنقاذ قوته القرصانية الخطير بواسطة دائرة واسعة من الحصون البرية المجهزة. وكان رؤساء البحرية يشاطرونه الشعور ويوافقونه على أهمية هذه الفكرة. وكان في طليعتهم مصطفى قورجي الذي تم بعنايته في سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٧) تشييد برج جديد بالقرب من برج المندريك، عند رأس المرسى. وتمت عملية إنشاء الحصن المذكور في مستهل عام ١٨٢٠.

وتوجه القاضي والعلماء وشيوخ البلاد ورئيس المرسى وغيرهم لحضور حفل تدشين البرج الجديد. وقرأ الحاضرون القرآن، وتوجهوا إلى الله بالصلاة والدعاء، ووزع الوالي الهدايا وهبات مالية، ثم أطلق الحصن خمس طلقات فردّت عليه مدفعية القلعة بمثلها. وكذلك حصن الخندق والبرج الأحمر (الإسباني) وبرج المجزرة وبرج الفرارة[٦٢].

وكان لشكوك يوسف باشا ما يبررها. فقد كانت تهب من الشمال رياح

---

(٦٠) رحلة دلا شيلا ص ٦٠.

(٦١) رحلة باكو ص ٢٧٤. كان المعني قد ذهب إلى مصر ضمن حملة نابليون كطبّال فأسره البدو وباعوه إلى باشا طرابلس وقد برز في الحملة على فزان ثم حصل على حكم أوجلة. وبعد ربع قرن من خروجه من بلاده ولقاء الرحالة به كان ما يزال يذكر بعض الكلمات من لغته ولهجته البروفنسالية. أنظر بخصوصه أيضاً:

G. Guemard (Aventuriers mameluks d'Egypte), Alexandriw 1928.

(٦٢) دفتر الفقيه حسن ـ فيرود ص ٣٣٢.

مهددة منذرة لقراصنة الشمال الإفريقي. فقد أكدت الدول الأوربية في مؤتمر (إيكس لا شابيل Aix la Chapelle) بحزم، إصرارها على إنهاء القرصنة البحرية. وقد جاءت إلى طرابلس في ٨ أكتوبر ١٨١٩ فرقتان بحريتان، واحدة فرنسية وأخرى إنجليزية بقيادة الأميرالين (فري مانتل Free mantle وجوريان دي لا قرافير Jurien de la Gravière). ولم يجدا صعوبة في الحصول على تصريح من الباشا يلتزم فيه بعدم السماح بأعمال القرصنة في المستقبل.

ولم تف طرابلس بالتزامها حتى ذلك اليوم. ويشكو مؤلف مجهول لكراسة معنونة (المسيحيون ودول الشمال الإفريقي الصادرة في جنيف سنة ١٨٢٢ (I Cristiana ei Barbareshi) ضعف الدولة الأوربية إزاء القراصنة موضحاً الحالات التي تم فيها خرق الاتفاقيات التي عقدها اللورد اكسموت في ١٨١٦. وممن شاعت لهم شهرة سيئة في ذلك الوقت، القرصان مراد ريس[٦٣]. ووجد القراصنة ذريعة لتجديد نشاطهم، بعد سنة ١٨٢١ في الحرب اليونانية التركية، واستجابت طرابلس وتونس لدعوة الباب العالي في ١٨٢٣ بإرسال سفن. وأرسل يوسف باشا في العام التالي ثماني سفن[٦٤]، ولقي قائدها حتفه في معركة (نفارينو Navarino) ١٨٢٧. ويروى أن أحد رؤساء البحرية الطرابلسية لم يجد سبيلاً للفرار، بعد أن هاجمته خمس سفن أو ست سفن مسيحية، فأشعل النار في البارود، وفجر السفينة[٦٥]. وقامت البحرية الساردينية، في تلك الأعوام، بتلقين القراصنة الطرابلسيين درساً قاسياً كسر شوكتهم وأذلهم إذلالاً نهائياً حاسماً.

وقد أضفى القنصل (ج. ب. بارودي G. B. Parodi) أهمية كبيرة على قنصلية ساردينيا، ورفع من شأنها، واستطاع أن يتجنب تلك الحالة من انعدام الثقة التي أثارها قصر إدراك سلفه (فيبونوشينو هوجو Veponuceno Ugo).

---

(٦٣) يقدم فيرود معلومات إضافية عنه ص ٣٣٨ - ٣٢٩.

(٦٤) مراسلات قنصل سارديننا بطرابلس الموجهة إلى وزارة الخارجية خلال ١٨٢٣ - ١٨٢٤. وما تزال سجلات القنصلية السادرينية محفوظة في مكتبة الآثار بطرابلس.

(٦٥) **A. Devoulx,** (Recherches sur la coopération de la Régence d'Alger à la geurre de l'indépendence grecque nella Revue Africaine, 1, 1865 p. 207 - 210.

وكان يوسف باشا يعجب بشخصية القنصل بارودي، وقد عبر عن رأيه في ثنائه عليه وتمنياته بأن يكون جميع القناصل مثله. بينما كان القنصل بارودي بالذات سبباً في تهيئة الفرصة للصدام الذي أضعف بشكل كبير من سطوة الباشا وسلطته.

كان بارودي قد أصيب بمرض أخذ يعاوده بنكساته من حين إلى آخر، وكاد يشرف على الهلاك في سنة ١٨٢٣. وقد طلب بعد ابلاله السفر إلى مالطا لاستكمال العلاج. وفي أغسطس ١٨٢٤ داهمه المرض، واعتلت صحته من جديد، فغادر مكتبه وركب البحر إلى مالطا، وترك إدارة القنصلية إلى (هنريك روسني Enerico Rossoni) وكيل قنصلية سارديينا ببنغازي. وكان ماراً بطرابلس. وأسندت مهام القنصلية إلى الكفاليير (فوكس Foux) قنصل سارديينا بكورفو. ولم يستطع الوصول إلى طرابلس إلا في أول فبراير ١٨٢٥، واعتبر الباشا قدومه تغييراً في القنصل، وطالب بمنحة قدرها أربعة آلاف سكودو التي نص عليها في اتفاقية عام ١٨١٦. ورفضت حكومة تورينو دفع هذا المبلغ لأن الأمر لا يعدو قيام الوكيل القنصلي بأعمال القنصل بالوكالة، طوال فترة غيابه بسبب المرض. وقد طالت المناقشات والجدل، واستمرت مدة طويلة بسبب ضعف القنصل (فوكس) وبسبب السياسة الغامضة الماكرة التي كان ينتهجها القنصل الإنجليزي وارنجتون.

وأخيراً، قررت حكومة تورينو ـ بعد استشارة بارودي بالتأكيد ـ العمل على إنزاله بقوة بحرية، كان من المقرر أن تتجه إلى الشرق لنقل بعض القناصل الآخرين. وكانت الفرقة البحرية بقيادة الكومندان فرانشسكو سيفوري (F. Sivori) الذي تلقى من حكومته تعليمات محددة صارمة. وقد غادر الأسطول جنوا في ١١ سبتمبر ١٨٢٥ وهو يتألف من الفرقاطة (كوميرشيو وأربع سفن نقل. وقد وصلت تونس يوم ٢٠، وفي مساء يوم ٢٥ كانت بشاطىء طرابلس. وبدأت المفاوضات بين الكومندان سيفوري والحاج محمد[٦٦]

---

(٦٦) يشير كثير من الكتاب إلى رد سيفوري على طلب الباشا ثلاثين ألف قرش بأنه سيقدم ثلاثين =

ومندوب الباشا ووساطة القنصل الإنجليزي. وتقدم يوسف باشا بمطالب لم تكن مقبولة، ومن بينها إلغاء الاتفاقية القائمة، وإبرام اتفاقية أخرى مع تعيين قنصل جديد. وقد أنذر سيفوري الباشا بضرورة قبول مقترحات دولته، مهدداً بالقيام بأعمال حربية في حالة الرفض. وفكر في تلك الليلة نفسها في أن يلقن القراصنة المتعجرفين درساً قاسياً، فأعد عشر (لنشات) مسلحة ومجهزة بوسائل إشعال النار.

وعند الساعة الثانية من صباح يوم ٢٧، خرجت تلك الزوارق تحمل فوقها مئتي بحار من سردينيا وجنوا المعروفين بالمهارة، يقودهم بعض صفوف ضباط البحرية الملكية ممن يتميزون بالجرأة والإقدام. ورافقتهم حتى مدخل الميناء (لا نيريدي La Nereide)، واتجهوا إلى داخل الميناء بغرض إحراق سفينة من نوع (ابريق) وأخرى من نوع (غليوطة) كان الباشا قد أعدهما للقيام بأعمال قرصانية.

ولكنهم ما كادوا يصلون منتصف الميناء حتى اكتشفتهم قواعد المدفعية، وأخذ الفريقان يتبادلان النيران. ومع ذكل فقد تابع المهاجمون هجومهم حتى اقتربوا من السفينتين المقرر إحراقهما، ورغم أنهما كانتا مجهزتين بعدد كبير من البحارة، إلا أن المهاجمين أخذوا في قذفهما بالنيران والاقتراب منهما في حركة جريئة، أذهلت الأتراك الذين حاولوا إنقاذ حياتهم بإلقاء أنفسهم في البحر. ثم أشعل المهاجمون النار في السفينتين الراسيتين تحت قلعة الباشا، وكانوا يتهيأون لإحراق سفينة أخرى من نوع (غراب) كانت تحت العمل بمرسى دار الصناعة، ولكن الأمر كان يتطلب اجتياز السور. كما أن جمهوراً غفيراً كان قد

= ألف قنبلة. ولم ترد هذه العبارة في المراجع التي استعان بها المؤلف (فرّاري) (أنظر ملحوظته رقم ١ من ص ٧٥) وهو لا يتشكك فيها ولكنه يقول إنها غير ثابتة. وقد وردت العبارة في رسالة من القنصل بارودي بطرابلس إلى إسبانيولتي قنصل سردينيا بليفورنو بتاريخ ٥ نوفمبر ١٨٢٥ إلى نائب القنصل الساردينى ببنغازي (نسخ من المراسلات العامة لمحفوظات ساردينيا بطرابلس).

هرع إلى المكان. ولذا انسحب المهاجمون تاركين وراءهم رجلاً ميتاً(٦٧) وستة جرحى على ظهر (الإبريق)(٦٨) وكانت الزوارق العشرة تحت قيادة القائد السرديني (جورجيو ماميلي Georgio Mameli) والد الشاعر (غوفريدو ماميلي G. Mameli) وكان لهذا الدرس أثر طيب. فأمكن بوساطة القنصل الإنجليزي وارنجتون عقد الصلح، وتجديد اتفاقية سنة ١٨١٦. وكان التنازل الوحيد الذي قدمته حكومة ساردينيا لبيان حسن نيتها هو تقديم موعد دفع الأربعة آلاف سكودو التي كان من المقرر أن تدفعها بعد ستة أشهر، أي عندما يكون القنصل بارودي قد غير مقره، بناء على رغبته. وفي أكتوبر استقبل الباشا قائد السفن الساردينية والقنصل والضباط (بكل مظاهر الهيبة والاحترام دون أن يقع أي شيء يؤسف له). وكان جميع القناصل يهنئون البحارة الساردينيين الشجعان وقنصل ساردينيا الذي استعاد مركزه بالقنصلية التي رفع عليها العلم يوم ٣٠ سبتمبر، وأطلقت مدفعية الباشا ٢٩ طلقة لتحية العلم السارديني وغادر (فوكس) طرابلس، مع نفس الفرقة، ونزل بمالطا.

وعاد الكومندان سيفوري مرة أخرى في أواخر ١٨٢٥ لنقل القنصل بارودي، على ظهر السفينة (كوميرشيو). واضطره هيجان البحر إلى أن يترك بشاطىء طرابلس (مخطاف) السفينة وجزءاً من (السلسلة) وأوصى القنصل الجديد (نيجري Negri) باستخلاصها فيما بعد، فوعد القنصل بالاهتمام بها وإرسالها مع أول سفينة وطنية. إلا أن الموضوع أهمل وظل مخطاف الأسطول السارديني رمزاً مرفوعاً في ميناء طرابلس(٦٩).

---

(٦٧) هو بوتّينو جيوفاني B. Giovanni من بلدة نرفي Nervi واسمه الحربي (كابورّو Capurro) وقد دفن بمقبرة المسيحيين بطرابلس واحتفل بتشييعه في كنيسة الإرسالية الفرنشسكانية، برنيا ص ٢٧٣ فيراري ص ٨٢.

(٦٨) وصف القنصل بارودي للهجوم الليلي بتاريخ ٣٠ سبتمبر يوجد بسجل التقارير المختلفة ص ١ من محفوظات قنصلية ساردينيا بطرابلس. وقد نشر فراري في ذيل كتابه تقارير أخرى للقادة والضباط.

(٦٩) نسخ المراسلات العامة محفوظات قنصلية ساردينيا بطرابلس، رسائل ٣١ - ١ - ١٨٢٦ و٧ - ٤ - ١٨٢٦.

أما تصرف مملكة الصقليتين فقد كان أقل صلابة وقوة، بل لـم يكن لها في بـاديء الأمـر قنصـل يمثلهـا، واكتفت بـإسنـاد رعـايـة مصـالحهـا إلى القنصـل الإنجليزي. وفي سنة ١٨٢٥ خلف فـرانشسكو الأول الـبربوني والـده فرنـاند. وتطلع الباشا إلى منحة غير عاديـة قيمتها عشرة آلاف قـطعة إسبـانية، وإرسـال قنصل جديد، وتقديم الهـدية السنـوية، وقيمتهـا ثمانيـة آلاف قطعـة. فأرسلت حكومة نـابولي السفينـة الحربيـة (فيزوف) التي وصلت إلى طـرابلس، بعد حملة أسـطول سارديـنيـا. وكان البـاشا قـد أرهبـه الـدرس الأخـير، فـاكتفى بهـديـة استثنـائية قـدرهـا ١٢ ألف قـطعـة. بعـد أن تـوسط القنصـل الإنجليـزي في الأمر[٧٠].

وبعد ثلاثة أعوام من ذلك، عاد الباشا إلى المطالبة بما لم يستطع أن يناله في المـاضي، بل بلغ بـه الأمر إلى أن فـرض مدة شهـريـن كحـد نهائي لتحقيق مطالبه. وردت عليه حكومة نابولي بإرسال فرقة بحرية مؤلفة من فرقاطتـين ومن سفينـة من نوع (ابـريق) وأخـرى من نـوع (غليـوطـة) وبعض زوارق القنـابـل والمـدفعيـة بقيـادة الكـابتن (الفـونسـو سـوزي كـرافـا Alfonso Sozi Carafa) ووصلت الفـرقة صبـاح يوم ٢٢ أغسـطس إلى مشـارف طـرابلس، وجـرت في صبـاح اليوم التـالي على ظهـر السفينة (سـيرينا Sirena) التي تحمـل علم القيادة محادثات عاجلة بحضور وزيـر خارجيـة طرابلس، والقنصـل النابـوليتاني (بيـترو فرانشسكـو كـروشيللو P. F. Crocillo) والقنصل الإنجليـزي وارنجتون. ولـمـا ألح المندوب الطرابلسي على مطالبه، أخذت الفرقة، في مساء ذلك اليوم نفسه، في قصف حصون طرابلس. واستمر القصف المتقطع - بسبب رداءة الجـو - حتى يوم ٢٨ أغسطس دون أن تحقق الفرقة نتائج حاسمة، وألحقت بـالمدينـة أضراراً طفيفة. وعندما نفدت ذخيرة المهاجمـين وآلت أوضاع الـزوارق إلى السوء، قـرر القائد مغـادرة الميناء صبـاح يوم ٢٩. وتم عقـد الصلح في ١٨٢٨ بوسـاطة من

---

(٧٠) فراري ص ٩٧.

قنصل فرنسا، وخفضت مطالب الباشا من ٢٥ ألف قرش إلى عشرين ألف قرش(٧١).

وفي هذه الأثناء كانت الدواخل تثير المتاعب والقلاقل في وجه يوسف باشا. فقد سادت الفوضى الجبل(٧٢)، بعد مقتل أبي القاسم، واستعان يوسف باشا في تهدئة المنطقة بنفوذ شيوخ أولاد أبي سيف، وعين غومة بن خليفة أخا أبي القاسم شيخاً على قبيلة نوير مع تكليفه بحفظ النظام في الجبل.

وتكون في ترهونة فريقان، فريق بزعامة الحاج أحمد المريض مناصر للقرمانللية، وفريق بزعامة عبد الصمد بن سلطان معاد لهم. ونهض الحاج محمد بيت المال، وزير الباشا، على رأس حملة وتوجه إلى ترهونة وهزم الفريق المعادي (١٨٢٧)(٧٣).

وجدّ حدث آخر، في ذلك الوقت، كان من شأنه تعكير الوضع الطرابلسي، وزيادة فقدان ثقة الدول الأوربية فيه. فقد حل بطرابلس الميجر الإنجليزي (الكسندر غوردن لاينج W. G. Laing) ونزل ضيفاً على الكونت وارنجتون، تزوج ابنته، وخرج في رحلة اكتشافية في دواخل طرابلس. وبلغ غدامس، وانتهى به المطاف عند تومبكتو، وقتل في الطريق أثناء عودته منها. وأصيب وارنجتون في عواطفه العائلية فلم يشأ أن يصدق النبأ في البداية، ثم استسلم للشكوك والاتهامات، فألقى الذنب على يوسف باشا وحسونة

---

(٧١) أنظر المقال المرفق:

Ernesto Simon (Figure della Marina delle Due Sicilie) in Riv. Maritime, guingno 1926 p. 711 - 718.

(٧٢) يذكر العدد الأول من المجلة الخطية الصادرة بطرابلس بعنوان (Investigateur africaine) (التي نشرت مقالاً عنها في مجلة الشرق الحديث ١٢ - ١٩٢٩ ص ٩٠٩ - ٩٢٤ - ١٠٠٣ - ١٠٠٤) أنه في صيف ١٨٢٧ قد تجمع في طرابلس تحت قيادة علي بك النجل الثالث للباشا ٢٤ ألف رجل لمحاربة عرب الجبل من قبيلة نوير التي كان يقودها محمد المرموري. وقد نقل هذا الخبر في رسالة القنصل الفرنسي روسو في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية:

Bull. Soc. Gèographie. Parigi, VII, 1827 p. 174 - 176

(٧٣) بهيج الدين ص ٩٠ - ٩١.

الدغيس[٧٤] الذي اضطر إلى التخلي عن منصب الوزير الذي تولاه بعده محمد شلبي بيث المال. وأثار القنصل الإنجليزي الشكوك حول شخص القنصل الفرنسي (روسو) الذي كان على صلة بكثير من الأدباء العرب بطرابلس ودواخلها، بحكم اهتماماته الاستشراقية. وكان أول من علم بالحادث. وترددت فرية صيغت في القلعة، تتهم روسو بامتلاك أوراق الميجر لاينج، وطلب روسو سحب التهمة، وحين لم يستجب لطلبه غادر طرابلس في سبتمبر ١٨٢٩[٧٥].

وقد بدأ الحقد الشخصي بين روسو ووارنجتون منذ الفترات الأولى لوصول روسو إلى طرابلس. وقام على اختلاف الطبع في الشخصيتين بالإضافة إلى عوامل الغيرة المهنية، والتنافس السياسي الوطني. فقد كان وارنجتون مدعياً فوضوياً مشاكساً محباً للمنازعات، بينما كان روسو راجح العقل محباً للهدوء.

وفي وسع القارىء أن يتابع ما كتبه (فيرود) من الأخبار الغريبة عن النفور الذي كان يباعد بين الرجلين ويفرق بينهما. ثم القصة الحزينة للحب الذي ربط ابن روسو بابنة وارنجتون الذي وقف في وجه الشابين وأرغم ابنته على الزواج من الميجر لاينج، قبل ساعات قليلة من رحلته.

وقد رسم لنا قنصل مملكة الصقليتين بيتروفرانشسكو كروشيللو شخصية القنصل الإنجليزي وارنجتون في صورة غير ودية. وكان قد وقع بينهما خلاف بسبب شجار وقع بين صقلي من رعايا الأول ومالطي من رعايا الثاني. وقام القنصل الفرنسي روسو بمهمة الوسيط المصالح. وفي رأي كروشيللو أن

---

(٧٤) ومع ذلك فقد حظي الدغيس بعفو القنصل الإنجليزي. ونورد فيما يلي وصف القنصل الفرنسي ١٨٢٦ روسو وتحديده لشخصية حسونة الدغيس الذي يقول عنه (إنه شاب كثير الدهاء، شرير، مغرور، وإنه على الرغم من حسن الاستقبال الذي لقيه بفرنسا، أعلن جهاراً عداوته لنا وانحاز بلا تحفظ إلى مصالح القنصل البريطاني) رسالة بتاريخ ٨ يوليو ١٨٢٦ محفوظات القنصلية الفرنسية بطرابلس. وقد أثنى على الدغيس (الشريف سيدي حسونة الدغيس) قنصل السويد (كرابرج دي همسو) وقال عنه (إنه أعجوبة من الفهم والثقافة والمدنية). وقد عاش في شبابه بفرنسا وإنجلترا وكان مقبولاً في أرقى المجتمعات بها. . أنظر:
Rossi una Rassegna africanista in Oriente moderno, XII, 1932 p. 259 - 260.

(٧٥) ركب حسونة الدغيس سفينة أميركية وذهب إلى لندن لكي يشكو القنصل البريطاني.

وارنجتـون (رجل نـزق طائش، يبحث دومـاً عن الذرائـع التي تمكنـه من خنق البراءة والعدالـة وحقوق النـاس، إذ يجد في ذلـك مرتعـاً خصباً لتغـذية غـروره وتنميته). ثم أسدل الستار على قضيـة (لاينج)، ولكن تـوجب على البـاشا، في اتفاقية سنة ١٨٣٠ مع فرنسا، أن يقدم اعتذاره ويعـترف ببراءة روسـو مما نسب إليه.

ومن هـذا الحـادث، ومـا تـلاه من أحـداث، يتبـين لنـا كيف أصبحت طرابلس تحت رحمة القناصل، وأن مصائرها أصبحت توجه بواسـطتهم أكثر مما توجه عن طريق الباشـا. وكان القنـاصل يقفـون في هذه المـدينة (الـبربرسكيـة) كحصون وأبراج للمدينة، وأوكار للنزاع والتنـافس الدوليـين. وكانت أعـلامهم ترفرف فوق قنصلياتهم، وترمز إلى شعوب أوربا وما كانت تبذله من جهد مرهق في سبيـل تكوينهـا كدول، وهي التي أخـذت بعد أن اجتـازت أحـداث الثـورة الفـرنسية وحـروب نابليـون، تنظر إلى إفريقيـا التي لا يفصلهـا البحـر الأبيض المتوسط عنها، بل يشدها بمصائر من هم أكثر عملاً وأكثر جدارة.

وتنتعش المحفـوظـات القنصليـة من حـين آلى آخـر بمعلومـات قيمـة واعتبارات مختلفة هامة. وكانت غلبة القناصل[٧٦] على الشؤون الطرابلسية تتأكد وتـزداد يومـاً بعد آخـر. ولم تقف طرابلس وتصمـد بحكمهـا الـذاتي إلا بسبب المنافسة بين الدول الكبـيرة. في الوقت الـذي كانت فيـه تركيـا أيضاً تفكـر في أمر البـلاد وترغب في التـدخل في شؤونها، لـولا أن صدتهـا عنها قضـايا كبـيرة مثل قضية مصر.

وكانت القوتـان الكبيرتـان فرنسـا وإنجلترا تتبادلان المـلاحقة والمتـابعة في شخصي قنصليهـما بـطرابلس، في شخصيـة وارنجتـون المتسلط القـوي العنيـد وشخصيـة روسو العليـل الممتلىء بـالقوة الـروحية، الغيـور على مصـالح فـرنسا ومكانتها. وكان دارساً مولعاً بتتبع تاريخ البلاد وحياتها العامة.

---

(٧٦) في اللهجـة العاميـة الطرابلسيـة تستعمل كلمـة (تقنصل) أي تصرف تصرف القنـاصـل. أي تصرف المتسلطين الطغاة.

وكان في وسط المدينة علم غير ملحوظ، منحته أنوار مدفعية ليلة ٢٧ سبتمبر ١٨٢٥ بريقاً ومجداً. ونعني به علم (بيومنت) الذي كانت تتمثل فيه إيطاليا بأسرها. وقرب سنة ١٨٣٠ بدأ الإعداد لتسوية جديدة لأوضاع (الإيالات) بشمال إفريقيا. فقد كانت فرنسا صديقة محمد علي باشا حاكم مصر، وكانت ترغب في مهادنته للسلطان، وتحويل رغبته في التوسع نحو اتجاهات أخرى، كما كانت تأمل في الوقت نفسه في القضاء على القرصنة بإفريقيا الشمالية، ومعاقبة الجزائريين المصطدمين بها، فاقترحت على باشا مصر احتلال طرابلس وتونس والجزائر. وفشلت الخطة بسبب معارضة تركيا وإنجلترا[٧٧]. وأحست طرابلس بهذه الحركة، فأخذت في ربيع سنة ١٨٣٠ تقوم باستعدادات حربية في طرابلس وبرقة (إذ يخشى قيام والي مصر بمهاجمة البلاد بموافقة تركيا)[٧٨]. وقد تردد القول في تونس، في ربيع ذلك العام، استناداً إلى أنباء واردة من طرابلس، إنه قد قدم على والي طرابلس (شاوس) موفد من محمد علي باشا ليبلغه بأن الباب العالي قد أسند إليه حكم تلك الإيالة، وأن بعثة عسكرية سترسل لاستلامها[٧٩].

وتغير الوضع في شمال إفريقيا تغييراً جذرياً عميقاً بنزول فرنسا في الجزائر (٥ يوليو ١٨٣٠). وبعد شهر من ذلك (٩ أغسطس) وصل إلى طرابلس الأميرال (كلود روساميل Claude Rosamel) الذي أجرى محادثات مع الحاج محمد بيت المال، وعقد اتفاقية بتاريخ ١١ أغسطس. وأقر الباشا في هذه الاتفاقية، بالإضافة إلى تقديم الاعتذار لفرنسا بخصوص القنصل روسو (بالتنازل بصفة

---

(٧٧) **J. Serres** (La politique turque en Afrique du Nord pendant la monarchie de Juillet, Paris 1925 p. 17

(٧٨) محفوظات قنصلية فرنسا بطرابلس، رسالة بتاريخ ١٣ - ٤ - ١٨٣٠. وطبقاً لما يذكره روزن في كتابه:

Rosen, Geshichte der Türkei, Leipzig 1866 - 1867 1 - p. 233

فإن قنصل فرنسا بمصر برناردينو دروفيتّي اقترح على محمد علي احتلال طرابلس الغرب، ولكن محمد علي باشا لم يتحمس كثيراً للفكرة، ذلك أن فوائد الحملة أقل من نفقاتها الباهظة.

(٧٩) **Plantet,** op. cit. III, p. 687.

تامة ونهائية بالنسبة له، ولمن يخلفه على الحكم، عن حق القيام بالهجمات القرصانية بين الحرب، على السفن التابعة للدول الكبرى التي ترى من المناسب أن تتنازل هي الأخرى عن استعمال هذا الحق تجاه السفن التجارية الطرابلسية).

والتزم الباشا بالإضافة إلى ذلك بأن يلغي بصفة نهائية دائمة استرقاق المسيحيين في إيالته، وأن يطلق سراح جميع الأرقاء الموجودين بها. وينبغي اعتبار الأسرى في زمن الحرب أسرى حقيقيين تجري معاملتهم طبقاً للقواعد الأوربية المتعارف عليها، ويحق للدول الأجنبية أن تقيم قنصليات ووكلاء تجاريين في جميع أنحاء البلاد، دون أن تدفع أية هبة أو هدية. والتزم الباشا أيضاً بدفع تعويض عن الحملة وديون الفرنسيين وهي مبلغ ثمانمئة ألف فرنك، نصفها يدفع فوراً، ويدفع الباقي في مدة أقصاها ٢٠ سبتمبر[٨٠].

وكانت شروط الاتفاقية الفرنسية ثقيلة باهظة، وكان لا بد من الإذعان لها.

وقد دفع القسط الأول من المبلغ المفروض، بالاستدانة واستنفاد المدخرات بالخزينة العامة. أما القسط الثاني فقد منّى الباشا نفسه بإمكان الحصول على تخفيض للمبلغ من الحكومة الفرنسية. وأوفد لهذا الغرض وفداً برئاسة الحاج محمد بيت المال إلى ملك فرنسا في أكتوبر ١٨٣٠.

وبنضوب موارد القرصنة أصبحت الأوضاع المالية للباشا سيئة منذرة بالكارثة، وكان قد لجأ إلى بعض الإجراءات المالية، فركن إلى الوسيلة العاجلة للخروج من أزماته بتغيير قيمة العملة. وكان يضرب عملة نحاسية وفضية وذهبية من نوع رديء، ويعلن في بعض الأحيان إلغاء العملة المتداولة ليستبدلها

---

(٨٠) روارد دي كارد ص ٢٨٨. ويوجد النص التركي لدى بهيج الدين ٩٦ - ١٠٢. وكان تصحيح الباشا لموقفه من قضية الميجر (لاينج) قد جر عليه بصفة خاصة عداوة القنصل الإنجليزي الذي اتخذ منه موقفاً عدائياً فألح على تسديد الديون وعمل بكل ما في وسعه لموازنه النفوذ الفرنسي الذي أخذ يزداد بعد نزول الفرنسيين بالجزائر.

بعملة أكثر منها رداءة وأقل قيمة[٨١]. وتندد مراسلات القناصل بعد سنة ١٨٢٠ بهذا النظام الذي يعرقل التجارة ويفقد الثقة في الإقتصاد المحلي.

كان يوسف باشا قد قسم البلاد الطرابلسية، بين أبنائه، بهذه الطريقة: علي بك (الابن الثالث) أسند إليه حكم غريان. ومصطفى بك حكم مصراتة، وعثمان بك حكم الخمس، وعمر بك حكم ورفلة، وإبراهيم بك حكم زليطن. أما مملوكه مصطفى فقد أسند إليه حكم درنة[٨٢].

وبناء على نصيحة من قنصل فرنسا الذي أخذ يمارس نفوذاً متزايداً على الباشا، قام يوسف بإعداد قانون يتألف من أربع عشرة مادة، ينظم الدخول إلى الميناء والإجراءات الجمركية.

وإرضاء لغروره، وإضفاء المظهر من الهيبة الجديدة أمام رعاياه وأمام الأجانب، وصل إلى طرابلس في ١٧ يناير ١٨٣١ أميرال الأسطول العثماني محمد خسرف باشا حاملاً مرسوماً سلطانياً بمنح يوسف باشا اللقب الفخري (بليربي روميليا) تركيا الأوربية[٨٣].

٦ ـ ثورة الحفيد محمد بك، وتنازل يوسف باشا القرمانللي ١٨٣٢

لم يكن للإجراءات الداخلية والتشريعات لتمنح الحياة لحكومة متورطة في ضعفها الكامن في ذاتها، وفي سوء الإدارة، ونقصان الموارد التي يمكن أن تحل محل عوائد القرصنة ودخولها. وكان الوضع الداخلي أيضاً مهزوزاً، وسرى

---

(٨١) **G. Cimino** (La Zecca di Tripoli d'Occidente sotto il domino degli. Attomani) in Not. Arch. del min. delle Colonie, III - 1922 p. 115 - 143 e Append I - XXXIX

E. Cucinotta (La politica finanziara Tripolina Sulla fine dei Qaramanli nella Riv. Coloniale XXII (1927) p. 38 - 51.

ويقول الرحالة ليون (١٨ ـ ١٨٢٠) إن العملة لا تحتوي إلا على نسبة ٤٠ في المئة من الفضة، وهي تهبط في قيمتها على الدوام.

(٨٢) النائب ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ بهيج الدين ص ٩٤.

(٨٣) في سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ ـ ١٨٢٧) تلقى يوسف فرماناً من الباب العالي بمنحه لقب (بليربي) ـ النائب ص ٣٣٥.

التذمر في جميع أنحاء البلاد، مقروناً بالحقد على الحكومة التي كانت تبدو كمبتز بغيض للضرائب. وفي برقة، حيث كان الحكم بيد خليل القرمانللي، اتخذت الثورة شكلاً خطيراً مهدداً، وقد توجه إليها الوزير الأول محمد شلبي بيت المال، في ١٨٣١ لإعادة النظام، وإحلال السلم تاركاً وكالة الحكومة إلى إبراهيم أبي أميس. وفي نفس الوقت ثار عبد الجليل زعيم أولاد سليمان بمنطقة ورفلة، واحتل فزان. وقد انسحب محمد بن عبد الله الشركسي الذي كان يحكم فزان باسم يوسف باشا، إلى قلعة مرزق، ثم مات بعد ذلك بقليل، فخلفه ابنه الذي صمد للمقاومة، في انتظار الدعم من طرابلس. وسافرت فعلاً محلتان من طرابلس بقيادة ولدي الباشا وهما علي بك وابراهيم بك في أكتوبر ١٨٣١، وتضم المحلتان بعض الجنود الموالين الذين تم تجنيدهم من قولوغلية الساحل والمنشية، ودعموا بقوة مسلحة من مصراتة. وقد هزموا قوات عبد الجليل عند الموقع المعروف بقلعة (الحطّابة) قرب بني وليد، ودخلوا معها في معركة دامية بالموقع المعروف (بظهرة السوداني). وقد حسم النزاع تدخل أولاد أبي سيف، فأوقفت الحرب ولكن ذلك لم يؤد إلى إعادة الهدوء إلى البلاد. وقد أصر يوسف باشا على متابعة الحرب، لعدم ثقته في عروض السلم التي تقدم بها الثوار. وكانت القرمانللية غير منظمة ومنقسمة على نفسها. فقولوغلية المنشية والساحل يضمرون موجدة على علي بك بسبب سوء معاملته لهم[٨٤]. وفي هذه الحالة سحب يوسف المحلتين إلى زلطين ثم إلى طرابلس، وبعث محمد المكني بقوات جديدة من أجل العمل على استرجاع فزان.

وقد عجل تدخل القنصل الإنجليزي في مثل هذه الأوضاع الدقيقة عن بتلاحق الأحداث التي أدت إلى أقصى حالات الفوضى والإخلال بالنظام. وكان

---

(٨٤) لقد ساند القولوغلية الغاضبون الثورة التي يتزعمها حفيد الباشا، محمد بك في يوليو ١٨٣٢. أنظر الدراسة الوثائقية الهامة التي كتبها إسماعيل كمالي (وثائق غير منشورة عن سقوط الأسرة القرمانللية) المنشورة بمجلة المستعمرات الإيطالية ١٩٣٠ ص ١ - ١٤ - ١٧٨ - ٢١٦. (قام الأستاذ محمد بازامة بترجمة هذه الوثائق ونشرها في كتاب بعنوان: وثائق عند نهاية العهد القرمانللي - بيروت ١٩٦٥ - دار لبنان للطباعة والنشر).

وارنجتون قد صمم الحصول على الديون المستحقة من الباشا، فاستدعى فرقة بحرية إنجليزية من مالطا، وظهرت السفن أمام طرابلس يوم ٢٠ يوليو. وكان فوق إحدى هذه السفن وارنجتون نفسه. ووضع الباشا في وضع دقيق حرج، فلم يعرف السبيل الذي يتشبث به لإنقاذه، فلجأ إلى فرض ضرائب إضافية على الرعايا. وقرر الديوان الذي كان يشارك في عضويته (شيخ البلاد)[٨٥]، ابن لطيّف، تحديد ضريبة على سكان المدينة والمنشية. وجر هذا الإجراء على الباشا حنق الفئات المتذمرة، وأكثرية سكان الدواخل الذين ثاروا على الباشا في ٢٠ يوليو ١٨٣٢ وبايعوا حفيده (أبا عبد الله) محمد بك[٨٦]. وقاموا بمحاصرة المدينة. وفي يوم ٢٧ خرجت القوات الموالية ليوسف باشا من القلعة، في حركة هجومية على الثوار، ولكنها ردت على أعقابها خاسرة.

فأغلق يوسف باشا على نفسه القلعة، وسدت أبواب المدينة[٨٧]. وقام المتمردون بمهاجمة دار يوسف باشا بالمنشية (شرقي طرابلس) حيث قامت التحصينات التركية فيما بعد، في الموقع المعروف باسم (سانية الباشا) وعاثوا فيها فساداً ثم جعلوها مقراً لهم[٨٨].

---

(٨٥) ثمة تعبير طرابلسي جرى مجرى المثل وهو (دبّر عليك بن لطيف كمّل عليك بيت المال) أي أن ابن لطيف أشار عليك بالرأي السيء المهلك، فأكمله بيت المال. ومن المعروف أن الثاني قد انحاز إلى المتمردين، أنظر الفقرات التالية عن المنشقين على يوسف باشا.

(٨٦) ثار محمد بك في برقة قرب سنة ١٨١٥ ثم فر إلى مصر بعد أن جرد والده حملة لمحاربته سار فيها الرحالة الإيطالي المشهور دللا شيلا. وقد مات بمصر سنة ١٨٢٨. كما مات بعد ذلك الابن الثاني للباشا وهو أحمد بك في سنة ١٨٢٨ بطرابلس مخلفاً لوالده حزناً عميقاً (محفوظات القنصلية الفرنسية بطرابلس رسالة بتاريخ يونيو ١٨٢٨).

(٨٧) الجريدة الرسمية لمالطا المؤسسة سنة ١٨١٢ Malta Gov. Gaz. عدد ٨ أغسطس ١٨٣٢. وقد صدر تقرير المراسل من طرابلس باللغة الإيطالية ويفترض أن الغلبة كانت للمتمردين لانحياز أكثر السكان إلى جانبهم عدا فئات قليلة من المدينة. وفي خبر أيضاً نشرته Constitutionnel الصادرة بباريس ٨ أغسطس ١٨٣٢ معلومات عن الثورة التي وقعت يوم ٢٦ يوليو وهي تؤيد وجهة النظر الفرنسية وتندد بالقنصل الإنجليزي وارنجتون وتشهر به.

(٨٨) بهيج الدين ص ١١٥.

وحين رأى يوسف باشا أنه محارب من قبل رجاله، وشعر بضغوط قناصل إنجلترا وفرنسا وساردينيا، ومطالبتهم بديون رعاياهم على الباشا، رأى من المناسب أن يأخذ بالنصيحة الداعية إلى تخليه عن الحكم، وتنازله لصالح ابنه علي. فجمع في قاعة الاجتماعات بالقلعة، القاضي أبا عباس أحمد التوغار، والقائد حسن بن عبد الله، وأبناءه، والوزير والكتاب، وأعلن أنه لم يعد قادراً على النهوض بأعباء الحكم، وأنه يرغب في أن يسند الأمر إلى أحسن أبنائه (علي). ولما وافق الجميع على رغبة الباشا، أعلن يوسف باشا البيان التالي: (أشهد بحضوركم جميعاً أنني أتنازل عن الحكم، وأضع مكاني إبني علياً والياً عليكم وأخاه إبراهيم قائداً للجيش) فوافق الحاضرون، وبكى بعضهم من التأثر، وأقسموه بالقرآن أن يحترموا إرادة الباشا الكبير (١٢ أغسطس ١٨٣٢)[٨٩].

وقد قام يوسف باشا نفسه بإبلاغ تنازله عن الحكم لصالح ابنه إلى خليل باشا قائد الأسطول العثماني، وطالب بالمرسوم السلطاني لاعتماد ابنه في المنصب الجديد[٩٠].

وما كاد زعيم المتمردين يعلم بذلك حتى أعلن نفسه (باشا) وعين أخاه (أبا العباس أحمد) قائداً للجيش (بك).

٧ ـ علي باشا القرمانلي (الثاني) ١٨٣٢ ـ ١٨٣٥

أعلن علي باشا نبأ اعتلائه سدة الحكم ببيان وعد فيه بتطبيق العدالة والعفو، ودعا المنشقين إلى السلم والمصالحة[٩١]، وعين أخاه إبراهيم قائداً للجيش. وبايعه العلماء والأعيان. وشغل منصب رئيس الوزراء محمد الدغيس[٩٢] أخو حسونة الذي لجأ إلى فرنسا، وذلك بدلاً من محمد أبي أميس.

---

(٨٩) إسماعيل كمالي في مقاله المشار إليه ص ١٨٧ ـ ١٨٨. وقد استخلصت وقائع التنازل من رسالة لأحمد القليبي إلى محمد شالابي بيت المال بتاريخ ٧ ـ ٣ ـ ١٨٣٣.

(٩٠) نشر الرسالة بهيج الدين ص ١١٦ ـ ١١٨.

(٩١) أنظر الترجمة لدى فيرود ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٩٢) ورد ذكر الدغيس على أنه الوزير الأول ليوسف باشا لدى الرحالة ليون ص ٨ قرب سنة ١٨٢٠. ولكنه كان في ذلك الوقت فَقَدَ بصره وانصرف عن الوظيفة.

وكان القنصل الإنجليزي وارنجتون الذي عاد من مالطا في ٢٢ أغسطس ١٨٣٢ قد استقر، فور اندلاع الثورة، في دار له بالمنشية، بدلاً من إقامته بمقر القنصلية، معلناً بذلك موقفه المؤيد للمتمردين. وربما كانت إنجلترا قد فكرت في ذلك الوقت في إعادة الحكم العثماني إلى طرابلس. وكانت لها مصلحة في الإبقاء على الاضطرابات والفتن، وعرقلة تسوية النزاع القائم بين المتمردين وبين الحاكم.

وكان قنصل فرنسا (سكويبل Schwebel) يؤيد بشكل علني علي باشا والأسرة القرمانللية. وكان ثمة ضباط فرنسيون يديرون الدفاع عن طرابلس ضد عمليات القصف التي كان يقوم بها المتمردون.

وفي دواخل البلاد استغل العرب الفرصة للتحرر من أي التزام نحو الحكومة المركزية، وأخذوا يرقبون، الصراع القائم بين قولوغلية الساحل ووريث الأسرة القرمانللية. ووقف عبد الجليل موقف الحياد، وكان صاحب المنطقة الشرقية من طرابلس الغرب وفزان التي جلا عنها (المكني)[٩٣] بناء على أمر الباشا. وكان غومة والمحاميد والمريض وسكان ترهونة قد أعلنوا ولاءهم لعلي باشا، وإن لم يقوموا بأية حركة لتأييده.

وكان محمد شالابي بيت المال ببرقة، وما كاد يعلم بنشوب الثورة في طرابلس حتى قرر الوقوف على الحياد، وعدم الانحياز لأي من الفريقين. ورغم أنه كان على خلاف مع علي باشا، إلا أنه كان يرى أن ليس ثمة إمكانية لاستيلاء القولوغلية على طرابلس. وحين علم علي باشا قرر تعيين أخيه عثمان بك حاكماً على برقة، غادر درنة وانتقل إلى مالطا.

وشجعت هذه الأوضاع الغامضة سيدي محمود باشا تونس على التطلع إلى الاستيلاء على طرابلس، والتدبير لذلك، وإسناد أمرها إلى أخيه سيدي مصطفى. وقد أجرى المفاوضات لهذا الغرض مع الباب العالي. وكان يعد

(٩٣) قتله عند العودة بمصراتة عثمان أدغم، أنظر إسماعيل كمالي ص ١٩٠.

تجهيزاته العسكرية اللازمة، ويصنع الأسلحة والذخائر استعداداً للحملة.[٩٤].

وتلقى الباب العالي التماسات من سكان مدينة طرابلس، ومن الثوار، تلح عليه بالتدخل لحسم الأمر. وبعث كابودان باشا (أي رئيس الأسطول العثماني) طاهر باشا الذي كان يتولى شؤون إيالات الشمال الإفريقي، كاتبه شاكر أفندي، للوقوف على الوضع. وقد وصل إلى طرابلس في ١٨ أغسطس ١٨٣٣ وأجرى محادثات مع يوسف باشا وعلي باشا، وزعماء المتمردين، وحاول التوفيق بينهم وتوحيد كلمتهم على الاعتراف بعلي باشا، وحين فشل في مهمة الإقناع ركب البحر في سبتمبر ١٨٣٣ وتوجه إلى الآستانة حيث قدم تقريراً عن الوضع.

وفي هذه الأثناء ظلت طرابلس قيد الحصار، وكانت تقصف من حين إلى آخر، بواسطة المدفعية المقامة في المنشية. وكان محمد شلبي بيت المال بمالطا، يزود ـ بصفة سرية ـ أصدقاءه من الثوار، من قولوغلية الساحل ومصراتة بالعتاد الحربي، ويمارس في السوق السوداء التجارة المربحة في المدافع والبنادق والذخائر. وقد ألح عليه ـ بلا جدوى ـ علي باشا لكي ينضم إليه. وكان زعماء الدواخل يعرفون له خبرته السياسية، ويحتفظون معه بعلاقات مراسلة، ودعاه المتمردون إلى الانضمام إليهم[٩٥]، وانتهى به الأمر إلى الاستجابة إلى دعوتهم ودعوة القنصل الإنجليزي وارنجتون. وسافر من مالطا ترافقه ثلاثة مراكب مسلحة تحت قيادة المدعو (ماتيي Mattei) من مواليد كورسيكا، وقد عاش فترة طويلة بصفاقس. ورست هذه المراكب في السابع من ديسمبر ١٨٣٣ إلى الشرق من طرابلس، وتمكنت من نقل الأسلحة والقذائف إلى الثوار. وقبضت زوارق الباشا على واحدة منها. أما السفينتان الأخريان فقد

(٩٤) L. Calligaris, Note sur Tunis.
وهو تقرير بعث به الكولونيل كاليقاريس في سنة ١٨٣٤ من تونس إلى تورينو ونشره مونكيكورت في مجلة تاريخ المستعمرات الفرنسية سنة ١٩٢٨ ص ٥٢٥ وتوجد المعلومات الخاصة بطرابلس في الصفحتين ٥٤٠ ـ ٥٤١.

(٩٥) أنظر الرسائل الهامة في الدراسة التي كتبها إسماعيل كمالي ص ١٩١ ـ ١٩٩.

حاولتا محاصرة الميناء، ولكنهما عدلتا عن ذلك بسبب معارضة القناصل واتخذتا طريقهما نحو الشرق.

وطال أمد الحصار المضروب حول مدينة طرابلس التي عانت منه الكثير. ولم تتضرر المدينة من الشرور الناشئة عن الحصار بقدر ما تضررت من انعدام الثقة وتوقف كل نشاط تجاري. وكان الثوار قد قرروا القيام بهجوم حاسم على المدينة في الربيع، وأبلغوا القناصل بعزمهم هذا حتى يتخذوا الإجراءات اللازمة لحماية رعاياهم[٩٦].

وفي يوم ٢٨ أبريل ١٨٣٤ أبلغ القناصل، دي مارتينو De Martino ورايخ Reich وشيروتي Ceruti محمد القرمانللي (باشا المنشية) بأنهم قد اختاروا ملجأهم بموقع كان من المقرر أن يكون مستشفى خارج المدينة[٩٧]. ولم يكن للقصف الذي تم فيها بعد أي أثر كبير، ولم يحقق في جميع الأحوال النتائج المرجوة. وكان هذا القصف يمثل في حقيقته النغم الهزلي في مأساة انهيار الأسرة القرمانللية. وإنه لمما يثير الضحك حقاً أن نجد بين مراسلات قنصل سارديينا، بيانكو (Bianco) الرسالة التي بعث بها في أوائل مايو ١٨٣٤ إلى قائد المتمردين يطلب منه إيقاف القصف يوم ١١ مايو، لأنه سيقوم في ذلك اليوم بالزيارات التقليدية لمختلف القنصليات بمناسبة استلامه لعمله.

وعاد شاكر أفندي إلى طرابلس، يوم ١٨ سبتمبر ١٨٣٤ يحمل فرمان السلطان محمود الثاني الذي يثبت علياً القرمانللي على رأس حكومة طرابلس بلقب باشا ودرجة ميرميران. وتلي الفرمان السلطاني بالقلعة يوم ٢٥ سبتمبر[٩٨]، وأبلغ به الثوار الذين رفضوا الاعتراف بتعيين السلطان، كما رفضوا قبول الدعوة لحضور تلاوة الفرمان خارج المدينة[٩٩]، واعترفت قناصل الدول بالباشا الجديد،

---

(٩٦) توجد الرسالة في المحفوظات العثمانية بطرابلس مجموعة رسائل محمد القرمانللي إلى قنصل ساردينيا.

(٩٧) محفوظات قنصلية ساردينيا المراسلات العامة رسالة بتاريخ ٢٠ ـ ٤ ـ ١٨٣٤.

(٩٨) أنظر الترجمة لدى فيرود ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٩٩) عن نشاط شاكر أفندي بطرابلس انظر المعلومات القيمة التي جمعها إسماعيل كمالي في عمله المذكور ص ٢٠٣ ـ ٢١٠.

غير أن قنصل إنجلترا (وارنجتون) ظل على تأييده السري للمتمردين.

٨ ـ تدخل الباب العالي وإعادة السلطة العثمانية إلى طرابلس

لم يعد مصير طرابلس في يد علي باشا القرمانللي، ولا في يد منافسه محمد بك القرمانللي. ذلك أن احتلال الجزائر في سنة ١٨٣٠ قد وجه اهتمام الدول الأوروبية وتركيا إلى تونس وطرابلس. وكانت الغيرة الإنجليزية الفرنسية والتزاحم بين الدولتين، قد عجل بتطور الأحداث وتلاحقها ومبادرة الآستانة إلى اتخاذ قرارها في الخصوص. وكان من سياسة فرنسا في ذلك الوقت أن يتدعم وضع الأسرة المحلية القائمة على الحكم بطرابلس، على غرار الوضع القائم بتونس، ولم يكن من مصلحتها قيام حكم في طرابلس، يدار مباشرة من تركيا، لما سوف يؤدي إليه ذلك من التدخل في شؤون تونس والجزائر. ـ كما سوف نرى فيما بعد. وكانت إنجلترا من جانبها تعمل على عرقلة التوسع في النفوذ الفرنسي بالشمال الإفريقي، وتنظر بعين الرضى إلى عودة السيادة العثمانية على طرابلس.

ولم يتأخر هذا الحدث كثيراً، ففي يوم ٢٠ مايو وصلت من الآستانة سفينة (إبريق) تقل على ظهرها شاكر أفندي الذي كان قد حضر إلى طرابلس في الخريف المنصرم. وأعلن قرب وصول الأسطول العثماني الذي ظهر فعلاً أمام طرابلس مساء يوم ٢٥ مايو، وكان يتكون من مجموعة من ٢٢ سفينة من مختلف الأنواع المعروفة في ذلك العصر. وقد رست السفن يوم ٢٦ بميناء طرابلس. وقام علي باشا القرمانللي بالتوجه شخصياً إلى سفينة القيادة لتحية مصطفى باشا نجيب قائد الحملة، ثم زار السفينة التي تقل نائب الأميرال، واستقبل من الاثنين بحفاوة وترحاب، وتم تبادل التحية بين مدفعية السفن ومدفعية القلعة.

وفي يوم ٢٧ مايو، تمت عملية إنزال ثلاثة آلاف وخمسمائة مسلح، وفرقة مدفعية تتوفر على ١٢ مدفعاً وعدد من قاذفات اللهب وفي يوم ٢٨ مايو دعي علي باشا القرمانللي إلى سفينة القيادة، فركب أحد الزوارق، وما كاد يصل السفينة حتى أبلغ باعتقاله، وتلا مصطفى نجيب الفرمان الذي يعينه والياً على

طرابلس. وأعلن زعماء المدينة والمنشية خضوعهم وولاءهم في يوم ٣٠ مايو[١٠٠]. وكان محمد بيت المال قد فر فوق سفينة إنجليزية من نوع غراب. ثم تقدم في أول يونيو إلى الوالي التركي الذي أحسن استقباله. أما محمد القرمانللي فقد غلبه اليأس، وانتهى شريداً في الأرياف، ثم انتحر[١٠١]. وأما إبراهيم وعمورة ولدا يوسف القرمانللي فقد قبلا الخضوع والدخول في طاعة السادة الجدد. وأقصي يوسف القرمانللي في بيته الكائن بشارع (الأربع عرصات) بطرابلس بينما ظل ابنه عثمان حاكماً على برقة لفترة أخرى.

أما السفينة التي ركبها علي باشا ووزيره وصهره محمد الدغيس وصهره الآخر سليم كاهية، وابنه الكبير سليمان بك، وبعض الخدم، فقد غادرت طرابلس يوم ٢ يونيو في طريقها إلى الآستانة.

وهكذا أفلت شمس السيادة القرمانللية. وإذا لم يكن حكم هذه الأسرة لامعاً متألقاً، فقد كانت له أهمية بارزة. وقد مثلت سيادة هذه الأسرة امتداداً طويلًا لعهد القرصنة الذي استمر طوال ثلاثة قرون على سواحل الشمال الإفريقي. ولكن طول مدة الحكم (١٢٥ سنة) وحكمة مؤسسه أحمد باشا القرمانللي وقوة شخصيته وأعماله، والتلاؤم مع أوضاع البيئة المحلية، والتطور المستمر في اكتساب الطابع الوطني لهذه الأسرة الإنكشارية، قد أبقت كلها على بعض ذكرياتها وآثارها وحفظت لها احترامها. فلا غرابة إذن في أن يكلف الوالي التركي حسن باشا بعض أعوانه والعميد والعلماء بحضور مراسم تشييع جنازة يوسف باشا القرمانللي يوم وفاته (٤ أغسطس ١٨٣٨) بمنزله بالأربع العرصات ودفنه (بتربة) أحمد باشا القرمانللي بكل مظاهر التقدير. وقد حضر الوالي نفسه أمام المسجد متبوعاً بكافة الضباط ورجال الحاشية وانتظر هناك وصول الموكب الجنائزي، وأذن هو نفسه للمؤذنين بالصعود إلى المآذن عند الظهر لتلاوة القرآن وإنشاد الأناشيد الدينية. كما أعتق بعض العبيد وأطلق سراح بعض

(١٠٠) محفوظات قنصلية سارديني (المراسلات مع وزارة الحرب والبحرية) رسالة بتاريخ ٢ ـ ٦ ـ ١٨٣٥.

(١٠١) وصل النبأ إلى طرابلس في ٣١ مايو (دفتر الفقيه حسن).

المسجـونين[١٠٢]. ونكست القنصليـات الأجنبية أعـلامها الـوطنية، الأمـر الـذي صادف رضى كبيراً واستحساناً لدى الأهالي[١٠٣].

٩ ـ التجارة والوضع الاقتصادي بطرابلس الغرب قرب ١٨٣٠

حوالي سنة ١٨٣٠، وقبل فترة قـريبة من قيـام الاضطرابـات التي أغلقت طرق الدواخل، كانت للتجارة بطرابلس الغـرب أهمية معينـة، في مجال التبـادل مع إفريقيا الوسـطى. وقد تـرك قنصل السـويد بـطرابلس (جرابـرج دي همسو Graberg de Hemsö) صورة ممتازة عن الوضع التجاري والاقتصادي نشرها في سلسلة من المقالات نجملها فيما يلي[١٠٤]:

كانت مرزق مركز تجميع التجارة مع دواخل إفريقيا، وكـانت تتجمع بهـا منتوجات الوادي وبورنو وكاشينا، وسكاتـو والهوسـة، وتومبكتـو، والمنتوجـات الواردة من طرابلس وبنغازي ومصر وأوجلة، ثم المنتوجات الأوربية والـطرابلسية مثـل ورق الكتابـة (نوع الأقـمار الثلاثـة المصنوع في جنـوا وليفورنـو) والمرجـان والعقيق والأقمشة القطنية والحرير والدمشقة والبسط والأسلحة النارية والأسلحة القاطعة والأكواب. . إلخ.

وهنـاك أربع طـرق تنفذ إلى دواخـل إفريقيـا عن طريق غـدامس، وهي طريق مزدة ـ سوكنة ـ مرزق. وطريق غـات، وطريق كـاشينا، ثم طـريق توات تومبكتو.

---

(١٠٢) دفتر الفقيه حسن.

(١٠٣) محفوظات قنصلية سارديـنيـا ـ المراسـلات العامـة، رسالـة بتاريـخ ٤ ـ ٨ ـ ١٨٣٨ وتضيف قنصلية توسكانا في رسـالة بتـاريخ ٤ ـ ٨ ـ ١٨٣٨ إلى حكـومة ليفـورنـو أن يـوسف بـاشـا مات فقيراً وقد تم دفنه على نفقة الحكومة وتكلف الدفن مبلغ ألف قطعة.

(١٠٤) Prospetto del commercio di Tripoli d'Africa e delle sue relazioni con quello dell Italia in (Antologia), Firenze nr. 81 sett. 1827 p. 39 - 99 nr 88 Aprile 1828 p. 1 - 29 nr 111 marzo 1830 p. 75 - 97

Rossi, (Una Rassegna Africanistica ecc) Oriente moderno, XII, 1932 p. 257 - 259

ويصل إلى طرابلس ضمن القوافل من فزان وغدامس:

١ - العبيد السود ويبلغ عددهم حوالي ٢٥٠٠ سنوياً، ويصدرون إلى تونس ومصر والمشرق.
٢ - التبر، بما يقرب من عشرة آلاف مثقال أي ما يقرب من ألف وخمسمائة (أنش) دون أن ندخل في الحسبان الضريبة الذهبية التي تجبى من فزان وغدامس.
٣ - طرونة بحوالي سبعة آلاف قنطار في العام.
٤ - السنامكّي بحوالي ثلاثة آلاف قنطار.
٥ - ريش النعام، بما قيمته من ١٥ ألف إلى ١٨ ألف في العام.
٦ - البوتاس الأحمر من ثلاثة إلى أربعة آلاف قنطار.
٧ - عاج من ١٥ إلى ٢٠ قنطاراً في العام.

وتستبدل هذه البضائع في طرابلس بنحاس المشرق الذي يستعمل في بورنو لسك النقود والخناجر وغيرها من الأسلحة البيضاء والخرز والأقمشة إلخ. وكانت طرابلس تستفيد أيضاً من حركة نقل الحجاج. وقل في ذلك الوقت مرور الحجيج وانخفض عما كان عليه في الماضي، بسبب تفضيل الحجاج السفر عن طريق البحر، فوق المراكب المسيحية. أو بسبب قيام الباشا بقصر أداء هذه الفريضة على عدد محدود. ففي سنة ١٨٢٤ شاهد (جرابرج) قافلة تتكون من ثلاثة آلاف رجل ومئات من النساء والأطفال وألفي جمل، قادمة في الأصل من (فاس) ثم أخذت تتضاعف وتنمو أثناء الطريق، وكان يتولاها (أمير الحج) وهو من القيروان. وتوقفت هذه القافلة بطرابلس مدة تقرب من شهر ثم تابعت رحيلها، فسافر قسم منها عن طريق البحر، واستمر القسم الآخر في السفر براً.

وحتى ذلك العهد كانت تعقد سوق، عند باب المدينة نحو الشرق، تعرف بسوق الثلثاء، في الموقع المعروف باسم (الساحة). أما في تاجوراء فتعقد السوق في يومي الخميس والاثنين.

ومن المنتوجات التي تصدر من طرابلس، وتنقل عن طريق البحر، نذكر الصوف وبسط مصراتة والجلد والزيت والقمح والشعير والشمع والعسل والتمور والحيوانات والزعفران والإسفنج والبوتاس والملح والصبغة.

ويذكر من أسماء التجار المحليين: مصطفى قورجي وزير البحرية، الشريف محمد الدغيس، الحاج أحمد بن لطيف، علي أبو دير المسلماني. ومن اليهود الطرابلسيين إسحاق لابي، أليا سرور، بنيامين حسان. ومن يهود توسكانا سلمون أمبرون. ومن المالطيين المسيحيين من رعايا إنجلترا يذكر الإخوة فانيجيا، وسلفاتوري فرندو، وكريلا قريش، وبترويياودي. ومن رعايا صقلية روزاريو مسينا. ومن رعايا توسكانا بلقرينو كستلاني. ومن الفرنسيين، بوسيير ولوتير وجوردان.

وكانت التجارة في طرابلس مهددة بعاملين رئيسيين: النظام النقدي الآخذ دوماً في الفساد. وازدياد انعدام الثقة فيما يسمى باصطلاح ذلك العصر (تذكرة) أو التكليف الذي يمارسه الوالي على حكام الأقاليم وغيرهم من الموظفين المسؤولين عن الجباية والدخل العام.

وتبلغ الصادرات في مجموعها ٤٤٩ ألف كولونات موزعة على النحو التالي:

عبيد	١٤٠٠٠٠
مانتيكا	٧٠٠٠٠ من بنغازي ودرنة
أبقار	٤٨٠٠٠
تبر	٢٧٠٠٠
زيت زيتون	٢٠٠٠٠
قمح	١٨٠٠٠ في سنوات الخصب
ريش النعام	١٢٠٠٠
عاج	١٢٠٠٠
صوف	من ١٧٠٠٠ إلى ١٨٠٠٠

روبيا	١٠٠٠٠
زعفران	٩٠٠٠

وتبلغ الواردات في مجموعها ٥٢٤,٧٩٠ كولونات

منسوجات	٦٠٠٠٠
مواد خشبية	٢٣٠٠٠
أقمشة عادية	٢٢٥٠٠٠
أقمشة خشنة	١٦٨٠٠
فضة نقدّية	٢٤٠٠٠
قهوة	١٤٠٠٠
قرطاسية	٢٥٠٠٠
خرز	٣٢٠٠٠
مرجان	١١٥٠٠
دمشقة	٨٦٠٠
	٨٠٠٠
مجوهرات لحريم الباشا	٢٠٠٠٠
أقمشة وأشرعة بحرية	٨٦٠٠ (مالطا)
سكر	١٤,٩٤٠
نبيذ صقلية	١٥٢٠٠

وكان الباشا يعهد بالتزام الجمارك إلى الآخرين، وهم في العادة من أبناء الأسر الذين يبيعونها من الباطن لليهود. وفي سنة ١٨٣٠ كان قد اشترى التزام الجمرك صهر الباشا ووزير البحرية بمبلغ سنوي قدره ١٨ ألف كولونات، وتدر الجمارك البرية في وقت من الأوقات مبلغ ٣٦ ألف كولونات. أما في الفترات الأخيرة فقد بلغت ستة آلاف يضاف إليها ألف كولونات للميزان (رمانة) و١١٥٠٠ لاستيراد الدخان وبيعه. وألف كولونات لوزن الذهب والفضة.

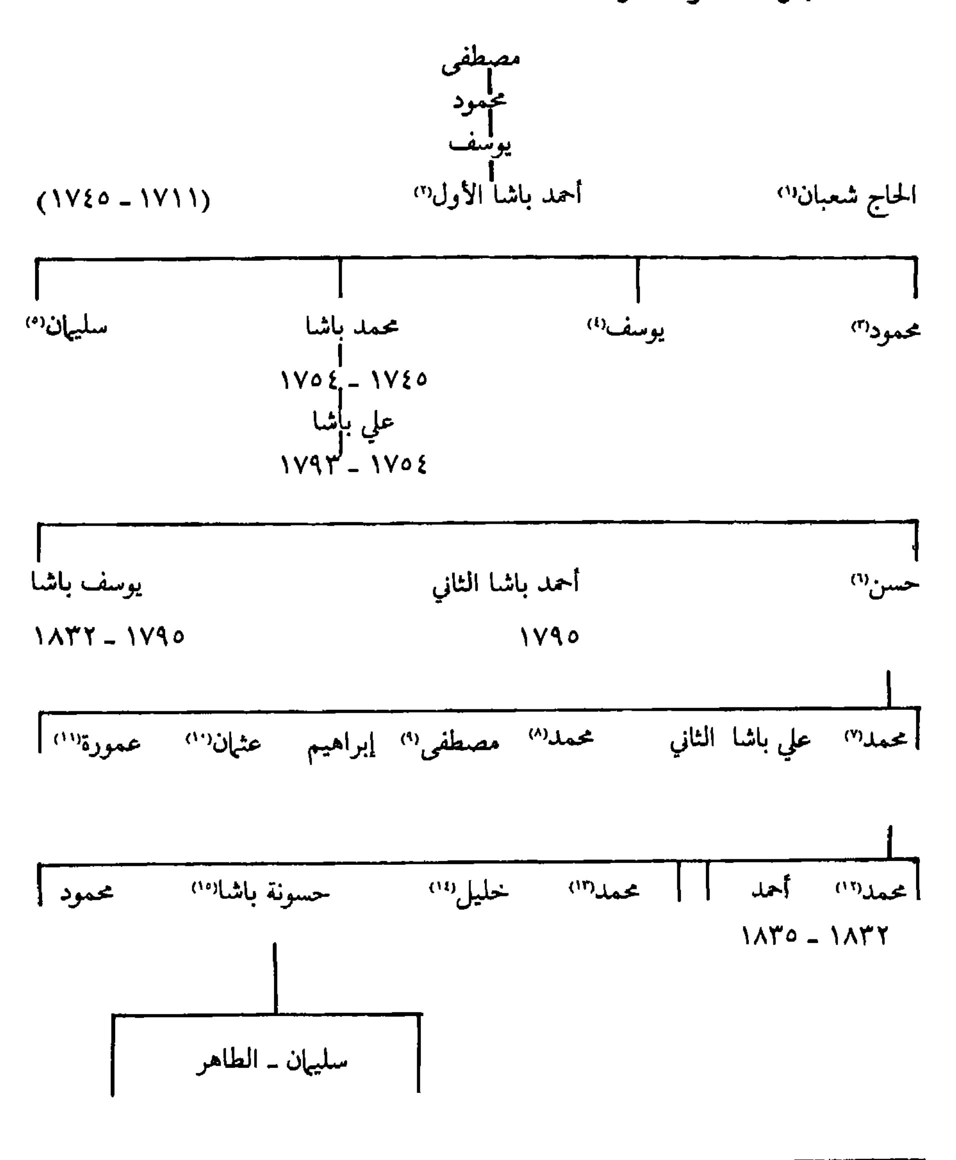
أما ضريبة الصابون فقد التزمها (القاجيجي) وهو دائن للباشا، وكان في السابق رئيساً لحمام الأسرى المسيحيين وقائداً للمدفعية.

أما ضريبة الجمارك البحرية فهي ١٠ في المئة لليهود و٧ في المئة للمسلمين و٣ في المئة للمسيحيين ولكنها عرضة للتغيير الدائم.

وفي ١٨٢٤ وصلت من مالطا ٢٧ سفينة. ومن ليفورنو ١٩ سفينة. ومن بنغازي ١١ سفينة. ومن الإسكندرية ٥ سفن ومن تريستا ٥ سفن. وأربع سفن من تونس وأربع من جربة. المجموع ٩٤ سفينة. وغادرت الميناء في نفس العام ١٠١ سفينة وصلت منها أربع وعشرون وسافرت خمس وعشرون من السفن التي تحمل أعلام الدول التالية: إنجلترا وفرنسا والنمسا وتوسكانا وطرابلس وساردينيا.

أما البحرية العسكرية فقد كانت تتضمن سفينة (كابيتانا) ذات ٢٢ مدفعاً و١٥٠ رجلاً. وسفينة (باترونا) ذات عشرين مدفعاً. وثلاث سفن من نوع (بريقانتين) وخمس غليوطات و١٠ زوارق وتتكون في مجموعها من ١٣٦ مدفعاً و١٤٠٠ رجل.

١٠ ـ شجرة الأسرة القرمانللية :



---

(١) قتل في المؤامرة التي وقعت سنة ١٧٢١ .

(٢) دفن بمقبرة القرمانللية بشارع الشط .

(٣) كان حاكماً لبنغازي .

(٤) توفي أثناء حياة والده بعد سنة ١٧٣٢.
(٥) دفن بتربة مسجد أحمد القرمانللي ١١٧٣ هـ (١٧٥٩ ـ ١٧٦٠).
(٦) قتله أخوه يوسف سنة ١٧٩٠.
(٧) مات بمصر سنة ١٨٢٨.
(٨) وهو أول أنجاله من جواريه السود وقد توفي سنة ١٨٢٠.
(٩) مثل البقية من أبنائه من زوجاته السود.
(١٠) كان حاكماً على بنغازي.
(١١) ظل بطرابلس تحت الحكم التركي وتقلد بعض الوظائف.
(١٢) ثار على جده في سنة ١٨٣٢ وانتحر سنة ١٨٣٥. وقد شاركه أخوه محمد في الثورة التي قامت سنة ١٨٣٢.
(١٣) كان موظفاً في العهد التركي.
(١٤) كان موظفاً في العهد التركي ومات بطرابلس سنة ١٨١٤.
(١٥) كان عميداً لبلدية طرابلس.

القسم الثالث

الفصل الأول

العهد العثماني الثاني بطرابلس الغرب
١٨٥٣ - ١٩١١
احتلال المناطق الداخلية
١٨٣٥ - ١٨٥٨

* اعادة السيادة العثمانية الى طرابلس واحتلال بنغازي ودواخل طرابلس[1].
* احتلال مصراته سنة ١٨٣٦
* المقاومة ضد غومة وعبد الجليل
* نهاية عبد الجليل ١٨٤٢ واحتلال القسم الشرقي من طرابلس الغرب
* احتلال فزان وغدامس.
* المقاومة ضد غومة.
* نهاية غومة وتدعيم السيطرة على طرابلس الغرب.

١ ـ إعادة السيطرة العثمانية على طرابلس واحتلال بنغازي ودواخل طرابلس [1]

نعني بتسمية (العهد الثاني للسيادة العثمانية على طرابلس) تلك الفترة التي تبدأ من سنة ١٨٣٥، بتنحية علي باشا القرمانللي عن حكمه شبه المستقل، وتنتهي بوقوع ليبيا تحت الاحتلال الإيطالي.

وفي سنة ١٨٣٥ لم يكن الأتراك يسيطرون على غير طرابلس المدينة والمنشية. وتطلب الأمر انقضاء أربعة وعشرين عاماً (١٨٣٥ ـ ١٨٥٨) حتى يضمنوا لأنفسهم السيطرة على الساحل، والمراكز الداخلية، والقضاء على نزعة الطموح إلى الاستقلال، والمقاومة العنيدة التي أبداها زعماء الدواخل من أمثال عبد الجليل وغومة.

وقد حضر غومة إلى طرابلس، في يونيو ١٨٣٥ في موكب من أتباعه المخلصين من المحاميد، لتقديم ولائه الى الوالي الجديد مصطفى نجيب باشا الذي بادر إلى القبض عليه[2]. وقد اتبع الأتراك سياسة (المرجيحة) إزاء الزعماء. وهي تتراوح بين التهديد والمجاملة والغدر المتبادل. ولم تفلح هذه الأساليب في حل تلك الأوضاع، إلا بعد أن استقر العزم على استخدام القوة.

وبإرسال مصطفى نجيب باشا الى طرابلس، استعادت الآستانة ـ كما

---

(١) هذا الفصل وقسم من الذي يليه نشر مفرقاً في مجلة المستعمرات الإيطالية السنة الثانية والعشرون ١٩٢٧ ص ٢٩٢ ـ ٣٠٠ ـ ٣٤٣ ـ ٣٥٣ بعنوان العهد العثماني الثاني بطرابلس. أما بخصوص الفترة التي تمتد من سنة ١٨٣٥ فانظر كتاب هنريكودي ليوني (استعمار شمال افريقيا) بادوفا ١٩٦٠ ج ٢ ص ٢٥١ ـ ٣٧٤.

(٢) ناجي ونوري (طرابلس الغرب) ص ١٤٩.

قلنا ـ سيطرتها المباشرة على طرابلس الغرب، وليبيا بأسرها، بعد قرنين ونصف ضعفت خلالها السيادة العثمانية، بل خبت تقريباً. وقد سلكت في البداية المسلك الشائع حينذاك، في اعتبار الولايات القائمة بشمال افريقيا ويسميها الأتراك (أوجاق) تابعة لأميرال الباب العالي (كابودان باشا). وقد مثلت ولاية طرابلس الغرب لدى الباب العالي بوكيل أو ممثل (كاهية) الأميرال[٣].

وقد جاء تدخل الباب العالي، في طرابلس، في أوانه المناسب. إذ تم في ظرف تصاعد فيه الصراع بين إنجلترا وفرنسا من أجل التدخل في شؤون الولاية. غير أن تدخل الأتراك لم يضع على الفور حداً لأسباب النزاع والمنافسة الإنجليزية الفرنسية. وكانت فرنسا تلح لدى الباب العالي على إعادة علي باشا القرمانللي، بينما قامت إنجلترا بإفهام الباب العالي بأنها سوف تعارض بشدة عودة القرمانللية إلى الحكم. وكان الذي دفع الثمن نيابة عن الجميع، هو مصطفى نجيب باشا الذي تقرر استدعاؤه. وقيل إن استدعاءه يمثل ترضية لفرنسا، إلا أن حكومة الآستانة قد قامت في الواقع بسحبه لعدم تقيده بالتعليمات الصادرة إليه بخصوص علي باشا القرمانللي، وهي التعليمات التي كانت تقضي بالتريث مدة ثلاثة أشهر قبل إرساله إلى الآستانة[٤].

وقد خلف مصطفى نجيب، محمد رائف باشا الذي وصل الى طرابلس في ٨ سبتمبر ١٨٣٥، وكان يشغل قبل ذلك منصب حاكم الدردنيل. وقد أظهر نشاطاً أكثر من سلفه، وأطلق على الفور سراح غومة، ووجه في أكتوبر حملة عسكرية لاحتلال بنغازي التي لجأ إليها عثمان بك القرمانللي.

وكانت تاجوراء التي تقع على بعد أميال قليلة من طرابلس، لم تخضع خضوعاً تاماً للأتراك، وتعرضت هذه البلدة الصغيرة من جديد لظروف جعلت منها قاعدة للمشاغبات والثورات. وقد هاجمها محمد رائف باشا، ونهبها في ٣١ يناير ١٨٣٦. ومات من سكانها في تلك المعركة حوالي مئتي شخص، وقامت

---

(٣) في سنة ١٨٣٥ كان (كابوكاهية) حسيب أفندي.

(٤) J. Serres, op. cit. p. 112.

بعض البلدان الأخرى الواقعة في ضواحي طرابلس بإعلان خضوعها مثل جنزور الواقعة على الساحل الغربي، كما دفعت هذه البلدان الضريبة المقررة[٥].

وفي ٢٢ يونيو وصلت الى مياه طرابلس فرقة بحرية تركية بقيادة الكابودان باشا طاهر. وكان مكلفاً باستلام منصب الوالي خلفاً لرائف باشا الذي وقعت بينه وبين القنصل الفرنسي (دي بوربلون De Bourboulon) خلافات واصطدامات عنيفة. إلا أن رائف باشا لم يغادر طرابلس على الفور وظل مقيماً بها حتى نهاية تلك السنة.

ووصلت صحبة طاهر باشا مجموعة جديدة من الجنود (تتكون من ثلاثة آلاف جندي نظامي، بينهم ثلاثمئة من الفرسان) للقيام بحملة مخططة مدبرة على مصراتة، وكان يرافقه نامق باشا قائد الجيوش البرية.

وقد أثار إرسال هذه القوات الكبيرة الى طرابلس ووصول صاحب الطابع[٦] العامل في خدمة باشا تونس، شكوك فرنسا التي لم تكن قد فرغت حتى ذلك الوقت من احتلالها للجزائر. وكانت مشغولة حينذاك بحملة على قسنطينة وكانت ثمة دلائل تشير الى أن مجيء قائد الأسطول العثماني، والعلاقات مع الحكومة التونسية والاتصالات الجارية بها، إنما قصد بها السعي لإعادة السيادة التركية المباشرة، على تونس، على نحو ما وقع قبل عام من ذلك، في طرابلس، مع تقديم المساعدة الى عرب قسنطينة في كفاحهم ضد فرنسا[٧].

ولذلك بادرت فرنسا في ١٠ يوليو ١٨٣٦ إلى توجيه فرقة بحرية الى تونس ثم الى طرابلس، وهي مكونة من خمس سفن بقيادة الأميرال (هوجون Hugon)

---

(٥) محفوظات القنصلية الساردينية، مراسلات وزارة الخارجية، رسالة بتاريخ ١٠ - ٩ - ١٨٣٥. ناجي ونوري ص ١٥٠. وقد كانت القوات تحت قيادة دورسون بك.

(٦) في مراسلات قنصلية ساردينيا وردت هكذا (Sapataba) وتعني صاحب الطابع.

(٧) في رأي المؤلف الفرنسي Serres(ص ١٤٩) أن طاهر باشا كان مكلفاً بالتحديد إعادة السيطرة العثمانية المباشرة على تونس ما أمكن ذلك.

الذي أجرى محادثات مع طاهر باشا، ولم يغادر طرابلس إلا بعد حصوله على تأكيدات وضمانات تامة.

وقد أصبح الحاج محمد بيت المال مستشاراً لطاهر باشا. وكان قد عمل في خدمة القرمانلليين ثم تنكر لهم.

٢ ـ احتلال مصراتة ١٨٣٦

حين وصل طاهر باشا بجيشه وقواته الى طرابلس، كان الوضع في الدواخل على النحو التالي:

مصراتة: تحت حكم عثمان الأدغم[٨].
ترهونة: تحت حكم الشيخ المريض.

المنطقة الواقعة بين ورفلة وفزان: تحت حكم الشيخ عبد الجليل زعيم أولاد سليمان. وفي الجبل الغربي والزاوية: كانت السيطرة للشيخ غومة زعيم المحاميد.

وقد كان هؤلاء الزعماء مستقلين في مقاطعاتهم الخاصة، ولم يكونوا على استعداد للخضوع أو دفع الضريبة. ومن جهة أخرى فقد جرب غومة في السنة السابقة أن يقدم مراسم الولاء والطاعة، فانتهى به الأمر الى السجن، ثم أطلق سراحه.

وتقررت المبادرة الى القيام بحملة ضد مصراتة، وهي من المقاطعات الهامة، وذلك للسيطرة على القسم الشرقي من طرابلس الغرب، وتهيئة إمكانية النفاذ والتغلغل إلى الجنوب.

وفي ١٤ يوليو ١٨٣٦ نزل الأتراك بساحل مصراتة، فاستقبلهم السكان بنيران حامية. ولكنهم تمكنوا من السيطرة على الموقع. وعاد العرب الذين تفرقوا

(٨) يرى المؤرخ (لطفي) في تاريخه (ص ٥٢) أنه محمود آغا.

وتشتتوا إثر المعركة، إلى ضم صفوفهم ومهاجمة الأتراك في اليوم التالي، فألحقوا بهم أضراراً فادحة[9].

واستطاع طاهر باشا في النهاية، وبعد معارك دامية وبث الفتن، أن يحتل ضواحي مصراتة القريبة من قصر أحمد (مصراتة البحرية).

وفي الشتاء خلال الفترة الواقعة بين ١٨٣٦ ـ ١٨٣٧ انتشر وباء الطاعون وجعل الجيش التركي في وضع قاس عسير، وكذلك الأهالي. وقضى هذا الوباء على مئات الضحايا، خاصة بين سكان المدينة بالنظر إلى نقص الاستعدادات والاحتياطات الطبية.

وفي نهاية يناير ١٨٣٧، وصلت الى طرابلس سفينة تركية (من نوع إبريق) تحمل فوق ظهرها نائب الأميرال التركي في القيادة البحرية (ريالة بك) مكلفاً بنقل مرسوم التعيين لطاهر باشا، والياً على طرابلس ومفوضاً بسلطات كاملة على الأجزاء التابعة لتركيا من الشمال الإفريقي (بربريا)[10].

ولا بد أن نلاحظ أن هذا التعبير، يظهر بجلاء أن شكوك فرنسا نحو السياسة التركية في تلك الأعوام، لم تكن كلها خالية من الصحة أو هي قائمة على غير أساس. وفي ربيع ١٨٣٧ قام طاهر باشا بحملة على غريان وعاد منها في مايو، دون أن يحقق نتائج إيجابية.

٣ ـ الصراع ضد غومة

كان من أثر العمليات العسكرية التي قام بها طاهر باشا، زيادة هيبة الحكومة الجديدة، إلا أنها لم تؤد الى ضمان السيطرة على الداخل. وقد قام غومة هو الآخر، سنة ١٨٣٧ بإعلان الثورة من جديد، وطرد الأتراك من غريان،

---

(٩) محفوظات قنصلية ساردينيا، الرسالتان ١٩ ـ ٧ ـ ١٨٣٦ و٢٨ ـ ٧ ـ ١٨٣٦.

(١٠) محفوظات قنصلية توسكانا، نسخ من رسائل، رسالة بتاريخ ١ ـ ٢ ـ ١٨٣٧ موجهة الى حاكم مدينة ليفورنو بإيطاليا.

ويسط سلطته وسيادته على الزاوية وزوارة. بل ويمكن القول بأنه قد بسط هذه السلطة على القسم الغربي من طرابلس الغرب بأسره.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اصطدم طاهر باشا، بسبب أساليبه العنيفة المتعجرفة، مع ممثلي الدول الأوروبية الذين اعتادوا معاملة تتسم بالتساهل والتنازل والمراعاة، من جانب حكومة طرابلس. وحاول أن يرفع التعريفة الجمركية إلى نسبة عشرة في المئة، وكانت الاتفاقات السابقة بين هذه الدول والأسرة القرمانللية قد حددتها بثلاثة في المئة. وفي هذا الخصوص، كانت مقاومة القناصل عنيدة متصلبة[11].

وقد وصف هذه الحالة وصفاً دقيقاً (ج. روسوني) الذي كتب يقول:

(إن السيدين قنصلي فرنسا وإنجلترا اللذين كانا يتمتعان بنفوذ واسع عظيم لدى الولاة السابقين، حتى بلغ بهما الأمر في بعض الأحيان الى إملاء القوانين وفرضها قد انتهيا في عهد هذا الوالي (حتى الآن على الأقل) الى وضع مهين. والدليل على ذلك أن قنصليتيهما لم تعودا تتمتعان بأية حصانة خاصة، وقد أصبح شأنهما شأن القنصليات الأخرى، كما أن الاحتجاجات الصادرة عنهما لم تعد موضع إصغاء واهتمام. وصارتا ملزمتين بالخضوع لكل ما تمليه الحكومة الجديدة، وهي تقرر وتلغي دون راد لمشيئتها).

(أما المالطيون الذين تعرض بعضهم لمعاملة سيئة، من الجنود الأتراك، فقد أغلقوا متاجرهم احتجاجاً على هذه المعاملة. وللانتقام[12] من هذا الموقف منع الكابودان باشا جنوده وأهالي طرابلس من التعامل التجاري مع الأوربيين القاطنين بطرابلس)[13].

وهكذا كانت سياسة التعصب تزداد غلواً وتصاعداً، في ذلك الوقت.

---

(١١) **E. Pellissier de Reynaud,**
(La Régence de Tripoli) nella Revue des Deux mondes, XII, 1855 40 trimestre p. 33.

(١٢) يعني بالكابودان باشا، طاهر باشا.

(١٣) محفوظات قنصلية توسكانا، رسالة بتاريخ ١٠ ـ ١٠ ـ ١٨٣٦.)

وكانت توجه أحياناً ضد قوى أوربية معينة، وأحياناً ضد الأخرى. وهي في الأعم الغالب ضد جميع المسيحيين. وقد طبعت بهذا الطابع الوضع العام في طرابلس أثناء العهد العثماني، مما كان يؤدي في بعض الأحيان إلى إثارة الاصطدامات.

وكانت الأوضاع الصحية في المدينة والدواخل سيئة. وقضى الطاعون الذي انتشر سنة ١٨٣٦ على عدد كبير من الناس. وكتب قنصل ساردينيا سنة ١٨٣٧ إلى السلطات الصحية في مدينة جنوا تقريراً قدم فيه هذه الإحصائية عن الوفيات والإصابات الناتجة عن ذلك الوباء.

(لقد بقيت هذه البلاد، بثلث عدد السكان الذين كانوا يسكنونها في الماضي، فإذا أحصينا الإصابات في هذه المدينة وضواحيها، والمقاطعات الداخلية مثل الزاوية والجبل وغريان وفزان التي سرى إليها الوباء، دون أن نعلم به إلا بعد مضي فترة طويلة من الزمن، فإن عدد الضحايا يرتفع الى رقم ٨٠٧٠٠ تقريباً. وهو رقم جدير بالثقة التامة، إذ قام القاضي بإحصائه بغية تسجيله في الحوليات، بعدما ورد عليه في التقارير المكتوبة من مختلف قضاة المقاطعات)[١٤]. وقد حل الباب العالي هذه الأزمة باستدعاء طاهر باشا، وإرسال والٍ جديد، هوجشمهلي حسن باشا، نائب قائد الأسطول العثماني. وقد وصل طرابلس علي ظهر فرقاطة يرافقها (ابريق). وفي ٢٤ مايو ١٨٣٧، وزع طاهر باشا منشوراً دورياً على[١٥] القناصل، يبلغهم بالتغييرات التي حصلت في الولاية وتغيير الوالي، وغادر طرابلس يوم ٥ يونيو[١٦].

واتبع حسن باشا سياسة المساومة. وكان يأمل في الحصول، بالطرق

(١٤) محفوظات قنصلية ساردينيا، رسالة بتاريخ ٢١ - ٩ - ١٨٣٧.)

(١٥) محفوظات قنصلية ساردينيا، رسالة وزارة الحرب والبحرية بتاريخ ١٥ - ٦ - ١٨٣٧.

(١٦) محفوظات قنصلية توسكانا، رسالة الى حكومة ليفورنو بتاريخ ٥ - ٦ - ١٨٣٧ في المحفوظات التاريخية بمدينة ليفورنو، الملف رقم ١١٧٥. وقد تلي مرسوم تعيين حسن بك على الأعيان يوم ٤ يونيو.

الودية، على ما لم يحصل عليه سلفه بالحملات العسكرية الباهظة. وحاول إقامة علاقات مع الزعماء، كما سعى للالتقاء بالشعب. والظفر بمودتـه وعطفـه. ومن المرجح أن تكون تركيـا قد عقـدت الأمل في ربط الـطرابلسيين بـرباط الـدين، وهي تتطلع إلى إمكانية إثارة حرب مقدسة لتحرير الجزائـر حيث كانت فـرنسا تلقى مقاومة عنيفة من العناصر الوطنية(١٧).

وسيراً في طريق التنازلات، فقد قام حسن باشا بإرجـاع المعدات الحـربية إلى غومة الذي كان قد سلمها في الماضي، ولكنه نفى عثمان آغا زعيم مصراتة وابنـه وثلاثـة من الشيـوخ الى الآستانـة. وظن أنـه سيحفظ النفـوذ الـتركي في الدواخل بمجرد الاكتفاء بالعلاقات الوديـة القائمـة على المـراسلات(١٨). وكـانت النتيجـة أن الروح الثـوريـة لـدى السكـان قـد عـادت الى الالتهـاب بـدلاً من الخمود، حتى إن كاتباً تركياً متأخراً نوعاً ما عن أحـداث ذلك العصر، قـال بأن السيـطرة على طـرابلس الغرب قـد اقتصرت من جديــد على المـدينـة والمنشيـة والساحل وتاجوراء. وعلى الجملـة فإن (وضع طرابلس لم يطرأ عليه تغيير يذكر وظل كما كان في عهد الإنكشاريـة(١٩). وترددت الإشاعات في طرابلس بـاحتمال إعـادة الأسرة القرمـانللية الى الحكم. وسـويت في نفس الوقت المنـازعـات التي نشأت في عهد طاهر باشـا مع الباب العالي.

أمـا شاكـر صاحب الـطابع، العـامل في خـدمة بـاي تـونس، فقـد اتهم بـالاتصال بـالأتراك للتـدخل في الجـزائر، وإعـادة السيادة العثـمانية المبـاشرة الى تونس، فقتل في ٢ سبتمبر ١٨٣٧ بناء على أمر باي تونس مصطفى باشا(٢٠).

---

(١٧) بلليّسيير دي رينود ص ٣٠.

(١٨) محفوظات قنصلية ساردينيا رسالة الى وزارتي البحرية والحربيـة بتاريـخ ١٥ ـ ٦ ـ ١٨٣٧ ولكن (بلليسيير دي رينود) ص ١٨١ يقول إن عثمان آغا قد نقله طاهر باشا معه الى الآستانة وأعيد الى طرابلس في يونيو ١٨٣٧ مع فرقة الكابودان الجديد أحمد باشا.

(١٩) بهيج الدين (تاريخ ابن غلبون) ص ١٣٢.

(٢٠) لقد قام عمل المؤلف (سيريس) ص ١٦١ عـلى تحقيقات دقيقـة في محفوظـات باريس ولنـدن. ويعترف مؤرخ البلاط العثماني (لطفي) أيضاً في تاريخـه ج ٥ ص ٧٥ بتدخـل الباب العـالي في =

ولم يمض وقت طويل على وجود حسن باشا على رأس الولاية حتى استبدل في ٣٠ أغسطس ١٧٣٨ بعشقر علي باشا، وهو رجل معروف بقوته وحزمه. وقد جرب في البداية استخدام الطرق والأساليب الودية في السيطرة على الولاية، ولكنه لم يلبث أن لجأ إلى القوة والعنف، بعد أن فشل في سياسة اللين والمهادنة. وكان الوضع العام الذي وجد عليه طرابلس سيئاً. ولم يكن الأهالي يرغبون في الخضوع للأتراك. وقامت في درنة وبنغازي ثورات أهلية.

وفي ١٥ سبتمبر وصلت الى طرابلس سفينتان تركيتان تحملان العتاد والجنود والفرسان(٢١). وأرسل عشقر علي باشا، إلى بنغازي، قائد الفرسان حليم بك الذي عين فيها بعد متصرفاً على بنغازي. وانتظر عشقر باشا الفراغ من عمليات ترميم حصون طرابلس وقلعتها. وكان يرتاب في سلوك الحاج محمد شلبي بيت المال ومحمد آغا التركي ومفتي المالكية(٢٢) فبادر الى اعتقالهم وإرسالهم الى الآستانة. واتفق مع الزعيمين الرئيسيين للدواخل عبد الجليل وغومة، واعترف بسلطتيهما الذاتية بشرط دفع ضريبة تتراوح قيمتها بين عشرين وثلاثين ألف قرش(٢٣).

شؤون الجزائر. وكانت الحكومة العثمانية تؤيد أحمد (بك قسنطينة) وترغب في مساعدته على استرداد الجزائر من الفرنسيين ولكنها لم تستطع أن تقوم بذلك (لأسباب سياسية) تعتمد كما هو معروف، وكما يصرح المؤرخ العثماني، على حاجة الباب العالي لمساندة فرنسا في خصوص قضية مصر. ومع ذلك فإن الآستانة لم تنفصل انفصالاً كاملاً عن أحداث الجزائر. ولم يخل مسلكها كما يقول المؤرخ العثماني (من تردد). وقد قام العقيد كميل بك بزيارة قسنطينة بالجزائر قبل قيام الفرنسيين باحتلالها، موفداً من الباب العالي.

(٢١) محفوظات قنصلية توسكانا، رسالة بتاريخ ٣١ ـ ٨ ـ ١٨٣٨.

(٢٢) محمد بهيج الدين ص ١٣٣.

(٢٣) بلليّسيير دي رينود ص ٣٥.

محفوظات قنصلية توسكانا (دار المحفوظات بليفورنو) ملف ١١٧٥ رسالة بتاريخ ٩ ـ ١١ ـ ١٨٣٨. ويبدو من رسالة قنصل توسكانا المذكورة أن الاتفاق قد تم على أساس دفع مبلغ يتراوح بين ٤٠ و٥٠ ألف كولونات بشرط أن لا يضع أي (تركي مشرقي) قدميه في الدواخل. ويلاحظ أن عبد الجليل قد قام قبل ثلاثة أشهر بغزو مصراتة واستولى على خمسة آلاف من الماشية.

(نفس المصدر، رسالة بتاريخ ٤ ـ ٨ ـ ١٨٣٨).

٤ ـ نهاية عبد الجليل ١٨٤٢ والسيطرة على الأجزاء الشرقية من طرابلس الغرب

في نهاية عام ١٨٣٩ انقطعت العلاقات السلمية بين حكومة طرابلس وبين الزعماء. واستأنف عبد الجليل العمل على تهديد الدواخل، وتوغل في منطقة مسلاتة بنية غزو تلك المنطقة.

وكانت الإشاعة التي ترددت بعودة علي باشا القرمانللي الى حكم طرابلس والتي زاد من قيمتها وقوتها سفر الفرسان والمشاة، وعودتهم الى الشرق، قد ساهمت في إضعاف الهيبة العثمانية[٢٤].

وحينئذ قرر عشقر باشا اللجوء الى القوة، واستطاع بواسطة أحمد باشا الذي كان يلقب (الجزار) بسبب المذابح التي أقامها للأهالي، أن يحتل الخمس ثم يوسع دائرة المناطق المحتلة حتى شملت غريان وترهونة. بينما كان عبد الجليل يتقهقر وينسحب الى الداخل.

وقد تواصل الزحف التركي في إصرار مستهدفاً احتلال المناطق الجنوبية (القبلة وفزان). وفي سنة ١٨٤٢ انتقل عبد الجليل الى سرت. ويقال إن القنصل الإنجليزي قد استدعاه، مقترحاً عليه الاجتماع بإحدى المناطق الساحلية، متعهداً بالعون الإنجليزي له، والاعتراف بسيادته على فزان شريطة الكف عن تجارة الرقيق. وعندما غادر عبد الجليل الاجتماع فوجىء بقوة عسكرية بقيادة حسن بك البلعزي، تحاصره وتطوقه بين سرت وأبي نجيم. وحين هزم لجأ مع البقية الباقية من رجاله الى مرتفع ما يزال يحمل اسمه حتى اليوم (قارة

---

(٢٤) محفوظات ليفورنو، ملف ١١٧٦ رسالة ٢٣ ـ ١١ ـ ١٨٣٨. ويضيف القنصل روسولي بخصوص الإشاعة بعودة علي باشا القرمانللي (تتوفر لديّ كل الشكوك في صحة هذه الإشاعة. وإذا حدث ان تحققت فلا علي باشا ولا أي شخص غيره سيكون قادراً على إخضاع العرب المذكورين أعلاه، إلا بعد مضي زمن طويل، وبانتهاج مسلك يتسم بالحكمة والحزم حتى يكون في وسعه جرهم الى الطاعة بصفة تدريجية لعدم إمكان تغليب القوة في دواخل هذه المناطق الصحراوية، هذا إذا كان في وسعه استخدامها).

عبد الجليل) وظل يقاوم حتى النهاية. وقتل في هذه المعركة كما قتل أخوه سيف النصر. وولدان لهذا الأخير، كما قتل مصطفى الأدغم، ابن آغا مصراتة، وأحمد المريض شيخ ترهونة، وابنه وأخوه[٢٥]. وكان ذلك في أوائل يونيو ١٨٤٢ وقطع رأس عبد الجليل ونقله الجيش المنتصر الى طرابلس.

٥ ـ احتلال فزان وغدامس

كانت نهاية عبد الجليل، والعقاب الرادع الذي حل به وأقاربه ورفاقه، قد زاد من قوة الأتراك وسلطتهم، فاستولوا في نفس العام على مرزق وعينوا حاكماً عليها، المدعو (بكير) ثم حسن البلعزي الذي منح لقب (باشا) وتقلد منصب حاكم فزان، مدة طويلة. ونحن نعرف أنه كان ما يزال بمرزق حتى سنة ١٨٤٩. وعينت إنجلترا نائب قنصل بمرزق لحماية مصالحها السياسية والتجارية. وشغل هذا المنصب فترة طويلة من الزمن (غاليوفي Gagliuffi)[٢٦].

أما أولاد سليمان، البدو من أتباع عبد الجليل الذين أصابتهم الهزيمة وهزهم فقدان الزعيم، فقد اندفعوا في المناطق الصحراوية، وأخذوا يبحثون عن مراكز أخرى. والعيش على الغزو في الصحراء الليبية ومناطق كانم[٢٧]. وقد أنشأ الأتراك مركزاً حصيناً في سرت لدعم احتلالهم للمناطق الشرقية.

---

(٢٥) محفوظات قنصلية ساردينيا، رسالة الى وزارة الخارجية بتاريخ ٨ ـ ٦ ـ و٣ ـ ٧ ـ ١٨٤٢. بلليسير دي رينود ص ٣١ ـ ٣٧ فيرود ص ٣٨٢ ويقول فيرود إن الأشخاص المذكورين مع عبد الجليل لم يقتلو أثناء المعركة ولكن أعدمهم عشقر باشا بعد شهر من ذلك.

(٢٦) فيرود ص ٣٨٤.

(٢٧) حيث وجدهم الرحالة (بارث) في رحلته التي قام بها سنة ١٨٥٤ وكانوا قد هاجروا إليها مع محمد بن عبد الجليل وسيطروا على جنوبي فزان، وكان في وسعهم تجهيز تسعمائة فارس.
Reisen and Entdeckungen, Gotha 1857-58, 111 p. 56.
ويذكر أولاد سليمان، عبد الجليل في أغانيهم الشعبية وهتف به أحد شعراء ورفلة وهو يتخيل مرور قبيلته أمام (القارة) التي قتل عندها.. أنظر: روسي: الشعر الشعبي بطرابلس الغرب.. أغنيات تاريخية.. مجلة (تريبوليتانيا) ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ ص ٢٢٩ ـ ٢٤٣.

وعرفت غدامس أيضاً قرب سنة ١٨٤٣ السيادة التركية. وكان الأهالي قد قتلوا في الماضي أول قائد تركي أرسل اليها. ولكن الممثل الجديد لحكومة طرابلس كان أكثر حظاً، وأبعد خبرة. وهو أسود اسمه (بوكوبا) تمكن من التمركز في الواحة والسيطرة عليها.

٦ - الصراع ضد غومة

في يوليو ١٨٤٢ وصل إلى طرابلس الوالي الجديد محمد أمين باشا. وقد تأثر غومة لما وقع لزميله الثائر، فنزل الى طرابلس في أغسطس من نفس السنة لإعلان الطاعة(٢٨). وقد استقبل استقبالاً طيباً اتسم بالمجاملة وعومل بشيء من التقدير والاحترام. ولكن لم يلبث أن قبض عليه في ديسمبر، بناء على تعليمات من الباب العالي، هو ومن معه من الأشخاص، ومن بينهم ابنه الأصغر، وابن عمه ميلود، وابن أحمد المريض الذي قتل في يونيو مع عبد الجليل. ووضع غومة فوق إحدى السفن التي نقلته الى المنفى في استانبول ثم إلى طرابزون بالبحر الأسود.

وأثار هذا الحادث ثائرة سكان الجبل بقيادة المحاميد الذين وجدوا في الامتناع عن دفع الضريبة منطلقاً الى التمرد. ولكن أحمد باشا القائد التركي الشجاع تمكن من السيطرة على الوضع وتدمير معسكر المتمردين، وأسر عدداً كبيرا منهم بعد معركة حامية جرت في إبريل ١٨٤٣. وفي مايو دعا الى مقر قيادته زعماء الجبل، ووزع عليهم بكرم وسخاء النقود (والبرانس) دون أن يبدي لهم المكيدة التي أعدها للقضاء عليهم. وحين تجمع حوله كثير من الزعماء، هاجمهم وقتلهم وأرسل منهم الى طرابلس ٦٥ رأساً. وبذلك أمكنه احتلال يفرن ثم فساطو ونالوت. وبينما كان أحمد باشا في فساطو، على رأس قوته العسكرية، قام زعماء البربر الإباضيين في ككلة ويفرن بثورة عليه. ونشبت

---

(٢٨) يورد محمد بهيج الدين في كتابه ابن غلبون ص ١٣٩ - ١٤٠ ترجمة تركية لرسالة (غومة) الى مجلس الإدارة بطرابلس يعبر فيها عن رغبته في الدخول في طاعة الحكومة وهي مؤرخة في ٢٤ رجب ١٢٥٨ (٣١ أغسطس ١٨٤٢).

معارك جديدة أخرى، وقتل أحمد باشا بعض الزعماء، مما أدى الى اعادة الهدوء الى المنطقة لفترة محدودة من الزمن[٢٩].

وعاد أحمد باشا الى طرابلس، في نهاية ١٨٤٣، بعد أن ترك حامية قوية في الجبل. وقد أرغمت النفقات الطائلة للحملات العسكرية، حكومة طرابلس، على فرض ضرائب استثنائية فادحة. وعارض هذه الضرائب الشيخ محمد محسن (شيخ البلاد) في طرابلس، ودافع عن الأهالي فنفي الى بنغازي. وأخذ الأهالي يهاجرون نحو تونس والجزائر ومصر[٣٠].

وساد البلاد هدوء استمر سنة كاملة، وفي سنة ١٨٤٤ فر ميلود، ابن عم غومة، من منفاه بالبحر الأسود، ونزل بمالطا، ومنها انتقل الى جربة وأخذ يثير الجبل. وقام أحمد باشا للمرة الثانية بإخماد الثورة رغم فصل الحر (أغسطس) واحتل المنطقة الجبلية وهزم المتمردين وأسر بعض زعمائهم واعتقل أسرة ميلود الذي استطاع أن يختفي.

وتلت ذلك فترة من الهدوء النسبي، وانصرف الأتراك الى التنظيم الإداري للمقاطعات المحتلة، حتى إن نشاطهم عند مناطق الحدود قد أثار نوعاً من الشك لدى أحمد باي حاكم تونس، وكذلك لدى فرنسا.

وكان ميلود قد لجأ الى جربة، وعبثاً طالب الأتراك بتسليم الثائر. وانتشرت الإشاعة بأن الأتراك يريدون توجيه حملة على تونس. ويبدو أن هذه الإشاعة قد وجدت لها سنداً في وصول بعض الوحدات العسكرية الى طرابلس قادمة اليها من ألبانيا.

وفي يوليو ١٨٤٦ أرسلت فرنسا الى طرابلس فرقة بحرية بقيادة الأميرال (فرانسوا فردينانـدو دي جوانفيل[٣١] François Ferdinand de Joinville) لكي

---

(٢٩) محمد بهيج الدين ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٣٠) فيرود ص ٣٨٣.

(٣١) محفوظات قنصلية ساردينيا. رسائل وزارة الخارجية عن الأعوام ١٨٤٤ - ١٨٤٦ بلليسيير دي رينود ص ٣٦ سيريّس ص ٣١٦ - ٣١٨ - فيرود ٣٨٥. ومن جهة أخرى فقد تردد القول =

تؤكد عزمها الوطيد على الاحتفاظ بالوضع القائم (Status quo) في تونس، وعدم قبولها لكل ما يؤدي الى زعزعته وتغييره.

وفي صيف ١٨٤٧ أرسل الأميرال جوانفيل سفينة فرنسية من نابولي الى طرابلس، عقب وصول آلاف من الجنود الى طرابلس قادمين اليها من الآستانة. وقد وصل الوالي الجديد محمد رجب باشا الى طرابلس في سنة ١٨٤٧، ووجد نفسه يواجه، على الفور، ثورة انفجرت في الجبل. وأدت الى مقتل أحمد باشا القائد الممتاز الذي كان يحكم تلك المنطقة، حيث خرج عليه الثائرون وقتلوه في نوفمبر ١٨٤٧ قرب ككلة، حين كان يجوب المنطقة وسط حراسة بسيطة.

وبعد شهر من ذلك، أي في ديسمبر، خرجت من طرابلس فرقة بقيادة بشير بك الذي هاجم بلدة ككلة ودمرها، في شهر يناير ١٨٤٨، وألحق أضراراً فادحة بالمتمردين، وأرسل أربعاً وعشرين رأساً الى طرابلس. وقد عاد الى طرابلس في فبراير ١٨٤٨، بعد أن قام بتهدئة المنطقة(٣٣). ومنذ ذلك الحين عهدت إدارة الجبل الى زعيم محلي هو (قاسم) خصم غومة. ولم يختل النظام طوال عدة أعوام.

وفي الجنوب أيضاً توقفت غزوات أولاد سليمان الذين كان يقودهم سعيد ابن عبد الجليل الذي واجهه حاكم فزان وأوقعه في كمين نصبه له ملك برنو(٣٤).

وفي ١٢ ديسمبر ١٨٤٨ عرفت طرابلس والياً جديداً في شخص أحمد عزت باشا الذي كان يرافقه شريف باشا حاكم بنغازي الجديد. وفي أبريل من

= باعتزام الأتراك استرداد جربة، لأنها كانت تابعة في يوم من الأيام لطرابلس. وانتشر هذا القول أيضاً في سنة ١٨٣٥ حين استرد الأتراك السيطرة على طرابلس.

(٣٢) سريس ص ٣٦٩.

(٣٣) برنيا ص ٣١٢.

(٣٤) فيرود ص ٣٨٧.

العام الثاني ١٨٤٩ أنزلت بطرابلس ٢٤ قطعة مدفعية وكانت الرغبة واضحة في تجهيز المدينة بالأسلحة الحربية الملائمة[٣٥].

أما الأوضاع الصحية في المدينة، في ذلك الوقت، فقد ظلت سيئة. وفي ١٨٥٠ انتشر وباء الكوليرا بطرابلس المدينة والإقليم بأسره، ومات قنصل ساردينيا (بروكيّ V. Brocchi) وبعض موظفي القنصليتين الإنجليزية والإسبانية[٣٦].

وسعياً وراء مواجهة سياسة فرنسا التوسعية الخفية، أمر الأتراك بأن يعامل التونسيون في طرابلس، نفس المعاملة المخصصة لرعايا الدولة العثمانية، بالإضافة إلى قيامهم بمضاعفة عدد الحاميات بطرابلس، إذ ارتفعت في سنة ١٨٥١ إلى ما يقرب من عشرة آلاف رجل من المشاة، وألف وخمسمائة من الفرسان. كما كانت هناك خمس بطاريات، وكانت المخازن أيضاً عامرة بالذخيرة والسلاح. وكان في وسعهم في حالات الاستنفار والطوارىء أن يقوموا بتسليح خمسة عشر ألف رجل من الأهالي.

كان قنصل فرنسا بطرابلس (بلليسيير دي رينود E. Pellissier de Reynaud) وهو شخصية عرفت بنشاطها العظيم وخبرتها الواسعة (إذ كان مديراً للشؤون الأهلية بالجزائر) وكان هذا القنصل يتابع الأحداث، ويراقب تحركات السياسة التركية واتجاهاتها. وفي نهاية سبتمبر ١٨٥١ تقدم الى الوالي الجديد، وطلب منه تبريراً لحشد القوات التركية بطرابلس. وحصل على ردود تتسم بالتهرب والمراوغة التي واجهها بقوله إن فرنسا لن تسمح بتغيير الأوضاع القائمة بتونس. وقال القنصل الفرنسي للوالي (إن شكل الحكم في بلادي في الوقت الحاضر جمهوري، وربما صار ملكياً أو أي شكل آخر من أشكال

---

(٣٥) مجلة (Portafoglio Maltese) الصادرة في ٢٩ ـ ٤ ـ ١٨٤٩ رسالة من طرابلس مؤرخة في ١٢ ـ ٤ ـ ١٨٤٩.

(٣٦) محفوظات قنصلية مملكة الصقليتين، رسالة بتاريخ ٣ ـ ٩ ـ ١٨٤٩.

الحكم، فسيظل يحمل نفس المشاعر نحو تونس، ولن نسمح بأن تعامل بشكل يختلف عما عوملت به حتى الآن»[٣٧].

ولكي نفهم إصرار فرنسا وإلحاحها على عرقلة كل ترسيخ وتدعيم للنفوذ العثماني بتونس أو سيطرته عليها، ينبغي أن نضع في تقديرنا أنه إذا تمكن الأتراك من استرجاع نفوذهم في تونس، وأسوأ من ذلك، إذا تمكنوا من السيطرة عليها فإنهم سيجاورون الجزائر التي أصبحت تحت الحكم الفرنسي. وكان من شأن هذا الجوار وتزايد هيبة الباب العالي في إفريقيا الشمالية، الوقوف في وجه التوسع الاستعماري الفرنسي.

٧ ـ نهاية غومة وتدعيم احتلال طرابلس الغرب

في بداية سنة ١٨٥٥ فر غومة من منفاه، وعاد إلى الجبل وأشعل الثورة[٣٨]، ولجأ الوالي مصطفى نوري الى اجراءات وقائية. وبنهاية ربيع ذلك العام كان غومة قد وصل الى نالوت التي حاصرها. وأخذت الحملة التي أعدتها الحكومة تزحف على الجبل في ٢٦ يونيو ١٨٥٥.

لقد كان الوضع بطرابلس الغرب دقيقاً وحرجاً، معبراً عن قلق وتذمر المواطنين، وتطلعاتهم الاستقلالية الخفية التي كانت تؤيدها فرنسا. وكانت المناورة تتجه الى إعادة حكم القرمانللية الذي أخذ بعضهم يظهر الرضى عنه، في ذلك الوقت. رغم أنهم ثاروا ضد هذا النظام وعملوا على تهديمه منذ عشرين سنة خلت. وفي جميع الأحوال فإن الرغبة في إعادة الأسرة القرمانللية كانت ذريعة وحجة للعودة الى نوع من الحكم، أخف في سطوته وسيطرته من ذلك الحكم المباشر الذي كان يمارسه الباب العالي. وهكذا أعدت مضبطة وقدمت الى السلطان عبد المجيد[٣٩]، وقد وقعها غومة وعدد من زعماء الجبل. وهم

---

(٣٧) محفوظات قنصلية سارديينا، رسالة بتاريخ ٢ ـ ١٠ ـ ١٨٥١.

(٣٨) وردت أول إشارة الى وجود غومة بالجبل في رسالة لقنصل توسكانا مؤرخة في ١٥ ـ ٣ ـ ١٨٥٥.

(٣٩) المضبطة (التي توجد بالمحفوظات التركية بطرابلس) لا تحمل أي تاريخ. وطلب إسناد الحكم الى حسن بك القرمانللي مكتوب بخط يختلف عن خط المضبطة وتحمل المضبطة توقيع غومة وختمه الذي يحمل تاريخ ١٢٧١ (١٨٥٤ ـ ١٨٥٥) ثم قاضي كباو وأعيان الجبل.

يذكرون بأن إيالة طرابلس كانت تحكم حكماً عادلاً، باسم سلاطين آل عثمان، حين كانت تتولى أمرها الأسرة القرمانللية، بينما يقوم الولاة الآن، ممن يرسلهم الباب العالي، بارتكاب المظالم وسلب الأهالي. وتطلب العريضة إسناد الحكم الى حسن بك، سليل القرمانللية من فرع بك بنغازي. وفي نفس الوقت كتب غومة الى قناصل فرنسا وانجلترا، معلناً أن الثورة ليست موجهة ضد السلطان، ولكنها كانت ضد الإدارة السيئة للولاة الذين كانوا مهتمين فقط بجمع الأموال. وكان قنصل فرنسا على علاقات طيبة جداً مع غومة - وقد أسر إلى زميله القنصل النابوليتاني بأن الحكومة الفرنسية ترغب في إقناع الباب العالي (بإقامة ولاية على رأسها والٍ وراثي يختار من بين أفراد أسرة القرمانللي القديمة، وتقوم هذه الولاية بدفع الضريبة الى الباب العالي، وتوضع مثل تونس ضمن ما يشبه الحماية الفرنسية[٤٠].

هذا، في الوقت الذي كان الأتراك قد عقدوا العزم فيه على تدعيم سلطاتهم المباشرة في طرابلس، ولم يكونوا ينوون إعادة الأسرة القرمانللية.

وكانت الحملة التركية التي غادرت طرابلس في شهر يونيو، تحت قيادة العقيد إسماعيل بك، قد تعرضت في شهر يوليو الى هزيمة نكراء عند (الرومية) بالجبل الغربي، وقد أسر غومة عدداً كبيراً من الأسرى، وحصل على غنائم كبيرة من المدافع والعتاد. وقد استطاع الوصول الى قرقارش بمساعدة عرب الساحل الذين انضموا اليه وتحمسوا لقضيته. وقد خرجت له القوات المتوفرة في المدينة، واشتبكت معه في معركة بجنزور، وسواحل المنطقة الغربية،

---

(٤٠) محفوظات قنصلية مملكة الصقليتين رسالة بتاريخ ١ - ٦ - ١٨٥٥ وفي رسالة موجهة من طرابلس في ١٨ أكتوبر ١٨٥٥ الى جريدة البحر الأبيض (Il mediterraneo) الصادرة بمالطا في ٣١ أكتوبر ١٨٥٥ شكوى من حالة الاضطهاد التي ترزح تحتها الولاية بسبب الاستغلال الذي يرتكبه الضباط على مرأى من الوالي. وتشير الى ثورة سكان الدواخل وكساد الأوضاع التجارية بسبب ذلك. وتضيف أنه يبدو أن العرب يرغبون في أمير تابع للسلطان ويعتقد أن مثل هذا المنصب سيسند الى أحد أفراد الأسرة القرمانللية.

واستطاعت أن تنجح في دحر المتمردين، دون أن تحصل على انتصارات حاسمة، (في سبتمبر ١٨٥٥)[٤١].

ويبدو أن الجنود الأتراك قد تفككوا وتشتتوا عند الرومية فضاعف ذلك من كارثة الهزيمة، وزاد في آثار النكبة التي حلت بهم. وقد أدينوا بهذا الموقف، وتقرر معاقبتهم بالاستمرار في الجندية مدة أطول من المدة المقررة، مما أدى الى إثارة الشعور القويّ بالاستياء الذي اتخذ فيما بعد شكلاً مخيفاً منذراً بالخطر.

ورغم ذلك الفشل العسكري والتذمر الشائع بين الجنود فقد أخذت الأوضاع تتحسن بالنسبة للأتراك، بوصول المزيد من القوات. وكانوا ينتظرون دعماً قوياً من مصر، بينما وصلت جيوش غير نظامية من تركيا. ونزل بميناء طرابلس في منتصف يناير ١٨٥٦ ثلاثمئة جندي ألباني غير نظامي قادمين من (بريفيزا Prevesa) وهم ينتمون الى العصابات المعروفة باسم (باشي - بوزك). وفي ٢٢ أكتوبر ١٨٥٥، وصل الى طرابلس الوالي الجديد عثمان مختار باشا الذي أعد على الفور حملة على المتمردين. وقد تحركت فرقة كانت مقيمة بالزاوية، عند نهاية ١٨٥٥ واتجهت نحو غريان ثم الى الجبل وأعادت احتلال يفرن في ٢٠ يناير ١٨٥٦[٤٢].

وعندما هزم غومة أعلن أنه على استعداد لالتزام الهدوء والانسحاب الى تونس. ولكنه عاد إلى التمرد في نهاية مارس ١٨٥٨. وفي هذه المرة كان مصيره قد تقرر. إذ استطاعت قوة من الفرسان الأتراك، وبعض القوات الإضافية الأخرى بقيادة آغا مصراتة (أحمد الأدغم) أن تدرك غومة عند السهول الواقعة جنوبي الجبل، وهو في اتجاه غدامس[٤٣]، فأحاطت به. وقد قاوم المهاجمين وصمد

(٤١) محفوظات قنصلية ساردينيا، مراسلات وزارة الخارجية سنة ١٨٥٥.

(٤٢) محفوظات قنصلية توسكانا، رسائل بتاريخ ٢١ - ١ و١٨ - ٢ - ١٨٥٦.

(٤٣) في رسالة من قنصل توسكانا بتاريخ ١٠ - ٤ - ٨ - ١٨ يحدد الموقع على بعد ستين ميلاً من غدامس.

لهم بالعدد القليل الذي كان يلتف حوله، حتى سقط مصاباً بجرح قاتل. وقد نقل رأسه الى طرابلس[٤٤].

وكانت القوات التركية التي تصرفت هي الأخرى ببطولة، تبدي علائم الاستياء والإعياء. وفي ١٥ سبتمبر ١٨٥٨ تجمع حوالي ألف من الجنود الذين عوقبوا بتمديد مدة الخدمة العسكرية، نتيجة تخليهم عن المعركة في الرومية ١٨٥٥، وطالبوا بإعادتهم الى عائلاتهم. واستغل الوالي بعض العناصر المخلصة الموالية له من الجنود، وكذلك من الألبانيين، وطلب من الجنود المتمردين الاستسلام بلا قيد ولا شرط. واستعان أيضاً بعرب الدواخل الذين تجمعوا عند أبواب المدينة. وأصيبت الجالية الأوربية بالرعب، وكانت ما تزال تذكر الأحداث القريبة التي وقعت في جدة وكانيا Canea فأقفلت عليها بيوتها. وأخيراً استسلم المتمردون وعوقب كثير منهم بعقوبة الجلد.

وفي نهاية العام اتخذت الإجراءات لاستبدال الجيش. وكلف هذا التصرف عثمان باشا فقدان منصبه، وخلف الحاج أحمد عزت باشا الذي وصل الى طرابلس في ١٢ نوفمبر ١٨٥٨ فوق باخرة[٤٥] اسمها (الأثر الجديد). وقد وجد الولاية هادئة نسبياً. أما في المقاطعات الوسطى فإن الوضع لم يكن آمناً والهدوء لم يكن مستتباً بسبب الغزوات التي يقوم بها أولاد سليمان المتحالفون مع قبائل أخرى من سرت بقيادة أبناء عبد الجليل.

وفي إقليم بنغازي أثارت الضرائب ثائرة السكان. وكانت الحدود الغربية عرضة لغارات بدو قبيلة (ورغمة)[٤٦].

وفي خريف ١٨٥٩ أرسل الوالي حملة الى مرزق مكونة من ثلاثة أو

---

(٤٤) ازدهرت الأسطورة الشعبية عن غومة. أنظر مقالي عن الشعر الشعبي في طرابلس الغرب. أغنيات تاريخية، مجلة (تريبوليتانيا) ص ٢٣٥ - ٢٤٢.

(٤٥) محفوظات قنصلية توسكانا، رسالة بتاريخ ٢٥ - ١١ - ١٨٥٨ (محفوظات ليفورنو) ملف رقم ٦٢٩ رسالة بتاريخ ٢٥ - ١١ - ١٨٥٨. وبعد أربعة أيام من ذلك غادر عثمان باشا البلاد متجهاً الى (اسكب).

(٤٦) محفوظات قنصلية توسكانا، رسالة بتاريخ ١٤ - ١١ - ١٨٥٩.

أربعة آلاف مسلح عربي غير نظامي، من مناطق طرابلس ومصراتة مع بعض الجنود الأتراك بقيادة ضابط برتبة عقيد[47]. ويقول فيرود[48]: إن هذه الحملة غير المنظمة واصلت طريقها الى مرزق، بعد أن مات العقيد التركي بالحمى في سوكنة. وتوغلت فيما بعد في جنوبي فزان بين تبو التبستي الذين نقلت منهم عدداً كبيراً من العبيد. وتقدمت نحو واحة (العيبر) لدى الطوارق، واستولت على بعض العبيد والبضائع، دون مراعاة ملكية البضائع التي كانت تعود الى بعض تجار غدامس من رعايا الباب العالي الموالي له.

إن الفرقة غير النظامية التي قامت بهذه الغارات (التي يمكن أن تقارن بغارات المكني قبل ذلك بأربعين عاماً) في الجنوب الليبي، تعرضت بدورها، في طريق العودة الى هجمات قاضية شنها عليها الطوارق الذين أبادوها، ولم يسلم منها إلا القليل الذي فرّ بجلده الى الساحل.

ورغم الوقائع التي تنبىء عن الرسالة الحضارية للحكومة التركية في ليبيا، ورغم حالة التذمر الدائم بين صفوف الجند، فإنه يمكن القول إنه بنهاية غومة سنة ١٨٥٨ قد تمت للأتراك السيطرة العسكرية الكاملة على المراكز الرئيسية بطرابلس الغرب، على الأقل. وبذلك تنتهي تلك الفترة التي اتسمت بالثورات التي قادها الزعماء الكبار، وسارت في ركابها القبائل الكبيرة. وقد سئم الأهالي هذه الحرب المتواصلة وملوا المتاعب والقلاقل التي تعرضوا لها. ولكنهم لم يستسلموا استسلاماً نهائياً. لقد خضعوا للمحتل الذي حاول عبثاً أن يعطي نظاماً اقتصادياً وإدارياً للبلاد على النحو الذي سنراه في الفصل القادم.

---

(٤٧) محفوظات قنصلية مملكة الصقليتين، رسالة بتاريخ ٣ ـ ١١ ـ ١٨٥٩.

(٤٨) فيرود (الحوليات) ص ٤١٣ ـ ٤١٤.

الفصل الثاني

الفترة الثانية من العهد العثماني بطرابلس
الادارة العثمانية بعد الاحتلال

* طرابلس حوالي سنة ١٨٥٠ ـ الوضع الاقتصادي.
* تجارة الرقيق.
* أعمال الولاة العثمانيين الأوائل.
* التقسيمات الإدارية والتنظيم المالي.
* المواطنون وعلاقاتهم بالولاة والجاليات الأجنبية.
* صدى الأحداث التي وقعت بتونس ومصر ١٨٨١ ـ ١٨٨٢
* الكشف الجغرافي في ليبيا في القرن التاسع عشر.
* التوغل العثماني في دواخل ليبيا ومشكلة الحدود.
* آخر الولاة العثمانيين.
* الوضع الاقتصادي في طرابلس منذ ١٨٨٠ حتى ١٩١١.
* قائمة بأسماء الولاة العثمانيين منذ ١٨٣٥ حتى ١٩١١.

١ ـ طرابلس قرب سنة ١٨٥٠ ـ الوضع الاقتصادي

لقد وصفت طرابلس[١] خلال الفترة الواقعة قرب سنة ١٨٥٠ بأنها مدينة صغيرة يتراوح عدد سكانها بين عشرة آلاف واثني عشر ألف نسمة، وهي مدينة نظيفة إلى حد ما، باستثناء الحي اليهودي. وتحيط بها أسوار في حالة سيئة. ولها بابان إلى الشرق (باب المنشية، وفم الباب) على طريق ضيقة كأنها ممشى يؤدي إلى الريف. وباب إلى الغرب اسمه (باب البحر) الذي يؤدي إلى البحر. لقد تعرضت قلعة طرابلس خلال سنة ١٨٤٩ إلى بعض التعديلات التي أدخلت عليها. فالمنازل التي كان يسكنها يوسف باشا وبلاطه جرى إعدادها وتهيئتها لسكنى الجيش بالنظر لقلة الثكنات[٢].

ولما كانت الأوضاع السياسية قد تغيرت في طرابلس، فلم يعد هناك مبرر لبقاء العملة المحلية التي ظلت مع ذلك تضرب باسم السلطان[٣]. وقد قام الوالي مصطفى نجيب باشا، سنة ١٨٣٥ بضرب بعض النقود النحاسية. وفي

---

(١) بلليسير دي رينود P. De Reynaud قنصل فرنسا بطرابلس من ١٨٥٠ حتى ١٨٥٢ في دراسته المعروفة التي نشرها بعنوان:

(La Régence De Tripoli) Revue des Deux mondes, XII, 1855 4o trimestre.

(٢) محفوظات توسكانا ٢٣ ـ ٨ ـ ١٨٤٩.

(٣) بخصوص العملة الطرابلسية أنظر دراسة قويدو شيمينو:

Guido Cimino (La zecca di Tripoli d'Occidente nell opera di M. Valentine e la zecca di Tripoli d'Occidente Soto il dominio Caramanli ùn, Riv. et. di Mumistica XXX, 1916 fasc. 11-IV. La zecca di Tripoli d'Occidente Sotto il dominio degli Ottomain in not. arch. min. Colonie, III-1922 p. 115-143 e append 1-XXXIX. Storia e numismatica dell Africa del Nord, in (LIBYA) 1927 - p. 202-227.

نفس العام قام خلفه الوالي محمد رائف باشا بإلغاء العملة القديمة نهائياً.

وبعد سنة ١٨٤٢ ،أي عند نهاية ثورة عبد الجليل، خيم هدوء نسبي على أغلب أجزاء الدواخل، مما ساعد على توفير إمكانية مرور القوافل بمناطق طرابلس الشرقية. ووجدت التجارة طريقها إلى الداخل، بعد أن كانت منحصرة في ذلك الوقت بالساحل. وينقل إلينا الرحالة الألماني (هـ. بارث) الذي زار طرابلس في ١٨٤٦ أنه وجد المدينة في بؤس كبير بسبب الحروب الداخلية التي سادت الفترة الأخيرة من العهد القرمانللي، وسوء الإدارة العثمانية، ولكن التجارة مع السودان كانت ما تزال مزدهرة إلى حد ما حتى ذلك الوقت[٤].

وينقل إلينا (بارث) نفسه أنه شاهد قافلة مكونة من ألف جمل، محملة بالتبر واللؤلؤ والتوابل والزعفران وريش النعام والعاج والعبيد. وكان يتقدم القافلة في العادة رائد يمتطي مهرياً. وكان وصول هذا الرائد مبعثاً لحياة نشطة غير عادية في المدينة الخاملة. ولم يقم الأتراك، من جانبهم، بتشجيع هذه المبادرات التجارية التي كانت ثمرة نشاط التجار أنفسهم في طرابلس وغدامس. وقد كان لهم وكلاء في الواداي وبورنو ونيجريا. وتعاونت كثير من الشركات اليهودية بطرابلس مع التجار المسلمين الذين كان في وسعهم إقامة علاقات مع إخوانهم في الدين، في الجنوب الليبي، بسهولة ويسر.

أما الشركات الأجنبية للمقاولات فقد كانت تعرقل من قبل الحكومة العثمانية. وفي سنة ١٨٤٠ أنشئت في مارسيليا شركة لاستغلال مناجم الكبريت في سرت. وعقدت اتفاقيات مع عبد الجليل. ولكن لم يكد يقتل عبد الجليل حتى رفضت الحكومة العثمانية الاعتراف بالامتياز الممنوح وتخلت الشركة في سنة ١٨٤٦ عن أية مطالب، بعد حصولها على تعويض مناسب[٥].

---

(٤) إن رحلة (بارث) برلين ١٨٤٩ (بالألمانية) ص ٢٩٢ ج ١. ويقول الرحالة إن الأتراك لم يهتموا اهتماماً كبيراً بمصير هذا الشعب الغريب عليهم، بحيث يتجهون إلى تحسين أوضاعه على نحو من الأنحاء.

(٥) بلليسيير دي رينود ـ برنيا ص ٣٢٠.

كانت التجارة مزدهرة في ذلك الوقت بين طرابلس ومالطا. وكذلك مع الدول الإيطالية وتونس وتركيا وفرنسا. وقد صدر في عام ١٨٥٠ من ليبيا كلها ٢١١,٧٠٠ هكتولتر من الحبوب و ١,٣٧٥,٨٠٠ كيلوغرام من الزيت و ٥١١,٧٨٧ رأساً من الغنم و ٤٠٦,٠٠٠ كيلوغرام من السمن البرقاوي.

وفي نفس العام وصلت إلى طرابلس وبنغازي من إفريقيا الوسطى ٢,٧٠٨ أفراد من العبيد، يقدرون بقيمة ٧٥٩,٠٠٠ فرنك. وشحنة من العاج تقدر بمبلغ ٧٥٤,٠٠٠ فرنك و١٠٩,٠٠٠ غرام من الذهب بقيمة ٣٦٠,٠٠٠ فرنك[٦].

وفي سنة ١٨٥١ أنشئت بطرابلس المحكمة التجارية المختلطة. ويختار ثلاثة من قضاتها من الأوروبيين المقيمين بطرابلس وعدد مماثل من القضاة العرب، ويرأسها العميد (شيخ البلاد) الذي كان في ذلك الوقت محمد المحسن[٧].

وقد ظهرت منتوجات طرابلس ودواخلها لأول مرة في معرض أوروبي سنة ١٨٥١. وتم فعلاً في تلك السنة جمع عروض مختلفة من المنتوجات الطرابلسية ومن فزان، وتومبكتو ومصراتة وبنغازي. وشحنت إلى الآستانة لإرسالها إلى المعرض الصناعي بلندن[٨].

وكان للأمن الذي ساد الدواخل بصفة مؤقتة أثره في السماح بإجراء أبحاث للتنقيب عن المعادن. وعهد بهذه الأبحاث، في الغالب، إلى عناصر أجنبية تعمل في خدمة الحكومة العثمانية. ونلاحظ في هذا الخصوص أن الحذر التركي من الأجانب لم يبلغ من الحدة، تلك الدرجة التي سنراها بعد ثلاثين سنة. وفعلاً فإنه خلال الفترة الواقعة بين ١٨٣٥ و١٨٨٠ كانت الاكتشافات الجغرافية والعلمية بصفة عامة في دواخل ليبيا، مقبولة. ثم أبدت

---

(٦) بلليسيير دي رينود ص ٤٣ - ٤٥.
(٧) محفوظات قنصلية مملكة الصقليتين (٦ - ٩ - ١٨٥١).
(٨) محفوظات قنصلية توسكانا (٨ - ٢ - ١٨٥١).

الحكومة شعـور الضيق بهذه الاكتشـافات، متبينـة في كل رحلة أو بعثـة مطامـع سياسية تهدد سلامة الإمبراطورية العثمانية بالخطر.

وفي مستهـل عام ١٨٥٢ وجـدت طبقـات من الفحم الحجـري، ومنجم للفضة، وآخر لنوع من الجص الأبيض. وقد أخبر قنصل توسكانا بذلك: (لقد أجـريت التجـارب عـلى المنجم الأول، ويبـدو أنـه يـوجـد فعـلاً المعـدنـان المـذكوران. وسيقـوم أوربيان من المهـاجرين الـرومانيـين، توفـرت لهما الأدوات اللازمة، بإجراء تجارب وأبحاث دقيقة، بغية الوصول إلى نتـائج أكـثر إيجابيـة، وسيقومان بعد ذلك بالتعاقد مع السلطات العثمانية)[٩].

إن هـذه الإشـارات القليلة إلى الأبحـاث الصنـاعيـة وأخبـار المبـادلات التجارية الهامة، لا يمكن أن تنسينـا أن الاقتصاد الطرابلسـي يعتمد في ذلـك الوقت، في المقام الأول، على الزراعة. وكانت هـذه بدورهـا في وضع متقلب، إذ كانت تتحكم فيها المواسم الحسنة أو السيئة، أو على نحو أدق، كانت تعتمد على وفرة الأمطار أو قلتها. إن المطر في نظر سكان ليبيا ـ كـما هو لدى كثـير من المزارعين في كثير من البلدان ـ نعمة من الله وفي التركية (رحمة). وهكذا يحـدث أن تعقب سنوات الخصب الكبير المتوفرة عـلى إمكانيـات التصديـر، سنوات من القحط والجدب والجفاف.

وفي سنـة ١٨٥٦ وكذلـك في سنـة ١٨٥٩، وفي غـيرهمـا من السنـوات، تشهد وثائق القناصـل بأن حكومة طرابلس قد اضطرت في بعض هـذه الأعوام إلى أن تتخـذ الإجـراء بـالمنـع التـام لتصـديـر الحبـوب التي لم تكن تكفي مجـرد الاستهلاك المحلي.

٢ ـ تجارة الرقيق

لقـد أشرنا ـ فيـما تقدم ـ إلى أن تجـارة الرقيق كـانت مـا تـزال قـائمـة في

(٩) محفوظات قنصلية توسكانا ـ رسالتان بتاريخ ١٧ ـ ١ و ١٠ ـ ٢ ـ ١٨٥٢.

(١٠) محفوظات قنصلية توسكانا، رسالة بتاريخ ١٨ ـ ٤ ـ ١٨٤٢.

طرابلس الغرب، في سنة ١٨٥٠. وكانت تجري علناً وبصفة مطمئنة. وكانت مواردها تظهر كموارد تجارية في إحصائيات البلاد. ومن المهم في هذا الخصوص أن نجمع الأخبار التي تحتوي عليها (المحفوظات القنصلية) والتي يبدو منها، على سبيل المثال، أنه في يوم ١٥ أبريل ١٨٤٢ وصلت إلى طرابلس قافلة غدامسية، بما يقرب من ستمائة من العبيد السود والبضائع المختلفة. وقد بيع العبيد على الفور إلى تجار أغلبهم من الأتراك الذين بعثوا بهم إلى أسواق إزمير والآستانة.

وفي سنة ١٨٤٥ وصلت إلى طرابلس قافلة غدامسية صغيرة تحمل مئة وخمسة عشر عبداً أسود، وبضائع مختلفة مثل النطزون وريش النعام والعاج والتبر[١١].

وقد وصل السنيور (غاليوفي) الذي كان يعمل نائباً لقنصل إنجلترا بفزان، في مايو ١٨٤٨ إلى طرابلس، صحبة قافلة كانت تحمل خمسمائة من العبيد، بقيمة تقدر بثلاثة ملايين كولونات[١٢].

ويخبر مراسل (الحقيبة المالطية Portofoglio Maltese[١٣]) من طرابلس، برسالة مؤرخة في ١٣ مايو ١٨٤٩، عن وصول قافلة مكونة من مئة وتسعة أشخاص من العبيد، موجهين إلى أسواق إزمير والآستانة.

ولم يكن لحركة مقاومة تجارة الرقيق التي بدأت في تلك السنوات بأوروبا أي تأثير كبير في طرابلس الغرب. فقد ظلت هذه التجارة قائمة حتى في تونس والجنوب الجزائري والمغرب والسودان ومصر، رغم الاحتجاجات الإنسانية للجمعيات الأوروبية.

وفي سنة ١٨٥٠ احتج مجلس العموم البريطاني على استمرار تجارة الرقيق، خاصة في موانىء طرابلس. ونحن نعلم أن القوافل القادمة من مرزق

---

(١١) محفوظات قنصلية ساردينيا، رسالة ٩ - ١١ - ١٨٤٥. ١٨٧٨.

(١٢) محفوظات قنصلية مملكة الصقليتين، رسالة ٢٨ - ٥ - ١٨٤٨.

(١٣) عدد ٢٤ مايو ١٨٤٩.

وغدامس قد جلبت إلى الساحل ألفين من الرقيق الأسود. ووصل إلى بنغازي من الواداي ألفان وأربعمائة عبد. وقد نقل نائب قنصل ساردينيا في تلك البلاد بأن هؤلاء البؤساء قد اضطروا إلى استجداء أكلهم وشربهم، وهلك منهم أثناء الرحلة ما يقرب من خمسة أو ستة آلاف بسبب الإعياء والإرهاق(١٤).

وكان لإلحاح الدول الكبرى، وتدخلها لدى الباب العالي، بعض الأثر في طرابلس الغرب. وفي ابريل ١٨٥٥ أصدر الوالي - طبقاً لتعليمات الآستانة - قراراً يقضي بمنع المتاجرة في العبيد. ومع ذلك فقد استمرت عمليات البيع بلا حياء، تجري في الأسواق. يؤكد ذلك (فيلبّو روسوني) الذي يلاحظ (أن منع تصدير العبيد في هذه البلاد يتعرض للخرق المستمر بالتصدير الجاري لتلك المخلوقات البائسة(١٥). وقد وصلت تعليمات جديدة من الآستانة بمنع بيع العبيد السود وتصديرهم. ولكن البيع استمر في الخفاء، كما استمر التصدير عن طريق التهريب)(١٦).

وثمة اتهام خطير موجه إلى السلطات العثمانية في ليبيا، تزودنا به تلك المعلومات التي جمعها الرحالة والمكتشف الألماني (رولف) الذي كان موجوداً بمرزق سنة ١٨٦٥. ولاحظ أن تجارة الرقيق ما تزال نشطة في فزان. وأن العبيد يباعون في العادة داخل البلاد، ويُرحّلون إلى مصر عن طريق أوجلة، وأن أحد التجار المدعو باسم الحاج عامري Amri كان وكيلاً لغاليوفي في مرزق (وغاليوفي هذا من أصل إيطالي من مقاطعة فيومي، كان قنصلاً لإنجلترا في مرزق ثم قنصلاً للبلدان المنخفضة في طرابلس، ثم انسحب وعاش حياة خاصة) قد أرسل من فزان، في نهاية السنة، ألفاً ومئة من العبيد، واستفاد غاليوفي نفسه من هذه التجارة، بطريق غير مباشرة، أثناء إقامته بمرزق، وجمع ربحاً كبيراً بقبوله لبعض الهدايا حتى يغض الطرف ويمتنع عن إثارة المشاكل.

---

(١٤) محفوظات قنصلية ساردينيا رسالة بتاريخ ٢ - ٦ - ١٨٥٠.

(١٥) محفوظات قنصلية توسكانا رسالتان بتاريخ ١ - ٥ و١٦ - ٦ - ١٨٥٥.

(١٦) محفوظات قنصلية توسكانا رسالة بتاريخ ١٠ - ٥ - ١٨٥٦.

وبلغ مجموع ما صدر من مرزق في العام السابق حوالي ٤٤٠٨ أفراد من العبيد. وكان القائمقام حليم بك يربح من وراء هذه التجارة، إذ يستلم (محبوباً) أي حوالي عشر فرنكات عن كل عبد يخرج من البلدة. ويجبي آخرون مبالغ أخرى، عن كل عبد يدخل. وعلى الجملة، فقد كانت تجارة الرقيق بمرزق في سنة ١٨٦٥ من التجارات المعدودة. رغم منع السلطات لها. وهو منع شكلي أكثر منه منعاً عملياً. خاصة إذا علمنا أن باشا طرابلس - كما يقول الرحالة رولف - لم يرفض هدية قدمها إليه قائمقام فزان، وتتكون من اثني عشر عبداً[١٧].

إن الإلغاء الجزئي لتجارة الرقيق قد حمل ضربة خطيرة لاقتصاد البلاد، وهي ضربة يمكن أن تقارن، فقط، بتلك الضربة التي نشأت منذ نصف قرن سابق، عن إلغاء القرصنة. ولم تكن الحكومة العثمانية، ولا السكان بقادرين على أن يعوضوا أو يستبدلوا تلك التجارة الوضيعة بطرق جديدة للعمل التجاري. وكان هذا الواقع، وعوامل أخرى مصاحبة، مثل تحويل تجارة القوافل من نيجيريا، قد أدت كلها إلى إفقار ليبيا في نهاية القرن الماضي.

وقد تولت إنجلترا النهوض بعبء هذا العمل الإنساني المعارض لتجارة الرقيق في طرابلس الغرب وبنغازي[*]، طوال فترة طويلة من الزمن. وقد قام القنصل الإنجليزي في بنغازي (هندرسن) برحلة في دواخل برقة، قصد الاطلاع على كافة الظروف والأوضاع التي تحيط بهذه التجارة. وذهب إلى أوجلة والتقى هناك بقافلة مكونة من مئتين وخمسين من العبيد. وكان المتاجرون بهذا

(١٧) رحلة رولف:

Reise durch Nord - Afrika vom mitteländischen meere bis Busen von Guinea 1865 - 67, vol I Gatha 1868 p. 6.

(*) من السذاجة أن ينظر إلى هذه الحركات على أنها عمل إنساني مجرد منفصل عن الاتجاهات الاستعمارية التي أدت فيما بعد إلى وقوع القارة بأسرها في قبضة الاستعمار الأوروبي. (المعرب).

النوع يحملون السود من الوادي إلى أوجلة. ومن هناك يوزعونهم على طرابلس الغرب ومصر[18].

وسرعان ما تميزت أيضاً، بالمشاركة في هذا العمل الإنقاذي، قنصلية إيطاليا التي كان يلجأ إليها هؤلاء المساكين على أمل الخلاص. ومنذ سنة ١٨٧٨ وما تلاها من السنوات، فإن سجلات القنصلية الإيطالية تحصي حالات كثيرة تم فيها تحرير العبيد. وعلى سبيل المثال، فقد قامت القنصلية في الأيام الأخيرة من أكتوبر ١٨٧٨ بالحصول على ورقة (عتق) للعبيد الآتية أسماؤهم: أبو بكر بن محمد من كانو، وهو عبد للمدعو بلقاسم من الجبل. ولطيفة، جارية أرملة المدعو عثمان أفندي. عبدة من السودان. فاطمة من كوكا (بورنو). حواء من الوادي. جارية الحاج رمضان بطرابلس. ومنذ ٢١ أغسطس حتى أول أكتوبر ١٨٧٩ تم عتق اثني عشر عبداً آخر بمجهود القنصلية الإيطالية[19].

لقد انخفضت هذه التجارة في ميناءي طرابلس وبنغازي، ولكنها ظلت مستمرة في المراكز النائية الخارجة عن الرقابة. وكانت تجري دون مضايقة تقريباً في غدامس ومرزق وغات وسوكنة وزلة وأوجلة وجالو والجغبوب. ويجلب العبيد من السودان الأوسط وبورنو وباقرمي والوادي وبلاد الهوسة ولاكاتا. وقد قدروا في عام ١٨٨٩ بعدد يتراوح بين خمسمائة وألف في العام. وكان يجري استبدال هؤلاء العبيد بالإبل والمعز والبقر، ومع ذلك فقد أصدر السلطان مرسوماً آخر بمنع هذه التجارة[20].

وفي سنة ١٨٩١ قامت لجنة مقاومة الرق بتعيين الأب كارلو دا بورقو Garlo da Borgo a Giovi رئيس الإرسالية الفرنشسكانية ضمن أعضائها. وأرسلت إليه مبلغ خمسة آلاف فرنك للمساهمة في أعمال تخليص العبيد. وكانت بنغازي ومصراتة في ذلك الوقت تمثلان المنفذين لهذه التجارة الحقيرة. وقام

(١٨) محفوظات قنصلية إيطاليا، ١٨ - ٢ - ١٨٧٦.

(١٩) محفوظات قنصلية إيطاليا ٣ - ١١ - ١٨٧٨.

(٢٠) محفوظات قنصلية إيطاليا ٣ - ١٢ - ١٨٨٩.

الأب كارلو بتوزيع عملائه السريين، مع تكليفهم بإخطار وكيل الجمعية المقيم في (كانيا) حتى يراقب السفن التي تحمل العبيد من برقة إلى موانىء تركيا.

وبهذه الطريقة يمكن تخليص بعض هؤلاء التعساء. والغريب أن عملية الإنقاذ هذه قد تعرضت لصعوبات جمة، من قبل هؤلاء العبيد أنفسهم، الذين عاد عدد كبير منهم إلى أسياده، بعد تحريرهم وإعتاقهم، كما تعود البهائم المعتادة على النير وحمل الأثقال. عاجزين عن أن يشقوا لأنفسهم طريقاً خاصاً مستقلاً، وقد تخلوا في غير أسف عن تلك الحرية التي لم يرغبوا فيها، رغم ما كان يوفر لهم من حماية ومساعدة. ومن الحق أن يقال، إن وضع هؤلاء العبيد، لم يكن سيئاً قاسياً. وأن أصحابهم كانوا يعاملونهم معاملة إنسانية في العادة. كما أن أوضاع العبيد في البيئة الإسلامية لم تكن مهينة، كما يمكن أن تبدو على ضوء الأفكار الحديثة، في المساواة بين البشر.

وفي بنغازي اهتم القسيس باولينو دافرسا Paolino d'Aversa منذ سنة ١٨٩٠ بتعليم الأطفال السود المُعتَقين. كما استقر ببنغازي أيضاً أعضاء هيئة القديس يوسف، منذ سنة ١٩٠٤. وتولت هذه الجماعة عملها في التخفيف عن العبيد المُعتَقين حتى تم الإلغاء النهائي لهذه التجارة.

٣ ـ أعمال الولاة الأتراك الأوائل

اهتم الولاة الأوائل الذين بعث بهم الباب العالي إلى طرابلس بالأعمال العسكرية، وقليلاً ما اهتموا بالحياة المدنية. وهم يغيرون، ويجري استبدالهم تبعاً للاتجاهات السياسية التي يقرر الباب العالي سلوكها، نحو سكان طرابلس. وتبعاً لنجاحهم أو فشلهم السياسي والعسكري. ومع ذلك فقد أمكن إنجاز بعض الأعمال، خلال السنوات العشر الأولى، لعودة السيادة العثمانية.

ففي الأعوام ١٨٤٤ ـ ١٨٤٦، وفي عهد الوالي محمد أمين باشا أنشئت في أبي نجيم، على طريق سرت فزان، (قلعة) سميت باسم المجيدية باسم

السلطان عبد المجيد الجالس على العرش آنذاك، وقام حول القلعة مسجد وفندق وبعض المنازل لمزارعين نقلوا من مسلاتة[٢١].

وفي سنة ١٨٤٧ رممت القصور أو القلاع في ورفلة وغريان ومرزق[٢٢]، وفي سنة ١٨٥٣ افتتح الوالي مصطفى نوري المستشفى العسكري بالمنشية حيث ما تزال به لوحة تذكارية تشيد بمآثر السلطان عبد المجيد. وقرب هذه الفترة، حصنت الأسوار من الجانب الشمالي المواجه للميناء[٢٣].

أما الحاج أحمد عزت باشا الذي حكم من سنة ١٨٥٨ إلى سنة ١٨٦٠ فقد أسس المدارس الثانوية الأولى بالبلاد[٢٤]. واهتم بالخدمات البريدية، ودشن نقل البريد على الباخرة (المولودية). وقام خلفه محمود نديم باشا (١٨٦٠ - ١٨٦٧) بتشجيع زراعة الزيتون، ونفذ تغيير الوضع الإداري من ولاية إلى إيالة (أي إلى إدارة محلية ذاتية ذات اختصاصات واسعة بدلاً من ولاية، أي مجرد مقاطعة) وهو النظام الذي تم إنشاؤه في ذلك الوقت في تركيا ضمن حركة الإصلاح الإداري. وافتتح هذا الوالي أيضاً أولى المحاكم المدنية والجنائية والتجارية وأسس المطبعة التي كانت تصدر جريدة (طرابلس الغرب) الرسمية.

---

(٢١) المحفوظات التركية بطرابلس. الجزء الأول من محاضر مجلس الإدارة. وفي التقرير الذي يلحق بقائمة النفقات ذكر (أنه يوجد بإيالة طرابلس موقع يعرف باسم أبي نجيم على الطريق المؤدية من فزان والسودان إلى طرابلس. وهو خلاء يرهبه الناس، وتتعرض فيه القوافل للهجمات، وقد قتل به ناس كثيرون، ونهبت فيه أموال كثيرة، لذا قرر مجلس كرسي الإيالة المنعقد بحضور المشير محمد أمين (نقل الناس للسكنى بأبي نجيم وإنشاء حصن وبيوت وبساتين للفواكه بالنظر لخصوبة الأرض وتوفر المياه العذبة. وأرخ لإنشاء الحصن بلوحة ما تزال محفوظة بطرابلس. أنظر: (روسي: الكتابات العربية والتركية بمتحف طرابلس ص ٦٣ رقم ١١٢).

(٢٢) المحفوظات التركية بطرابلس، الجزء الأول من محاضر مجلس الإدارة ١٢٦٢ - ١٢٦٦هـ (١٨٤٦).

(٢٣) توجد بمتحف طرابلس لوحتان تذكران بأعمال التحصين. . أنظر: (روسي الكتابات العربية والتركية بمتحف طرابلس. . ٦٣ - ٦٤ رقم ١١١ - ١١٣).

(٢٤) محفوظات قنصلية توسكانا ٣ - ١ - ١٨٥٩.
لقد أنشأ الوالي نوعاً من المعهد لتعليم الأهالي باللغات التركية والأوروبية.

وكانت تحرر باللغتين العربية والتركية. وفتح في السور الجنوبي الباب المعروف باسم (الباب الجديد)[٢٥].

وفي شهر مايو ١٨٦١ قام الإنجليز بمد (الكابل) التلغرافي بين مالطا وطرابلس التي وجدت نفسها مرتبطة بالعالم المتمدن[٢٦].

وفي مساء ٣٠ مايو ١٨٦٤ اهتزت البلاد بأسرها، بسبب انفجار مرعب وهرع الناس فزعين إلى الشوارع، دون أن يدركوا شيئاً مما وقع، ثم شوهدت سحابة كثيفة سوداء ترتفع فوق البرج الإسباني، عند الطرف الأقصى الغربي، من الميناء، حيث أعد ليكون مصنعاً للخرطوش. وقدر عدد الضحايا بما يقرب من أربعمائة، كان أكثرهم من الجنود الأتراك، وخمسة أفراد من المسيحيين. ويلاحظ القنصل الإيطالي الذي نقل إلى حكومته أخبار الكارثة، كيف كان من المتعذر إقناع المسلمين باصطناع الحذر، إذ إنهم معتادون على التعويل على القدر والرد على كل شيء بأنه (مكتوب) وإن شاء الله[٢٧].

وقد وصل المشير علي رضا باشا إلى طرابلس صيف ١٨٦٦ ليتولى مهام حكم الولاية وقيادة الجيش. واهتم بتحسين الخدمات البريدية، ومد أول خط تلغرافي بين طرابلس والخمس، وأنشأ سوقاً أطلق عليها اسم العزيزية، تخليداً للسلطان عبد العزيز الجالس على العرش. وقد أنشئت السوق في المنطقة التي خلعت هذا الاسم فيما بعد على أحد الشوارع الحديثة في المدينة. وأقام حديقة صغيرة عامة بمدينة طرابلس، كما أنشأ برج الساعة، وأصلح مسجد القلعة.

وعاد أحمد عزت باشا أيضاً إلى حكم الولاية من جديد، من سنة ١٨٧٩ - ١٨٨٠ وأسس مدرسة الفنون والصنائع[٢٨] وملجأ لغرباء المسلمين، واهتم بترميم الأسوار.

---

(٢٥) النائب ص ٣٧٤ - ٣٨٥.

(٢٦) محفوظات قنصلية سارادينيا ٥ - ٦ - ١٨٦١.

(٢٧) محفوظات قنصلية إيطاليا ٣١ - ٥ - ١٨٦٤.

(٢٨) المبنى الحالي لمدرسة الفنون والصنائع مشيد في سنة ١٨٩٨.

وتـولى محمد نـظيف باشـا الولايـة في وقت تضافـرت فيـه أطـماع الـدول الأوروبية، وقد كلف بدعم تحصينات برج التراب الـواقع شـمال غربي المـدينة، وسانية الباشا. وقد جهز الموقعين بمدفعية حديثة نوع (كروب).

أمـا الوالي حـافظ محمد باشـا فقـد نـظم إدارة الـولايـة، وأسس مكتب التسجيل العقاري، وسجل الأحوال المدنية، وشجع التعليم العام.

واهتم راسم باشا بالمدارس(٣٠)، وبعض الأشغال العامة النافعة، وفي سنة ١٨٩٩ تأسس المركز الصحي خلف الجمارك(٣١).

ولكن هـذا النشـاط لا ينسينـا أن النوايـا الطيبـة لم تكن لتلقي التجاوب المطلوب عند التنفيذ والممارسة العملية. فقد كانت البلاد في الواقع محكومة حكمـاً سيئاً، ومدارة بإدارة سيئة. وقد نضبت مواردهـا بسبب شجع المـوظفين، وكـان من النـظم السـائـدة إسنـاد جبـايـة الضرائب إلى بعض الشيـوخ الـذين كـانـوا يضايقون الأهالي دون شفقة.

وفي سنة ١٨٨٠ كانت حكومة الآستانة تفتقـر إلى المال، فخفضت قيمـة العملة(٣٢). وهو إجراء اعتاد عليه الطرابلسيـون منذ أواخر العهـد القرمـانللي. وإذا صدقنا الأخبار التي نشرتها مجلة (المكتشف) الإيـطالية (Esploratore) فـإن الوالي قد باع حكم الجفارة بخمسين ليرة، وحكم غريان بمئة ليرة(٣٣).

٤ ـ التقسيمات الإدارية والتنظيم المالي

بعدما أعادت الحكومة العثمانية احتلال طرابلس في سنة ١٨٣٥. أقـامت بها النظام الإداري السائد حينذاك في الإمبراطورية، وأصبحت طرابلس (إيالـة)

---

(٢٩) النائب ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤.

(٣٠) ناجي ونوري ص ١٨٩ ـ ١٩١.

(٣١) روسي: الكتابات التركية والعربية بمتحف طرابلس ص ٦٩ ـ لوحة ٤.

(٣٢) Pioneri Italiani in Libia, Milano 1912 p. 251 - 252.

(٣٣) نقلاً عن:

E. Lupi (La Tripolitania secondo le piu recenti esplorazioni Roma 1889 - p 60

أي مقاطعة كبرى أو إقليم يحكمه (وال) برتبة باشا، ويساعده مجلس كرسي الإيالة. ولكن، ما كادت تتم لها السيطرة التدريجية على البلاد حتى قسمتها إلى أقسام إدارية، باسم قائمقامية أو سنجقية يحكمها قائمقام. ويساعد هؤلاء الموظفين مجلس المقاطعة. وفي سنة ١٨٦٥ تم تطبيق النظام الجديد الذي يقضي بتحويل الإيالة إلى ولاية طبقاً للاصلاحات التي كانت تتجه إلى إدخال التجديد والنظم الغربية على الإدارة العثمانية. ويبدو التجديد الجوهري في مزيد من المسؤوليات الممنوحة للولاة إزاء الحكومة المركزية، وإدخال نظم عملية أكثر لإدارة شؤون القضاء والمال. وقد جرى تحسين التقسيمات الإدارية للولاية طبقاً للإصلاحات التي أدخلت على الحكومة المركزية حتى انتهت إلى النظام الذي ظل سائداً مطبقاً غداة الاحتلال الإيطالي وهو على النحو التالي:

١- سنجق طرابلس، ويشمل مدينة طرابلس ونواحي تاجوراء وجنزور والجفارة وقضاء النواحي الأربع والزاوية والعجيلات وزوارة وترهونة ورفلة وغريان والعزيزية والجوش.
٢ - سنجق الخمس، ويشمل نواحي ساحل الأحامد وتاورغاء وقضاء مسلاتة وزليطن ومصراتة وسرت.
٣ - سنجق الجبل، ويشمل يفرن ونواحي الحوض ومزدة والزنتان وككلة وقضاء غدامس ونالوت وفساطو.
٤ - سنجق فزان، وعاصمته مرزق ويشمل سبع نواحي هي سبها والوادي الشرقي والحفرة الشرقية والقطرون وهون وزلة. وقضاء سوكنة والشاطىء وغات مع ناحية جانت وتبو رشادة (ومركزها برادي)[٣٤].

وقد ظلت برقة حتى سنة ١٨٣٦ قائمقامية (قضاء) تابعاً لولاية طرابلس. وفي سنة ١٨٦٣ أصبحت متصرفية تابعة مباشرة للآستانة[٣٥]. وعادت في سنة

---

(٣٤) من التفاصيل الجزئية المعدة للسلنامة الخاصة بولاية طرابلس لعام ١٩١٢ وتوجد بمحفوظات طرابلس.

(٣٥) استمد هذه المعلومات من كتاب دي أغسطيني: سكان برقة ص ٨. ولكن المراسلات القنصلية بتاريخ ١٥ - ٤ - ١٨٧٩ تؤكد أن إنشاء الولاية ببرقة قد تم في سنة ١٨٧٩.

١٨٧١ لتكـون تابعـة لولايـة طرابلس. وفي العـام التالي أصبحت ولايـة تابعـة لـلآستانـة ثم عادت في سنـة ١٨٨٨ متصرفية تـابعة لـلآستـانـة. وكـان يـدير (السنجق) متصرف. و(القضـاء) قائمقـام و(الناحيـة) مـدير. وإلى جـانب هـذا التنظيم كان يقـوم بالنسبـة للقبائـل تنظيمهم القبـلي التقليدي القـائم على نـظام (المشيخة).

وكان الأهالي خاضعين في سنة ١٩٠٥ للفئات التالية من الضرائب:

(ورقـو) أو الميري وهـو نوع من الضريبـة المفروضـة على مختلف الجهـات ومقدارها ٨١,٦٢٠ استرلينياً وتدر سنوياً ٧٥,٠٠٠.

(العشر) وهو يختلف باختلاف المحاصيل، ويدر سنـوياً بمـا يقدر بثـلاثين إلى أربعين ألف استرليني. وقـد أعفي القولـوغلية من هـذه الضريبة. وفـرضت أنواع أخرى من الجباية مثل (الإعانة) وهي نوع من القـرض الإجباري للحكـومة العثمانية. وقد طبق هذا النظام أثناء الحرب التركية اليونانية (١٨٩٦ ـ ١٨٩٧).

٥ ـ الأهالي وعلاقاتهم بالولاة والجاليات الأجنبية

تقدر (السلنامة) وهي الحولية الرسمية لولايـة طرابلس، سكـان طرابلس الغـرب بحوالي ٣١٩,٤٣٠ نسمة. ولكن هذا الرقم يبدو أقل من الواقـع[٣٦]. فقد كان سكان طرابلس طبقـاً لإحدى الإحصـائيات الـتركية، يـتراوحون بـين ٥٣٠ و٥٤٠ ألف نسمـة[٣٧]، بالإضـافة إلى ثـمانين ألف نسمـة من سكان فـزان وسرت. أي بمجمـوع يـتراوح بـين ٦١٠ و٦٢٠ ألف نسمـة لـطرابلس الغـرب بأسرها. أما سكان برقة. فقد قدروا بحوالي ٣٥٠ ألف نسمة.

لم يدخل الأتراك أي تعديل قوي على التكوين البشري السلالي لطرابلس الغرب. فقد اقتصر النـزوح إلى طرابلس عـلى العناصر العسكـريـة والإداريـة،

---

(٣٦) **A. Medana,** Il vilayet di Tripoli, in Boll Min. Affari Esteri, 1904 p. 1043 - 1096.

(٣٧) **G. Mondaini** (Manuale di storia e di legislazione coloniale del Regno d'Italia) Parte 1, Roma 1927 p. 300.

وبعض العناصر القليلة الوافدة على البلاد بمحض إرادتها واختيارها. كما وفدت على البلاد فيما بعد ـ بضع مئات من رعايا الإمبراطورية المتداعية، لأسباب مختلفة، أهمها النفي والإبعاد السياسي الناشيء عن المشاركة في الحركات الثورية التي جرت خلال ١٨٧٦ ـ ١٩٠٨. ويتصل الأمر في الغالب بالأكراد والأرمن أو جماعة تركيا الفتاة، من الثائرين الذين تقرر نفيهم وإقصاؤهم إلى الأماكن النائية بدواخل البلاد. وقد تسند إليهم في بعض الحالات مهام إدارية.

في ١٣ أبريل ١٨٦١ وصلت فرقاطة تركية قادمة من بيروت، وأنزلت بميناء طرابلس ٢٤٥ درزياً، أغلقت عليهم على الفور إحدى الثكنات. وكان من بينهم خسمة من مسيحيي سوريا (اثنان من الكاثوليك وثلاثة من الأرثوذكس) أضيفوا إلى الشحنة لسد النقص الناشيء عن هروب خمسة من الدروز. وقد تم إطلاق سراحهم بناء على تدخل قنصل فرنسا وقنصل اليونان، لعدم مساهمتهم في الثورة الدرزية[٣٨].

وقد أظهر الأتراك قلة اهتمام بالسكان، إما بسبب المشاكل ذات الطابع السياسي التي كانت تستنفد كل نشاط الحكومة المركزية، وإما بسبب الاختلافات القوية في التكوين البشري السلالي بين العنصرين، الأمر الذي يجعل من الأتراك غرباء، رغم وحدة الدين. لقد استقر الأتراك بطرابلس، كما لو كانت مستعمرة، دون أن يبعثوا الحياة في أية بادرة من المبادرات ذات الطابع الاقتصادي بهدف صهر العنصرين ودمجهما في مصلحة عامة واحدة.

إن المحنة الوطنية وأزمة الحكم التي كانت تميز أواخر العهد العثماني لم تجدا لهما صدى بين السكان من العرب والبربر الذين كانوا ينظرون إلى الأتراك كحكام، باستثناء بعض مظاهر التضامن عند فورات التعصب التي سنقدم أمثلة عنها ـ فيما بعد[٣٩] ـ.

وقد كان في وسع (دومينيكو تومياتي) الذي كان موجوداً بطرابلس في

(٣٨) محفوظات القنصلية الملكية الإيطالية ١٠ ـ ٤ ـ ١٨٦١ و٢٣ ـ ٥ ـ ١٨٦١.

(٣٩) أنظر الفقرات التالية من هذا الفصل.

مستهل سنة ١٩٠٥ أن يقول بحق: (إن هوة حقيقية تفصل العنصرين، العنصر المسيطر والعنصر الخاضع. إن التراك في نظر العرب أجانب، كما كانوا في بداية قيامهم بالاحتلال. قليل من الناس يتكلم التركية بينما تفهم أغلبية العرب، بنسب متفاوتة، بعض الكلمات الإيطالية)(٤٠).

ويكتب سلوش في نفس الفترة (إن العلاقات بين الأتراك والأهالي تظل هي علاقات الحاكم بالمحكوم. إن الأتراك ليسوا دولة استعمارية، وحين يجعلون من بني جنسهم معمرين، فإنهم سيظلون منعزلين وسط الكتلة الإفريقية)(٤١).

لم يمتزج الأتراك بالعرب، سواء أثناء الفترة السابقة للسيطرة الإنكشارية، رغم الظاهرة التي أشرنا إليها، بتكوين نواة صغيرة ممتزجة عرفت باسم القولوغلية، وكان وجودها محدوداً بمدينة طرابلس وضواحيها المباشرة، أو أثناء الفترة الثانية من الحكم العثماني. وكان الانفصال بين العرب والأتراك أقوى ظهوراً في الدواخل بين البدو الذين كانوا ينفرون بطبيعتهم من الاختلاط بالأجانب. ويكفي أن نذكر أنه في ١٨٣٧ اشترط شيوخ القبائل للطاعة والولاء والدخول في سلطة الحكومة، منع الأتراك من دخول مناطقهم بصفة تامة(٤٢).

أما العلاقات القائمة بين الأهالي والجاليات الأجنبية فقد انعكست عليها، بدرجة كافية، الانقسامات والأزمات التي كانت تعصف بالعالم العثماني. بما كان يصحبها من نتائج ظاهرة، من العداء للأجانب والكفار. ولكن ذلك لم يؤد إلى أي اصطدامات حقيقية، أو فورات من الغضب الشعبي. وتصرفت الجاليات الأجنبية في طرابلس تصرفاً يتسم بالحكمة البالغة، كما أن الحكومة العثمانية لم تكن بغافلة عن خطر الحوادث التي يمكن أن تهدد سيادتها،

---

(٤٠) Tripolitania - Milano 1928 p. 42.

(٤١) المصدر السابق ص ٢٢١ - ٢٢٢.

N. Slousch (Les Turcs et les indigènes en Tripolitaine) in Revue du Monde Musluman 1, 1906, p. 372.

(٤٢) أنظر ما تقدم في خصوص هذه العلاقة في الفصول السابقة.

على آخر ولاياتها الافريقية التي كانت فعلاً مطمحاً للدول الأوروبية، وهي في نفس الوقت بعيدة عن بقية الإمبراطورية.

ويتبين من المراسلات المختلفة التي تمت عند نهاية ١٨٨٥ التي وقعت فيها مذبحة[٤٣] (جدة) أن طرابلس قد شهدت اضطرابات خطيرة، كغيرها من بلدان الإمبراطورية العثمانية. وكانت بطرابلس عناصر إسلامية، مغربية وتونسية، بصفة خاصة، تقوم بتحريض الأهالي على المسيحيين.

وكانت الحامية التركية المرهقة بثقل الواجبات الملقاة على كاهلها، تبدي استياءها بوضوح، وتقوم بأعمال تخرج عن الانضباط العسكري، وتبعث على القلق. ومن ذلك نتبين أي جو من القلق كان يعيش فيه المسيحيون بطرابلس الذين كانوا مهيأين لأن يهرعوا عند أول إشارة فزع إلى الميناء، لركوب السفن الراسية به.

وقد وافق يوم ٢٠ اكتوبر ١٨٥٨ عيد المولد النبوي، فتجمع المسيحيون في قنصليات بلادهم، مسلحين بالبنادق والمسدسات، لمقاومة الهجوم الذي كانت قد ترددت الإشاعات بوقوعه في ذلك اليوم. ولم يكن الأمر مجرد إشاعة خالية من الصحة. إذ اتخذت الحكومة العثمانية نفسها إجراءات وقائية، وأقامت نقطاً ومراكز عسكرية في المدينة، بقيادة ضباط من الموثوق فيهم، وأعادت تسليح العناصر غير النظامية من الألبان الذين لم يكونوا - رغم إسلامهم - يتعاطفون مع عرب طرابلس ولا مع الجيوش النظامية. ومن حسن الحظ أن مضى اليوم في هدوء تام، واستعادت الجاليات الأوروبية اطمئنانها وثقتها[٤٤].

وها هو حادث آخر من حوادث التعصب الديني، ففي نهاية ١٨٧٥ وصل إلى طرابلس، عن طريق مالطا، قادماً من تونس، أحد الأولياء (مرابط) المغاربة، وهو الحاج أحمد البهلول. واحتشد أهالي طرابلس في حماس كبير حول الزاوية التي نزل بها. وكما يحدث في مثل هذه الحالات فإن الحماس الديني قد

---

(٤٣) كارلو نلينو: مجموعة الكتابات المنشورة وغير المنشورة - روما ١٩٣٩ ص ١٥٨.

(٤٤) محفوظات مملكة الصقليتين ٢١ - ١٠ و١٨ - ٩ - ١٨٥٨.

اقترن بشعور التعصب. وفي ٢٢ ديسمبر دخل الولي المدينة في احتفال فخم. فبادر المسيحيون إلى إغلاق متاجرهم وبيوتهم عند مرور الموكب الذي توقف عند نقطة معينة، أمام أحد المتاجر التي تجمع فيها حشد كبير من المسيحيين، فهجم الولي بفرسه ليقبض على المدعو (سلفاتوري بوناكوري) من رعايا إيطاليا. ولكن الولي لم يتمكن من القبض عليه. ووقعت أحداث أخرى في تلك المناسبة، وجرت مطاردة بعض اليهود والمسيحيين. وقد احتج قنصل إيطاليا الكفالير دي غوزويلا De Goyzuela لدى الوالي وحصل على الموافقة بإبعاد ذلك الولي الخطير. لولا أن قنصل الولايات المتحدة (فيدال) تدخل لصالح ذلك الولي المغربي، ووضعه تحت حمايته باعتباره من رعايا (ليبيريا). وأخيراً اتخذ هذا الولي طريق الشرق وغادر البلاد[٤٥].

لقد أثارت هذه الحوادث شعوراً بالدهشة والحذر بين أوساط الجالية الأجنبية، حتى رأى قنصل إيطاليا أنه من المناسب دعوة حكومته إلى إرسال سفينة حربية إلى ميناء طرابلس[٤٦].

وقد بدد نبأ اعتلاء السلطان مراد الخامس العرش في ٣١ مايو ١٨٧٦ مشاعر الضيق والقلق، واحتفل الأتراك بهذه المناسبة بإطلاق المدافع وإضاءة المشاعل. ثم عادت القلاقل من جديد بسبب الوضع المزعزع للحكومة المركزية التركية في الآستانة التي كانت تتجاذبها الاتجاهات الحديثة والمقاومة الرجعية المحافظة. وكان يصل من الآستانة بعض الضباط والموظفين المبعوثين الذين يوجهون إلى الحاميات والبقاع النائية من فزان. وكان ثمة خوف من استغلال الأهالي لمتاعب الحكومة المركزية، بمهاجمة مدينة طرابلس ونهبها. وفي ٦ سبتمبر ١٨٦٧ كانت القلاع تطلق مدافعها إعلاناً باعتلاء عبد الحميد الثاني العرش. فازداد تعصب العنصر الإسلامي. وتردد القول في طرابلس، بين أوساط المسيحيين، بأن عبد الحميد سيتقيد تقيداً تاماً بأحكام الشريعة الإسلامية[٤٧].

---

(٤٥) محفوظات قنصلية إيطاليا ١٠ ـ ١ ـ ١٨٧٦.
(٤٦) محفوظات قنصلية ايطاليا ١٠ ـ ١ ـ ١٨٧٦.
(٤٧) محفوظات قنصلية إيطاليا ص ٦ ـ ٦ ـ ١٨٧٦.

وبذل مجهود كبير في عهد عبد الحميد لجمع جميع الشعوب التي تكون الإمبراطورية العثمانية، تحت علم الرابطة أو الوحدة الإسلامية، تلك الشعوب التي كانت تسعى إلى الانفصال عن الآستانة، وتكوين حكومات ذاتية مدفوعة إلى ذلك إما بالخلافات العنصرية، أو بتحريض من القوى الأجنبية.

ومن المعروف أيضاً، وإن كان ذلك لم يوضح التوضيح الكافي، أن عبد الحميد قد استخدم في تحقيق هذه الغاية الطرق الصوفية الإسلامية، واستعان بالنسبة لطرابلس، بالطائفة (المدنية) التي كان يتزعمها محمد ظافر المدني (المتوفى سنة ١٩٠٣ - ١٩٠٤). وكان قد أقام مدة طويلة بالآستانة، وأصبح أحد المستشارين المقربين للسلطان. وقد اتخذت هذه الطائفة اتجاهاً للوحدة الإسلامية، وقامت بدعاية مضادة ضد استقرار الاستعمار الأوروبي في افريقيا الشمالية، خاصة طرابلس الغرب[٤٨].

وثمة هيئة أخرى كان من الممكن أن يعتمد عليها السلطان لتدعيم أوضاعه في طرابلس وبرقة، وهي السنوسية. وكانت قد اكتسبت، في ذلك الوقت، أهمية خاصة. وأقامت مقرها في ١٨٥٦ بالجغبوب، ثم في ١٨٩٥ بالكفرة، ولكنها بحكم اتجاهاتها المتزمتة، ودعوتها إلى العودة إلى الدين الإسلامي في أصوله الأولى، لم يكن من الممكن إقناعها بأن تضع نفسها، تحت إشراف الأتراك وتوجيهم. وهم الذين يتميزون بالتساهل في الدين وقلة مراعاته. بالإضافة إلى أنها كانت تنتشر منطلقة من برقة نحو افريقيا الوسطى. وهي تعمل كهيئة اقتصادية سياسة علاوة على اهتمامها بالناحية الدينية. وهي لذلك كانت تغار على استقلالها إزاء الولاة. ومعارضة السنوسية للأتراك مسجلة في تلك الكلمة التي تنسب للسيد المهدي ابن مؤسس الطريقة (أن الأتراك والمسيحيين ملّة واحدة وسأقطع دابرهم جميعاً)[٤٩].

---

(٤٨) Nozioni sull Islam, a cura del cap. E. de Renzi. Ufficio Politico - militare Tripoli, 1918 p. 88 -89.

(٤٩) **H. Duveyrier** (La Confrérie musulmane de Sidi Moh. ben Ali es Senousi) min. delle Colonie, Roma 1918 p.1.

ولكن هذا لم يمنع الأتراك والسنوسية من الاتفاق على نحو من الأنحاء لمواجهة الخطر المشترك المتمثل في الاستعمار الأوروبي لشمالي افريقيا والصحراء. وذلك بعدم وقوف السنوسية في وجه التوسع التركي نحو الداخل وترك الأتراك للسنوسية الحرية الكاملة في التصرف، حتى عندما تبدو هذه الحرية مناقضة لسيادة الحكومة. وتحدد هذا الاتفاق في عهد السيد محمد المهدي وتأكد في عهد خليفته السيد أحمد الشريف. بعد سنة ١٩٠٢.

ولم تستطع القوة، ولا الدعاية الدينية، كسب الحماس المخلص للسكان وولائهم للأتراك. فقد أبدى العرب والبربر في الدواخل، وفي مدينة طرابلس ذاتها، أكثر من مرة، تذمرهم، ولم تفهم الإصلاحات التي قامت بها الحكومة، وكانت تريد بها التغلب على الأزمة الداخلية. واستقبلت استقبالاً سيئاً بطرابلس، وأقلق العرب ذلك المشروع الرامي إلى إنشاء حرس وطني. وكان لا بد من التخلي عنه، رغم تصريح الحكومة بأن الأمر مجرد خدمة عسكرية.

لقد منح الدستور الذي صدر في ١٨٧٦ طرابلس حق التمثيل النيابي، في مجلس النواب. وبالنظر لعدم توفر الوقت الكافي لإجراء انتخابات منظمة، فقد تم تعيين نائبين عن طرابلس، من قبل الوالي ومجلس الإدارة. وهما (محمد بن آغا) خوجة وسليمان القبطان (سليل مصطفى القبطان أحد أبناء كالابريا الذين اعتنقوا الإسلام، بعد أن كان مسجلاً ضمن رعايا قنصلية مملكة الصقليتين).

وفي الدورة الثانية للانتخابات ١٨٧٧، أبقى مجلس الإدارة (محمد بن الآغا) واستبدل سليمان القبطان بالحاج أحمد الأدغم الذي كان قد تولى مناصب عالية في الحكومة. ولكن سليمان القبطان طعن في التعيين لدى الوالي، وحصل من الآستانة على الموافقة بإعادة الانتخابات، عن طريق مجلس البلدية. ودون أن ينتظر نتيجة الانتخابات سافر إلى الآستانة يحمل معه عريضة تأييد موقعة من ألفي شخص[٥٠].

(٥٠) محفوظات قنصلية إيطاليا، رسائل بتاريخ ٢٢ - ٣ - ١٨٧٧ و١٨ - ١٠ - ١٨٧٧ و٢١ - ١١ - ١٨٧٧.

وتستحق هذه الواقعة أن نقف عندها لأنها تدل على الحرية التي كانت تجري بها الانتخابات. ثم عطل عبد الحميد العمل بالنظام البرلماني ولم تعد طرابلس تبعث بأي ممثلين عنها، حتى سنة ١٩٠٨ حين أعيد الدستور.

وكان للحرب التركية الروسية ١٨٧٧ - ١٨٧٨ صدى في طرابلس. وعندما وصل نبأ إعلان الحرب في ربيع ١٨٧٧ أقيمت الصلوات في المساجد وارتفعت الأكف بالدعاء من أجل انتصار الجيوش العثمانية، دون أن تقع مظاهرات حماسية.

وكان نبأ الهزائم التي تعرض لها الأتراك مثاراً للحنق والغضب بين السكان المسلمين بطرابلس. ولم تكن لتخفف منها، أو تغطي عليها، بعض الأحداث البطولية الكبيرة، مثل الدفاع عن (بليفنا Plevna) الذي تولى قيادته عثمان باشا.

وفي ذلك الجو المتوتر، كانت الهمسات تتعالى باحتمال إقامة مذابح للمسيحيين واليهود في المدينة[٥١]، دون أن يحدث شيء من ذلك، وقد وجد الوالي نفسه في مأزق حرج، حين دعا إلى التجنيد، بحجة نجدة الجيش العثماني. ولم يكن الأهالي مستعدين لقبول هذه التضحية. وكان صلح (سان استيفانو) إنقاذاً للوالي من الورطة التي كانت تواجهه. ويشهد شاهد عيان بأن الأهالي قد تلقوا نبأ هزيمة الأتراك بعدم اكتراث ناشيء في الغالب عن النفور العربي، أكثر مما هو ناشيء عن سوء الحكم[٥٢].

وكان إدخال الإصلاحات يثير شيئاً من المعارضة والتذمر بين الأهالي. ففي سنة ١٨٧٩ أدخلت تعديلات هامة على المحاكم المحلية، وأصبح هناك رئيس لكل المحاكم المدنية وآخر للجنائية، بدلاً من رئيس واحد للمحكمتين في السابق. وتنحية القاضي الشرعي من رئاسة المحاكم المدنية والجنائية، على أن يظل رئيساً فقط لمحاكم الاستئناف الخاصة بالنظر في الأحوال المدنية. وقد

(٥١) محفوظات قنصلية إيطاليا، رسالة بتاريخ ٢٢ - ٣ - ١٨٧٧.
(٥٢) محفوظات قنصلية إيطاليا، رسالة بتاريخ ٦ - ٣ - ١٨٧٨.

سلبت هذه الإصلاحات نوعاً من الاختصاص من المحاكم الشرعية، وتركت لها اختصاص الأحوال الشخصية. وقد أبدى الأهالي بتحريض من العلماء المحليين الرغبة في إسناد كافة الاختصاصات القضائية إلى المحاكم الشرعية. وقبلوا فقط إقامة محكمة تجارية. وفي ٢ نوفمبر ١٨٧٩ عقد الأهالي اجتماعاً عبروا فيه عن احتجاجهم وقد وعد الوالي بإبلاغ مطالب الشعب إلى الآستانة[٥٣].

٦ ـ صدى أحداث تونس ومصر سنة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢

أخذت فرنسا منذ بضع سنوات تضاعف من محاولاتها للتغلغل في طرابلس الغرب متخذة لذلك شتى الوسائل وكافة المبررات. ومن ذلك الإسراع بإنشاء الخدمات البريدية. ومشروع ربط طرابلس وتونس بخط تلغرافي. ونشر اللغة الفرنسية في المدارس. كان قنصل فرنسا، إذ ذاك (شارل فيرود Charles Féraud) صاحب كتاب (الحوليات الطرابلسية Annales Tripolitaines) الذي يلاحظ فيه بصفة مباشرة[٥٤] الإشاعة باحتمال قيام فرنسا باحتلال تونس وطرابلس، وكانت قد انتشرت في سنة ١٨٧٨ عقب مؤتمر برلين. ولم يتأثر لها الناس أدنى تأثر. ويقول فيرود: إن الناس سيقبلون بالاحتلال الفرنسي كنهاية للبؤس والاستغلال اللذين يقاسيهما الناس منذ زمن طويل.

ونذكر بين مظاهر النشاط الفرنسي في طرابلس الغرب أنه في ديسمبر ١٨٨٠ توجه المدعو (غارسين Gracin) إلى طرابلس لإنشاء فرع للبنك الفرنسي المسمى (Société des Comptoirs Maritimes) ومقره تونس[٥٥].

وقد أثار نبأ قيام فرنسا باحتلال تونس، في مايو ١٨٨١، عرب طرابلس أكثر مما أثار السلطات التركية. وكان القنصل فيرود يتابع باهتمام كبير تطور الأوضاع المحلية، خاصة ان فرنسا لم تتمكن من السيطرة على الجنوب التونسي (جربة، وقابس وصفاقس) إلا في يوليو، بسبب ثورة السكان ومقاومتهم للاحتلال.

(٥٣) محفوظات قنصلية إيطاليا، رسالة بتاريخ ٤ ـ ١١ ـ ١٨٧٩.

(٥٤) فيرود ص ٤٤.

(٥٥) محفوظات القنصلية الإيطالية، ديسمبر ١٨٨٠.

ولم يكن من العسير على عرب طرابلس التضامن مع إخوانهم التونسيين، خاصة إذا حرضهم الأتراك على القيام بذلك. غير أنه لم يكن ثمة مظهر عملي لهذا التضامن العربي الإسلامي. ولو أن قسماً كبيراً من التونسيين. قد استقبلوا من قبل أبناء دينهم استقبالاً حفياً طيباً.

أما الأتراك الذين لم يمض وقت طويل على خروجهم من سلسلة الهزائم وبتر الممتلكات الترابية، فلم يكن في وسعهم الوقوف في وجه فرنسا، واكتفوا بالاحتجاج الشكلي وعدم الاعتراف بالحماية الفرنسية على تونس.

وبمناسبة العيد الوطني الفرنسي (١٤ يوليو)، وجه القنصل الفرنسي دعوات للأهالي لحضور حفلة الاستقبال التي تقام بهذه المناسبة في القنصلية، وكانت ثمة فرقة موسيقية شرقية تبهج الحفل. ولكن الوالي والفريق قائد الجيش لم يحضرا هذه الحفلة، رغم الدعوة الموجهة إليهما[٥٦].

إن احتلال تونس، والأطماع الدولية الأوروبية المتزايدة لامتلاك طرابلس الغرب وبرقة، قد أحيت الشعور الوطني المتطرف. وقد كان من مصلحة تركيا مسايرة هذا الشعور. وسجلت بعض الأحداث تصاعد هذه الحالة النفسية المتوترة. ومثال ذلك مقتل رئيس إرسالية الآباء البيض التابعة للكاردينال (لافيجري Lavigerie) بغدامس سنة ١٨٨١.

وكان ضرب الإسكندرية، واحتلال الانجليز لمصر قد زادا النار اشتعالاً. وسيطرت على الأوروبيين القاطنين بطرابلس. حالة من الفزع، فأسرعوا إلى النزوح، ولجأ قسم كبير منهم إلى مالطا، لمراقبة تطور الأوضاع. وقد دخل العرب متاجر الأوروبيين، وتفوهوا بكلمات غاضبة غامضة تبعث على الشعور بقرب انفجار اضطرابات متعصبة. وعمل الوالي على تهدئة نفوس الناس، وبعث الثقة في الأجانب، إلا أن الشائعات كانت تتردد عن قرب مجيء الفرنسيين إلى طرابلس فتزيد من مشاعر القلق.

---

(٥٦) محفوظات قنصلية إيطاليا - ٣ - ٧ - ١٨٨١ وما يليه.

وقد أظهر الوالي أيضاً قلقاً من هذا الوضع. ولم يخف مخاوفه في حديث له مع القنصل الإيطالي قال فيه: إذا أظهر الفرنسيون نوايا عدوانية نحو طرابلس الغرب فإن الأتراك سيطلقون يد التونسيين اللاجئين إلى طرابلس الغرب، ويقدر عددهم بحوالي ٢٥٠ ألف نسمة، وسيعملون على تسليحهم.

وفر الأجانب من بنغازي أيضاً. ثم عادت الحالة إلى الهدوء واستأنف النازحون الأجانب العودة في صيف العام نفسه سنة ١٨٨٢. وبعد ذلك بقليل، في سبتمبر ١٨٨٢[٥٧]، ترددت إشاعة أخرى عن احتمال وصول حملة إيطالية إلى طرابلس الغرب. ولم تكن إيطاليا قد فكرت في ذلك الوقت جدياً في مثل هذه الحملة. وكانت مشغولة فقط بإمكانية تطوير الالتزامات الاقتصادية ـ وبعد عامين أو ثلاثة ـ من ذلك التاريخ، أخذ النشاط الإيطالي يتزايد ويتطور. واتخذت الخطوات الأولى لضمان موافقة الدول الكبرى. ولكن سقوط حكومة (كريسي) أدى إلى تأجيل كل مشروع في هذا السبيل.

وهكذا كانت طرابلس ودواخلها تعيش في ضيق، بين حذر الأهالي والحكام، وبين عرقلة المبادرات الاقتصادية للجاليات الأوروبية. وكان الوضع النفسي للأهالي معادياً للأتراك وللأجانب على حد سواء. وكثيراً ما كانت تقع حوادث ذات مغزى. ففي يوليو ١٨٨٨ أهين علنياً نائب القنصل الإنجليزي وابن القنصل الإنجليزي ونائب مستشار القنصلية الفرنسية[٥٨].

٧ ـ الرحلات والاكتشافات في ليبيا في القرن الثامن عشر[٥٩]

تولت (الجمعية الإنجليزية لاكتشاف دواخل إفريقيا) الرحلات العلمية

(٥٧) محفوظات قنصلية إيطاليا ١ ـ ٧ ـ ١٨٨٢ و١٨ ـ ٧ ـ ١٨٨٢ و٢٠ ـ ٧ ـ ١٨٨٢.

(٥٨) محفوظات قنصلية إيطاليا ـ ١٣ ـ ٦ ـ ١٨٨٨.

(٥٩) تابعت في هذه المعلومات العمل الهام الذي أنجزه أتيليو موري:

A. Mori (L'Esplorazione geografica della Libia) Gov. dello Cirenaica Firenz 1927.

أنظر الترجمة العربية لهذا الكتاب (الرحالة والكشف الجغرافي بليبيا) تأليف موري تعريب خليفة محمد التليسي، نشر مكتبة الفرجاني ـ طرابلس ١٩٧١.

الأولى، وشجعت عليها. وقد كانت طرابلس تمثل نقطة انطلاق وعودة لهذه الاكتشافات التي كانت تتجه إلى البحث عن طريق عبر افريقيا الوسطى.

وبدأ وليام لوكاس الذي كان يشغل منصب نائب قنصل إنجلترا بالمغرب في ١٧٨٩ رحلة اكتشافية لافريقيا الوسطى، تنطلق من طرابلس نحو غامبيا تحت رعاية الجمعية الإنجليزية المذكورة. ولكنه لم يبلغ في رحلته هذه سوى مدينة مصراتة، ثم قفل راجعاً، لعدم قدرة حاكم المنطقة على تزويده بالإبل اللازمة لمواصلة الرحلة.

وبتكليف من نفس الجمعية، سافر الرحالة الألماني (فريدريك هورنمان)[٦٠] في سبتمبر ١٧٩٨ من القاهرة، ووصل في ١٧ نوفمبر إلى مرزق، عن طريق سيوة وأوجلة ثم جاء إلى طرابلس، وعاد منها إلى مرزق في سنة ١٧٩٩ حيث تابع رحلته إلى بورنو التي لقي فيها حتفه.

وفي مستهل القرن التاسع عشر، ساهم إيطاليان في تحسين المعرفة الجغرافية بليبيا، وهما، الرحالة (أغسطينو شرفلّلي) الذي رافق في سنة ١٨١٢ حملة قام بها والي طرابلس على برقة. ثم الرحالة (باولو ديلا شيلا) الذي قطع نفس الطريق في سنة ١٨١٧ كطبيب مرافق لأحمد بك القرمانللي. وفي نفس الوقت كان الكابتن البحري الإنجليزي (وليام هنري سميث) يزور آثار لبدة وفي سنة ١٨١٧ توغل في الداخل حتى منطقة قرزة. ثم أقام فترة أخرى بعد ١٨٢٢ لاكتشاف كل سواحل ليبيا بمرافقة الأخوين (بيشي). وهناك رحالان آخران هما، (ج. ريتشي) و(جورج فرانسيس ليون)، عملاً على اكتشاف فزان في ١٨١٨ ـ ١٨١٩. وقد مات الأول في ٢٠ نوفمبر ١٨١٩.

ورحل ثلاثة مكتشفين إنجليز هم (و. أودني) و (هـ. كلابرتون) و (ديكسون دنهام) إلى فزان. ووصل الأولان ـ للمرة الأولى ـ بلدة غات وتوغلا في الداخل حتى بحيرة تشاد وبورنو. وعادا إلى طرابلس في ١٨٢٥. وفي

---

(٦٠) أنظر الفهرس الهام للمراجع من كتاب أتيليو موري (الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا) تعريب خليفة محمد التليسي ـ نشر الفرجاني ـ طرابلس ليبيا ـ.

شجاعة كبيرة، قرر الإنجليزي (أ. ج. لاينج) القيام برحلة من طرابلس إلى تومبكتو عن طريق غدامس. وقد قتل عند عودته. وكان لهذا الحادث المؤسف مضاعفات ومشاكل دبلوماسية طويلة.

وبعد فترة من التوقف التي تبررها الانطباعات التي خلفها في النفوس مقتل الميجر (لاينج) ومشاكل السياسة الداخلية، في أواخر العهد القرمانللي استؤنفت الرحلات الاكتشافية بسرعة أكبر. ولم يقم الأتراك الذين عادوا إلى حكم البلاد بعرقلة هذه الاكتشافات في السنوات العشر الأولى من احتلالهم. وهكذا استطاع (ج .ريتشاردسون) في ١٨٤٥ الوصول إلى غدامس وغات. واستطاع الرحالة الألماني (بارث) في ١٨٤٥ ـ ١٨٤٦ عبور ساحل سرت، ثم قام بمشاركة (رتشاردسون وأوفنويج) برحلة إلى مرزق وغات والدواخل. وقد مات رفيقاه أثناء الرحلة، وعاد (بارث) وحده إلى طرابلس سنة ١٨٥٥.

وثمة ضحايا آخرون سقطوا في طريق الاكتشافات الخطيرة لافريقيا. ومنهم (ا. فوجل) الذي حاول في سنة ١٨٥٣ اللحاق بالبعثة التي أشرنا إليها فيما تقدم. فقتله سلطان الوادي. ثم الهولاندية (ألكسندرا تينه) التي قتلت في ١ أغسطس ١٨٦٩ في الطريق بين مرزق وغات. وكانت رحلات الرحالة الألماني (رولف) أكثر حظاً وتوفيقاً. وإن لم تخل من الأخطار، إذ قام في سنة ١٨٦٤ برحلة إلى غدامس وطرابلس إلى مرزق ثم السودان حتى لاغوس وغينيا. وفي سنة ١٨٦٩ م قام برحلة من طرابلس إلى الإسكندرية محاذياً الساحل، ثم زار واحتي الجغبوب وسيوة، عن طريق أوجلة وجالو. وفي ١٨٧٩ قام بزيارة الكفرة[٦١]. وتكللت رحلة الرحالة (نختجال) بالنجاح. وكانت لها نتائج علمية قيمة. وهي الرحلة التي قام بها في سنة ١٨٦٩ (يرافقه الإيطالي جيوسبي فالفريدا) من طرابلس إلى مرزق حتى التبستي ثم العودة إلى مرزق. ومنها إلى رحلة أخرى نحو بورنو. ثم عاد إلى أوروبا سنة ١٨٧٤. ووصل الرحالة الألماني (أرفن فون باري) إلى غات في ١٨٧٦ ـ ١٨٧٧ ومات بها. وكان آخر المكتشفين لدواخل ليبيا (الهنترلاند)، إذ أخذ الأتراك، بعد ١٨٧٨ (معاهدة

برلين) ينظرون بعين الحذر إلى الاكتشافات الجغرافية ويعرقلونها. وكـان واضحاً أن هذه الاكتشافات لم تكن خالية من البواعث والأهداف السياسية.

وهكذا استطاع (مانفريدو كامبيريو) في سنة ۱۸۸۰ القيام برحلة اكتشافية في طـرابلس الغرب، ثم قـام في سنة ۱۸۸۱ بـرحلة اكتشافيـة أخرى إلى بـرقـة صحبة (مامّولي) و(هايمان). ولم يسمح للإيطاليـين بالتغلغـل في الدواخـل. وقد منع (دومينيكو تومياتي) من التجول في البلاد سنة ١٩٠٥. بينما استطاع الرحـالة الفرنسي (ماتوزييل) القيـام بمثل هـذه الرحلة، قبـل ذلك بـأعوام قليلة. وكـان الرحالة الفرنسي (مونتيل) وحـده هو الـذي استطاع أن يقـطع البلاد من فـزان إلى طرابلس، قادمـاً من تشاد سنـة ۱۸۹۲، كما قـام بمثل هـذه الرحلة (هـانس فيشر) سنـة ١٩٠٦. وكانت آخـر الرحـلات الاكتشافيـة التي زارت ليبيـا قبيـل الاحتلال الإيطالـي هي بعثة (سان فيلبو سفوزا) التي انـطلقت من طرابلس في ٨ ابريل ۱۹۱۱، وفاجأها إعلان الحرب الإيطالية التركية، وهي بفزان. فقبض على أفرادها الذين ظلوا عدة أشهر في الأسر[٦١].

لم تكن نتائج الرحلات والاكتشافات التي تمت خلال قرن كامـل وفـيرة بسبب المصاعب التي كانت تتم فيها هذه الرحلات والاكتشافات. ولكنها كانت مفيدة للإحاطة الجغرافية بهذه المنطقة الواسعة. كما أبرزت القيمة السياسية لهذه المنطقة، وأهمية موقعها بالنسبة للاتصالات المقبلة بأواسط افريقيا.

٨ ـ التغلغل التركي في دواخل ليبيا ومشكلة الحدود

لقـد رأينا في الفصـول السابقـة الأحداث التي صـاحبت العلاقـات بين طرابلس ودواخلها، خاصة فـزان والمناطق الخلفيـة، المجاورة لهـا. والآن، يبدو لنا من المجـدي أن نسوق بإيجاز بعض المعلومات حتى نعطي صورة عن الجهود التي بـذلها الأتـراك من أجل بسط سلطتهم الفعليـة على الأجـزاء الداخليـة من البلاد.

(٦١) A. M. Sforza (Esplorazione e prizionia in Libya) Milanso 1919. p. 185 - 275.

لقد أخضع الأتراك فزان لدفع الضريبة في سنة ١٥٧٧ ـ ١٥٧٨. وتأكد خضوع هذه المنطقة، بعد قرن ونصف من ذلك، أي في العهد القرمانللي. وخرجت فزان من سيطرة طرابلس، أثناء الحروب والصراعات الداخلية التي عصفت بهذه الأسرة في الأعوام الأخيرة من حكمها، لتعود من جديد إلى السيطرة التركية، سنة ١٨٤٢.

لقد كان للمناطق الواقعة إلى الجنوب من فزان علاقات متقطعة مع فزان وطرابلس، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ولكنها لم تعترف بالسيادة التي فرضت منذ القرن السابع عشر على السواحل، وأغلب الواحات الكبرى ببرقة.

ولا يتردد خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أي حديث عن حدود صحيحة ثابتة. ففي الجنوب كانت البلاد تنتهي بفزان. وإلى الشرق ـ في العهد القرمانللي ـ كانت حدودها عند خليج بومبا، وإلى الغرب بحيرة البيبان. وبدأت مشكلة الحدود تفرض نفسها في القرن التاسع عشر، وبصفة خاصة، بعد احتلال الفرنسيين لتونس، والإنجليز لمصر[٦٢].

لقد تبعت مرحلة احتلال طرابلس الغرب التي أشرنا إليها فيما تقدم، مرحلة أخرى اتجهت إلى ترسيخ السلطة في المناطق المحتلة. واستغرقت هذه المرحلة، المدة التي تبدأ من منتصف القرن التاسع عشر، حتى سنة ١٩١١. وصاحب هذه المرحلة نشاط من أجل التغلغل في الداخل، وتحديد الحدود ورسمها. ولكنه كان قليل الحظ من التوفيق والنجاح. وإن مثل في مجموعه محاولة لمنح تنظيم إداري واقتصادي للمقاطعة الافريقية الأخيرة الباقية للدولة العثمانية التي تشبثت بها، رغم المطامع الدولية التي كانت تضغط عليها بثقلها. وقد كانت الدولة العثمانية تتوفر على إمكانيات عسكرية رائعة، ولكنها لم تكن تتوفر على النية والوسيلة للنهوض بطرابلس الغرب وتحقيق الازدهار لها.

---

(٦٢) تابعت في هذا الفصل مقالي المنشور في مجلة الشرق الحديث (من أجل تاريخ التوغل التركي في دواخل ليبيا ومشكلة الحدود) المنشور في السنة التاسعة ـ ١٩٢٩ ص ١٥٣ ـ ١٦٧.

والمحاولات التي تمت للتوغل في دواخل افريقيا لم تكن موجهة بخطة محددة تحديداً كاملاً، ولم تكن أيضاً مدعمة بسياسة ملائمة. وقد اصطدمت هذه المحاولات في الجنوب بدول مجهزة تجهيزاً كاملاً ومصممة كل التصميم على العمل الاستعماري. ومع ذلك فقد فعل الأتراك شيئاً ما خلال ٧٦ عاماً من حكمهم الثاني لليبيا. وقصة هذا النشاط الذي قاموا به خلال هذه الفترة لا تخلو من أهمية.

لقد تحددت حدود برقة مع مصر في الخرائط المرفقة بفرمان الباب العالي الذي يقر ولاية محمد علي على مصر. وأشير إلى الحد، عند رأس الكنائس. ولكن هذا لم يمنع الحكومة المصرية من التوسع غرباً حتى مرسى مطروح برغبة الوصول إلى السلوم وخليج بومبا. ولم يعترض الباب العالي على هذا التوسع المصري، لأنه كان ينظر إلى مصر نظرته إلى مقاطعة من مقاطعات الإمبراطورية العثمانية.

بل تردد القول في بعض الفترات عن احتمال ضم طرابلس الغرب وبرقة إلى مصر[٦٣].

وكان الوالي علي رضا باشا، وهو عربي من أصل جزائري تلقى تعليمه بفرنسا وتولى أعلى المناصب العسكرية بالجيش العثماني، قد أظهر اهتماماً واضحاً بتطوير المنطقة الشرقية (البطنان). وكان يرى أنها مهيأة لاكتساب أهمية كبرى بعد افتتاح قناة السويس[٦٤]. وأنشأ لهذا الغرض في سنة ١٨٦٩ ناحية بومبا وناحية طبرق، وشيد في هذه المنطقة حصنين، وكان يتمنى إقامة (مستوطنات) لتعمير المنطقة.

---

(٦٣) محفوظات القنصلية الملكية الإيطالية بطرابلس، رسالة ٧ ـ ٥ ـ ١٨٦٣. وتذكر الرسالة أنه قد وصلت إلى طرابلس يوم ٧ مايو ١٨٦٣ إلى طرابلس قادمة من الإسكندرية باخرة مصرية، بعد أن توقفت ببنغازي ودرنة. ولم تعرف الغاية من مجيئها ولكن تردد القول بأنها كانت تهيء لضم ولاية طرابلس إلى مصر.

(٦٤) نختجال في رحلته (الصحراء والسودان). بالألمانية. برلين ١٨٧٩ ـ ١٨٨٩ ج ١ ص ٢٤ فيرود: ص ٤٢١ ـ ٤٢٢.

أما في دواخل برقة فقد كان العمل التركي معدوماً تقريباً. وحل محله نشاط السنوسية، سواء في الجغبوب أو الكفرة. وهما مركزا زعيم الطريقة ويعترفان إسمياً بالسيادة العثمانية، ولكنهما لم يكونا يداران من قبل السلطة العثمانية. وعندما انفجرت الحرب التركية ـ الإيطالية قامت الحكومة (الأنجلو مصرية) باحتلال السلوم التي كانت تحت السيادة التركية، وكانت بها حامية عسكرية تركية(٦٥).

أما في المناطق الغربية فلم تكن ثمة مشكلة حدود حتى سنة ١٨٨١ أي طوال الفترة التي ظلت تركيا تمارس فيها سيادتها على تونس. ولم تقم حكومتا طرابلس وتونس بأي نشاط خاص نحو الداخل. ولم يشعرا بالحاجة إلى رسم حدود أو تحديدها. وقد اعترف السلطان (لباي) تونس في ١٨٧١ بولاية وراثية داخل الحدود القديمة المعروفة(٦٦). وقد ورد هذا التعبير الغامض في الفرمان الذي بعث به السلطان إلى باشا مصر في سنة ١٨٤١، غير أنه ألحق بالفرمان خارطة تحدد المقصود بالحدود القديمة المعروفة. ولا يبدو أنه كانت ثمة خارطة مماثلة مرفقة بالمرسوم الخاص بباي تونس.

وعلى كل حال فإن الحد ـ دون أن يرسم على الخارطة أو يحدد بالموقع ـ كان هو الحد الذي تقرر ودياً الاعتراف بأنه ينتهي عند البحر عند (البيبان). وقد حدد الكابتن الإنجليزي (سميث) في سنة ١٨٢٠ الحدود الغربية لليبيا، بطريقة تدخل ضمنها الموقع المعروف باسم القلعة الطرابلسية بزرزيس(٦٧).

---

(٦٥) رسمت الحدود الشرقية لليبيا بموجب الاتفاق الإيطالي المصري الموقع في ٦ ديسمبر ١٩٢٥. وقد صدرت عدة مقالات وكتب عن الحدود الشرقية نذكر منها: ما نشره (جيانيني) في مجلة (الشرق الحديث) الإيطالية ج ٦ سنة ١٩٢٦ ص ١ ـ ٦ بالإضافة إلى ما نشر في مجلات (المجلة الاستعمارية مجلة المستعمرات والشرق، ومجلة Rassegna) خلال الفترة الواقعة بين ١٩٢٤ ـ ١٩٢٦ ومن الكتب:

M. Checchi (L'Oasi di Giagabub) Bengazi 1925).

A. Meriano (La Questione di Giarabub) Bologna 1925.

(٦٦) Trattati, Convenzioni ecc. relativi all. Africa, Roma 1906 p. 933.

(٦٧) **Elie de la Primaudaie** (Le littoral de la Tripolitaine: Commerce, navigation géographie comparée, in Npuv. Annal des Voyages, Luglio - Settembre 1865 p. 289.

وجاء احتلال الفرنسيين لتونس فغير الوضع. إذ نقلت السلطات الفرنسية حدودها نحو طرابلس الغرب، وتوغلت أكثر إلى الشرق، على خط ينتهي في البحر الأبيض المتوسط، عند رأس جدير الذي يبدو في خارطة الجيش الفرنسي لسنة ١٨٨٧ (Service Géographique de l'Armée). وكان كريسبي الذي عرف باهتمامه بطرابلس الغرب قد طلب في سنة ١٨٩٠ من الجنرال (دال فيرمي Dal Verme) تقديم دراسة في الخصوص. فتبين له أن فرنسا قد استغلت في سنة ١٨٨٦ حوالي خمسة آلاف كيلومتر مربع من الأراضي الطرابلسية لصالح تونس[٦٨].

وقد أخطر محمد الدربازي قائمقام غدامس، حكومة طرابلس، برسالة مؤرخة في ٣ رمضان ١٣٠٩ هـ (١ أبريل ١٨٩١) بوصول ضابط فرنسي ومعه ١٦ (حنبة) من قبيلة ورغلة و ٥٠ جملاً. وكانوا جميعاً متجهين نحو منطقة طوارق أزقر. وقد حطوا رحالهم في وادي تمنكور ثم تابعوا رحيلهم نحو تماسنين. وجابوا هذه المنطقة، وكانوا في طريق العودة إلى الغرب، حين نبههم أهالي المنطقة إلى أنهم سيتعرضون لخطر القتل من قبل الطوارق[٦٩].

ورغبة في الحد من حوادث الحدود قررت فرنسا وتركيا العمل على تخطيطها وتحديدها. وكلفت لجنة بدراسة ذلك، واجتمعت في زوارة في مارس ١٨٩٣، وانتهت اجتماعاتها دون الوصول إلى نتائج إيجابية[٧٠].

وتزايد خطر حوادث الحدود حين أخذ الأتراك على أنفسهم مراقبة الحدود بدقة، وإقامة حاميات في المناطق المهمة. وكانت تقع بين الجانبين من حين إلى آخر غارات وخرق للحدود. وفي نهاية سنة ١٩٠٩ هوجمت فرقة تونسية قرب وازن، من قبل جنود نظاميين أتراك، وقد أحدث الحادث انعكاسات كبيرة وكان مثار تعليق عنيف في الصحافة الاستعمارية الفرنسية.

---

(٦٨) ج بالومبو- كارديلا: (كريسبي وسياسة البحر الأبيض المتوسط والمستعمرات) في مجلة (بوليتيكا) الإيطالية ـ يونيو وأغسطس ١٩٢٨ ص ٤٢٦.

(٦٩) المحفوظات التركية بطرابلس.

(٧٠) Afrique Francaise, Rens. Col. 1919 p. 409 - 410.

واقتنعت تركيا حينذاك بالتفاوض مع فرنسا، في الاجتماع الذي دعي لعقده في طرابلس والذي استمر من ١١ ابريل إلى ١٩ مايو ١٩١٠. وانتهى باتفاق ١٩ مايو الذي كان لصالح التونسيين بصفة تامة، إذ حدد الحدود من النقطة التي تبدأ من رأس جدير، مدخلاً ضمن الحدود التونسية مواقع بن قردان والذهبيات، وظلت واحة غدامس بولاية طرابلس، ولكن على مسافة قريبة من الحدود، بحيث قلت أهميتها عما كانت عليه(٧١).

أما في القطاع السفلي من الحدود الجنوبية الغربية التي لم يقم بشأنها أي اتفاق أو تحديد حقيقي بين فرنسا وتركيا، فقد كانت منشأ لخلافات دائمة، بسبب ميل الفرنسيين إلى مد سلطتهم إلى غربي الخط الواصل بين غدامس وغات والمناطق الواقعة جنوبي هذه الواحة الأخيرة(٧٢). وقد أبلغت السلطات التركية المحلية حكومة الولاية بنشاط الدوريات الفرنسية التي توغلت حتى (هوهانت) (Ohanet - Hôhânet) على مسافة يومين إلى الجنوب من غدامس. وقامت بدراسات طوبوغرافية للمنطقة. وتتضمن وثائق المحفوظات التركية شكاوى عديدة من هذا النوع.

ولم تصل فرنسا وتركيا مطلقاً إلى أي اتفاق على ملكية واحة (جانيت)

---

(٧١) في مضبطة موجهة من مجلس إدارة قضاء غدامس بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٠٩ إلى متصرف الجبل، شكوى من قيام القوات الفرنسية بخرق الحدود عند بئر زاف وهونانت.

(٧٢) نشر نص الاتفاق الفرنسي - التركي بخصوص الحدود الغربية مع التقرير المقدم إلى الجمعية الوطنية الفرنسية في:

Afrique Francaise. Rens. Col. 1910 p. 409 - 410.

أنظر أيضاً:

E. Rouard de Card (Traités de délimitation concernant l'Afrique Française) Paris 1910 p 199 - 202 et Supplément 1910 - 1913 p. 121 - 126.

وعقب الاتفاق كلفت لجنة مشتركة بتحديد الحدود على الطبيعة. وقد عرضت نتائج أعمال هذه اللجنة التي ختمت أعمالها في الذهبيات يوم ١٣ فبراير ١٩١١ في تقرير باللغة العربية محفوظ ضمن وثائق دار المحفوظات لطرابلس، وقد نشر في اللغة الإيطالية بترجمة رابكس:

R. Rapex (Resultato dei lavori ecc) Tripoli 1913.

الـواقعة عنـد الطرف الأقصى من الحـدود الجنوبيـة. وسوف نـوضح ذلـك فيـما بعد(٧٣).

أما بخصوص التغلغل في إفريقيـا فقد كـانت تركيـا تتوفـر على مـركزين متقدمين هامين، همـا: مرزق وغـدامس. ويمثلان أحسن المـواقع لتـأدية المهمـة كمركزي إشعاع للنفوذ السيـاسي والتجاري، في تلك العهـود التي كانت تتخـذ قوافل السودان، من طرابلس، نقطة انطلاق ومحـطة رئيسية. ولم يفـطن الأتراك بسرعة، أو لم يعرفوا طريقـة استغلال هـذه الميزة التي يـوفرهـا لهم هذا الـوضع

(٧٣) أعيد تحديد الحدود الليبية الغربية طبقاً لـلاتفاق الإيـطالي الفرنسي الـذي أبرم في ١٢ سبتمـبر ١٩١٩ (أنظر النص لدى روارد دي كارد):

E. Rouard de Card, Traités ecc, Supplément - 1914 - 1915 p.78. 79.

وبمقتضى ذلك الاتفاق فقد أجريت تعديلات طفيفة على الحدود الممتدة من غـدامس إلى غات لصالح إيطاليا، كما اعترف أيضاً لإيطاليا بالسيادة على البركات وفـوات الواقعتـين إلى الجنوب وإلى الغرب من غات. وظلت جانيت تابعة لفرنسا. أما بخصـوص الحدود الجنـوبية فقـد تم تحديد القسم الممتد من غات حتى جبال تومو، ولم يتم الاتفاق على المسافة التي تمتد من جبـال تومو حتى التقاء الحدود مع السودان (الأنجلو مصري). أنظر:

T. Tittoni (Il confine meridionale della Libya in (Gerarchia) luglio 1927 e in (Questioni del giorno, Milano 1928).

R. Cantalupo (L'Italia Musulmana) Roma 1928 p.253 - 272.

G. Massi (Per le frontière meridionali della Libia in l'Oltremare), feblrairo 1929 p. 80 - 82.

أما بخصوص وجهة النظر التي تبنتها الصحافة الاستعمارية الفرنسية، فانظر:

L'Arique Française, 1928 p. 500 - 503.

أنـظر أيضاً البحث المستفيض الشـامل الـذي أحاط بـالموضـوع وقد كتبـه سـالفـاتي بعنـوان: الصحراء الشرقية وحدود ليبيا ونشره بمجلة بوليتيكا:

C. Salvati (Il Sahara Orientale ei confini della Libya) Politica, vol XXXVI - 1926 p.118 - 142, 352 - 377.

مع بيلوغرافية شاملة للموضوع، ثم نشره في كتاب صغير بعنوان:

Italia e **Francia**, nel Sahara - Roma 1929.

أنظر أيضاً بترانياني في كتابه الصحراء الطرابلسية:

E. Petregnani (Il Sahara Tripolino) Roma 1929 - p. 227

H. Barth, Voyages et découverts dans l'Afrique, Paris 1861, VI, p. 186.

الممتاز. وهكذا ظلت تلك المراكز الداخلية، لفترات طويلة، عديمة الأهمية، لولا بعض الحركات التجارية النادرة وتجارة الرقيق.

وعلى الرغم من المرسوم السلطاني الصادر في ١٨٥٣ بمنع تجارة الرقيق، والغاء النخاسة، فلم تكن السلطات التركية لتملك القدرة للقضاء عليها. ولم تستطع أن تجد لها بديلاً في الحركة التجارية التي كان من شأنها أن تعيد تجارة القوافل إلى سابق ازدهارها.

ويلاحظ الرحالة (هنريك بارث)(٧٤) الذي قام برحلة في دواخل طرابلس الغرب وإفريقيا الوسطى بين ١٨٤٩ ـ ١٨٥٥ أن جبال تجرحي وتوموتكوّن (الحد المتصور بين فزان وبلاد التبو المستقلتين). ومع ذلك فيجب أن نقبل بأن الحكومة التركية قد اهتمت بشكل ما بالجنوب الطرابلسي (الهنترلاند) لأسباب سياسية وتجارية مختلفة، وكذلك بالمصالح التي كانت تجذب إلى تلك المناطق تجار الرقيق.

وقد قام الوالي أحمد عزت باشا في عام ١٢٧٥ هـ (١٨٥٨ ـ ١٨٥٩) بأولى خطوات التوغل في جنوبي فزان باسطاً الحماية العثمانية على جبال تبستي. وكان هذا الإجراء الذي استقيناه من مصدر تركي، يحمل معنى النزوع السياسي دون أن تتبعه نتائج محسوسة(٧٥). ذلك لأن الرحالة الألماني نختجال الذي كان موجوداً بفزان في ١٨٦٩ محاولاً القيام برحلة جريئة إلى التبستي، يشير إلى أن سكان فزان الجنوبية ينظرون إلى سكان تبستي كجزء منهم. ولكنه لا يشير في الوقت نفسه إلى أية سيادة أو حماية فعلية للأتراك على تلك المنطقة. وطبقاً لما يراه نختجال فإن منطقة القطرون الجنوبية النائية تتضمن (باكهكي Bakhkhi) ومدروسة وتجرحي. وكانت السيادة التركية على غات أكثر وضوحاً ورسوخاً. ففي سنة ١٨٤٩ بعث أهالي تلك المنطقة إلى الوالي بطرابلس (مضبطة) جماعية يطلبون فيها من تركيا تعيين قائد وقاض(٧٦). ولم يلق الطلب استجابة من

---

(٧٤) Reiseu and Entdeckungen, Gotha 1857 - 58, 111 p. 58.

(٧٥) ناجي ونوري (طرابلس الغرب) اسطانبول ١٩١٢ ص ١٦٥ الهامش رقم ٢.

(٧٦) المحفوظات التركية بطرابلس، مجلد ١ من محاضر مجلس الإدارة.

السلطات التركية القائمة آنذاك. وبعد ذلك بستة وعشرين عاماً تهيات الفرصة للأتراك لكي يبسطوا سيطرتهم على تلك الواحة. وقد أحسنوا استغلال الفرصة، في هذه المرة.

وكان قد نشب نزاع بين طوارق أزقر وطوارق هوجار، فتدخل والي طرابلس مصطفى عاصم باشا[٧٧]، بقوات عسكرية (فبراير ١٨٧٥) إلى جانب الشيخ محمد صافي الذي عينه قائمقاماً على غات، ومنح لقب باشا. وانتقل الوالي بنفسه إلى غدامس. وتمكن من مراقبة تطور الأحداث، ودرس إمكانية التغلغل العثماني في السودان. في الوقت الذي اتخذت فيه حكومة الآستانة الإجراء بتنحيته عن الولاية، ونقله إلى اليمن، ولكنه عرض مشروعه على الحكومة المركزية، وبعث بتقاريره في الخصوص، قبل أن يغادر مهام منصبه بطرابلس، فكان نصيبها الإهمال[٧٨].

ووجدت خطة مصطفى عاصم باشا منفذاً متحمساً في شخص مصطفى فائق باشا متصرف فزان. فأنشأ في سنة ١٨٧٩ قضائين جديدين بفزان، قضاء لطوارق أزقر، والآخر لتبو رشادة في التبستي، ومركزهما (جانيت) و(برداي)[٧٩]. وإلى الجنوب من ذلك كان النفوذ العثماني واهياً مقتصراً على تبادل المجاملات والسفارات. وفي سنة ١٨٦٩ بعث السلطان عبد العزيز بواسطة الوالي علي رضا باشا هدية إلى سلطان بورنو مكونة من سيف شرقي ومصحف مخطوط[٨٠].

---

(٧٧) محفوظات قنصلية إيطاليا. رسالة بتاريخ ٣ ـ ١٠ ـ ١٨٧٥.

(٧٨) ناجي ونوري (نفس المصدر) ص ١٦٥ هامش رقم ١. وبخصوص احتلال غات انظر (حوليات) فيرود ص ٥٢٦ ـ ٤٢٨ وكذلك:

Kraus (La Citta di Chat) in, Pionieri Italiani in Libia p. 94 - 96.

(٧٩) ناجي ونوري ص ١٦٦.

(٨٠) فيرود ص ٤٢٦.

توجد في مكتبة (ملّة كتبخانجي) باسطانبول في إحدى الأقسام الخاصة بالخطوط مخطوطة رسالة بالخط المغربي موجهة من حاكم زندر إلى والي طرابلس، ولا تحمل سوى تاريخ اليوم والشهر الذي أرسلت فيه مع إغفال السنة التي يقع فيها هذا الشهر. ويمكن ردها إلى سنة ١٨٧٠ =

وحوالي ١٨٨٠ أخذت المطامع التركية في إفريقيا الوسطى تصطدم بالمصالح والمطامع الفرنسية. فبعد المذبحة التي وقعت لبعثة (فلاترس P. F. Flatters) سنة ١٨٨١، لجأ طوارق هوجار المتورطون في هذه المذبحة، إلى قائمقام غدامس، ملحين على مساعدة حكومة الآستانة لهم على الكفار المستغلين. ولكن الوالي بطرابلس رفض أن يقدم إليهم أي ضمان. ومن الثابت أن ذلك كان بناء على تحذير صادر إليه من الباب العالي. بل إن الوالي قام بتسليم رسالة من زعيم الطوارق إلى القنصل الفرنسي بطرابلس (فيرود) في الوقت الذي أجابهم سلطان المغرب الذي يدعي حق السيادة على بلدان الصحراء الوسطى (توات وتيديكلت) برد مشجع.

وكانت تركيا تدرك بصفة جدية نوايا فرنسا الجادة في التوسع في الصحراء. وقد اتخذت في البداية موقفاً مهادناً إزاء المطامع الفرنسية بينما أراد الوالي محمد نظيف باشا في ١٨٨١ التمسك بالنتائج التي أمكن تحقيقها، حتى ذلك الوقت. وذلك بارسال حامية إلى التبستي. ولكن خليفته، أحمد راسم باشا الذي وصل إلى طرابلس في أكتوبر ١٨٨١ عزل متصرف فزان النشط (مصطفى فائق باشا) ولامه (على تبذير المال في سبيل طموحه والجري وراء مشروعات خيالية بحجة إخضاع السودان كله مقابل صرف مرتبات للزعماء)[٨١].

وتلت ذلك أعوام من الركود. وفي ديسمبر ١٨٨٦ وقع حادث مؤلم أثر في التغلغل التركي في الدواخل. إذ قام بعض الطوارق المتمردين بقتل حامية غات، بقيادة الكابتن جعفر أفندي. وفي مايو من العام التالي أقيمت حامية جديدة في غات التي تجدد احتلالها[٨٢]. وكان الوضع ما يزال مساعداً ومهيأً

تقريباً. وقد كتبت في عربية سيئة وهي تتحدث عن الرغبة التي حملها الشريف محمد قنابة إلى سلطان زندر في الحصول على بعض العبيد الخصيان (طواشي) وزرافة. وقد أرسل إليه خصياً وخمسة جلود نمر ووعد بإرسال الزرافة.

وأسرة قنابة معروفة بطرابلس ومصراتة وكانت تمارس تجارة القوافل مع السودان.

(أنظر الترجمة الإيطالية لهذه الترجمة في الهامش رقم ٩٥ من صفحة ٣٣٩ من أصل الكتاب).

(٨١) ناجي ونوري ص ١٦٦.

(٨٢) ناجي ونوري ص ١٦٦.

لتأكيد السيادة التركية على المواقع الداخلية من فزان وبحيرة تشاد. وكان من شأن السياسة الإسلامية التي تبناها السلطان عبد الحميد الثاني أن تسهل التوغل في تلك البلدان المسلمة. ولم يكن يلزم لذلك سوى أن تتوفر للإمبراطورية العثمانية حرية الحركة والسياسة الثابتة، الأمر الذي كانت تفتقر إليه تمام الافتقار. وصادف ضعف تركيا تجدد النشاط الاستعماري للدول الأوروبية الكبرى وانبعاثه، ولم تكن فرنسا تخفي خططها الرامية إلى الامتداد نحو الشرق، وتوسيع الجنوب الجزائري. والتونسي[٨٣].

ولكن المسؤولين السياسيين الأتراك لم يتخلوا عن تطلعهم الافريقي. يشهد بذلك كتيب صغير مجهول، عنوانه (أهمية طرابلس وبنغازي والصحراء الكبرى والسودان) من تأليف العقيد عمر صبحي. وقد قدمه إلى السلطان عبد الحميد الثاني في شهر مايو ١٨٨٨، ثم قدمه إلى المطابع التركية، بعد عامين من ذلك. فطبع في الآستانة سنة ١٨٩٠[٨٤]. وقد درس المؤلف الأوضاع الجغرافية والأحوال الاقتصادية والحدود والتقسيمات الإدارية لولاية طرابلس الغرب وبنغازي وأراضي الصحراء الكبرى والسودان، ونوه بأهمية طرابلس وبنغازي كقاعدتين للتجارة مع دواخل افريقيا. وكان يراهما (مركزين لكافة عمليات التأثير الحضاري التي يمكن توجيهها في المستقبل إلى إفريقيا الوسطى) ويرى المؤلف أن المقاطعات التي تهم السياسة التركية هي الصحراء الوسطى الشرقية من توات إلى كاوار والتبستي وبوركو. وفي الوقت الذي كانت فيه تركيا مكتفية بتقدير أهمية الصحراء والسودان، كانت فرنسا وإنجلترا قد اتفقتا على اقتسامها في اجتماعات ٥ أغسطس ١٨٩٠. وقد فزعت الحكومة التركية من

---

(٨٣) ينصح Bissuel في كتابه المذكور ص ١٣ الحكومة التركية بتقديم تنازلات إلى فرنسا في خصوص الصحراء مقابل العون الفرنسي ضد المطامع الإيطالية وتدمير السنوسة التي كانت تثير كثيراً من المضايقات للحكومة التركية.

(٨٤) إنه كتيب صغير يقع في حوالي ٨٨ صفحة. كان بالمكتبة الإمبراطورية بقصر يلدز التي نقلت في سنة ١٩٢٥ إلى مقر جامعة اسطانبول. وقد أتيح لي أن أراجعه في ربيع سنة ١٩٢٥ وأتصفح الطبعة المجلدة تجليداً أنيقاً والمزودة بأوراق القيادة التركية العليا التي لا توجد بالطبعة التجارية وقد قدمها مؤلفها هدية إلى السلطان مع رسالة تقديم من سر عسكر علي سعيد باشا.

التهديد الذي كانت تراه موجهاً إلى الأراضي التي كانت تدعي حق السيادة عليها، ورأت من المناسب أن تجدد حقوقها في إفريقيا، فأرسلت إلى ممثليها في باريس ولندن المذكرة المشهورة بتاريخ ٣٠ أكتوبر ١٩٨٠ التي تعلن فيها(٨٥): (أن القسم الجنوبي من طرابلس الغرب، المتاخم للصحراء الكبرى، بالإضافة إلى مقاطعات غدامس وغات وأزقر وطوارق ومرزق (مركز فزان) والقطرون وتجرحي وتوابعها التي تدار كلها من قبل السلطة الإمبراطورية العثمانية، ينبغي أن تكون كلها مشمولة بحقوق السيادة العثمانية طبقاً للأعراف القديمة ولاتفاقيات (الهنترلاند). وتنطلق حدود هذه المنطقة بالقرب من الحدود الجنوبية التونسية. في النقطة المعروفة باسم بئر التركي إلى الشمال الشرقي من (Berresoh) وتنحدر نحو بورنو، مارة شرقي غدامس وطوارق أزقر، متضمنة واحة قبابو Djebabo وعقرم Agram وتمر بشمال الكاميرون. ومنها تتبع الخط الفاصل بين حوض الكونغو والتشاد بحيث تتضمن داخلها مناطق بورنو وباقرمي ووادي وكانم وأونيانغا وبوركو والتبستي تاركة ضمن سيطرتنا طريق القوافل الكبيرة التي تنطلق من مرزق إلى كوكا عبر واحات (ياح وكاوار وأوغادن).

ولكن المذكرة التركية لم تمنع فرنسا في سنة ١٨٩٤ من الحصول على حرية التصرف في افريقيا الوسطى. أولاً، باتفاقية ١٨٩٤ مع دولة الكونغو البلجيكي، ثم بمقتضى الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية التي جاءت بعد حادثة (فاشودة). ومهدت لذلك ببعثات دراسية واكتشافية واستطلاعات عسكرية، وأخذت فرنسا تزحف نحو مناطق بحيرة تشاد، وظلت مذكرة الاحتجاج التركية صيغة جوفاء في نظر فرنسا وإنجلترا، رغم أنهما قد تعهدتا في اتفاقية ٥ أغسطس

---

(٨٥) ورد نص الاتفاق الفرنسي الإنجليزي بتاريخ ٥ أغسطس ١٨٩٠ والمذكرة التركية بتاريخ ٣٠ أكتوبر ١٨٩٠ في كتاب:

Trattati, Convenzioni ecc. relativi all' Africa (1852 - 1906) Roma, 1906, vol 1 ,p.300 - 304.

وكذلك:

C. Salvati (Italia e la Francia nel Sahara orientale) Roma 1929 p.32 - 33.

١٨٩٠ باحترام الحقوق التي يمكن أن تكون لتركيا في الحدود الجنوبية لسيادتها على طرابلس الغرب.

وكما بين أحد المشرعين الإيطاليين(٨٦) فإن ما حدث من اقتسام مناطق النفوذ حول بحيرة تشاد، قد شكل مثلاً فريداً على عدم ملاءمة التأكيد لحقوق السيادة على بلدان لم تباشر حتى الخطوات الأولى لاحتلالها.

لقد تحدثنا عن أهمية العمل الذي قامت به الطريقة السنوسية في الأقاليم المجاورة لإفريقيا الوسطى. وكانت السنوسية قد استقرت ببرقة منذ سنة ١٨٩٠ ونقلت مركزها الرئيسي إلى الجغبوب في سنة ١٨٥٦ ومن هناك امتدت فروعها في فزان والتبستي وإفريقيا الوسطى. كما ساعد نقلها لمركزها إلى الكفرة في سنة ١٨٩٥ على عملياتها في الجنوب. ولم تكن الحكومة التركية تجهل النشاط السنوسي أو تغفل عنه. وإن كانت العلاقات بين تركيا والسنوسية غير واضحة. وكان يوجد بلا ريب شيء من العداء يضمره السنوسيون للأتراك الذين وضعهم ابن مؤسس السنوسية في صف واحد مع الكفار. ولكن من الحق أن يقال إن الأتراك قد سمحوا للسنوسيين بسلطة ذاتية واسعة حتى إنهم أذنوا بتأسيس دولة شبه مستقلة، محاولين الاستفادة من أعمالها وتحويلها لصالح دعوتهم الإسلامية في مواجهة التهديد بالزحف الفرنسي.

وكان عظم زادة صادق باشا المؤيد، من الشخصيات التي ظفرت بثقة السلطان عبد الحميد الثاني(٨٧). وقد أرسل في سنة ١٨٨٦ في بعثة إلى الجغبوب لدى السيد محمد المهدي، كما أوفد في نهاية سنة ١٨٩٥ إلى السيد ذاته في مقره الجديد بالكفرة. وقد غادر الآستانة في أكتوبر ١٨٩٥ متوجهاً إلى بنغازي تصحبه حراسة مؤلفة من أربعة جنود، واتخذ طريقه إلى جالو، ومنها إلى الكفرة التي وصلها في ٧ نوفمبر ١٨٩٥، وأقام بها عدة أيام للتباحث والتفاوض مع زعيم

---

(٨٦) **Il Catellani** in (L'Africa Nuova e il diritto publico africano) Rivista di Sociologia 1907، Rivista Coloniale 1911 p .3 - 9.

(٨٧) **H. Bissuel:** (Le Sahara français) Alger 1891 p.67.

السنوسية. وعاد إلى بنغازي في أوائل ديسمبر من العام نفسه، ماراً بجالو. وقد روى صادق باشا رحلته في سلسلة من المقالات التي نشرها بالمجلة التركية (معلومات). وترجمت هذه المقالات إلى العربية ونشرت في الآستانة بعنوان: (رحلة صاحب السعادة عظم زاده صادق المؤيد إلى صحراء إفريقيا الوسطى)[88] ولا يصرح المؤلف بغايته من الرحلة[89]، ولا ينقل إلينا المحادثات التي جرت مع الشيخ السنوسي، ولكنه يذكر فقط أن هذا الشيخ قد سلمه رسالة إلى السلطان. ويذكر التأثر الذي سرى إلى نفسه عند صلاة الجمعة في الكفرة وسماعه للدعاء باسم السلطان في الخطبة. أما التقرير عن الرحلة الذي يستحق الترجمة فهو هام لما تضمنه من معلومات عن الكفرة وجالو وأوجلة والجغبوب، وهو يظهر اهتمام الأتراك بالبلدان الجنوبية من طرابلس الغرب. ويشير إلى العلاقات بين متصرف بنغازي وسلطان الواداي ويقول إنها حسنة، وأن السكان متعلقون - بصفة عامة - بالخليفة الأعظم عبد الحميد.

واستمرت فرنسا في تنفيذ خطتها في إقليم تشاد، وأمكنها أن تفتت مقاومة الأهالي التي أثارتها الدعوات السنوسية. ويبدو قلق الأتراك من النشاط الفرنسي من خلال الوثائق المحفوظة بطرابلس. ففي ٩ سبتمبر ١٩٠٠ كتب محمود بك، متصرف فزان، إلى الوالي بطرابلس يبلغه باحتلال الفرنسيين لمنطقة توات. ويشير إلى التحركات الفرنسية الرامية إلى الاستيلاء على بورنو والتبستي وملاحاتها. ويقترح المتصرف احتلال إقليم التبو (التبستي) عسكرياً. ويلاحظ أن قبائل التبو تتألف من القبائل المعروفة باسم كوار ورشادة التي يمكن إدخالها بسرعة تحت الإدارة العثمانية بتكوين قضائين مختلفين. وينصح ببناء ثكنة محصنة

---

(٨٨) مطبعة طاهر بك ١٣١٨ (١٩٠٢) ٦٨ صفحة.

(٨٩) انظر المراجع التالية:

H. Duveyrier La Confrérie musulmane de Sidi Moh. ben Ali es Senousi) Roma 1918.

Zàuiie e lchuan senussiti della Tripolitania Tripoli 1917,

Carlo Ciglio (La confraternita senussita dalle sue Origini ad oggi **Padova** 1932.

C. A. Nallino, Raccolta di scriti editi e inediti, vol II Roma 1950 p. 384. 410.

وإرسال حامية عسكرية نظامية، بقيادة رائد من القيادة العامة[٩٠].

وفي سنة ١٩٠٢ أبدت الصحافة الفرنسية تأثرها من الأنباء التي ترددت عن تصميم الأتراك على تنفيذ برنامجهم التوسعي في إفريقيا، وقيامهم بزيادة الإمكانيات العسكرية في طرابلس الغرب، وتدعيم استحكامات غدامس ومرزق وغات، وإرسال قوات إلى بيلما (كاوار). وقد اكتسب الخبر الأخير طابعاً خاصاً من الخطورة، إذ أشارت الأنباء إلى توجيه ألف جندي تركي لاحتلال تلك المقاطعة. وقد نفت السلطات التركية هذه الأخبار التي لم تكن كلها عارية عن الصحة[٩١]. وفي سنة ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ وجهت حملة تركية إلى (بيلما) وتصرف الفرنسيون تصرفاً حازماً جاداً، فتوغلوا بزحفهم سنة ١٩٠٣ حتى بلدة (أغادس). وفي سنة ١٩٠٦ احتلوا (بيلما)[٩٢] نفسها التي ضمت إلى الإقليم العسكري بالنيجر، بمرسوم صادر في ١٨ يناير ١٩٠٧ من الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية.

ولم يبق سوى إقليم التبستي خارجاً عن احتلال الفرنسيين. وقد قام الأتراك في سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٦) بإنشاء قضاء بتبو رشادة ومقره (برداي)[٩٣]، ويعود الفضل في هذا العمل إلى الوالي الحازم رجب باشا الذي استدعى إلى مرزق زعيم تبو رشادة (ماينا سافامي) وعامله معاملة طيبة، ودفع له المتأخر من مرتباته الشهرية المقررة له من قديم، ومقدارها ٢٥٠ قرشاً شهرياً، وأرسله بالعلم التركي إلى برداي يرافقه حارسان.

---

(٩٠) المحفوظات التركية لطرابلس.

(٩١) Afrique française, 1902 p 140 - 1903 p. 292.

F. Rouard De Card (La politique française à l'egard de la Tripolitaine) Paris - Toluose 1906.

وللمؤلف أيضاً:

La France et la Turquie dans le Sahara Oriental - Paris 1911.

(٩٢) ناجي ونوري ص ١٧٥.

(٩٣) ناجي ونوري ص ١٧٦.

ويبدو من عدة قرائن مختلفة أن الأتراك قد حاولوا في الأعوام العشرة الأخيرة من حكمهم وسيادتهم على ليبيا، مضاعفة جهودهم للتوغل في إفريقيا. وفي سنة ١٩٠٦ غادر طرابلس متجهاً إلى غات الكابتن عبد القادر جامي بك ليتولى قيادة الحامية بها(٩٤). وكان ضابطاً مساعداً لرجب باشا. ولم تغب عن الصحافة الفرنسية، أهمية هذه البعثة العسكرية السياسية لهذا الضابط. وهي البعثة التي تعبر عن الرغبة في بذل نشاط أقوى وأكبر لبسط النفوذ التركي بين طوارق أزقر إلى الغرب وإلى الجنوب من غات(٩٥).

وفي نفس السنة اتفقت فرنسا وتركيا اتفاقاً سرياً على الاحتفاظ بالوضع القائم في الإقليم إلى حين إجراء مباحثات أخرى. إلا أن النزاع كان يثور من حين إلى آخر بسبب الغارات المتبادلة على المنطقة التي لم يتم تحديدها. وفي سنة ١٩٠٨ قامت فرقة فرنسية بإنزال العلم العثماني(٩٦)، في جانيت، وتردد من جديد في سنة ١٩١٠ ـ ١٩١١ القول باعتزام تركيا احتلال جانيت التي كانت تركيا تعلن حق السيادة عليها بما لا يقبل التشكيك أو النزاع. وقد فكرت الحكومة التركية فعلاً في الاحتلال الفعلي والدائم لإقليم (التبستي)(٩٧). وفي رسالة باللغة التركية، مؤرخة في ٢١ شباط (٦ مارس ١٩٠٨) موجهة إلى متصرف فزان، بلا توقيع تقترح إنشاء ناحية في المنطقة الشرقية من التبستي، وإسناد منصب المدير إلى الزعيم (ماينا كامتي) بمرتب قدره ٢٠٠ قرش شهرياً على أن تكون تابعة لقضاء تبو رشادة الذي سيتقاضى القائمقام به زيادة في مرتبه ترفعه من مئتي قرش إلى خمسمائة قرش شهرياً. وكان الغرض من ذلك الإجراء الاحتفاظ بخضوع (المماينا كامتي) الذي كان يثير

---

(٩٤) رحلة جامي بك ـ الآستانة ١٩١١.

(٩٥) Afrique Française 1908 p. 238 - 240.

(٩٦) في المحفوظات التركية بطرابلس برقية موجهة من متصرف فزان رامي بك إلى والي طرابلس بتاريخ ١٨ تموز ١٣٢٥ (٣١ ـ ٧ ـ ١٩٠٩) تخبره بقيام الفرنسيين باحتلال ناحية جانت بقوة تتألف من مئتين من (المهاري) ومدفعين ولم تواجه القوة الفرنسية أية مقاومة.

(٩٧) احتل الفرنسيون جانت في ١٩١٣.

الاضطرابات في التبستي بغزواته المستمرة. وقد نشأ عن هذه الاضطرابات تحويل طريق القوافل المتجهة من الوادي نحو الشمال بحيث تجنبت التبستي لتتابع طريقاً أطول وخالية من المياه. وهي طريق (جيرو - كفرة - بنغازي) وتتضمن الرسالة أيضاً الاقتراح بإنشاء حامية تركية في برداي قوامها خمسون جندياً نظامياً، وأن تخصص الضرائب التي تجبى من القوافل لمواجهة نفقات إنشاء ثكنة (كشلة) ومقر إقامة (كوناك).

وتختتم الرسالة بهذه الطريقة:

(إن الاحتلال الثابت لإقليم التبستي سيخلق انطباعاً ممتازاً في البلدان الإسلامية مثل باقرمي والواداي اللتين لم تقبلا بالاحتلال الفرنسي كما سيكون مفيداً للمصالح العثمانية)[٩٨].

وفعلاً، قررت حكومة طرابلس احتلال التبستي بصفة دائمة ثابتة. وهو الإقليم الذي اعترف بالسيادة العثمانية عليه، منذ أكثر من نصف قرن، وإن كان ذلك بصفة غير محددة أو دائمة.

وقد قام متصرف فزان (سامي بك) بتعيين الكابتن الطبيب عثمان أفندي قائمقاماً على تبو رشادة، وأرسله في سنة ١٩٠٩ إلى برداي. وقد سافر عثمان أفندي صحبة أربعة من أفراد الجندرمة، والشيخ علي معروف، من علماء المسلمين بفزان. ونجح في الوصول إلى مقر عمله[٩٩]. واستطاع أن يحظى بمحبة الأهالي وتمكن بمعونة أحد الزعماء التبو من بسط السيطرة التركية على (بركو)، وأنشئت ثكنات في براداي وزوارة وكونت حامية قوامها ٣٥ من أفراد الجندرمة[١٠٠].

وكان الفرنسيون الذين سيطروا على (بيلما) في كاوار، يراقبون التحركات

---

(٩٨) المحفوظات التركية بطرابلس.

(٩٩) تمّت هذه البعثة حسب رأي سالفاتي في مايو ١٩١٠ (ص ١٣٠ - ١٣١) أما ناجي ونوري فيريان أن هذه البعثة قد تمّت في سنة ١٩٠٩.

(١٠٠) ناجي ونوري ص ١٧٦.

التركية. وفي شهر مارس من سنة ١٩٠١ كان الكابتن الفرنسي (كوتس Cottes) قد التقى في (يات Yat) على طريق القطرون ـ بيلما، بالملازم التركي عمر لطفي الذي كان متجهاً إلى بيلما بقافلة صغيرة، مزوداً بجواز مرور من متصرف فزان. فأرغمه على العودة من حيث أتى. وانتقدت الصحافة الفرنسية الاستعمارية، في ذلك الوقت، تصرف السلطات التركية، واحتجت على خرق الإقليم الذي تعتبره فرنسا خاضعاً لنفوذها(١٠١).

وفي أغسطس ١٩١١ رفع الكابتن (أحمد رفقي) العلم العثماني في عين كلاك أو قلاكّة (Ain Kalak o Galakka) مركز بوركو. وأبدت السلطات الفرنسية في تشاد تحفظها إزاء هذا الإجراء، ولكنها احتفظت بعلاقات ودية مع الضابط التركي(١٠٢).

وكان من المقرر أن تجتمع في خريف ١٩١١، بطرابلس، لجنة مشتركة، لتحديد الحدود الجنوبية لطرابلس الغرب، في اتجاه الصحراء الفرنسية. إلا أن الاجتماع لم يتم، نتيجة وقوع الاحتلال الإيطالي(١٠٣).

وفي سنة ١٩١٢، وبعد إبرام الصلح بين تركيا وإيطاليا، قامت آخر الوحدات التركية بمغادرة بوركو والتبستي التي احتلتها القوات الفرنسية في سنتي ١٩١٣ ـ ١٩١٤.

وبتخلي تركيا نهائياً عن مصر، بحكم نصوص معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣، خرجت تركيا بصفة نهائية من إفريقيا حيث استطاعت منذ القرن السادس عشر أن تبسط نفوذاً واسعاً، عليها، مستفيدة من ظروف تاريخية

---

(١٠١) La France et la Turquie en Afrique (Afrique Française) 1910. p. 290 - 291.
R. De Caix (La question du Tibesti).
Afrique Française 1911 p. 88 - 90.

(١٠٢) **Largeau.** La situation du territoire Militaire du Tchad au début de 1912, Paris 1913 p. 21.

(١٠٣) **M. Courtier** (Les Turcs en Afrique Centrale. La frontière franco - Tripolitaine) in Afrique Française 1911 p. 320 - 328.

معينة، ومن الوحدة الدينية. وفي طرابلس التي امتدت سيطرة الأتراك عليها أكثر من أي مكان آخر، ترك الأتراك أثراً في أسماء بعض المواقع القليلة مثل (العزيزية) وبعض الكلمات التي أخذت في الزوال، خاصة في الاصطلاحات العسكرية، وبعض الأعمال القليلة ذات النفع العام. ومن الناحية الاجتماعية كان لوجود الأتراك، وبعض الأجناس الشرقية، بعض التأثير في السلالات البشرية، خاصة في مدينة طرابلس والساحل. ولكنه لم يكن أكبر من ذلك التأثير الذي أحدثه الامتزاج بالرقيق. والتأثيران في طريقهما إلى الزوال.

٩ ـ آخر الولاة الأتراك:

كان اهتمام آخر الولاة الأتراك ـ كما رأينا ـ موجهاً بصفة خاصة، إلى عرقلة التدخل الأجنبي في طرابلس الغرب وبرقة، وحماية الحدود، إلى أبعد حد ممكن، من التغلغل الأنجلو مصري في الشرق، والفرنسي في الغرب والجنوب. وعرقلة التغلغل السلمي الإيطالي بكل الطرق.

وحاول الولاة أن يرفعوا في الأهالي روح التضامن ضد الكفار. وأمكنهم أن يحققوا بعض النتائج التي كان يفسدها ويخل بها التذمر من فرض الضرائب والتجنيد الإجباري.

وفي سنة ١٨٣٥ أعفت تركيا أهالي القبائل من بعض الضرائب مقابل تزويدها الجيش بالعناصر المعروفة باسم (القولوغلية). وشملت هذه الخدمة التطوعية في سنة ١٨٦٦ ورشفانة. وفي سنة ١٨٨٠ المحاميد، وفي سنة ١٨٨٧ قبائل الشاطىء[١٠٤]. وفي سنة ١٩٠١ رغبت الحكومة في فرض التجنيد الإجباري، فوقعت مظاهرات واضطرابات. وقامت الحكومة، بموجب إجراء اتخذته في سنة ١٩٠١، بإلغاء القولوغلية، والامتيازات المقررة لها، وفرضت

---

(١٠٤) Kemali (Documenti inediti. Sulla caduta dei Caramanli) Riv. Col. Italiane 1930 p. 7.

قام بتعريبها ونشرها الأستاذ محمد بازامة.

التجنيد الإجباري فوقعت في أوائل ديسمبر من تلك السنة بعض الاضطرابات في صفوف الجيش التركي، وقتل ستة أشخاص أو سبعة، وجرح آخرون(١٠٥).

ولم يستقبل الشعب في طرابلس، بارتياح، ثورة جمعية الاتحاد والترقي في سنة ١٩٠٨. إذ كان التعلق الروحي بالسلطان، ومعارضة التجديد، قد خلقا في النفوس حالة مضادة للحركات الثورية حتى ولو برزت باسم الحرية والعدالة والمساواة. وأثار الإعلان عن الحكم الجديد اضطرابات شعبية في طرابلس، كان فيها لحسونة باشا القرمانللي دور الزعامة المهدئة(١٠٦).

كان الوالي حنيذاك رجب باشا، وهو أحد زعماء تركيا الفتاة، وقد عين وزيراً للحربية في الحكومة الجديدة، وغادر طرابلس إلى العاصمة العثمانية فوق الباخرة (سلانيك) واستقبل في الآستانة استقبال الظافرين، ولكنه لم يلبث سوى مدة قليلة في المنصب، حتى توفي فجأة في ١٦ أغسطس ١٩٠٨ في مكتبه.

وقد خلفه على الولاية في طرابلس أمير اللواء محمد علي سامي باشا، وهو رجل عسكري بعيد عن الشؤون السياسية. ثم جاء بعده فوزي باشا، ثم حسن حسني باشا ثم إبراهيم أدهم باشا الذي عرف بعرقلة الجهود والمبادرات الإيطالية. وقد سافر في ١٩١١، وقام بأعمال الوالي الدفتردار أحمد بسيم بك. وتم نزول القوات الإيطالية أثناء قيامه بأعباء الولاية.

١٠ ـ الأوضاع الاقتصادية في طرابلس الغرب من سنة ١٨٦٠ حتى سنة ١٩١١

لقد عرف النشاط التجاري بطرابلس حركة انبعاث مبشرة بالخير، بعد السيطرة التركية التامة على الدواخل، خلال الفترة بين ١٨٦٠ ـ ١٨٨٠ تقريباً إذ قفزت الواردات إلى ميناء طرابلس من ٦,٤٨١,٠٠٠ ليرة إيطالية إلى ١٥,٧٤٠,٧٩٥ ليرة إيطالية في سنة ١٨٧٩. وقفزت الصادرات في نفس الفترة

(١٠٥) La Libya negli alti del Parlaments - Camera dei Deputati 14 Dicembre 1901.

(١٠٦) N. Slousch (Le nouveau régime Turc et Tripoli (III) Revue du Monde Musulman VI n IX 1908 p. 56.

من ٦,٩٣٧,٠٠٠ ليرة إلى ١١,٩٣٠,٣٧١ ليرة. ونال تصدير الحلفاء من هذه الأرقام مبلغاً محترماً. وفي سنة ١٨٨١ أنشأت دار (أربيب) وشركاؤها في لندن مكبساً آلياً للحلفاء[١٠٧].

ولكن العامين الواقعين بين ١٨٨٦ - ١٨٨٧ يمثلان كارثة بالنسبة للاقتصاد الوطني، ففي سنة ١٨٨٦ بلغ مجموع الاستيراد ٣٠٩,٨٥٠ ليرة استرلينية. وكان في سنة ١٨٨٥ قد بلغ ٤٦٤,١٣٠. وبلغ التصدير في سنة ١٨٨٦ مبلغ ٢٣١,٠٠٠ ليرة استرلينية، في الوقت الذي كان في سنة ١٨٨٥ قد بلغ ٣٩١,٥٦٠.

وكانت ثلاثة أرباع الصادرات تقريباً تصدر إلى إنجلترا ومالطا. وكان خمس الواردات من إنجلترا، وأكثر من ربعها من تركيا. وحوالي تسع الواردات من إيطاليا وفرنسا وتونس.

واستمر الانهيار في سنة ١٨٨٧. وأغلقت المبادلات التجارية مع أسواق الحبوب في بورنو وواداي، أو قلت بشكل ملحوظ. وهبط تصدير ريش النعام من ٨٥٠٠٠ ليرة استرلينية في سنة ١٨٨٥ إلى ١٥ ألف ليرة استرلينية في سنة ١٨٨٧، ثم ارتفع إلى ٤٠ ألف ليرة استرلينية في سنة ١٨٨٨ و٢٥ ألف ليرة في سنة ١٨٩٠ و٤٨ ألف ليرة استرلينية في ١٨٩٤.

وظلت الحلفاء البضاعة الأولى في قائمة الصادرات، وقد صدر منها بقيمة استرلينية في:

١٨٨٥	٢٠٥,٠٩٠ ليرة استرلينية
١٨٨٨	٢١٢,٠٠٠
١٨٩٤	٩٣,٠٠٠

ويأتي في الدرجة الثانية ريش النعام والعاج. (١٢٤,٥٠٠ ليرة استرلينية

(١٠٧) محفوظات القنصلية الايطالية، رسالة بتاريخ ٣٠ - ١٠ - ١٨٧٧ ورسالة ١٨ - ٤ - ١٨٨٠ وبخصوص التجارة الطرابلسية في هذه الفترة انظر:

Bettoll: Tripoli artistica e commerciale 1882 in (Pioneri Italianni Libya) p. 125 - 154.

في عام ١٨٨٨ و٢٢ ألف ليرة استرلينية في عام ١٨٩٤) أما صيد الأسفنج فقد كانت نتائجه غير مستقرة (٧٤,٢٠٠ ليرة استرلينية في سنة ١٨٩٣).

وتبدو في المستوردات المنسوجات الفضية التي تكاد تستورد بصفة خاصة من إنجلترا. ولكن إنجلترا أخذت بعد سنة ١٨٩٠ تفقد هذه الأولوية بسبب مزاحمة البلدان الأخرى المنتجة لهذا النوع من البضاعة.

وقرب سنة ١٩٠٠، كانت أهم الصادرات الحلفاء والماشية والبيض والحنة والصوف والزيت والبقول. وقد بلغت الصادرات في سنة ١٩٠٠ مبلغاً إجمالياً قدره ٤١٨,٥٠٠ ليرة استرلينية منها (٩٩ ألف ليرة للحلفاء و٧٧,٥٠٠ ليرة للإسفنج و٥٨,٥٠٠ ليرة للجلود و٥٤,٥٠٠ لريش النعام وستة آلاف ليرة للعاج).

أما الصادرات فقد بلغت مجموعاً قدره ٤٤٩,٥٠٠ ليرة استرلينية وتتألف من:

دقيق ١٢٨٠٠٠ منسوجات بريطانية ٨٦٠٠٠ منسوجات من بلدان أخرى ٢١٠٠٠ تبغ ٢٠٠٠ سكر ٢٤٠٠٠ شاي ١٢٠٠٠.

وكانت حركة السفن في الميناء تسجل زيادة مطردة منذ سنة ١٨٩٠، وقد دخلت ميناء طرابلس في سنة ١٩٠٥ سبعمائة وثلاثون سفينة، حمولتها ٣٢٦,٥٧٠ طناً، منها ١٦٦ سفينة إيطالية، حمولتها ١٨٢,٦٨١ طناً. وخرج من الميناء ٧٣٦ سفينة بحمولة إجمالية قدرها ٣٢٩,٣٦٨ طناً منها ١٦٥ سفينة إيطالية بحمولة ١٨٢,٨٥٢ طناً. إذن لقد كانت الحمولة الإيطالية ضعف الحمولة الإنجليزية، وأربعة أضعاف الفرنسية. وكانت التجارة الإيطالية مع طرابلس تتمثل في الدقيق والمنسوجات القطنية وخيوط القطن والمنسوجات الحريرية والقهوة والحبال وأعواد الثقاب والأثاث والبترول والأواني الخزفية والورق. وقد ارتفع الاستيراد الإيطالي من ١,٣٠٠,٠٠٠ في سنة ١٩٠١ إلى ٢,٢٢٣,٠٠٠ في سنة ١٩٠٥[١٠٨].

---

(١٠٨) **E. Alemanni** (L. influenza economica dell. Italia nel Vilayet di Tripoli) in Esplor- = azione Commerciale 1906 p. 237 - 238.

وقد فقدت فـزان، في مستهل القـرن العشرين أهميتها التجـارية، بصفـة تكاد تكون كاملة، بعد إلغاء تجارة الرقيـق، وضعف الاهتمام بالبحث عن ريش النعام بسبب منافسة البلدان الأخرى، والأحداث السياسيـة التي غيرت الـوضع في المناطق المحيطة ببحيرة تشاد.

١١ ـ قائمة بـأسماء الـولاة العثمانيـين بطرابلس منـذ سنة ١٨٣٥ حتى سنة ١٩١١

مصطفى نجيب باشا	١٨٣٥
محمد (رائف) باشا	١٨٣٥ ـ ١٨٣٦
طاهر باشا	١٨٣٦ ـ ١٨٣٧
حسن باشا	١٨٣٧ ـ ١٨٣٨
عشقر علي باشا	١٨٣٨ ـ ١٨٤٢
محمد أمين باشا	١٨٤٢ ـ ١٨٤٧
محمد راغب باشا	١٨٤٧ ـ ١٨٤٨
أحمد عزت باشا	١٨٤٨ ـ ١٨٥٢
مصطفى نوري باشا	١٨٥٢ ـ ١٨٥٥
عثمان باشا	١٨٥٥ ـ ١٨٥٨
أحمد عزت باشا	١٨٥٨ ـ ١٨٦٠
محمود نديم باشا	١٨٦٠ ـ ١٨٦٧
علي رضا باشا	١٨٦٧ ـ ١٨٧٠
محمد حالت باشا	١٨٧٠ ـ ١٨٧١
محمد رشيد باشا	١٨٧١ ـ ١٨٧٢
علي رضا باشا (الولاية الثانية)	١٨٧٢ ـ ١٨٧٤
سامح باشا	١٨٧٤ ـ ١٨٧٥

=

Il commercio martino e commerciale di Tripoli nel 1904 in Boll. Soc. Geog. Ital. Serie IV Vol. V 1905 p. 970.

مصطفى عاصم باشا	١٨٧٥ - ١٨٧٦
مصطفى باشا	١٨٧٦ - ١٨٧٨
علي كمالي باشا	٢٩ يناير ١٨٧٨
محمد صبري باشا	١٣ أبريل ١٨٧٨
محمود جلال الدين باشا	١٨٧٨ - ١٨٧٩
أحمد عزت باشا (الولاية الثانية)	١٨٧٩ - ١٨٨٠
محمد نظيف باشا	١٨٨١ - ١٨٩٦
نامق باشا	١٨٩٦ - ١٨٩٨
هاشم باشا	١٨٩٩ - ١٩٠٠
حافظ محمد باشا	١٩٠٠ - ١٩٠٢
حسن حسني باشا	١٩٠٢ - ١٩٠٤
رجب باشا	١٩٠٤ - ١٩٠٨
أحمد فوزي وحسن حسني باشا	١٩٠٨ - ١٩١٠
ابراهيم أدهم باشا	١٩١٠ - ١٩١١
أحمد بسيم بك (قائماً بأعمال الوالي)	١٩١١

برقة

متصرف أول:	
صالح باشا	١٨٤٨
خليل باشا	١٨٦٣ - ١٨٦٨
علي كمالي	١٨٨٢
رشيد باشا	١٨٨٢ - ١٨٨٥
	١٨٨٩ - ١٨٩٣
طاهر باشا	١٨٩٣ - ١٨٩٤

استقيت هذه القائمة من النائب وناجي ونوري ومن محفوظات القناصل، ومن مصادر أخرى مختلفة بالنسبة للأعوام الأخيرة.

فهرس الأعلام

فهرس بأسماء المؤلفين الأجانب
الذين ورد ذكرهم في الكتاب

فهرس الفِرَق والجماعات والهيئات

الفهرس

الموضوع — الصفحة

القسم الأول
مدخل

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

القسم الثاني

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس
السيادة القرمانللية

الفصل السابع

القسم الثالث

الفصل الأول

الفصل الثاني